

آية الله السيد محمد تقي المدرسي

التشريع الإسلامي

مناهجه ومقاصده

الجزء التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين محمد المصطفى
وآله الأئمة الهداة وسلم.

وبعد:

منذ ثلاثة عقود من الزمن كانت لديّ فكرة وليدة ثبتها بفضل الله تعالى في
مقدمة الطبعة الأولى من كتابي الفقه الاسلامي، ثم لاحظت أن هناك فجوة بين
الفقه الذي بأيدينا وبين بصائر الوحي من القرآن والحديث، فعقدت العزم على
الأستمر في دراسة الفقه إلا بعد أن أتدبر في أي الذكر الحكيم، ولأتعرف
على القيم المثلى التي أرادها الله للبشرية والتي تشكل الأصول العامة لأحكام
الشريعة..

وهكذا وفقت لذلك وكتبت تدبراتي في كتاب من ١٨ جزء طبع تحت
عنوان (من هدى القرآن). ثم توكلت على الله سبحانه وبدأت بتأليف هذه
الموسوعة (التشريع الإسلامي) إعتماً على ما تراكت لديّ من معارف
قرآنية من خلال التدبر في آيات الذكر، بهدف استنباط الحكم البالغة التي هي
علل أحكام الشرع وقيمها وأهدافها، والتي هي - في ذات الوقت - الأصول
العامة للفقه التي لا بدّ من مراجعتها لاستنباط الأحكام الفرعية.

ومنذ ولادة الفكرة وإلى نضجها وتحققها خلال عقد من الزمان، وأنا
يحدوني أمل طموح في أن نجد فهمنا لأحكام الدين، إنطلاقاً من القرآن
والحديث وتطبيقها على معطيات العصر.. فهل وفتت؟
إني أدع الإجابة للآخرين، فهم أقدر على التقييم، ولكن الذي أستطيع
تسجيله هنا عدة ملاحظات:

١/ إن هذا المشروع كبير، وإنما يتحقق عبر لجان دراسات، وعبر نهضة
فقهيّة شاملة يقوم بها أساتذة الحوزة العلميّة.. وهذا ما أمل أن يتحقق ذلك
قريباً، خصوصاً وقد تشعبت حقول العلم، وازداد تعمق الأخصائيين فيها،
وانتشرت ظاهرة مراكز الدراسات في العالم، وتيسرت المصادر عبر
الأقراص المدمجة، وسهل الحصول على المعلومات عبر شبكات الانترنت.

٢/ في الأصل ينقسم هذا المشروع إلى قسمين رئيسيين؛ أحدهما يبحث عن
قيم الإيمان، بينما يبحث الثاني عن ركائز الكفر وما يتصل به من الشك
والشرك والفسوق وسائر الفواحش.. وكل قيمة إيمانية يقابلها ما يضادها من
فواحش الكفر. فالباطل يضاد الحق، وضد العدل الظلم والبغي، والكذب
والتكذيب هما ضدا الصدق والتصديق، وهكذا..

وإذا أحاط الإنسان علماً بكلمة التقوى، فإنه يعرف بنسبة معينة كلمة الحمية
الجاهلية.

ومن هنا يقتضي التوقف عند هذا الحد في هذه الدراسة، إلا أن القرآن
الكريم وسنة النبي وأهل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام لم يكتفيا ببيان
حقائق الإيمان فحسب، بل وبيّنا بأسهاب حقائق الكفر، فأتم الله حجته البالغة
على خلقه، ولكي يتمييز الظل والحرور، والموت والحياة، والظلمات والنور.

من أجل ذلك فإنني أمل أن يوفقني الرب بفضلِه ومنّه ورحمته الواسعة لكي
أدرس القسم الثاني من هذا المشروع؛ الفقه قرآني في وقت لاحق إن شاء الله.

٣/ يحتوي الفقه حسب المنهج السائد على كتب تبلغ ٢١ كتاباً، إبتداءً من
أحكام الطهارات حتى أحكام الديات، ولا نجد في هذه الدراسة كل هذه

الموضوعات. والسبب أن هذه الدراسة إهتمت بالقيم الأساسية للفقهاء، ولم تدخل في التفاصيل، إلا في بعض الموضوعات ذات الأهمية والتي فصل القرآن الحديث عنها في آياته. من هنا فإن الأمل يحدو بنا الى أن نبحث أو يبحث من يوفقه الله سبحانه عن كل هذه الأبواب اعتماداً على هذه القيم لتكتمل الصورة بإذن الله تعالى.

٤/ وفي الحياة موضوعات مستجدة بحاجة الى اضاءتها ببصائر الدين وأحكامه النيرة، مثل السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والتربية والعلاقات الدولية والعولمة.. وفي كل موضوعة منها نستضيء بقيم شتى من هذه القيم الإيمانية؛ مثلاً في السياسة نحتاج الى إقامة القسط، ونشر الأمن، وإشاعة الرفاه، والتمسك بالكرامة والحرية والصدق.. وهكذا ينبغي أن نطبق مختلف القيم الإيمانية على هذه الموضوعة.

وهذه الدراسة لا تتكفل بذلك، ولكنها تصلح أن تكون مرجعاً فيها لمن وفقه الله تعالى.

وفي الختام إني أشكر الله أولاً على عظيم توفيقه لي في إنجاز هذا القسم من مشروعنا الفقه القرآني، ثم أشكر إخوتي في مكتبي بطهران على ما قدموه من جهد، وبالذات أشكر الحاج طالب خان والمساعدين له الذين ساهموا من خلال القسم الثقافي في مكتبي بطهران في إنجاز هذا المشروع. كما وأشكر الحاج حسن الرضوي والحاج مهدي الصادق ومساعديه الذين ساهموا في إعداد الكتاب للنشر. وأسأل الله سبحانه أن يتقبل بفضلله هذا الجهد اليسير، وأسأله أن يدخره لنا جميعاً ليكون زادنا الى يوم القيامة، حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والله المستعان.

محمد تقي المدرسي

١٢/ ربيع الثاني/ ١٤٢٢

مدينة مشهد المشرفة

تمهيد

لكي تتواصل كلمات الوحي في وعينا، ولكي نعرف الصلة بينها، وتتبلور لدينا في صورة منظومة متكاملة من القيم التي أصلها ثابت وراسخ في قاعدة التوحيد وفروعها في السماء وثمراتها في معرفة الحقائق الخارجية.

من أجل ذلك لا بد أن نقدم عرضاً للقيم التي ندرسها في هذا الجزء، والتي نبحثها في أربعة أبواب، لكل باب منها فصول. ففي الباب الأول ندرس قيم المسؤولية، وفي الثاني قيم الشرف، وفي الثالث قيم التطلع، ونختم الحديث في الباب الرابع بالفضائل التي هي زينة الإنسان.

وهذه القيم ترسم بمجموعها صورة الكرامة البشرية، وأصلها فضل الله على الإنسان إذ كرمه وسخر له ما في الأرض، ووفر له فرص العروج الى أسمى الدرجات. وللكرامة ثلاث ركائز، وثلاثة تجليات. أما الركائز فهي:

١/ الركيزة الأولى تبدأ من المسؤولية التي حملها الرب البشر، حيث رزقهم العقل والارادة، ووفر لهم فرص الهداية الى الخير، ثم أرسل إليهم رسله بالكتاب والبيانات. ولكنه سبحانه لم يكرههم على الهدى، بل دعاهم الى الإيمان به بكامل وعيهم وحريرتهم.

٢/ ومن ركائز الكرامة التي منحها الرب للناس، أنه بعث إليهم من أنفسهم رسلاً مبشرين ومنذرين ليعلّموهم الكتاب والحكمة وليذكّوهم وليكونوا لهم قدوات الى الخير والصلاح.

٣/ ومن تلك الركائز، أنه سبحانه هداهم الى السبيل القويم بالبينّة وبالرسول وبيقية الله وبما أمرهم من نصره الرسول.

هذه ثلاث ركائز أساسية للكرامة الانسانية. أما تجليات هذه الكرامة فهي:
أولاً: الصدق الذي هو شرف الإنسان، ونابع من إحساسه بالكرامة والعزة.
ويتجلى الصدق في الوفاء بالعقود، والتمسك بالمواثيق.
ثانياً: التطلع؛ إذ يتصل طموح البشر بمدى إحساسه بشخصيته وكرامته،
ومن تجليات التطلع الايمان بوحدة البشر ومساواتهم في أصل الخلقة، وأنه لا
فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.
ومن تجلياته التنافس والاستباق الى الخيرات، ومن تجلياته القوة والسلطة.
ثالثاً: وأسمى تجليات الكرامة الفضائل التي يتحلى بها عباد الله المتقون،
من السكينة والطمأنينة وكظم الغيظ والحلم والعفو والتواضع والنصيحة وسائر
الفضائل.
وفيما يلي نعرض فصول هذه الأبواب ببعض التفصيل.

الباب الأول عن المسؤولية سمة الإنسان

الفصل الأول: الإنسان إنه المسؤول

في البدء نتحدث عن الحرية باعتبارها أرضية المسؤولية، وقد تحدثنا عنها
من منطلق فلسفي لتسفيه كل التبريرات التي تنفي المسؤولية مثل فكرة الجبر
والحتمية. وتنقسم مسؤولية الإنسان الى ثلاث شعب؛ المسؤولية الشخصية،
والملكية التي تعني مسؤولية عن الأشياء، والولاية التي تعني – فيما تعني –
مسؤولية عن الآخرين.

أ- إن الكرامة البشرية تقتضي مسؤوليته عن تصرفاته. فالإنسان في
الشرائع الإلهية جميعاً، وفي كل الأنظمة والثقافات البشرية إنه مسؤول عن
تصرفاته. ومن دون الايمان بقيمة المسؤولية، ينهار نظام المجتمع البشري،
بل وينهار ما يتميز به عن الحيوانات من ثقافة وحضارة.

وتكريس قيمة المسؤولية، أعظم إنجاز لأي تشريع. وبحق أقول: الدين
الاسلامي قد كرّس هذه القيمة في ثقافة المسلمين وفي مختلف انظمتهم بأفضل

صورة ممكنة، إذ سد منافذ التهرب منها والاحتفاء الى كهف الظنون والتمنيات (مثل فكرة الفداء أو فلسفة الجبر والتفويض أو صنمية القدر أو أية صنمية أخرى).

كما أن الدين بصّر الإنسان بالجزاء، عاجلاً في الدنيا، وأجلاً في الآخرة، بما جعله يتقي الفساد والفسوق. وكتاب ربنا حقاً كتاب المسؤولية.

ب- لقد كرم الله بني آدم حين سخر لهم ما في الأرض وحملهم في البر والبحر، وحين رزقهم من الطيبات. وهكذا بدأت هيمنة البشر على الأرض وامتلاكها لما فيها من أشياء وأحياء؛ فبالعلم والقدرة وسائر المواهب التي أعطاها الرب للبشر استطاعوا أن يعمرُوا الأرض، ويمتطوا صهوة الريح، ويذللوا طاقة النار والذرة، ويلينوا الحديد لمأربهم..

وهذه الملكية - التي هي من تجليات كرامة الله الممنوحة للبشر - ما هي إلا صلاحيات محدودة، ذات هدف محدّد هو ابتلاء الإنسان وبعثه نحو صفات الكمال التي يقتضيها شكر الله.

ج- والناس مسؤولون عن بعضهم في إطار الولاية الإلهية؛ فالمؤمنون أولياء بعضهم والله وليّهم والرسول صلى الله عليه وآله وليّهم بإذن الله، ومن بعده الأئمة الأطهار أولياءه وشهداء عليهم.

والولاية تعني القرب الذي يورث الأقرب الحق في تولى أمر من يتولاه.. وإذا كان المؤمن قريباً من الله، فإن ولاية الله تشملته، فهو الذي يتولى الصالحين من عباده. وقرب المؤمن من ربه ميراث معرفته به، وتخلقه بأخلاقه وسلوكه الصاعد الى رضوانه.

وإذا كانت ولاية الله راسخة في وجدان المؤمن، فإنها تصبح الميزان لكل علاقته. فمدى قربه أو بعده عن الناس يتحدد بمدى صلتهم بالله؛ فكل من كانت صلته بالله أقرب كانت ولاية المؤمن له أوثق.. الأنبياء والأوصياء والصدّيقون ثم الأمثل فالأمثل من الصالحين، هم الذين يمنحهم المؤمن ولايته، كل بدرجة قربه من ربه..

فكل ولاية عند المؤمن شعبة من ولاية الله تعالى، ومقياسها الحق وولاية الله سبحانه.

الفصل الثاني: عنخطى أنبياء الله

من أجل تحقيق المزيد من كرامة البشر، يجتبي ربنا من عباده رجالاً أكرمين، ويجعل فيهم رسالته ويعصمهم ويؤتيهم الحكمة والنور والتأييد، ثم يأمر عباده باتباعهم والتأسي بهم وحبهم. والرسول هم قمة هرم البشرية، والصديقون والشهداء هم ولائح بيننا وبين الرسل .

وهكذا لكي يهتدي الناس الى سبيل الله القويم، ولكي ينالوا الكرامة، لا بد أن يتبعوا من هداهم الله واجتباهم. والإتباع أساساً لكتاب الله، ثم لأنبياء الله، ثم لأوصيائهم، ثم للسابقين.

ومن حقائق الإتباع التأسي، حيث يجبر البشر كسر عزمته وخورها بالتأسي بالسابقين من القنوات الرائدة، وقوتهم المثلى رسول الله صلى الله عليه وآله الذي أمرنا الله سبحانه بالإقتداء به.

وأسمى صور الإتباع والتأسي ذلك الذي يفيض من ينبوع الحب، لأن الحب تناغم وانسجام، ويتجلى حب الإنسان لربه في الإنابة إليه والرضا بما يقدره ويقضيه والشكر لآلائه والشوق إلى لقائه.

وإذا أحب الإنسان ربه أطاعه إطاعة الأحرار، وحتى إذا ذهب الى لقائه كان في جنته وبين عباده في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ومن حب الله يفيض حب المؤمن لأولياء الله والصالحين من عباده، حتى يكون سلماً لمن سالمهم وحرماً لمن حاربهم..

الفصل الثالث: السبيل القويم

من القيم المثلى في حياة الإنسان، ومن تجليات كرامته عند ربه، أن يكون على بصيرة من أمره ويقين وبيّنة. فما هي سمات البصيرة وشواهد البيّنة عند البشر؟

نستوحي من أي الذكر أنها التالية: أولاً: إن البيّنة من عند الله سبحانه وليست من ذواتنا نحن البشر. ثانياً: ومن أوتي البيّنة تنزلت عليه الرحمة. ثالثاً: ويشهد له من يصدقه من الشهداء. رابعاً: وتشهد بصدقه حقائق التاريخ وسنن الله فيه. خامساً: وفعله يشهد على صدق قوله. سادساً: إنه يسعى إلى الإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً. سابعاً: إنه يتوكل على ربه (ويقتحم غمار التحديات الكبرى).

وتتجلى البيّنة عند الإنسان الذي أوتي البصيرة في دينه، إنه يسعى أبداً للأخرة التي هي البقية التي أذخرها الله للصالحين. فهو يتسامى عن الدنيا وحطامها، ويتجاوز لذات الدنيا وشهواتها، ويصبر على المكارِه إبتغاء تحقيق بقية الله التي هي خير.

كما تتجلى البيّنة عنده بالولاية التامة للرسول والأئمة والمؤمنين، ولا يكتفي بالولاية الظاهرية بل يترجم ولايته إلى الدفاع عن قيمه ونصرة من يتولاها؛ لأن في هذه النصرة تحقيق قيم العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأنها بند أساسي من بنود الميثاق الذي أخذه على النبيين أنفسهم، وإن النصرة حق من حقوق المؤمنين على بعضهم.

والرسول والأئمة هم السبيل القويم الذي هدى الله له المؤمنين، والله سبحانه هو الذي يهدي إلى السبيل القويم؛ فأما أن يكون الإنسان شاكراً فيتبعه، وأما أن يكون كفوراً فيجتنبه والعياذ بالله.

الباب الثاني: الصدق شرف الإنسان

تتجلى كرامة الإنسان في صدقه في قوله، وصدقه في عهده، وصدقه في مواقفه عند الشدة. ذلك لأن صدق اللسان دليل صدق القلب، وميراث إحساس النفس بالكرامة والشرف الذاتي وسلامتها من العقد بكل ألوانها. فالحقد والحمية، والكبر والأنانية، والذل والمهانة، والجبن والطمع، وسائر الفواحش الباطنة تورث الكذب، وتمنع الصدق.

والصادق لا يخون، ولا ينقض عهده، لأن الخيانة والغدر دليل ذل النفس وخلوها عن الشرف والكرامة.

والصدق هي صبغة العلاقة بين أبناء المجتمع المسلم. وهكذا تتجلى صفة الصدق في العهود والعقود وفي الوعد والكفالة.

من هنا بحثنا في الفصل الأول من هذا الباب وبتفصيل عن أحكام العقود تحت عنوان: (كلمة الصدق والوفاء بالعهود)، وذلك في خمسة أقسام مهدنا لها بالحديث عن كلمة الصدق التي نتحدث عن هذه القيمة وما ورد فيها من نصوص. أما الأقسام فهي التالية:

في القسم الأول نستوحي بصائر الوحي في العقود، ونستفيد من الآيات الكريمة التي أمر ربنا فيها بالصدق والعدل، ولانفصل فيها لأن لبحوثها مناسبة أخرى في هذه الموسوعة.

ونستفيد من آيات القرآن التي تنهى عن الظلم، ومن ثم نستوحي بصائر الوحي في حدود الله في العقود؛ مظهرها وجوهرها وحرمة الربا، وما يتصل بأهلية المتعاقدين، ومن شرائط الشرع في محل العقود، ثم نتحدث إن شاء الله بتفصيل عن الفروع الفقهية التي قد نستفيدها من البصائر القرآنية.

وفي القسم الثاني نتحدث عن المكاسب التي حرّمها الشرع المبين، وذلك في أبحاث ثلاثة؛ الأول: عن القواعد العامة. الثاني: عما نستفيدة من حديث شريف روي عن كتاب "تحف العقول" فيه تفصيل المكاسب ما يجوز منها وما لا يجوز، ونتأمل فيها - بإذن الله - بما يتناسب ومنهج كتابنا هذا. الثالث: عن تفصيل أحكام الربا؛ سواءً في الدين، أو في العقود، أو بيع الصرف.

أما القسم الثالث فقد خصص لبحث صورة العقد، وحسب تعبير الفقهاء صيغة العقد، حيث يشترط فيها أمران أساسيان هما التنفيذ والتعبير؛ أي وجود مظهر خارجي للعقد الذي هو إلتزام قلبي. ويجرنا البحث فيه إلى الحديث عن المعاطاة، وهي العقد بلا صيغة قولية.

وفي القسم الرابع نذكر الشروط التي لا بد من توافرها في طرفي العقد (المتعاقدين)، ومنها شروط عامة مثل البلوغ والعقل، ومنها شروط ترتبط بالعقد مثل الرضا والملك.

وعند الحديث عن شرط الرضا يجري الحديث عن الإكراه معناه ومعياره ووسائله، وعن الرضا بعد الإكراه.

كما أنه عند الحديث عن شرط الملك نبحت موضوع عقد الفضولي الذي أخذ جزءاً واسعاً من بحوثنا، وكذلك من بحوث الفقه والقانون.

كما تحدثنا أيضاً ببعض التفاصيل عن قاعدة نفي الظلم والضرر، أو قانون الإثراء بلا سبب.

أما القسم الخامس فقد خصص للكلام عن الخلل في التراضي أو ما يسمى بعيوب الإرادة، حيث نتحدث أولاً عن الواجب في تحديد الثمن والمثمن ونفي الغرر. وثانياً عن الخيارات، ما يقتضيها وما يسقطها.

وأما الفصل الثاني من هذا الباب بحث فيه موضوع العهود والمواثيق تناولنا الحديث فيه عن اليمين والوعد والكفالة.

فعن اليمين تحدثنا عن أفق من آفاق كلمة الصدق في حياة المؤمن، ألا وهو التزامه بقسمه ونذره. إن ذلك نابع من كرامته عند نفسه، ووجدانه بما منحه الله له من شرف وحرمة ومقام. واليمين عقد القلب (بالإلتزام)، ولا يؤاخذ الله عبداً على اللغو في الايمان.

وبعد الحديث عن حقيقة اليمين نتحدث عن كفارة نكث اليمين، ثم نذكر بكرامة المبادرة الى القسم بالله، ونبين مدى حرمة اليمين بالله كذباً؛ مثل حلف الكفار بالله كذباً على تصديقهم بالرسالة. وأخيراً نتكلم عن حرمة جعل اليمين دخلاً بين المسلمين، وعن القتال مع الناكثين.

كما تحدثنا عن الوعد الصادق، باعتباره شرف المؤمن، ودليل مروته وإحساسه بالكرامة، والله سبحانه لا يخلف وعده، والرسول هم صادقوا الوعد.

وضرب الله مثلاً بالنبى اسماعيل الذى كان صادق الوعد، ونبينا الأكرم كان قدوة في صدق الوعد.

وفي موضوع الكفالة نتناول حقيقة أخرى من حقائق إحترام المؤمن لعهدہ ووفاءه بما إلتزم به. إنها الكفالة التي تعني مسؤولية الشخص عن رزق شخص آخر، كما تعني ضمانة المؤمن لشخص آخر ووصل ذمته بما في ذمة ذلك الشخص.

ولأن المؤمن يكرم نفسه أن تهان وأن تخفر ذمته، فإنك تراه شديد الاهتمام بذمته التي اشغلها بكفالاته.

الباب الثالث: التطلع معراج الإنسان

كلما كان إحساس المرء بشخصيته وعزة نفسه أكبر، كلما كانت همته أعلى وتطلعه أسمى. من أنا؟ إذا عرفت نفسي ذلك المخلوق الذي خصه ربه بالكرامة وسخر له ما في الأرض جميعاً، ودعاه الى أن يعبدہ لا يعبد أحداً سواه حتى ينال كرامته، ويرتحل غداً الى دار ضيافته، ويكون جليسه في مقعد صدق.. إذا كانت هذه هي رؤيته عن نفسه، فإنه لا يقف عند حد في علو الهمة وسمو الهدف.

وهكذا نندرج هنا في بحث آفاق التطلع عند الإنسان، وكيف تتجاوز العقبات التي تعترض سبيل تطلع الإنسان وتساميه؛ تلك العقبات تتجسد في محورية القضايا المادية، وفي تجاهل جوهر الإنسانية وحقيقتها.. ونعرف أن الأصل هو الإنسان وليس عنصره أو قوميته أو طبقته أو أرضه وأقليمه.

ونتحدث بعدئذ عن العلاقة السليمة بين الناس، والتي تقوم على أساس الرحمة المتبادلة والتعاون البناء، والتنافس على المكرمات.

ونفصل القول في هذه البصائر عبر أربعة فصول وتمهيد؛ أما التمهيد فإنه يتناول بصيرة التطلع، وعلو الهمة، حيث نشير تحت هذا العنوان الى أن من كرامة الله للإنسان أنه سبحانه قد أعرز في وجدانه فطرة التسامي التي تبعثه أبداً الى الأعلى، وإنما دست هذه الفطرة في ركام من الوسوس الشيطانية

والتي تنفث فيه اليأس والكسل أو تضله عن الطريق السليم الذي لا بد أن يسلكه لتحقيق تطلعاته. أما منهج الوحي فإنه يتدرج مع الإنسان في ثلاث مراحل؛ ففي المرحلة الأولى تستثير فطرة التطلع فيه، وفي الثانية تفك الأصر والأغلال التي تصده عن التسامي، وفي المرحلة الثالثة والأخيرة تعلمه بقائمة الأهداف السامية التي ينبغي له أن يسمو فيها. هذا ما نمهد به للحديث عن آفاق التطلع عند البشر، ثم نتحدث عبر فصول في بيان حقائق التطلع.

ففي الفصل الأول نتحدث عن الكرامة التي هي من القيم المثلى التي يورثها الإيمان، وبيّنا فيه معنى الكرامة، وحققتها في حياة البشر جميعاً، وحقائقها في حياة المؤمنين خاصة.

وفي الفصل الثاني، نتحدث عن تسامي جوهره الإنسان وتعاليتها عن التمايزات والفروق المادية. ذلك أن أصل البشر من آدم، وآدم من تراب. فلا الثروة ولا القوة ولا العلم والجاه والجمال ولا أية قيمة مادية أخرى تميز الإنسان عن نظيره الإنسان، أو تجعل إنساناً رباً والآخر عبداً.

وإنطلاقاً من هذه البصيرة التي تركز كرامة البشر وتجعل الانسانية أصلاً ومحوراً وقاعدة، ينفي الدين الحنيف أي نوع من التمايز بين بني آدم؛ فلا عنصرية ولا طبقية، ولا طغيان في القومية ولا علو في الوطنية، ولا حمية جاهلية من أي مصدر كانت.

وبتجاوز الحواجز التي تفصل بين البشر، يمهّد السبيل نحو التعاون الذي أمرنا به الرب سبحانه شريطة أن يكون على البرّ والتقوى وليس على الإثم والعدوان.

ويتسامى التشريع الاسلامي ليلبغ مستوى التراحم، حيث يجب أن نجعل العالم مهبطاً لرحمة الرب بالاحسان والتفضل والعطاء.

وفي الفصل الثالث نتحدث عن الاستباق إلى الخيرات حتى يكون طموح كل فرد بلوغ أسمى القمم في حقل الخير. وجوهر الإستباق الاستفادة من عامل الزمن وكل الطاقات المتاحة في كسب قصب السبق. وهكذا تتصل هذه

القيمة بأهمية الوقت، الذي هو متداخل مع حقيقة الخلق، حيث إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام وقدرها تقديراً دقيقاً، وجعل الشمس والقمر بحسبان، وجعل لهما وللأرض أجلاً كما جعل لكل أمة أجلاً ولكل إنسان أجلاً مسمى. وهكذا عرفنا ربنا بقيمة الوقت.

ومن دون تدبير الإنسان لحياته واستفادته المثلى لطاقته، فإن أجله يباغته دون أن ينتفع بعمره ووقته. من هنا ترى المؤمن يحاسب نفسه ويقدر ساعاته حسب حاجاته، ويحرص على عمره أكثر مما يحرص على ماله. ولأجل ذلك تراه يبحث أبداً عن التقدير السليم الذي ينبعث عن حكمة الرب في تقدير كل شيء، ومن سننه الجارية في خلقه. ومن التقدير السليم إعطاء كل شيء حظه، فالتقسيم الدقيق للطاقات ولساعات العمر قيمة أساسية للاستفادة المثلى من الامكانيات، وهي بدورها وسيلة للتقدير السليم، وهو بدوره طريق الى المسارعة وكسب قصب السبق، والله المستعان.

وفي الفصل الرابع نتحدث عن إحدى الغايات السامية، التي تعتبر في الواقع الهدف الأسمى لكل أمة، وهي القوة التي تجعل الأمة متمكنة في الأرض وشاهدة على سائر الأمم. وفي الحديث عن القوة نجيب على الأسئلة التالية: ما هي القوة، وكيف ننتفع بها، وما هي أخطارها حين تخالف الحق؟؟ والله سبحانه هو القوي العزيز، ومن قوته يستمد الرسول والمؤمنون قوتهم. فهو الذي ينصر رسله والذين آمنوا، ويمكنهم في الأرض. ومن هنا كانت التوبة الى الله، والتوكل عليه، والاستعانة به، سبباً رئيساً لقوة المؤمنين. أما ركائز القوة في الحياة، فهي الحق والحكمة والتعاون والتمسك بالميثاق والمال والرجال والبأس الشديد.

وتنفع القوة في التمسك بالدين الحق، وفي الدفاع عن النفس، وفي القيام بما يقيم حياة البشر. ولكن القوة تضر إذا خالفت الحق، وتنهزم أمامه في النهاية أنى كانت شديدة.

الباب الرابع: الفضائل زينة الإنسان

والكرامة الإلهية للإنسان تبلغ نورتها مع تزكية الإنسان نفسه لتتحلى بالفضائل، فتبلغ السكينة والرضا، وتترقى لدخول الجنة حيث يدعوها الرب إليه ليدخلها في عباده.

وفي الحديث عن الفضائل نختار طائفة منها، وهي التي لم نتحدث سابقاً عنها في سائر أجزاء هذه الموسوعة، وهي تجنب الخوف والحزن، وكظم الغيظ، والحلم عن الجاهلين، والعفو عن الخاطئين، والتواضع، والنصيحة في القول والعمل..

ونستعرض في ختام الباب ونهاية الكتاب سائر الفضائل حسب ما جاءت على لسان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة شريفة يصف فيها المتقين، نسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وفضله العظيم.

الباب الأول

المسؤولية سمة الإنسان

الفصل الأول: الإنسان إنه المسؤول
الفصل الثاني: على خطى الأنبياء (ع)
الفصل الثالث: السبيل القويم

الفصل الأول: الإنسان إنه المسؤول

لا للجبر.. لا للتفويض

الإنسان ذلك الكائن (المبتلى) الذي حمل الأمانة وأوتي المقدرة على أدائها، وأوتي المشيئة في الاختيار إما شاكراً وإما كفوراً. وقد قال عنه خالقه تبارك وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الاعراف/١٧٥-١٧٦)

فما هي حدود مشيئة البشر التي حولها البارئ إليه، وما هي آفاق حرите التي حبيت له، وما هي حدودها؟ فيما يلي بعض التفصيل في هذا الموضوع الشائك.

أولاً: لا جبر ولا تفويض

في علم الفلسفة، كذلك في علم الكلام بحث بعيد الغور حول الجبر والتفويض، فمن الناس من نفى عن الانسان كل ألوان المسؤولية، وقال: كل شيء مقضي عليه، وهو منذ أن خلق كان مسيراً. ولعل الكفار الذين نسبوا أفعالهم القبيحة الى الله سبحانه، كانوا من هؤلاء حين قال عنهم ربنا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (يس/٤٧)

وقال بعضهم (حسب ما يحكي عنهم الرب تعالى): ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (المؤمنون/١٠٦)

وذهبت الأشاعرة إلى الجبر، وبالغ بعضهم في مذهبه حتى نسب إلى الله كل أفعال العباد، ونفى عن ربه سبحانه صفة العدل.

ومنهم من ذهب إلى التفويض، ونفى قدرة ربه على عباده، وزعم أن الخلق قد فاض من ضمير الخالق من دون وعي منه ولا إختيار، ولا يستطيع أن يغير فيه شيئاً. كما أشعة الشمس حين تفيض منها، وحين لا تستطيع فيها صنعاً. سبحان الله!

وقالت اليهود الذين ضاهئوا في هذه الكلمة الفاحشة الفلاسفة الاغريق، قالت: إن يد الله مغولة. وقال الله سبحانه عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة/٦٤)

وسواء الجبر أو التفويض في نفي المسؤولية عن الانسان؛ فمن ذهب إلى الجبر تحرر بزعمه من مسؤولية أفعاله، بل إستسلم لقدره واسترسل مع الحتميات التي تقوده من طور إلى طور. وتتعدد الحتميات عند هؤلاء؛ مثل حتمية الاقتصاد والشهوات، وحتمية الاجتماع والسياسة، وحتمية الدورات الحضارية وغيرها.

أما القائلون بالتفويض، فإنهم أيضاً يتحللون من مسؤولية أفعالهم حين ينفون أية قدرة على التغيير عند الرب؛ فكيف بهم؟

ولعل القدرية الذين لعنهم الرسول صلى الله عليه وآله في هذه الأمة، وسماهم مجوس هذه الأمة، هم الذين يتحللون من المسؤولية سواءً بالجبر أو بالتفويض. وهكذا روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: "القدرية مجوس أمّتي". (١)

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٦.

أما المذهب الذي أرسى قاعدة المسؤولية عقائدياً، وزرع الإيمان بالقدره على الاختيار عند الانسان، فهو الدين الحنيف الذي يقول (على لسان الإمام الصادق عليه السلام): "لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين". (١)

ثانياً: بين العقل والهوى

١/ قدرة البشر على الاختيار الحر، لا تعني أن له أن يختار الباطل على الحق، والهوى على العقل.

كلاً؛ إنما عليه إختيار الحق والرشد، وإن قيمة إختياره الحق تتجلى عندما تكون من دون إكراه. قال الله سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ (البلد/١٠-١٤)

وعلى هذا ترسو قاعدة المسؤولية. فلأنه حر ولأن عليه أن يختار الحق، فإن خالف عوقب. وهذه القاعدة هي أساس كل التعاليم الأخلاقية والأنظمة الجزائية، وهي أساس معاملة الناس جميعاً في الأرض.

٢/ فإن كان الشخص مكرهاً لم يحاسب، ولو كان غير ملزم بشيء لم يعاقب على تركه، بينما الانسان محاسب ومعاقب. قال الله سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس/٧-١٠)

٣/ لقد وقر الله للانسان فرصة الاختيار، ولكنه فرض عليه إختيار الحق، فإن لم يفعل عذبه في الآخرة عذاباً نكراً. (فهو من الناحية التكوينية حر، ومن الناحية التشريعية مكلف مفروض عليه الحق). قال الله سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَعِينُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ (الكهف/٢٩)

(١) المصدر، ج٤، ص١٩٧.

وجاء في حديث شريف عن أبي بصير، قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: " شاء وأراد، ولم يحب ولم يرض. قلت: كيف؟ قال: شاء أن لا يكون شيء إلا بعلمه، وأراد مثل ذلك، ولم يحب أن يقال له: ثالث ثلاثة، ولم يرض لعباده الكفر. (١)

ثالثاً: لا إكراه في الدين

مادام الدين الصحيح هو الذي يختاره الشخص بحرية وبعد أن يتعرف عليه بيقين، فإن الدين لا إكراه فيه. ولو أراد الله إكراه الناس على الهدى، إذأً أجبرهم عليه، ولم يكن لأحد حجة عليه. فهو الرب العزيز الجبار، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

من أعظم ما في الدين، تحرير الإنسان من الجبت والطاغوت. ذلك ان الجبت يضغط على الارادة من داخل النفس، ويفقد الانسان القدرة على الاختيار السليم. فالكبر والحسد والحمية والبخل والجبن والفشل وسائر الفواحش الباطنية والعقد النفسية، إنها جميعاً أغلال تحيط بالمشيئة الحرة عند البشر، ورغماً على صاحبها تدفعه الى حيث لا يريد به عقله، فاذا به يرتكب الفواحش والجرائم ويندم بعد فوات الأوان. والذي يحررك من الجبت أولاً: يقاظ العقل. ثانياً: أن يذكر الانسان بالجبت ودوره التدميري. ثالثاً: الإنذار والتبشير. رابعاً: تنمية التقوى وتوفير الارادة. خامساً: التوكل على الله سبحانه.

أما الطاغوت فإنه يشكل الوجه الظاهر للجبت، لأن السلطان الجائر أو المجتمع الفاسد أو الاقتصاد الظالم وسائر مظاهر الطاغوت تستغل نقاط ضعف الانسان؛ تستغل فيه الرغبة الجامحة في الشهوات والرغبة الفظيعة من العواقب، وتستغل فشل الارادة وتدني التربية وحب الراحة وحب الاستعلاء. ومن خلال هذه النقاط تستعبده وتستلب حريره، وتحوله الى أداة طيعة في يده. وإنما الدين التوحيدى الخالص يرفع البشر الى درجة التحرر من الطاغوت

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٩٠، ح ١٠.

والتشرف بوسام التوحيد، وليس فقط عبر تزكية النفس من عواقب الجبت، وإنما أيضاً بالسبل التالية؛ أولاً: بالأمر بالكفر به (معارضته). ثانياً: بالاجتناب عنه (وعدم الركون إليه). ثالثاً: بالاستعانة بالله والتوكل عليه (في مقاومته والاستقامة والصبر على أذاه). رابعاً: بالإيمان بالله وتولي أوليائه (والتمحور حول قيادة إلهية). خامساً: بالهجرة عن ديار الكفر الى دار الإيمان في ظروف معينة، ثم الجهاد باذن الله سبحانه. سادساً: بدفاع المؤمنين عن استضعف عند الطغاة وطلب النجدة.

وهكذا التحرر من الجبت والطاغوت من أعظم نعم الله سبحانه لعباده المؤمنين.

١/ يذم ربنا سبحانه الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، لأنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ (النساء/٥١-٥٢)

ألا ترى كيف يلعن الله أولئك بالرغم من تظاهرهم بالإيمان بالله، لأنهم كانوا يوالون أعداء الله من الكفار، ويعتبرونهم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً.

٢/ أما من يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فإنه قد استمسك بالعروة الوثقى. قال الله سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لِأَنَّفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٥٦)

ونستوحي من الآية البصائر التالية:

أ- إن الدين لا إكراه فيه. وهكذا الهدى لا يكره ربنا خلقه عليه، ولا يجوز للناس أن يكرهوا بعضهم عليه. وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس/٩٩)

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَٰتَانِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمُ نَارًا مِّن لَّهَا كَارِهُونَ﴾ (هود/٢٨)

ب- وقد تبين الرشد من الغي. وهكذا إكتملت عناصر الحجة البالغة على الخلق، وكذلك ينبغي للدعاة أن يجتهدوا للغاية حتى يتبين للناس الرشد من الغي. أوليس الهدف إيمان الناس بالدين إيماناً قلوبياً صادقاً؟ وإنما السبيل الى ذلك تبين الرشد من الغي، ويكون ذلك عبر تلاوة القرآن، حيث قال الله سبحانه: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعَبِدُ﴾ (ق/٤٥)

ج- إن الاستسلام للطاغوت ضعف وليس -كما يزعم البعض- قوة، لأن قوة الطاغوت تتمثل في ضعف الخاضعين له، فاذا تحدوه ضعف وقوا. والاستسلام للطاغوت يفقد الإنسان إستقلاله وحقوقه وطاقاته؛ فأى قوة فيه؟ بلى؛ في الإيمان بالله والتوكل عليه والاهتداء بنوره قوة، لأنه تمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

٣/ لقد خلق الله البشر لبيبتليهم، وجعل مادة الابتلاء الاهتداء. ولو شاء لجعل لهم الهدى بالفطرة كما نور أعينهم، فاهتدوا الى الحق جميعاً. ولكن أين إذاً شرف الحرية، وأين حكمة الاختيار؟ قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس/٩٩)

ومن هنا لا يكون هم أحدنا جبر الناس على الهدى، وإنما إبلاغ آيات الهدى إليهم، حتى يتبين لهم الحق.

٤/ القرآن مهيمن على سائر الكتب، وهو أسمى منها وأغنى، والله حفظها به. وعلى الرسول أن يحكم بين الناس به، ولا يتركه لأهوائهم. (ولكن لا يعني ذلك إن ما بأيديكم من الكتاب باطل كله، لأن الله) قد جعل لكل (من المؤمنين بالرسالات الإلهية) شرعةً (وطريقاً واضحاً) ومنهاجاً (يُحدد السبل المختلفة في الحياة). وكان ربنا الحكيم قادراً، لو شاء أن يجعل الناس أمة واحدة (على

هدى الحق)، ولكن (جعل لكل شرعة ومنهاجاً) ليلوهم فيما آتاهم (من الكتاب). والحل الأمثل للخلافات (ليس في الجدليات الفارغة، ولا في الصراعات العقيمة، وإنما في) إستباق الخيرات (والتنافس في المكرمات التي يتفق جميع البشر على أصولها). قال الله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ (المائدة/٤٨)

فقه الآيات

١/ الحرية مسؤولية الأمة

من أجل تكامل الانسان وتساميه الى ذروة أهدافه المنشودة، ومن أجل تحول البشر من كونه آلة صماء بيد الطغاة أو برغياً صغيراً في جهاز صناعي، أو عبداً ذليلاً لأهوائه وحمياته.. تحوله ليكون كائناتاً مفكراً عاقلاً يبحث عن الحق والخير. من أجل ذلك كله، ومن أجل تحقيق هدف الرسالات في الإنسان، أن يكون جليس الرب في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وضيفاً مكرماً في جنان العدل.

من أجل ذلك لا بد أن يسعى جميع أبناء الأمة في مشروع الحرية، الذي يعني بناء إنسان فوق مادي، مؤثر فاعل، متفجر الطاقات، واسع الإمكانيات. ولكن كيف؟ دعنا نتابع النقاط حسب التدرج، وليس حسب الأهم والمهم. أ- منذ نعومة أظفاره يستطيع الانسان الانتخاب. فاذا شجع المربون الأطفال على الاختيار الصحيح، نموا فيهم روح الحرية. وبالرغم من أن توقع حدوث هفوات من قبلهم، إلا أن الحصيلة النهائية ستكون إيجابية بإذن الله، إذا تم التوجيه الفطري والعقلي المركز إلى جانب توفير عوامل الحرية.

ب- في المدرسة؛ إذا تسلح المعلمون والمربون بالقدرة التوجيهية، وخففوا من وطأة الأوامر الصادرة. فإن الطفل سوف تتكامل شخصيته على أساس التعقل والانتخاب الحر، بعيداً عن عصا المعلم الغليظة، وعن الرغبة في الدرجات العلمية التي تنمي الأنانية والذاتية.

ج- وفي المراحل الدراسية المختلفة، يفضل تنمية حب المعرفة في الطفل والطاعة الواعية للمناهج المؤدية إليها، شأن الدراسة في الحوزات الدينية التي كانت متفوقة في هذا الجانب بلا ريب.

د- في المجتمع؛ ومن أجل تطبيق القوانين والالتزام بالآداب، يفضل التقليل من الاعتماد على القوة القهرية بكل صورة ممكنة، والاعتماد بدلاً من ذلك على الوسائل التوجيهية التي ترسخ القيم المثلى، وتدع الأفراد يتمسكون بها طواعية وتلبية لنداء وجدانهم الحرّ.

هـ- وفي ذات الوقت ينبغي التقليل من القوانين الاضافية، والاكتفاء بالأهم فالأهم من قواعد السلوك، تاركين للفرد حرية التقيد بالبقية الباقية. شأن الدين الحنيف الذي أمر ببضعة واجبات ومحرمات، ثم وجه الى المزيد من الأخلاق والآداب في إطار المستحبات والمكروهات.

و- وإذا تعرضت الأمة لموجات الشبهات، واهتزت قواعد السلوك في أبنائها، فعليهم الاجتهاد في توجيهه وتطوير وسائله وأساليبه، والاستخدام المحدود من القوة القهرية في الحجم والمدة.

ز- تنشيط الحوار والشورى والجدال بالتي هي أحسن، وترسيم قواعد أخلاقية للاختلافات، وتجنب الحدية والتهم وما أشبه.

٢/ ركائز الدفاع عن الحرية

من أجل استمرار الحرية، لا بد من التصدي للقوى المناهضة لها، والتي تسعى للسيطرة على مؤسسات الدولة والتحكم من خلالها في الناس، أو تسيطر على الغوغاء منهم وتفرض من خلالها إرادتها على النخبة المفكرة.

وإنما يمكن التصدي لهذه القوى بتكوين مؤسسات إجتماعية مقنطرة،
والدفاع من خلالها عن الحرية، وذلك بما يلي:

أ- لا بد أولاً من تثقيف الأمة بقيمة الاستقلال والحرية، وتوعيتهم بضرورة
الدفاع عنها، وتوجيههم بما يمكن أن يتوسل بها أعداؤها من المكر والخديعة؛
مثل إدعاءهم أنهم يريدون الدفاع عن قيم الأمة الأصيلة، وعن أمنهم
واستقرارهم، وعن تقدمهم ورفاههم.

بلى؛ كل هذه الأساليب إستخدمها الطغاة من أجل خداع الجماهير
وارضاءهم باستلاب حريتهم.

إن من المهم جداً إشاعة ثقافة الدفاع عن الحرية، وتحويلها الى قناعة
راسخة في ضمير كل الناس. وفعلاً تحفل النصوص الدينية بأفضل ما يمكن
من أصول هذه الثقافة؛ مثل توحيد الله ورفض الصنمية واجتتاب الطاغوت
ومحاربة أفكاره والتي تحدثنا عنها في مناسبات أخرى. أقول لو أن هذه
الثقافة والبصائر الدينية المستوحاة منها كانت قد انتشرت في الأمة من دون
تحريف أو تأويل لكانت مشبعة بثقافة الحرية.

ب- ومن أجل الحرية ينبغي أن تجعل في مقدمة قيم الأمة بمستوى أمنها
القوي. فلا تبحث عن الرفاه السطحي، والتقدم الصناعي، والتوسع الاقليمي
على حساب حريتها.

ج- من ركائز الدفاع عن الحرية؛ الجمعيات الدينية التي تتخذ من القيم
الإلهية منطلقاً وإطاراً. وهذه الجمعيات هي -الأكثر قدرة لو أنها تفاعلت- مع
حقائق العصر.

د- ومن الركائز؛ الجمعيات السياسية والمهنية والاجتماعية. وكلما تكاثرت
هذه الجمعيات في الأمة، كلما استطاعت مقاومة فتنة الطغاة.

٣/ الاستباق الى الخيرات

نستوحي من الآية ٤٨ في سورة المائدة، إن حكمة اختلاف الأمم، الابتلاء. وبالرغم من اختلاف الشرائع والمناهج، فإن عليهم جميعاً الاستباق الى الخيرات. وإليك بعض التفصيل في هذه البصائر:

أ- لأن لكل أمة ظروفها المتغيرة؛ مادية ومعنوية، فإن لكل منها شرعة ومنهاج. ولعل الشرعة هي بمثابة الدستور (القوانين الكلية)، بينما منهاج هو سائر القوانين (التشريعات المفصلة).

ب- وهذا الاختلاف ليس شيئاً، مادام منسجماً مع الأصول العامة التي يهدي إليها الوحي والعقل، وتتفق عليه فطرة البشر كلهم.

ج- والله قادر على أن يجعل الناس أمة واحدة. ولكن هذا الاختلاف يهدف ابتلاءهم فيما آتاهم، واستخراج مكنون ضمائرهم. وهذا الابتلاء يحتمل واحداً من معنيين أو كليهما؛ أولاً: إمتحان الناس ببعضهم لكي يعلم الله مدى تمسكهم بالقيم الدينية، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان/٢٠). ثانياً: استخراج طاقاتهم الكامنة بسبب التنافس، حيث إن الصراع يذكي في الانسان روح الاستباق والمسارة. وهذه الروح حميدة إذا كانت المسارة الى الخيرات، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران/١٣٣)، وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الانعام/١٣٢)، وقال سبحانه: ﴿خَتَامُ مِسْكِ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين/٢٦).

ومن المعلوم إن الحضارات الكبرى قد ولدت في خضم الصراعات، ومن رحم التنافس البناء.

د- إن الاختلاف لا ينتهي في هذه الحياة، وإنما يعرف الحق الصراع عند الله يوم القيامة. فليس من الصحيح أن يصرف الانسان طاقاته في الجدليات الكلامية العقيمة، أو في محاولة إزالة الأطراف الأخرى. وعليهم أن يبذلوا

طاقتهم في سبيل الاستباق الى الخيرات والتنافس على المكرمات، واستخراج
مكونون طاقتهم، وتسخير المزيد من إمكانات الطبيعة في هذا السبيل.

المسؤولية الشخصية

المسؤولية محور جميع الشرائع الإلهية، وكل الأنظمة الوضعية، ومن دون الاعتراف بها ينهار بناء التنظيم الاجتماعي. ولذلك فإن وعيها والايان الحق بها يعد من أبرز حكم الرسالات الإلهية، كما يعتبر أعظم انجاز لأي مبدء وضعي.

وبحق أقول: الدين الحنيف هو الذي يبعث روح المسؤولية في النفوس بأجلى وأسمى معانيها، ولكن كيف؟
أولاً: بسد كل منافذ الفرار منها أمام النفس البشرية التواقفة الى التهرب من المسؤولية والاحتماء الى الظنون والتمنيات.

ثانياً: بتكريس بصيرة الجزاء وربط كل ما يجري على البشر في هذه الحياة وفي الآخرة بها، ثم تقريب حقائق الجزاء ثواباً كان أم عقاباً بصور واضحة الى الإنسان، حتى وكأنه يرى جزاء أفعاله ماثلة أمامه في كل لحظة. والقرآن الكريم هو كتاب المسؤولية، ومن قرء آياته بتدبر يرى فيه حقائقها ناراً تتلظى، فتحرق الظنون والتمنيات، ونوراً يضيء شرائع الجزاء.

وباختصار شديد نوضح كيف يسد الوحي منافذ الفرار من المسؤولية، أما كيف يكرسها في النفوس؟ فإن آيات الجزاء في القرآن جد كثيرة، ولعلنا نوفق وعبر مناسبة أخرى للحديث عنها، ولكن من يقرء الذكر الحكيم يجد في أكثر آياته روح المسؤولية وسنن الجزاء وتفصيله.

سد المعاذير

لا نهدف هنا الاحاطة بكل المعاذير التي يتهرب بها الناس عن المسؤولية، ولكن من أجل تسهيل الاستفادة من الآيات التالية، التي يبدو لنا أنها تذكر ببصيرة المسؤولية بصورة مباشرة؛ من أجل ذلك سوف نبين بعضاً من المعاذير التي يتعلل بها الانسان فراراً من حقيقة المسؤولية، وهي:

١/ الشرك بالله سبحانه، والذي هو أعظم إفتق له الشيطان لغواية الإنسان عن ربه وعن مسؤولياته أمامه سبحانه. فالمشرك يزعم أنه يتخلص من مغبة أفعاله بوسيلة الآلهة التي يعبدها، أو الأنداد الذين يتخذهم أولياء من دون الله تعالى.

إن كثيراً من المشركين زعموا أن الآلهة التي عبدها من دون الله تغني عنهم شيئاً، أو تتحمل عنهم وزراً. ولكن الله ذكر بأنه سبحانه رب كل شيء، وأنه لا تكسب كل نفس (وزراً) إلا عليها (دون غيرها). قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الانعام/١٦٤)

وهكذا نستفيد من الآية؛ إن التعلق بغير الله سبحانه لا يدفع عن الإنسان جزاء أفعاله.

٢/ عقيدة الجبر، والتي يزعم أصحابها إن أفعال العباد هي من خلق الله، والبشر ليسوا مسؤولين عنها. هذه العقيدة التي إتخذها القدرية عذراً لارتكابهم السيئات، إنها واحدة من أعظم منافذ التهرب عن المسؤولية. والله سبحانه ينفيا بصراحة، حيث يقول عز وجل: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الزمر/٧)

إن الله سبحانه لا يرضَ بالكفر، ولا يمكن أن يكون هو الذي ألجأ
المشركين الى الشرك، أو أجبرهم - سبحانه - على المعاصي. فكيف يجبر
أحداً على ذنب، وليس ربنا بظلام للعبيد؟ وكما جاء في حديث شريف مأثور
عن فضيل بن يسار، قال: سمعت أبا عبد الله (الامام الصادق عليه السلام)
يقول: شاء (الله) وأراد ولم يحب ولم يرضَ؛ شاء أن لا يكون شيء إلا بعلمه،
وأراد مثل ذلك، ولم يحب أن يقال له: ثالث ثلاثة، ولم يرضَ لعباده الكفر.
(١)

ولعل خاتمة الآية تشير الى أن تهرب الإنسان من المسؤولية باختلاق
الوساوس والظنون، إنه مما يعلمه الله، لأنه عليم بذات الصدور. فلا تنفعه تلك
الظنون، لأن داعيه الى اختلاقها معروف عنده وعند الله سبحانه.
٣/ الحتميات التي آمنت بها فلسفات بشرية شتى، هي الأخرى من تلك
المعاذير التي أفك بها الانسان. كلا؛ إن للإنسان القدرة الكافية التي يحمله
الله المسؤولية بقدرها، وهو القائل
سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾
(البقرة/٢٨٦)

فالكفار زعموا أنهم ذرية قوم فاتبعوهم فأضلّوهم عن الهدى. وهكذا برّروا
ضلالهم بانحراف آباءهم، فقال الله سبحانه لهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ
مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن
تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ
قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الاعراف/١٧٢-
١٧٣)

٤/ وهكذا لا يبرر ضلال الآباء ضلالة الأبناء، ولا فسادهم فساد ذريتهم،
بل لكل حسابه عند ربه. قال ربنا سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة/١٣٤)

(١) التوحيد، للصدوق (ره)، ص ٣٣٩.

٥/ وكذلك الحتمية الاجتماعية؛ فإذا كان الناس منحرفين، فإنه لا يبرر لك الحشر فيهم والانحراف معهم، لأنهم سوف يحشرون الى النار. فهل تطيب النار لك لأنهم فيها؟

كلاً؛ إن لكل فريق حسابه الخاص به. قال الله سبحانه: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (البقرة/١٣٩)

٦/ وكذلك ضلال ذوي القربى لا يعذر ضلالة أحد، لأنه لا أحد منهم يحمل عنك وزرك يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (لقمان/٣٣)

٧/ وهكذا لا يحمل أحد وزر أحد، حتى ولو كان من ذوي قريباه، لأن لكل نفس وزرها الذي يكفيه. قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر/١٨)

٨/ الدنيا دار الأنساب، بينما لا أنساب في الآخرة. فلا تقس بها الآخرة وتنتظر من أقاربك، أو أصدقاءك، أو أهل ناديك حمل أوزارك. وقد قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (العنكبوت/١٢)

٩/ وهكذا ينهار نظام التبرير واختراع المعاذير، إذا عرف الإنسان إن نظام الخليقة قائم على الحق، وليس على التمني. فبمجرد أن يحلم المجرم بالخلاص من العقاب، لأنه من قوم معين (مثل أن يكون من بني اسرائيل) أو لأنه قدم خدمة معينة (كبناء مسجد أو سقاية الحاج) لا يغير من سنة الجزاء شيئاً، إنما السعي هو قاعدة الجزاء. قال الله سبحانه: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى *

فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا
مَنْ بَعَدَ أَنْ يَأْتِنَ اللَّهَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿ (النجم/ ٢٤-٢٦)

في هذه الآيات نعرف أن الحق وليس التمني هو قاعدة الجزاء، وإن
الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن الله وشاء ورضي.

١٠ / وقال الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (النجم/ ٣١)

وهكذا يذكرنا القرآن أن ملكوت الله سبحانه وتعالى، التي وسعت السموات
والأرض، (ملكوت عدل وحق) ولذلك فانه يجزي المسيء بما عمل،
والمحسن بالحسنى.

١١ / وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بَمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي
وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ
سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ (النجم/ ٣٦-٤١)

وهكذا كانت شرائع الله جميعاً تؤكد على سنة المسؤولية، التي تعني ألا
تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . فالسعي وليس
التمني، والسعي وليست شفاعاة أحد من دون الله، والسعي وليس الظن، هو
قاعدة الجزاء. وهذه هي حقيقة المسؤولية.

١٢ / والمسؤولية الانسانية لا تخص مساعيه، وإنما تشمل فكره. فالإنسان
مسؤول عن ضلاله أو هداه. فمن إهتدى (بالبحث عن الحق ثم الايمان به
والتسليم له) فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها. قال الله سبحانه:
﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الاسراء/ ١٥)

وقد بينت الأحاديث سنة المسؤولية، حيث جاء في حديث شريف عن
الاعمش، عن جعفر بن محمد (الإمام الصادق) عليه السلام، قال فيما وصف
لي من شرائع الدين: إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يكلفها فوق طاقتها،
وأفعال العباد مخلوقة خلق تقدير لخلق تكوين ، والله خالق كل شيء ولا يقول

بالجبر ولا بالتفويض، ولا يأخذ الله عزّ وجلّ البريء بالسقيم، ولا يعذب الله عزّ وجلّ الأطفال بذنوب الآباء، فإنه قال في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ والله عزّ وجلّ أن يعفو ويتفضل، وليس له أن يظلم. (١)
وجاء في حديث مأثور آخر، عن الهروي قال: سمعت أبا الحسن (الإمام الرضا) علي بن موسى بن جعفر عليهم السلام يقول: من قال بالجبر فلا تعطوه من الزكاة، ولا تقبلوا له شهادة. إن الله تبارك وتعالى لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها، ولا يحملها فوق طاقتها، ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها، ولا تنزر وازرة وزر أخرى. (٢)

وروي في حديث آخر عن الفضل، عن الإمام الرضا عليه السلام فيما كتب للمؤمن من محض الاسلام: إن الله تبارك وتعالى لا يكلف نفساً إلاّ وسعها، وإن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى خلق تقدير لا خلق تكوين، والله خالق كل شيء ولا نقول بالجبر والتفويض، ولا يأخذ الله البريء بالسقيم، ولا يعذب الله تعالى الأطفال بذنوب الآباء، ولا تنزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى. (٣)

فقه الآيات

لأن قيمة المسؤولية تتصل بكلمة الأمانة التي احتملها الانسان بعد أن رفضت السموات والأرض والجبّال أن يحملنها وأشفقن منها، فإنها تشكل قاعدة سائر التشريعات الإلهية التي لا يسعها هذا البحث. ولهذا فنحن نوجز القول فيما يلي، ونذكر بإيجاز شديد طائفة من الفروع الفقهية التي تتصل بقيمة المسؤولية.

(١) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٢) المصدر، ص ٢٣٩.

(٣) المصدر.

ألف/ آفاق المسؤولية

عندما يؤمن الإنسان بأنه وحده المسؤول عن نفسه، فإنه يكتشف قيمته الحقيقية، ويمتلئ حيوية وبفيض نشاطاً، ويشرع بصياغة جوهرة وجوده بيده، ويجدد حياته وفق بصائر ومتغيرات الظروف المحيطة به، ومقتضيات أهدافه التي يكتشفها بعقله. فتراه - يومئذ- يتحدى الأغلال التي عليه.

أولاً: يتحدى الطبيعة، لأنها ليست قدراً عليه مقدوراً. فالفقر والضعف والمرض والتخلف والبرد والحرّ والجفاف والسيول والزلازل والعواصف و.. و.. كلّها قابلة للتطويع ومسخرة للارادة، لأنها لا تزرر وازرته، وإنما هو وحده يحمل حملة ويزر وازرته. وهذه بداية إنطلاقة كل حضارة.

ومن هنا جاء في الحديث عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: "من وجد ماءً وتراباً ثم افتقر فأبعده الله." (١)

وجاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله: "نعم العون على تقوى الله الغنى". (٢)

وأيضاً عنه صلى الله عليه وآله: "الفقر سواد الوجه في الدارين". (٣) وقد ذكرتنا الآية الكريمة بكل هذه الأبعاد وزيادة، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (الاسراء/٧) فإنها تشمل الحياة الحسنة التي يكتسبها الصالحون باحسانهم، والحياة السيئة التي تلحق بالفاسدين جزاء إساءتهم.

ثانياً: ولأنه يشعر بالمسؤولية، فإن قدره لا يكتبه السابقون من آبائه وأسلافه. كلاً؛ أوليست تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، فلماذا الاسترسال مع الماضي الذي قد لا يكون خيراً كله، وقد يكون تغييره ضرورة

(١) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٦٥، ح ١٠.

(٢) المصدر، ج ٧٤، ص ١٥٣، ح ١١٦.

(٣) المصدر، ج ٦٩، ص ٣٠.

حياتية..؟ ولا يجوز تبرير بقاءه على الفساد بأنه كان من التراث أو من فعل الأولين. فقد روي عن معمر بن خلاد قال: فإنَّ أبا الحسن عليه السلام اشترى داراً وأمر مولى له يتحول إليها، وقال: إنَّ منزلك ضيق، فقال: أجزأت هذه الدار لأبي. فقال أبو الحسن عليه السلام: إن كان أبوك أحمق، ينبغي أن تكون مثله؟! (١)

وآيات القرآن الكريم ذكرتنا بالكثير من البصائر في قبح تقليد الآباء إن لم ينتفعوا في حياتهم بعقولهم أو بهدى ربهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانُوا هُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة/١٧٠).

ثالثاً: السلطة ليست قدراً على الإنسان مقدوراً، ولا يمكن أن يحمل الإنسان وزر واقعه السيء عليها، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ولو تبصّر الناس هذه الحقيقة لتحذوا السلطات الفاسدة، وفكّوا عن أنفسهم الأغلال التي يضعها المستكبرون عليهم، وتحرروا من إصر تقديسهم وهيبتهم وخشيتهم، ولما استرسلوا مع مفسدهم قائلين إنا لكم تبع.

كلاً؛ ليس إتباعك لهم عذراً كافياً لك أمام الله ، ولن ينفحك هذا التبرير يوم القيامة، وإنك لمسؤول يومئذ عن أعمالك التي إتبعت فيها الكبرياء والقيادات غير الشرعية. وقد قص علينا ربنا سبحانه في كتابه المجيد كيف حاول التابعون إلقاء المسؤولية على المتبوعين، فتبرء هؤلاء منهم. قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرًا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة/١٦٦-١٦٧)

وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (العنكبوت/١٢)

(١) المصدر، ج ٧٣، ص ١٥٣.

من هنا فإن واجب الإنسان الاحساس بالاستقلال التام عن الحالة السياسية الحاكمة على مجتمعه، وعدم إلقاء مسؤولية قراراته ومواقفه وأفعاله عليها.. بل يحتمل مسؤوليته بنفسه مستبصراً بهدى العقل والوحي. وهذه هي روح التحدي ضد الظلم والاستكبار والتبعية.

رابعاً: كثيراً ما يلقي الناس مسؤولية أفعالهم على المجتمع والتيارات السائدة فيه، فيقول أنا مع الناس. ولكن الله سبحانه لا يعذر الناس باتباع مجتمعهم، بل يأمر المؤمنين بتحدي قومهم إن هم ضلوا السبيل. ويضرب المثل من النبي إبراهيم عليه السلام والذين معه، حينما تبرأوا من قومهم، مبيناً انه حتى الأرحام الأقربين لن يغنوا عنهم من الله شيئاً. قال الله سبحانه: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ الْأَقْوَلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة/٣-٤)

وهكذا وجب على الإنسان أن يستقيم على الصراط المستقيم؛ فإن حاد الناس عنه بقدر، حاد عنهم بذلك القدر، لأنه لا يحمل أحد منهم وزره يوم الحساب. وهذه البصيرة لو نفذت في فؤاد الإنسان إستقل في رؤاه ومواقفه وأعماله، وكان سبيله الى التكامل.

خامساً: إنسانية الإنسان رهن تحمله المسؤولية، لأن من أحسّ بأنه إنسان مسؤول، يفكر بحرية، ويقرر بحرية، ويثير دفائن عقله وحوافز ضميره وعواطف قلبه، فينطلق في تطوير حياته.. بينما إذا دست نفس البشر في ركام الحتميات باختلاف ألوانها؛ طبيعية وتاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية ونفسية وغيرها، فإنه يقبر فيها حتى ولو مشى بين الناس ظاهراً. إنه مجرد

دمية، مجرد ريشة، مجرد هباء؛ إنه لا شيء، لأنه لا قرار له ولا حرية ولا ذاتية.

من هنا فإن معطيات قيمة المسؤولية كبيرة، وإنما أوجزنا الحديث عنها لأنها مبحوثة مفصلة في مواضعها المناسبة.

باء / أحكام المسؤولية

نستلهم من جملة الآيات الكريمة طائفة من الأحكام الفقهية الفرعية، التي نستفيدها أيضاً من نصوص أخرى. فنحن نفصل فيها القول إن شاء الله في مواقعها، وإنما نشير إليها هنا لتكتمل أطراف البحث عن هذه القيمة الأساسية وما يفيض عنها من معارف هامة.

أولاً: لأن الإنسان يأتي ربه غداً فرداً ليسأل عما آمن به، هل كان على هدى أم في ضلال بعيد؟ فإن عليه أن يختار طريقه بنفسه دون تقليد الآباء، وأن يبحث عن الحق يأخذه أنى وجده، وكيف وجده، موافقاً لسنة السابقين أم مخالفاً.

ومن هنا فقد أكد كثير من فقهاء الاسلام على حرمة التقليد في العقائد الدينية، وضرورة البحث الشخصي فيها. وهكذا نجد العلامة الفقيه الطباطبائي اليزدي يقول في كتاب العروة: محل التقليد ومورده هو الأحكام الفرعية العملية، فلا يجري في أصول الدين. (١) ويقول المرجع الحكيم في شرحه على هذه المسألة: إجماعاً ادعاه جماعة، بل ادعى إجماع

(١) العروة الوثقى، طبعة دار الكتب الاسلامية، طهران، ص٩، في مسائل الاجتهاد والتقليد، المسألة ٦٧.

المسلمين عليه. (١) واستدل عليه بما يرجع الى أن العقل يهدي الى وجوب دفع الضرر الذي قد يترتب على الجهل بالله ورسوله، ولا يمكن أن يدفع ذلك بالتقليد. (٢)

وقال المرجع الشيرازي: ويدل على وجوب النظر (وعدم جواز التقليد في أصول الدين) من الاجماع ما ادعاه العلامة (الطلي رحمه الله) في الباب الحادي عشر بقوله: أجمع العلماء كافة على وجوب معرفة الله تعالى وصفاته الثبوتية والسلبية، وما يصح عليه وما يمتنع عنه، والنبوة والإمامة والمعاد بالدليل لا بالتقليد. (٣)

واستدل المرجع الشيرازي بأدلة عقلية وبآيات قرآنية (كالتالي تلونها أنفاً) وبنصوص من الحديث الشريف.

ولا ريب إن الإجماع في هذا الأمر العقلي دليل ضعيف، أما النصوص فإن قيمتها موضوعية، لأنها تثير عقل الانسان وتوقضه من سباته، على أنها ذات قيمة ذاتية لمن آمن بالله وكتابه ورسوله، لأنها تدله على ضرورة التفكير في سائر الأصول العقائدية.

ولكن حرمة التقليد في أصول الدين إن ثبتت، لا تتنافى وضرورة السؤال من أهل الذكر في الحقائق العلمية. ولكن تتنافى مع القبول بها بلا تفكر ولا يقين.

ثانياً: على الإنسان أن يقيم الثقافة الموروثة ليعرف أولاً؛ ماهو الحق منها وماهو الباطل، وليعرف ثانياً؛ ماهي النافعة منها حسب تطورات العصر، ومعيار التقييم العقل والوحي.

(١) مستمسك العروة الوثقى للمرجع السيد محسن الحكيم، طباعة دار الكتب العلمية - قم إيران، ج١، ص ١٠٣.

(٢) المصدر (ببيان منا).

(٣) الفقه للمرجع السيد محمد الشيرازي، طباعة دار العلوم - بيروت لبنان-، ج١، ص ٤٥٥ نقلاً عن الباب الحادي عشر ص ٦.

وقد تحدثنا في الجزء الثاني من هذه الموسوعة عن: ماذا ينبغي أن يبقى من الثقافة، وماذا ينبغي أن يتغير، وكيف ينبغي أن نقيّمها وعلى أية مقاييس. ثالثاً: المجتمع يضح تياراً من الثقافة باتجاه فكر الإنسان. وبمجرد أن يغفل الفرد، فإن هذا التيار الزاخر يملأ أروقة فؤاده. وإنما بالانتباه الدائم والتقييم المستمر والتفكير القائم على أسس عقلية واضحة، يستطيع كل فرد أن يميّز بين الصائب والخطأ من هذا التيار..

وكما المجتمع الكبير المحيط بنا، كذلك التجمعات الطبيعية (العشيرة والبلد)، والسياسية (الحزب والنقابة).. إنها هي الأخرى توجه سيلاً من الأفكار تلقاء أفئدة أفرادها. ومن دون التقييم

الجدى من قبلهم، فانهم ينسابون فيها، وقد يضلون السبيل ضلالاً بعيداً. وهكذا ينبغي أن تكون علاقة الإنسان مع محيطه وبيئته، علاقة حذرة قائمة على أساس الاستماع الناقد، الذي يقول عنه سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَمِشْرُ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر / ١٧-١٨)

الوحي الذي يتجلى في هدى الله، والعقل الذي هو هبة الله لأولي الألباب، إنهما معيارا تقييم عباد الله في إستماعهم للقول إستماعاً جيداً، ووعيمهم للأحسن ثم إتباعه. وأول شرط هذا المستوى من الوعي إجتنب الطاغوت، والذي يتمثل في تحدي ثقافته وسلطته، وتجاوز هيئته وخشيته، والاستقلال الثقافي عن مصادر توجيهه. إن إجتنب الطاغوت هو التجلي الأمثل للمسؤولية، ومظهر الطاغوت هو السلطان الظالم، أما مخبره فهو مجتمع فاسد وثقافة سلطوية فاسدة.

ومن هنا فقد جاء في الحديث الشريف: عن الفضل، عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قال: قال لي: أبلغ خيراً وقل خيراً، ولا تكونن إمعة. قال: وما الإمعة؟ قال: لا تقولن أنا مع الناس، وأنا كواحد من الناس. (١)

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢١، ح ٦٢.

وجاء في حديث آخر عن النبي عيسى عليه السلام: كونوا نقاد الكلام. (١)
رابعاً: هناك بعض الأحكام الفقهية الأخرى التي تتصل بالمسؤولية الفردية،
نذكر فيما يلي نماذج منها:

أ- يحرم في الإسلام العقاب الجمعي، سواءً في الحرب أو في السلم. فلا
يجوز استخدام أسلحة الدمار الشامل إلا في ظروف إستثنائية، وقد فصلنا
القول في ذلك في كتاب الجهاد في الجزء السابع؛ كما يحرم قتل الصبيان
والمجانين في الحرب.

ب- إذا إجتمع السبب والمباشر، وكان المباشر ذا مسؤولية، فإنه يكون
المسؤول الأول. مثلاً إذا حفر أحدهم بئراً، ثم دفع الآخر الثالث فيها فمات،
فإن المسؤول هو الدافع.

ج- وكذلك لا يقتص من المرأة الحامل إذا كانت جانية، حتى ولو تجدد
حملها بعد الجناية. وحتى بعد الولادة، فإن هناك قولاً بضرورة الصبر حتى
يستقل الولد قبل القصاص منها. قال المحقق الحلي في الشرائع: وهل يجب
على الولي الصبر حتى يستقل الولد بالاغتذاء؟ قيل: نعم دفعاً لمشقة إختلاف
اللين. والوجه تسليط الولي إن كان للولد ما يعيش به من غير لبن الأم،
والتأخير إن لم يكن. (٢)

وهكذا نجد إن المسؤولية الذاتية تحمل صاحبها نتائج أفعاله، وتجنب
الآخرين تلك المسؤولية، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، والله المستعان.

(١) المصدر، ص ٩٦، ح ٣٩.

(٢) شرائع الإسلام، كتاب القصاص، الفصل الرابع في كيفية الاستيفاء، المسألة الثامنة.

الملكية

حين خلق ربنا الإنسان، خلقه في أحسن تقويم، وأسجد ملائكته أجمعين لآدم أبي البشر عليه السلام. فلما أبى إبليس أن يكون مع الساجدين، لعنه وأبعده. ولقد كرم بني آدم حين سخر لهم ما في الأرض، وحملهم في البر والبحر، وحين رزقهم من الطيبات. ولعل هذه الكرامة الإنسانية هي القيمة المثلى التي فاضت منها قيم أخرى؛ مثل تسخير الطبيعة للإنسان، وتخويله صلاحية التصرف فيها، وتمليكه الأموال، ورزقه من الطيبات، والإنعام عليه بالذرية، وتحميلة المسؤولية بعد منحه وسائلها وشروطها من القدرة والحرية، وأمره بأن يستعمرها ويمشي في مناكبها ويأكل من رزق الله فيها. وفي إطار هذه الرؤية الشاملة الى دور البشر في الأرض، نعرف الملكية الفردية والجماعية وهدفها وحدودها وأنظمتها.

١/ لقد كرم الله سبحانه بني آدم (بعد أن كرم أباهم آدم عليه السلام، وأسجد ملائكته له، وأسكنه الجنة). وكان من تجليات كرامة الله للبشر:

ألف: أنه حملهم في البر حين سخر لهم الدواب (كما ألان لهم الحديد، وسخر النار لهم، ومنحهم العلم والقدرة لصناعة وسائل النقل)، وحملهم في البحر (حين علمهم كيف يصنعون السفن ويستخدمونها لأسفارهم).

باء: ومن تجليات كرامة الله للناس؛ أن رزقهم من الطيبات، فهم مخولون للانتفاع من النباتات ولحوم مختلف الحيوانات بقدر حاجتهم.

جيم: ومن تجليات كرامة الله لبني آدم؛ أنه فضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً. (فهداهم الى الصراط المستقيم، وجعل تساميمهم وتكاملهم في التمسك

به، لكي يصبحوا أسمى حتى من الملائكة). قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الاسراء/٧٠)

٢/ وهكذا كانت الأنعام مسخرة من عند الله للإنسان، كما الفلك في البحر. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (الزخرف/١٢)

٣/ وهذا التسخير شمل البحر، فترى البشر يصنع بفضل نعم العلم والقدرة والمشينة التي وقرها الله له، يصنع السفن التي تمخر عباها؛ سواءً منها سفن الصيد والغوص واستخراج المعادن، أو سفن النقل والتجارة. قال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيَّةً تُبْسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِيَبْتَلِيَهُمْ فِيهِ وَتَلْبَسُوهَا وَتَلْعَكُمُ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل/١٤)

٤/ وهذا التسخير ليس بلا حدود، ومن دون أية قيود، إنما هو تحويل للصلاحيات في حدود معينة ولأهداف محددة وإلى أجل مسمى. قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الانعام/٩٤)

وهكذا يمنح تسخير الطبيعة للإنسان صلاحية الانتفاع بها، لغايات بينها له ربنا سبحانه عبر الوحي والعقل. وقد ورد عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام قوله (في معنى التمليك) ما يؤيد هذا المعنى في التحويل، قال عليه السلام: إنا لا نملك مع الله شيئاً، ولا نملك إلا ما ملكنا. فمتى ملكنا ما هو أملك به منا كلفنا، ومتى ما أخذنا ما وضع تكليفه عنا. (١)

(١) ميزان الحكمة، ج٩، ص ١٧٦.

٥/ وهدف التحويل الفتنه، حيث إن الله يبتلي البشر بما آتاهم من نعمه. قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نًا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَا نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر/٤٩)

٦/ وقد بيّن الله عدّة أهداف لتسخير البحر للبشر؛ إستخراج الرزق منه، والزينة، وهكذا التجارة عبره. قال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِيَبْتَلُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل/١٤)

٧/ والعلم الذي وفره الله للبشر، سخر له به ما في السماوات والأرض. قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (لقمان/٢٠)

٨/ والتمليك تم في حدود التحويل والتسخير، وضمن أهدافهما السامية. قال ربنا سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (يس/٧١)

وهكذا تجد الملكية (ولعل معناها هنا التسلط والهيمنة) من نعم الله على البشر. فالملكية هنا هي نتيجة التسخير. فلأن الله سخر للإنسان ما في السماوات والأرض، لذلك كان قادراً عليهما بما أقره الله عليه منهما.

٩/ ولا يجوز أن يتخذ الإنسان إملاكه ناصية السلطة أو المال وقدرته على تسخير الطبيعة، وسيلة الاستكبار على الناس، كما فعل فرعون؛ لأن الملك لله، وإنما هو مخول بالتصرف فيه حسب فترة محدودة، ولهدف محدد. ومن هنا فقد أخطأ فرعون إذ قال ما حكى الله عنه بقوله سبحانه: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف/٥١)

١٠/ ولا يجوز أن يحسد أحد غيره على ما آتاه الله من الملك، لأن الملك لله يورثه من يشاء من عباده. قال الله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى

مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَاتَيْنَاهُمْ
مُلْكًا عَظِيمًا ﴿النساء/٥٤﴾

11/ ومن مفردات الملكية (والقدرة على الطبيعة)؛ قيمة المال، (ذلك لأن
المال هو نتيجة الملكية). وللمال حكمته التي لو تجاوزها لأصبح وبالاً على
صاحبه، وفساداً في المجتمع عريضاً. وقد بين ربنا بعض هذه الحكمة عبر
قصة قارون، الذي أوتي مالا فلم يحسن التصرف فيه، وخسف الله به وبداره
الأرض.

وأول ما ذكر به الرب عند بيان المال وكيف نتعامل معه، أن تجنب الفرح
به. فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَعَاتَيْنَاهُ مِنَ
الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوتُوا بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿القصص/٧٦﴾

ولعل الفرح بالمال هو الاغترار به، وجعله قيمة سامية في حياة الفرد،
وتقييم كل شيء على أساسه.

وبناءً على ذلك، لا ينبغي أن يصبح المال إلهاً يعبد من دون الله، فإذا عبده
الإنسان أنساه الله نفسه وأنساه قيمه السامية وأهدافه المعنوية.

١٢/ وقد وصّى الله سبحانه الإنسان بابتغاء مرضاته بالمال ودفع حقوق
الناس المفروضة فيه.

ووصّى سبحانه بالانتفاع بالمال لما يصلح حياته، من الطعام الزكي منه بلا
سرف، والزينة بلا استكبار أو تذبذب.

وكذلك وصّى سبحانه بالإحسان الى الناس.

وأيضاً أمر الله سبحانه الإنسان بتجنب الفساد به، كما فعل فرعون إذ اتخذ
المال وسيلة الاستكبار، أو كما فعل قارون إذ خرج في زينته وجعل المال
وسيلة للتضليل. قال الله سبحانه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿القصص/٧٧﴾

١٣/ وقد حذر الله المؤمنين من أن يلتفتوا بأموالهم عن ذكر الله. قال الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (المنافقون/٩)

١٤/ بينما جعل مشكاة نوره في قلوب الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فقال الله سبحانه: ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (النور/٣٧)

١٥/ بل المؤمنون يذكرون الله كلما تتعموا بما أسبغ عليهم من آلائه، فيشكرونه بأفئدتهم وألسنتهم وأيديهم، حيث يؤدون حق النعمة، ويعملون شكراً. قال الله سبحانه: ﴿ لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (الزخرف/١٣)

١٦/ وقال الله سبحانه: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (سبأ/١٣)

والحقيقة إن الهدف الأسمى للمال والملك ولسائر نعم الله على الإنسان، هو عبادة الله، والتقرب إليه بالذكر والشكر.

١٧/ وينبغي أن يخدم المال الصلاح والاصلاح في المجتمع، لأن الله سبحانه جعل المال للناس قياماً. إذ قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (النساء/٥)

ونستوحي من الآية؛ إن حكمة قيام المجتمع بالمال ونظم حياته الاقتصادية، هي وراء حجر

السفهاء عن استخدام أموالهم، لأنهم قد يفسدون إقتصاد المجتمع. بلى؛ إن لهم الحق في الرزق والكسوة من أموالهم، أو فيها باستثمارها لهم.

ولعل هذه الحكمة التي أشار إليها الرب في قوله سبحانه، في سورة القصص، في قصة قارون ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ لعلها هي التي تسمح للدولة الإسلامية إجبار المحتكرين على بيع بضائعهم.

١٨/ ولكي يقوم المجتمع بالمال، ويصبح المال وسيلة نظم الاقتصاد، وإقامة القسط، وتنشيط الناس وتشجيعهم على العمل الصالح، وإستعمار الأرض وإصلاحها.. لكل ذلك يحرم أكل الناس بالباطل، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/١٨٨)

١٩/ ومن الباطل الربا، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء/١٦١)

٢٠/ ومن الباطل أكل أموال الناس بالتطيف في المكيال والميزان، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين/١-٣)

٢١/ ومن الباطل أكل أموال الناس بالتحاكم الى الطاغوت، أو الإدلاء الى الحكام، كما قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء/٦٠)

٢٢/ وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/١٨٨)

٢٣/ ومن الباطل أكل أموال الناس باسم الدين، كما قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة/٣٤)

ولعل من ذلك صكوك الغفران، التي كان يرتزق بها الأحرار والرهبان.

٢٤/ ومن الباطل السحت، الذي قال عنه الله سبحانه: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمْ
الرَّبَّاتِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ
﴿ (المائدة/٦٣)

ومن أكل السحت -حسب الأحاديث- ثمن البغي والرشوة، وثمر كل فعل
حرام أو شيء حرام.

٢٥/ ومن الأمور التي تحقق الحكمة من المال (التمثلة في كونه وسيلة
إصلاح وقيام) هو الاقتصاد في صرفه. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا
لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان/٦٧)

٢٦/ ومن تلك الحدود حرمة الاسراف. قال الله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ
خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ
﴿ (الاعراف/٣١)

٢٧/ ومنها حرمة التبذير. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ
الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الاسراء/٢٧)

٢٨/ ومنها الانتفاع بالمال، وعدم النقص الى حد الحرمان؛ ومنها إيتاء
حق المال. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ
مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرِّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَعَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الانعام/١٤١)

٢٩/ ومنها إيتاء حقوق الله من الزكاة والخمس، وصلة الأرحام، والانفاق
على المحتاجين، وما أشبه. إذ قال سبحانه في صفة المتقين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة/٣)

٣٠/ ولعل القيمة المثلى والكلمة العليا التي تجمع سائر حكم المال، هي
القسط، والذي يعني إيتاء الناس جميعاً حقوقهم بالكامل. والقسط روح الشرائع
الالهية، وغايتها السامية. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ

وَمَنَافِعِ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾
(الحديد/٢٥)

٣١/ وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء/١٣٥)

فالمال أداة إقامة القسط وأداء الحقوق، وهذه حكمته التي لو تجاوزها رد إليها.

فقه الآيات

إذا كانت حكمة القسط هي الهدف الأمثل من المال والملكية، فإن القيام وتنظيم الحياة الاجتماعية على أساس القسط) جانب من تلك الحكمة العامة. فلو خالفت الملكية إقامة القسط وصلاح المجتمع، وأصبحت أداة بغي وإستكبار، ووسيلة نشر الفساد، فإنها تحدد.

ولذلك جاء في الحديث النبوي الشريف، إنه "لا ضرر ولا ضرار". (١) ولأن الضرر الناشئ من الملكية (مثل ملكية ذلك الرجل لنخلة في بيت الأنصاري) يخالف حكمة الملكية، جاز للأنصاري أن يقطع نخلة ذلك الرجل وأن يرمي بها وجهه. وقد إستفاد الفقهاء فروعاً كثيرة من هذا الحديث الشريف، وترجع تلك الفروع عند التدبر فيها الى تحكيم كلمة القسط في القضايا المالية. فاذا أضر إستخدام شخص لحق من حقوق الملكية بالآخرين حددت ملكيته.

والأمثلة الفقهية الكثيرة لتحديد الملكية أو إنتزاعها، يمكن أن تفهم في إطار هذه الحكمة العليا (القسط)، والذي به صلاح الناس. فتصبح رؤيتنا لهذه الحكمة أجلي وأصفي، فنستطيع أن نفرع عليها فروعاً جديدة في المسائل

(١) ميزان الحكمة، ج٥، ص٤٩٢، ح١٠٧١٧.

المستحدثة. والذي يجمع حكمة المال وفروعاً كثيرة من أحكامه، الحديث الشريف الذي يعتبر من المحكمات، التي لا بد أن نرجع إليها سائر الفروع المتشابهة. والحديث يوضح أبعاد حكمة المال (الملكية)، وهي تحقيق قوام المجتمع وصلاحه، وتجنب ما ينتهي إليه فساد.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه سئل عن معاش العباد، فقال: جميع المعاش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات، ويكون منها حلال من جهة، حرام من جهة. فأول هذه الجهات الأربعة؛ الولاية، ثم التجارة، ثم الصناعات تكون حلالاً من جهة حراماً من جهة، ثم الاجارات. والفرض من الله تعالى على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال، والعمل بذلك الحلال منها، واجتناب جهات الحرام منها. فاحدى الجهتين من الولاية؛ ولاية العدل الذين أمر الله بولايتهم على الناس، والجهة الأخرى ولاية ولاية الجور. فوجه الحلال من الولاية، ولاية الوالي العادل، وولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالي العادل بلا زيادة ولا نقصان. فالولاية له والعمل معه ومعونته وتقويته حلال محلل. وأما وجه الحرام من الولاية، فالولاية الوالي الجائر وولاية ولاته. فالعمل لهم والكسب معهم بجهة الولاية لهم حرام محرّم، معذب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير، لأن كل شيء من جهة المؤنة له معصية كبيرة من الكبائر. وذلك أن في ولاية الوالي الجائر دروس الحق كله، فلذلك حرم العمل معهم ومعونتهم والكسب معهم، إلا بجهة الضرورة نظير الضرورة الى الدم والميتة. وأما تفسير التجارات في جميع البيوع ووجوه الحلال من وجه التجارات التي يجوز للبايع أن يبيع مما لا يجوز له، وكذلك المشتري الذي يجوز له شراؤه مما لا يجوز له. فكلّ مأمور به ممّا هو غذاء للعباد، وقوامهم به في أمورهم في وجوه الصلاح الذي لا يقيمهم غيره ممّا يأكلون ويشربون ويلبسون وينكحون ويملكون ويستعملون من جميع المنافع التي لا يقيمهم غيرها، وكل شيء يكون لهم فيه الصلاح من جهة من الجهات، فهذا كلّ

حلال بيعه وشرائه وإمساكه وإستعماله وهبته وعاريته. وأما وجوه الحرام من البيع والشراء فكل أمر يكون فيه الفساد مما هو منهي عنه من جهة أكله أو شربه أو كسبه أو نكاحه أو ملكه أو إمساكه أو هبته أو عاريته، أو شيء يكون فيه وجه من وجوه الفساد، نظير البيع بالربا أو البيع للميتة أو الدم أو لحم الخنزير أو لحوم السباع من صنوف سباع الوحش والطيور أو جلودها أو الخمر أو شيء من وجوه النجس. فهذا كلّه حرام ومحرمّ، لأن ذلك كلّه منهي عن أكله وشربه ولبسه وملكه وإمساكه والتقلّب فيه، فجميع تقلّبه في ذلك حرام. وكذلك كل بيع ملهوّ به، وكل منهي عنه مما يتقرب به لغير الله أو يقوى به الكفر والشرك من جميع وجوه المعاصي، أو باب يوهن به الحق، فهو حرام محرّم بيعه وشرائه وإمساكه وملكه وهبته وعاريته وجميع التقلّب فيه، إلا في حال تدعو لضرورة فيه الى ذلك. وأما تفسير الاجارات؛ فاجارة الإنسان نفسه أو ما يملك أو يلي أمره (إلى أن قال:) وأما تفسير الصناعات فكلمًا يتعلّم العباد أو يعلمون غيرهم من أصناف الصناعات مثل الكتابة والحساب والتجارة والصياغة والسراجة والبناء والحياسة والقصاراة والخياطة وصناعة صنوف التصاوير مالم يكن مثل الروحاني وأنواع صنوف الآلات التي يحتاج إليها العباد، منها منافعهم، وبها قوامهم، وفيها بلغة جميع حوائجهم، فحلال فعله وتعليمه والعمل به وفيه لنفسه أو لغيره، وإن كانت تلك الصناعة وتلك الآلة قد يستعان بها على وجوه الفساد ووجوه المعاصي، وتكون معونة على الحق والباطل، فلا بأس بصناعته وتعليمه، نظير الكتابة التي هي على وجه من وجوه الفساد تقوية ومعونة لولاية الجور، كذلك السكين والسيف والرمح والقوس وغير ذلك من وجوه الآلة التي تصرف الى جهات الصلّاح وجهات الفساد، وتكون آلة ومعونة عليهما، فلا بأس بتعليمه وتعلّمه وأخذ الأجر عليه والعمل به وفيه لمن كان له فيه جهات الصلّاح من جميع الخلائق، ومحرّم عليهم فيه تصريفه الى جهات الفساد والمضارّ. فليس على العالم والمتعلّم إثم ولا وزر لما فيه من الرجحان في منافع جهات صلاحهم

وقوامهم وبقائهم، وإنما الإثم والوزر على المتصرف بها في وجوه الفساد والحرام. وذلك إنما حرم الله الصناعة التي هي حرام كلها التي يجيء منها الفساد محضاً، نظير البرابط والمزامير والشطرنج وكلّ ملهوبه، والصلبان والأصنام وما أشبهه من ذلك من صناعات الأشربة الحرام. وما يكون منه وفيه الفساد محضاً، ولا يكون منه ولا فيه شيء من وجوه الصّلاح، فحرام تعليمه وتعلّمه والعمل به وأخذ الأجر عليه، وجميع التقلّب فيه من جميع وجوه الحركات كلّها، إلا أن تكون صناعة قد تتصرّف الى جهات الصناعات، وإن كان قد يتصرّف بها ويتناول بها وجه من وجوه المعاصي، فلعلّة ما فيه من الصّلاح حلّ تعلّمه وتعليمه والعمل به، ويحرم على من صرفه الى غير وجه الحق والصّلاح. فهذا تفسير بيان وجه إكتساب معائش العباد وتعليمهم في جميع وجوه إكتسابهم. (إلى أن قال:) وأمّا ما يجوز من الملك والخدمة فسنة وجوه؛ ملك الغنيمة، وملك الشراء، وملك الميراث، وملك الهبة، وملك العارية، وملك الأجر. فهذه وجوه ما يحلّ وما يجوز للإنسان إنفاق ماله وإخراجه بجهة الحلال في وجوهه، وما يجوز فيه التصرف والتقلّب من وجوه الفريضة والنافلة. (١)

ومن هنا فقد أفتى الفقهاء - عليهم الرحمة- بحرمة التكبس بالأموال التالية:

(٢)

فالمحرم منه (ما يكتسب به) أنواع:

الأول: الأعيان النجسة كالخمرة، والأنبذة والفقاع، وكل مائع نجس عدا الأدهان، لفائدة الإستصباح به تحت السماء، والميتة والدم وأرواث وأبوال ما لا يؤكل لحمه. ثم قال:

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٥٤-٥٧.

(٢) ننقل النص التالي من كتاب شرائع الإسلام للمحقق الحلي في كتاب التجارة، طباعة النجف الأشرف - مطبعة الآداب، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، ج ٢، ص ٩ وما بعد.

الثاني: ما يحرم لتحريم ما قصد به، ك: آلات اللهو، مثل العود والزمير، وهياكل العبادة المبتدعة كالصليب والصنم، وآلات القمار كالنرد والشطرنج، وما يفضي الى المساعدة على محرّم كبيع السلاح لأعداء الدين، وإجارة المساكن والسفن للمحرمات، وكبيع العنب ليعمل خمراً، وبيع الخشب ليعمل صنماً. ثم قال:

الثالث: ما لا ينتفع به كالمسوخ؛ برية كانت كالقرد والدب، وفي الفيل تردد. ثم قال: وقيل يجوز بيع السباع كلها، تبعاً للانتفاع بجلدها أو ريشها، وهو الأشبه.

الرابع: ما هو محرّم في نفسه، كعمل الصور المجسّمة والغناء ومعونة الظالمين بما يحرم. (١)

وهكذا نجد إن الشريعة قد وسعت مفهوم الباطل، الذي يحرم أكل الناس به. فليس الباطل مجرد سرقة المال أو إنتهابه، بل وأيضاً كل ما يؤدي الى فساد المجتمع بسبب المال (كأجرة ولاية الجائر أو بيع النجس أو غير النافع أو الضار أو الأجرة على حرام) فإنه باطل، لأن الحكمة من المال إصلاح المجتمع، فما خالف هذه الحكمة اعتبر باطلاً وحراماً. وقد أوضحت الرواية الأنفة الذكر هذه الحقيقة بجلاء، مما جعلنا على ثقة كافية بهذه الحكمة، وعلى بصيرة من أبعادها. ومن أبعادها؛ تعاطي كل محرّم. فالتجارة بالمخدرات أو بما يخالف النظام الاقتصادي القائم إذا كان مشروعاً وعدلاً، فإنه حرام. مثلاً تهريب البضائع أو تقليد ماركاتها أو غسل الأموال المحرّمة، أو ما أشبه فإنه من الباطل.

ومن ذلك النظام الربوي الذي يفسد الاقتصاد، ومنه الاحتكار، ومنه الغش والتدليس والبيع الغرري، ومنه كل ما فيه ضرر على الفرد أو المجتمع. ويمكن للفقهاء أن يستوحي من كل ذلك أحكام الملكية، التي تسبب فساداً سياسياً أو إجتماعياً. فإذا كانت الثروة بيد طائفة من الناس يستفيدون منها في

(١) شرائع الإسلام، ج ٢، ص ١٠.

العلو في الأرض (كما فعل فرعون)، أو إفساد أخلاق الناس (كما فعل قارون)، فإن على الناس الوقوف أمامهم بحزم. وقد منع القرآن الكريم تداول الثروة بيد طائفة خاصة من الناس، فقال الله سبحانه: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر/٧)

وإذا عرفنا حكمة المال، وعرفنا سائر القيم العليا التي تحيط بحياة الإنسان، مثل إحترام البشر والاعتراف بحقوقه، ومنها الاعتراف بجهده (مما يورث الملكية الفردية)، وحقه في الحياة الكريمة (مما يورث حق المجتمع في الملكية). إذا عرفنا ذلك، فإن علينا أن نستنبط أحكام الفروع المتشابهة من تلك القيم بعد دراسة عميقة للظروف، ولكيفية القيم عليها. فلا يجوز أن نحكم على الاسلام حكماً مطلقاً بأنه يميل الى الرأسمالية (والمزيد من الاعتماد على الملكية الفردية)، أو الى الاشتراكية (والمزيد من الاهتمام بالحقوق الاجتماعية في الأموال وتنظيم الدولة لكثير من المرافق الاجتماعية).

المهم هو أن يكون المال قواماً، ووسيلة صلاح البشر. وهذا لا يكون دائماً بصورة واحدة، بل يختلف حسب الظروف الزمانية والمكانية إختلافاً كبيراً.

تطبيقات خارجية لحكمة المال

ونحن في ختام حديثنا هذا نشير الى جملة فروع نكرت في الأحاديث أو في الفقه، والتي تعتبر تطبيقات لحكمة المال، وهي مجرد أمثلة وإلا فإن الفقه (كما الأحاديث) يزخر بالمزيد من تلك التطبيقات.

لقد حثّ الدين الاسلامي على النشاط والعمل، ونهى عن الضجر والكسل، ورجب في إكتساب المال. مما يهدينا الى أن حكمة المال تنشيط المجتمع، وإصلاح أمورهم.

١/ إعتبر الدين ترك التجارة نوعاً من الهوان، ويسبب في ضعف العقل. فقد روي عن الفضل بن أبي قررة، أنه قال: سأل أبو عبد الله (الإمام الصادق)

عليه السلام عن رجل وأنا حاضر، فقال: ما حبسه عن الحَجِّ؟ فقيل: ترك التجارة، وقل شئيه. قال: وكان متكناً فاستوى جالساً، ثم قال لهم: لا تدعوا التجارة فتهونوا، اتَّجروا بآرك الله لكم. (١)

وقال الإمام الصادق عليه السلام: التجارة تزيد في العقل. (٢)
٢/ وندب الاسلام الى طلب الرزق، واعتبر الغنى عوناً على التقوى، ورغب في الأمل أبداً. فقد روي عن خالد بن نجيج، أنه قال: قال أبو عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) إقرأوا من لقيتم من أصحابكم السلام، وقولوا لهم: إن فلان بن فلان يقرأكم السلام، وقولوا لهم: عليكم بتقوى الله وما ينال به ما عند الله. إني والله ما أمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجدِّ والاجتهاد، وإذا صليتم الصبح فانصرفتم فبكروا في طلب الرزق، واطلبوا الحلال، فإن الله سيرزقكم ويعينكم عليه. (٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم العون على تقوى الله الغنى. (٤)
وقال أمير المؤمنين عليه السلام: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى بن عمران خرج يفتبس ناراً لأهله فكلمه الله ورجع نبياً، وخرجت ملكة سباً فأسلمت مع سليمان، وخرجت سحرة فرعون يطلبون العزَّ لفرعون فرجعوا مؤمنين. (٥)

٣/ وحذرت التعاليم الدينية لائمة أهل البيت عليهم السلام من الكسل وكثرة النوم وإستساعة الفراغ وما أشبهه، مما يمنع طلب الرزق، ويعطل دور الإنسان في الحياة، مما يخالف حكمة المال التي هي إقامة المجتمع وإصلاحه. فقد

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص ٧، ح ٦.

(٢) المصدر، ص ٨، ح ١٢.

(٣) المصدر، ص ١٢، ح ٨.

(٤) وسائل الشيعة، ج١٢، ص ١٦، ح ١.

(٥) المصدر، ص ٣٣، ح ٣.

روي عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام، أنه قال: إِنَّ الله عزَّ وجلَّ
يبيغض كثرة النوم، وكثرة الفراغ. (١)

وعن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام قال: إني لأبغض الرجل
أو أبغض للرجل أن يكون كسلاناً عن أمر دنياه، ومن كسل عن أمر دنياه فهو
عن أمر آخرته أكسل. (٢)

وقال الإمام الصادق عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله
يحبب عنز أهله. (٣)

٤/ ودعا أهل البيت عليهم السلام الى إصلاح المال وتقدير المعيشة، حيث
إنهما يساهمان في صلاح المجتمع وقوامه. فقد روي عن أبي عبد الله (الإمام
الصادق) عليه السلام قال: إصلاح المال من الايمان. (٤)

وروى داود بن سرحان قال: رأيت أبا عبد الله (الإمام الصادق) عليه
السلام يكيل تمرأ بيده، فقلت: جعلت فداك؛ لو أمرت بعض ولدك أو بعض
مواليك فيكفيك. قال: يا داود؛ إنه لا يصلح المرء المسلم إلا ثلاثة: التفقه في
الدين، والصبر على النائبة، وحسن التقدير في المعيشة. (٥)

٥/ ومن ذلك ما ذكره المحقق الحلي في باب إحياء الموات من حكم الماء
الفائض عن النهر المملوك فقال: (ما حكم) ما يفيضه النهر المملوك من الماء
المباح؟ قال الشيخ (الطوسي) لا يملكه الحافر (المالك للنهر) ويعتبر هذا
الفائض عند الشيخ كما إذا جرى السيل الى أرض مملوكة.

(١) المصدر، ص ٣٦، ح ١.

(٢) المصدر، ص ٣٧، ح ١.

(٣) المصدر، ص ٣٩، ح ٢.

(٤) المصدر، ص ٤٠، ح ٢.

(٥) المصدر، ص ٤١، ح ٥.

ثم قال: فإن وسعهم أو تراضوا فيه، فلا بحث. وإن تعاسروا، قسّم بينهم على سعة الضياع. ولو قيل يقسم على قدر إنصبائهم من النهر، كان حسناً. (١)

وهكذا نجد الشيخ الطوسي يرى تقسيم الماء على قدر الحاجة إليه، وليس على قدر النصيب، إعتماً على حكمة الملكية. كما لا يرى لصاحب النهر ملكية للماء الفائض من نهره الذي حفره، لأن الماء الاضافي موهبة إلهية وليس يرتبط بالحافر.

٦/ والفقهاء الإسلامي فرض حق الشفعة، وهو حق الشريك في إمتلاك حصة شريكه إذا باعها من غيره. وهنا أيضاً تغلبت حكمة الملكية على حق المالك في أن يبيع حصته لأي شخص، حيث إن الشراكة مما تختلف فيها أنظار الناس، فلا يجوز فرضها على أحد الشريكين من دون إختياره. (٢)

٧/ وهناك رأي فقهي يرى تحديد تصرف المريض (بمرض الوفاة) في أمواله. فلا يجوز له أن يهب أو يحابي منها إلا بقدر الثلث الذي يجوز له الوصية به بعد وفاته، لتعلق حق الورثة بماله. وهنا أيضاً حددت صلاحية المالك نظراً إلى حكمة الملكية، وهي قوام المجتمع.

٨/ وفي باب إحياء الموات، يتعلق حق من حدّد أرضاً بأحجار أو بسور أو ما أشبهه، فيصبح أولى باحيائها من غيره. أمّا لو أهمل إحياءها، فإن الحاكم يجبره إمّا على إعمار الأرض أو رفع اليد عنها. ولو إمتنع أخرجها السلطان من يده، لئلا يعطلها. وهكذا تتغلب المصلحة العامة المتمثلة في إعمار الأرض على الحق الخاص.

(١) شرائع الإسلام، باب إحياء الموات.

(٢) المصدر، كتاب الشفعة.

الولاية الإلهية

إذا استوعب الايمان حياة المسلم، فاضت منه قيمة الولاية الإلهية، كما يفيض الماء الفرات من النبع الصافي . أوليست الولاية تعني القرب الذي يورث الأحقية بشؤون الفرد من أي شخص آخر، وربما من نفسه أيضاً؟ ثم أليس الايمان يعني إنصهار الفرد في بوتقة القيم الربانية ، حتى يكون الحق (وليس الهوى أو المصلحة) هو الحاكم عليه؟

وإذا كانت الولاية الإلهية راسخة في وجدان المؤمن وكيانه، فإنها تورث رسوخ ولاية الرسل والأولياء والمؤمنين عنده، كل حسب درجته وبميزان قربه من رب العزة – الذي هو محور الولاية -.

وهكذا كانت كل ولاية شرعية نابعة من ولاية الله، وشعبة منها.

أولاً: معنى الولاية

الذي يقتل يطالب بدمه أقرب الناس إليه، فهو وليه؛ والذي يرث الإنسان بعد وفاته، إنه أيضاً وليه؛ والذي يتبع أحداً، فهو أولى الناس به .

١/ المطالب بالثأر أشد الناس حياً للمقتول ودفاعاً عنه كالأب والابن والاخوة ، فهؤلاء هم أولياء الفرد وهم أقرب الناس إليه، ويتولون أموره، (ومن هذا نعرف معنى الولاية) . قال الله سبحانه: ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مُظْلوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ (الاسراء/٣٣)

٢/ والذي يرث المتوفي هو وليه (وهذا أيضاً يؤكد المعنى في الآية السابقة من الأقربية). قال الله سبحانه: ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿النساء/ ٣٣﴾

وهكذا تحددت الولاية عند الأقربين بالولادة؛ الأب والإبن، ثم الأقرب فالأقرب .

٣/ تلك كانت الولاية الفطرية (الطبيعية) وهناك الولاية الحضارية (الروحية) التي تتمثل في الاتباع. فأقرب الناس إليك، أقربهم الى مناهجك وأطوعهم لك وأشدهم إتباعاً. فأولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه، والنبى محمد صلى الله عليه وآله هو الأولى به، لأنه نبى مثله. والذين آمنوا أولى به، لأنهم اتبعوا ذات المنهج الذي كان عند النبى إبراهيم عليه السلام، ولأنهم جميعاً داخلون في حصن ولاية الله سبحانه. قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران/ ٦٨)

٤/ وهكذا الاتباع هو ميزان الولاية ، وقد قال ربنا سبحانه عن قوم اتبعوا غير سبيل المؤمنين بأنهم ليسوا على ولايتهم للمؤمنين : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء/ ١١٥)

ثانياً: الله المولى الحق

ولله الولاية الحق ، فإنه فاطر السماوات والأرض، وأن إليه مرد الناس جميعاً، وله الحكم يوم القيامة ، وهو الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين من عباده ، وهو الذي يخرج المؤمنين من الظلمات الى النور ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

١/ الولاية الحق إنما هي لمن يملك السماوات والأرض، ويحي ويميت (فيده الملك والحياة جميعاً). قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (التوبة/ ١١٦)

٢/ الذي فطر السماوات والأرض هو الولي الحق، وهو رب الدنيا والآخرة، ومدبر أمورهما. قال الله سبحانه (حكاية عن يوسف الصديق عليه السلام): ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (يوسف/ ١٠١)

٣/ والله هو الذي فطر السماوات والأرض، وهو الذي يرزق، فكيف نتخذ ولياً من دونه؟ قال الله سبحانه: ﴿ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام/ ١٤)

٤/ وهو ولي الآخرة، فأحرى أن يتخذ ولياً في الدنيا، (لأن الآخرة هي الحيوان). قال الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (الكهف/ ٤٤)

٥/ وقال ربنا سبحانه: ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الانعام/ ٥١)

٦/ والله هو الذي يهدي الى الحق، فهو الولي. (أليس من يهدي أحق أن يتبع ممن لا يهدي؟ والولاية الاتباع). قال ربنا سبحانه: ﴿ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (الاعراف/ ١٩٦)

وهناك حكمة أخرى للولاية الإلهية، هي أن الله يتولى من يتخذه ولياً وهم الصالحون، فهو نعم المولى .

٧/ وهكذا يتولى الله المؤمنين. (فهو الذي ينبغي أن يتخذه الإنسان ولياً، أو ليس البشر يحس بالضعف وبال الحاجة الى الولي ليقويه وينصره؟ والله خير نصير، فهو خير مولى). قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران/ ٦٨)

٨/ والله ينصر الذين يتخذونه ولياً. قال الله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ (آل عمران/ ١٥٠)

٩/ وقال الله سبحانه : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (محمد/١١)

١٠/ ومن هنا لا يخشى المؤمن أحداً من دون الله ، إذ يعتمد على مولاه الحق. قال الله سبحانه : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحریم/٤)

١١/ ودعاء المؤمنين ربهم بالنصر يسبقه الثناء عليهم بأنه مولاهم. (أليس المولى ينصر من يتخذه ولياً؟). قال الله سبحانه : ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة/ ٢٨٦)

١٢/ وهكذا يعيش المؤمنون سكينه كافية، ويعلمون أنه لا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم (بحكمته البالغة)، لأن الله مولاهم وعليه يتوكلون (فيكفيهم وهو حسبهم). قال الله سبحانه : ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة/٥١)

وهكذا يكون من آفاق ولاية الله التوكل عليه سبحانه .

١٣/ والله نعم المولى، لأنه ينصر عباده الصالحين الذين يتخذونه ولياً، وهو نعم النصير (إذ إنه قوي عزيز حكيم عليم). قال الله سبحانه : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الانفال/٤٠)

١٤/ والله سبحانه بصير بعباده، وحكيم في تدبير شؤونهم، فهو نعم المولى. قال الله سبحانه : ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (التحریم/٢)

١٥/ والله قادر على كل شيء، فهو ولي كل شيء. قال الله سبحانه : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الشورى/٩)

ثالثاً: ولاية أولياء الله

تفيض من ولاية الله قيمة تولى أولياء الله ، وكذلك كانت دعوة المؤمنين أن يجعل الله لهم ولياً من عنده ونصيراً ، وأمر الله بطاعة الرسول ، وجعل الطغيان عليه إرتداداً عن الدين. أما الذين أطاعوا الرسول وتولوا من بعده المؤمنين الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فانهم من حزب الله .

١/ لقد أمر الله المسلمين بالقتال لنجاة المستضعفين، الذين يدعون الله بأن يجعل لهم من لدنه ولياً ونصيراً. قال الله سبحانه : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء/٧٥)

ومن الآية نستلهم قيمة البحث عن ولي الله في الأرض، الذي ينقذ المستضعفين وينصرهم على المستكبرين .

٢/ ولعل هذا هو ما سأله النبي زكريا عليه السلام من ربه، حين قال الله سبحانه (حكاية عنه) : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ (مريم/٥)

٣/ الدخول في حصن الولاية الإلهية ، يقتضي الإنتماء الى حزب الله، والذي يتصف أبناؤه بحب الله ، والتراحم فيما بينهم (إلى حد التذلل)، والعزة أمام أعداءهم (إلى حد الشدة)، والجهاد دون خوف من لائم (يثير السلبات في التجمع وينزع الإشاعات)، وولاية الله والرسول والمؤمنين (خلفاء الرسول) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة راعين . تدبر في السياق التالي ثم انظر كيف ينعت القرآن حزب الله الغالب، فيقول ربنا تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ

يَتَوَلَّى اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٤﴾ (المائدة/٥٤-٥٦)

وبيصرنا السياق بأن الهدف الأسمى للولاية الخالصة لله وللرسول ثم للمؤمنين هو التكامل والتسامي الى مستوى تحقيق التجمع الجهادي في الامة، الذي يسميه القرآن الكريم بحزب الله. فهم منتمون الى تجمع، ولكن محور التجمع ليس العنصرية أو القومية أو أية قيمة جاهلية أخرى، إنما محوره حب الله والرسول ومن أمر الله والرسول بحبهم وطاعتهم، وهم أهل بيت الرسول الذين أشارت الآية إليهم، حيث جاء في التفسير أن الذي أقام الصلاة وآتى الزكاة راعياً، كان الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ونستفيد من الآية - أيضاً -؛ إن الطغيان على طاعة الرسول والإمام المنسوب من عند الله، قد يصل الى مستوى الإرتداد عن الدين - والله العالم -

٤/ والرسول أولى بالمؤمن من نفسه. (وهكذا تغلب أوامره مصالح المؤمن، ويسبق إختياره ما يختاره الفرد). قال الله سبحانه: ﴿التَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ مِنْ بَعْضِهِمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (الاحزاب/٦)

ونستفيد من الآية؛ إن ولاية الرسول أقرب من ولاية أولي الأرحام بعضهم لبعض .

رابعاً: ولاية المؤمنين

والمؤمنون أولياء بعضهم (في حدود الشريعة. فهم يشكلون مجتمعاً واحداً يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون حدود الله ، ويحسون بعضهم من أعدائهم، ويعينون بعضهم على المشاكل، وهكذا ..) .

١/ من آفاق ولاية المؤمنين لبعضهم، رقابتهم لبعضهم في تطبيق الشريعة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (فلا يجوز لمؤمن أن يستتكر على أخيه إذا أمره بالمعروف أو نهاه عن منكر، لأنه وليّ عليه في هذا الأمر). ومن

أفاق ولايتهم إقامتهم للصلاة (فبعضهم يراقب البعض في أمر الصلاة)، ومن ذلك إيتاءهم للزكاة (ذلك أن الزكاة تكافل مالي بينهم)، ومنها إطاعتهم للرسول. كل ذلك يقتضي نزول رحمة الله عليهم، حيث يقول ربنا سبحانه: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** (التوبة/٧١)

٢/ وشرط الولاية الهجرة، فمن لم يهاجر فلا ولاية له. (ولا فرق في الولاية بين المهاجر والمناصر والمواطن الذي تشرف بلده بحكم الدين). بلى؛ هناك جانب من الولاية، لا فرق فيه بين المهاجر وغير المهاجر، وهو وجوب نصره المسلم أنى كان إذا تعرض لخطر. قال الله سبحانه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** (الأنفال/٧٢)

٣/ بلى؛ من التحق بدار الهجرة من بعد، وجاهد الى جنب المؤمنين (فلم تكن هجرته للراحة)، فهو الآخر يدخل في إطار ولاية المؤمنين. قال الله سبحانه: **﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** (الأنفال/٧٥)

٤/ ونستوحي من آيات الولاية - هذه - إن القيم الايمانية هي التي تصوغ المجتمع المسلم؛ فالدين يوحدكم فيما بينهم، كما يفرقهم عن سواهم من المجتمعات غير المؤمنة. فلا رابطة الدم ولا اللغة ولا الاقليم هي التي تكون المجتمع السليم، بل الرابطة الايمانية وحدها محور العلاقة بين الناس. والسياق القرآني في سورة الأنفال يؤكد هذه الحقيقة، حيث يقول ربنا سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال/٧٣)

خامساً: آفاق الولاية الإلهية

وللولاية الإلهية أبعاد وآفاق؛ أبرزها ولاية النبي وأهل بيته والمؤمنين ، وقد سبقت منا الإشارة الى ذلك ، ومن هذه الآفاق الاستغفار والاعتصام والتوكل .

١/ حين يعتمر القلب بنور الولاية الإلهية يستريح إليها، ويستأنس بها، ويسعى الى الاستزادة من المعرفة، وبالتالي الى رفع الحجب التي أسدلها الذنب بينه وبين ربه وذلك بالاستغفار. وهذه صلة الولاية بالاستغفار، حيث يقول ربنا سبحانه (حكاية عن المؤمنين): ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَآيَاتُنَا فَأَعِزُّ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الاعراف/١٥٥)

٢/ حين يطمئن القلب الى ولاية الرب (والحب المتبادل بينهما)، فإن المؤمن يعتصم به عند الشدائد ، فلا يدع للحزن والوهن والخوف والتردد أن يتسرب إلى حريمه المصون بالتوكل والثقة بالله العزيز الحكيم. يقول ربنا سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَعَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج/٧٨)

٣/ ومن هنا كان الاعتصام بالله والتوكل عليه ضرورياً عند تطبيق أحكام الدين، وقد أمرنا بذلك في سياق الأمر بالأحكام. فلما حذرنا ربنا من محاولة الأعداء إضلالنا، ذكرنا بأنه ولينا. قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (النساء/٤٤-٤٥)

٤/ ومن آفاق الولاية، البراءة من أعداء الله. فهؤلاء الملائكة رفضوا الذين اتخذوا أرباباً من دون الله ، وقال الله عنهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبأ/٤٠ - ٤١)

٥/ لكي يواجه المؤمن ضعفه البشري، عليه أن يعرف أن الله ولي من اتقاه. فإذا كان الظالمون يتناحرون فيما بينهم، وإذا كان بعضهم أولياء بعض ، فإن الله ولي المتقين (يدفع عنهم كيد الظالمين ومكرهم). قال ربنا سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعَهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الجاثية/١٨-١٩)

وهكذا كانت الشريعة الواضحة التي جعل الله رسوله (والمؤمنين) عليها مخالفة لأهواء الظالمين، الذين سوف يتآمرون ضدها و ضد المؤمنين بها ، إلا أن ولاية الله للمتقين الذين يعملون بتلك الشريعة لا تدع مجالاً للضعف والوهن عندهم في اتباعها .

٦/ ومن آفاق الولاية الإلهية، ولاية الملائكة الذين ينزلون على الذين استقاموا على كلمة التوحيد ، ويبعثون في أنفسهم السكينة. يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (فصلت/٣٠-٣١)

٧/ وختاماً فإن أولياء الله لا خوف عليهم فيما يأتي، ولا هم يحزنون على ما مضى من أفعالهم التي لا تضيع عند الله. قال الله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس/٦٢)

سادساً: أولوا الأرحام ولاية فطرية

١/ وولاية أولي الأرحام هي ولاية فطرية، وقد أكدتها الشريعة في إطار ولاية الله، حيث جعلها القرآن في درجة أدنى من ولاية الله تعالى. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الانفال/٧٥)

٢/ فبعد ولاية النبي تأتي ولاية الأرحام المؤمنين. قال الله سبحانه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ (الاحزاب/٦) وهكذا تتدرج الولاية..

أ- ولاية النبي وخلفاؤه المعصومين عليهم السلام.

ب- ولاية أولي الأرحام من المؤمنين لبعضهم.

ج- ولاية المؤمنين عامة لبعضهم البعض.

فقه الآيات

أولاً: ضوابط الولاية الفطرية

يتمثل جوهر الولاية في العلاقة بين الفرد ونظيره، فإذا كانت هذه العلاقة قائمة على أساس ثابت من العقل والوحي فإنها تكون نافعة، وإذا كانت قائمة على العواطف أو المصالح فإنها قد تكون ضارة. فإذا قتل شخص فإن الأسي الذي يمتلك أولياءه قد يدفعهم الى الاسراف في أخذ الثأر. ومن هنا نهى ربنا سبحانه أولياء القتلى أن يسرفوا في القتل، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ (الاسراء/٣٣)

وهكذا نهى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عشيرته من بني عبد المطلب من أن يقتلوا الناس ثأراً لشهادته، وقال لهم: يا بني عبد المطلب؛ لا ألفتكم

تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون: قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بي إلا قتلي.. (١)

وهكذا ينبغي أن تحدد ولاية الإنسان لأقربائه في حدود الشريعة، ويتجنب الإنسان العصبية التي تعني إعانة الفرد قومه على الظلم، حسب رواية مأثورة عن الزهري قال: سئل الإمام علي بن الحسين عليهما السلام عن العصبية، فقال: العصبية التي يَأْتُم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم. (٢)

وهكذا حدّد القرآن الكريم ولاية أولي الأرحام بحدود ولاية الله والرسول والمؤمنين، وذلك حين ذكر أولاً بولاية الله والرسول والمؤمنين ثم بولايتهم. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الانفال/٧٥)

وجعل القرآن الرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم، مما يعني أنه أولى بهم من أقاربهم، فولايته أسبق من ولايتهم. قال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الاحزاب/٦)

وولاية الله ورسوله تتجلى اليوم في أن تحكم الناس شريعة الله. فكل ولاية خارجة عن إطار أحكام الشريعة، لا بد أن تحدد بها وتتأطر بحدودها، وإلا فهي لاغية وباطلة.

(١) نهج البلاغة، كتاب ٤٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٢٩٨، ح ٧.

وهذه البصيرة تؤسس أصل المساواة أمام الشريعة (القانون) في المجتمع الإسلامي، ولا يجوز المحاباة في تطبيق أحكام الدين بسبب قرابة أو جاه أو ثروة وما أشبهه.

وقد جاء في الأحاديث التالية التأكيد على هذه البصيرة.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام لعمر بن الخطاب: ثلاث إن حفظتهنّ وعملت بهنّ كفتك ما سواهن، وإن تركتهنّ لم ينفك شيء سواهن. قال: وما هنّ يا أبا الحسن؟ قال: إقامة الحدود على القريب والبعيد، والحكم بكتاب الله في الرضا والسخط، والقسم بالعدل بين الأحمر والأسود. فقال له عمر: لقد أوجزت وأبلغت. (١)

ومن عهد الإمام علي عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر، قال: " وأس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم." (٢)

وقد أكدت النصوص على الاهتمام بعامة الناس دون الخاصة، لكي لا تصبح الدولة راعية مصالح فئة محدودة، فتضيع الحدود وتبطل الأحكام. ومن ذلك ما جاء في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر لما ولّاه على مصر: "وليكن أحبّ الأمور اليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية. فإنّ سخط العامّة يُجحف برضى الخاصّة، وإنّ سخط الخاصّة يُغتفر مع رضى العامّة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونةً في الرّخاء، وأقلّ معونة له في البلاء، وأكره للانصاف، وأسأل بالالحاف، وأقلّ شكراً عند الاعطاء، وأبطأ عنراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملّات الدّهر من أهل الخاصّة. وإنما عماد الدّين، وجماع المسلمين، والعدّة للاعداء، العامّة من الأمّة، فليكن صيغوك لهم، وميلك معهم." (٣)

(١) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٧٣٨، ح ٢٢٤٩٣.

(٢) المصدر، ص ٧٣٩، ح ٢٢٤٩٧.

(٣) المصدر، ص ٧٤٠، ح ٢٢٥٠٢.

ومن تطبيقات تحديد الولاية الفطرية بحدود الشريعة، إن الزوج لا يستطيع منع زوجته من حجة الاسلام. (١) وكذلك ليس للوالدين منع الولد البالغ من الجهاد في سبيل الله إذا تعين عليه. بلى؛ قبل التعيين يجوز لهما ذلك. (٢) وكذلك لا يجوز للوالدين إقامة الحدود على ابنهما، بل الإمام ومن أذن له يقيم الحدود. (٣)

ثانياً: أسس الولاية الإلهية

وحدة الغاية والوسيلة تورث الولاية حقاً. أرأيت من كان أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، هل التابعين لنهجه التوحيدي، أم أبناءه ولو كانوا ظالمين؟ كلا؛ إن الذين اتبعوا إبراهيم عليه السلام كانوا أولى الناس به. كذلك قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران/٦٨)

وهكذا الذي يتبع سبيل المؤمنين هو أولى الناس بهم، أما الذي يتبع غير سبيلهم فإن الله يوليه ما تولى فيخرج من ولاية المؤمنين. قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء/١١٥)

وهكذا تتوحد الأمة المؤمنة بالكتاب الذي يرسم سبيلها، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الاعراف/١٩٦)

وهكذا نرى أن ولاية الله سبحانه تتجلى في الأرض، بالكتاب وبمن يتبعه من الصالحين. والصالحون هم - بدورهم - يجتمعون حول ولاية النبي صلي الله عليه وآله والأئمة من أهل بيته، حيث يقول الله سبحانه: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحریم/٤)

(١) فقه الامام الصادق عليه السلام، ج ٢، ص ١١٤ (كتاب الحج)

(٢) شرائع الاسلام، ج ١، كتاب الجهاد.

(٣) المصدر، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالولاية الإلهية تتجلى بالرسول وبالمؤمنين، وبالكتاب الذي جاء به الرسول واتبعه المؤمنون، وبالرعاية الإلهية لهذا الجمع بالملائكة. من هنا فإن أمر الولاية الإلهية لم يترك غائماً أو عائماً، بل تبين بالقيم المثلى وبمحكم الآيات والسنة؛ ومنها الحديث المأثور عن الصحابي الكبير جابر بن عبد الله الأنصاري، حيث قال: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قلت: يا رسول الله عرفنا الله ورسوله، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟

فقال عليه السلام: هم خلفائي يا جابر، وأئمة المسلمين من بعدي، أولهم علي بن أبي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر وستدركه يا جابر فإذا لقيته فاقرأه مني السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سمّي وكنّي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي ذلك الذي يفتح الله تعالى ذكره على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذلك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من إمتحن الله قلبه للإيمان. قال جابر: فقلت يا رسول الله؛ فهل ينتفع الشيعة به في غيبته؟ فقال عليه السلام: أي والذي بعثني بالنبوة، إنهم ينتفعون به ويستضيئون بنور ولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وان تجلاها السحاب. يا جابر؛ هذا من مكنون سرّ الله ومخزون علمه، فاكتبه إلا عن أهله. (١)

وهذه الولاية تختلف في مثلها وشرائعها وغاياتها، وحتى في أدق تفاصيلها عن الحكومات البشرية.

١/ فالحكم الإلهي قائم على كلمة التقوى، بينما الحكم البشري قائم على الحمية الجاهلية. قال الله سبحانه: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ

(١) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٧٢٨، ح ٢٢٤٦٧.

حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَانزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ
التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿الفتح/٢٦﴾

٢/ والحمية الجاهلية تفرق البشر على أساس الدم والتراب واللون واللغة
والطبقة، بينما كلمة التقوى تجمع البشرية حول مائدة التقوى، حيث يقول ربنا
سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات/١٣)

٣/ وركيزة السلطة في نظم الجاهلية؛ قديمها وحديثها، الهوى والشهوات
والمصالح العاجلة والمتضاربة عادة.. قال الله سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ
الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ
زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْ أَعْفُنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ
فُرْطًا﴾ (الكهف/٢٨)

بينما الكتاب هو أساس سلطة الدين، إذ قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ
فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاتِيُّونَ
وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ
وَإِخْشَاؤِنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة/٤٤)

٤/ والقسط هو هدف الرسالات الإلهية، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿لَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ
وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ
بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد/٢٥)

بينما الشهوات هي غاية سلطات أهل الدنيا، حيث يقول الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ
يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾
(النساء/٢٧)

والمصالح تفرق، بينما القسط يسع الأرض ومن عليها.

٥/ وإمام المسلمين يختار على أساس العلم والتقوى والصبر واليقين، وهو أشدهم تمسكاً بالشريعة، ويتبع منهج الشورى والتوكل، وقيم العدل والقسط. قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء/٧)

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة/٢٤)

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص/٢٦)

بينما كبراء الجاهلية يتميزون بالبطش والمكر، ويحكمون بالسيف والمال. قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾ (غافر/٢٦)

وقال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف/٥١-٥٢)

٦/ وهناك - حسب هذه الفوارق الأصلية - مفارقات كبيرة في التفاصيل. يقول العلامة الطباطبائي في هذا المجال، وهو يصف السلطات الجاهلية اليوم: "لكن الذي يجب أن لا يغفل عنه الباحث إن هذه الطريقة غير طريقة السلطة الملوكية التي تجعل مال الله فيئاً لصاحب العرش، وعباد الله أرقاء له يفعل بهم ما يشاء ويحكم فيهم ما يريد. وليست هي من الطرق الاجتماعية التي وضعت على أساس التمتع المادي من الديموقراطية وغيرها، فإن بينها وبين الاسلام فروقاً بيّنة، مانعة من التشابه والتماثل.

ومن أعظمها أنّ هذه المجتمعات لما بنيت على أساس التمتع المادي نفخت في قلبها روح الاستخدام والاستثمار، وهو الاستكبار الإنساني الذي يجعل كل شيء تحت إرادة الإنسان وعمله، حتى الإنسان بالنسبة الى الإنسان، ويبيح له

طريق الوصول إليه والتسلط على ما يهواه ويأمله منه لنفسه. وهذا بعينه هو الاستبداد الملوكي في الأعصار السالفة، وقد ظهرت في زي الاجتماع المدني على ما هو نصب أعيننا اليوم من مظالم الملل القوية، وإجحافاتهم وتحكماتهم بالنسبة الى الأمم الضعيفة، وعلى ما هو في ذكرنا من أعمالهم المضبوطة في التواريخ.

فقد كان الواحد من الفراعنة والقيصرية والأكاسرة يجري في ضعفاء عهده بتحكّمه ولعبه كلّ ما يريده ويهواه. ويعتذر -لو اعتذر- أنّ ذلك من شؤون السلطنة ولصلاح المملكة وتحكيم أساس الدولة. ويعتقد أنّ ذلك حقّ نبوغه وسيادته، ويستدل عليه بسيفه؛ كذلك إذا تعمقت في المرابطات السياسية الدائرة بين أقوى الأمم وضعفائهم اليوم، وجدت أنّ التاريخ وحوادثه كرّرت علينا ولن تزال تكرر، غير إنها أبدلت الشكل السابق الفردي بالشكل الحاضر الاجتماعي، والروح هي الروح، والهوى هو الهوى. وأمّا الاسلام فطريقته بريئة من هذه الأهواء، ودليله السيرة النبوية في فتوحاته وعهوده". (١)

وإذا استعرضنا جانباً من النصوص الاسلامية حول الولاية وأخلاقيات الولاية، نعرف كيف أنها تتسجم مع أصول هذه الولاية، ومدى فرقها عن ولاية الطغاة. وفيما يلي نقرأ معاً بعض هذه النصوص من كلمات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الذي كانت سيرته في الحكم تطبيقاً لهذه الكلمات وأكثر، ونذكرها من دون تعليق اتباعاً لمنهج الاختصار:

أ- رغب الإمام عليه السلام الولاية بالاهتمام بالرعية، فقال: "وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبباً ضارياً تغتم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم الملل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم

(١) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٧٣١.

من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك". (١)

ب- وجعل الإمام عليه السلام ثلاث مسؤوليات كبرى على الولاية، حيث قال: "ليس للملوك أن يفرطوا في ثلاث: في حفظ الثغور، وتفقد المظالم، واختيار الصالحين لأعمالهم." (٢)

ج- وحذّر الولاية من بطانة السوء من الخواص، فقال عليه السلام: "إن للوالي خاصّة وبطانة، فيهم إستنثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال." (٣)

د- وحذّرهم من الاحتجاب عن الناس، فقال عليه السلام: "من تولّى أمراً من أمور الناس فعدل وفتح بابه ورفع ستره ونظر في أمور الناس، كان حقاً على الله أن يؤمن روعته يوم القيامة ويدخله الجنة." (٤)

هـ- وقال عليه السلام: "أيّما مؤمن كان بينه وبين مؤمن حجاب، ضرب الله بينه وبين الجنة سبعين ألف سور، ما بين السور الى السور مسيرة ألف عام." (٥)

و- وأمرهم بانتخاب الأكفاء لإدارة الدولة بعيداً عن المحسوبيات، فقال عليه السلام: "ثم انظر في أمور عمالك، فاستعملهم اختباراً، ولا تولّهم محاباةً وأثرةً، فانهما جماع من شُعب الجور والخيانة، وتوخّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقدم في الاسلام المتقدمة." (٦)

(١) المصدر، ص ٧٣٩، ح ٢٢٤٩٩.

(٢) ميزان الحكمة، ج ١٠، ح ٢٢٤٩٥.

(٣) المصدر، ص ٧٤٢، ح ٢٢٥١٢.

(٤) المصدر، ص ٧٤٣، ح ٢٢٥١٥.

(٥) المصدر، ح ٢٢٥١٦.

(٦) المصدر، ص ٧٤١، ح ٢٢٥٠٣.

ز- وقال عليه السلام: "من استعمل غلاماً في عصابة فيها من هو أرضى لله منه فقد خان الله." (١)

ح- وحذر الأمة من ولاة الجور، فقال عليه السلام: "أسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دُولاً، وعباده خَوَلاً، والصالحين حرباً، والفاستقين حزباً." (٢)

ط- وقال عليه السلام: "ولاة الجور شرار الأمة وأضداد الأئمة." (٣)

وقال عليه السلام: "سبع أكل حطوم خير من وال ظلوم غشوم." (٤)
وروي عن الساباطي قال: قلت لأبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام: إن أبا أمية يوسف بن ثابت حدث عنك أنك قلت: لا يضرر مع الايمان عمل، ولا ينفع مع الكفر عمل؟

فقال: "إنه لم يسألني أبو أمية عن تفسيرها، إنما عنيت بهذا أنه من عرف الإمام من آل محمد ويتولاه ثم عمل لنفسه بما شاء من عمل الخير، قبل منه ذلك وضوعف له أضعافاً كثيرة، فانتفع بأعمال الخير مع المعرفة. فهذا ما عنيت بذلك، وكذلك لا يقبل الله من العباد الأعمال الصالحة التي يعملونها إذا تولوا الإمام الجائر، الذي ليس من الله تعالى."

فقال له عبد الله ابن أبي يعفور: أليس الله تعالى قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ فكيف لا ينفع العمل الصالح ممن تولى أئمة الجور؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: "وهل تدري ما الحسنه التي عناها الله تعالى في هذه الآية؟ هي معرفة الإمام وطاعته، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وإنما أراد بالسئنة إنكار الإمام الذي هو من الله تعالى. ثم قال

(١) المصدر، ح ٢٢٥٠٤.

(٢) المصدر، ص ٧٣٥، ح ٢٢٤٨١.

(٣) المصدر، ح ٢٢٤٧٥.

(٤) المصدر، ح ٢٢٤٧٦.

أبو عبد الله عليه السلام: من جاء يوم القيامة بولاية إمام جائر ليس من الله، وجاءه منكراً لحقناً جاحداً لولايتنا، أكبه الله تعالى يوم القيامة في النار. " (١)

والولاية الإلهية تدخل في تنظيم العلاقات الإجتماعية؛ فالجهاد لا يكون إلا بأمر الإمام، وكذلك القضاء من وظائف الإمام، والاشراف على شئون السفهاء والمحصور عليهم، ومن لا ولي له من القصر عن شئونهم، وكذلك إقامة الحدود والتعزيرات وبسط العدالة من واجباته.

ثالثاً: حوافز الولاية الإلهية

ليست المصالح ولا الحميات ولا الرهبة، هي وراء طاعة الناس لولي أمرهم، ولو كانت واحدة من تلك لكانت الطاعة لوناً من الشرك، واتباع الطاغوت، أو في أحسن الفروض تقاة. قال الله سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة/٢٥٧)

وقد فصل القرآن الحكيم جوهر الولاية الإلهية، والذي هو أصل كل بواعث الخير في البشر؛ ألا وهو الحب الإلهي. قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة/٥٤-٥٦)

ونستطيع أن نستوحي البصائر التالية من هذا السياق القرآني:

(١) بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ١٧٠-١٧١، ح ١١.

١/ إن الحب الإلهي جوهر الولاية، وحقيقة المنتمي الى حزب الله الغالب.
وقد قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران/٣١)

وهكذا كلما ضعفت حوافز الأمة في الولاية، يجب أن نضاعف البرامج
الروحية التي تنمي هذا الحب، ونطهر الأفئدة من الحجب والأغلال التي تمنع
ذلك الحب.

إنّ للنفس البشرية إقبالاً وإدباراً، وعلى كل مؤمن أن يسعى لاصلاح نفسه
بالاستغفار والانابة الى الله سبحانه، لتتسامى الولاية الإلهية عنده. قال الله
سبحانه: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذتَهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ
رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآيَايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا
وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الاعراف/١٥٥)

وبالذات عند مواجهة الأعداء ينبغي أن نزداد توجهاً الى ربنا ودعاءً،
لتكامل الولاية في أنفسنا. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة/٥١)

٢/ ومن الحب الإلهي تقيض الفضائل المثلى، وأبرزها الصلة الإيمانية
بسائر المؤمنين الى درجة الذلة أمامهم، وتجاوز كبر النفس وغرورها وندس
الذاتية والحمية التي فيها. وقد قال ربنا سبحانه في صفة أصحاب الرسول
صلى الله عليه وآله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ
أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ
الْكَفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾
(الفتح/٢٩)

١٣/ وهذه الصلة الایمانیة الوثیقة تتحدى كل الحواجز المادیة؛ فإذا بالمؤمنین إخوة، وإذا بهم یؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؛ وإذا ببوتقة الایمان تصهر عربیهم وأعجمیهم، وغنیهم وفقیرهم، وكبیرهم وصغیرهم، وشریفهم ووضیعهم فی وحدة وطنیة محلها دار الایمان، ودستورها الكتاب، ورائدها التقوی. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال/٧٢)

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر/٩)

رابعاً: الركائز الاجتماعية للولاية

عمود الولاية الإلهية الإمامة الكبرى، أما رحائبها وأرجاءها فهي الصلة الایمانیة التي تربط أبناء الأمة ببعضهم، وهي ركائزها الاجتماعية، وهي التي نستوحىها من الآية التالية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة/٧١)

وهذه الركائز هي:

أ- التواصي بالحق الذي يتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما يورث روحاً اجتماعية نابضة بالقيم المثلى، وسوراً منيعاً يحفظ المجتمع من التسبب والميوعة والانحلال.

ب- إقامة الصلاة؛ وهي ركيزة إيمانية تحافظ على روح الولاية، وهي الصلة بالله سبحانه، بالإضافة إلى أنها شعيرة عظيمة من شعائر الله، وهي

تشدد أواصر المجتمع وتحافظ على صبغتها المتمثلة في توحيد العبودية لله وحده.

ج- إيتاء الزكاة؛ ولعلها هنا تعني كل الحقوق المالية المفروضة على الفرد، فإن أداء هذه الحقوق يورث التكافل الاجتماعي، ويطهّر النفوس من الأثرة، وتضييق الفجوات الطبقيّة، وتحرك إقتصاد الأمة، وتموّل المشاريع ذات النفع العام، وتوفر الطاقة الاقتصادية للأجهزة الإدارية في الدولة. ومن هنا أكد النص التالي على ضرورة إهتمام الدولة بأمر الخراج، حيث جاء في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر: "وَنَفَقَدَ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنْ فِي صِلَاحِهِ وَصِلَاحِهِمْ صِلَاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صِلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ. وَلِيَكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي إِسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ. وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةِ أُخْرِبَ الْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلاً... وَإِنَّمَا يُوْتَى خِرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا، وَإِنَّمَا يُعَوِّزُ أَهْلَهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقَلَّةِ إِتِنْفَاعِهِمْ بِالْعَبْرِ." (١)

د- الطاعة لله والرسول؛ فإنها تحقق النظم العام، وتضمن إجراء الأحكام الثابتة والقرارات المتغيرة، وتمنع الفوضى والهرج، وتوفر المرجعية الشرعية لفض الخلافات وتوحيد الجهود. وهذه الركائز الاجتماعية للولاية هي الاطار المناسب للسلطة الشرعية، حيث جاء في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يوبّخ فيها أصحابه: "أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِيُظْهِرَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لَأَنْهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلٍ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَانِكُمْ عَنْ حَقِّي." (٢)

(١) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٧٤٥، ح ٢٢٥٢٠.

(٢) المصدر، ص ٧٣٣، ح ٢٢٤٧٠.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "قال الله جل جلاله: إذا عصاني من خلقي من يعرفني سلطت عليه من خلقي من لا يعرفني." (١)

خامساً: تطبيقات الولاية الفطرية

١/ لابد أن يكون تجهيز الميث باذن الولي ومراتب أولياء الميث كالتالي:

أ- الزوج (بالنسبة للمرأة) يقدم حتى على الآباء والأبناء.

ب- الأب يقدم على الأم والأولاد.

ج- الأم تقدم مع عدم وجود الأب على الأولاد الذكور.

د- الذكور مقدمون على الإناث من طبقتهم ومرتبتهن، والبالغ يقدم على غير البالغ.

هـ- البنات يتقدمن على أولاد الأولاد، والأجداد والاخوة.

وهناك تفاصيل أخرى لا نتهمنا الآن، ولكن مع فقد الولي للميث فإن الحاكم

الشرعي يقوم بأموره، وعند فقده يجب على المؤمنين عامة. (٢)

٢/ ومن شروط الاعتكاف في المساجد للعبادة كما ذكر الفقهاء، إذن من له

ولاية، كالمولى لبعده، والزوج لزوجته. وإذا أذن من له ولاية، كان له المنع

قبل الشروع وبعده، ما لم يمض يومان، أو يكون واجباً بنذر وشبهة. (٣)

٣/ وللأبوين منع ولدهما عن الغزو ما لم يتعين عليه. (٤)

٤/ والأب والجد للأب، يمضي تصرفهما (في أموال الولد) مادام الولد

غير رشيد، وتنقطع ولايتهما بثبوت البلوغ والرشد. (٥)

٥/ الولاية في مال الطفل والمجنون للأب، والجد للأب، فإن لم يكونا

فللوصي، فإن لم يكونا فلحاكم. أما السفية والمفلس، فالولاية في مالهما للحاكم

لا غير. (١)

(١) المصدر، ح ٢٢٤٧١.

(٢) فقه الامام الصادق عليه السلام، محمد جواد مغنية، ج ١، ص ١١٢.

(٣) الشرائع، ج ١، كتاب الاعتكاف.

(٤) الشرائع، ج ١، كتاب الجهاد.

(٥) الشرائع، ج ١، كتاب التجارة في شروط عقد البيع.

٦/ ولا تصح الوصية بالولاية على الأطفال إلا من الأب، أو الجد من الأب خاصة. ولا ولاية للأم، ولا تصح منها الوصية عليهم حسب ما ذكره المحقق الحلي. (٢)

٧/ ولو أوصى بالنظر في مال ولده الى أجنبي وله أب، لم يصح، وكانت الولاية الى جد اليتيم دون الوصي. وقيل يصح ذلك في قدر الثلث مما ترك وفي أداء الحقوق. (٣)

٨/ لا ولاية في عقد النكاح لغير الأب، والجد للأب وإن علا، والمولى والوصي والحاكم. ولا ولاية لهما على الثيب مع البلوغ والرشد، ولا على البالغ الرشيد. (٤)

-
- (١) المصدر، ج٢، كتاب الحجر.
(٢) المصدر، ج٢، كتاب الوصايا.
(٣) المصدر.
(٤) المصدر، كتاب النكاح، في أولياء العقد.

الفصل الثاني: على خطى الأنبياء (ع)

الإجتباء

تكريماً للإنسان وتوفيراً لفرص التسامي لمن شاء من الناس، يختار الله سبحانه لهم قدوات يجتبيهم من بين خيرتهم ليكونوا أئمة في الخير وأمثلة في الفضيلة، فيتيسر للبشر التعالي إلى القمم السامقة بإذن الله.

وليس للناس أن يختاروا الرسل حسبما تقتضي مصالحهم وأهواءهم، وإنما الله هو الذي يختار بحكمته البالغة، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَاٰمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران/ ١٧٩)

وهكذا كان الإجتباء الإلهي معيار الإلتباع، وليست الشورى (التي تتصل فقط بالجوانب الخاصة بحياة المجتمع). قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى/ ١٣)

شروط الإجتباء

١/ نستفيد من الآية التي تليت آنفاً؛ إن الإجتباء يتصل بالهداية. أوليس أهم فائدة الإمام الإهداء بنوره وإتباع طريقه؟ وهكذا هدى الله الذين إجتباهم من القادة، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الانعام/ ٨٧)

٢/ ومن صفات الذين إجتباهم ربنا (بعد الهداية)، الخشوع لله سبحانه والتسليم لآياته (قلبا وعملا). قال الله سبحانه: ﴿وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم/٥٨)

٣/ ومن صفاتهم التوبة النصوح، كما فعل أبونا آدم عليه السلام بعد الخطيئة ، فقال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه/١٢١-١٢٢)

٤/ وهكذا النبي يونس عليه السلام إجتباه ربه بعد أن قبل توبته، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القلم/٤٨-٥٠)

ونستفيد من الآية؛ إن من آفاق الإجتباء الصلاح .

٥/ ومن صفاتهم الشكر لأنعم الله (بعد القنوت والخشوع). قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل/١٢٠-١٢١)

٦/ وبعد أن رأى الصديق يوسف عليه السلام في المنام ما رأى ، أخبره أبوه يعقوب عليه السلام أنه يختاره الله لرسالاته. (وقد تم ذلك بعد بلاء عظيم)، فقال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمِّتُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف/٦)

كل ذلك عن الرجال الذين إجتباهم ربهم لرسالاته ، ولكي يكونوا شهداء على خلقه، (حيث كانت الهداية والصلاح من سماتهم، كما وكانت من صفاتهم التوبة والخشوع والصلاح). أمّا عن الأمة التي يجتبيها الله تعالى ، فهي التي تتصف بالقنوت والخشوع لله والركوع والسجود والعبادة، كما تعرف بفعل الخيرات، والجهاد في سبيل الله حق الجهاد؛ (ولعل معناها بذل

كل جهد مستطاع لتحقيق الأهداف). قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَءَاغِصُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج/٧٧-٧٨) ونستوحي من الآية جملة شروط القيادة؛ (الشهادة على الناس)، ومنها (بعد التسليم وفعل الخير والجهاد) إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله (الوحدة) والاستقامة.

فقه الآيات

أولاً : الإجتباء هدف المؤمنين

تختلف كلمتا الإصطفاء والإجتباء، في أن الأولى تختص حسب قراءةتنا للآيات بالأنبياء، بينما تعم الثانية المؤمنين من أوليائهم أيضاً. فقد يعبر بالإجتباء إختيار المؤمنين للايمان، أو حتى للشهادة بالايمان على الناس من حولهم.

بلى؛ قد استخدمت كلمة الإجتباء في الأغلب للاصطفاء الالهي للرسل عليهم السلام، حيث قال الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران/١٧٩)

وقد جاء في تفسير علي بن ابراهيم ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يختار ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ وهم الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين الذين إختارهم وإجتباهم. (١)

(١) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص ٥٦٧.

وروي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، أنه قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يسجد في سورة مريم حين يقول: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ويقول: نحن عيننا بذلك، ونحن أهل الجبوة والصفوة. (١)

ولكن هناك آيات وأحاديث تدل على أن المؤمنين أيضاً يجتنبون، حيث إن الله سبحانه خاطب المؤمنين في سورة الحج بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ (الحج/٧٧-٧٨)

وكلمة المؤمن تعم الرسل والأئمة الأطهار والصفوة من أوليائهم، إلا أنها في المعصومين أجلى. ومن هنا ورد في الأحاديث أنهم عليهم السلام قد عنوا بها، حيث روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: إيانا عني، ونحن المجتنبون من قبل (أي في الكتب التي مضت) وفي هذا (أي القرآن). (٢)

وورد في حديث مأمور عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، في تفسير قوله سبحانه:

﴿مِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ قال: فهم والله شيعتنا الذين هداهم الله لمودتنا واجتباهم لدينا فحيوا عليه وماتوا عليه، وصفهم الله بالعبادة والخشوع ورقة القلب. (٣)

ويبدو لنا من الحديث النبوي التالي، أن التسليم المطلق والرضا التام بالمقادير هو حكمة الاصطفاء، بينما الصبر على الشدائد هو حكمة الإجتباء. فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: إذا أحب الله عبداً إبتلاه، فان صبر إجتباه، وإن رضي إصطفاه. (٤)

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٢٢٤.

(٢) المصدر، ج ١٠، ص ١٣٩.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٩٩.

(٤) المصدر، ج ٧٠، ص ٢٥٥ وأيضاً في ج ١٢، ص ٤٥.

ولكن الإجتباء درجة عالية من الايمان، حيث ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال للمأمون العباسي عن الشهيد زيد بن علي عليه السلام : كان زيد - والله- ممن خوطب بهذه الآية ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾. (١)

ونستفيد من هذه البصائر الأحكام التالية:

أ- على الانسان أن يجتهد حتى يبلغ درجة الإجتباء، وذلك بالتحلي بتلك الصفات المثلى التي ترفع المرء الى درجة الإجتباء، والتي نكرت بها الآيات الكريمة، وسوف نستعرضها إن شاء الله تالياً.

والدعاء أفضل وسيلة لاجتباء المؤمن، حيث جاء عن الإمام جعفر بن محمد الصادق في المأثور من الأدعية: وإجعلني فيها من أوليائك الذين إجتبيتهم لطاعتك وإخترتهم لعبادتك... (٢)

ب- على المجتمع أن يبحث عن عباد الله المجتبيين، لكي يجعلهم قذوات مسيرته والشهداء والأمراء والقضاة في بلاده، ويستدل على ذلك بتلك الصفات التي ذكرها الكتاب لمن يجتبيهم الله سبحانه.

ثانياً: علامات الإجتباء

لقد ذُكرت الآيات بصفات المجتبيين، وهي:

١/ الإهتمام بآيات الله

فمن لم يهده الله الى الحق، ولم يستوعب بصائر الوحي وحقائق الشريعة، ولم يتفقه في الدين، ولم يتمثل الخلق الإلهي الرفيع ، فإنه لا يصلح للإجتباء. ولذلك فإن البعض من العلماء وليس كلهم هم المراد بنصوص الطاعة والاتباع، أما من كان من العلماء إنتقائياً، يعمل ببعض الكتاب ويترك بعضاً، ولم ير معيارية الوحي في الثقافة، بل يأخذ - حسب رأيه - من الدين ما يشاء،

(١) راجع تفسير من هدى القرآن للمؤلف في تفسير الآية.

(٢) مفاتيح الجنان، أعمال ليلة النصف من شعبان.

ومن الأفكار الغربية عن الدين مثل فلسفة اليونان أو أفكار الغرب والشرق ما يشاء، فإنه لا يصلح للقيادة.

٢ / التسليم والخشوع

المجتبى هو الخاشع لله ولآياته، والمسلم نفسياً لأحكام الشرع، فاذا به يخسر ساجداً كلما سمع آيات ربه، دلالة على مدى تسليمه لأحكام الدين. وهذا المستوى من التسليم لا يبلغه المؤمن إلا باليقين، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة/٢٤)

٣ / الشكر لله

والشكر درجة عالية من الرضا بتقدير الله، والتسليم لقضائه، وهو أصل الصبر . ولذلك جاء في الدعاء: "اللهم إني أسألك صبر الشاكرين لك". (١) وقد تلونا في الآية السابقة؛ إن من شرائط الإمامة الصبر. ونستفيد من هذه البصيرة؛ إن الصبر المطلوب في صفات القادة المجتبيين، هو أعظم الصبر، وهو المستند الى صفة الشكر..

٤ / فعل الخير

وقد ذكرت آيات أخرى بأن من صفات القادة، المسارعة في الخيرات. وقد ذكرت في سورة الحج، أن فعل الخير من صفات الأمة الإسلامية التي إجتباها الله.

٥ / الجهاد في سبيل الله

والجهاد قمة التصدي للمسؤولية الاجتماعية. ومن أدعى الرئاسة، ولم يتصد لمسؤولياتها، فإنه لا يصلح لها أبداً. ومن هنا فقد ربط السياق القرآني بين الأمر بالجهاد وبين الإجتباء، فقال الله سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ (الحج/٧٧)

(١) مفاتيح الجنان، للشيخ القمي، أدعية الأيام في شهر رجب، ص ١٣٣.

والجهاد درجات؛ فاذا بلغ الانسان الدرجة العليا منه، وهو الجهاد حق الجهاد حسب ما أمر الله دون توان أو وهن، فقد توفرت فيه صفة هامة من صفات الإجتباء.

ومعرفة هذه العلامات بصورة جيدة وجعلها معياراً للقيادة، ثم إشاعة هذه الثقافة في المجتمع الانساني، كل ذلك يوفر للأمة حصانة من الانحراف ويعصمها باذن الله من الاختلاف.

ثالثاً: بين الإجتباء والتوبة

حين يعقد المؤمن عزائمه لكي يكون في الدرجة العاشرة من الايمان، فيغفل ويهوى الى الدرجة الأدنى منه، فإنه سرعان ما تداركه الرحمة الإلهية ويتبصر حتى يسمو الى درجته، وهناك يكون صالحاً للاجتباء. ذلك إن التوبة هي القدرة على كشف الخطأ، وتداركه في الوقت المناسب.

وكلتا المهمتين صعبتان الى درجة تنكفي عنهما ارادة اغلب الناس. فالانسان يزين له سوء عمله فيراه حسناً، ويشرع بالاعتذار لنفسه عن فعله، حتى يغير القيم، ويطمس نور الوجدان، ويفتري على الله الحق.. كل ذلك لكي لا يعترف بخطأه. يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة/ ٢٠٦)

هذا في الذنوب الكبيرة التي قبحها واضح، وحرمتها معلومة. أما في الهفوات فإن مجال التبرير واسع. بينما نرى عباد الرحمن قد قهروا أهواءهم الى درجة يعترفون حتى بترك ما كان أولى، ويتوبون الى الله منها ويعتبرونه معصية. مثلاً النبي داود عليه السلام خرّ راکعاً وأناب عن سرعة قضاءه، قتاب عليه ربه، وجعله خليفته في الأرض، وأمره بالعدل.

وهكذا آدم أبو البشر حينما أكل من الشجرة، تاب الى الله فاجتباه ربه. وحسب حديث شريف، كان النهي عنه شجرة معينة، وآدم عليه السلام أكل من مثلها بعد أن شبه له إبليس الأمر باليمين الكاذبة، حيث قاسمه بالله. لنقرأ معاً الحديث الشريف المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

فقد روي عن علي بن محمد بن الجهم، أنه قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام، فقال له المأمون: يابن رسول الله؛ أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى. قال: فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾؟ قال عليه السلام: إن الله تعالى قال لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وأشار لهما إلى شجرة الحنطة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل: ولا تأكلا من هذه الشجرة، ولا مما كان من جنسها. فلم يقربا من تلك الشجرة، وإنما أكلا من غيرها لما أن وسوس الشيطان إليهما، وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وإنما نهاكما أن تقربا غيرها، ولم ينهكما عن الأكل منها ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكَمَّ لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾. ولم يكن آدم وحواء شاهدا قبل ذلك من يهلف بالله كاذباً ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ ثقة بيمينه بالله. وكان ذلك من آدم قبل النبوة، ولم يكن بذنب كبير إستحق به دخول النار، وإنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم. فلما إجتباه الله تعالى، وجعله نبياً معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة. قال الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾. وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَنَاوِلَ بْنَ يَسْحَانَ وَإِسْحَاقَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ابْنَ إِسْحَاقَ وَمُوسَى وَهَارُونَ إِذْ قُلْنَا لِمُوسَى أَتِنَاكَ نَارَ الْكَلْبِ أَمْ تَأْتِيكَ السَّاعَةُ بِغَيْرِ عَلَمٍ لَكَ فَذَكِّرْ لَكَ عِلْمَ السَّاعَةِ وَتَذَكَّرْ أَيُّنَا آخِرٌ﴾. (١)

وهكذا نستفيد؛ إن التائب من الذنب قد ينطلق إلى نقطة أبعد من موقعه السابق قبل الذنب، إذا كانت توبته نصوحاً. فإن المسكنة التي يشعر بها أمام ربه، والعبودية التي يعيشها، وتأنيب الضمير الذي يتحسسها، كل ذلك جدير بأن يحصنه من الوقوع في الذنب مرة أخرى، بل ويجعله دائب السعي لإصلاح ما بدر منه، وذلك بالاجتهاد والكدح.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٠٣.

من هنا ينبغي ألا يقنط المؤمن بعد الذنب، بل يتوب الى الله توبة صادقة
لعل الله يجتبيه لدرجة الشهادة على عصره، والله المستعان.

إتباع الأنبياء

لكي تكون على بينة من أمرك، ولكي تستقيم على سبيل ربك فلا يضل سعيك في متاهات الهوى، ولكي تحقق الكرامة المنشودة والغاية الأسمى التي خلقت لها.. لا بد أن تكون إما على هدى أو على سبيل من إهتدى. ولا تكون على هدى إلا إذا سلكت سبيل من إهتدى، فإن الهدى هدى الله، والله يهدي اليه من يشاء عبر رسله.

إذا؛ إتباع الرسل شرط مسبق للاهتداء. ومن هنا تأتي قيمة الإتباع لما أمر الله باتباعه من الكتاب، أو لمن أمر الله باتباعه من الرسل والأئمة والصالحين. وقد أمر الله باتباع هداه، وأمر باتباع هدى أنبيائه، وأمر باتباع آياته ورسله والصالحين من عباده. وقد إختلفت صور الإتباع فيما نقره من آيات الذكر، ولكنها - من حيث المجموع - تعود الى إتباع الحق. وفيما يلي نفضّل القول في هذه الصور:

أولاً: ماذا، ومن ذا نتبع؟

علينا أن نتبع:

ألف: كتاب الله وآياته.

باء: أنبياء الله وخلفاءهم.

جيم: أولياء الله الدعاة الى الانبياء.

دال: السابقين الى الايمان.

١/ حينما أهبط الله آدم عليه السلام وذريته الى الأرض، أنبأهم بأنه إذا أتاهم هداة، فعليهم أن يتبعوه، لكي لا يخافوا من المستقبل، ولا يحزنوا على الماضي. قال الله سبحانه: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/٣٨)

٢/ والهدى الذي أنزل من عند الله، تمثل في توحيد الله سبحانه خالصاً من الشرك، وذلك بالتسليم له والاحسان الى الناس. قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء/١٢٥)

وهذه هي ملة النبي إبراهيم عليه السلام وطريقته ومعالم سلوكه؛ فلم يخضع لطاغوت، ولم يتبع الجبت، ولم يفقد أباه، ولم يستجب لضغوط مجتمعه، وإنما أسلم وجهه لله.

٣/ وهكذا نرية النبي إبراهيم عليه وعليهم السلام، كانت صبغة حياتهم العامة توحيد الله، وتجنب الشرك به؛ فاتباعه يعني رفض الشرك بكل ألوانه. قال الله سبحانه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (يوسف/٣٨)

٤/ وهذه سيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله، وصبغة دعوته التسليم لله وحده، ورفض الأنداد. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران/٢٠)

وإخلاص العبودية لله وإتباع ملة الأنبياء عليهم السلام، إنه البوتقة التي تنصهر فيها الكتل البشرية المختلفة، فاذا بهم أمة واحدة..

٥/ وإتباع الرسل باتباع آيات الله التي نزلت عليهم (الكتاب والسنة). والانسان مردد بين إتباع هدى الله، أو هوى نفسه. فمن ضل عن هدى الله، سقط في شرك الهوى. قال الله سبحانه: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ

أَهْدَى مِنْهُمَا أَتْبَعَهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ
أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٍ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿ (القصص/ ٤٩-٥٠)

٦/ وعلى الانسان أن يبادر باتباع الآيات التي نزلت على الرسل من قبل
أن يهلك بعذاب. قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا
رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَحْزَى﴾
(طه/ ١٣٤)

٧/ وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا
رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
(القصص/ ٤٧)

ونستوحي من القرآن؛ إن سنة الله في الأمم، أنه ينزل عليهم آياته عبر
رسله، فإن آمنوا إهتدوا، وإن كذبوا بها أهلكهم بالعذاب، ولا ينفعهم يومئذ الندم
على تركهم الآيات .

٨/ وفي البشر كبر يمنعه من إتباع الرسول، لأنه أيضاً بشر. ولكن الله
يتمتحن الانسان إمتحاناً بذلك، حين يأمره باتباع بشر مثله. فمن آمن بالله حقاً
إتبعه، ومن بقي في نفسه بقية كبر وغرور لم يتبعه، وبذلك يكون قد استتكف
عن طاعة الله الذي أمره باتباعه. وقد قال ربنا سبحانه: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّنَّا
وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ (القمر/ ٢٤)

٩/ ولكي يعلم الله - وهو العليم- من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه،
يبتلئ الأمة بمواقف مستصعبة تخالف أهواؤهم وتقاليدهم وربما حمياتهم؛ مثلاً
أمر الله الرسول بالصلاة الى بيت المقدس قبلة أهل الكتاب، بينما كانت الكعبة
قبلة العرب. ولكن المؤمنين حقاً لم يترددوا باتباع الرسول، والصلاة شطر
المسجد الأقصى. فقال الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ
عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا

عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿البقرة/١٤٣﴾

ونستوحي من الآية صعوبة التخلص من رواسب العصبية، إلا لمن هداه الله وأسلم نفسه لهدى ربه تماماً.

١٠ / معرفة الرسول هي السبيل الى إتباعه، وإنما يُعرف بما عرفه الله، وبشرت به رسالاته من قبل. أوليس الأخبار يجدون خبره مكتوباً في التوراة والانجيل، وهو يأمرهم بالمعروف (الذي تشهد بأصوله عقولهم)، وينهاهم عن المنكر (الذي ينكره وجدانهم)، ويحل لهم الطيبات (التي حرمتها عليهم الشرائع البشرية)، ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم (من الجهل وسوء الخلق)، والأغلال التي كانت عليهم (بسبب ضلالة الأهواء). قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجُنُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الاعراف/١٥٧)

ونستهدي بالآية إلى أن صلة المؤمن بالرسول يجب أن تتوثق بمعرفته بمثل ما عرفه الله سبحانه، والإيمان به وتوقيره ونصرته، وإتباع النور الذي أنزل معه (حتى يرى الحقائق بضيائه).

١١ / وقد أنبأ الله الرسول بأنه سبحانه حسبه، ثم بعد الله سبحانه حسبه من إتبعه من المؤمنين. قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الانفال/٦٤)

ونستفيد من الآية؛ إن القائد الرسالي يثق بالمؤمنين التابعين له، ويكتفي بهم في صراعه مع الاعداء بعد التوكل على الله.

١٢ / والذين إتبعوا النبي صلى الله عليه وآله كانوا على بصيرة من أمرهم، حيث كان الله سبحانه غاية مناهم، وكانت الرسالة سبيلهم إليه. قال الله سبحانه:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف/١٠٨)

١٣/ وكما بالنسبة للنبي، كذلك بالنسبة الى سائر الرسل، علينا أن نتبع الهدى الذي أنزل الله عليهم، حيث يقول ربنا تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ ائْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الانعام/٩٠)

١٤/ ودعا الله النبي محمد صلى الله عليه وآله باتِّباع ملة النبي إبراهيم عليه السلام، (والملة هي المنهاج والطريق). قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل/١٢٣)

وملة النبي إبراهيم عليه السلام تتمثل في الحنفية البيضاء الطاهرة من لوث الشرك.

١٥/ وكذلك أمرنا الله باتِّباع تلك الأمة الطاهرة، فقال سبحانه: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران/٩٥)

ثانياً: قيم الإِتباع

لماذا نتبع شخصاً معيناً؟ إنما نتبعه للأسباب التالية:

أولاً: لأنه عالم، ولكي نكتسب منه علماً.

ثانياً: لأنه مخلص في إبلاغ رسالته، فلا يريد أجراً عليها.

ثالثاً: لأنه يهدي الى سبيل الرشاد والصراط المستقيم.

هذه القيم هي التي نحدد بها من نتبع، وفيما يلي نتلو الآيات الكريمة التي تأمرنا بذلك..

١/ الانسان يتبع والديه في العادة، ولكن إذا كان الولد أعلم من أبيه، هنا على الأب أن يتبعه.

ومن هنا قال الله عن النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (مريم/٤٣)

٢/ ومن قيم الإتياع تعلم العلم. (فان كنت ترجو أن تكسب علماً من أحد، ينبغي لك أن تتبعه لذلك). وقد إتبع النبي موسى عليه السلام العالم لكي يعلمه علماً. قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف/٦٦)

٣/ وحيث يدعوك أحد لاتباعه، فانظر هل يطلب من وراء ذلك أجراً لنفسه؛ (مالياً أو جاهاً أو غاية أخرى)، فإن كان كذلك فاحذره. قال الله سبحانه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس/٢٠-٢١)

وهكذا تجد العبد الصالح يخاطب وجدان قومه، ويبين لهم أن الرسل لا يطلبون منكم أجراً على إبلاغ رسالتهم. وهكذا فهم أهل للإتياع، هذا بالاضافة إلى أنهم مهتدون.

٤/ والهداية هي هدف سام يتطلع نحوها كل ذي لب، وهي قيمة أساسية من قيم الإتياع. فمن لا يعرف الطريق كيف يدعوك لاتباعه، فهل يقود الأعمى أعمى مثله؟ من هنا فشرط الداعية أن يكون هادياً الى سبيل الرشاد. قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَأْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر/٣٨)

٥/ والصراط المستقيم هو محتوى الهدى، ومن دعا إليه كان جديراً بالإتياع، فاذا لم يتبعه الانسان يضل في زحمة السبل المتفرقة. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الانعام/١٥٣)

٦/ وقال الله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الاعراف/١٥٨)

إن إتياع الرسول هو سبيل الإتهداء، لأنه يؤمن بالله وكلماته.

٧/ وكذلك إتباع السابقين من المهاجرين والأنصار إنما يكون باحسان، حتى تكون مكاسب الإتياع إتياعاً لهدى الله والرسول. قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة/١٠٠)

ثالثاً: مكاسب الإتياع

ومن أجل تحقيق التطلعات التالية، كان حتماً علينا إتياع الرسل:

أولاً: حب الله. فإن الله يحب من يتبع الرسول.

ثانياً: مغفرة الله.

ثالثاً: تجنب الفتن (المضلة).

رابعاً: الإتهداء الى سبل السلام، (والعيش الآمن في الدنيا).

خامساً: الغلبة على الأعداء.

سادساً: الإتهناء الى جمع الأنبياء والأولياء، (حتى يُصبح التابع منهم).

سابعاً: أداء واجب الشهادة بالحق.

ثامناً: التحلي بأخلاق الأنبياء عليهم السلام.

تاسعاً: التعرض لرحمة أنبياء الله عليهم السلام.

وفيما يلي نتلو آيات الذكر التي تهدينا الى تلك المكاسب الكبرى.

١/ إتياع الرسول يستدر رحمة الرب، وهو ميراث حب العبد لربه الكريم، ووسيلة حب الله له ومغفرته. قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران/٣١)

٢/ التوبة هي الشرط الأول لمغفرة الرب ذنوب عبده. أمّا الشرط الثاني فهو الإصلاح، والذي يتمثل - فيما يتمثل به- بالإتياع لسبيل الله سبحانه. ومن هنا يستغفر حملة عرش الله لعباده المؤمنين، الذين يتوبون ويتبعون سبيل الله. (من هنا فإن المغفرة هي من فوائد إتياع سبيل الله). قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا
سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ (غافر/٧)

٣/ وهكذا تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار، الذين اتبعوا رسول الله
صلى الله عليه وآله، وكانت التوبة ثواب الله لأولئك الذين تجاوزوا فتنة الشدة التي
أصابتهم، ولم ياكلوا عن إتياع الرسول. قال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ
وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ
فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة/١١٧)

٤/ قد تحتاج الأمة عواصف الفتن، التي يصعب على الناس التصدي لها،
إلا باتباع الذين أمر الله باتباعهم (النبي وخلفاءه). من هنا أمر هارون عليه
السلام بني اسرائيل، حينما وقعت فتنة العجل؛ أمرهم باتباعه تجنباً للفتنة
العمياء. قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ
وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه/٩٠)

٥/ لكل إمرء أهدافه، ولكل هدف سبيل آمن وسبل غير آمنة، وكل منا
يتطلع لبلوغ أهدافه عبر سبل آمنة غير خطيرة وغير ملتوية. ولكن أنى لنا أن
نعرف بخبرتنا المحدودة ومعارفنا الضحلة كل تلك السبل؟ إنما عبر إتياع
الوحي، فينعم علينا ربنا بالاهتداء الى سبل السلام، حيث قال الله تعالى:
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة/١٥-١٦)

والجاهل يعيش في ظلام؛ ظلام كبره وغروره، ظلام غفلته وكفره، ظلام
أهواءه وشهواته.. وبالتالي ظلام جهله وعواطفه. وإنما بإتياع رضوان الله،
يخرجه الله من الظلمات الى النور.

٦/ لقد ضمن الله لرسله النصر على أعدائه. ومن يتبع الرسل وآيات الله
التي أنزلت عليهم، يغلب باذن الله على الأعداء. قال الله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ

عُضْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتَمَا وَمَنْ
اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ ﴿ (القصص/٣٥)

٧/ وهكذا وعد الله سبحانه النبي عيسى عليه السلام أن يجعل الذين إتبعوه فوق الذين كفروا به الى يوم القيامة. (وهكذا كان حتى اليوم، ويكون الى قيام الساعة). قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافَ الَّذِي مَتَوَفَّيْتُكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (آل عمران/٥٥)
٨/ في أي حزب أنت، ومن أية أمة؟ هل أنت منتم حقاً لمن تدعي الإنتماء إليه أو لمن ولدت منه، أو للأرض التي ترعرت فيها؟ كلا؛ وإنما أنت في الحقيقة منتم إلى من تتبعه. فالإتباع وحده يحدد إنتماءك. (ومن هنا فقد نفى القرآن ابن نوح إليه أن يكون منه، لأنه عمل غير صالح). قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران/٦٨)

٩/ وقال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ﴾ (ابراهيم/٣٥-٣٦)

١٠/ الشهادة بالحق فريضة، ويتوسع مفهومها الى أفق التصدي للواجبات الاجتماعية جميعاً. ومن يتبع الرسول يرجى أن يكون قد عمل بواجب الشهادة على مجتمعه. قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَامِنَّا بِمَا أُنزِلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران/٥٣)

١١/ من يتبع الرسول في رسالته ومنهاج حياته، يتخلق بأخلاقه. وهكذا نجد الذين إتبعوا النبي عيسى عليه السلام، فاضت عليهم من خلقه العظيم الرحمة والشفقة. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا

رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿
(الحديد/٢٧)

١٢/ ومن إتبع الرسول حظي بعطفه وحنانه، (كما الذي يتبع الأولياء يحظى بعطفهم)، حيث إن الله سبحانه قد أمره بذلك، فقال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء/٢١٥)

رابعاً: موانع الإتياع

ومن الناس من لا يتبع الهدى، لأنه يتبع الهوى، أو يتبع الجبارين، أو يخشى الصعاب.. فهذه ثلاثة موانع تصد البشر عن إتياع الأنبياء عليهم السلام.

١/ لماذا لم يتبع أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) قبلة الرسول (الكعبة)، بالرغم من توافر الآيات على أنها الحق، هل للحمية أم للمصلحة أم استرسالاً مع التقاليد؟ أنى كانت فهي تلخص في الهوى الذي إتبعوه. قال الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَمَّا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة/١٤٥)

٢/ وكذلك المخلفون، الذين قعدوا عن الجهاد، إقترحوا على الرسول أن يتبعوه بحثاً عن المغنم. فهؤلاء هم أتباع المصالح العاجلة، وليس الحق. قال الله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَعَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا دُرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الفتح/١٥)

٣/ والأمم تتبع -عادة- الجبابرة والطغاة، خشية بطشهم، ورغبة في ودهم، ولكن الجبارين لا يزيديهم إلا خساراً. قال الله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (هود/٥٩)

٤/ ومن الناس من يبحث عن السبل السهلة، فإذا دعته القيادة إليها إتبعوها. قال الله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ

بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ
أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿التوبة/٤٢﴾

ونستفيد من الآية؛ إن الإلتباع حقاً هو الذي يكون دائماً في الشدة والرخاء،
وإنما يعرف التابعون في إلتباعهم قيادتهم في ساعة العسرة.

خامساً: عقبى إلتباع المبطلين

لقد سبق أن ذكرنا إن الإلتباع غريزة عند الانسان، وعليه أن يبحث ملياً
عمن يتبعه، ليرى هل هو أهل لذلك حسب تلك القيم القرآنية التي سبقت. أما
الذين يتبعون أهواءهم أو يتبعون المبطلين، فإنهم في الدنيا لا يزيدونهم إلا
خساراً. أما في الآخرة فإنهم يتبرأون منهم، ومن أتباعهم، ولكن دون جدوى.

١/ قوم النبي نوح عليه السلام إلتبعوا المبطلين من آبائهم وكبرائهم، فلم
يزيدوهم إلا خساراً. (لأنهم أساءوا إلتخاب من إلتبعوهم، فلم يختاروهم حسب
التعاليم الإلهية، ولا على ضوء وحي عقولهم، وإنما إلتبعوا الأغنياء الذين لم
ينتفعوا بثرواتهم). قال ربنا العزيز: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ
لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (نوح/٢١)

٢/ وكذلك ذكّرت آيات الذكر بمصير الذين إلتخذوا من دون الله أنداداً،
وأخذوا يحبونهم كحب الله، وإتبعوهم فندموا يوم الحسرة على ذلك. (وهكذا لا
يجوز أن يتخذ أحد أنداداً من دون الله فيندم، ولات حين ندم). قال الله سبحانه:
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرًا مِنْهُمْ كَمَا
تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ
النَّارِ﴾ (البقرة/١٦٥-١٦٧)

١٣/ وقال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس/٣٥)

فقه الآيات

إلى أي مدى يجوز للإنسان أن يتبع غيره؟ من أجل إستجلاء الأمر، علينا أن نفقه كلمة العبادة، التي هي محور قضايا أساسية في بصائر الوحي. بالتأكيد ليست العبادة مجرد السجود والركوع، وإنما تشمل الطاعة المطلقة والقبول التام. فمن هنا لا يجوز الاسترسال في إتباع الآباء دون تمحيص في آرائهم، ولا في إتباع القيادات التي لم يأمر الله باتباعهم. إذ الطاعة الشاملة هي لله. أما إذا أشرك البشر أحداً غير الله في ذلك، إعتبر ذلك إتخاذ الأنداد من دون الله.

أولاً: الاحسان نظام الإِتباع

إذاً كيف ننظم علاقتنا بالناس ممن سبقنا، أو بمن هو معنا؟

الجواب: بكلمة؛ علاقتنا تنظمها كلمة "الاحسان". فأقرب الناس إلينا هم الوالدان، الذين أمر الله بالاحسان إليهما. ومع ذلك يجوز لك أن تطيعهما إذا جاهدك لتشرك بالله سبحانه ما ليس لك به علم. وهكذا علاقتنا بمن سبقنا من المؤمنين، لا تفرض علينا إتباعهم، وإنما نقول عنهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر/١٠)

أما ماذا فعل أولئك؟ فليس لنا أن نقيس أنفسنا بهم، إذ إنهم أمة قد إنصرفت، وإن لها ما كسبت ولنا ما كسبنا. قال الله سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة/١٣٤)

وقال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء/ ٨٣)

وقال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذَّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل/ ٤٣-٤٤)

فأهل الذكر هم المسؤولون في حدود البيئات والزبر. (ولعل البيئات تعني الأحكام الشرعية والعقلية الواضحة، بينما الزبر تعني الأحكام المستنبطة من الكتاب والسنة).

وفي حديث مفصل عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، يروي الإمام عن جده الإمام الصادق عليه السلام حديثاً حول الآية الكريمة التي تدم اليهود باتباعهم علمائهم، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

فقال رجل للإمام الصادق عليه السلام: فإذا كان هؤلاء القوم من اليهود لا يعرفون الكتاب إلا بما يسمعون من علمائهم ولا سبيل لهم الى غيره، فكيف نمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم. (١)

وفي الجواب بين الامام نقطة الخلاف بين اليهود والمسلمين، وقال: إن عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصريح، وبأكل الحرام والرشاء، وبتغيير الاحكام عن واجبها بالشفاعات والعنايات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصب الشديد الذي يفارقون به أديانهم، وأنهم إذا تعصبوا أزالوا حقوق من تعصبوا عليه، وأعطوا ما لا يستحقه من تعصبوا له من أموال غيرهم، وظلموهم من أجلهم، وعرفوهم يقارفون المحرمات، واضطروا بمعارف قلوبهم (٢) إلى أن من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز أن يصدّق على الله ولا على الوسائط بين

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٨٧.

(٢) أي علموا بوجودهم معرفة لاريب فيها كأنهم يضطرون الى قبولها.

الخلق وبين الله. فلذلك ذمهم لما قلّدوا من قد عرفوا ومن قد علموا أنه لا يجوز قبول خبره، ولا تصديقه في حكاياته. (١)

وأضاف عليه السلام: وكذلك عوام امتنا إذا عرفوا من فقهاءهم الفسق الظاهر، والعصبية الشديدة، والتكالب على طعام الدنيا وحرامها، وإهلاك من يتعصبون عليه وإن كان لإصلاح أمره مستحقاً، والترفرع بالبر والاحسان على من تعصبوا له، وإن كان للاذلال والاهانة مستحقاً. فمن قلّد من عوامنا مثل هؤلاء الفقهاء، فهم مثل اليهود الذين ذمهم الله تعالى بالتقليد لفسقة فقهاءهم. فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه. وذلك لا يكون إلا بعض فقهاء الشيعة، لا جميعهم. فأما من ركب القبائح والفواحش مراكب فسقة فقهاء العامة، فلا تقبلوا منهم عنا شيئاً ولا كرامة. (٢)

والحديث مفصل، وتشهد على صحته مضامينه التي تتوافق وسائر النصوص التي سبق ذكر بعضها، ويأتي القسم الآخر منها إن شاء الله. وفي الحديث بصيرتان هامتان؛ الأولى: إن على المؤمن أن يبحث بجد عن الفقيه الذي يتبعه ويأخذ منه معالم دينه، ثم يختار العدل الذي وصفته الرواية بأنه مخالف لهواه، مطيع لأمر مولاه.

البصيرة الثانية التي نستوحيها من الحديث: إن حكم العقل في إختيار المتبع، حكم نافذ شرعاً، وعليه فإن المؤمن يراقب قيادته لكي لا يركب مراكب السوء، ولا يغير أحكام الدين، وإلا فإنه غير معذور عند الله. وبتعبير آخر؛ إن الإتياع والتقليد لا يعني مجرد التابع والمقلد من أحكام عقله وثوابت الشريعة، إنما عليه أن يظل متمسكاً بهما أثناء التقليد، حتى لا يكتشف متأخراً إن من إتبعه كان منحرفاً وقد أضله عن السبيل.

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٨٧-٨٨.

(٢) المصدر، ص ٨٨.

وهكذا نهت أحاديث كثيرة عن الاسترسال في الإتياع، إلا في الحجة الشرعية، وإليك طائفة منها:

١/ روي عن الثمالي، قال: قال أبو عبد الله (الإمام جعفر بن محمد الصادق) عليه السلام: "إياك و الرئاسة، وإياك أن تطأ أعقاب الرجال. فقلت: جعلت فداك؛ أما الرئاسة فقد عرفتها، وأما أن أطأ أعقاب الرجال، فما ثلثا ما في يدي إلا مما وطئت أعقاب الرجال. فقال: ليس حيث تذهب. إياك أن تنصب رجلا دون الحجة، فتصدقه في كل ما قال. (١)

قال العلامة المجلسي في بيانه لهذا الحديث: المراد أن تنصب رجلاً غير الحجة، فتصدقه في كل ما يقول برأيه من غير أن يسند ذلك الى المعصوم. (٢)

٢/ وروى سفيان بن خالد، عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: يا سفيان؛ إياك و الرئاسة، فما طلبها أحد إلا هلك. فقلت له: جعلت فداك؛ قد هلكنا إذا. ليس أحد منا إلا وهو يجب أن يذكر ويقصد و يؤخذ عنه. فقال: ليس حيث تذهب إليه، إنما ذلك أن تنصب رجلا دون الحجة، فتصدقه في كل ما قال، وتدعو الناس إلى قوله. (٣)

٣/ وحذر الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في الحديث التالي من أخذ معالم الدين من أي كان، حيث قال: إن العلماء ورثة الأنبياء، وذلك أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ شيئاً منها فقد أخذ حظاً وافراً. فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه، فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولا ينفون عنه تحريف الغالين، وإنتهال المبطلين، وتأويل الجاهلين. (٤)

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٨٣، ح ٥.

(٢) المصدر.

(٣) المصدر، ح ٦.

(٤) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٩٢، ح ٢١.

٤/ وحذر الإمام محمد الباقر عليه السلام من الاسترسال في إتباع رواية الحديث. فقد روي عن جابر الجعفي، أنه قال: سمعت أبا جعفر (الإمام الباقر) عليه السلام يقول: إن لنا أوعية نملأوها علماً وحكماً، وليست لها بأهل، فما نملأوها إلا لتنتقل إلى شيعتنا. فانظروا إلى ما في الأوعية فخذوها، ثم صفوها من الكدورة، تأخذونها بيضاء نقية صافية. وإياكم والأوعية، فإنها وعاء سوء فنتكبوها. (١)

٥/ وأكد حديث شريف على وجود العدول من الفقهاء، ولا بد من البحث عنهم بجد. فقد روي عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين، وتحريف الغالين، وانتحال الجاهلين، كما ينفى الكير خبث الحديد. (٢)

٦/ ويؤكد الحديث التالي على ضرورة التمييز، وعدم أخذ النصوص بلا تروي ونقد. فقد روي عن المسيح عليه السلام، أنه قال: خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق. كونوا نقاد الكلام، فكم من ضلالة زخرفت بأية من كتاب الله، كما زخرف الدرهم من نحاس بالفضة المموهة؛ النظر إلى ذلك سواء، والبصراء به خبراء. (٣)

ثالثاً: فقه الانتماء

والنصوص السابقة ذات دلالة واضحة على عدم جواز الاسترسال في الانتماء إلى التجمعات أنى كانت هويتها؛ سياسية أو ثقافية أو غيرها من دون التمييز في الأوامر، ونقدها بالقيم الإلهية. ومن هنا فقد أفتى بعض فقهاء العصر بحرمة الانتماء استرسالاً للحزاب، حتى ولو كانت إسلامية، لأنها نوع

(١) المصدر، ص ٩٣، ح ٢٦.

(٢) المصدر، ص ٩٢، ح ٢٢.

(٣) المصدر، ص ٩٦، ح ٣٩.

من الإتياع الذي سبقت حرمة إسترسالاً ومن دون تمحيص إلا لمن أمر الله باتباعه.

والإنتماء الصحيح يتمثل في إتياع النبي إبراهيم عليه السلام، والتشيع الحق للنبي محمد وأهل بيته عليه وعليهم السلام. فمن أحسّ عقله بهذا النوع من الإنتماء، إستغنى به عن سائر الإنتماءات، أو لا أقل جعلها في إطار هذا الإنتماء. وقد سبق قول الله عن لسان النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (إبراهيم/٣٦). وجاء في الأحاديث التالية تأكيد على هذه الحقيقة.

١/ روي عن أبي عبيدة، عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام، أنه قال: من أحبنا فهو منا أهل البيت. قلت: جعلت فداك؛ منكم؟! قال: منا والله.

أما سمعت قول إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾. (١)

٢/ وروي عن أبي عبد الله (الإمام جعفر بن محمد الصادق) عليه السلام، أنه قال: من تولى آل محمد وقدمهم على جميع الناس بما قدمهم من قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو من آل محمد بمنزلة آل محمد. لا إنه من القوم بأعيانهم، وإنما هو منهم بتوليه إليهم، وإتياعه إياهم. وكذلك حكم الله في كتابه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، وقول إبراهيم ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (٢)

رابعاً: معالم الإنتماء

ولكي يتم الإنتماء إلى خط الأنبياء والائمة الهداة، لا بد أن نتعرف عليهم وعلى سيرتهم وسنتهم، ونتبعها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً، وندافع عنهم في السر والعلن.. في الرخاء والشدة، وأن نتحسس بالإنتماء الى أوليائهم أنى كانوا، ونتعاون معهم على البرّ والتقوى، ونشكل معهم ذلك الحزب القائم على أساس التقوى لا الحمية؛ على أساس القيم لا القوم والوطن؛ على أساس الحق والهدى لا المصالح والأهواء. والله المستعان.

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٥٤٨، رواية رقم ١٠٢.

(٢) المصدر، رواية رقم ١٠٤.

إن غريزة الانسان تدعوه الى حب الراحة، والراحة الفكرية أعظم ما تتمناه النفس البشرية. ومن هنا فالبشر يستريح إلى الإتباع، لا الإبداع. فليكن - إذاً - إتباعه إتباعاً سليماً وفق المعايير التي ذكرت بها الآيات والأحاديث، ليس فقط في الشؤون الدينية، بل وحتى في قضايا الحياة.

والتوصيات التالية قد تساهم في تحديد معالم الإنتماء الصحيح:

١/ أن نسعى جاهدين لمعرفة الشخص الذي تتجلى فيه قيم الولاية الإلهية، والتي ذكرتها آيات الذكر من العلم والهدى والاخلاص.. الأمثل فالأمثل، ونجعله محور إنتماءاتنا، وقطب رحي تجمعنا.

٢/ أن نجعل تلك المكاسب التي سبق الحديث عنها باعتبارها أهداف الإتباع، هي معالم العلاقة مع القيادة.

٣/ لكي يصبح حب الله والحب في الله أساس الإنتماء، لا المصالح العاجلة، ولا الحميات المادية، ولا العواطف الساذجة. إن الإنتماء (الإتباع) أخطر شيء، لأنه يحدد السبيل الى الله. فليكن عزمنا عند إختيار السبيل نابحاً من حب الله، ومن رجاء رضوانه وغفرانه.

٤/ أن يكون أشد ساعات إنتمائنا عند هبوب رياح الفتنة، عندما تحيط بالناس الحيرة، ولا يعرفون كيف يتصرفون. هنا نزداد تمسكاً بالقيادة الإلهية، لأنها الحبل المتين والعروة الوثقى.

وهكذا عند الشدائد. فترك القيادة في ساعة العسرة، دليل على خور العزم وضعف الإنتماء، وهو سبب الإنهيار.

٥/ التجمع الرباني يبحث عن سبل السلام، والله يهديهم إليها بصفاء عقولهم، وسلامة نياتهم، ونور إيمانهم، وتراكم خبراتهم، وما يتخلقون به من التشاور فيما بينهم.

وهكذا فإن هذا التجمع يهدف بلوغ تطلعاته عبر الطرق الآمنة، التي تقل فيها المتاعب وتكثر بها المكاسب.

٦/ الغلبة على الأعداء بإذن الله تعالى، هدف بعيد يسعى إليه المنتمون إلى التجمع الرباني، والذي تحققه جملة الصفات المثلى التي يتحلى بها أبناء التجمع؛ من القوة والعزم والتوكل والبطولة والوفاء والصبر. إن التجمع الإيماني يعلو على سائر التجمعات بحق، لأنه يكتسب كل وسائل القوة حسبما أمرهم الله به، حين قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال/٦٠)

٧/ كل فرد من هذا التجمع يرى نفسه منصهراً في بوتقة الإيمان، وذائباً في تلك الوحدة الإلهية التي جمعت الأنبياء والأولياء عبر العصور. ولذلك فهو يحس بأعلى درجات الاندماج الذي تبشر به الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (إبراهيم/٣٦). وهذا الشعور يسمو بالفرد إلى أعلى درجات الاحسان والايثار.

٨/ وعبر الانتماء الى هذا التجمع الإيماني، يحقق المؤمن واجب الشهادة على عصره، حيث تراه عارفاً بزمانه، مراقباً لحوادثه، حساساً تجاه تحولاته، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقوم القسط، ويشهد لله بالحق.

من هنا ينبغي لكل تجمع رباني أن تزداد رقابته على الأوضاع، وحضوره في الأحداث، وفاعليته للتأثير فيها. والله المستعان.

٩/ التجمع الرباني مجتمع مثالي فريد، تتميز علاقاته الداخلية بالصدق والوفاء والتواصي، وهو مثل لأولئك الذين يعيشون عند ربهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهم الذين قال عنهم ربنا سبحانه: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء/٦٩)

وكلمة "منهم" أو "مني" أو "من" الجماعة الكذائية ذات دلالات واسعة، إنها تدل على العلاقة العضوية؛ علاقة الاخوة، علاقة الاندماج. وهي - بالتالي - تعني تمثيل صفاتهم، وتشابه مناهجهم. وفي هذا السياق نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء/٢١٥). فالرحمة والعطف والصفاء، تلك أخلاق القيادات بالنسبة الى أفرادهم، وليست

الفاظظة والانكفاء والترفع. وقد قال الله سبحانه: ﴿ فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن تَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران/١٥٩)

وهكذا ينبغي على القيادات، وبالذات على المراجع والعلماء أن يحافظوا على الخلق النبوي العظيم في علاقاتهم مع أتباعهم، ويخفضوا لهم أجنحة الرحمة، ويشاركوهم في أفراحهم وأتراحهم، ويشاوروهم في الضراء والبأساء، ويزدادوا تلاحماً معهم وإندماجاً. والله المستعان.

التأسي برسول الله (ص)

مما أودعه الله سبحانه في فطرة البشر، تطلعه الى المثل العليا، وتأسيه بالسابقين من القدوات الرائدة. وبذلك يجبر كسر عزيمته، ويوقر في سبيل العلى نيته. وقد جعل الله لعباده أسوات في منتهى الرفعة والسمو، ليعطيهم أعظم الفرص في التسامي إليه، والعروج في درجات الزلفى لديه، وهم الرسل والصديقون من أوصيائهم عليهم جميعاً صلوات الله. وفي طليعة الرسل خاتمهم وسيدهم محمد صلى الله عليه وآله، وأبيه ابراهيم عليه السلام، والمؤمنون الذين كانوا حول الرسل هم - بدورهم- قدوات الخير والأسوات في الفضيلة والتقوى.

١/ وعلى الانسان أن يبحث عن أحسن المثل ليتمثله في حياته. وهكذا يهدي الله عباده المؤمنين الى التأسي بابراهيم عليه السلام، والذين معه من المؤمنين أسوة حسنة. قال الله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (المتحنة/٤)

والبصائر التي نستوحىها من هذه الآية، هي:

أولاً: إن بيان القرآن الكريم قد ركز على دور شخص النبي ابراهيم عليه السلام، ثم بين دور الذين معه ليعرف أن التأسي أساساً بالنبي عليه السلام ثم

بالمؤمنين، باعتبارهم أتباعاً له. ذلك إن الشرعية ليست في أصحاب الأنبياء، لأنهم بشر كسائر الناس. بلى؛ لهم ميزتهم في إتباعهم للرسول. ثانياً: لقد ذكّر السياق القرآني على الجانب المستصعب من حياة الرسل والمؤمنين، حيث تبرؤوا من المشركين. والبراءة منهم تعني إعلان الحرب المقدسة ضدهم، بما لها من تحديات خطيرة.

وهذه البصيرة مشتركة في الموارد الثلاث التي وردت فيها كلمة التأسى في الذكر الحكيم، مما يهدي الى أن عظمة الرسل والتابعين لنهجهم، وأن إنتصارهم على الكفار لم يكن بلا ثمن. بلى؛ كان بثمن غال جداً.

ثالثاً: إذا كانت غاية المؤمن رضوان الله عند لقائه، والفلاح في الحياة الآخرة. فإن عليه أن يتأسى بالرسول، لأنهم السبيل الى الله. فإذا كان النبي إبراهيم عليه السلام إنما بلغ مقامه الكريم عند الله بالبراءة من أعداء الله، فهل يمكن أن يبلغ سائر المؤمنين درجاتهم عند الله من دون تلك البراءة؟ وإذا كان خاتم رسل الله محمد صلى الله عليه وآله قد جاهد أعداء الله بنفسه وبالزمرة الطاهرة من أهل بيته وأصحابه، أفلا يجب أن أتأسى بهم في مجاهدة أعداء الله؟

٢/ ومن هنا أكد ربنا على الصلة الوثيقة بين التأسى بإبراهيم عليه السلام وبين رجاء الله واليوم الآخر، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الممتحنة/٦)

٣/ لكي يستقيم المؤمن على صراط الحق، عليه أن يتذكر أبداً هدفه الأسمى، وغاية حياته، ألا وهي رضوان الله سبحانه. فمن عرف الى أين يسير، ضبط حركته باتجاه هدفه من دون إرتياب أو وسوسة، وبذلك تتوضح معالم سلوكه. أو ليس يجد المعيار السليم والدائم الذي يخدمه عند كل منعطف أو مفترق سبل؟

ثم إن تذكر الهدف الكبير يُسهّل على الانسان المسير، ويعينه على العقبات، ويوفر له النية لتجاوز الصعاب. وهكذا نجد السياق القرآني في سورة الأحزاب يأمر المسلمين بالصبر عند الساعات الشديدة، حيث يبتلئ المؤمنون ويلزلوا زلزالاً شديداً: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (الأحزاب/ ١٠)

ثم يفضح المنافقين الذين كان في قلوبهم مرض، ويبين بعض أعدائهم: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آفْطَارِهَا ثُمَّ سَبَلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأحزاب/ ١١-٢٠)

ثم يأمر بالنأسي بالرسول، حيث ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب/ ٢١)

ثم يبين الله تعالى موقف المؤمنين الثابت، حيث يقول: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الاحزاب/٢٢-٢٣)

وهكذا جاءت كلمة التأسي في هذا السياق العاصف، مما يدلنا على أن التأسي برسول الله لا يعني مجرد إتباع سيرته الوضيئة في أيام الرخاء، بل وقبل ذلك الاقتداء به في ساعة العسرة، وعند مواجهة الشدائد.

فقه الآيات

لقد أمر الوحي المؤمنين بالطاعة التامة للرسول صلى الله عليه وآله، بل ولكل الرسل عليهم السلام. فقال الله سبحانه: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر/٧)

وقال الله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (المائدة/٩٢)

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء/٦٤)

ولكن الله لم يأمر بالاعتداء بالرسول بوجه مطلق، وانما أمر بالاعتداء بهداهم، فقال سبحانه - بعد أن ذكر طائفة من الرسل العظام -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الانعام/٩٠)

والسؤال: ما هي الحكمة في تخصيص الأمر بالاعتداء العملي بسيرة الرسل بالهدى، بينما جاء الأمر بطاعتهم بوجه مطلق؟

لعل الحكمة تتمثل في إختلاف القول عن العمل. فالقول واضح مبين، بينما العمل مجمل. فلو لم يشفع بقول أو بقرائن مبينة، فإن وجهه لا يكون معلوماً. فهذا النبي موسى عليه السلام لم يعرف وجه ما فعله العالم الذي إصطحبه، حتى يبين له العالم تأويله.

ومن هنا قال علماء الأصول: إن عمل المعصوم إنما يكون حجة إذا عرف وجهه.

قال العلامة المظفر: لا شك في أن فعل المعصوم - بحكم كونه معصوماً- يدل على إباحة الفعل على الأقل، كما أن تركه لفعل يدل على عدم وجوبه على الأقل. (١)

ثم قال: إنه قد يكون لفعل المعصوم من الدلالة ما هو أوسع من ذلك، وذلك فيما إذا صدر منه محفوفاً بالقرينة، كأن يحرز أنه في مقام بيان حكم من الأحكام، أو عبادة من العبادات كالوضوء والصلاة ونحوهما، فإنه -حينئذ- يكون لفعله ظهور في وجه الفعل عن كونه واجباً أو مستحباً أو غير ذلك حسبما تقتضيه القرينة. (٢)

وقال الغزالي: لا يمكن دعوى العموم في الفعل، لأن الفعل لا يقع إلا على وجه معين. فلا يجوز أن يحمل على كل وجه يمكن أن يقع عليه، لأن سائر الوجوه متساوية بالنسبة الى احتمالاته. والعموم ما يتساوى بالنسبة الى دلالة اللفظ عليه، بل الفعل كاللفظ المجمل المتردد بين معان متساوية في صلاح اللفظ. (٣)

وضرب مثلاً على ذلك لصلاة النبي صل الله عليه وآله في الكعبة، وقال: فليس لقائل أن يستدل به على جواز الفرض. (٤)

(١) اصول الفقه، ج ٢، ص ٥٨.

(٢) المصدر، ص ٥٩.

(٣) المستصفي، ج ٢، ص ٦٤.

(٤) المصدر.

وقال الشاطبي: - فالفعل منه صلى الله عليه وآله وسلم- دليل على مطلق الإذن فيه، مالم يدل دليل على غيره من قول أو قرينة حال أو غيرهما. (١) وهكذا أكثر سائر علماء الأصول أكدوا على هذه الفكرة. ولنا أن نتساءل: إذاً لماذا أمرنا بأن نتخذ من الرسول أسوة؟

يتبين الجواب باذن الله تعالى بعد ذكر جملة نقاط:
أولاً: إن سيرة الرسول - كما أقواله - حجة، وعلينا التأمل فيها ودراسة أبعادها، كما يجب علينا دراسة كلماته والتأمل فيها.
وكما لا يجوز أن نغض الطرف عن كلماته ونعتذر بانها غير واضحة، كذلك لا يجوز أن نتولى عن سيرته، ونبرر ذلك بأنها مجملة. كيف وقد أمرنا بالتأسي به صلى الله عليه وآله، وقد بيّن القرآن جملة من سيرته. أليس لكي نفتدي به فيها؟

وفي آيات التأسي بيّن ربنا سيرة الرسل والمؤمنين، هل لمجرد الاستماع إليها، أم للاقتداء بها؟

إذاً؛ إن علينا دراسة السيرة النبوية دراسة تهدينا الى عبرها وهداها، ومواقع الاقتداء والتأسي فيها. وبعد الدراسة إذا بقي إجمال فيها، يجوز لنا ردّها الى ما بيّن فيها، كما نرد المتشابه الى المحكم في الكتاب والسنة.
ومن هنا فقد روي عن الامام علي بن الحسين عليه السلام، أنهم كانوا يتعلمون مغازي النبي كما كانوا يتعلمون القرآن.

وقد إهتم المؤرخون والرواة الى نقل سيرة النبي صلى الله عليه وآله، حتى في أدق تفاصيلها.

ثانياً: في الحياة ثوابت ومتغيرات. فثوابت الحياة هي التي تفيض من سنن الحق التي أجراها الرب في خلقه، أمّا المتغيرات فهي نتيجة الظروف الزمانية والمكانية. والثوابت من سيرة الرسل حجة، لأن الزمن لا تأثير له فيها، وقد

(١) الموافقات، ج٤، ص ٥٩.

روي أن: "حلال محمد حلال الى يوم القيامة، وحرامه حرام الى يوم القيامة".
(١)

أما المتغيرات فإن فيها عبراً مفيدة، وفيها تفاصيل ممتعة. وإنما الحجة للأجيال في عبرها، وهي تلك الحكم العامة والمنهجية السلوكية التي يتبعها المقتدى (الرسول أو الوصي أو المؤمن) في أعماله. مثلاً؛ في قصة يوسف الصديق عليه السلام ثوابت، مثل الصبر والتقوى وتجنب الخيانة. وعلينا اتباعها، حيث إن الله سبحانه استخلص من قصة النبي يوسف هذه العبرة، فقال: ﴿قَالُوا أَعَيْنَكَ لَأَنَّتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف/٩٠)

أما متغيرات القصة مثل رؤيا يوسف في المنام، وإلقاؤه في البئر، وشراؤه بثمن بخس، وتمكنه في بيت العزيز، فإن هذه التفاصيل ممتعة. وفيها أيضاً عبر خفية لو تدبرنا فيها إستقداها؛ مثل نصيحة أوسط الاخوة بالألّا يقتلوه. فعبرته إمكان النهي عن المنكر، ولو بدرجة خفيفة. وإن النبي يعقوب عليه السلام قال لأبنائه: أخاف أن يأكله الذئب، مما جعلهم يجدون ما يعتذرون به عن سوء فعلهم. ولولا ذلك، ربما لم يكونوا يتوسلون بهذه الكذبة. هذه الأمور ليست بالضرورة حجة، ولكنها مفيدة.

وفي قصة الرسول صلى الله عليه وآله، نقرأ قول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ عَدُوَّتْ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران/١٢١)

فإن القيادة الميدانية للرسول حجة على كل من يريد إتباعه، أما أنه كان يبكر الى المعركة ويحدد المواقع، فإنه ينفع أيضاً، ولكن قد لا يكون في مستوى الحجة الدالة على اللزوم. فقد ينبغي للقائد الميداني أن يتفقد مواقع القتال ليلاً، وليس أول الصباح.

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٦٤.

ولعل هذه المفارقة بين الثوابت والمتغيرات، هي الحكمة وراء إجمال الفعل، وعدم الأمر بتمثله بوجه مطلق. اذ لو كان الأمر كذلك، إذًا لتسبب في جمود السلوك، وعدم تطابقه مع الظروف المتغيرة. وهو ينافي بقاء الدين وقدرته على التكيف مع كل زمان ومكان، ومع سائر الطبقات الاجتماعية. ونحن قد تحدثنا ملياً في الجزء الثاني من هذه الموسوعة حول الحدود الفاصلة بين ثوابت الشريعة ومتغيراتها.

ثالثاً: كلمة الأسوة التي هي محور البحوث هنا، مشتقة حسب اللغة من مادة (أسو)، حيث يقول ابن الفارس عنها: أسوت الجرح: أسواً: إذا داويته فهو أسوي. وأضاف: وأسوت أسواً بين القوم: إذا أصلحت بينهم. ولي في بني فلان أسوة؛ أي: قدوة. وقال: وأسيت المصاب على مصابه: إذا عزيته وأسيته بنفسي. (١)

وقال المطرزي في المغرب: الأسوة؛ اسم من إنتسى به إذا إقتدى به وإتبعه. ويقال آسيته بمالي؛ أي جعلته أسوة أقتدي به ويقتدي هو بي، وواسيت لغة ضعيفة. (٢)

وقال حسن المصطفوي: أسو؛ أصل واحد يدل على المداواة والإصلاح. أسوت الجرح: داويته، ولذلك يسمى الطبيب الأسي. أسوت بين القوم: أصلحت بينهم. ومن هذا الباب: لي في فلان أسوة؛ أي قدوة، أي أنني أقتدي به. وأسيت فلاناً: عزيته. (٣)

ولكني أتصور أن أصل معاني هذه الكلمة المساواة، ومنه إشتقاق معنى العلاج، لأنه إستواء الخلق. وكذلك إصلاح ذات البين، لأنه تسوية ما شجر فيه. وكذلك التعزية، لأنها إعلان عن المشاطرة مع أهل المصيبة في حزنهم.

(١) مجمل اللغة، لإبن الفارس، منشورات معهد المخطوطات العربية (الكويت)، ج ١، ص ١٨٩-١٩٠.

(٢) المغرب في ترتيب المعرب، للمطرزي، دار الكتاب العربي ببيروت لبنان، ص ٢٦.

(٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ١، ص ٧٨.

ومن هنا التأسى والإيتساء هو محاولة التشبه بالأسوة للتساوي معه، وهو يوحى بالمشاطرة معه في المتاعب والمصاعب، وكذلك المصائب. وإذا لاحظت موارد إستعمال هذه الكلمة في العربية، لوجدت هذه المفارقة. ومن هنا فإن علينا تحمل الصعاب لتتساوى مع قدواتنا الكرام. وعلى هذا فإن آيات التأسى لا دلالة فيها على ضرورة الإقتداء بالنبي في أفعاله بصفة مطلقة.

وقد أجاد العلامة المظفر في رده الاحتجاج بالآية الكريمة على وجوب التأسى، حيث قال: إن الآية نزلت في واقعة الأحزاب، فهي واردة مورد الحث على التأسى به في الصبر على القتال، وتحمل مصائب الجهاد في سبيل الله. فلا عموم لها بلزوم التأسى أو حسنه في كل فعل حتى الأفعال العادية. وليس معنى هذا أننا نقول بأن المورد يقيد المطلق أو يخصص العام، بل إنما نقول إنه يكون عقبة في (طريق) إتمام مقدمات الحكمة للتمسك بالاطلاق. فهو يضر بالاطلاق من دون أن يكون له ظهور في التقييد. (١)، (٢) رابعاً: الفعل أشد أثراً من القول، وأبلغ في الاتباع، بالرغم من أن القول أجلى بياناً وأوضح.

ذلك لأن الهدف من إنبعاث الرسل تزكية البشر وتعليمهم، وإنما عبر الفعل وضرب الأمثلة الحية يتحقق هذا الهدف بصورة كاملة. وهكذا قد جاء في الحديث القدسي عن الله جل جلاله: "إني أنا الله لا إله إلا أنا الرحمن الرحيم ، العزيز الحكيم... وإني إطلعت يا عبدي في علمي على قلوب عبادي فلم أر فيهم أطوع لي و لا أنصح لخالقي من أنبيائي ورسلي، فجعلت لذلك فيهم روعي وكلمتي ، و ألزمتهم عبء حجتي، واصطفيتهم على البرايا برسالتي ووحبي، ثم ألقيت بمكاناتهم تلك في منازلهم حوامهم وأوصياءهم من بعد،

(١) أصول الفقه للعلامة المظفر، ج ٢.

(٢) أهم مقدمات الحكمة أن الاطلاق لا يفهم من الكلام إلا إذا كان المتحدث في مقام البيان؛ أي في معرض توضيح الفكرة من جميع الجهات. وفي هذه الآية لا نعلم بأن القرآن في معرض بيان الاقتداء بالرسول من جميع الجهات، وإنما فقط في الصبر على الشدائد.

فألحقهم بأنبيائي ورسلي ، وجعلتهم من بعدهم ودايع حجتني والأساة في بريتي ، لأجبر بهم كسر عبادي، وأقيم بهم أودهم، ذلك أني بهم وبقلوبهم لطيف خبير. ثم إطلعت في قلوب المصطفين من رسلي، فلم أجد فيهم أطوع لي و لا أنصح لخلق من محمد خيرتي وخالصتي، فاخترته على علم ورفعت ذكره إلى ذكري." (١)

من هنا تأتي فائدة ذكر سيرة النبي وأهل بيته الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، حيث تشد سيرتهم عزائم المؤمنين، وتزيدهم صلابة في مواجهة الصعاب.

وقد جاء في حديث شريف عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام إن اسماعيل كان رسولاً نبياً سلط عليه قومه فقشروا جلده وجهه وفروه رأسه، فأتاه رسول من رب العالمين فقال له: ربك يقرئك السلام ويقول قد رأيت ما صنع بك وقد أمرني بطاعتك فمرني بما شئت فقال: يكون لي بالحسين بن علي عليهما السلام أسوة. (٢)

وعند هيجان الحرص على الدنيا والتكالب عليها من قبل أهلها، يتسلى المؤمنون بذكر سيرة نبيهم الكريم صلى الله عليه وآله، وكيف زهد في درجات الدنيا، ورغب فيما عند الله.. فلقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ قال الطبرسي رحمه الله: قيل نزلت في ثعلبة بن حاطب، وكان من الانصار، قال للنبي صلى الله عليه وآله: أدع الله أن يرزقني مالاً. فقال: يا ثعلبة؛ قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، أمالك في رسول الله صلى الله عليه وآله أسوة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت... (٣)

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣١٢.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٤٢، ح ١٠٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٠.

وجاء في حديث آخر عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام: ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله كاف لك في الأسوة، ودليل لك على نم الدنيا وعيها، وكثرة مخازيها ومساوئها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوي عن زخارفها.. (١)

ولأن العقل أبلغ أثراً في النفوس، فإن الدين الحنيف حث الدعاة الى الله أن يكونوا هم بأفعالهم أسوة في المثل العليا التي يدعون الناس إليها، حيث روي عن الامام زين العابدين عليه السلام أنه قال: إن أبغض الناس الى الله عزّ وجلّ من يقتدي بسنة إمام، ولا يقتدي بأعماله. (٢)

وقد كان قادتنا هم أسبق الناس بالعمل بما دعوا إليه. فقد روي عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، أنه قال: ... أقتنع من نفسي بأن يقال هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش! فما خلقت ليشغني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة، همها علفها... (٣)

في رحاب الأحاديث

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: فتأس بنبيك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله، فإن فيه أسوة لمن تأسى، وعزاء لمن تعزى. وأحب العباد الى الله المتأسى بنبيه، والمقتص لأثره. قضم الدنيا قضمًا، ولم يعرها طرفاً... فتأسى متأس بنبيه، وإقتص أثره وولج مولجه، وإلا فلا يأمن الهلكة. فإن الله جعل محمداً صلى الله عليه وآله علماً للساعة، ومبشراً بالجنة، ومنذراً بالعقوبة... (٤)

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

(٢) ميزان الحكمة، ج ١، ص ١٠٢.

(٣) نهج البلاغة، كتاب ٤٥.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٦٠.

وقال أبو عبد الله الإمام الصادق عليه السلام: بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله شهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البرية طفلاً، وأنجبها كهلاً، أظهر المطهرين شيمته، وأجود المستمطرين ديمته، الأظهر الأطيب صلى الله عليه وآله. فان فيه أسوة لمن تأسى، وعزاء لمن تعزى، وأحب العباد الى الله تعالى المتأسي بنبيه صلى الله عليه وآله، والمقتص لأثره. (١)

(١) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٧٣.

حب أولياء الله

تتجلى كرامة الانسان بأجلى صورها في حب الله وأوليائه، ذلك لأن
الحب:

أولاً: تناغم وإنسجام الفؤاد الذي يغمره الحب الإلهي بكل تجلياته؛ يتطهر
بالإنابة، ويسمو بالصدق، ويستتير بالرضا والشكر، ويتدفأ بالشوق، ويقوى
بالعزم والتوكل..

ثانياً: وإذا أحب الانسان ربه أطاعه إطاعة الاصرار، التي تفيض عن نبع
الحب، لا تكلف فيها ولا نفاق.

ثالثاً: وعندما تلبو السرائر، وتتمثل الحقائق عند لقاء الله، ترى المحبين في
مقعد صدق عند ملك مقدر. لماذا؟ لأن الله يحشر كل إنسان مع من أحب.
ويخلص المؤمن حبه لله، ويفيض حب الله على عباد الله المخلصين؛ رسله
وأوليائه، ومنهم المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ومنهم
السابقون الى الايمان، ومنهم سائر المؤمنين.

١/ الحب كما النسيم، كما العطر، كما النور ينشر. فمن أحب الله تعالى،
أحب عباده الصالحين، وفي طليعتهم الأنبياء والأئمة عليهم السلام. وحب
الرسول من حب الله، وحب أهل بيته عليهم السلام من ذلك الحب الكبير. ومن
هنا جعل الله أجر رسالة النبي المصطفى المودة في القربى. قال الله سبحانه:
﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ شَكُورٌ ﴿﴾ (الشورى/٢٣)

وهذا الأجر يعود بالتالي إلينا، أولم يقل ربنا سبحانه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ/٤٧) لأن حب أهل البيت عليهم السلام يشدنا الى معارفهم وسيرتهم، ويشدنا الى أوليائهم، ويجعل تنفيذ تعاليم الاسلام التي وصلت الينا عبرهم أيسر علينا.

٢/ وكذلك كان دعاء النبي إبراهيم عليه السلام عندما همّ بتوديع ذريته، الذين أسكنهم عند بيت الله الحرام، كان دعاءه لربه أن يمنحهم وداً أفئدة من الناس، لكي تهوي إليهم. فقال ربنا: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفئدةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم/٣٧)

وهكذا سأل النبي إبراهيم عليه السلام ربه أولاً حب ذريته من قبل أفئدة من الناس، ثم سأله أن يرزقهم من الثمرات.

٣/ وهكذا بشر الله المؤمنين من عباده، أن الله سيجعل لهم وداً، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم/٩٦)

ولعلّ هذا الودّ هو الحب الذي يجعله الرب في أفئدة المؤمنين تجاه بعضهم البعض.

٤/ وقد أَلَّفَ الله بين القلوب المؤمنة بهذه الصلة الوثيقة، حتى أنهم أصبحوا رحماءً بينهم. قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ لَئِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح/٢٩)

٥/ وبهذه الصلة الايمانية كانوا أذلاء على بعضهم، وبهذه الصلة كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

بلى؛ كمثل ذلك الحب الذي يجعل الأم تضحي من أجل رضيعها، إنه هو الحب الذي جعل مسلمي المدينة يؤثرون على أنفسهم، ويقاسمون المهاجرين ديارهم وأموالهم دون أن يريدوا جزاءً أو شكوراً. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر/ ٩)

بلى؛ الحب هو مفتاح أكثر الفضائل الانسانية. ألا ترى كيف قدم أهل البيت عليهم السلام أقراص الرغيف للمسكين واليتيم والأسير بالرغم من حاجتهم الشديدة إليها وجوعهم الممض؟

فقه الآيات

آيات قرآنية كثيرة، ونصوص متواترة من السنة، أكدت على فريضة حب آل البيت عليهم السلام. لماذا ذلك التأكيد على الحب؟ وماهي أفاق الحب؟ وماهو واجبنا اليوم في ضوء هذه التأكيدات؟

أولاً: حب أهل البيت

لماذا حب أهل البيت عليهم السلام؟ (١)

لعل الاجابة الصحيحة تلخص في أمرين:

١/ لأن جذر الاختلاف بين الناس كامن في القلب، وأعظم أسبابه الحب والبغض. فالكبر والحسد والعصبيات القبلية والقومية والسياسية والأحقاد المتوارثة والجهالات العقيمة، هي وراء أكثر الاختلافات. وإذا لم تترك القلوب من آثارها، فإن الخلاف لايقضى عليه حتى في إطار الأهداف الواحدة والمصالح المشتركة.

(١) فيما يلي ننقل ببعض التصرف فقرات جاءت في بيان آية المودة في تفسير (من هدى القرآن) للمؤلف.

ومما يساهم في تصفية جزء كبير من أمراض القلب، حب أولياء الله؛ حيث يغمر نوره القلوب، فيفيض حتى يشمل طائفة المحبين جميعاً. إن حب الرسول يجعلنا نحب كل تابعيه، وحب أهل بيته يسري إلى محبيهم حتى يصبحوا حزباً إلهياً واحداً، ويتحابوا في الله، ويتزاوروا في الله، ويتعارفوا في سبيل الله.

هكذا شبه الرسول حبهم بسفينة نوح التي وحدث بين راكيها، كما حملتهم إلى برّ الأمان. إنهم الحبل المتين الذي يشد أزر المتمسكين ببعضهم، إنهم النجوم التي توحد مسيرة المهتدين بهم.

ولأن طاعة أهل البيت، والتمسك بالقيادة الشرعية الرائدة، تقتضي جهاد المشركين، ومقاومة الطغاة والمترفين، وتحدي تيار الفساد والضلال.. وبالتالي تقتضي هذه الطاعة الجهاد والايثار والشهادة، فقد جعل الله منطلقه الحب الذي به يسهل كل صعب، بل ويتلذذ الحبيب بما يبذله في سبيل من يحب. ألم تر كيف يصبر المجاهدون في سجون الطغاة على أقسى ألوان التعذيب، ثم يقولون كما قال حبيبهم محمد صلى الله عليه وآله عندما تعرض لأذى قومه: "لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك". (١)

ألم يأتك نبأ أهل الايثار في سوح القتال في كربلاء، يوم عاشوراء، كيف إستساغوا شراب الموت، وكان عندهم أشهى من العسل، لأنهم إتبعوا نهج إمامهم الحسين عليه السلام الذي قال وهو يعالج سكرات الموت تحت ركام من السيوف والخناجر والسهام والحجارة، وقد إستد به العطش، ووتر بأفضل أهل بيت وأبر أصحاب، قال: "صبراً على قضائك، لا معبود سواك". (٢) وقالوا على لسانه:

تركت الخلق طراً في هواك
وأيتمت العيال لكي
أراك

(١) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢٢.

(٢) مقتل المقرّم، ص ٣٥٧.

فلو قطعني بالحب إربا
لما مال الفؤاد الى
سواك.

٢/ الطاعة الحقيقية هي لله، وأما المودة ففي القربى. نحن لا نطيع القيادة لذاتها أنى كانت، إنما نطيعها لأنها إمتداد لولاية الله سبحانه وتعالى. الطاعة ليست إلا لله ولمن أمر الله، وهذا يتناسب وأجر الرسالة، لأن أجر الرسول هو أن يستمر نهجه، حيث كان يتطلع نحو بقاء خطه الرسالي في الأمة. وهذا كان أهم أجر تقدمه الأمة الاسلامية لرسول الله، الذي ما ونى لحظة عن تبليغ رسالات ربه، ولا إدخر وسعاً حتى أمره الله بالأل يهلك نفسه حزناً عليهم، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَأَارِهِمْ إِن لَّمَّ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف/٦). وقال: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِنَشْقَىٰ﴾ (طه/١-٢)

ومن هنا فقد تواترت الأحاديث حول حب أهل البيت عليهم السلام، حيث روي عن أبي جعفر (الامام محمد الباقر) عليه السلام قال: "عشر من لقي الله عز وجل بهنّ دخل الجنة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، والاقرار بما جاء من عند الله عزّ وجلّ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت، والولاية لأولياء الله، والبراءة من أعداء الله، واجتناب كلّ مسكر". (١)

وجاء في حديث مروى عن حبيش بن المعتمر قال: دخلت على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ كيف أمسيت؟ قال: أمسيت محبباً لمحبتنا، ومبغضاً لمبغضنا، وأمسى محببنا مغتبطاً برحمة من الله كان ينتظرها، وأمسى عدونا يؤسس بنيانه على شفا جرف هار، فكأن ذلك الشفا قد إنهار به في نار جهنم. وكانّ أبواب الرحمة قد فتحت لأهلها، فهنيئاً لأهل الرحمة رحمتهم، والتعس لأهل النار والنار لهم.

(١) بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٥٣، ح ٥.

يا حبيش؛ من سرّه أن يعلم أمّ أحب لنا أم مبغض، فليمتحن قلبه، فإن كان يحب ولياً لنا فليس بمبغض لنا، وإن كان يبغض ولياً لنا فليس بمحب لنا. إن الله تعالى أخذ الميثاق لمحبينا بمودتنا، وكتب في الذكر اسم مبغضنا. نحن النجباء، وافرطنا افرط الأنبياء. (١)

وفي رواية أبي حمزة الثمالي عن الامام محمد الباقر عليه السلام بيّن إن إستكمال حقائق الايمان يكون بحب أئمة الهدى عليهم السلام، فقال: "يا أبا حمزة؛ إنما يعبد الله من عرف الله، وأمّا من لا يعرف الله كأنما يعبد غيره هكذا ضالاً. قلت: أصلحك الله؛ وما معرفة الله؟ قال: يصدّق الله ويصدّق محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله في موالاته علي والإيتام به وبأئمة الهدى من بعده، والبراءة الى الله من عدوّهم، وكذلك عرفان الله.

قال: قلت: أصلحك الله؛ أيّ شيء إذا عملته أنا استكملت حقيقة الايمان؟ قال: توالي أولياء الله وتعادي أعداء الله، وتكون مع الصادقين كما أمرك الله. قال: قلت: ومن أولياء الله؟ فقال: أولياء الله محمد رسول الله وعلي والحسن والحسين وعلي بن الحسين، ثم انتهى الأمر إلينا، ثم ابني جعفر، وأوماً الى جعفر وهو جالس. فمن والى هؤلاء فقد والى أولياء الله، وكان مع الصادقين كما أمره الله. (٢)

والحب حقاً لا يجتمع مع حب الأعداء، حيث نقرأ في حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قدم عليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني أحبك وأحب فلاناً، وسمّى بعض أعدائه. فقال عليه السلام: أما الآن فأنت أعور، فإمّا أن تعمي، وإمّا أن تبصر". (٣)
ومن هذه البصيرة نستوحي الأحكام التالية:

(١) بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٥٣، ح ٦.

(٢) المصدر، ص ٥٧، ح ١٦.

(٣) المصدر، ص ٥٨، ح ١٧.

أ- علينا أن نشعر أفندتنا حب آل البيت عليهم السلام والبراءة من أعدائهم، وذلك بمعرفة درجاتهم ووصايا النبي صلى الله عليه وآله بحقهم، وقراءة سيرتهم العطرة، والتعرّف على كلماتهم المضيئة وخلقهم الرفيع، وزيارة مرآدهم، والسلام عليهم باستمرار عن قريب أو بعيد.

ب- بزرع حب الأئمة عليهم السلام في أولادنا، وبيان فضائلهم لهم، حتى يتخذوهم لأنفسهم قدوات، ويتحلوا بصفاتهم، ويمتثلوا لتعاليمهم.

ج- بنشر فضائلهم في الآفاق، ودعوة الناس إليهم بكل وسيلة ممكنة.

ثانياً: حب الأولياء

إذا إنتصر المؤمنون في بلد وكونوا المجمع الاسلامي، فلا يعني أن أهالي تلك البلاد من المسلمين أفضل من غيرهم، فيستأثروا بالمكاسب، أو يفرضوا وصايتهم على غيرهم. كلا؛ فكل ما عند المؤمنين، حتى أنفسهم ملك للإسلام ولأهله الذين هم إخوانهم. وينبغي لهم أن يقتدوا بالأنصار الذين بلغ بهم حبهم للمهاجرين أن آثروهم على أنفسهم، لأنهم إنتموا للإسلام إبتغاء فضل الله ورضوانه، وليس بحثاً عن المكاسب المادية، وضحوا بأموالهم وبيوتهم ومستقبلهم المادي من أجل الدين.

وهكذا تتحدد علاقة المهاجرين بمن في دار الاسلام بالحب الصادق لهم، فلا يرون اللاحقين بهم غرباء عنهم، ولا يستثير وجودهم وتنافسهم، ولا حتى إنتقادهم أي حقد وحسد، ولا أي لون من الحساسية، لأن رابطةهم ببعضهم أكبر من كل ذلك؛ إنها رابطة الايمان والجهاد.

ولا يصل الانسان الى هذا المستوى الرفيع من الأخلاق إلا إذا تمكن الايمان من نفسه، فتجاوز شح نفسه (الأهواء والشهوات والمصالح) وتحرر عن أغلال الوطنية والقومية والعنصرية والطبقية والحزبية، وأصبح كامل

الايمن مثلما قال الامام الصادق عليه السلام: "من أحب الله، وأبغض الله، وأعطى الله، ومنع الله، فهو ممن كمل ايمنه". (١)

وقد إعتبر أئمة الهدى الحب هو الدين، حيث أجاب الامام الصادق عليه السلام سائلاً سأله عن الحب: هل هو من الايمان؟ فقال: ويحك وهل الدين إلا الحب؟ ألا ترى الى قول الله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؟ ألا ترى قول الله لمحمد صلى الله عليه وآله: ﴿حَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾. فقال: الدين هو الحب، والحب هو الدين. (٢)

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: أي عرى الايمان أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. وقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصوم، وقال بعضهم: الحج والعمرة، وقال بعضهم: الجهاد. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لكل ما قلتم فضل وليس به، ولكن أوثق عرى الايمان الحب في الله، والبغض في الله، وتولي أولياء الله، والتبري من أعداء الله عزّ وجلّ. (٣)

وجاء في حديث آخر، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال لبعض أصحابه ذات يوم: يا عبد الله؛ أحب في الله وأبغض في الله، ووال في الله وعاد في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجد رجل طعم الايمان وإن كثرت صلواته وصيامه حتى يكون كذلك. وقد صارت مواخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا عليها يتوآدون وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً.

فقال له: وكيف لي أن أعلم أنني قد واليت وعاديت في الله عز وجل؟ ومن ولي الله عز وجل حتى أُوّليه؟ ومن عدّوه حتى أعاديه؟

(١) المحاسن للبرقي، ج ١، ص ٢٦٣.

(٢) المصدر.

(٣) المحاسن للبرقي، ج ١، ص ٢٦٤.

فأشار رسول الله صلى الله عليه وآله الى علي عليه السلام، فقال: أتري هذا؟ فقال: بلى. قال: وليّ هذا وليّ الله فواله، وعدوّ هذا عدوّ الله فعاده.
قال: وال وليّ هذا، ولو أنه قاتل أبيك وولدك؛ وعاد عدو هذا، ولو أنه أبوك أو ولدك. (١)
وروي إن الله أوحى الى بعض عبّاد بني اسرائيل وقد دخل قلبه شيء: أمّا عبادتك لي فقد تعزّزت بي، وأمّا زهدك في الدنيا فقد تعجّلت الراحة، فهل واليت لي وليّاً أو عاديت لي عدوّاً؟ ثم أمر به إلى النّار، نعوذ بالله منها. (٢)

(١) بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٥٤، ح ٨.
(٢) المصدر، ص ٥٧، ح ١٤.

الفصل الثالث: السبيل القويم

البينة

أن تكون على بصيرة من أمرك وبينة واضحة، تلك قيمة سامية، وهدف هام. ولكن أتى لنا بالبينة وقلوبنا محجوبة بالهوى والشهوات، تختلط فيها ظلمات الذات بضياء الهدى؟

نستوحي من أي الذكر الحكيم حقائق عن البينة:

أولاً: إنها من عند الله تعالى، (وليس من ذواتنا المظلمة).

ثانياً: إن من أوتي البينة، تنزلت عليه رحمة الله، ورزقه ربه رزقاً حسناً.

ثالثاً: ويتلوه شاهد من ربه (يصدقه).

رابعاً: ومعه رصيد كبير من تجارب التاريخ تشهد بصدقه.

خامساً: يصدق فعله قوله، وعمله لسانه، مما يهدينا الى أنه على بصيرة تامة.

سادساً: إنه يريد الاصلاح أتى استطاع إليه سبيلاً.

سابعاً: إنه يتوكل على ربه (ويقتحم غمار التحديات بلا هوادة).

من هذه الكلمات نستوحي البصائر التالية:

١/ تنعقد القلوب على بعض المبادئ، التي تصبح مصدراً لثقافتهم

وسلوكلهم. ولكن ما هي العقائد السليمة، وكيف تتمايز مع الأخرى الخاطئة؟

ليس سهلاً معرفة ذلك، وإذا عرف الانسان ذلك فإنه هام جداً، لأنه الفاصل

بين الهوى والضلالة، بين الجنة والنار. ولكن كيف نتعرف على ذلك؟

لا بد أن نعرف إن الحق والباطل كما الظل والحرور، كما النور والظلام،

كما الخير والشر، كما الحياة والممات.. إنهما واقعان متميزان، لكل منهما

حقائقه ومصاديقه وآياته ومعالمه، وهما لا يرتبطان بتمنيات الذات. فليس

الحق ما نتمنى أن يكون حقاً، وليس الباطل ما نريده أن يكون باطلاً. إنما الحق هو الحق شئت ذلك أم أبيت، والباطل باطل أردت ذلك أم رفضت. قال الله تعالى: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلّهِ الأَخِرَةُ والأُولَى﴾ (النجم/٢٤-٢٥) بهذه المعرفة نخطو الى فصل هوى النفس عن هدى الحق، لأننا إذا آمننا بوجود حق وباطل خارجين عن ذواتنا وتمنياتنا، نشرع بالبحث عنهما بحثاً موضوعياً، ونبحث عن آياتهما. فأين الحق؟ إنه عند الله سبحانه، لأنه السبوح القدوس، لأنه تعالى عن الظلم، لأنه قائم بالقسط، لأنه الملك الحق المبين، لأن قوله الحق.

وهنا نخطو الخطوة الحاسمة على طريق النور، حيث نعرف أن الحق من الله، ومن كان على بينة من ربه فهو على الصراط المستقيم. أما من زين له سوء عمله فرآه حسناً، فإنه يتبع هواه، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (محمد/١٤) وهذه خطوة تكميلية، فمن عرف الحق عرف الباطل، ومن عرف الحق عرف أهله، ومن عرف الباطل عرف أهله أيضاً. إن أهل الباطل قد يعتقدون بآرائهم، ولكن ليس لأنها ذات رصيد في ميزان العقل، بل لأنها قد زينت لهم. ولماذا زينت لهم؟ لأنهم أساءوا العمل وخالفوا عقولهم وضمائرهم، حتى طمست معالم الحق في أعينهم، فاختلط عليهم الأمر. تماماً كمن يفتق عينه، فأنى له أن يبصر طريقه، وبماذا يبصره؟ كذلك من إقترف ذنباً يزين له سوء عمله بقدره، وهناك يسترسل مع هواه يتبعه أنى يتجه به.

ونستفيد من الآية؛ إن مصدر القناعة عند البشر قد يكون بينة الرب فيكون مهتدياً، وقد يكون سوء العمل فيكون ضالاً. وعلى أي حال فإن الضال يبقى في تردد وعمى، بينما الذي هداه الله تظمن نفسه ويستريح في ظلال الايمان الوارف.

٢/ لا تكفي تواتر الآيات هدى للبشر، كما لا تشكل موجات النور وحدها رؤية عند الإنسان. فلولا العين المبصرة أنى تتسنى لنا الرؤية. كذلك من دون

"إرادة" الاهتداء عند الانسان وتقبل آيات الحق لايهديه الرب. من هنا فمن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا لَا يَهْتَدِي. قال ربنا سبحانه: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (الانعام/١٥٧)

ونستفيد من الآية الكريمة؛ إن الذين ينتظرون إكراههم على الهدى دون أن يبحثوا عنه، أو يتقبلوا آياته، أو يستمعوا إلى دعائه، إنهم يضلون في عماء محيط.

إن التصديق بآيات الله شرط الاهتداء بها. فيا ترى ما هي آيات الرب، هل هي آيات الكتاب، أم انها حملة الكتاب (الرسل والأئمة والصديقون)، أم هي آيات الله في خلقه، أم هي الجميع؟

بلى؛ كل ما يدلنا على الحقيقة علينا التصديق به حتى نهتدي باذن الله، وإلا فإن الرفض لها والاعراض عنها وتحريفها وتأويلها والتكذيب بها، لن يزيد البشر إلا خساراً.

٣/ لا يستوي أصحاب الجنة وأصحاب النار، كما لا يستوي الظل ولا الحرور.. أصحاب الجنة محورهم الحق، بينما أصحاب النار محورهم الهوى. ومن خلال معرفة صفات هؤلاء وخلال أولئك، قد يهتدي الانسان الى الحقيقة. وبكل وضوح وبكل شفافية يعلن الرسول انه على بينة من ربه، فهو على يقين مبين. وهم الذين يكذبون بالحق، ويستعجلون عذاب الله، وكفى بذلك فاصلاً بينهم وبينه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقِصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (الانعام/٥٧)

٤/ إن التعرف على أولي البصائر، أصحاب اليقين الذين هم على بينة من أمرهم؛ إن التعرف عليهم طريق الى معرفة البينة، لأن الحق والباطل يتمثلان عادة في رجال، لو عرفهم المرء حق المعرفة، لعرف الحق والباطل بوضوح.

ولا ريب إن سيرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام والربانيون من أتباعهم إضاءة لأمعة بسبيل الهدى. فعلينا إذا سمعنا منادياً يدعونا الى مبدء أن ننظر الى سيرته، هل هي تجسيد لتلك الدعوة، فهو على بينة من أمره، أم إنه يتبع هواه وإن أمره فرط وفوضى.

وهكذا كانت دعوة الأنبياء عليهم السلام مدعومة بسيرتهم الوضيئة، وكانوا هم على بينة من ربهم. كذلك قال الله سبحانه (عن النبي نوح عليه السلام): ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود/٢٨)

٥/ ومن حقائق البينة الرحمة الإلهية التي ينزلها على الأنبياء. قال الله سبحانه (عن النبي صالح عليه السلام): ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (هود/٦٣)

إن مفتاح الفلاح المتمثل في رحمته سبحانه عليهم، أعظم مما لدى الكفار من كنوز الثروة، أو جنود القوة، أو ألوان المكر. وذلك المفتاح آية البينة التي جعلها الله لهم، ومن دونها كيف يتسنى لهم الانتصار على عتاة الثروة وجبايرة السلطة ودهاة المكر والحيلة؟

٦/ ومن آيات البينة شهادة الصديقين. فمع كل نبي صديق من قومه يشهد له، وهو آية البينة عنده. فمع النبي موسى أخوه هارون، ومع النبي سليمان أصف، ومع النبي عيسى يحيى عليهم السلام، ومع النبي محمد صلى الله عليه وآله ابن عمه ووصيه وأخوه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (هود/١٧)

وإذا أراد أحد الهدى فإن قراءة سريعة لسيرة الصديقين، وإيثارهم، وتفانيهم (في نصره رسل الله) تكفيه حجة بأنهم كانوا على بينة من الله. ولولا تلك البصيرة التي كانوا عليها لما قدموا كل ما يملكون في سبيل تلك الدعوة. من هنا قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف/١٠٨)

فهم جميعاً على بصيرة وعلى بينة، وهذه شهادة صدق الدعوة.

٧/ ولأن الرسول على بينة، فهو على ثقة تامة من نصر الله. ومن هنا فهو يتوكل على ربه، ويقترح غمار التحديات بعزم واستقامة وسكينة. من هنا ختم النبي شعيب عليه السلام تحديه مع قومه، بأنه على الله يتوكل وإليه ينيب. قال ربنا سبحانه (عن النبي شعيب عليه السلام): ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَأَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود/٨٨)

ونستفيد من الآية؛ إن رزق الله الحسن للنبي (من بنية جسدية سليمة، وخلق إنساني عظيم، وسلوك إجتماعي جميل، وحياة فاضلة، ونفس مطمئنة، وتوفيق مبارك في مختلف أنشطته وكذلك تطبيقه العملي لما يلفظه قولاً، وإرادته الإصلاح في الناس، وثقته التامة بربه..). كل أولئك آيات البينة التي هو عليها. وإذا أخذنا مثلاً الإصلاح الذي كان يهدفه النبي شعيب في قومه، فإنه يكفي دليلاً على صدق دعوته. ذلك لأن كثيراً من بنود الإصلاح كانت واضحة لوجدان الناس. فايفاء الكيل والوزن، وتجنب الفساد، وتأليف الأصدقاء، والاهتمام بالمحرومين، وما أشبه.. حقائق فطرية يشهد بصدقها ضمير كل حي. وهكذا كانت رسالات الأنبياء عليهم السلام كافية دليلاً على صدقهم، وقد جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: "اعرفوا الله بالله والرسول بالرسالة....". (١)

(١) الكافي، ج ١، ص ٨٥، ح ١.

ولقد كانت إنابة النبي شعيب عليه السلام الى ربه مثلاً حتى بين أنبياء الله عليهم السلام، حيث كان شديد الضراعة، كثير الصلاة، رشيداً حليماً. وقالوا إن عينيه قد ابصتت خشية من الله وشكراً له.. وهكذا كانت الإنابة إلى الله واحدة من بينات الرسل..

فقه الآيات

من أبعاد ابتلاء البشر في الدنيا فتنة الشيطان، الذي يدلس له، ويزين سوء أعماله، ويغره ويوسوس في نفسه حتى يضلّه عن السبيل. وهكذا كان من أبرز مسؤوليات الانسان تحديه لهوى نفسه، ووسوسة شيطانه، وإغراءات الدنيا.. والشيطان ليس بعيداً عنا، إنه يجري منا مجرى الدم. ولذلك فان وساوسه تملأ النفس، وتحيط بالقلب حتى لا ينفذ إليهما نور الهدى، ويعيشا دوماً في ظلام الأمانى وأحلام الهوى. ومن هنا فمن أوتي بينة من ربه فقد أوتي خيراً كثيراً.

وكلما يصرفه المرء من طاقة وإهتمام ووقت في سبيل إستجلاء الحقيقة حتى يكون على بينة من أمره، فإنها لن تذهب سدى. لأن من يعيش في الدنيا في عمى عن الحقيقة، لا يرجى أن يرزق نوراً في الآخرة، بل يكون هناك أشدأ عمى. والله ولي الذين آمنوا إذ يخرجهم من ظلمات الجهل والهوى والوساوس الى نور الهدى.

من هنا ينبغي للانسان أن يكون دائم الحذر من عمى القلب، كما هو شديد الحذر من عمى العين، وأن يبحث عن نور الهدى بعزم وجدية. هذه البصيرة التي نستوحىها من الآيات الكريمة تتجلى في جملة أحكام شرعية:

ألف/ البينة في السياسة

لكي تكون على بينة في السياسة، عليك أن تختار إمامك وخطك السياسي وفريق العمل الذي تؤيده؛ تختارهم بعد التفكير والتجربة والتأمل الكافي..

ولعل أغلب الآيات القرآنية التي تحدثت عن البيئة، تتأول في موضوع القيادة السياسية بعد المرجعية الدينية. وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله: "لا تجلسوا عند كل داع مدع يدعوكم من اليقين الى الشك...". (١)

ويروى عنه صلى الله عليه وآله انه قال: "قال الحواريون يا عيسى عليه السلام: يا روح الله من نجالس؟ قال: من يذكركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقته ويرغبكم في الآخرة عمله". (٢)

والنصوص في هذا المضمرة كثيرة، ذكرنا بعضاً منها عند الحديث عن الإلتباع، وعن الولاية.

باء/ البيئة في الاجتماع

وعلى الإنسان أن يختار زوجه وفق القيم الشرعية والعقلية. وقد جاء في الحديث الشريف: "اختاروا لنطفكم، فان العرق دساس".

كما ينبغي أن يختار الانسان أصدقاءه بدقة، وفي الاسلام طائفة كبيرة من النصوص التي تدعو الإنسان إلى اختيار الصديق المناسب. منها، ما روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، في وصيته لكميل، قال: "يا كميل؛ ومن أخوك؟ أخوك الذي لا يخذلك عند الشدة، ولا يغفل عنك عند الجريرة، ولا يدعك حتى تسأله، ولا يتركك وأمرك حتى تعلمه". (٣)

وقال عليه السلام أيضاً: "لا تصحب المائق (الأحمق)، فانه يزين لك فعله، ويريد أن تكون مثله". (٤)

وعلى الانسان ألا يتخذ عدواً إلا بعد بيئة. فلا يجوز أن نقول في أحد شيئاً لا نعرفه. وقد جاء في الكتاب: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور/١٥)

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٥٢، ح٢٠.

(٢) المصدر، ج١، ص٢٠٣، ح١٨.

(٣) مستدرك الوسائل، ج٨، ص٣٣١.

(٤) المصدر، ج٨، ص٣٣٥.

كما لا يجوز أن ننطلق في محاربة طائفة، إلا بعد التأكد من عداوتها وخطورتها، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوهَا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات/٦)

جيم/ البينة في المكسب

قبل التأكد من السبيل الحلال للمكسب، لا تدخل السوق. وقد كانت وصية الامام أمير المؤمنين عليه السلام للتجار في أسواق الكوفة: "يا معشر التجار! الفقه ثم المتجر، ...". (١)

وأيضاً كان يقول عليه السلام: ".. التاجر فاجر إلا من أخذ الحق وأعطاه". (٢)

وكذلك على الانسان أن يتبين مدى النفع والضرر، تجنباً لضرر كبير قد حذر منه القرآن. يقول الله سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة/١٩٥)

دال/ البينة في السلوك

إذا أردت أن تطعم، فعليك أن تنظر في طعامك قبل تناوله، حيث قال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس/٢٤)، وقال في قصة أصحاب الكهف: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف/١٩)

وكما في الطعام، كذلك في الشراب، وفي المنام، وفي كل حركة. ومن هنا قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لكميل: "يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها الى معرفة". (٣)

(١) ميزان الحكمة، ج١، ص٥٢٠، ح٢٠٣٤.

(٢) المصدر، ص٥٢٨، ح٢٠٧١.

(٣) تحف العقول، ص١١٥.

إن المؤمن حكيم في سلوكه، لأنه كَيِّس فطن، ينظر بنور الله، ويتدبر في حياته، ولا تتملكه الشهوات.

هاء/ البيئة في الكلام

والمؤمن على بيئة من كلامه، ويعلم أن القول من فعله، وأنه محاسب عليه كما هو محاسب على أفعاله. ولذلك جاء في الحديث عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام: "لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه". (١)
وبكلمة؛ المؤمن عقلائي التفكير، عقلائي السلوك، لا يخطو خطوة إلا بعد أن يتبين وجه عمله شرعاً وعقلاً.

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٤٠.

بقية الله

من الناس من يصاب في بصيرته، فلا يرى إلا قدام رجليه؛ ومنهم من ينفذ ببصيرته في عمق الزمن، حتى يرمي ببصره الى أقصى مراحل حياته في الآخرة.

إن من كرامة الانسان تساميه عن لحظته الراهنة، واستشرافه الأفق الأقصى، كما إن من كرامته بلوغ بقية الله التي هي هدف المؤمن، لماذا؟ أولاً: لأنها خير عظيم، بينما اللذات العاجلة تنطوي - عادة - على شر مستطير.

ثانياً: لأنها باقية، بينما الشهوات فانية.

ثالثاً: لأن ثوابها ليس مادياً فحسب، بل هو ثواب معنوي أيضاً.

١/ أهل مدين كانوا يطففون في المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض، فنهاهم النبي شعيب عليه السلام عن كل ذلك وذكرهم بأن بقية الله خير لهم. قال الله سبحانه: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (هود/٨٦)

فما هي بقية الله؟ هي الربح الذي يبقى بعد صفقة عادلة. فان في ذلك الربح بركة الله، لأنه ساهم في دورة اقتصادية سليمة.

أم هي كل خير يتوفر لهم إذا هم عملوا بوصايا النبي شعيب، والتي تلخصت في نهيه عن الفساد؟

أم هي أبعد من هذا وذاك، وهي ذات الرسالة التي هبطت عليهم، وهذا الرسول الذي حملها، فاذا هم استمعوا إليه وأطاعوه فإنه عليه السلام خير لهم؟

بلى؛ هذا المعنى الشامل أقرب الى لغة الذكر، التي تضرب الأمثال ببعض الحقائق المفصلة، ثم تبيين الكلمة الشاملة لها ولغيرها. وهذا ما يشير إليه تأويل هذه الآية بالإمام الحجة المنتظر عليه السلام، حيث جاء في الحديث:

أول ما ينطق به القائم عليه السلام: أنا بقية الله وحجته وخليفته عليكم. فلا يسلم عليه مسلم إلا قال: السلام عليك يا بقية الله في أرضه. (١) ومن هنا نستفيد؛ إن علينا أن نبحث عن بقية الله، سواءً في المكاسب اليومية التي نجعلها من الحلال لا الحرام، أو في مجمل أنشطتنا نجعلها وفق الشريعة، أو في كافة أبعاد حياتنا.. ومنها التوجه الى الله سبحانه عبر الرسل والأنمة، وبالذات الإمام الحجة المنتظر عليه وعليهم السلام.

٢/ كل نعم الله عليك وسائل الى رحمته. ففي الوقت الذي يمكنك أن تنتفع بالمال والبنين في الدنيا بقدر حاجتك وفي حدود أحكام الدين، في الوقت ذاته ينبغي أن نجعلها وسيلة التكامل الى الله. إذ الغنى نعم العون على الدين والدنيا. قال الله سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف/٤٦)

٣/ وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّا عِلمْنَا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتْنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه/٧٣)

٤/ وقال الله سبحانه: ﴿وَمَا أوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (القصص/٦٠)

ونستفيد من الآية؛ ضرورة الاستفادة من كل نعمة إلهية في سبيل التقرب الى الله، وذلك بالاستفادة السليمة منها وبايتاء حقها وبالاستعانة بها للاعمال الصالحة وما أشبه.

فقه الآيات

(١) تفسير الصافي، للفيض الكاشاني، ج٢، ص ٤٦٨.

١/ إن الحق الذي يضمن الله ثباته، أبقي من الباطل الذي يحيطه غرور الانسان، وخداع الشيطان. لقد خلق الله السموات والأرض بالحق. فلذلك تخدم حركة الكون سلطة الحق، بينما الباطل يجري في عكس حركة الطبيعة والتاريخ.

فطرة الانسان حق، لأن القوانين النفسية والجسمية والاجتماعية السائدة على أبعاد حياة البشر، لا تتغير منذ خلق الله آدم وإلى الأبد. فإذا كانت فطرة الإنسان قائمة على أساس الوفاء بالعهد، فإن المجتمع القائم على أساس شرف العهد يكون أبقي، وخير الله أكثر مما يحصل عليه بعض الأفراد بسبب الغدر والمكر.

٢/ وإذا كانت سنة الحياة قائمة على أساس العدل، فإن أداء الحقوق الى أصحابها وإصلاح ذات البين والاحسان والتعاون.. كل ذلك خير يبقى، بينما يزول المجتمع القائم على الفساد والتطيف. من هنا فان بقية الله خير للمجتمع الانساني.

والسؤال ما هي بقية الله؟ إنها رضوانه وثوابه. والسؤال هو: كيف يمكن لقوم مثل قوم النبي شعيب عليه السلام الحصول على الباقيات الصالحات، إلا بترك الموبقات التي ذكرت في آيات الذكر، ثم العمل في سبيل الله باطعام المساكين، وأداء حقوق الفقراء، وبناء المساجد والمرابط، والانفاق من أجل بناء السدود والقنوات والطرق و.. و..، وكلما هو في سبيل الله. أليس كذلك؟ والعمل بكل ذلك يوجب استمرار الحضارة في الازدهار للمستقبل، وعدم الاسراف في إستهلاك المكاسب الآن. وكل حضارة تقوم بالازدهار في بداية تكونها، ولكنها تتوقف عن الازدهار، ثم تبالغ في الاستهلاك، انها تنتهي وتزول. أما إذا إستمرت الحضارة في العمل للمستقبل، وفي إيجاد علاقة إيجابية وبناءة مع الناس ومع الطبيعة، فإنها سوف تبقى وتستمر. لذلك إعتبرنا هذا الأمر الإلهي الذي أظهره النبي شعيب عليه السلام ضماناً لاستمرار الحضارة. وتشير بعض الآيات القرآنية الأخرى الى هذه الحقيقة، مثل قوله

سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف/٤٦)

٣/ ولأن المؤمن بعيد المدى، يتطلع ابداً الى المستقبل دون أن ينسى نصيبه من الدنيا الحاضرة، فإنه يبقى في رحاب الزمن مع باقيات الصالحات.. بينما يموت غيره وتموت معه شخصيته. المؤمن يبقى في علمه الذي يورثه الناس، وفي سننه الحسنة التي يجري عليها الآخرون، فيكون له ثواب من أخذ من علمه وعمل بسنته الحسنة.

ويبقى المؤمن في أولاده الصالحين الذين رباهم ویترحم الناس عليه بسببهم. أو ليس يكرم المرء في ولده؟.

ويبقى المؤمن في صدقاته الجارية التي ينتفع بها الناس. وهكذا جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله: "من سنَّ سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجرهم شيء". (١)

وجاء في حديث آخر: "إذا مات المؤمن إنقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". (٢)

من هنا ينبغي للانسان أن يسعى ليخلف وراءه واحداً أو أكثر من أسباب ذكره، لأن الباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً.

ومن الباقيات الصالحات ذكر الله سبحانه بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وآله، بما قال لأصحابه ذات يوم: "أتدرون لو جمعتم ما عندكم من الآتية والمتاع أكنتم ترونه تبلغ السماء؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: ألا أدلكم على شيء أصله في الأرض وفرعه في السماء؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: يقول أحدكم إذا فرغ من صلاته الفريضة: سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر ثلاثين مرة، فإن أصلهن في الأرض وفرعهن في السماء، وهن

(١) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٢٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٢.

يدفعن الحرق والغرق والهدم والتردي في البئر وميتة السوء، وهن الباقيات
الصالحات. (١)

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص ٢٦٤، ح ١٠٣.

السبيل القويم

إن الله سبحانه على صراط مستقيم، وقد كتب على نفسه أن يبين لعباده الصراط المستقيم، وقد ضمن لعباده الصراط المستقيم، وهدى الانسان الى السبيل إما شاكراً أو كفوراً. وأنزل الكتاب هدى، ومن شاء الاستقامة فعليه الايمان بالكتاب، واتباع الرسول، والسير وراء من أناب. وعليه أن يتجنب إتباع الذين لا يعلمون، ورفض تقليد السادة والكبراء، والذين يصدون عن السبيل.

أولاً: الله يهدي السبيل

١/ الله سبحانه هو الحق، وصراطه مستقيم، وهو أخذ بناصية كل دابة (لكي لا تنحرف عن الصراط المستقيم المرسوم لها). قال الله سبحانه على لسان النبي هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود/٥٦) وكذلك ربنا يجري ما في السموات والأرض من أجرام في أفلاكها، ويمسكها من أن تزول (أو أن تنحرف عن مساراتها المرسومة لها)، فعلينا أن نتوكل عليه.

٢/ وقد كتب سبحانه على نفسه الرحمة، وبرحمته وقديم فضله بيّن السبيل القاصد، وهناك سبل منحرفة. وكما أنه لم يكره عباده على السير على الصراط المستقيم، لم يمنعهم من السبل الجائرة. قال الله سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل/٩)

ونستفيد من الآية؛ إن الله قد كتب على نفسه بيان السبيل القاصد (والصراط المستقيم)، ولكنه لا يكره الناس عليه.

٣/ وقد فعل تبارك وتعالى ما كتب على نفسه، فهدى الانسان السبيل، فتراه إما شاكراً لنعمة الهدى متبعاً مطيعاً، وإما كفوراً بهذه النعمة الكبرى، وقد أساء الاختيار فاستحب العمى على الهدى. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان/٣)

٤/ والصراط المستقيم الذي هدى رسله إليه وبين آياته في كتابه، صراط قد ضمنه سبحانه. فهو لا يخطئ، ولا يضل. قال الله سبحانه: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الحجر/٤١)

ونستهدي بالآية إلى أن الله لا يدع أئمة الكفر وأشياح الضلالة أن يحرفوا صراط الله المستقيم، أو يطمسوا كل معالمه، حيث قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر/٩)
وقال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الاعراف/١٩٦)

فمن توكل على الله فإن الله هو وليه، لأنه نزل الكتاب، ولأنه سبحانه يتولى الصالحين.

ثانياً: سبل السلام

في العالم المخلوق سبل السلام التي تهدينا الى الغايات المشروعة، وهي محفوفة بأخطار الضلالة. من هنا وجب علينا الاهتداء إليها باتباع رضوان الله، والجهاد في الله.

١/ ماهي سبل السلام؟ إنها -حسبما يبدو- شرائع الله التي لو سرنا عليها بلغنا أهدافنا ببسر، ومن دون أخطار. ومثالها سبيل النكاح الشرعي من سبل السلام، بينما الزنا ساء سيلاً. فمن مشى على سبيل السلام (النكاح)، أمن خطر العقد النفسية والتفكك الأسري وشياح الأمراض.. بينما الذي اختار

الفاحشة إبتلي بالمقت ولم يأمن الأخطار. قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الاسراء/٣٢)

ومثل الفاحشة نكاح أزواج الآباء، إنه مقت وساء سبيلاً.

ومثل الزنا الربا، فإنه سبيل جائر الى الربح، وأن الله سبحانه يحقه.

وهكذا سائر السبل الجائرة، بينما سبل السلام هي التي هدى الله عباده الصالحين إليها عبر شرائع أحكامه. وكذلك بما أهداهم اليه من الحكمة. قال الله سبحانه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة/١٦)

ومن هذه الآية نفقه أن هناك سبل السلام التي تتمثل في طرق بلوغ الأهداف، ولعل تلك السبل هي التي أوصى الله بها الى النحل، فقال سبحانه لها: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل/٦٩)

٢/ ليس إلى الله إلا صراط واحد يتمثل في كتاب الله ورسوله. قال الله سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الانعام/١٥٣)

صراط الله المستقيم هو الذي أشار إليه ربنا بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا﴾، وسنتلو في الآيات التالية إن شاء الله معالم هذا الصراط. أما السبل المتفرقة التي تضل البشر عن صراط الله، فهي سبل الأهواء والأحزاب والحميات والآلهة المتعددة والأنداد وسائر الظلمات. فلا يمكن لأحد الوصول الى الله عبر هواه أو عبادة الآلهة المزيفة أو إتباع الحميات، إنما عبر رسالته التي ضمن سبحانه لمن تمسك بها الاهتداء اليه، وهي الصراط المستقيم الذي هدى اليه عباده الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

٣/ وقال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت/٦٩)

نستوحي من الآية، إن الذين جاهدوا في الله يهديهم سبله، مما يدعونا الى عدم التوقف عن الجهاد بحجة أننا لا نعرف سبل العمل.

٤/ ونستفيد من آية كريمة؛ إن التوكل والصبر هما شكر نعمة الهداية الى السبل. قال الله سبحانه: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (ابراهيم/١٢)

ثالثاً: عبادة الله واتباع رسول الله

كيف نهتدي الى سبيل الله؟ إنما بعبادة الله، واتباع رسول الله، والعمل بكتابه.

١/ كانت دعوة الرسل جميعاً عليهم سلام الله، وفيما بينهم النبي عيسى بن مريم عليه السلام، خالصة لله وحده، ولم تكن فيها شائبة الدعوة إلى أنفسهم أو قومهم، أو إلى أوطانهم، أو إلى غيرها. وكانت تلك حجة بالغة على صدقهم، لأنهم كانوا قبل غيرهم- يعبدون ربهم ويتبعون ما أمر به - . قال الله سبحانه (عن لسانه): ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران/٥١)

وكلما أخلص المؤمن عبادته لربه، كلما إهتدى الى الصراط المستقيم.

٢/ ورسول الله على صراط مستقيم. قال الله سبحانه: ﴿يَسْ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يس/١-٤)

٣/ والاعتصام بكتاب الله واتباع رسوله، وسيلة الاهتداء الى الصراط المستقيم. قال الله سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران/١٠١)

ومن دون الاعتصام بالله والعمل برسالته واتباع رسوله، كيف ينجو البشر من عواصف الهوى، وأعاصير الشهوات، وأمواج الفتن الاجتماعية (ترغيباً وترهيباً)؟

٤/ وملة إبراهيم عليه السلام المتميزة بالحنفية البيضاء، البعيدة عن حميات الجاهلية (عنصرية أو قومية أو طبقية أو مصلحة)، هي وسيلة من

وسائل الاستقامة. قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الانعام/١٦١) وهكذا تتحدد ملامح السبيل القويم والدين الحنيف عند الاستضاءة بسيرة الأنبياء عليهم السلام، وكيف أنهم تحذوا ضلالة مجتمعاتهم وتبرأوا منها، وهاجروا من أجلها وابتلوا فصبروا، وحوربوا وقوتلوا فصبروا، وتوكلوا على الله حتى استقاموا على الطريق.

٥/ واتباع الرسول ضمانه الصراط المستقيم. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الزخرف/٦١)

٦/ ومن إتباع الرسول، الاهتداء بنور الذين أنعم الله عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين، حيث قال ربنا عز وجل: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان/١٥)

٧/ ونحن ندعو ربنا عند تلاوة سورة الحمد أن يهدينا الصراط المستقيم، الذي هدى إليه الذين أنعم عليهم. قال الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة/٦-٧)

وهكذا يجب علينا أن نبحت عمّن أنعم الله عليهم من هم، وما هي معالم الصراط الذي يسلكونه فنتبّعهم. والذين أنعم الله عليهم هم الذين نقرء عنهم في آية مباركة: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء/٦٩) وهؤلاء هم أمة واحدة بالرغم من إختلاف درجاتهم، ويجدهم باذن الله من يريدهم هنا أو هناك، وهم أدلاء الله على صراطه وشهداء على خلقه وحججه عليهم.

رابعاً: معرفة الناكبين عن الصراط

لكي تستضيء بنور الحق، إجتنب ظلام الباطل. ولكي تعرف الصراط المستقيم، لا بد أن تعرف الناكبين عنه من المغضوب عليهم والضالين، وهم الذين لا يعلمون والسادات والكبراء، وأولئك الذين تبدلوا الكفر بالآيمان، وأيضاً المجرمون والمفسدون والذين يصدون عن سبيل الله. وأخيراً لا تطع الأكثرية التي تضلك عن سبيل الله.

١/ من مضلات الفتن اتباع الذين لا يعلمون (إما خوفاً من بطشهم أو طمعاً فيهم أو حباً لهم واحتراماً)، وإنما على الجاهل أن يتبع العالم وليس العكس. قال الله سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس/٨٩)

وفي كلمة ﴿سْتَقِيمَا﴾ دلالة على أن إجتتاب الجاهلين ليس سهلاً، بل يحتاج الى تحدي قوتهم أو ثروتهم أو شهرتهم أو ما أشبه. ولكن السبيل الى الهدى لن يحصل من دون إجتتاب الضلالة. ولنا في سيرة النبي إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة، إذ أنه برء من أبيه وقوم أبيه، كما جاء في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرًا أَن تَتَّخِذَ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الانعام/٧٤-٧٥)

٢/ وأسوء من الجاهلين، الذين يصدون عن سبيل الله؛ ومن مظاهر صدهم عن السبيل، أنهم يبيغونها عوجاً (وذلك بتحريف الكلم عن مواضعه وبالكتمان وبالتأويل). قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبِغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (هود/١٩)

٣/ ومن المضلات اتباع السادات والكبراء، (مثل اتباع الآباء والوجهاء). قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ (الاحزاب/٦٧)

وقد حذر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من ذلك في خطبة له يوم الغدير، قال فيها: وتقربوا الى الله بتوحيده وطاعة من أمركم أن تطيعوه، ولا

تمسكوا بعصم الكوافر، ولا يخلج بكم الغي تضلوا عن سبيل الرشاد باتباع أولئك الذين ضلوا وأضلوا. قال الله عزّ من قائل، في طائفة ذكرهم بالذم في كتابه: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (١)

٤/ ومن المضلات إتباع سبيل المجرمين. (ومن عرف المجرمين وشخص خطهم الاجتماعي، فعليه أن يتكبح سبيلهم ويسترشد بمخالفتهم). قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الانعام/٥٥)

٥/ ومن المضلات إتباع الأكثرية. (إذ هي تجتذب الانسان، فيزعهم أنهم على حق. بينما العلماء والمؤمنون والصالحون هم الأقلية، كما الدر في الحصى، والماس في الأحجار). قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الانعام/١١٦)

٦/ ومن المضلات الانشقاق عن الرسول، وعن تابعيه من الأئمة الهداة والصالحين. قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء/١١٥)

من هنا فإن سبيل المؤمنين معلم من معالم السبيل السوي.

٧/ ومن المضلات عن السبيل اتباع الهوى. وقد حذر ربنا سبحانه النبي داود عليه السلام من أن يتبع هواه، (والذي يتمثل في الشهوات أو في الحميات والعصبيات أو في العقد النفسية والفواحش الباطنة، مثل التكبر والاستعلاء في الأرض أو ما أشبهه، مما يتصل بالذات بعيداً عن محورية الحق). قال الله سبحانه: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص/٢٦)

(١) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص ٣٠٨.

٨/ ومن أخطر الأهواء التي تضل الناس، وبالذات القيادات والقضاة، هو التكبر في الأرض بغير حق، فإنه يطبع القلب ويحجبه عن نور الايمان. والله سبحانه يصرف المتكبر عن آياته، فإذا به لا يؤمن بأية آية إلهية (يراهما، سواءً كانت آيات تتلى مثل كتاب الله، أو آية تبصر مثل عبر التاريخ وعبر الحوادث، ومن لا يؤمن بالآيات يكون كمن لا يبصر معالم الطريق ولا إشارات المرور، فيهوي في وديان الضلالة. إنه لا يتبع سبيل الرشد، بل يبحث أبداً عن سبيل الغي فيتخذه سبيلاً. قال الله سبحانه: ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الاعراف/١٤٦)

بصائر الآيات

١/ لكي نهتدي الى السبيل القويم، علينا أن نستهدي ربنا، لأنه على صراط مستقيم وعليه قصد السبيل، وقد هدى الانسان السبيل إما شاكراً وإما كفوراً.

٢/ والصراط إليه واحد، والسبل الى غيره متفرقة. بلى؛ هناك سبل السلام في خلقه، يهدي إليها من اتبع رضوانه وجاهد فيه (وهي سبل الحياة الدنيا).

٣/ والسبيل القويم الذي هدى إليه رسله، كان سبيل التوحيد. وهو صراط النبي محمد صلى الله عليه وآله، وملة النبي إبراهيم عليه السلام، ونهج النبيين الذين أنعم الله عليهم، وسبيل من أناب (من الصديقين والشهداء والصالحين).

٤/ صراط الذين أنعم الله عليهم، هو الصراط المستقيم. (فمعرفة تهم تهادينا الى معرفة نهجهم المستقيم)، وهم غير المغضوب عليهم، الذين بمعرفة تهم أيضاً نهتدي الى الصراط المستقيم الذي تكبوا عنه. أوليس الرشد في مخالفة الغي، والسؤال من هم المغضوب عليهم؟ إنهم المفسدين والمجرمون والمتكبرون في الأرض بغير حق، والذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً (من دعاة الدين والعلم)، ويكتمون ما أمر الله ببيانه.

٥/ يهتدي الإنسان الى الرشد عبر معرفة الضالين، وهم السادة والكبراء. وأكثر من في الأرض، الذين يتبعون الظن، والغافلون، والذين يتبعون أهواءهم بغير علم.

٦/ وسبيل الله، سبيل من أناب إليه من أهل الذكر ممن خالف هواه، وأطاع مولاه، وألزم كلمة التقوى بعيداً عن الحمية الجاهلية وعن الاستكبار والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

فقه الآيات

نستلهم من جملة آيات هذا البحث، ضرورة البحث عن السبيل القويم الذي يهدي إليه الرب، عبر البحث عن الذين أنعم الله عليهم بالاهتداء إليه، وهم خط الرسل والصالحين. ولا يكون ذلك إلا بالتبصر بما في الكتاب والسنة في صفات المخلصين من عباد الله، والاستدلال بتلك الصفات الى أهلها الأحياء منهم لنتبع نهجهم.

وقد استفاضت النصوص الدينية بضرورة معرفة كل أمة إمامها، وبأن نكون مع الصادقين،

وبأن نسأل أهل الذكر، وبأن نسأل الذين يستنبطون الأحكام من القرآن، وبأن نقلد ذلك الفقيه المخالف لهواه المطيع لأمر مولاه، وهكذا..

وبصفة عامة؛ من واجبات كل مكلف التفتيش عن أوجب الشرع إتباعه والانتماء الى خطه. وليس ذلك بالأمر السهل، لأنه يقتضي الانقطاع عن المحيط الثقافي وعن البيئة الاجتماعية، والتجرد مرحلياً عن الانتماء الى الأسرة والعشيرة والقومية والوطن، والهجرة القلبية عنهم ثم التعرف عن البديل. وقد تكون في أولئك الذين تجرد عنهم مرحلياً ذلك البديل، ولكن التجرد إنما هو لتحاشي الضغط النفسي والواقعي الذي يدعوه الى الاسترسال مع الواقع، وعدم الشك فيه، وقد يكون في ذلك هلاكه. والله المستعان.

النصرة للرسول والمؤمنين

من قيم الإيمان الانتصار للرسول وللمؤمنين، وبالنصرة تتحقق المثل العليا؛ مثل إقامة القسط والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووضع الإصر والاعلال. ونصرة الرسول بند أساسي من بنود الميثاق، الذي أخذه الله من النبيين، وهي من حقوق المسلمين على بعضهم.

أولاً: نصره الله والرسول

١/ لقد أكد الكتاب الكريم على وجود ميثاق، أقر به النبيون واحتملوا أصره وشهدوا على أنفسهم به. متى كان ذلك وكيف، لم يذكره السياق هنا؛ فلهذا كان في عالم النور، أو عالم الأرواح، لا ندري، ولكنه أكد على أن يكون من شكرهم لنعمة الكتاب والحكمة التي آتاهم الله إيمانهم بالرسول الذي يأتيهم مصداقاً لما معهم وأن ينصروه. ثم أخذ الله عليهم الإقرار والشهادة بذلك، وأخبرهم أن ذلك إصر (أمانة ثقيلة) ففعلوا. قال ربنا سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الاعراف/١٥٧)

نستفيد من الآية؛ إن من صفات المخلصين من عباد الله إيمانهم ببعضهم، لأن إيمانهم بالكتاب والحكمة يقتضي الإيمان بكل من أوتي الكتاب والحكمة.

وليس إيمانهم ذاتياً أو نابعاً من الحمية المادية حتى تتحدد بأنفسهم، أو بمن ينتسب إليهم، بل هو إيمان بالحق أنى كان، وبمن حمله أنى يكون. ولست أعرف تفاصيل نصره الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وآله، ولعل من ذلك البشارة به، وأخذ الميثاق من الأمم التابعة لهم بأن يؤمنوا به، كما كان من شروط الإيمان بالنبي تصديق الذين حملوا الرسالة من قبله. ولكننا نستفيد من وجوب نصره النبي على الأنبياء مدى أهمية الانتصار للرسول، والدفاع عنه قبل حياته وأثناءها وبعدها.

٢/ لكي يقوم الناس بالقسط، أنزل الله رسالاته، وأنزل الحديد فيه بأس شديد. فمن يا ترى- يستخدم بأس الحديد لاقامة القسط (ومقاومة الظلمة)؟ إنهم رجال ينصرون الله ورسوله بالغيب. (ومن هنا نعرف أن نصره الرسول تهدف القسط الذي أنزل الله رسالاته من أجل إقامته). قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران/ ٨١)

٣/ ومثل هؤلاء المجاهدين أولئك الذين هاجروا من مكة الى المدينة وأخرجتهم قريش من ديارهم وأموالهم، لأنهم آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله فهاجروا الى الله يبتغون فضلاً من الله (لاصلاح معاشهم) ورضواناً من الله، وكانوا ينصرون الله ورسوله. (ونصرة الله بنصرة دينه، ونصرة الرسول بالطاعة له). قال الله سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر/ ٨)

وقد جعل الله لهؤلاء نصيباً من الفيء، الذي حصل عليه المسلمون من دون حرب.

٤/ ومثل آخر من التاريخ؛ الحواريون الذين استجابوا لنداء عيسى بن مريم عليهما السلام، إذ نادى في قومه من أنصاري الى الله؟ فقال نفر محدود منهم: نحن أنصار الله.

بلى؛ كانوا هم أنصار الله، إذا اتبعوا رسوله. (وهكذا نصره الله تتحقق بنصرة رسوله ودينه). قال الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران/٥٢)

٥/ وقد أيد الله بقدرته وحكمته وفضله الحواريين، حتى أصبحوا ظاهرين. قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّنت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف/١٤)

ثانياً: نصره المؤمنين

١/ ونصرة المؤمنين لبعضهم مفروضة، وبالذات عند تعرض طائفة منهم لفتنة الأعداء، فيهاجرون الى دار الإسلام. فعلى هؤلاء أن يهبوا لمساعدتهم بشتى الوسائل؛ (بالإيواء والإحسان إليهم وحمائيتهم والدفاع عنهم)، وكذلك إذا بقوا في ديارهم واستنصروا المؤمنين ضد هجوم كاسح عليهم من قبل الأعداء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الانفال/٧٢)

٢/ وقال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الانفال/٧٤)

فقه الآيات

كلمة النصره تستخدم في الدعم عند الخطر. وهكذا يستفاد من النصوص ضرورة دعم المؤمن للقيادة الربانية، ولسائر المؤمنين عند مواجهة الأخطار. والنصرة دليل صدق الانتماء، حيث تلونا في سورة الحشر أن المهاجرين الذين ينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. وجاء في آية كريمة قول الله سبحانه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الاحزاب/٢٣)

وقد سبق الحديث عن فريضة الجهاد (١) في مناسبة أخرى، ولكن الذي يستدعي التنويه هنا، التأكيد على خلق الشهامة والعطاء والصدق عند الانتماء إلى الدين والرسول والأمة. فالمؤمن يوفر دائماً المزيد من طاقاته للدفاع عن كلمة الحق. وحسب ما يقوله المؤمنون لقدوات الهدى عليهم السلام: "ونصرتي لكم معدة". (٢)

وقد أمر الله المسلمين بأن يعدوا للأعداء ما استطاعوا من قوة. قال الله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الانفال/٦٠)

وفريضة الإعداد هذه كما هي مسؤولية القيادة الربانية، كذلك هي واجب كل مؤمن، لأن أوامر الشريعة المتوجهة الى عموم المؤمنين تنقسم على الأفراد. فعلى كل مؤمن جزء مقسوم من تلك الأوامر حسب طاقته.

ونستوحي من هذه البصائر الأحكام الفقهية التالية:

(١) في الجزء السابع من هذه الموسوعة بحث مفصل حول فريضة الجهاد.

(٢) مفاتيح الجنان، الشيخ القمي، زيارة العباس عليه السلام، ص ٤٣٥.

١/ علينا أن نتحسس أوضاع المؤمنين وقضاياهم، لنعرف طبيعة الدعم الذين يحتاجونه هنا وهناك، ولنوفر الوسائل المناسبة لهذا الدعم في الوقت المناسب، ولكي نهرع لمساعدتهم عند تعرضهم للخطر.

٢/ علينا أن نتعاون فيما بيننا ونوحد جهودنا، لكي نكون أقدر على مواجهة الأخطار المحدقة بالمؤمنين.

٣/ علينا أن نهذب للدفاع عن المقدسات عند تعرضها للاهانة أو التجريح، سواءً من قبل الكفار أو المنافقين. مثلاً؛ إذا أراد أحدهم أن ينال من مقام القرآن أو منزلة النبي وأهل بيته عليه وعليهم السلام أو الكعبة المشرفة أو المساجد والمرابد المطهرة، فعلينا أن نهذب للانتصار لها بكل وسيلة ممكنة. وقد قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج/٤٠)

٤/ كذلك إذا تعرض حكم ثابت من أحكام الله لإثارة الشبهات من قبل أي كان، فعلينا أن نردها وندافع عنها.

٥/ إذا واجه مؤمن خطراً، كما إذا تعرض هو أو عرضه أو ماله لظلم، وكان باستطاعتنا أن ندافع عنه، فلا نألوا جهداً في سبيل ذلك. وقد جاء في قصة النبي موسى عليه السلام أنه دافع عن الرجل من شيعته (الذي ظلم) ووكز عدوه ففضى عليه، عن ذلك قال ربنا سبحانه: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص/١٥-١٧)

وهكذا نجد أن النبي موسى عليه السلام شكر الله سبحانه على ما أنعم عليه من قوة، وتعهد الله بأن لا يكون ظهراً للمجرمين. وقد جاء في الدعاء المأثور من مفردات الاستغفار من الذنب: "وعن مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره..".

٦/ وهكذا ينبغي أن نطبق كلمة النصره لله ولرسوله وللمؤمنين على الحقائق الموضوعية التي نواجهها يومياً، ونكون ممن ينتصر الله بهم لدينه، حيث جاء في أدعية شهر رمضان المبارك: "وتجعلني ممن تنتصر به لدينك ولا تستبدل بي غيري". (١)

(١) مفاتيح الجنان، أدعية ليالي شهر رمضان، ص ١٨٣.

الباب الثاني

الصدق شرف الإنسان

أفاق الصدق في القرآن
الفصل الأول: كلمة الصدق والوفاء بالعقود
الفصل الثاني: العهود والمواثيق

آفاق الصدق في القرآن

صدق اللسان يعكس صدق القلب، وصدق القلب ميراث الايمان، وسلامة النفس من الأنانية والجهل والعقد؛ وصدق اللسان قرين صدق العمل، والثبات في المواقف الصعبة. وهكذا تتصل قيمة الصدق بكلمة الشرف الانساني الرفيع، والاحساس بالكرامة والشعور بالعزة والاعتدار. ماهي حقائق الصدق؟ وكيف كانت تلك الحقائق ميراث الايمان؟ وماهي شواهد الصدق؟ وماهو جزاءه عند الله وفي الحياة الدنيا؟ هذه هي الأسئلة العامة التي نجعلها باذن الله إطاراً لحديثنا المتشعب عن كلمة الصدق.

الف: حقائق الصدق

١/ عندما اتهمت زوجة العزيز يوسف الصديق سلام الله عليه بأنه راودها عن نفسها، أنطق الله بعزته وحكمته ورحمته الواسعة؛ أنطق طفلاً من أهلها شهد ليوسف عند العزيز بأن المرأة هي التي راودته، واستشهد بأن قميصه قُدَّ من دبر وهو دليل على أن يوسف كان يفلت من يدها وهي التي تتمسك بأذياله. فقال ربنا سبحانه: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (يوسف/٢٦)

هذا مثل للصدق، وفي مقابله مثل للكذب. فيوسف لم يراودها، بل هي التي راودته. وصدق يوسف يتمثل في أن كلامه مطابق للحقيقة الواقعة، وشاهد صدقه قميصه.

٢/ ولكن الصدق لا يتحدد عند موافقة اللسان للواقع، بل يشمل موافقة العمل للسان. فمن ادعى أنه بار، فإن أمن فعلاً بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والرسول، وأتى المال لذوي الحاجة، وأقام الصلاة، وأتى الزكاة، وأوفى بعهده، وصبر عند الشدائد وفي الحرب، فإنه يكون صادقاً في دعواه. أما إذا اكتفى بمظاهر العبادة، فوقف لحظات باتجاه المغرب والمشرق، وتشبث بحدود الشريعة الظاهرية دون قيمها وروحها، كما فعلت اليهود؛ فإنه ليس بصادق، لأن عمله يكذب لسانه. قال الله سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة/ ١٧٧)

٣/ إنما الصادق حقاً هو الذي وفى بعهده مع الله وميثاقه، بالألّا يعبد إلا الله، وأن يجاهد في سبيله، وأن يكون من المؤمنين الذين وفوا بعهد الله فمنهم من استشهد في سبيله أو عبد الله حتى آتاه اليقين، ومنهم من لا يزال ينتظر. قال الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الاحزاب/ ٢٣) ونستفيد من الآية الحقائق التالية:

ألف: إن الله هو الذي يكتب الشهادة في سبيله لرجال، والانتظار لآخرين الى أجل مسمى. ومن هنا فإنهم ما بدّلوا تبديلاً.

فها هو حمزة سيد الشهداء يضمخ بدمه في معركة أحد. بينما يبقى الامام علي عليه السلام ينتظرها حتى يلاقيها في محراب المسجد بالكوفة بعد ثلاثين ونيف من الأعوام.

باء: إن المؤمنين الموفين بعهد الله ينتظرون الشهادة، وربما يفازغ الصبر. وثم حديث دار بين النبي المصطفى صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام يكشف ذلك، حيث قال الإمام عليه السلام: يا رسول الله؛ أو ليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عني الشهادة، فشق ذلك عليّ، فقلت لي: أبشر، فإن الشهادة من ورائك؟ فقال لي: إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت: يا رسول الله؛ ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر. (١)

إذا كانت في الأمة طائفة من المؤمنين ينتظرون الشهادة، فإن الأمة لا تخشى بإذن الله ذلاً ولا هزيمة، لأن العدو يهابها. فمن يمتلك القوة امام واله الشهادة والباحث عنها؟؟

جيم: إن الوفاء بعهد الله هو الصدق العملي، حيث إن كل مؤمن يوثق ربه على العمل بما يأمر به سبحانه أبداً، فاذا عمل فعلاً بميثاقه فقد صدق عمله قوله.

٤/ ويتجلى الصدق العملي عند لقاء العدو، عندئذ تلبو سرائر المرء، وتتوضح حقائقه عند نفسه قبل الآخرين. وعلى الانسان أن يزكي نفسه بالاستعاذة بالله من الشك والشبهة والتردد، حتى لا تخونه عزماته عند المواجهة، ذلك لأن الصدق عند البأس خير له عاقبة. قال الله سبحانه: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (محمد/٢١)

٥/ وقد يتدرج المؤمن من التصديق القولي الى التصديق عملياً بانفاق ماله الى أن يوفقه الله سبحانه للتصديق حقاً ببذل نفسه. وهكذا سمى العطاء بالتصدق، لأن صاحبه يصدق بعمله ما أظهره من الايمان بالله واليوم الآخر.

(١) خطبة رقم ١٥٦.

قال الله سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
 بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ
 كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة/٤٥)
 ٦/ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ
 وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي
 الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف/٨٨)

ونستفيد من القرآن؛ أن التصدق كفارة الذنب، وأن الله سبحانه يجزي
 المتصدق خير الجزاء. أوليس قد صدق فعله قوله، ووفى لله سبحانه بما عاهد
 عليه؟

باء: الصدق في الحياة

ماذا تعني كلمة الصدق حين تضاف الى القدم أو إلى المقعد أو المدخل
 والمخرج أو حتى إلى اللسان؟

١/ يبدو أن القدم قد تنزل عند الابتلاء وقد تثبت، فاذا تثبتت فانها قدم صدق،
 حيث قال الله سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ
 وَاجْعَلْ لِي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (الاسراء/٨٠)

فان أقدام المؤمنين لا تزول في الدنيا عن قواعد الدين، ولا تنزل في الآخرة
 عن الصراط. والله يثبت الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة، حيث قال
 سبحانه: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
 الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (ابراهيم/٢٧)

والمؤمنون يسألون ربهم أن يثبت أقدامهم، ويقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ
 إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا
 عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران/١٤٧)

فالقدم الثابت قدم صدق، لأن الصدق هو المطابق للواقع. واذا وضعت
 رجلك في موقع مناسب، بحيث استقرت فيه أو تطابقت مع الأرض، فقد تثبتت
 ولا تزول.

٢/ والمقعد الصدق هو الذي يستقر بصاحبه ويطابقه ويناسبه، فلا يزج عنه. ولعل هذا معنى قوله سبحانه: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر/٥٥)

٣/ وإذا دخل الانسان مدخلاً يناسبه، دخله بثبات قدم، وبجهد كاف، وبحكمة بالغة، فإنه قد دخل مدخل صدق. أما إذا دخل في موقع لا يناسبه، أو لم يبذل الجهد الكافي للعمل الذي دخل فيه، أو خرج منه قبل أن يستكمل العمل، فإنه قد دخل مدخلاً غير صدق، وخرج مخرجاً غير صدق.

وهكذا يدعو المؤمنون ربهم أن يدخلهم مدخل صدق ويخرجهم مخرج صدق، لأن ذلك وسيلة الى نعمة كبيرة، هي أن يجعل الله لهم من لدنه سلطاناً نصيراً. قال الله سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الاسراء/٨٠)

الانسان يريد أن يبلغ النتائج من دون جهد كاف في المقدمات؛ يريد علماً بلا تعلم، مالاً بلا جهد، ومنعة بلا تضحية. وهذا قد يحصل، ولكنه غير نافع كثيراً، وغير حاصل دائماً. انما الرشد في أن تحصل على نعمة العلم والمال والعزة وأنت تستحقها بجدارة، لأنك بذلت جهداً كافياً لها، وقد وصلت الى غايتك بعد أن توفرت فيك المؤهلات الكافية.

وهذا صحيح بالنسبة الى كل النعم، ولعله أصدق ما يكون بالنسبة الى نعمة الرئاسة، إذ أكثر الناس يتمنونها من دون أن يوفروا في أنفسهم مؤهلاتها. ويبدو أن خاتمة الآية تشير الى أن السلطان والنصرة يستحقها من يوفقه الله سبحانه ليدخل مدخل صدق ويخرج مخرج صدق.

٤/ واللسان الصادق قد يكون لك، وقد يكون عليك. فاذا كنت صالحاً فإن ذلك اللسان يمدحك بصدق، وإلا فإنه لا يمدحك، بل وقد يذمك لا سمح الله. ولعل هذا هو السبب الذي يدعو المؤمنين الى طلب لسان الصدق؛ أي أن يعملوا عملاً صالحاً، ثم يراه الصادقون من عباد الله ويثنون عليهم بما عملوه

من صالح الأعمال. قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾
(الشعراء/٨٤)

ونستفيد من الآية؛ إن من التطلعات المشروعة للبشر أن يثني عليهم الذين
يأتون من بعدهم، ولكن ينبغي أن يكون الثناء عليهم بما فعلوه من صالح
الافعال. أما إذا أحب الانسان أن يمدح بما لم يفعل فإنه رذيلة. قال الله سبحانه:
﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا
تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران/١٨٨)

جيم: بين الصدق والايمن

١/ وكلمة الصدق ميراث كلمة التقوى، والتقوى ميراث الايمان. قال الله
سبحانه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر/٣٣)
ونستلهم من الآية؛ إن على الانسان التصديق بالحق ونشره، ليصدق به
الآخرون.

٢/ والله يجزي الصادقين، ويعذب المنافقين. قال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ
الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ
غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الاحزاب/٢٤)

ونستفيد من الآية؛ إن الصدق علامة الايمان، كما إن علامة النفاق الكذب.
٣/ وقد أعد الله للصادقين مغفرة وأجرأ عظيماً. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ
المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَالقَاتِلِينَ وَالقَاتِلَاتِ وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ وَالمُتَّصِدِّقِينَ
وَالمُتَّصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ
وَالدَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيراً وَالدَّكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾
(الاحزاب/٣٥)

٤/ والدعوة التي لا يني المؤمن يكررها، هي أن يهديه الله إلى صراط
الذين أنعم عليهم. فمن هم هؤلاء؟ إنهم هم الأنبياء والصديقون، حيث قال

سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء/٦٩)
وقد استفاضت كلمات النبي وأهل بيته بالدعوة إلى الصدق، وبيان ثوابه العظيم عند الرب. وإليك طائفة منها:

روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن أدناكم مني وأوجبكم علي شفاعتي، أصدقكم حديثاً".
(١)

وعن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر (الإمام الباقر) عليه السلام، قال: سمعته يقول: "والله إن العبد ليصدق حتى يكتبه الله من الصادقين، ويكذب حتى يكتب من الكاذبين، وإذا صدق قال الله: صدق وبرّ، وإذا كذب قال الله: كذب وفجر". (٢)

وعن أبي القاسم الكوفي في كتاب الاخلاق، قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: بم يعرف المؤمن؟ قال: "بوقاره، ولينه، وصدق حديثه". (٣)
وعن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام، قال: "إن الله تبارك وتعالى لم يبعث نبياً قط، إلا بصدق الحديث، وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر".
(٤)

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: "الصدق يهدي إلى البرّ، والبرّ يدعو إلى الجنة، وما يزال أحدكم يصدق حتى لا يبقى في قلبه موضع إبرة من كذب، حتى يكون عند الله صادقاً". (٥)

(١) مستدرک الوسائل، ج٨، ص٤٥٤، ح١.

(٢) مستدرک الوسائل، ج٨، ص٤٥٥، ح٣.

(٣) المصدر، ح٤.

(٤) المصدر، ح٥.

(٥) المصدر، ح٧.

وقال الإمام علي عليه السلام أيضاً: "إن من حقيقة الإيمان، أن يؤثر العبد الصدق، حيث يضرّ على الكذب حيث ينفع، ولا يعدو المرء بمقالة عمله".
(١)

دال: شواهد الصدق

يتشابه عند الانسان الصدق والكذب، فكيف نميِّز بينهما؟
في آيات الذكر الكثير من شواهد الصدق، وهي تنفع الانسان في كشف معاذير نفسه ومدى صدقها وتطابقها مع الواقع. إذ المرء ربما أراد خداع غيره فيخدع نفسه، ويضله الله ضلالاً كبيراً.

١/ يتعرض الانسان للابتلاء فيكشف واقعه، ليس للناس وحدهم، بل لنفسه ايضاً. فاذا شاء استعان بالله في إصلاح نفسه وتزكيتها من درن الكذب والنفاق. قال الله سبحانه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة/٤٣)

ونستفيد من الآية؛ إنه ينبغي أن تترك الأحداث تجري، والفتن تتابع كما قدرها الله، لكي تعرف معادن الناس.

٢/ ونصرة الله ورسوله ودين الله سبحانه وآل بيت النبي صلى الله عليه وآله، إنها شاهد صدق إدعاء الانسان بالايمن. قال الله سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر/٨)

٣/ بل واحترام الرسول، والتأدب بما أمر الله سبحانه تجاهه، دليل صدق المرء في دعوى الايمان. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات/١٥)

(١) المصدر، ص ٤٥٦، ح ٨.

٤/ ومن شواهد الصدق حب لقاء الله، وقلة الحرص على البقاء في الدنيا، بل وتمني الموت؛ فلو كان المرء صادقاً في أنه قد عمل بما فرض الله عليه، لم يخش الموت. أوليس الموت سبيله الى الجنة والرضوان؟ وهكذا إبتلى الله اليهود (وبالذات أحبارهم) بأن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين، في أنهم أعباء الله. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة/٩٤)، وقال أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجمعة/٦)

٥/ إقامة الحجة على ما يدعيه المرء شاهد صدقه، وقد تحدى الكتاب الكفار بأن يأتوا بما لديهم من برهان على دعاويهم. قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة/١١١)

٦/ وربما طالبهم الكتاب ببرهان يدعونه مثلاً، بأن يأتوا بالتوراة التي أدعو أنها تشهد على صدقهم، فقال ربنا سبحانه: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران/٩٣)

٧/ ومن شواهد الصدق، تفصيل ما يجمله القائل. (فاذا ادعى أحدهم أنه حدث هناك حدث، سأل: متى، وكيف، ومن فعله، وهكذا.. حتى يتبين مدى صدقه). وقد أمر الله سبحانه الملائكة الذين اعترضوا على خلق آدم، أمرهم بأن ينبئوا بأسماء من عرضهم عليهم، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة/٣١)

٨/ والشهداء هم من أدلة الصدق على الدعوى. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة/٢٣)

٩/ وقد يدعي أحدهم شيئاً، فعليه أن يحققه عملياً. وقد طالب النبي إبراهيم عليه السلام الذي جادله في ربه، بأن يأتي بالشمس من المغرب فبهت الذي كفر. وقد أمر الله الكفار بأن يدفعوا عن أنفسهم الموت، فعجزوا واقتضح كذبهم. قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران/١٦٨)

١٠/ وقال الله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الواقعة/٨٧)

١١/ وادّعى اليهود أن تكذبتهم بالرسول كان بسبب نقص الآيات الدالة على رسالته، فكذبهم ربهم، وقال: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران/١٨٣)

١٢/ وترى بعض الناس يحسنون الكفر، فاذا طالبتهم بأن يأتوا بأفضل مما يكفرون به، يبهتون ويفتضح كذبهم. قال الله سبحانه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّن عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (القصص/٤٩)

١٣/ ومن شواهد الصدق، الحلف يمينا، خصوصاً فيما إذا ترتب عليه ما يخشاه الفرد. فإن الرجل الذي يقذف زوجته بالزنا، عليه أن يلاعنها ثم ينفصل عنها نهائياً. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (النور/٦)

في رحاب الأحاديث

وقد تظافت الأحاديث عن الصدق، وها نحن نقرأ منها بعضاً مما لم نكتبها فيما مضى:

١/ عن الامام علي عليه السلام في خطبة طويلة، قال: "أيها الناس، ألا فاصدقوا إن الله مع الصادقين، وجانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان، ألا إن الصادق على شفا منجاة وكرامة، ألا إن الكاذب على شفا ردى وهلكة". (١)

٢/ وعن الامام علي بن الحسين عليهما السلام، قال: "أربع من كنّ فيه كمل إسلامه، ومُحيت ذنوبه، ولقي ربه وهو عنه راض؛ وفاء لله بما يجعل على نفسه للناس، وصدق لسانه مع الناس، والإستحياء من كل قبيح عند الله وعند الناس، وحسن خلقه مع أهله". (٢)

٣/ عن عبد الله بن عمر، قال: جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله؛ ما عمل أهل الجنة؟ قال: "الصدق. إذا صدق العبد برّ، وإذا برّ آمن، وإذا آمن دخل الجنة". (٣)

٤/ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "أقربكم مني غداً في الموقف أصدقكم للحديث، وأداكم للأمانة، وأوفاكم بالعهد، وأقربكم من الناس". (٤)

* * *

وفيما يلي نتحدث عن آفاق الصدق عبر فصلين؛ في الفصل الأول نتحدث عن العقود وأحكامها بتفصيل يتناسب وأهمية الموضوع، وفي الفصل الثاني نتحدث عن اليمين والوعد والكفالة.

(١) مستدرك الوسائل، ج٨، ص٤٥٦، ح٩.

(٢) مستدرك الوسائل، ج٨، ص٤٥٦، ح١٠.

(٣) المصدر، ص٤٥٧، ح١٦.

(٤) بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٥٠.

الفصل الأول: كلمة الصدق والوفاء بالعقود

كلمة الصدق والوفاء بالعقود

تمهيد

كلمة الصدق من أجمل حقائق الإيمان في النفس والحياة، وتفيض منها حقائق الوفاء بالعهد والعقد، واداء النذر والعمل باليمين والالتزام بالوعد ودفع الكفالة. والصدق شرف الإنسان وكرامته، والصادق ناصح حرّ أمين. ويبدو أن كلمة الصدق هي صبغة العلاقة بين أبناء المجتمع. وتتجلى كلمة الصدق في العقود باعتبارها من حقائق الصدق في التعامل مع الناس. وفي هذه الدراسة المفصلة عن العقود نتحدث -بإذن الله تعالى- عن مختلف جوانب العقود عبر أقسام خمسة:

ففي القسم الأول نستوحي بصائر الوحي في العقود، مستلهمين من الآيات الكريمة التي أمر ربنا فيها بالصدق والعدل، ولا نفصل فيها لأن لبحوثها مناسبة أخرى في هذه الموسوعة.

ونستفيد من آيات القرآن التي تنهى عن الظلم، ومن ثم نستوحي بصائر الوحي في حدود الله في العقود؛ مظهرها وجوهرها وحرمة الربا، وما يتصل بأهلية المتعاقدين، وبعض الشروط الضرورية في محل العقود.

وفي خاتمة الفصل نتأمل في الآية التي نهت الناس عن أكل أموالهم إلاّ بالتجارة عن تراض، وعن معنى التراضي وأركانه، وعن آية الوفاء بالعقود وأفاقها.

ثم نتحدث إن شاء الله بتفصيل عن الفروع الفقهية التي قد نستفيد منها من البصائر القرآنية.

وفي القسم الثاني نبحث حول المكاسب التي حرّمها الشرع المبين، وذلك في بحوث ثلاثة؛ الأول: عن القواعد العامة. الثاني: عما نستقيده من حديث شريف روي عن كتاب تحف العقول فيه تفصيل المكاسب ما يجوز منها وما لا يجوز، ونتأمل فيها- بإذن الله- بما يتناسب ومنهج كتابنا هذا. الثالث: عن تفصيل أحكام الربا سواءً في الدين أو في العقود أو بيع الصرف. وهكذا يستوعب حديثنا البحث عن محل العقود ومحتوى التجارات، والذي يفصل الفقهاء القول فيه تحت عنوان المكاسب المحرّمة.

أما القسم الثالث، فقد خصص لبحث صورة العقد، وحسب تعبير الفقهاء صيغة العقد، حيث يشترط فيها أمرين أساسيين هما التتجيز (وَأَلَّا يَكُونَ الْعَقْدُ مَعْلَقًا) والتعبير؛ (أي توفر مظهر خارجي للعقد). ويجرنا البحث فيه الى الحديث عن المعاطاة، وهي العقد بلا صيغة قولية، وإنما بالتعاطي الفعلي. كما نذكر جملة من الشروط المذكورة في الفقه للصيغة، ونبين الأصل فيها.

وفي القسم الرابع نذكر الشروط التي لا بد من توافرها في طرفي العقد (المتعاقدين)، ومنها شروط عامة مثل البلوغ والعقل، ومنها شروط ترتبط بالعقد مثل الرضا والملك.

وعند الحديث عن شرط الرضا يجري الحديث عن الإكراه معناه ومعياره ووسائله، وعن الرضا بعد الإكراه.

كما أنه عند الحديث عن شرط الملك، نبحث موضوع عقد الفضولي الذي أخذ جزءاً واسعاً من بحوثنا، وكذلك من بحوث الفقه والقانون، حيث تحدثنا تلك البحوث عن التزامات الفضولي وموت الفضولي أو رب العمل، وعن التزامات المالك وعن عقد المتطفل. وألحقنا به البحث عن تصرف الفضولي ومدى ضمان الطرف الجاهل بالفضالة والطرف العالم بها. كما تحدثنا أيضاً ببعض التفصيل عن قاعدة نفي الظلم والضرر، أو قانون الاثراء بلا سبب.

أما القسم الخامس والأخير فقد خصص للكلام عن الخلل في التراضي، أو ما يسمى بعيوب الإرادة، حيث نتحدث أولاً عن الواجب في تحديد الثمن

والمثمن ونفي الغرر. وثانياً عن الخيارات؛ ما يقتضيها وما يسقطها. وبالرغم من إن الحديث عن الخيارات حديث مفصّل في الكتب الفقهية، إلا أننا إختصرنا بحوثها لوضوحها.

وعموماً لا يتناسب حجم بحوثنا مع بحوث الفقه، لأن الهدف الذي نبغيه ليس إستيعاب الفروع تماماً، بل إستيضاح الموضوعات العامة وإستنتاج الآيات المحكمة والسنة الواضحة فيها، حتى نتمكن من رد الفروع المتشابهة إليها، وإنجاح منهج جميع الفروع المختلفة حول شجرة الأصول الواحدة. كما إننا قد أدخلنا بعض المسائل الحديثة في بحوثنا الفقهية، وذلك من خلال دراسة الكتب القانونية. نسأل الله أن نكون قد وفقنا لأداء رسالتنا في هذه الدراسة.

القسم الأول: بصائر الوحي في العقود

في هذا القسم نتابع الحديث عن بصائر الوحي في العقود عبر بحوث ثلاثة:

في البحث الأول نتدبر في الآيات التي أمرت بالعدل والقسط، والتي نهت عن الظلم، وبالذات تلك الآيات التي نهت عن أكل أموال الناس بالباطل. والبحث الثاني خصّصناه للحديث عن بصائر الوحي في العقود والأصول العامة التي نستفيد منها فيها، والتي هي المرجع عند الشك، وهي التي تفيض منها أحكام الفروع.

وأما البحث الثالث والأخير فنبحث فيه عن الحدود الإلهية في العقود، والتي تشمل حدود الله التي نستفيد منها من بصائر الوحي في أمرين؛ الأول صيغة العقود ومظاهرها الخارجية، والأمر الثاني عن حدود الله في جوهر العقود ومحلها ومحتوياتها؛ مثل حرمة الربا، وما يؤدي الى الفواحش أو الظلم، والإثم من المكاسب.

ونبحث في هذا القسم أيضاً عن أهلية المتعاقدين، وعن شروط البضاعة، وعن شروط متفرقة أخرى.

ومنهج البحث هنا كما في سائر أقسام موسوعة التشريع هو التدرج من الكلمات الأسمى، والقيم الأعلى والأوسع أفقاً والأشمل للأصول والفروع، الى الكلمات الأقرب، الى الحقائق الخارجية والمصاديق الفرعية. وهذا التدرج يزيدنا وعياً بحكمة الأحكام وبحودها الدقيقة، والله المستعان.

أولاً: الصدق والقسط واجتناب الظلم

١/ لقد أمر الله سبحانه بالصدق، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الاحزاب/٢٣). وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر/٣٣). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة/١١٩)

٢/ وأمر الله تعالى بالعدل، فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٱلْءَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة/٨)

٣/ وأمر الله جل وعلا بالقسط، فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الاعراف/٢٩). وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات/٩)

٤/ وأمر الله تعالى المسلمين بالقيام بالقسط، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء/١٣٥)

٥/ ونهى ربنا عز وجل عن الظلم أشد النهي؛ ومن حقائقه أكل أموال الناس بالباطل، فقال سبحانه: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (النساء/١٦١)

٦/ واعتبر ربنا سبحانه الأحرار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، يقومون بعمل يرفضه العقل؛ مثل أنهم كانوا يكتزون الذهب والفضة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة/٣٤)

٧/ ومن مصاديق أكل أموال الناس بالباطل، الإدلاء بها الى الحكام، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/١٨٨)

٨/ وإستثنى الله تعالى من أكل أموال الناس، صورة التجارة عن تراض، حيث أنها وسيلة لتبادل الأموال، ولا يكون يومئذ أكلاً للأموال بالباطل. قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ (النساء/٢٩)

٩/ ومن مفردات الظلم المالي التي نهى الشرع عنها، السرقة التي جعل جزاءها شديداً، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة/٣٨-٣٩)

ونستفيد من سياق الآية إن السرقة ظلم، فتعمها الآيات التي دلت على حرمة الظلم وشدة جزاء الظالمين.

١٠/ وأكد الشرع على النهي عن ظلم الزوجة، فقال سبحانه: ﴿وَعَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾ (النساء/٤)

١١/ وخصّ الذكر بعض الأنواع الشائعة من الظلم بحق النساء، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء/١٩)

وهكذا حرّم الضغط على الزوجة حتى تتنازل عن بعض صداقها، حيث ان الرجل يدير شؤون زوجته فتكون ضعيفة أمامه، فيستغل ذلك بعض الرجال في ظلمها.

١٢/ كذلك نهى ربنا عز وجل عن منع الزوجة صداقها إذا أراد الزوج أن يطلقها بعد الدخول عليها، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء/٢٠-٢١)

١٣/ ونهى الله تعالى بشدة عن أكل أموال اليتامى ظلماً، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ (النساء/١٠)

١٤/ ومن الظلم المالي الشائع الذي نهى عنه الدين بشدة، التطفيف في المكيال والميزان. قال الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ (المطففين/١-٢)

وقد سبق الحديث عن وجوب الوفاء في المكيال والميزان. (١)

١٥/ ونهى ربنا سبحانه عن الظلم الخفي الذي سمّاه بالغل، حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران/١٦١)

(١) راجع الجزء الثامن من هذه الموسوعة (التشريع الإسلامي)، ص ٣٤-٤٠.

حيث إن من مصاديق الغل، إستغلال الفرد مركزه في الحصول على الأموال بصورة غير مشروعة؛ مثل الجور في تقسيم الأموال، أو السرقة من بيت المال.

١٦/ ومن الظلم منع الكفار حقهم إذا التحقت نساؤهم بالمسلمين، حيث أمر القرآن بايئائهم ما أنفقوا عليهن من الصداق. قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (المتحنة/١٠)

١٧/ وتبديل الوصية يعتبر من الظلم المالي الشائع، والذي نهى القرآن عنه. قال الله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/١٨٠-١٨١)

من هذه الآيات نستفيد البصائر التالية:

أ- إن القسط الذي من أجله بعث الله رسالاته، إنما هو مظهر من مظاهر العدل الذي أمر به الرب سبحانه، وهو بخلاف الظلم الذي نهى عنه ربنا سبحانه بشدة، حيث اعتبرت آية كريمة السرقة من مصاديق الظلم، إذ جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (يوسف/٧٥)

وهكذا يكون من أهم أهداف التجارة عن تراض، إقامة القسط ومنع الظلم. وقد قرأنا في الآيات السابقة كيف أن الله سبحانه ذكرنا بأنواع شائعة من الظلم المالي والتي نهى عنها بشدة، وبالذات ما خفي منها كالغل والتطفيف، أو كان بحق الضعفاء كالزوجة واليتامى.

ب- إن التجارة وحدها لا تكفي تبريراً لأكل أموال الناس، بل لا بد أن تكون التجارة عن تراض. فأساس أكل المال الحلال، طيبة نفس صاحبه، حيث جاء في الحديث عن سول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: "لا يحل دم امرء مسلم ولا ماله إلا بطيبة نفسه". (١)

ج- أكل أموال الناس حرام، إلا إذا كان بمبرر شرعي كافٍ؛ لا فرق بين أن يكونوا مسلمين أو غير مسلمين، لأن في بعض الآيات السابقة عموماً وإطلاقاً، ولأن الله عاب على اليهود أكلهم أموال الناس من غيرهم وقولهم أنه ليس عليهم في الأميين سبيل، ولأن ذلك ظلم والظلم حرام، وهو منافع للقسط الذي أمرنا به.

وهكذا نحصل على قاعدة فقهية هامة هي إحترام أموال الناس (إلا في الموارد التي يلغي الشرع حرمتها).

ثانياً: بصائر الوحي في العقود

١/ وقد أمر الله سبحانه بالوفاء بالعقود بوجه عام، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيِّدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة/١)

٢/ وقد بين سبحانه أنه أحل البيع وحرّم الربا، فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة/٢٧٥)

٣/ وقد أخبر انه سبحانه يمحق الربا، فقال: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة/٢٧٦)

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٧٩.

٤/ وأمر الله تعالى بأداء الأمانة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْتُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء/٥٨)

٥/ ومدح الله عز وجل فريقاً من أهل الكتاب كانوا يؤدون الأمانة، بينما ذم آخرين لعدم إهتمامهم بأداء الأمانة، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران/٧٥)

ونستوحي من الآية ضرورة رد الأمانة الى صاحبها أنى كان، ولا يجوز تبرير الخيانة بأن صاحب الأمانة من غير قومنا أو يدين بغير ديننا. وقد سبق الحديث عن الأمانة. (١)

٦/ وأشارت آية كريمة إلى الاستيجار، فقال سبحانه (في قصة النبي موسى عليه السلام): ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص/٢٦)

٧/ وبيّنت آيات كثيرة أحكام عقد النكاح، منها قوله سبحانه: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سِتُّدْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٣٥)

٨/ وأشارت آية كريمة الى حكم الشراكة، حيث قال سبحانه (على لسان النبي داود عليه السلام): ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (ص/٢٤)

(١) راجع الجزء الثامن من هذه الموسوعة (التشريع الاسلامي)، ص ٤١-٤٦.

وبيّنت آيات مباركة أحكام الدين والرهن والشهادة، وسوف نتدبر فيها إن شاء الله.

والبصائر التي نستفيدها من الآيات هي التالية:

أ- إن الأصل في العقود وجوب الوفاء بها حسب ما تراضى طرفاها بها، ولا يجوز التخلف عنها لأن الله أمر بالوفاء بها كما أمر بالوفاء بسائر العهود.
ب- وأنه لا فرق في العقود بين التي كانت شائعة في عهد الرسول أو الأئمة عليه وعليهم صلوات الله، أو التي استحدثت أو سوف تستحدث، كما لا فرق في طهارة الماء بين الذي نزل من السماء في عهد الوحي أو الذي ينزل اليوم أو غداً.

ج- هناك حدود بيّنها الشرع للعقود، بعضها يتصل بأهلية المتعاقدين؛ كأن لا يكون سفيهاً أو مكرهاً، وبعضها يتصل بالعقد ذاته؛ كأن لا يكون ربوياً، وبعضها يرتبط بمحل العقد؛ كأن لا يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير. وهذه الحدود بيّنها القرآن، وفُصلت في السنة، وشرحها الفقهاء وسوف نشير إليها إن شاء الله.

ثالثاً: حدود الله في العقود

تنقسم الحدود الشرعية في العقود الى نوعين :

ألف: ما يرتبط بمظهر العقد.

باء: ما يتصل بجوهر العقد.

ألف: مظهر العقد

الهدف الأساس من هذا الحد ضبط العقد من الارتياح لقطع مادة الصراع، وتوفير النظام للعلاقات الاقتصادية، وقد أشارت الآيات الى بعض الشروط، بينما اضافت السنة شروطاً أخرى..

١/ ذكّرت آية هي الأكثر تفصيلاً في القرآن الكريم بجملة أحكام في الدين، يمكن أن نستوحي منها عموم الاشتراط للمعاملات المؤجلة، وهي باختصار:
أ- الكتابة؛ والتي يكتبها كاتب بالعدل، باملاء الذي عليه الحق (المدين).

ب- الشهادة باثنين من الرجال، فإن لم يكونا فرجل وامرأتان، شهادة من يرضى الناس بشهادتهم.

قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّطُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/ ٢٨٢)

ونستفيد من هذه الآية المباركة عدة بصائر:

- أ- ينبغي أن يكون الدين الى أجل مسمى.
- ب- ينبغي كتابة الدين، وأن يكون الكاتب كاتباً بالعدل.
- ج- عليه أن يكتب كما علمه الله، فلا يخون في كتابته.
- د- أن يكون الذي عليه الحق (وهو الذي تكون الكتابة شهادة عليه) هو الذي يُمْلِل عليه، فيكون إقراراً منه بالحق الذي عليه.
- هـ- وعند فقد أهلية الذي عليه الحق، فعلى وليه أن يقوم بدوره.
- و- ينبغي الشهادة على الدين.
- ز- إن الرجل الواحد وامرأتان يقومون جميعاً مقام الشاهدين.
- ح- إن الشهادة يجب أن تكون ممن يرضى به الناس، (كأن يكون الشاهد عادلاً).
- ط- لا يجوز للشهداء الامتناع عن الشهادة بالحق.

ي- ينبغي أن تشمل كتابة الديون اليسيرة أو الكبيرة.
ك- الهدف من كل هذه الأحكام، إقامة القسط، وضبط الشهادة، وعدم الارتياح. ويبدو أن هذه الحكمة سارية في كثير من العقود، حيث ينبغي أن تحقق القسط (كما بيّنا سابقاً)، وتمنع الربى، (وتحسم الخلاف بين الناس).
ل- لا يجوز الاضرار بالشاهد أو بالكاتب، (بل ينبغي إعطاءهما حصانة كافية لأداء واجبهما).

وهذه البصائر الهامة يمكن أن تصبح قاعدة لضبط العقود جميعاً، كلما احتجنا الى ضبطها بسبب وجود أجل لها أو لسبب آخر.

٢/ وكذلك جعل الله الشهادة بالوصية عند الموت بعيداً عن الوطن، جعلها في اثنين عادلين. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسُبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا تَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ﴾ (المائدة/ ١٠٦)

ومعلوم أن الشهادة بالوصية كما الشهادة بالدين، تمنع ضياع الحق وتساهم في تحقيق القسط.

٣/ وأمر الله سبحانه بالإستشهاد على اليتامى إذا بلغوا مرحلة الرشد، وذلك عند دفع أموالهم إليهم. قال الله سبحانه: ﴿وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء/ ٦)

وهذه الشهادة ضرورية لمنع الإختلاف، وإقامة القسط بين الناس. وهكذا ينبغي ضبط العقود بحيث يقيم القسط ويمنع الارتياح، وهذا يتصل بمظهر العقد (مثل صيغته والشهادة عليه وكتابته).

باء: جوهر العقد

وتنقسم الشروط فيه الى:

أ- ما يتصل بطبيعة العقد (حرمة الربا).

ب- ما يتصل بالمتعاقدين (أهلية المتعاقدين).

ج- ما يتصل بمحل العقد (شروط البضاعة).

د- شروط متفرقة.

أما عن طبيعة العقد فأهم ما فيه حرمة الربا والغش والغبن والغرر.

أ - حرمة الربا

لقد حرم الله الربا في أموال الناس، وذلك مما يتصل بطبيعة العقد (والهدف

منه)، وفيه ظلم وفساد، فما الربا؟

١/ يبدو أن الربا هو الانتفاخ والتورم (وعلو سطح الشيء عما يوازيه). قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْعِ فَأِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿ (الحج/٥)

٢/ ومنه التربية (حيث انها تحقيق الزيادة الجسمانية، وربما المعنوية ايضاً). قال الله سبحانه: ﴿وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿ (الاسراء/٢٤)

٣/ وهكذا حرم الله الربا (الزيادة) في أموال الناس، فقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَا لِيَرْبُؤَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿ (الروم/٣٩)

٤/ وقد ذم القرآن الذين يأكلون الربا بأنهم لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ. (فهم قد سمحوا للشيطان أن يعيث فساداً في أفئدتهم، فإذا قاموا ترنحوا ومالوا يمنةً ويساراً بسبب فقدهم توازنهم، وضلالهم

عن هدى عقولهم، وذلك دليل تأثير الربا في قلة العقل والوجدان). وسبب ذلك أنهم قاسوا البيع بالربا، وهذا القياس فاسد حيث إن الله أحل البيع (لما فيه من تبادل المنافع) وحرّم الربا (لما فيه من الفساد). قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة/ ۲۷۵)

٥/ والله يمحق الربا، (لأن الربا يعطل طاقات المرابين الذين يعيشون على جهد الكادحين، وقد يكلف الكادحين أكثر من طقاتهم فيفسد الإقتصاد). وبالعكس الصدقات، (حيث تنشر الثروة، وتزيد من تدوير الثروة، وتنشط الإقتصاد). وهكذا يربي ربنا الصدقات. يقول ربنا سبحانه: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة/ ۲۷۶)

٦/ وقد نهى الله عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، (لأن من طبيعة الربا مضاعفة الثروة وجعلها دولة بين الأغنياء). قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفاً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران/ ۱۳۰-۱۳۱)

وبالإضافة الى حرمة العقد الربوي، هناك عقود نهى الشرع عنها؛ مثل بيع الضرر، وبيع الصرف من دون التقابض في المجلس، وما أشبهه.. وسوف نشير إليها في البحوث الفقهية الآتية انشاء الله، لأنها قد ذكرت في السنة الشريفة.

ب - أهلية المتعاقدين

وهناك شروط تتصل بطرفي العقد، أهمها العقل والرضا (حرية المتعاقدين في إتخاذ القرار). ومن هنا فإن عقد الطفل والسفيه والمكره لا يعبا به.

١/ لقد إشتراط القرآن الرشد بعد البلوغ قبل دفع أموال اليتامى اليهم، مما نعرف شرط البلوغ والعقل (الرشد) في صحة التصرفات المالية. قال الله

سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا
وَآكُسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء/٥)

٢/ ونهى القرآن عن إطلاق يد السفهاء في التصرف في الأموال، (لأنهم
يفسدون النظام الاجتماعي القائم على الاقتصاد). قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا
السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَآكُسُوهُمْ وَقُولُوا
لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء/٥)

٣/ وقد اشترط القرآن في التجارة التراضي، وعند الإكراه في طرف ينتفي
هذا الشرط، (إذ يبقى أحد الطرفين راضياً دون الآخر). قال الله سبحانه: ﴿يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ
تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء/٢٩)

٤/ وقد رفع الدين المسؤولية عن المكره، حتى ولو كان محل الإكراه
التلفظ بالكفر. قال الله سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ
صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل/١٠٦)

٥/ وحرّم القرآن أن يرث أحد امرأته بالكره، فقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ
مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ
كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء/١٩)
وهكذا يفقد الإكراه شرعية العقد، كما يفقده السفیه والصبي والمجنون ومن
أشبهه.

ج - شروط البضاعة

ولا بد أن تتوافر في البضاعة التي يجري عليها العقد شروط معينة منها؛
المالية، والحلية، والاطلاق، والملكية. وفيما يلي نشير إليها وندع التفصيل
للبحث الفقهي انشاء الله تعالى.

١/ إذا لم تكن للبضاعة مالية كالطير في الهواء، والسمك في البحر، فإن العقد لا يجري عليه، ويكون من أكل المال بالباطل، حيث يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء/٢٩) ويشمل أكل المال بالباطل التعامل على ما لا يملكه العاقد مثل الغصب، ومن مصاديقه الإدلاء الى الحكام.

٢/ ومن مصاديق إنعدام المالية بيع الحرام وما لا ينفع، حيث قال الله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ نَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ بَيَّسَ اللَّهُ لَكُمْ كُفْرًا مِنْ بَيْنِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة/٣)

٣/ كذلك لا يجوز العقد على الخبائث. قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الاعراف/١٥٧)

٤/ وكذلك لا يجوز التعامل على الخمر والميسر، لأن إثمهما أكبر من نفعهما، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة/٢١٩)

٥/ وكذلك لا يجوز التعامل على الاصنام، حيث يقول ربنا تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة/٩٠)

٦/ وهكذا لا يجوز صيد الحرم، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة/١)

٧/ وكذلك لا يجوز التعاون على الإثم والعدوان، والذي أحد مصاديقه بيع السلاح لأعداء الله، حيث قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة/٢)

د - شروط متفرقة

ولبعض العقود شروط خاصة تتصل إما بطبيعتها أو بمصالح عامة في محلها؛ مثلاً اشترطت السنة الشريفة عدم الغرر في البيع، واشترطت آيات الذكر جملة شروط في النكاح والطلاق، رعاية لمصلحة الأسرة؛ مثل عدم النكاح في العدة، والإشهاد في الطلاق. وهكذا تجد بعض الشروط في بيع الصرف تجنباً للربا، وندع الحديث عنها الى مواضعها الخاصة.

تأملات في آيات العقود

منظومة القيم الرشيدة التي تفيض من كلمة الصدق، هي قاعدة العلاقات السلمية في المجتمع الإيماني، ومن دونها لا تغني الأحكام والأنظمة، لأن الإنسان كان أكثر شيء جدلاً. ومن هنا جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام: "الأيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع من أهلها". (١) ولكن التقوى ومنظومة قيمها قد لا تكفي هي الأخرى عن الأيمان والبيئات وعن الأحكام الفقهية التي سنها الشارع لتنظيم العلاقات التجارية. ومن هنا وجدنا في آية الدين كيف أمر الله بالإشهاد والكتابة كما أمر سبحانه بالتقوى.

(١) وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٤٧.

ولأن الحياة متغيرة، ولأن حاجات البشر الاقتصادية متطورة، فقد يجد الفقهاء العارفون بأصول التشريع الحاجة الماسة الى سن أنظمة جديدة لإقامة القسط ومنع الاختلاف؛ مثلاً التوقيع وبصم الأصابع ولصق الصور وحفظ الوثائق وتكثيرها، وسائر ما يستخدم اليوم للثبات من أدلة قد تصبح ضرورية في العقود الهامة، منعاً للتلاعب ونشراً للعدالة.

وانما يضع الفقهاء شروطاً جديدة للمعاملات إذا علموا أو شهدوا الجزاء بضرورتها الأكيدة، وبأنه لولاها لانتشرت الفوضى وفسدت الحياة الاجتماعية، وإلا فإن زيادة الأنظمة قد تكون سبباً لتعقيد الحياة وزيادة التكاليف، مما يتنافى والشرعية السحاء.

كما أن على الفقهاء بذل المزيد من الجهد في سبيل استجلاء المصاديق الخفية للعناوين الشرعية وتطبيق العناوين عليها، ذلك لأن بعض هذه المصاديق يصعب تطبيق التعاريف الفقهية للعقود الشائعة عليها؛ مثل حق الخلو، وعقود التأمين، وبعض المعاملات البنكية.

وفيما يلي نبحت بإذن الله فقه الآيات حسب الترتيب الأنف، على أن نلحق بالبحث بعض القضايا التي لا تدخل في الأطر السابقة، ونبدأ بالتأمل في آية التجارة عن تراض التي يبدو لي أنها أصل محكم في باب العقود، ولذلك ترانا نفضل الحديث عنها ثم نتحدث عن آية الوفاء بالعقود.

ألف: التجارة عن تراض

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء/٢٩)؛ التراضي يختلف عن الرضا المشترك، فكل واحد منا راضي بأن يكون اليوم جمعة، ولكن لا يرتبط رضا أحدهما بالآخر في هذا الأمر. بينما التراضي هو ابتناء رضا طرف على رضا الطرف الآخر، وهو الذي يسميه فقه القانون بالتباني. فلولا رضاي بدفع الثمن، لا يرضى البائع

بدفع البضاعة إليّ، وإنما رضي باعطاء البضاعة بناء على رضاي بدفع الثمن إليه.

وهذا هو أحد معاني العقد؛ فانعقاد رضاي برضاه وتباني إرادتي على إرادته، هو المعنى الشائع لكلمة العقد في الفقه. والذي يختلف عن معنى الإيقاع، وهو الالتزام من طرف واحد، كإبراء ذمة احد من الدين الذي عليه، فقد يتم حتى من دون علمه بذلك.

وللتراضي أو العقد أركان تفصل القول فيها بالرغم من وضوحها، وذلك لكي نرتب عليها جملة أحكام شرعية.

حقائق عن التراض

وللتراضي حقائق؛ أولاً: عقد العزم والإرادة. ثانياً: توافق الإرادتين. ثالثاً: الباعث وأثره.

أولاً: عقد العزم

وجود إرادة جازمة عند كل طرف بالالتزام بأثر التجارة التي يتراضون بها، فلو كانت إرادة طرف ناقصة لسبب أو آخر، فلا تراضي ولا عقد. مثال ذلك؛ لو كانت لديك رغبة في شراء بضاعة ولكنك لم ترتفع في رغبتك الى حد العزم والقرار، فإن ذلك لن يكون شراء.

مثلاً؛ لو تحدث الرجل الى امرأة بأنه يريد لها، فان ذلك لا يعتبر عقد نكاح. بل؛ لو قررا ذلك، فان الإرادة قد تمت. من هنا فرّق القرآن بين مذاكرة الزواج وبين عقده، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة/ ٢٣٥)

وهناك أمثلة أخرى للإرادة الناقصة سوف نستعرضها بايجاز.

١- عدم إكمال الإرادة، مثل إبداء الرغبة أو طرح الاعلان أو تعليق الإرادة على شيء لا يعلم وقوعه، كما قال أحدهم: لو جاء إبني فأنا أبيعك بيتي. فهذا أشبه شيء بالوعد منه بالعزم.. ولعل إشتراط التنجيز في الإرادة من قبل الفقهاء يرتبط بأنه من دونه لا تكتمل الإرادة.

٢- إرادة المجنون والصبي غير المميز والهازل وما أشبهه.

٣- إرادة المخطئ الذي أراد شيئاً فغلط وقال شيئاً آخر - مثلاً- فان إرادته بالنسبة الى ما قاله غير مكتملة. وقد إشتهرت كلمة عند الفقهاء: ما وقع لم يقصد، وما قصد لم يقع.

٤- إرادة المكره الذي باع تحت طائلة التهديد..

عموماً؛ يجب أن يكون هناك عزم على الإلتزام بالعقد حتى يُسمى عقداً. من هنا فإن العاهرة التي تنطق بألفاظ النكاح دون قناعة منها به، ولا عزم منها على ترتيب أثر عليه، إنها لا تعزم عقدة النكاح، فكلامها لا أثر عليه. بلى؛ إذا كانت عند العقد جدية ثم خدعها ابليس، فالأمر مختلف.

ومثل ذلك العقد الصوري أو الطلاق الصوري الذي يجريه البعض من أجل مزايا قانونية في بعض البلاد.

٥- الفاقد عزمه بسبب غضب قاهر أو لنوم غالب أو سكر أو مخدر أو ما أشبهه، فإن كلام هؤلاء لا يعبر عن إرادتهم.

٦- ولعل بعض مراتب الإلجاء والإضطرار مثل ذلك، كمن بلغ به العطش درجة إنشغل به عن مقدار الثمن الذي يدفعه لشربة ماء، أو كان في حالة خوف شديد، مثل الذي صدمته السيارة فيخشى الوفاة فيقبل بكل عرض يطرح عليه لنجاته أو ما أشبهه. ومن ذلك العقود التي تجري في حالات الطوارئ (زلزال، قحط، إجتياح العدو.. و..)

ويبدو لي أن الخلل الذي يصيب الإرادة بسبب هذا الضعف، إنما يفسد البيع أو يعرضه للتزلزل، (وإمكانية الخيار في واحد من المواقع التالية:

أ- إذا كانت الإرادة غير تامة، بل كانت النفس مشغولة عن العقد بأمر آخر، وفي ذلك يقول بعض فقهاء القانون.

ب- إذا رجع الى السفه، كأن يدفع شاب نزق كل أمواله لمضاجعة فتاة جميلة، أو يسجل شيخ كبير كل أمواله لحساب زوجته الشابة التي استغلت حبه لها، لحرمان أولاده من الإرث أو ما أشبهه.

ج- إذا كانت المعاملة سبباً لضرر بالغ، فجعله في دائرة منع الضرر، حيث يشملته نص: "لا ضرر ولا ضرار".

وفي ذلك يقول بعضهم وهو يبين الشرط الموضوعي للاستغلال: وهو (إختلال التعادل أو انعدام المقابل) أن تكون إلتزامات أحد المتعاقدين لا تتعادل البتة مع ما حصل عليه هذا المتعاقد من فائدة بموجب العقد.

وقد استدل العلامة النجفي بحديث لا ضرر على خيار الغبن، وإنما لم يبطل العقد، بل عرضة للتلزّل بسبب الجمع بين الحقين، كما إستشهد على هذا الخيار بالإجماع وبالحديث: غبن المسترسل سحت، وحديث: غبن المؤمن حرام، وحديث: لا يغبن المسترسل فإن غبنه لا يحل. (١)

والواقع إن الغبن يختلف عن الإستغلال، إذ إنه يتصل به بمحل العقد (الخلل في تعادل الثمن والمثمن)، بينما الإستغلال يرتبط بإرادة المتعاقد. والبحث بحاجة الى مزيد من الدراسة.

ثانياً: توافق الإرادتين

للعقد أركان هي التي لولاها لم يقدم أحدهما أو كلاهما عليه، وله أجزاء وشرائط لا تعتبر أساسية في نظر المتعاقدين.. فالثمن والمثمن وطبيعة العقد الذي عليهما أنه بيع أو صلح أو إيجار أو ما أشبهه، هذه عادة من أركان العقد. وقد يصبح نوع الثمن أو المثلثن ومكان تسليمهما أو صفاتهما من أركان العقد، إذا كان محور تراضيهما الذي من دونه لم يتباينا عليه. والمعيار في ذلك، أن

(١) جواهر الكلام، طبعة بيروت، ج٨، ص٢٦٨.

يتم التراضي والتوافق بينهما. فلو إختل هذا التراضي، فقد العقد جوهره. وإليك بعض حقائق هذا المعيار.

١/ إذا كان العزم موجوداً في أحد الطرفين دون الآخر، لم تتعقد المعاملة، كما إذا تم الإيجاب ولم يتم القبول.

٢/ إذا كان محور العقد ليس واحداً عند الطرفين؛ فكان أحدهما يقصد البيع، بينما الثاني يقصد التبرع، أو كان أحدهما يبيع البيت والثاني يشتري السيارة. وهذا يدخل ضمن الغلط في العقد، والذي ينقسم الى ثلاثة أنواع:

أ- ما كان يفقد أصل التراضي (أو قل التبانى والتوافق) كالمثلين السابقين، فالعقد لم يتحقق. وكذلك لو تزوج بإمرأة فإذا هي ذات بعل، فلا يتحقق النكاح.

ب- إذا كان التوافق موجوداً بنسبة معينة، فإنه قد يصحح العقد بالإجازة؛ كما إذا إشتري سيارة باعتبارها من طراز معين، فإذا هي من طراز آخر، فإن للمتضرر حق فسخ البيع، وله الحق في إرضائه. والمعيار هو الخلل في إرادة أحد الطرفين، خلافاً غير جوهرى.

ج- إذا كانت هناك صفة باعثة لطرف على إجراء العقد، ولكنها لم تكن ضمن التراضي؛ مثلاً إشتري أرضاً بزعم أن الدولة سوف تفتح شارعاً عليها، ثم تبين غير ذلك، فإن ذلك لا يوجب بطلان العقد ولا جواز فسخه. والمعيار في مثل هذا الغلط غير المضر بالعقد أنه لا يشكّل أي خلل في توافق المتعاقدين، وإنما في أمور خارجة عنه.

٣/ إذا تأخر القبول عن الإيجاب صح العقد، ولكن إذا سحب الموجب إيجابه قبل قبول الطرف الثاني فقد التراضي، وهكذا بطل العقد.

٤/ لأن محور العقد توافق الطرفين، فإن العرف الخاص مقدم في مقام الثبوت على العرف العام، وعرف البلد على عرف القطر، وعرف الدولة على العرف الدولي. وذلك لأن المعيار في العقد تراضي المتعاقدين، ولأن رضاهما ينطلق من عرفهما، فهو مقدم. وكلما كان العرف أقرب إليها كان أولى عندهما؛ مثلاً إذا كان كيل السوق الذي يتعامل فيها المتعاقدان يختلف

عن كيل البلد أو ميزان البلد يختلف عن ميزان الدولة، فإن كيل السوق أو البلد مقدمان، وهكذا في النقد وفي شرائط البيع، وصفات المبيع وما أشبه..

٥/ لأن المعيار هو التراضي، والرضا أمر قلبي، فإن معيار العقد هو الرضا الواقعي، وليس ما يجري على اللسان. فإذا اختلف فقال بلسانه شيئاً وقصد بقلبه شيئاً آخر (بالخطأ)، فإن الرضا القلبي إذا عرف يقيناً هو الأصل، لأن التراضي وقع عليه.

وفي هذا الحقل تختلف المدارس القانونية الى ثلاثة؛ فالمدرسة اللاتينية أو الفرنسية تأخذ بالإرادة الحقيقية أو الباطنية ولا تعول على التعبير، أما المدرسة الألمانية فتقف عند المظهر الخارجي فقط فتعتمد بالإرادة الظاهرة، وذلك لأن العقد - عندها - ظاهرة إجتماعية ولا بد من حمايتها من التزلزل. أما القانون المصري فإنه يتوسط بين المدرستين، فهو يأخذ بالإرادة المعلنة وهي أساساً الإرادة الباطنة بالقدر الذي تكون فيه قد أعلنت للناس. (١)

ويبدو أن الصحيح هو الأخذ في مقام الثبوت بالإرادة الباطنة، وفي مقام الإثبات بالإرادة الظاهرة. وهذا ما بيناه في كتابنا الفقه الاسلامي. (٢)

ومن هنا قال العلامة النجفي في الجواهر تعليقاً على كلام بعضهم في تقديم عرف الشرع على عرف المتعاقدين، قال: وهو من غرائب الكلام إذا أراد تقديم العرف الشرعي على العرف الخاص للمتعاقدين، ضرورة تبعية عقدهما لقصدهما. (٣)

ويبدو أنه أشار بهذا التعبير - الى الكلمة المعروفة عند الفقهاء "العقود تابعة للقصد" ويساويها الكلمة المعروفة عند فقهاء القانون: العقد شريعة المتعاقدين.

(١) مبادئ القانون للمؤلفين د. همام محمد محمود و د. محمد حسين منصور، الناشر: منشأة المعارف، ص ٢٤٠.

(٢) الفقه الاسلامي للمؤلف، الناشر دار المدرسي، ص ١٨٦.

(٣) جواهر الكلام، ج ٤، ص ١٣٠ (الطبعة الحجرية).

٦/ ومن مصاديق هذا المعيار (معيار التراضي) حكم الاشتباه في التطبيق. فمن أقدم على نكاح فتاة حسب أحكام الشرع ورأي العرف العام وكان جاهلاً بالشرع والعرف، فصرّح بشرط زعم أنه من العرف أو الشرع، فإن الصحيح رضاه الواقعي الذي بنى عليه عقده، وهو حكم الشرع ورأي العرف؛ مثلاً عقد على أساس أن المهر الغائب ليس واجباً عليه شرعاً وإنما هو نوع من التشريفات الظاهرية، أو زعم إن تكاليف الوليمة على أهل المرأة عرفاً، بينما الصحيح هو أن المهر لازم سواءً كان غائباً أو حاضراً، وإن تكاليف الوليمة عند العرف على الزوج. فلو سألنا الرجل هل كان قصدك من عدم وجوب المهر الغائب أنك تخالف ما يوجب الشرع؟ قال: كلا؛ وكذلك نفى أن يكون مخالفاً لما يجري عليه العرف. ففي مثل هذه الحالة، المعيار هو رضاه الواقعي المطابق للشرع والعرف، وليس خطأه في التطبيق. (١)

٧/ ومن حقائق هذا المعيار (التراضي) تمييز الركن الأساسي في العقد عن غيره؛ وتعبير آخر معرفة سلم الأولويات عند المتعاقدين، إذ يختلف الناس في أولوياتهم. فلو اشتري أحدهم كتاباً بزعم أنه بخط مؤلفه بينما كان بخط غيره، فإن هدفه الأساسي من شراء الكتاب مثلاً تحقيق الكتاب والذي لا يمكن إلا أن يكون بخط مؤلفه، فإن العقد يصبح باطلاً، لأن ما اشترطه كان أساسياً عنده. أما لو لم يكن ذلك مهماً عنده، فالأمر مختلف.

وهكذا التوافق هو أساس العقد، وجوهره الرضا، ورضا الناس مختلف. ولعل هذا المعيار ينفعنا في معرفة مدى تأثير الشرط الفاسد في إفساد العقد. فإن كان الشرط جوهرياً عند المتعاقدين، أفسد العقد وإلا فلا؛ فمثلاً لو كان هدف دكتور في الطب أن يتزوج دكتورة لتساعده في إدارة مستشفى، فاقدم على امرأة واشترط أن تكون طبيبة، فلما عقد عليها عرف أنها ليست كذلك، فإن الشرط هنا عنده أساسي، حيث إنه لم يقدم عليها إلا لذلك. فاذا افترضنا

(١) راجع الفقه الإسلامي، ص ٢٠٨.

فساد شرطه كأن اشترط أن تكون المرأة راقصة وأرادها لإدارة مرقص أو بار، وكان ذلك فقط هدف العقد، فإن فساد الشرط يبطل للعقد.

ومن هنا قال الشيخ الأنصاري (ره): إن القيود المأخوذة في المطلوبات العرفية والشرعية (قسمان: ركن وغير ركن) ما هو ركن المطلوب ككون المبيع حيواناً ناطقاً (أي انساناً) لا ناهقاً حماراً. ومطلوب الشارع كالغسل من أجل الزيارة، فإن العرف يحكم في هذه الأمثلة بانتفاء المطلوب لانتفاء هذه القيود. (١)

٨/ ومن مصاديق هذا المعيار وجوب الوفاء بالشروط الضمنية التي بني العقد عليها، وتم التراضي على أساسهما؛ مثل أن ينكح فتاة في بيت أبيها، فالشرط الضمني أن تكون باكرة؛ أو يبيع شيئاً، فالشرط الضمني أن يكون بكيل البلد ونقده وأعراف الشراء فيه، وهكذا.. والسبب في وجوب الوفاء بهذه الشروط، إن أصل العقد التراضي، وهذه الشروط من حدوده..

ثالثاً: الباعث وأثره في العقد

الباعث من مصاديق معيارية التوافق، ولأنه قد اختلفت الآراء فيه، نرجو أن نوفق هنا لاستجلاء الرؤية فيه، مستلهمين ذلك من آية التراضي، ومن أحاديث خاصة فيه.

والسؤال الذي نريد الإجابة عنه هنا هو: إلى أي مدى تؤثر نية المتعاقدين - خصوصاً السيئة - في العقد؟ فلو نوى شخص شراء بيت للدعارة، وعلم البائع بذلك وباعه، فهل يفسد بيعه أم لا، أم يختلف الأمر؟

(١) الفقه الاسلامي، ص ٢٠٩.

والإجابة التي تبدو عندي صحيحة عن هذا السؤال هي: لو كان تراضي الطرفين مبتتياً على هذه النية، فسد العقد وإلا فلا.. ولكن كيف توصلنا الى هذه الاجابة؟ نعرف ذلك عبر نقاط:

١/ الباعث (النية) نوعان؛ مباشر وغير مباشر. والذي كان يهتم به الفقه التقليدي للقانون هو الأول، بينما بدء الفقه الجديد يهتم أيضاً بالثاني. وكمثل كل متعاقد يهدف من وراء العقد الحصول على الثمن أو المثلث، وهذا هو المهم الذي يتم التراضي عليه، والذي يؤثر في العقد في الفقه التقليدي. أما ماذا يريد أن يصنع البائع بالثمن (مثلاً يشتري خمرًا) أو المشتري بالمثلث (مثلاً يضرر به الناس) فهو غير مهم عندهم، بينما يهتم الفقه الجديد ببعض الحالات التي سوف نبين إن شاء الله تفصيلاً لها.

٢/ في إحدى حالتين يهتم الفقه الجديد للقانون بالبائع؛ الأولى: إذا كانت ضمن دائرة التراضي، حيث إن المسافر يشتري البطاقة لكي يسافر بها، فالسفر هنا باعث الشراء وهو داخل - عادة - في دائرة التعاقد (التراضي). الثانية: إذا كان الباعث غير مشروع وعلم به الطرف الثاني، مما جعله متواطئاً معه؛ مثلاً من باع سلاحاً لعصابة إجرامية وعرف قصدهم منه، فإنه يعد متعاوناً معهم في جرائمهم. (١)

٣/ أما في الفقه الإسلامي فقد اختلف العلماء في مدى تأثير القصد؛ فقد أفتى البعض في حرمة وفساد العقد الذي قصد منه البائع وجهاً محرماً، كبيع العنب ليصنع خمرًا، والخشب ليصنع صنماً، والحديد ليصنع سلاحاً للقتل الحرام، وكذا إجارة المساكن والسفن لغايات محرمة. (٢)

(١) مبادئ القانون، ص ٢٥٤.

(٢) الفقه الإسلامي، ص ١٩٦.

وحملوا عليه الأحاديث التي وردت في حرمة مثل هذه العقود، كالحديث
المأثور عن الامام الصادق عن الرجل يؤجر بيته فيباع فيه الخمر؟ قال: حرام
أجرته. (١)

وما ورد في مكاتبة ابن اذينة عن الامام الصادق عليه السلام أيضاً: عن
رجل له خشب فباعه لمن يتخذه صلباناً؟ قال: لا. (٢)
وهكذا قال العلامة (ره) في كتابه "التذكرة": إجارة السفن والمسكن
للمحرمات حرام. والسؤال: هل الحرمة تعني هنا فساد العقد؟ ذهب البعض
الى ذلك، إلا أن العلامة النجفي قال في كتابه الجواهر: لم نتحققه قولاً لأحد
من الأصحاب ممن تقدمه، وإنما هو محكي عن الشافعي وأبي ضيفة ولاريب
في ضعفه.

وقال المحقق الخراساني: إن الصحة والفساد، والحلية والحرمة دائران
مدار قصد المحلل والمحرم. (٣)

٤/ والذي يبدو لي أن الحرمة والفساد في العقد يبتنيان على مدى تأثير
الباعث (القصد) في تراضي الطرفين، فان كان كذلك فهو بمثابة شرط فاسد،
ويصدق على ذلك التعاون على الإثم والعدوان؛ ومثال ذلك أن يشتري أحد بيتاً
لكي يجعله ميثماً فيبيعه البائع بثمن زهيد، فإن قصد المشتري مثل الشرط،
فلولا أن البائع عرف قصد المشتري لما باعه. وكذلك لو اشتري أحدهم قطعة
من ارض كبيرة لكي يبني فيها مستشفى مما يرفع قيمة القطع المجاورة لها
فيخفض البائع السعر.

وكذلك لو علم البائع أن المشتري سوف يصنع الخمر من عنبه فباعه بسعر
أعلى، أو إن الدار التي يبيعها ستتحول الى بيت دعارة، فيبيعها بأعلى.

(١) المصدر.

(٢) المصدر.

(٣) المصدر، ص ١٩٧.

وبالتالي في مثل هذه الموارد يدخل الباعث ضمن دائرة التراضي، فيصبح جزءاً من العقد، فإذا كان محرماً أفسد العقد.

وعلى ذلك نحمل أحاديث النهي عن بيع العنب لمن يصنعه خمراً، أو الخشب لمن يصنعه صليباً.

أما في غير هذه الحالة كما إذا جهل البائع قصد المشتري أو علم به، ولكن علمه لم يكن ذا تأثير على المعاملة، فإن الأقوى عدم تأثير الباعث في العقد، وعلى ذلك تحمل الروايات التي أجازت ذلك؛ مثل مكاتبة ابن أذينة قال: كتبت إلى أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام أسأله عن رجل له كرم أبيع العنب والتمر ممن يعلم أنه يجعله خمراً أو مسكراً؟ فقال عليه السلام: إنما باعه حلالاً في الابن الذي يحل شربه أو أكله فلا بأس ببيعه. (١)

وقال أيضاً سألته عن الرجل يؤجر سفينته أو دابته ممن يحمل فيها أو عليها الخمر والخنزير؟ فقال عليه السلام: لا بأس. (٢)

وعن رجل له خشب فباعه ممن يتخذه برابط؟ فقال: لا بأس. (٣)

باء: الوفاء بالعقود

فيما يلي نستعرض أبعاد آية الوفاء بالعقود، وما نستلهم منها من أحكام المعاملات. قال الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ (المائدة/١)

ونبدء بالتدبير في كلمتي: الوفاء والعقود، ثم في عطاء الآية في البعد الفقهي.

أولاً: الوفاء

(١) وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ١٦٩.

(٢) المصدر، ج ١٢، ص ١٢٦.

(٣) المصدر، ص ١٢٧.

الوفاء في اللغة، إتمام ما ينبغي إتمامه. قال في القاموس: وفى بالعهد كوعى وفاءً ضد غدر كأوفى، والشيء وأفياً كصلى تم وكثر، وشرعاً إبراء الذمة. (١)

ونستفيد من ذلك؛ إن لكل عقد وفاء بحسبه. فالوفاء بعقد البيع هو تبادل العوضين، بينما الوفاء بعقد الأيجار إعطاء قيمة المنفعة في مقابل السماح للطرف الآخر بالاستفادة منها. وهكذا الوفاء بالعقد اللازم هو منع الفسخ إلا بالتقابل من الطرفين، بينما الوفاء بعقد الهبة وسائر العقود الجائزة امكانية فسخها.

وكذلك يشمل اللفظ الوفاء بالشروط المنصوصة أو الضمنية، حيث إن كل ذلك هو مقتضى إبراء الذمة. (٢)

ثانياً: العقد

ماذا يعني لفظ "العقد"؟ قالوا: إن العقد في اللغة العهد الشديد، وإن العقد لا يكون إلا من جانبين، وإنه الربط بين شيئين، وإنه الجمع بين شيئين. (٣) وقال في القاموس: عقد الجعل والبيع والعهد يعقده: شده وعنقه إليه لجأه، و(عقد) الحاسب حسب والعقد الضمان. (٤)

وهناك قولان في معنى كلمة العقد؛ الأول: إن معناها ربط تعهد أحد الطرفين بالتعهد من الطرف الآخر فلا يكون إلا من طرفين. الثاني: إن معناها عقد القلب على العمل بشيء مما يساوي كلمة "الالتزام" و "العهد". والمعنى الأول هو الذي أشار إليه صاحب كتاب العناوين، وهو المصطلح المعروف بين الفقهاء، حيث إنهم جعلوا لفظة العقد في مقابل لفظة الايقاعات، وهي ذات التزام من طرف واحد.

(١) الفقه الإسلامي، ص ١١٢.

(٢) الفقه الإسلامي، ص ١١٢.

(٣) المصدر، عن كتاب العناوين ج ٢.

(٤) المصدر ص ١١٣، عن القاموس.

أما المعنى الثاني، فهو الذي نفهمه من تصريفات الكلمة؛ مثل عقد العزم، والعقيدة، والعقدة (النفسية).

وفي الحديث "العقد هو العهد" وكلمات أهل اللغة أقرب الى هذا المعنى. وبناءً على ذلك فالعقود تشمل الالتزام من طرف واحد " والذي يسميه بالايقاع".

وكنت سابقاً أميل الى المعنى الأول (١)، ولكني الآن أكثر إقتناعاً بالمعنى الثاني الذي وردت به رواية صحيحة. فالعقد عندي بمعنى الالتزام أو "التعهد"، وهو أعم من أن يكون ذا طرفين أو ذا طرف واحد. والحديث المأثور عن الامام جعفر بن محمد عليهما السلام يدل على ذلك، حيث جاء في تفسير قول الله سبحانه **﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾** جاء في البيع والشراء والنكاح والحلف والصدقة. (٢)

ومعلوم إن الحلف والصدقة نوعان من الايقاع (الالتزام من طرف واحد).

الألف واللام في كلمة العقود

لأن الأصل في اللام عند عدم قرنية أن تكون للجنس، فإن معنى العقود كل العقود حيث إن الجمع المحلى باللام يدل على العموم. وهكذا تشمل آية الوفاء بالعقود كل العقود، سواءً التي كانت شائعة في عهد الرسول والأئمة عليه وعليهم الصلاة والسلام، أو لم تكن، أو التي سوف تتجدد.

واحتمال أن يكون الألف واللام إشارة الى العقود المعهودة أو الى بعضها فقط. هذا الاحتمال ينتفي بالأصل، حيث إن الأصل عدم الإشارة الى عقود خاصة، وأيضاً ينتفي بأن مثل القرآن مثل الشمس في أنه ينطبق على الأمور المستجدة، وأن تطبيقات الزمان والمكان والموارد لا تحدد الآيات ولا تمنع الاستدلال بها على المصاديق المستجدة، على أن الحديث الصحيح فسّر الآية بالعهود دون إشارة الى عهود خاصة، وإن المفسرين كذلك فسروها بالأعم.

(١) راجع المصدر ص ١١٤.

(٢) جواهر الكلام (طبعة بيروت) ج ٨، ص ١٢٥، عن كتاب دعائم الاسلام، ج ٢، ص ٢٦.

بلى؛ بعضهم أشار الى عهود خاصة، كعادتهم في مثل هذه الآية، وإن هي إلاّ مصاديق تجري عليها الآية كما تشمل غيرها. (١)

دلالة الآية

وهكذا نستوحي من الآية حسب التفسير السابق الأحكام التالية:

أ- يجب الوفاء بكل العقود الجائزة واللازمة وشروطهما الصريحة والضمنية، وذلك بإبراء الذمة مما التزم صاحبها به من تعهد.

ب- تشمل العقود تلك الالتزامات التي تكون بين الشخص وغيره، والتي تكون بين الفرد وربّه، مثل الايقاعات؛ كالطلاق والعتق والنذر واليمين وما أشبهه.

ج- لا فرق بين العقود والعهود بين الصور التي كانت شائعة ومعروفة، أو التي تجددت، أو تتجدد. فكل التزام بلغ درجة العقد والعهد، يجب الوفاء به.

د- وهكذا تصبح هذه الآية أشمل من آية التجارة، لأن هذه تشمل الالتزام من طرف واحد دونها، ولكن تلك الآية أكثر استيعاباً للأحكام. وهكذا القرآن الحكيم يصدق بعضه بعضاً.

(١) راجع المصدر ص ١١٥.

القسم الثاني: عن المكاسب المحرمة

في هذا القسم نتحدث عن الأصل في التجارة والذي يقتضي الحلية، ثم عن القواعد العامة في التجارة، ثم نبين ما يجوز وما لا يجوز من المكاسب في إطار نوعين أساسيين من المكاسب.

الأول: المكاسب التي حرم الله سبحانه، لما يأتي منها من الفساد محضاً؛ مثل بيع الخمر والميسر وخدمة الظلمة. وفي هذا الحقل نستفيد من حديث مفصل مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث يبين الإمام ما يجوز وما لا يجوز من المكاسب في أربعة شعب؛ الأولى: عن الولايات التي تعني التوظيف في الدوائر الحكومية، الثانية: عن التجارة وتبادل السلع، والثالثة: عن الإجارة وتقديم الخدمات، والرابعة: عن الصناعة. وبعد كل شعبة نتأمل فيها ونستفيد منها الفروع المناسبة.

الثاني: العقود المحرمة التي تحتوي على زيادة باطلة؛ أي الربا. ولكن قبل الخوض في بحوثه، نتحدث عن حكمة حرمة والتي تأتي في إطار بيان بصائر الدين في الثروة وكيفية توجيهها في الإطار الصحيح.

وبعدئذ نتحدث عن الربا في القرآن وفي الحديث، ثم نفصل القول في الربا في القرض، ويلحق به بيع الصرف، ثم نبحث عن ربا الفضل (ربا المعاملة). ثم ندرس فوائد البنوك والديون الخارجية والفساد العريض الذي يشيعه الربا في إطار إقتصاد الوطن، وفي إطار الإقتصاد العالمي.

وفي الأخير نستعرض جملة من الشبهات التي طرحت حول الربا وحرمة، ونبين بإذن الله الردود التي عليها.

أولاً: القواعد العامة

الأصل في التجارة إطلاق حرية الإنسان فيها إذا كانت بتراض وكانت تقع ضمن دائرة الشريعة، وفي إطار الأحكام ومنها حلية المحل. أما إذا كان

المحل حراماً، كبيع ما حرّم الله، أو الإستيجار لما فيه الفساد محضاً، فلا يجوز.

والقواعد العامة التي نستوحيها من الآيات الكريمة تقع ضمن هذا الأصل الهام، ونستفيد هذه القواعد من الآية التالية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء/ ٢٩)

ومن الأكل بالباطل؛ التعامل على حرام، لأن الحرام ملغي عند الشريعة، وباطل، فكيف يقع عليه العقد؟ مثلاً الشريعة أسقطت الخمرة عن القيمة، فمن باعها وأكل ثمنها، فقد أكل مال غيره بالباطل. وكذلك الميسر حرام، فمن أكل مالاً بازائه (بيعاً أو إجارة أو رهناً أو ما أشبهه) فقد أكل مال الناس بالباطل. وكذلك التجارة بالأصنام والأزلام، وما يأتي الفساد منه محضاً، وما يأتي منه الشر لا غير، وما فيه ضرر وما لا مالية فيه، إنها جميعاً لحرمتها أكل للمال بالباطل. وفي الآية بصائر نستوحي من التأمل في كلماتها:

- ١- فالأكل أصلاً معناه التغذية، ويُستخدم في التسلط والإقناء.
- ٢- ونسبت الأموال الى الجمع، لأن النهي متوجه الى الجمع، وربما للإشارة الى أن المال قد جعل قواماً للحياة الاجتماعية.
- ٣- ولعل في كلمة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ إشارة الى أن بدعة أكل الأموال لو شاعت لشملت الجميع، أو للإشارة الى أهمية المحافظة على حقوق الأمة المالية أكثر من حقوق الآخرين.
- ٤- وكلمة ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ تدل على حرمة الإحتيال على البعض بأكل المال. وقد فسّر الباطل في الروايات بالقمار، وفي آية كريمة من القرآن بيان له بالإدلاء الى الحكام لأكل فريق من أموال الناس بالإثم.
- وهكذا نستوحي حرمة التوسل بكل سبب غير مشروع لأكل الأموال.
- ٥- وكلمة ﴿إِلَّا﴾ الاستثناء، وهي تدل على الفصل بين الجملة السابقة واللاحقة في الحكم، وليس بالضرورة أن تكون الجملة اللاحقة جزءاً من

السابقة من دونها. فمعناها هنا أن الحرام أكل أموالكم بالباطل، والحلال هو أكلها بالتجارة.

٦- وفي القرآن فصل الخطاب، فالجملة ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾ تدل على أن الأصل في التجارة الصحة. فهي مطلقة، لأنها في مقام التشريع. وسنذكر لاحقاً رواية مفصلة (١) تؤكد هذا الأصل كما سنذكر لاحقاً طائفة من مصاديق أكل المال بالباطل، والتي اعتبرتها بأنها سحت، سوف نتناول بعضاً منها بالذكر باذن الله تعالى.

إلا أن علينا حين نتدبر في الآية، ونتأمل في الأحاديث، أن ندرسها جميعاً وننظر إليها نظرة شمولية نستوحي منها بصائر، لعلنا نستفيد منها في الحوادث الواقعة والمسائل المستحدثة.

وفي الأنظمة الحديثة، هناك حدود قانونية للتجارة، تتشابه من ناحية معينة لما في الشريعة الغراء.

يقول د. السنهوري: وقد يكون الشيء غير قابل للتعامل، لأن ذلك غير مشروع. وعدم المشروعية يرجع إما الى نص القانون الذي يمنع من التعامل في الشيء، أو إلى مخالفة هذا التعامل للنظام العام أو للأداب. (٢)

ويضيف في شرح النظام العام: القواعد القانونية التي تعتبر من النظام العام هي قواعد يقصد بها الى تحقيق مصلحة عامة؛ سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، تتعلق بنظام المجتمع الأعلى، وتعلو على مصلحة الأفراد. فيجب على جميع الأفراد مراعاة هذه المصلحة وتحقيقها، ولا يجوز لهم أن يناهضوها باتفاقات فيما بينهم. (٣)

(١) وهي عبارة عن حديث مفصل في كتاب تحف العقول الذي سيأتي ذكره لاحقاً.

(٢) الوسيط، ج ١، ص ٣٩٨.

(٣) المصدر، ص ٣٩٩.

وبالنسبة الى ضرورة مراعاة الآداب في المعاملات يقول: والآداب في أمة معينة وفي جيل معين هي مجموعة من القواعد وجد الناس أنفسهم ملزمين باتباعها طبقاً لناموس أدبي يسود علاقاتهم الاجتماعية. (١)

وهكذا تجد أن القانون الوضعي يحدد المعاملات بأمرين؛ المصلحة العامة، والآداب. وواضح إن المصلحة العامة تختلف من أمة لأخرى ومن نظام لنظام، كما إن الآداب تختلف. وأما الدين فإنه فيه ثوابت لا تتغير، وهي الأحكام الشرعية التي نصت عليها مصادر الوحي، وفيها أيضاً متغيرات، وهي التي تقتضيها المصلحة العامة للمجتمع، وقد بينتها مصادر الوحي أيضاً ولكن ضمن أصول عامة وأحكام كلية؛ مثل حرمة الظلم والضرر ووجوب ما به قوام الفرد والأمة، وما يحفظ بيضة الإسلام.

وفيما يلي نتحدث إن شاء الله عن ثوابت الشريعة، مع إشارة الى القواعد العامة التي مجال الحديث عنها الفصول الأخرى من هذا الكتاب. وطبقاً لتلك القواعد يحكم ولي أمر المسلمين بما تجب رعايته من أحكام متغيرة. وإذا لم تكن الدولة الإسلامية قائمة، فللفقهاء أن يفتوا بما يجب على الناس مراعاته، من أحكام تقتضيها المصالح العامة والضرورات.

ثانياً: حديث تحف العقول

في كتاب تحف العقول للشيخ الحسن بن علي بن شعبه، حديث مفصل حول المكاسب والتجارات.. هو المرجع الذي ينبغي أن نطيل التدبر فيه، وأن نرجع إليه سائر المتون الفرعية في الأحاديث. وقد روى هذا الحديث المحدث العاملي في كتابه وسائل الشيعة، كما رواه المحدث البحراني في كتابه الحقائق . ونحن هنا نذكر النص من الوسائل بالرغم من أنه يختلف عن النسخة المطبوعة من تحف العقول، لأنه أكثر إختصاراً. كما ونقف إن شاء الله عند

(١) المصدر، ص ٤٠٠.

كل مقطع من الحديث لتأمل فيه وندرس أحكامه، ولكي نقارن ما نستقيده منه بما في سائر الأحاديث.

ألف: الولاية

حينما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن معاش العباد، أجاب الإمام قائلاً: جميع المعاش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم، مما يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات. ويكون منها حلال من جهة، وحرام من جهة. فأول هذه الجهات الأربعة الولاية، ثم التجارة، ثم الصناعات.. ثم الإجازات. والفرض من الله تعالى على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال، والعمل بذلك الحلال منها، واجتناب جهات الحرام منها. فأحدي الجهتين من الولاية؛ ولاية الوالي العادل، وولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالي العادل بلا زيادة ولا نقصان، فالولاية له والعمل معه ومعاونته وتقويته حلال محل.

فوجه الحلال من الولاية، ولاية الوالي العادل، وولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالي العادل بلا زيادة ولا نقصان، فالولاية له والعمل معه ومعاونته وتقويته حلال محل.

وأما وجه الحرام من الولاية، فولاية الوالي الجائر وولاية ولاته. فالعمل لهم والكسب معهم بجهة الولاية لهم حرام محرم، معذب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير، لأن كل شيء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر. وذلك أن في ولاية الوالي الجائر دروس الحق كله، وإحياء الباطل كله، وإظهار الظلم والجور والفساد، وإبطال الكتب وقتل الأنبياء وهدم المساجد وتبديل سنة الله وشرائعه. فلذلك حرم العمل معهم ومعاونتهم والكسب معهم، إلا بجهة الضرورة، نظير الضرورة إلى الدم والميتة. (١)

تأملات في الحديث

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٥٤-٥٥، كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، الباب ٢، ح ١. يذكر إن بعض هذا النص مأخوذ من كتاب تحف العقول.

١/ يبدو أن كثيراً من أحاديث أهل البيت عليهم السلام كانت دروساً مفصلة، ولكن الرواة والمحدثين حينما قسموا الفقه الى أبواب قطعوا الروايات المفصلة، وحافظوا على أسانيدھا. وبالرغم من أن هذه العملية نفعت البحث الفقهي، إلا أنها أضرت بالاستفادة من منهجية الأئمة عليهم السلام في الكلام وإستلھام معاريض أحاديثهم.

وهذا النص المفصل يعطينا هذه الفرصة أن نستلھم روح كلامهم بقدر توفيق الله لنا، وهذا ما نسعى إليه هنا.

٢/ أشارت الرواية الى الطبقات الاجتماعية العامة، وهم: الموظفون الحكوميون، والتجار (تجارة عامة أو جزئية كأصحاب المحلات)، والصناعيون، وعمال مستأجرون. ولا تزال هذه الطبقات هي الرئيسية في اقتصاد البلاد، إلا أن تقديم الحديث عن الولاية قد يوحي بأهمية السياسة، وأن صلاح الأمة وفسادها بصلاح الساسة وفسادهم.

٣/ والحديث لم يبين حدود المعاش (الاقتصاد) فحسب، بل وبيّن حكمة هذه الحدود، مما يجعلنا أكثر قدرة على الإستنباط.

٤/ وقد بيّن الحديث عن ولاية ولاية العدل، واشترط أن يكون الوالي عنهم ملتزماً بالدقة، بالتعاليم الصادرة منهم، من دون زيادة أو نقصان. ذلك أن مجرد الإنتماء الى دولة عادلة، لا يعني تصحيح كل عمل يصدر من الفرد. كما أن الإنتماء الى مذهب صحيح، لا يجعل المنتمي حاصلاً على صك الغفران. وإنما تصح الولاية من العادل إذا عمل الإنسان بعدله، ولم يعمل بهواه زيادة على ما أمر أو نقصاً.

٥/ وبين الحديث حرمة ولاية الجور بتفصيل، حيث بيّن حرمة التعامل في جهة الولاية. وأضاف: كل شيء من جهة المعونة له. مما فتح الباب أمام التعامل معهم في سائر الجهات، إذا لم تتصل بجهة الولاية. وفي هذا التفصيل بحث فقهي.

٦/ لأن الولاية لله ولمن إختاره من ولاة العدل، فإن ولاية الجائر بذاتها خاطئة، وعلى الناس تجنبها، حيث يقول سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (البقرة/٢٥٦)
وقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج/٣٠)

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ (الزمر/١٧)

وقد حرّم الله سبحانه الركون الى الظالمين عموماً، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (هود/١١٣)

وأدى مراتب التجنب، الإبتعاد عن ولايتهم، وعن الركون إليهم. وقد وردت أخبار في حرمة ولاية الجائرين بصفة عامة منها ما نذكرها:

روي عن جعفر بن محمد (الإمام الصادق) عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين أعوان الظلمة، ومن لاق لهم دواتا، أو ربط كيسا، أو مدّ لهم مدّة قلم، فاحشروهم معهم. (١)

وعن حريز قال: سمعت أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام يقول: اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع، وقوّوه بالتقية والاستغناء بالله عز وجل "عن طلب الحوائج الى صاحب سلطان" إنه من خضع لصاحب سلطان ولمن يخالفه على دينه طلباً لما في يديه من دنياه أخله الله عز وجل ومقتة عليه، ووكله إليه، فان هو غلب على شيء من دنياه فصار إليه منه شيء نزع الله جل اسمه البركة منه ولم يأجره على شيء منه ينفقه في حج ولا عتق ولا برّ. (٢)

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٣٠، كتاب التجارة، أبواب ما يكتب به، الباب ٤٢، ح ١١.
(٢) المصدر، ص١٢٨-١٢٩، ح ٤.

وعن ابن أبي يعفور قال: كنت عند أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام إذ دخل عليه رجل من أصحابنا، فقال له: جعلت فداك إنه ربما أصاب الرجل منا الضيق أو الشدة فيدعى الى البناء بينيه، أو النهر يكرهه، أو المسناة يصلحها، فما تقول في ذلك؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما أحبّ أني عقدت لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء، وإن لي ما بين لابتيها، لا ولا مدّة بقلم. إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار، حتى يحكم الله بين العباد. (١)

وعن صفوان بن مهران الجمال قال: دخلت على أبي الحسن الأول (الإمام موسى الكاظم) عليه السلام فقال لي: يا صفوان؛ كلّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً. قلت: جعلت فداك أي شيء؟! قال إكراؤك جمالك من هذا الرجل، يعني هارون. قال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد ولا للهو، ولكني أكريته لهذا الطريق، يعني طريق مكة، ولا أتولاه بنفسي، ولكن ابعث معه غلماني. فقال لي: يا صفوان؛ أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم جعلت فداك. قال: فقال لي: أنتحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟ قلت: نعم. قال: من أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار. قال صفوان: فذهبت فبعثت جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك الى هارون، فدعاني فقال لي: يا صفوان؛ بلغني أنك بعثت جمالك. قلت: نعم. قال: ولم؟ قلت: أنا شيخ كبير وإن الغلمان لا يفون بالأعمال؟ فقال: هيهات هيهات إنني لأعلم من أشار عليك بهذا. أشار عليك بهذا موسى بن جعفر. قلت: ما لي ولموسى بن جعفر؟ فقال: دع هذا عنك، فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك. (٢)

٧/ ويستثنى من ولاية الجائر الضرورة المادية، كالضرورة الى الدم والميتة حسب ما تلوناه في الحديث الماضي. وجاء في حديث آخر عن أبي الحسن (الإمام الهادي) علي بن محمد عليهما السلام: إن محمد بن علي بن عيسى كتب إليه يسأله عن العمل لبني العباس وأخذ ما يتمكّن من أموالهم، هل

(١) المصدر، ص ١٢٩، ح ٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٣١-١٣٢، ح ١٧.

فيه رخصة؟ فقال: ما كان المدخل فيه بالجبر والقهر فانه قابل العذر، وما خلا ذلك فمكروه، ولا محالة قليلة خير من كثيره، وما يكفر به ما يلزمه فيه من يرزقه بسبب وعلى يديه ما يسرك فينا وفي موالينا. قال: فكتبت إليه في جواب ذلك أعمله أن مذهبي في الدخول في أمرهم وجود السبيل الى إدخال المكروه على عدوه، وإنبساط اليد في التنشفي منهم بشيء أتقرب به إليهم. فأجاب: من فعل ذلك فليس مدخله في العمل حراماً، بل أجراً وثواباً. (١)

٨/ ويستثنى من ذلك أيضاً، العمل من أجل خدمة الدين ودفع المكروه عن المؤمنين وإضعاف الجائرين من داخل مؤسساتهم الرسمية، والأمر بالمعروف والنهي عن النكر، والدفاع عن حرمة المسلمين.. وبالتالي كلما كانت الولاية أنفع وأهم. ولكن تحديد ذلك لا يتسنى - عادة - إلاً للفقهاء، فالأحوط أن يكون ذلك بإذن منه. ولعل النصوص التالية دالة على ذلك..

عن علي بن يقطين قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر (الإمام الكاظم) عليهما السلام: إن الله تبارك وتعالى مع السلطان أولياء يدفع بهم عن أوليائه. (٢)

وعن علي بن يقطين قال: قلت لأبي الحسن (الإمام موسى الكاظم) عليه السلام: ما تقول في أعمال هؤلاء؟ قال: إن كنت لا بد فاعلا فأتق أموال الشيعة. قال: فأخبرني علي أنه كان يجيبها من الشيعة علانية، ويردّها عليهم في السر. (٣)

وعن زياد بن أبي سلمة قال: دخلت علي أبي الحسن موسى (الإمام الكاظم) عليه السلام فقال لي: يا زياد؛ إنك لتعمل عمل السلطان؟ قال: قلت: أجل. قال لي: ولم؟ قلت: أنا رجل لي مروّة، وعليّ عيال، وليس وراء ظهري شيء. فقال لي: يا زياد؛ لئن أسقط من حالك فأتقطع قطعة قطعة أحبّ إلي من

(١) المصدر، ص ١٣٧، الباب ٤٥، ح ٩.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٣٩، الباب ٤٦، ح ١.

(٣) المصدر، ص ١٤٠، الباب ٤٦، ح ٨.

أن أتولى لأحد منهم عملاً أو أطأ بساط رجل منهم، إلا لماذا؟ قلت: لا أدري جعلت فداك. قال: إلا لتفريج كربة عن مؤمن، أو فك أسره، أو قضاء دينه. يا زياد؛ إنَّ أهون ما يصنع الله جلَّ وعزَّ بمن تولى لهم عملاً أن يضرب عليه سرادق من نار إلى أن يفرغ "الله" من حساب الخلائق "الخلق". يا زياد؛ فإن وليت شيئاً من أعمالهم، فأحسن إلى إخوانك، فواحدة بواحدة، والله من وراء ذلك. يا زياد؛ أيما رجل منكم تولى لأحد منهم عملاً ثم ساوى بينكم وبينه، فقولوا له: أنت منتحل كذاب. يا زياد؛ إذا ذكرت مقدرتك على الناس، فاذكر مقدره الله عليك غداً، ونفاد ما أتيت إليهم عنهم، وبقاء ما أتيت إليهم عليك.

(١)

والأحوط أن نعتبر مثل هذه الأمور راجعة عموماً إلى الفقهاء، حيث إنها تتصل بالشئون العامة للأمة، وهي راجعة إليهم بعد الأئمة عليهم السلام.

٩/ إذا أكره الجائر شخصاً للولاية، تزول الحرمة عنه مادام مكرهاً، ويجوز له التصدي لكل الأمور مع السعي للتقصي عن المحرمات، فإذا بلغ الأمر إلى الدماء المحرمة، فلا يجوز له إهراقها، فإنه لا تقية فيها.

ويتحقق الإكراه هنا كما يتحقق في كل موضوع بالخوف على النفس والعرض ومن هو بمثابة النفس، كما سبق تفصيله في مناسبة أخرى. قال العلامة النجفي: والإكراه المسوّغ للعمل بما يأمره من فعل المحرمات في ولاية كان أو غيره، ليس هو إلا الإلزام والإلجاء من المتسلط الذي يخشى منه على النفس والمال والعرض أو أحدهما، على وجه لا يتحمل عادة. (٢)

وقد جاء في حديث مأثور ما يوضح حدود الإكراه، حيث روي عن الحسن بن الحسين الأنباري عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: كتبت إليه أربع عشرة سنة أستأذنه في عمل السلطان، فلما كان في آخر كتاب كتبت إليه أنكر أنني أخاف علي خبط عنقي، وأن السلطان يقول لي إنك رافضي ولسنا نشك

(١) المصدر، ح ٩.

(٢) جواهر الكلام، ج ٨، ص ٨٧.

في أنك تركت العمل للسلطان للرفض، فكتب إليّ أبو الحسن عليه السلام: فهمت كتابك وما ذكرت من الخوف على نفسك، فان كنت تعلم أنك إذا وليت عملت في عملك بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله ثم تصير أعوانك وكتابك أهل ملتك، وإذا صار إليك شيء وأسيت به فقراء المؤمنين حتى تكون واحداً منهم، كان ذا بدأ وإلا فلا. (١)

وعن عمار، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام سئل عن أعمال السلطان، يخرج فيه الرجل؟ قال: لا، إلا أن لا يقدر على شيء يأكل ولا يشرب ولا يقدر على حيلة، فإن فعل فصار في يده شيء فليبعث بخمسه الى أهل البيت. (٢)

باء: تفسير التجارات

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام وأما تفسير التجارات في جميع البيوع، ووجوه الحلال من وجه التجارات التي يجوز للبائع أن يبيع مما لا يجوز له، وكذلك المشتري الذي يجوز له شراؤه مما لا يجوز له. فكل مأمور به مما هو غذاء للعباد وقوامهم به في أمورهم في وجوه الصلاح الذي لا يقيمهم غيره مما يأكلون ويشربون ويلبسون وينكحون ويملكون ويستعملون من جميع المنافع التي لا يقيمهم غيرها، وكل شيء يكون لهم فيه الصلاح من جهة من الجهات، فهذا كله حلال يبيعه وشراؤه وإمساكه وإستعماله وهبته وعاريته.

وأما وجوه الحرام من البيع والشراء، فكل أمر يكون فيه الفساد مما هو منهي عنه من جهة أكله أو شربه أو كسبه أو نكاحه أو ملكه أو إمساكه أو هبته أو عاريته أو شيء يكون فيه وجه من وجوه الفساد، نظير البيع بالربا أو بيع الميتة أو الدم أو لحم الخنزير أو لحوم السباع؛ من صنوف سباع الوحش والطيور، أو جلودها، أو الخمر أو شيء من وجوه النجس. فهذا كله حرام محرّم، لأن ذلك

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٤٥، الباب ٤٨، ح ١.

(٢) المصدر، ص ١٤٦، ح ٣.

كله منهي عن أكله وشربه ولبسه وملكه وإمساكه والتقلب فيه، فجميع تقلبه في ذلك حرام. وكذلك كل بيع ملهوّ به، وكل منهي عنه مما يتقرب به لغير الله، أو يقوى به الكفر والشرك في جميع وجوه المعاصي، أو باب يوهن به الحق، فهو حرام محرّم ببيعه وشراؤه وإمساكه وملكه وهبته وعاريته وجميع التقلب فيه، إلا في حال تدعو الضرورة فيه الى ذلك. (١)

تأملات في الحديث

١/ نستفيد من الحديث؛ إن الأصل في التجارات الحلية، مادامت مفيدة للناس، وصلاح لهم من أسباب معيشتهم. وواضح إن الناس لا يقدمون على تجارة إلا إذا كان فيها منفعة لهم، وإنما المنافع التي حرّمها الشرع مستثناة منها.

وهذا الأصل هو الذي تقتضيه القواعد الشرعية الأخرى، مثل قوله سبحانه: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ الطِّيبَاتُ﴾ وكذلك الحديث المروي عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام، قال: كل شيء لك حلال حتى تعلمه أنه حرام. (٢) وما أشبهه.

وهكذا إذا تشابهت قضية ولم نعرف وجه الحلية فيها عن وجه الحرمة، فالأصل فيها الحلية.

٢/ وجاء في تعبير متشابه في الحديث، حيث نجد قوله عليه السلام: "وكل شيء يكون لهم فيه الصلاح من جهة من الجهات فهذا كلّه حلال". وفي موضع آخر نجد قوله عليه السلام: "أو شيء يكون فيه وجه من وجوه الفساد نظير البيع بالربا.. (إلى قوله عليه السلام) فهذا كله حرام محرّم".

والسؤال: إذا كان هناك شيء فيه وجه من وجوه الصلاح ووجه من وجوه الفساد، كما النجاسة التي يستفاد منها في غرض عقلائي صحيح؛ كالدّم المسفوح إذا استخدم للتسميد، فهل هذا حلال أم حرام؟

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٥٥-٥٦.

(٢) المصدر، ص ٦٠، ح ٤.

وهذه الملاحظة قد سبق وأن طرحها المحقق الايرواني، فأجاب عنها آية الله المنتظري بالقول: الظاهر من الرواية الحكم على الشيء بلحاظ الأثر الغالب المترقب منه عند العقلاء، والمصرف المتعارف فيه. فإن كان الأثر المتعارف المترقب منه من وجوه الصلاح، ومما يتقوم به المعاش، حل بيعه وإجارته وسائر التقلبات فيه. (١)

ويبقى سؤال: لو افترضنا إن جهة الحرام هي الغالبة في المجتمع، ولكن شخصاً يريد البيع لجهة الحلال، فهل يحرم البيع أم لا؟ (علماً بأن المناط في العقود حال المتعاقدين في طبيعة العقد وفي تحديد الثمن والمثمن، وما أشبهه). الأقرب هو تقليب الحالة الذاتية (حال المتعاقدين) على الحالة الموضوعية، وذلك للأدلة التي نسوقها إن شاء الله في النقاط التالية في أقسام التجارة.

٣/ جاء في الحديث: "لأن ذلك كله منهي عن أكله وشربه ولبسه وملكه وامساكه والتقلب فيه". ومن هذا التعبير نستفيد؛ إن سبب الحرمة هو النهي، فإذا لم يكن منهيّاً عنه لم يحرم. وإنما يحرم ما يتصل بواقع النهي، فإذا كان شيء منهيّاً عن أكله وشربه، ولكنه ليس منهيّاً عن استخدامه في الدواء (كالسم)، فهل يحرم إذا قصد المتعاقد التداوي به؟ لا يبدو ذلك. فالمحرم هو أن يكون التعامل للوصول إلى الحرام، بدليل الحديث المشهور عن النبي صلى الله عليه وآله: إن الله إذا حرم شيئاً حرّم ثمنه. (٢)

وهكذا النجس والمنتجس الحرام منهما التعاقد عليهما للاستفادة المحرمة منهما، مثل ممارسة الأكل والشرب والصلاة وسائر الاستعمالات المنهية. أما الاستخدام الحلال لهما فلا حرمة في التعاقد، كاستخدام مدفوع الإنسان أو خرد الحيوان في التسميد، وكاستخدام الدهن المنتجس في الاستصباح أو في

(١) دراسات في المكاسب المحرمة، (الناشر: نشر تفكر، قم - عام ١٤١٥ هـ)، ج ١، ص ٨٥.

(٢) عن كتاب الخلاف، ٣/١٨٤ و١٨٥، المسألتان: ٣٠٨ و٣١٠.

صناعة الصابون، أو استخدام الميتة في التسميد أو في أي غرض مشروع. فإذا كان الشيء حلالاً، كان ثمنه حلالاً.

من هنا قال المرجع الشيرازي: ولما كان ظاهرها (ظاهر الرواية التي نتحدث عنها) إن علة المنع في بيع الأعيان النجسة حرمة الانتفاع، فمقتضاها الحلية في غير موردها، ولذا نرى أن (أنه) بعد صنع الفضلات صابوناً ونحوه، أو الدم صبغاً وما أشبهه (فإنه) جاز (ت) المعاملة. (١)

وقال آية الله المنتظري: إن ذكر وجوه النجس أيضاً في عداد ما يحرم المعاملة عليها، ينصرف إلى المعاملة عليها بلحاظ ما كان يترتب منها غالباً في ثلث الأعصار، حيث كانوا يستفيدون منها بالأكل والشرب أو اللبس، ويعاملون عليها لذلك. وقد علل التحريم فيها بقوله عليه السلام "لما فيه من الفساد".. فلو فرض ترتب فائدة عقلانية محللة عليها في طريق صلاح المجتمع، كالدّم للترزيق بالمرض مثلاً، ووقعت المعاملة عليها لذلك فلا وجه للاشكال فيها. (٢)

وجاء في كتاب مفاتيح الشرائع: ومن هذه الفذكرة من البيانات المأمونة ببركة الأصول والنصوص من آل محمد صلوات الله عليهم، ظهر بطلان ما هو المشهور من عدم جواز الانتفاع بالنجس والمنتجس. (٣)

وأضاف: فتنصل وتلخص إن الانتفاع بالميتة مطلقاً من المأكول وغيره حرام إلا في انتفاع الحلال، فحينئذ يبيع الأول (للأكل) حرام وشرأوه حرام، بخلاف الثاني (للانتفاع الحلال). (٤)

٤/ قال العلامة النجفي: لا خلاف يعتد به، في حرمة التكبسب في الأعيان النجسة التي لا تقبل الطهارة بغير الاستحالة. وأضاف: بل مقتضاه (الحديث

(١) الفقه، المكاسب المحرمة، ج ١، ص ٧.

(٢) دراسات في المكاسب المحرمة، ج ١، ص ٨٦.

(٣) مفاتيح الشرائع (للشيخ محمد رضا المشتهد بأفضل)، ج ٢، ص ٢٣.

(٤) المصدر، ص ٢٣.

الذي ذكره) عدم جواز الانتفاع به مطلقاً، فضلاً عن التكسب كما هو واضح.
(١)

وحكى الإجماع عن كتاب التذكرة، فقال: فعن التذكرة يشترط في المعقود عليه الطهارة الأصلية. فلو باع نجس العين كالخمر والميتة والخنزير، لم يصح إجماعاً. وقال فيها: الكلب إن كان عقوراً حرّم بيعه عند علمائنا. (٢)
ولكن آية الله المنتظري يشكك في وجود نص عند علمائنا بتحريم التعامل مع مطلق النجس، بل يحتمل أن يكون فقهاءنا قد وقفوا على النواهي الواردة في الموارد الخاصة؛ كالكلب والخمر والميتة والعذرة فالتقطوا منها عنواناً جامعاً بالغاء الخصوصية وتنقيح المناط القطعي. (٣)

أقول: ويحتمل قريباً إن الذين حكوا الإجماع إنما تصيدوه من جملة كلمات الفقهاء في الموضوع، خصوصاً الفقهاء السابقون كانوا يفتون حسب متون النصوص. كما إن من المحتمل قريباً أن يكون نظر الفقهاء السابقين حرمة بيع الأعيان النجسة بهدف استخدامها في الموارد المحظورة، وليس للانتفاع بها في غيرها؛ مثل التسميد في المدفوع، والتداوي في السم، والصيد في الكلب. من هنا فإن هذا النوع من الإجماع غير مؤكّد فيما نحن فيه على أنه لا حجية في إطلاقه، لأنه دليل لبيّ كما قالوا.

وعلى أي حال؛ الإستناد الى هذا الإجماع الذي يحتمل إستناده إلى سائر الأدلة التي بأيدينا غير وجيه، فالمنافع المحللة للمحرمات، ومنها النجاسات إذا كانت معتداً بها، والتعامل بها معترف به عند العقلاء، إنها يمكن أن تكون محلاً للعقود.

٥/ والمحرم من المكسب خمسة أنواع حسب تقسيم المحقق الحلي في شرائع الاسلام:

(١) جواهر الكلام، ج٨، ص٨.

(٢) المصدر، ص٩.

(٣) دراسات في المكاسب المحرمة، ج١، ص ١٨٢.

الأول: الأعيان النجسة؛ كالخمرة والأنبذة والفقاع وكل مائع نجس عدا الأدهان لفائدة الإستصباح بها تحت السماء، والميتة والدم، وأرواث وأبوال ما لا يؤكل لحمه، وربما قيل بتحريم الأبوال كلها إلا بول الإبل خاصة، والأول أشبه، والخنزير وجميع أجزاءه وجلد الكلب وما يكون منه. (١)

أقول: قد سبق الحديث عن بيع النجس والمنتجس، وأن حرمتها لجهة ما فيهما من الفساد والحرمة. وفي غير هذه الجهة قد يقال بالحلية، والأحوط الإجتنب.

وقال المحقق الحلي: الثاني: ما يحرم لتحرير ما قصد به كآلات اللهو؛ مثل العود والزمرد، وهياكل العبادة المبتدعة؛ كالصليب والصنم، وآلات القمار؛ كالنرد والشطرنج، وما يفضي الى المساعدة على محرم؛ كبيع السلاح لأعداء الدين، وإجارة المساكن والسفن للمحرمات، وكبيع العنب ليعمل خمراً، وبيع الخشب ليعمل صنماً. ويكره بيع ذلك لمن يعملها. (٢)

أقول: كل ذلك إذا كان العقد يعتبر تعاوناً على الإثم والعدوان، ومساهمة فعلية في الحرام. وإذا لم يكن هناك جهة صلاح من أجلها تمت المعاملة، كبيع آلات اللهو لاستعمالها في الوقود بعد تحطيمها.

ومن هنا يحرم أيضاً بيع أي شيء يساعد العدو على التغلب على المسلمين؛ مثل بيع وقود آلياتهم الحربية، أو بيع التقنية التي تساعد على الحرب، وما أشبه.

كذلك يحرم بيع المخدرات، وكلما يسبب ضرراً بالمسلمين. وهكذا يحرم بيع السلاح في البلاد الاسلامية إذا كان سبباً لتزلزل أركان الأمن، ووسيلة لإنتشار الجريمة.

(١) شرائع الاسلام (طبعة كلية الفقه بالنجف)، ج ١، ص ٩.

(٢) المصدر، ص ١٠.

وهكذا يحرم بيع ما يساعد على سرقة أموال المسلمين؛ مثل الورق ليصنع نقوداً مزوّرة، أو بيع أجهزة التصنت لاستخدامها في هتك حرّامات الناس، أو ما أشبهه.

وقال المحقق الحلّي: الثالث: ما لا ينتفع به، كالمسوخ برية كانت؛ كالقرد والدب، وفي الفيل تردد، والأشبهه جواز بيعه للانتفاع بعظمه. أو بحريّة؛ كالجرّي والضفادع والسلاحف والطافي والسباع كلها إلا الهر. والجوارح؛ طائرة كانت كالبازي أو ما أشبهه كالفهد، وقيل: يجوز بيع السباع كلها، تبعاً للانتفاع بجلدها أو ريشها وهو الأشبهه. (١)

والأفضل إحالة مثل هذه الموضوعات الى فتاوى الفقهاء في كل عصر ومصر، أو الى العرف فيهما. فما لا ينتفع به لا يسمح ببيعه، وما ينتفع يسمح به.

والمواقع؛ إن إشتراط عدم السفاهة في العقود، أو فيمن يجريها قد يغنينا عن هذا الشرط.

ومن هنا قال العلامة النجفي: فالمتجه - حينئذ - جواز التّكسب بما ينتفع به منها (مما ذكره التّكسب بما ينتفع به منها مما ذكره المحقق في النص السابق ذكره) نفعاً يخرج عن السّفه بذلك (النفع)، بل لا يبعد جواز التّكسب بما لا نفع غالباً فيه، إذا اتفق حصول النّفع المعتد به فيه فيتكسب به في ذلك الحال. (٢)

وقال المحقق الحلّي: الرابع: ما هو محرم في نفسه، كعمل الصور المجسمة، والغناء، ومعونة الظالمين بما يحرم، ونوح النائحة، وحفظ كتب الضلال ونسخها لغير النّقض، وهجاء المؤمنين، وتعلم السحر، والكهانة،

(١) شرائع الإسلام ج١، ص١٠.

(٢) جواهر الكلام، ج٨، ص٢١.

والقيافة، والشعبذة، والقمار. والغش بما يخفى كشوب اللبن بالماء، وتدليس الماشطة، وتزيين الرجل بما يحرم عليه. (١)

أقول: هذه جملة محرمات يكتسب الناس عادة بها فذكرها المحقق، وهناك محرمات أخرى قد يكتسب البعض بها فهي محرمة أيضاً، مثل الغيبة والنميمة. والحديث عن المحرمات نرجئه الى القسم الثاني من هذه الموسوعة بإذن الله، حيث نتحدث هناك عن الكفر والنفاق وشعبهما من المحرمات.

وقال المحقق الحلي: الخامس: ما يجب على الإنسان فعله كتغسيل الموتى، وتكفينهم، وتدفينهم. (٢)

أقول: ينبغي أن نتحدث باختصار عن هذا النوع من المحرمات، فنقول:

تختلف طبيعة الواجبات التي على المكفين.

١/ فمنها التي لا تحمل الإستيجار؛ مثل الصلاة والصوم، ذلك لأنها عبادات فردية، وهي مشروطة بنية القربة التي قد تتنافى وأخذ الأجرة عليها. بلى؛ لو دفع الأب لأبنائه مالاً ليصلوا، فأقاموا الصلاة لله وحده، بحيث لو لم يحصلوا على المال لأقاموها أيضاً، فإن صلاتهم صحيحة ويكون دور المال المدفوع مجرد تشجيع عليها، كما لو نذر أحد إقامة الصلاة فإن نذره يزيده عزماً.

٢/ ومن الواجبات ما هي ترتبط بالنظام الاجتماعي، وهي واجبات على الكفاية، ولكن من طبيعتها أخذ الأجرة عليها؛ مثل الصناعات والحرف المختلفة التي لولاها لتوقفت الحياة - فالطبيب مثلاً واجبه مداواة المرضى، كما واجب المهندس تخطيط المدن، وإنشاء المساكن المناسبة للناس. ولو أضرَب الأطباء عن عملهم حتى مات المرضى، لكانت تلك جريمة لا تغتفر. كذلك لو أضرَب المهندسون عن عملهم حتى خربت المدن. ولكن هل يعني ذلك إن عليهم تنفيذ هذه الواجبات بلا أجر؟ كلاً؛ إنما الواجب عليهم أداءها في

(١) شرائع الإسلام، ج ٢، ص ١٠.

(٢) شرائع الإسلام، ج ٢، ص ١٠.

مقابل أجور، وكما يقول العلامة النجفي فيها: ولا بأس بالوجوب مع العوض فتأمل. (١)

٣/ ومن الواجبات ما هي عبادات إجتماعية؛ مثل الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتجهيز الموتى والقضاء والولاية وما أشبه.. وإذا قام من به الكفاية بها سقط عن الآخرين. فهل يجوز أخذ الأجرة عليها؟ المشهور بين الفقهاء حرمة ذلك.

واستدلوا على ذلك بأن الواجب لا يمكن التخلف عنه من قبل المؤمن، فأخذ الأجرة عليه بمثابة أكل المال بالباطل. قال العلامة النجفي نقلاً عن أستاذه (٢): إن المنافاة بين صفة الوجوب والتملك ذاتية، لأن المملوك والمستحق لا يملك ولا يستحق ثانياً. (٣)

ولنا أن نناقش في هذا الدليل، ونقول: إن المال الذي يأخذه الأجير يزيده عزمًا، كما لو نذر المؤمن أن يعمل عملاً هو بالأصل واجب عليه فيزداد بالنذر عزمًا، وكما لو أمر ولي المسلمين فرداً بإقامة الصلاة، فإنه يزيده بذلك عزمًا.

ثم نناقش في أن هذا من نوع الإجارة، بل هو مساعدة لأداء الواجب. ولأن الواجب - في هذا النوع - كفايي فمبادرة شخص بأدائه بحاجة إلى مزيد من عزم، وبالمال يزداد المبادر عزمًا. كما إذا جعلت الدولة الإسلامية مكافأة للمجاهدين، فإن ذلك لا يعتبر شراءً لجهادهم، وإنما تشجيعاً لهم بالمبادرة من بين سائر المؤمنين. ولذلك يجوز، بل قد يجب تجهيز الغزاة من قبل سائر المسلمين. وهكذا لو قدم المسلمون مكافأة لفئة منهم يتفرغون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو للقيام بتجهيز الأموات، أو إدارة أمور المساجد وإقامة صلاة الجماعة فيها وما أشبه.

(١) جواهر الكلام، ج ٨، ص ٦٣.

(٢) يبدو أن المراد منه آية الله الشيخ جعفر كاشف الغطاء.

(٣) المصدر ص ٦٢. يعني الذي يستأجر أحداً على عمل، إنما يستأجره على عمل يملكه.

والعمل الواجب لا يملكه المؤمن، لأنه لله، فكيف يبيعه للناس بالإيجار؟

وبتعبير دقيق؛ المال الذي يعطى للمطوعين بالواجبات الكفائية، إنما هو لكي يتعين فيهم الوجوب ويسقط عن غيرهم بعد قيامهم به. وبذلك نقول: إن أخذ الأجرة على الواجبات التي ترتبط بنظام الأمة، جائز للمبادرة إليها، أما أخذ الأجرة لفعالها فإنها مخالفة للاحتياط، والله العالم.

جيم: تفسير الإجازات

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: وأما تفسير الإجازات؛ فإجارة الإنسان نفسه أو ما يملك أو يلي أمره من قرابته أو دابته أو ثوبه بوجه الحلال من جهة الإجازات، أو يوجر نفسه أو داره أو أرضه أو شيئاً يملكه فيما ينتفع به من وجوه المنافع أو العمل بنفسه وولده ومملوكه وأجيريه، من غير أن يكون وكيلاً للوالي أو والياً للوالي، فلا بأس أن يكون أجيراً يوجر نفسه أو ولده أو قرابته أو ملكه أو وكيله في إجارته، لأنهم وكلاء الأجير ومن عنده، ليس هم بولاة الوالي نظير الحمال الذي يحمل شيئاً بشيء معلوم، فيجعل ذلك الشيء الذي يجوز له حمله بنفسه أو بملكه أو دابته أو يوجر نفسه في عمل يعمل ذلك بنفسه أو بمملوكه أو قرابته أو بأجير من قبله. فهذه وجوه من وجوه الإجازات حلال لمن كان من الناس ملكاً أو سوقة أو كافراً أو مؤمناً، فحلال إجارته، وحلال كسبه من هذه الوجوه.

فأما وجوه الحرام من وجوه الإجارة؛ نظير أن يواجر نفسه على حمل ما يحرم أكله أو شربه، أو يواجر نفسه في صنعة ذلك الشيء أو حفظه، أو يواجر نفسه في هدم المساجد ضراراً، أو قتل النفس بغير حق، أو عمل التصاوير والأصنام والمزامير والبرابط والخمر والخنازير والميتة والدم أو شيء من وجوه الفساد الذي كان محرماً عليه من غير جهة الإجارة فيه، وكل أمر منهي عنه من جهة من الجهات. فمحرّم على الإنسان إجارة نفسه فيه أو له أو شيء منه أو له إلا لمنفعة من استأجرته، كالذي يستأجر له الأجير ليحمل الميتة ينحّيها عن أذاه أو أذى غيره وما أشبه ذلك.

(الى أن قال:) وكل من أجر نفسه أو ما يملك أو يلي أمره من كافر أو مؤمن أو ملك أو سوقة على ما فسّرنا مما يجوز الإجارة فيه، فحلال محلّ فعله وكسبه. (١)

تأملات في الحديث

١ / الإجارة أنواع ثلاثة؛ الأول: أن يؤجر ما يملك من دار أو محل. الثاني: إجارة نفسه (كالعمّال). الثالث: إجارة من يملك أمره مثل ولده أو ذوي قرابته أو من يلي أمره بالوكالة.

٢ / هناك فرق بين الولاية من قبل الظالم والإجارة. إن الولاية تعني استخدام السلطة على الغير من قبل الوالي (السلطان أو الدولة)، بينما الإجارة تعني عقد يقدم الفرد خدمة بازاء أجر معلوم.

ومن هنا تجوز الإجارة لكل الناس، ولا تجوز الولاية من قبل كل أحد، إنما من قبل الحاكم العادل فقط.

٣ / معيار حرمة الإجارة حرمة العمل الذي يقوم به الفرد. فما كان محرماً على الفرد من غير جهة الإجارة (بل من جهة المباشرة) يحرم أيضاً من جهة الإجارة، فكما لا يجوز بيع الخمر والميتة، ولا يجوز هدم المساجد ضرراً وقتل النفس المحترمة، كذلك لا يجوز الإجارة لفعل ذلك. فكل فعل حرام لا يجوز الإجارة له.

أما إذا كان في ذلك الفعل جهة حلال، جازت الإجارة له؛ مثل أن يوجر الإنسان نفسه لاماطة الميتة عن طريق المسلمين.

دال: تفسير الصناعات

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: وأما تفسير الصناعات؛ فكلما يتعلم العباد أو يعلمون غيرهم من أصناف الصناعات؛ مثل الكتابة والحساب والتجارة والصياغة والسراجة والبناء والحياكة والقصارة والخياطة وصنعة

(١) وسائل الشيعة، ج١٣، ص٢٤٢، الباب ١ من أبواب الاجارة، ح١.

صنوف التصاوير مالم يكن مثل الروحاني وأنواع صنوف الآلات التي يحتاج إليها العباد منها منافعهم وبها قوامهم وفيها بلغة جميع حوائجهم، فحلال فعله وتعليمه والعمل به وفيه لنفسه أو لغيره. وإن كانت تلك الصناعة وتلك الآلة قد يستعان بها على وجوه الفساد ووجوه المعاصي وتكون معونة على الحق والباطل، فلا بأس بصناعته وتعليمه، نظير الكتابة التي هي على وجه من وجوه الفساد تقوية ومعونة لولاية الجور، كذلك السكين والسيف والرمح والقوس وغير ذلك من وجوه الآلة التي تصرف إلى جهات الصلاح وجهات الفساد، وتكون آلة ومعونة عليهما، فلا بأس بتعليمه وتعلمه وأخذ الأجر عليه والعمل به وفيه لمن كان له فيه جهات الصلاح من جميع الخلائق، ومحرم عليهم فيه تصريفه إلى جهات الفساد والمضار. فليس على العالم والمتعلم إثم ولا وزر لما فيه من الرجحان في منافع جهات صلاحهم وقوامهم وبقائهم، وإنما الإثم والوزر على المتصرف بها في وجوه الفساد والحرام، وذلك إنما حرم الله الصناعة التي هي حرام كلها التي يجيء منها الفساد محضاً، نظير البرابط والمزامير والشطرنج وكل ملهوبه، والصلبان والأصنام وما أشبه من ذلك من صناعات الأشربة الحرام، وما يكون منه وفيه الفساد محضاً، ولا يكون منه ولا فيه شيء من وجوه الصلاح، فحرام تعليمه وتعلمه والعمل به وأخذ الأجر عليه، وجميع التقلب فيه من جميع وجوه الحركات كلها، إلا أن تكون صناعة قد تتصرف إلى جهات الصنائع، وإن كان قد يتصرف بها ويتناول بها وجه من وجوه المعاصي، فلعل ما فيه من الصلاح حلّ تعلمه وتعليمه والعمل به، ويحرم على من صرفه إلى غير وجه الحق والصلاح. فهذا تفسير بيان وجه إكتساب معائش العباد وتعليمهم في جميع وجوه إكتسابهم (إلى أن قال:) وأما ما يجوز من الملك والخدمة فسنة وجوه؛ ملك الغنيمة، وملك الشراء، وملك الميراث، وملك الهبة، وملك العارية، وملك الأجر. فهذه

وجوه ما يحلّ وما يجوز للانسان إنفاق ماله وإخراجه بجهة الحلال في وجوهه، وما يجوز فيه التصرف والتقلّب من وجوه الفريضة والنافلة. (١)

تأملات في الحديث

أهم ما يستفاد من هذه الفقرة من الحديث الشريف؛ إن الصناعة أمر مرغوب في الشريعة لجهة حاجة العباد، وأنها محللة بصفة عامة، إنما تصبح محرمة إذا كانت متمحضة في الفساد.

ومن هنا فإن الصناعة التي يأتي منها الصلاح والفساد معاً يتغلب جانب الصلاح فيها.

هكذا إستلهم المحقق الطباطبائي في تعليقاته على كتاب المكاسب، وأضاف: بل يظهر من الفقرة الأخيرة، حيث قال "فلعله ما فيه من الصلاح حل" بل التأمل في فقراته (الأخرى يظهر هذا الأمر وهو أنه) يعطي جواز التجارة أو الإجارة أو الصناعة بقصد الجهة المحللة النادرة، حيث إن المستفاد منها الملاك (ومعيار الحرمة) ترتب المفسدة وقصد الصرف في الجهات المحرمة. (٢)

وهو إستلهم صحيح يرفع الغموض في فقرات الحديث الأولى. وهكذا يتغلب الحلال على الحرام في الشريعة، فما فيه حلال وحرام يعتبر حلالاً حتى يعلم الحرام بعينه. وهذا أصل مهم يمكن أن يغير نظرتنا إلى كثير من الأحكام الشرعية في أبواب المعاملات.

ثالثاً: الربا في الشريعة

دور المال في المجتمع

ما هو دور المال في المجتمع؟ هل هو سلبي أم إيجابي؟

(١) وسائل الشريعة، ج ١٢، الباب ٢ من أبواب ما يكتسب به، ص ٥٦-٥٧.

(٢) دراسات في المكاسب المحرمة، ج ١، ص ١٠٨.

بلى؛ إن للمال دوراً سلبياً لا بد أن نتقيه، ودوراً إيجابياً علينا أن نجتهد في إقامته. شأن المال في ذلك شأن سائر نعم الله سبحانه، وإنها لمسؤولية التشريع والاخلاق والمصلحين، تكريس دور المال الإيجابي..

أرأيت السلاح هل دوره إيجابي أم سلبي؟ الجواب: إننا نقدر أن نجعله إيجابياً حين ندافع عن الحق والعدل والحرية، وإن تركناه أصبح وسيلة الظلم والبغي والقمع؛ أليس كذلك؟

والسؤال كيف نصلح دور المال؟ وما هي وصايا الدين الحنيف وتشريعاته؟ قبل أن نجيب نبين بصيرتين:

الأولى: إن إقامة المال في موقعه المناسب هدف عظيم، لا يتحقق بمجرد تشريع قانون أو بيان وصية، بل لا بد من تظافر التعاليم الخلقية والأحكام والتشريعات القانونية، وتوافر إرادة عازمة عند الأمة بعد وعيها بمدى تأثير دور المال إيجاباً وسلباً في مستقبلها.. لعل الأمة تفلح بعدئذ بحياة سعيدة يقوم فيها المال بدوره الإيجابي البناء.

الثانية: إنما مثل المال مثل سائر النعم الإلهية، إذا حققت مثل الدين العليا، اعتبرنا دوره إيجابياً. ومثل الدين هي إخلاص العبودية لله، وتجنب كل أنماط الشرك والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإقامة مجتمع الحق والعدل والحرية.

أما كيف نحقق الدور الإيجابي للمال؟ أهم ما ينبغي أن نفعله من أجل ذلك هو أن نمنع المترفين من أن يستخدموا المال في سبيل نشر الفساد في الأرض، علماً بأن القوة والثروة كانتا تشكلان دوماً أخطر وسائل الشيطان في إشاعة الفواحش، ونشر الشرك، وتكريس الباطل والبغي والإرهاب.

والمترفون هم عضد المستكبرين في الأرض بغير الحق. فهؤلاء يستخدمون الثروة، وأولئك يستعملون القوة، وهم جميعاً يعيثون في الأرض فساداً، وقد بعث الله رسله ليقاوموا مثل هذه الفئات الكافرة بإذنه. وتعاليم الدين الحنيف هي بمثابة شلال عظيم من الهدى والعزم والأمل، يستنفر به الدين كل

الطاقات لمواجهة فساد المترفين وإرهاب المستكبرين، وإنما تاريخ الرسالات تجسيد لهذا الصراع الكبير والدائب. وإذا استعرضنا - فيما يلي - بعض الآيات، فليس لأنها الوحيدة في هذا الحقل، بل لأن طبيعة البحث لا تستوعب أكثر من ذلك. ولعلنا نعود إلى بيان المزيد في مناسبة أخرى.

وبكلمة؛ الدين الحنيف هو توحيد الله، والشيطان يريد أن يشرك الناس بالله، والمال أحد أهم وسائله. ولمقاومة الشرك، علينا مقاومة دور المال في إشاعته.

لمواجهة الفساد المالي

لكي نواجه الدور السلبي والمفسد للثروة، لا بد أن نتخلص من تأثيرها على النفس وعلى المجتمع. كيف يتم ذلك؟

نستعرض فيما يلي بعض ما استلهمناه من آيات الذكر في منهج مواجهة الفساد المالي، إبتداءً من مخالفة هوى النفس في حب المال، وإنتهاءً بمحاربة المترفين والمفسدين في الأرض ومقاومة نفوذهم، وإستمراراً مع منع تراكم الثروة وتداولها بين أياد معدودات.

١/ لا بأس أن تحب المال، لأنه زينة الحياة الدنيا، ولكن مع الإيمان بأن ما عند الله خير وأبقى. تدبر في قول الله سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف/٤٦) واستمع الى كلام ربك تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبِئَةِ﴾ (آل عمران/١٤)

٢/ إملك المال ولكن لا تدعه يملكك، وذلك بأن لا تدعه يلهيك عن ذكر الله سبحانه. ألم ينهك ربك عن ذلك حين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون/٩)

٣/ ولكن كيف تتخلص عن الانشغال بالمال؟ يقول لك ربك: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون/١٠)

٤/ واعلم بأن الإغترار بالمال والانشغال به من صفة المنافقين، الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً﴾ (الفتح/١١)

٥/ إياك أن تتجذب إلى أصحاب الثروة وترى فيهم قدوتك، فإن في ذلك بداية الإنزلاق الى عبودية المال، بل وعبودية أصحابه. وفي قصة قارون لنا عبرة كافية؛ فحين خرج على قومه في زينته إستهوى النفوس الضعيفة، فتمنوا أن يؤتوا مثله. وكانت عاقبة قارون الخسف، وعقبى المعجبين به الندم. قال الله سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص/٧٩-٨١)

والنتيجة التي نستفيدها من العبرة؛ إن علينا أن نتطلع الى الدار الآخرة، ومعيارها ليس المال، بل التقوى من العلو والفساد. قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص/٨٣)

وفي القرآن أكثر من عبرة من قصص المترفين، وعلينا أن نستوحي منها الحذر من الغرور بالثروة وأصحابها.

٦/ وقد يبلغ حب المال درجة الشرك، كما نراه في قصة صاحب الجنتين، الذي نجده إغتر بهما الى درجة نسيان الله، ولم ينفعه تحذير صاحبه الذي قال:

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنٍ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (الكهف/٣٩)

ولكنه أصرَّ على كفره، فكانت عاقبته الندم؛ حيث قصَّ علينا القرآن عبرته، فقال سبحانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (الكهف/٤٢)

وإنما كان شركه - حسب الظاهر - إغتراره بالثروة من دون الله سبحانه، وإنه لم يقل ما أمره صاحبه ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وهكذا من إغتر بالمال، واعتمد عليه من دون الله، فكأنه أشرك بالله سبحانه.

٧/ ومع الزمن، إذا ازداد عدد الذين استعبدتهم الثروة شكّلوا طبقة المترفين، الذين يتداولون الثروة فيما بينهم، ويفسقون في الأرض، كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الاسراء/١٦)

وهكذا كان المترفون طبقة يفسقون في الأرض، فإذا هم سادوا المجتمع حق عليه القول فدمره الله تدميراً.

ومن هنا كان من حكمة الصدقات تقسيم الثروة بين الناس، لكي لا يكون المال دولة بين الأغنياء. قال الله سبحانه: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر/٧)

٨/ ومن سيئات هذه الطبقة؛ نشر الترف، والذي يحذر منه ربنا في كتابه: ﴿إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الاسراء/٢٧)

٩/ ومن سيئاتهم؛ السخرية بالفقراء والمحرومين، حيث يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة/٧٩)
والسخرية هذه تعني التعالي عليهم، وحرمانهم حقوقهم، والبغي عليهم.
١٠/ ومن سيئاتهم؛ مقاومة المصلحين والأنبياء، ومخالفة أحكام الدين.

ومن هنا حذر النبي

صالح عليه السلام قومه من إطاعة المسرفين، كما جاء في قول ربنا سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء/١٥٠-١٥٢)

١١/ ومن سيئاتهم؛ إنهم كسالى، فاسدوا الرأي، كما أنبأنا الكتاب الكريم عند ذكر المرابين، فقال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة/٢٧٥)

من أجل الإصلاح المالي

الحكمة من المال، قيام الناس به (حيث إنه يحفظ الحقوق، ويؤمن تبادل المصالح، ويسهل كسب المعاش، وينشط الناس). ولهذا فلا بد من إصلاح المال، وحفظه من الإنحراف، فكيف يتم ذلك؟

١/ أولاً بجعل المال في أيدٍ رشيدة. أما السفهاء فلا يؤتون حتى أموالهم، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء/٥)

٢/ كذلك اليتامى لا يؤتون أموالهم إلا بعد الإختبار، وإستيناس الرشد منهم بعد أن يبلغوا أشدهم، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ عَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا

وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ
فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء/ ٦)
٣/ النهي عن الإسراف، حيث قال الله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ
عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾
(الاعراف/ ٣١)

وقد يتحول النهي عن السرف الى سياسة اقتصادية للأمة، حيث يمنع عنها
الإسراف في الكماليات على حساب الأمور الأساسية.

٤/ حفظ الأموال من استخدامها فيما يفسد المجتمع سياسياً أو خلقياً أو
اقتصادياً، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الاعراف/ ٥٦)
وفي هذا الحقل تفصيل لا بد من بيانه في محله المناسب.

٥/ توزيع الثروة بإيتاء حقوقها الاجتماعية؛ مثل النفقات الواجبة على كل
فرد لزوجته وذريته وأبويه ومن أشبهه.

٦/ توزيع الثروة بالحقوق الاجتماعية التي تقتضيها الحالة الإنسانية، حيث
يقول ربنا سبحانه: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات/ ١٩)

٧/ توزيع الثروة بدفع الزكاة والحقوق المالية الشرعية، حيث يقول ربنا
سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ
صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة/ ١٠٣)

ومنها حق الخمس، والنذور، والكفارات، والهدي في الحج، وواجب الجهاد
المالي إذا اقتضت الظروف المزيد من الإنفاق.

٨/ توزيع الفيء على الطبقات المحرومة، وكذلك الغنائم، وما تمتلكه الدولة
من الأنفال وغيرها.

٩/ نشر الثروة بالإرث والوصايا والديات وسائر الأحكام الشرعية.
وهكذا يحافظ التشريع الإسلامي على دور المال الإيجابي، ويمنعه من
الإنحراف مع شح النفس وحب التعالي. هذا الى جانب التربية الدينية التي

تزرع في النفوس حب الإحسان والعطاء، وتكره إليها البخل والاستيثار، والله المستعان.

الربا في القرآن

١/ قال الله سبحانه: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُؤَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم/٣٩)

نستفيد من الآية البصائر التالية:

أ- الربا من مصاديق الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، والذي نهت عنه آية كريمة، حيث يقول الله سبحانه: ﴿لِيَرْبُؤَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ . فالنمو هنا ليس في مالك، وإنما في أموال الناس. وهذه – فيما يبدو- هي علة حرمة الربا، لا فرق بين قليله وكثيره، لأن الظلم حرام حتى في أقل شيء.

ب- لأن الربا أكل أموال، فإنه ليس من تنمية المال، إذ إنه يشبه سرقة مال الغير. فهل إذا تبادل الناس سرقة أموال بعضهم، تنمو تلك الأموال؟ كلا؛ قال الله سبحانه ﴿فَلَا يَرْبُؤَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. ولعل معناه إنه ليس من التنمية الحقيقية.

ج- من أجل معرفة حقيقة الربا، لا بد من معرفة نقيضه الزكاة؛ حيث إن الزكاة هي إنفاق الغني على الفقير، والربا استثمار الغني للفقير. والمجتمع الذي ينفق غنيه على فقيره يسير في طريق النمو، إذ ينشط الاقتصاد فيه. أليس الفقير ينفق – بدوره - المال أو يستثمره؟ فإذا أنفقه فعل التجارة واستفاد الغني منه، وإذا استثماره نشط الاقتصاد واستفاد الجميع منه.

٢/ قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة/٢٧٥-٢٨٠﴾

يمكننا أن نستوحي من الآيات الآنفه الذكر، الحقائق التالية:

أ- إن سياق هذه الآيات يدل على التقابل بين الإنفاق والربا، حيث ينتقل السياق مباشرة من الإنفاق الى الحديث عن الربا. وهذا الأمر يؤكد ما استفدناه من الآية السابقة. وأيضاً يعطينا التدبر في هذا التقابل المزيد من وعي حقيقة الربا، فكأن كل معطيات الإنفاق معاكسة في الربا.

ب- الربا قد يساهم في تشكل طبقة المترفين الذين يختلقون ثقافة الإستثمار، ويقولون إنما البيع مثل الربا. وهكذا يضعون أنفسهم في موقع التشريع، وإنما الله سبحانه هو الذي يشرع للبشرية، وهو قد أحلّ البيع وحرّم الربا. وكذلك يجعل الربا المترفين في مواجهة أحكام الدين؛ ولعل هذا هو حكمة الحرب التي أعلنها الله على الذين لا ينتهون من الربا. والذي لا يفرق بين البيع الذي هو تبادل المنفعة وبين الربا الذي هو استثمار الفقير، إنه يفقد المعايير العقلية، ويكون كالذي يتخبطه الشيطان من المس.

ج- يفتح الله باب التوبة أمام المرابين، لكي ينتهوا بعد الموعظة، ويجعل لهم ما سلف من أموالهم ويشمل ذلك الذين يتوبون من الربا بعد أن كوّنوا ثرواتهم منه.

د- إن قبول توبة المرابين مشروط بعدم العودة إلى الربا، فإن عادوا فإنهم يعذبون عذاباً شديداً، إذ يخلدون في نار جهنم. وهذا عذاب عظيم يستحقه المعاندون، حيث لا أمل لهم بالنجاة من النار، نستجير بالله منها.

هـ- الربا لا ينمي ثروة البلاد، لأن الله يحقه. ألا ترى البلاد النامية التي خدعت بالافتراض من البنوك الدولية كيف إنهار إقتصادها وأصبحت تصرف المزيد من ثرواتها لتسديد فوائد الديون (الربا)، ولا أمل لها بتسديد الديون ذاتها؟

و- وبعكس الربا تماماً، فإن الصدقات ينميها الله تبارك وتعالى ويربيها؛ أو ليست تنشط الدورة الاقتصادية، وتزيد التبادل التجاري؟

ز- لأن أثر الربا التخريبي للنفس والمال كبير، ولأن حب المال عند الإنسان شديد، فإننا بحاجة إلى المزيد من الجهاد ضده. وكذلك نقرأ في كتاب ربنا أمراً صريحاً بترك ما بقي من الربا، وتحذيراً شديداً عن عدم الإنصياح لهذا الأمر يرتقي الى درجة إعلام الحرب من الله والرسول.

ونستفيد من الآية ضرورة إعلان القيادة الرسالية الحرب ضد المرابين.

ح- أما إذا تاب المرابي فله أن يطالب برأس ماله دون فوائده، لكي لا يظلم هو الآخر. وقد نستفيد من الآية؛ إن العملة إذا فقدت قيمتها فلا يحسب جبرانها من الربا، لأن الله سبحانه يقول: ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْمُونَ ﴾ .

ط- عند إعمار المدين لا يمكن مطالبته، بل يجب إمهاله لحين الميسرة. وينبغي عند هذه الحالة التصدق له بالمال، فإنه حين يتخلص من همّ الدين، ينطلق وينشط ويكون عمله مفيداً للبلاد.

٣/ قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران/١٣٠-١٣١)

نستفيد من السياق البصائر التالية:

أ- أكل الربا هو النقطة المقابلة تماماً للانفاق في سبيل الله، فبينما نهت الآيتان ١٣٠-١٣١ من سورة آل عمران عن الربا، أمرت في الآية ١٣٤ من ذات السورة بالانفاق في سبيل الله. وفي سورة البقرة نجد التقابل بين الربا والصدقات في آية واحدة حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي

الصَّدَقَاتِ﴾. (البقرة/٢٧٦) وإذا كانت هناك حاجة إجتماعية الى مال الغير، فلتنقض هذه الحاجة بالإنفاق لا بالربا. فالإنفاق يربي المال، والربا يمحقه.
ب- ينذر القرآن آكلي الربا بالنار (الآية ١٣١ من سورة آل عمران) مما يدل على أن تعاطي الربا من الكبائر.
ج- جاء النهي عن الربا في ذات الآية بوجه مطلق، مما يدل على أن حرمة كل ألوانه.
د- بين القرآن أن من طبيعة الربا تضاعف ثروة الأغنياء في مقابل زيادة فقر الفقراء.

الربا في الحديث

كما في بصائر الوحي، كذلك في حكمة السنة الشريفة نجد حرباً جديّة ضد تعاطي الربا، وفيما يلي نقرأ معاً طائفة من أحاديث السنة الشريفة.
١/ قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: درهم ربا أشد من سبعين زنية كلّها بذات محرم. (١)

٢/ قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: أخبث المكاسب، كسب الربا. (٢)
٣/ وتبين السنة الشريفة السبب في تحريم الربا، حيث روي عن سماعة قال: قلت لأبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام: إني قد رأيت الله تعالى قد ذكر الربا في غير آية وكرّره. قال: أوتدري لم ذاك؟ قلت: لا. قال: لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف. (٣)
بلى؛ يسد الإسلام باب الشر، ليرغب الناس في أبواب الخير. فالحاجة الى مال الغير إذا سدت بالربا، وإلا فإن أرباب الحاجة سوف يلجون حتى يجدوا من يرفع حاجتهم من الكرماء، وهكذا يتحرك الفقراء باتجاه القيم المثلى، وتتكسر هذه القيم في المجتمع.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٢٣، أبواب الربا، الباب ١، ح ١.

(٢) المصدر، ح ٢.

(٣) المصدر، ح ٣.

٤/ عن هشام بن الحكم أنه سأل أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام عن علّة تحريم الربا. فقال: إنه لو كان الربا حلالاً، لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه. فحرّم الله الربا لتنفر الناس من الحرام الى الحلال، وإلى التجارات من البيع والشراء، فيبقى ذلك بينهم في القرض. (١) وهكذا يسد الدين باب الربا، لكي يتحرك أصحاب المال باتجاه التجارة.

٥/ عن محمد بن سنان إن (الإمام) علي بن موسى الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسأله: وعلة تحريم الربا لما نهى الله عز وجل عنه، ولما فيه من فساد الأموال، لأن الإنسان إذا اشتري الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمان الآخر باطلاً. فبيع الربا وشراؤه وكس على كلّ حال؛ على المشتري وعلى البائع. فحرّم الله عز وجل على العباد الربا لعلّة فساد الأموال، كما حظر على السفية أن يدفع إليه ماله لما يتخوف عليه من فساده حتى يونس منه رشد. فلهذه العلة حرّم الله عز وجل الربا، وبيع الدرهم بالدرهمين. وعلة تحريم الربا بعد البينة لما فيه من الإستخفاف بالحرام المحرّم، وهي كبيرة بعد البيان وتحريم الله عز وجل لها لم يكن إلاّ إستخفافاً منه بالمحرم الحرام، والإستخفاف بذلك دخول في الكفر. وعلة تحريم الربا بالنسبة لعلّة زهاب المعروف، وتلف الأموال، ورغبة الناس في الربح، وتركهم القرض، والقرض صنائع المعروف، ولما في ذلك من الفساد والظلم وفناء الأموال. (٢)

٦/ عن ابن بكير قال: بلغ أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام عن رجل أنه كان يأكل الربا ويسمّيه اللبا. فقال: لئن أمكنني الله منه لأضربن عنقه. (٣)

واستفاد الفقهاء جواز قتل مستحل الربا، لأنه خالف ضرورياً من الدين.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٢٤، ح ٨.

(٢) المصدر، ص ٤٢٥، ح ١١.

(٣) المصدر، ص ٤٢٩، الباب ٢، ح ١.

٧/ وبما أن الدين قد حرّم الربا، فقد حرّم أيضاً من يعين عليه، حيث جاء في الحديث عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين (الإمام علي) عليه السلام: أكل الربا وموكله وكاتبه وشاهداه فيه سواء. (١)

تفصيل أحكام الربا

فيما يلي نستعرض إن شاء الله تفصيل أحكام الربا في ثلاثة أقسام، حيث نبحت أولاً عن الربا في الدين وهو أصل حرمة الربا، ويلحق به بيع الصرف نسيئة. ونبحت ثانياً في الربا في المعاوضة إذا كانت من جنس واحد. ثم نبحت ثالثاً في الربا في البنوك وفي الديون الدولية.

أولاً: ربا الدين

قال المحقق الحلي في الشرائع: وفي القرض أجر، ينشأ عن معونة المحتاج تطوعاً والاقتصار على ردّ العوض. فلو شرط النفع حرم، ولم يفد الملك. نعم لو تبرع المقترض بزيادة العين أو الصفة جاز، ولو شرط الصحاح عوض المكسرة، قيل يجوز، والوجه المنع. (٢)

لقد أشار المحقق هنا إلى نقاط هامة نبحت عنها تباعاً:

١/ إن القرض أساساً من الإحسان ومن صنائع المعروف، ولا بد من ترغيب الأمة فيه، وجعله من مسؤوليات الناس تجاه بعضهم مما يفيد التكامل والتعاون. ولو فتح باب الربا لسدّ أبواب القرض، وضاعت فوائده الاجتماعية والدينية.

(١) المصدر، ص ٤٣٠، الباب ٤، ح ١.

(٢) جواهر الكلام، ج ٩، ص ٦-١١.

٢/ لكي يصبح القرض من صنائع المعروف، فلا بد من الاقتصار فيه على ردّ العوض دون إضافة، كما قال ربنا سبحانه عن عباده المقربين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان/٩)

٣/ إنه لو شرط النفع حرم، وهذا هو الربا الذي حرّمه الدين وشدّد عليه وعلى حرّمته إجماع الديانات الإلهية. نقرأ في كتاب ربنا في بيان صفات اليهود الذميمة، أنهم كانوا يأكلون الربا. قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَانُوا حَرَّمَنا عَلَيْهِم طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء/١٦٠-١٦١)

ولا فرق في شرط النفع بين قليله وكثيره، كما جاء في الحديث المروي عن علي بن جعفر، عن أخيه (الإمام الكاظم) موسى بن جعفر عليهما السلام، قال: وسألته عن رجل أعطى رجلاً مائة درهم على أن يعطيه خمسة دراهم أو أقل أو أكثر. قال: هذا الربا المحض. (١)

والذي يفسد القرض إشتراط النفع، أما من دون الشرط فلا بأس بإسداء المقترض نفعاً الى المقرض، حيث جاء في الحديث عن خالد بن الحجاج قال: سألته عن الرجل كانت لي عليه مائة درهم عدداً قضانيها مائة وزناً. قال: لا بأس مالم يشترط. قال: وقال: جاء الربا من قبل الشروط، إنما يفسده الشروط. (٢)

٤/ عند إشتراط النفع يفسد العقد، ولم يفد ملكاً، حيث يبقى المال في ملك صاحبه. وقد اختلف الفقهاء في هذا الفرع، حيث رأى جمع منهم أن الحرمة تقتضي فساد العقد. وقال بعضهم: إن إشتراط النفع يفسد العقد لقوله عليه السلام: إنما يفسده الشروط. والظاهر عودة الضمير الى عقد القرض، وإلا فالربا فاسد من أصله..

(١) الوسائل، ج١٣، ص١٠٨، الباب ١٩ من أبواب الدين والقرض، ح١٨.

(٢) الوسائل، ج١٢، ص٤٧٦، الباب ١٢ من أبواب الصرف، ح١.

وقال البعض: إن الشرط إن لم يك ركناً في العقد (أي أساسياً عند الطرفين، بحيث لولاه لما تعاقدا)، لم يفسده. فاشتراط الزيادة قد لا يكون كذلك، فلا يفسد العقد. وقد يستدل عليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَبُتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، (البقرة/٢٧٩) حيث إن الآية مشعرة بصحة العقود الربوية فيما سوى مقدار الربا.

وهذا الرأي يبدو أقرب إلى الصواب. ومن هنا توقف المحدث البحراني في بطلان العقد الربوي (فيما سوى مقدار الربا)، حيث حكي عنه قوله: إنه ليس في شيء من نصوصنا ما يدل على فساد العقد بذلك، بل أقصاها النهي عن اشتراط الزيادة. (١)

٥/ إن ما يفسد العقد اشتراط الزيادة، أما إذا تبرع المقترض بزيادة، فذلك الفضل من عنده. وقد جاء في حديث عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي إبراهيم (الإمام موسى الكاظم) عليه السلام: الرجل يكون له عند الرجل المال قرضاً، فيطول مكثه عند الرجل لا يدخل على صاحبه منفعة، فينبهه الرجل الشيء بعد الشيء كراهية أن يأخذ ماله، حيث لا يصيب منه منفعة، أيحل ذلك؟ قال: لا بأس إذا لم يكن يشترط. (٢)

وعلى هذا يحمل الحديث التالي عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام عن الرجل يستقرض من الرجل قرضاً ويعطيه الرهن إما خادماً وإما أنية وإما ثياباً، فيحتاج إلى شيء من منفعته، فيستأن فيه، فيأذن له. قال: إذا طابت نفسه فلا بأس. قلت: إن من عندنا يروون أن كل قرض يجزّ منفعة فهو فاسد؟ فقال: أو ليس خير القرض ما جرّ منفعة. (٣)

(١) جواهر الكلام، ج ٩، ص ٩.

(٢) الوسائل، ج ١٣، ص ١٠٦، الباب ١٦ من أبواب الدين والقرض، ح ١٣. وقد سبق مثله.

(٣) المصدر، ص ١٠٤، ح ٤.

فالقرض الذي يجز نفعاً، هو الذي يكون العطاء من قبل المقترض بلا شرط، بل بطيبة نفسه. أو ليس القرض هو من صنائع المعروف، أو ليس تبادل المنفعة يشد أو اصر المجتمع ببعضها؟

فقد روي عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام، أنه قال: خير القرض ما جرّ منفعة. (١)

ويبدو أن الباعث الذي لم يبلغ درجة الإشتراط، لا يدخل في إطار الربا؛ مثلاً إذا كان شخص يرد الدين مع الفضل، وكان الناس يفضلون إقراضه طمعاً في الفضل، ولكن لو لم يتفضل عليهم فلا يحق لهم مطالبته، فذلك جائز. لأن الباعث لا يدخل في أركان العقد أنى كان نوعه، وفي أي عقد، كما تقدم الحديث عن ذلك فيما مضى.

وعلى هذا نحمل الحديث التالي عن أبي بصير، عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام قال: قلت له: الرجل يأتيه النبط بأحمالهم فيبيعه لهم بالأجر، فيقولون له: أقرضنا دنائير فإننا نجد من يبيع لنا غيرك، ولكننا نخصك بأحمالنا من أجل أنك تقرضنا. فقال: لا بأس به، إنما يأخذ دنائير مثل دنائيره، وليس بثوب إن لبسه كسر ثمنه، ولا دابة إن ركبها كسرها، وإنما هو معروف يصنعه إليهم. (٢)

ولكن مع ذلك، يستفاد من بعض الأدلة كراهة التعامل مع الدين بهذه الصورة، فراراً من شبهة الربا كما جاء في الأحاديث التالية:

عن إسحاق بن عمار، عن العبد الصالح (الإمام موسى الكاظم) عليه السلام قال: سألته عن رجل يرهن العبد أو الثوب أو الحلي أو المتاع من متاع البيت، فيقول صاحب الرهن للمرتهن: أنت في حلّ من لبس هذا الثوب فالبس

(١) الوسائل، ج ١٣، ص ١٠٥، الباب ١٩ عن أبواب الدين والقرض، ح ٦.

(٢) المصدر، ص ١٠٥-١٠٦، ح ١.

الثوب وانتفع بالمتاع واستخدم الخادم. قال: هو له حلال إذا أحلّه وما أحبّ له أن يفعل. (١)

وعن يعقوب بن شعيب، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: سألته عن الرجل يسلم في بيع أو تمر عشرين ديناراً ويقرض صاحب السلم عشرة دنانير أو عشرين ديناراً. قال: لا يصلح. إذا كان قرضاً يجرّ شيئاً، فلا يصلح. قال: وسألته عن رجل يأتي خريفه وخليطه فيستقرض منه الدنانير فيقرضه، ولو لا أن يخالطه ويحارفه ويصيب عليه لم يقرضه. فقال: إن كان معروفاً بينهما فلا بأس، وإن كان إنّما يقرضه من أجل أنّه يصيب عليه، فلا يصلح. (٢)

ونستفيد من هذا الحديث الفرق الدقيق بين المنفعة المحرمة، والمنفعة الحلال. فالمحرمة هي حسب تعبير العلامة النجفي: إشتراط المنفعة صريحاً، أو إضماراً قد بني العقد عليه من غير فرق بين كون المنفعة عيناً أو وصفاً. (٣)

وقد يقال بأن معيار المكروه من المنفعة هو الباعث الذي يحول علاقة المؤمنین ببعضهم الى علاقة مادية بحتة، أما إذا كان الباعث هو التعاون وما يزيد التلاحم الاجتماعي فلا كراهة في المنفعة، لأن الهدف أساساً من القرض إشاعة المعروف بين الناس. وعلى هذا نحمل الأحاديث التي تقول إن خير القرض ما جرّ نفعاً. وكذلك الحديث التالي عن هذيل بن حيان أخي جعفر بن حيان الصيرفي قال: قلت لأبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام: إنّي دفعت الى أخي جعفر مالاً، فهو يعطيني ما أنفق وأحجّ منه وأتصدّق، وقد سألت من قبلنا فذكروا أن ذلك فاسد لا يحلّ، وأنا أحبّ أن أنتهي إلى قولك. فقال لي: أكان يصلحك قبل أن تدفع إليه مالك؟ قلت: نعم. قال: خذ منه ما

(١) المصدر، ص ١٠٧، ح ١٥.

(٢) الوسائل، ج ١٣، ص ١٠٥، ح ٩.

(٣) جواهر الكلام، ج ٩، ص ١١.

يعطيك، فكل منه واشرب وحجّ وتصدّق، فإذا قدمت العراق فقل جعفر بن محمد أفتاني بهذا. (١)

بلى؛ علينا أن نرد الفروع الى الأصول، والمصاديق الى القواعد الكلية. والأصل هنا النية الصالحة أو الفاسدة، وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرء ما نوى، والله العالم.

٦- أما لو شرط شرطاً يجر نفعاً الى المقرض؛ مثل أن يشترط الدراهم الصحاح عوض المكسرة التي يقرضها، فقد قيل يجوز، ولكن الوجه عند المحقق الحلي رحمه الله المنع.

وفي الأمر معيار وتفصيل؛ أما المعيار فهو صدق الربا عرفاً، فإذا إعتبر الناس العقد ربوياً، فإنه محرم، سواءً كانت الفائدة عيناً أو منفعةً أو شرطاً ينتهي الى النفع أو ما أشبهه. أما إذا لم يعتبر العرف العقد ربوياً أو شك الناس في كونه ربوياً، فالعقد صحيح؛ وتفصيل القول فيما يلي:

أ- الزيادة الحُكمية التي ترجع بالتالي إلى منفعة الدائن بصورة أو بأخرى، غير جائزة، لأنها منفعة، ولأن الناس يعتبرون هذا القرض ربوياً.

ولكن المقدس الأردبيلي مال إلى جواز الزيادة الحُكمية، واستدل على ذلك بأصالة الجواز، حيث لم يثبت إجماع على عدم الجواز، ولم يثبت أنه ربا. وأما الأخبار الآتية المشعرة بالحرمة فإنما تدل بمفهومها على وجود البأس، والبأس لا يدل - بالضرورة - على الحرمة، بل قد يعني الكراهة.

ولكن العلامة النجفي أكد على حرمة الزيادة الحُكمية، واستدل على ذلك بمفهوم جملة من الأحاديث التي مرّ ذكرها، وبصريح صحيحة محمد بن قيس عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام، أنه قال: من أقرض رجلاً ورقاً فلا يشترط إلا مثلها، فإن جوزي أجود منها فليقبل، ولا يأخذ أحد منكم ركوب دابة أو عارية متاع يشترط من أجل قرض ورقه. (٢)

(١) المصدر، ص ١٠٣، ح ٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ١٠٦، الباب ١٩ من أبواب الدين والقرض، ح ١١.

وهذه الرواية بالغة الصراحة في حرمة الزيادة الحُكمية.
ب- ومن الزيادة المحرمة، إشتراط ما يرجع الى منفعة؛ مثل أن يشترط بيع شيء له بيعاً محاباتياً؛ أي بأقل من ثمن المثل، كأن يقرضه عشرة آلاف دولار الى أجل، على أن يبيعه سيارته بأقل من قيمتها العرفية.
وقد ذهب البعض الى جواز مثل ذلك فراراً من الربا الحرام الى البيع الحلال، واستدل بالحديث التالي عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: سئل عن رجل له مال على رجل من قبل عينة عينها إياه، فلما حلّ عليه المال لم يكن عنده ما يعطيه، فأراد أن يقلب عليه ويبرح، أيبيعه لؤلؤاً أو غير ذلك ما يسوي مائة درهم بألف درهم ويؤخر؟ قال: لا بأس بذلك، قد فعل ذلك أبي رضي الله عنه، وأمرني أن أفعل ذلك في شيء كان عليه.
(١)

وعن عبد الملك بن عتبة قال: سألته عن الرجل يريد أن أعينه المال أو يكون لي عليه مال قبل ذلك فيطلب مني مالاً أزيد على مالي الذي لي عليه، أيستقيم أن أزيد مالاً وأبيعه لؤلؤة تسوي مائة درهم بألف درهم، فأقول: أبيعك هذه اللؤلؤة بألف درهم على أن أوخرك بثمنها وبمالي عليك كذا وكذا شهراً؟
قال: لا بأس. (٢)

ولكن هذين الحديثين وغيرهما موضوعهما تأخير الدين وبعقد ثان، والجواز فيه لا يدل على جواز الإشتراط بالبيع المحاباتي.
ج- وقد يكون من الزيادة الحُكمية اشتراط تسليم المبلغ بأرض أخرى، إذا كانت هناك منفعة مالية لذلك. أما إذا لم يكن، فلا بأس به، وعليه يحمل الحديث التالي، المروي عن يعقوب بن شعيب، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: قلت: يسلف الرجل الورق على أن ينقدها إياه بأرض أخرى، ويشترط عليه ذلك. قال: لا بأس. (٣)

(١) الوسائل، ج ١٢، ص ٣٧٩-٣٨٠، أبواب أحكام العقود، الباب ٩، ح ٣.

(٢) المصدر، ص ٣٨٠، ح ٥.

(٣) الوسائل، ج ١٢، ص ٤٨٠، الباب ١٤ من أبواب الصرف، ح ١.

ومثله غيره؛ ونحمل مثل هذا الحديث على عدم وجود منفعة مالية معتدة في الأمر، وإن كان من مصلحة صاحب الدين ذلك. إذ الحرام العقد الربوي، والربا لا يصدق على مثل هذه المنفعة.

د- وليس من الزيادة مطالبة الدائن رهناً على الدين، إذا لم يكن وجود الرهن عنده، بحيث يستفيد منه ويعد منفعة معتد بها ويعد رباً عند العرف. بلى؛ لو أخذ رهناً وصادف أن إستفاد منه؛ مثلاً أخذ سيارة رهناً على دينه، ثم إتفق أن إحتاج إليها فركبها، لا بأس بذلك كما جاء في الحديث الشريف عن إسحاق بن عمار، عن العبد الصالح (الإمام موسى الكاظم) عليه السلام قال: سألته عن رجل يرهن العبد أو الثوب أو الحلّي أو المتاع من متاع البيت، فيقول صاحب الرهن للمرتهن: أنت في حلّ من لبس هذا الثوب، فألبس وانتفع بالمتاع واستخدم الخادم. قال: هو له حلال إذا أحلّه وما أحبّ له أن يفعل. (١) ه- أما إذا اشترط الدائن على المقرض أن يعطيه رهناً على دين آخر لقاء اقراضه، فقد يعتبر نوعاً من المنفعة الحرام، لأنه ربا. ولكن البعض اعتبر ذلك جائزاً، لأن الحرام هو الربا الذي هو زيادة في مال القرض، واشترط الرهن على دين آخر يعتبر شرطاً خارجاً عن مال القرض. وهكذا جاء في القواعد وجامع المقاصد إن الأقرب جواز اشتراط ذلك (الرهن) على دين آخر محتجاً عليه في الأخير (جامع المقاصد) بأن ذلك ليس زيادة في مال القرض وإنما هو شرط خارج عنه. (٢)

وناقش العلامة النجفي في ذلك، بأن المستفاد من الحديث النبوي وهو: كل قرض جرّ نفعاً فهو حرام. (٣) المنع عن كل نفع للمقرض.

(١) المصدر، ج١٣، ص١٠٧، الباب ١٩ من أبواب الدين، ح١٥.

(٢) جواهر الكلام، ج٩، ص١٢.

(٣) نقل عن سنن البيهقي، ج٥، ص٣٥٣، وقد ناقش البعض في أن تكون هذه الحكمة حديثاً عن النبي أنظر (الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي، ج٥، ص٣٧٤٦).

ولنا أن نقول: إن إنشاء عقد القرض حق من حقوق الدائن، وله أن يستفيد من هذا العقد بما يشاء؛ مثل أن يشترط أداء دينه السابق، أو إيداع رهن يستوثق منه أداءه حتى يقدم على عقد القرض. وهذا لا يسمى رباً عند العرف. ولكن مع ذلك يبقى المعيار الأساسي عندنا حكم العرف بأنه زيادة في الدين وفائدة في القرض، أم أنه شرط مسبق لاجراء عقد الدين. فما اعتبره العرف رباً وزيادة في المال حرم، ومالم يعتبره جاز.

و- وإذا وقع الدين شرطاً في عقد آخر مما جعل نتيجة ذلك العقد زيادة في الدين، فهل يجوز؟ ومثله ما يجري الآن في بعض البلاد من إيجار الدار لقاء ثمن معين شريطة أن يقرض المستأجر صاحبها مبلغاً من المال. والهدف الحقيقي من هذه المعاملة إستفادة الدائن من المال الذي يستلم في مقابل إنتفاع المستأجر من الدار، والوجه الآخر للعقد إعطاء دين لشخص في مقابل الإجازة له بالاستفادة من الدار التي وضعت عنده كرهينة.

والبعض يرى المعاملة ربوية، إذ إنها تتشابه مع الاقراض شريطة البيع بأقل من ثمن المثل.

وبالرغم من إن هذه المعاملة لا تخلو من شبهة الربا، إلا أن هدف المعاملة إذا كان الايجار وليس القرض، فإن الجواز أقرب لأنه إنما يحلل الكلام ويحرم الكلام؛ أي الحرمة والحلية ترجع إلى طبيعة العقد. فالعقد هنا عقد إيجار وهو صحيح حتى ولو كان بأقل من ثمن المثل. أما الدين فإنه شرط في عقد الإيجار، وهو صحيح أيضاً، ولا زيادة في مقدار ما يرجعه من المال، والله العالم.

ز- وإذا أقرضه مبلغاً وشرط عليه أن يبيعه بضاعة بثمن المثل، فلا يبدو أي إشكال فيه، لأنه لا يرى العرف زيادة في مال القرض، اللهم إلا أن نعتبر بمجرد تخصيص هذا الشخص بالبيع دون غيره، نوعاً من النفع الذي يجره القرض. ولكن مادام العرف لا يعتبر ذلك من الربا، لا يحرم الربا في بيع الصرف

يرى أكثر فقهاءنا حرمة بيع الصرف (النقدين) نسيئة، ووجوب التقابض فيهما فوراً. وقد وردت أحاديث كثيرة تنهى عن بيع الفضة بالذهب من دون التقابض بالمجلس. بينما وردت أحاديث أخرى تجيز بيعهما نسيئةً (بالدين) مما حدى بالبعض إلى العمل بهذه الأحاديث وحمل تلك على الكراهة. فهنا يبدو سؤالان:

الأول: لماذا التقابض شرط الصحة في بيع الصرف أو هو محبذ لا أقل؟

الثاني: كيف نتعامل مع أحاديث هذا الحقل المختلفة؟

١/ حكمة الحكم

تصور أن أحداً يريد أن يفترض بربا، فيشتري منه عشرة دنانير ذهب بمائة وخمسة دراهم نسيئة (المفروض إن كل دينار عشرة دراهم). وهكذا بعد شهر يرد عليه مائة درهم التي تقابل عشرة دنانير، ويضيف إليه خمسة دراهم زيادة عليه، وهي الفائدة والربا.

فلكي نسد باب الربا نشترط التقابض في المجلس في بيع الصرف، حتى لا يتحايل المرابون على الشرع.

وهكذا يظن إن حكمة حرمة بيع الصرف نسيئةً هي سد باب من أبواب الربا، وهناك إشارة في بعض الأحاديث إلى هذه الحكمة التي نجد مثلها في بعض النواهي الشرعية الأخرى، والتي سوف نشير إليها إن شاء الله لاحقاً.

٢/ الأحاديث وسبب اختلافها

نهت أحاديث كثيرة من بيع الصرف إلا يداً بيد، منها ما يلي:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا يبتاع رجل فضة بذهب إلا يداً بيد، ولا يبتاع ذهباً بفضة إلا يداً بيد. (١)

وعن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سألته عن الرجل يشتري من الرجل الترهيم بالدنانير فيوزنها وينقدها ويحسب ثمنها كم هو ديناراً، ثم يقول: أرسل غلامك معي حتى أعطيه الدنانير. فقال: ما أحب أن يفارقه حتى يأخذ الدنانير.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٥٨، أبواب الصرف، الباب ٢، ح ٣.

فقلت: إنما هم في دار واحدة وأمكنتهم قريبة بعضها من بعض، وهذا يشق عليهم. فقال: إذا فرغ من وزنها وانتقادها فليأمر الغلام الذي يرسله أن يكون هو الذي يبيعه ويدفع إليه الورق ويقبض منه الدنانير حيث يدفع إليه الورق. (١)

وأيضاً عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: سألته عن بيع الذهب بالفضة مثلين بمثل يداً بيد. فقال: لا بأس. (٢)

بينما أجازت أحاديث أخرى ذلك، منها ما يلي:
عن عمار بن موسى الساباطي، قال: سمعت أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام يقول: لا بأس أن يبيع الرجل الدنانير بأكثر من صرف يومه نسية. (٣)

وعن زرارة، عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام قال: لا بأس أن يبيع الرجل الدنانير نسية بمائة أو أقل أو أكثر. (٤)
وأيضاً عن عمار، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام عن الرجل هل يحلّ له أن يسلف دنانير بكذا وكذا درهماً إلى أجل؟ قال: نعم لا بأس. وعن الرجل يحلّ له أن يشتري دنانير بالنسية؟ قال: نعم إن الذهب وغيره في الشراء والبيع سواء. (٥)

وفي تفسير هذا الاختلاف، نجد ثلاثة إتجاهات:
الإتجاه الأول: ردّ أحاديث الجواز إلى أهلها، لأن أكثرها مروية عن عمار الساباطي، وبينما رواة الأحاديث الناهية طائفة من الأصحاب، فالأشهر رواية هي الأولى بالقبول. ومن هنا قال الشيخ: هذه الأخبار الأصل فيها عمار، فلا

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٥٨، أبواب الصرف، الباب ٢، ح ١.

(٢) المصدر، ح ٧.

(٣) المصدر، ص ٤٦٠، ح ١٠.

(٤) المصدر، ح ١٣.

(٥) المصدر، ١٤.

تعارض الأخبار الكثيرة السابقة. (١) وقال العلامة النجفي: وهو يؤيد القول باشتراط التقابض. وفي (كتاب) الغنية: الإجماع عليه، بل ظاهره إجماع المسلمين حيث نفى الخلاف منا ومنهم. وفي محكي السرائر لا خلاف في هذا الشرط وفي البطلان بدونه. (٢) ثم نكر أدلة الاشتراط وأيدها، ثم استعرض بعض أحاديث نفي الاشتراط وردّها بالقول، إلا أن الجميع قاصرة عن الأدلة السابقة من وجوه. (٣) خصوصاً مع عدم صراحة بعضها، فالأولى طرحها - كما جاء في (كتاب) الدروس (لشهادته الثاني) - أو تأويلها. (٤)

الإتجاه الثاني: الجمع بين الروايات بالقول: إن التقابض مستحب وخلافه مكروه ولكنه جائز كما ذهب إليه ابن بابويه والصدوق، ويظهر من العلامة النجفي ميل بعض متأخر المتأخرين إليه. (٥)

وفعلاً ذهب بعضهم الى ذلك وأيد مذهبه بأن قال: بعد أن نقل أحاديث الاشتراط هذه الأخبار الدالة على كراهة بيع النسية في النقد، لأن هذه الأخبار مع كثرتها ليس في خبر منها - فضلاً عن الأكثر - (خبر) ناطق بحرمة البيع نساءً في النقد، بل المحكم منها بأسرها (يدل على الكراهة) أي ما هو (من الخبر يورث) اليقين منها (بمعنى) الذي ليس فيه احتمالان (وهذا المحكم يدل على) الكراهة وأما الحرمة فمشكوكة. (٦) ثم قال: ومن هذا البيان المأمون ظهر أنه لا تعارض بين هذه الأخبار وبين الأخبار الناطقة بعدم البأس بنساء النقد. (٧)

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٦١.

(٢) جواهر الكلام، ج ٨، ص ٤٩٤.

(٣) لعل أبرز الوجوه ذهاب المشهور الى خلافها.

(٤) جواهر الكلام، ج ٨، ص ٤٩٦.

(٥) المصدر، ص ٤٩٤.

(٦) مفاتيح الشرائع، ج ٢، ص ٣٢.

(٧) المصدر.

وحمل بعض الأخبار الصريحة في النهي عن بيع النقدين نسيئةً، حملة على التقية. علماً بأن المحدث الحرّ العاملي قد حمل كل أخبار عدم الاشتراط على التقية، فيبقى السؤال: ماهو رأي سائر المذاهب؟

لقد سمعت أنفاً حكاية رأيهم بالاشتراط من كتاب الغنية، ويقول الاستاذ الزحيلي حول شرائط بيع الصرف عند سائر المذاهب ما يلي: التقابض قبل الافتراق بالأبدان بين المتعاقدين. (١) ويبين حكمته بالقول: منعاً من الوقوع في ربا النسيئة ولقوله صلى الله عليه وآله الذهب بالذهب مثلاً بمثل يداً بيد، والفضة بالفضة مثلاً بمثل يداً بيد، وقوله صلى الله عليه وآله: لا تبيعوا منهما غائباً بناجز.

فإن إفتراق المتعاقدان قبل قبض العوضين أو أحدهما فسد العقد عند الحنفية، وبطل عند غيرهم لفوات شرط القبض، ولئلا يعيد العقد بيعاً لكالي بالكالي؛ أي الدين بالدين فيحصل الربا وهو الفضل في أحد العوضين والتقابض شرط سواءً إتحد الجنس أو إختلف. (٢) من هنا لا يمكن حمل الروايات التي لا تشترط التقابض على التقية، بل العكس قد يكون صحيحاً.

الإتجاه الثالث: ويمكن لنا أن نرد متشابه الأحاديث الى محكم الكتاب. وهذا أحد سبل الجمع بين الأحاديث المختلفة والتي أمرنا بها من قبل الشرع، والمحكم هنا هو قوله سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة/٢٧٥) فما كان رباً فهو حرام. وقد يكون بيع النقد نسيئة رباً فلا يجوز، وقد لا يكون فيجوز. وتفصيل القول؛ إذا كان هدف الطرفين من بيع النقد نسيئة هو البيع ذاته كما يبيع أحدنا أية بضاعة، فلا بأس. كما إذا باع الصراف ألف دولار بسبعمئة جنية مؤجلاً، فلا فرق في ذلك بين أن يكون البيع بأعلى من القيمة

(١) الفقه الإسلامي وأدلته تأليف: الدكتور وهبة الزحيلي، ج ٥، ص ٣٦٦٠.

(٢) المصدر.

السوقية أو بأقل. وإلى ذلك تشير الرواية السابقة التي تقول: إن الذهب وغيره في الشراء والبيع سواء. (١)

أما إذا كان الهدف الإقراض ولكن بصورة البيع وأخذ الربا مما اعتبر العرف أنه ربا فإنه محرم، لأن العبرة ليست بظاهر العقد، بل بواقع العقد. وقد أشار المحدث الحرّ العاملي إلى إحتمال أن يكون البيع بنحو القرض وإن الزيادة تكون من غير شرط، فقال: ويحتمل كون الأخذ بطريق القرض، فإنه يجوز ردّ العوض بحسب التراضي فيما بعد من غير شرط ولو بزيادة. (٢)

وهذا الإتجاه الثالث هو الأقرب الى الأصول التي أمرنا باتباعها، وإن لم نجد عليه شاهداً كافياً من الأحاديث في هذا الباب. وعلى العموم فالاحتياط يقتضي التقابض في كل عقود الصرف.

وعلى أي حال فاشتراط التقابض في المجلس يشمل سائر النقود ولا يختص بالذهب والفضة، بالرغم من أن بعض الفقهاء حصروه بهما جموداً على النصوص. (٣)

ولكن يبدو لي أن المراد من النقدين هنا وفي سائر الأبواب ما يقع ثمناً للمعاملات فيشمل سائر النقود، كما أن حكمة اشتراط التقابض لو عرفناها وهي سد باب الربا تشمل سائر النقود لا أقل من أن ذلك يوافق الاحتياط.

ثانياً: ربا المعاوضة (الفضل)

قال المحقق الحلي في كتاب الشرائع: كل شيئين يتناولهما لفظ خاص، كالحنطة بمثلها والارز بمثله، فيجوز بيع المتجانس وزناً بوزن نقداً، ولا يجوز مع الزيادة، ولا يجوز إسلاف أحدهما في الآخر على الأظهر، ولا

(١) وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ٤٦١ م أبواب الصرف، الباب ٢، ح ١٤.

(٢) وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ٤٦١.

(٣) مهذب الأحكام للفقهاء السبزواري، ج ١٨، ص ٤.

يشترط التقابض قبل التفرق إلا في الصرف، ولو اختلف الجنس جاز التماثل والتفاضل نقداً، وفي النسيئة تردد والأحوط المنع. (١)
يستعرض المحقق في هذا النص جملة من فروع ربا المعاوضة، والذي يسمى أيضاً ربا الفضل. وفيما يلي نبحثها ببعض التفصيل.
١/ لماذا لا يجوز بيع جنسين متماثلين بتفاضل؟

لأنه ربا، ولأن ما يساوي الجنس الآخر يعتبر عوضاً، وما زاد يعتبر أكلاً للمال بالباطل. هكذا وردت رواية مأثورة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، أنه كتب إليه فيما كتب من جواب مسأله: وعلة تحريم الربا لما نهى الله عز وجل عنه، ولما فيه من فساد الأموال، لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمان الآخر باطلاً. فبيع الربا وشراؤه وكس على كل حال؛ على المشتري، وعلى البائع. فحرم الله عز وجل على العباد الربا لعلة فساد الأموال، كما حظر على السفه أن يدفع إليه ماله لما يتخوف عليه من فساده حتى يونس منه رشد. فلهذه العلة حرم الله عز وجل الربا، وبيع الدرهم بالدرهمين. وعلة تحريم الربا بعد البيئة لما فيه من الإستخفاف بالحرام المحرم وهي كبيرة بعد البيان، وتحريم الله عز وجل لها لم يكن إلا إستخفافاً منه بالمحرم الحرام، والإستخفاف بذلك دخول في الكفر. وعلة تحريم الربا بالنسيئة لعلة ذهاب المعروف، وتلف الأموال، ورغبة الناس في الربح، وتركهم القرض، والقرض صنائع المعروف. ولما في ذلك من الفساد والظلم وفناء الأموال. (٢)

وهذه العلة لا تشمل ما إذا كان الجنس الآخر قد عمل فيها حتى زادت قيمته؛ مثل بيع الحنطة بالخبز. من هنا فقد اشترط بعض المذاهب شروطاً معينة لتحريم هذا النوع من الربا، كما يأتي إن شاء الله.

(١) جواهر الكلام، ج٨، ص٤٥١-٤٥٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٤٢٥، أبواب الربا، الباب ١، ح ١١.

قال الدكتور الزحيلي عن علة تحريم هذا النوع من البيع: وقد حرّم سداً للزرائع؛ أي منعاً من التوصل به إلى ربا النسئية، بأن يبيع شخص ذهباً مثلاً إلى أجل ثم يؤدي فضة بقدر زائد مشتمل على الربا. (١)

ونقل عن ابن كثير قوله: وإنما حرمت المخايرة وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض. والمزابنة وهي إشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه، والمحاقلة وهي إشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض. إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا، لأنه لا يعلم التساوي بين الشينين قبل الجفاف. ولهذا قال الفقهاء الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة، ومن هذا حرّموا أشياء بما فهموا من تضيق المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه. (٢)

وبعضهم يرى إن حكمة جملة من المناهي في البيع، هي دفع الغبن عن الناس وعدم الاضرار بهم، مما قد يظن بأن في أحد الجنسين معنى زائداً عن الآخر.

وأضاف: كما في أخذ كثير رديء في قليل جيد، فزيادة الرديء تقابل بجودة الجيد، لكنه مع ذلك حرام، لأن هناك غرراً كبيراً لا يعلم معه أيما غبن. (٣)

ولكن البعض منهم أجاز بيع المصوغات الذهبية والفضية المباحة الاستعمال كالخاتم والحلية للنساء بأكثر من وزنها ذهباً أو فضةً رعاية للصناعة ولحاجة الناس إلى ذلك. (٤)

وهكذا أجازوا بيع المثل بالمثل نوعاً وقدرًا وإستيجار الشخص المشتري ليعمل فيه لقاء أجر؛ مثلاً يبيع (الخباز) صاعاً من الحنطة بصاع منها على أن يصنع

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، ج ٥، ص ٣٦٩٩.

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، ج ٥، ص ٣٧٠٥ نقلاً عن تفسير ابن كثير ٣٢٧/١.

(٣) المصدر، ص ٣٧٠٨ نقلاً عن الموافقات للشاطبي وتعليقاته ٤٢/٤.

(٤) المصدر، ص ٣٧٠١ نقلاً عن ابن الهيثم في أعلام الموقعين ص ١٤٠.

منه خبزاً لقاء نصف صاع منها، فكأنه باع صاع ونصف من الحنطة بصاع من الخبز. وسيأتي الحديث إن شاء الله عن هذا التفصيل.

٢/ وقد اختلفت المذاهب الإسلامية في معيار ربا الفضل، بعد إتفاقهم على تحريم سبعة أشياء تقع فيها الربا، وهي الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والزبيب والملح. فقال لا يحرم إلا في هذه السبعة (وهم الظاهرية)، وذهب أحمد وأبو حنيفة إلى تحريم كل مكيل أو موزون بجنسه.

أما الشافعي فقد خصّ ربا الفضل بالنقدين أو بالطعام، وله قول آخر يخصه بالطعام حتى إذا لم يكن مكيلاً أو موزوناً، وهو قول سعيد بن المسيب. وهناك قول يخص الربا بالقوت وما يصلحه، وهو قول مالك. (١)

والإمامية يرون تعميم الحرمة في كل مكيل أو موزون سواء كان مطعوماً أم لا، وفيه كلام فصله فيما يلي:

٣/ والأصل عندنا بعد محكمات الآيات، مسندات الروايات فلننظر فيهما. أما المحكم في القرآن فهو النهي عن الربا. فما كان فيه الربا عرفاً كان محرماً وما أفضى إليه حرام أيضاً، وما كنا نشك فيه فلا. أما الأحاديث فهي مختلفة، وفيما يلي نستعرض طوائف منها:

أ- تنفي هذه الطائفة أي رباً بين أنواع البضاعة التي لا توزن ولا تكال؛ مثل الحديث التالي عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام، قال: لا يكون الربا إلا فيما يكال أو يوزن. (٢)

وهذا الحديث لا يثبت الربا في كل موزون أو مكيل.

ب- وتنتهي الطائفة الثانية عن بيع المثل بمثلين، وهي تحرم المضاعفة ولا تحرم أي زيادة؛ مثل الحديث التالي عن أبي الربيع الشامي قال: كره أبو عبد

(١) راجع المصدر، ص ٣٧٠٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٣٤، أبواب الربا، الباب ٦، ح ١.

الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قفيز لوز بققيزين لوز، وققيزاً من تمر بققيزين من تمر. (١)

والحديث جاء بلفظ الكراهة، وهي ذات إيحاء بعدم الحرمة، وهي خاصة باللوز والتمر وربما كل طعام، فلا يقاس به غير الطعام.

ج- وتجزئ طائفة منها الزيادة في غير المكيل والموزون؛ مثل الحديث التالي عن مصور، قال: سألته عن الشاة بالشاتين، والبيضة بالبيضتين؛ قال: لا بأس ما لم يكن كيلاً أو وزنًا. (٢)

ومفهوم آخر الحديث يدل على ما دلت عليه الطائفة الأولى.

د- وهناك طائفة من الروايات تبين ان الشعير من الحنطة، وتنتهي عن بيع أحدهما بالآخر مثلين بمثل، كالحديث التالي عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال: قلت لأبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام: أيجوز قفيز من حنطة بققيزين من شعير؟ فقال: لا يجوز إلا مثلاً بمثل. ثم قال: إنَّ الشعير من الحنطة. (٣)

ودلالة هذه الطائفة في الطعام والبيع المضاعف جيدة. أما في غير الطعام مما يكال أو يوزن فلا، بل وحتى في الطعام في غير البيع المثل بمثلين، بل وحتى فيه إذ إنه في مقام بيان كون الشعير من الحنطة، فيمكن حمل النهي فيه على الكراهة بقرينة التعبير بالكراهة في غيرها من الروايات.

بل؛ والتعبير بقوله لا يصلح مثل الرواية التالية عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام في حديث قال: لا يصلح الحنطة والشعير إلاً واحداً بواحد. وقال: الكيل يجري مجرى واحداً. (٤)

هـ- وهناك طائفة من الأحاديث تنهى عن بيع الفرع بالأصل بزيادة؛ مثل الحديث التالي عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه

(١) المصدر، ص ٤٣٥، ح ٤.

(٢) المصدر، ص ٤٣٥، ح ٥.

(٣) المصدر، ص ٤٣٨، الباب ٨، ح ٢.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٣٩، ح ٧.

السلام قال: سألته عن الرجل يدفع الى الطحان الطعام فيقاطعه على أن يعطي لكل عشرة أرطال اثني عشر دقيقاً. قال: لا. قلت: فالرجل يدفع السمسم إلى العصار يضمن له لكل صاع أرطالاً. قال: لا. (١)

ودلالة هذه الطائفة لا بأس بها، ولكنها خاصة بالطعام، وهي في مقام بيان بيع الأصل بالفرع، فقد يحمل النهي فيها على الكراهة بقريضة التعبير بها في غيرها.

و- وهناك رواية مفصلة عن علي بن إبراهيم، وقد بينت أحكاماً كثيرة في باب الربا نذكر جملة منها.

روى علي بن إبراهيم عن رجاله عمّن ذكره قال: الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، وزناً بوزن سواء ليس لبعضه فضل على بعض، وتباع الفضة بالفضة. (بالذهب ظ) والذهب بالفضة كيف شئت يداً بيد ولا بأس بذلك، ولا تحل النسبية، والذهب والفضة يباعان بما سواهما من وزن أو كيل أو عدد أو غير ذلك يداً بيد ونسبة جميعاً لا بأس بذلك، وما كيل أو وزن مما أصله واحد فليس لبعضه فضل على بعض كيل بكيل ووزن بوزن، فإذا اختلف أصل ما يكال فلا بأس به إثنان بواحد يداً بيد ويكره نسبية. (٢)

وهذا النص جيد الدلالة، إلا أن المحتمل أن يكون نقلاً بالمعنى من عدة روايات، خصوصاً والمروي عنه مضمرة.

وهكذا نستخلص من مجموع هذه الطوائف من الأحاديث الشريفة؛ إن ربا الفضل في الطعام، وفي الذهب والفضة منهي عنه شرعاً. ولكن هل النهي نهى حرمة أم نهى تنزيه وكراهية؟ الأشبه أنه نهى حرمة. ولكن هناك بعض الإشارات التي يستشتم منها أن النهي نهى كراهية. ومثل تعدد كلمة لا يصلح أو يكره أو أن علياً عليه السلام كان يكره ذلك، كما جاء في الحديث التالي عن سيف التمار قال: قلت لأبي بصير: أحب أن تسأل أبا عبد الله (الإمام جعفر

(١) المصدر، ص ٤٤٠، الباب ٩، ح ٣.

(٢) المصدر، ص ٤٥٢، أبواب الربا، باب ١٦، ح ١٢.

الصادق) عليه السلام عن رجل إستبدل قوصرتين فيهما بسر مطبوخ بقوصرة فيها تمر مشقق. قال: فسأله أبو بصير عن ذلك، فقال: هذا مكروه. فقال أبو بصير: ولم يكره؟ فقال: إنَّ عليَّ ابن أبي طالب عليه السلام كان يكره أن يستبدل وسقاً من تمر المدينة بوسقين من تمر خيبر، لأن تمر المدينة أدونهما، ولم يكن عليَّ عليه السلام يكره الحلال. (١)

فهذا التعبير يوحي بالكراهية، لأن فيه تورية، حيث إن الإمام علياً عليه السلام كان يكره الحرام، ويكره المكروه أيضاً، ولكن بقدر، والله العالم. أما حرمة بيع كل مكيل أو موزون حتى من غير الطعام، فالأشبه عدم الحرمة، والأحوط ترك ذلك أيضاً، والله العالم.

٤/ وعلى القول الأظهر بتحريم بيع المتجانس بزيادة، فإن بيعه باسلاف يحرم أيضاً، لأنه زيادة حكمية. إذ إن للأجل جزء من الثمن، وقد نقل الشهيد في الدروس الإجماع على حرمة ذلك، (٢) إلا أنه حكى عن الشيخ الطوسي كراهة ذلك، (٣) واستظهر العلامة النجفي من النصوص تحقق الربا بذلك. (٤)

٥/ أما عند اختلاف الجنسين، كما إذا باع الحنطة بالسمن، فمن الواضح جواز التفاضل نقداً. أما النسبية فقد تردد المحقق الحلي فيها، ثم قال: والأحوط المنع، حيث ان بعض قدماء الأصحاب منعوا من ذلك. ولكن المشهور من علمائنا أجازوه، واعتمد الذين منعه على الحديث التالي عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام عن الزيت بالسمن اثنين بواحد. قال: يداً بيد لا بأس. (٥) ولكن إستند المشهور على الجواز بالتعبير الذي ورد في بعض الأحاديث بـ (الكراهة) أو (لا يصلح)، وقد حوت النصوص الربا بما إذا إتحد الجنسان.

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٤٤٧، الباب ١٥، ح١.

(٢) جواهر الكلام، ج٨، ص٤٥٢.

(٣) المصدر.

(٤) المصدر، ص٤٥٣.

(٥) وسائل الشيعة، ج١٢، أبواب الربا، الباب ١٣، ص٤٤٤، ح٧.

أما سائر المذاهب الإسلامية فقد ذهبوا إلى حرمة بيع المتجانسين نسيئة. قال الدكتور الزحيلي بعد بيان تحريمه، ودليل تحريمه حديث عبادة عند مسلم: فإذا اختلفت هذه الأجناس فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد. (١) وبين حكمة حرمة بما يلي: إن حكمة تحريم ربا النسيئة إجمالاً، هي ما فيه من إرهاب المضطرين، والقضاء على عوامل الرفق والرحمة بالإنسان، ونزع فضيلة التعاون والتناصر في هذه الحياة. (٢)

وقال في موضع آخر: الحكمة في أنه يجوز بيع مداً من حنطة بمدّي شعير حالاً ولا يجوز نسيئته، هو إن البيع في الحالة الأولى لم يكن القصد منه هو الاستغلال، وإنما تأمين الحاجة، وفي إلزامهم المساواة بالبيع إضرار بالناس. وأما في الحالة الثانية فالبيع أقرب إلى القرض، فهو مظنة لاستغلال الحاجة عند المحتاج، وتكون الزيادة مقابل الأجل فيحرم النساء سداً للذريعة. (٣) ولإنتشار هذا الرأي عند المذاهب إعتبر العلامة النجفي الأحاديث الناهية صادرة على وجه التقية، حيث قال: كل ذا، مع احتمال وروده كالنصوص السابقة- مورد التقية. (٤)

وعلى أي حال فالمسألة بحاجة إلى دراسة أوفى..

٦/ قال المحقق الحلي، وهو يشرح وحدة الجنس: والحنطة والشعير جنس واحد في الربا على الأظهر لتناول اسم الطعام لهما، وثمره النخل جنس واحد وإن اختلفت أنواعه، وكذا ثمرة الكرم. وكل ما يعمل من جنس واحد يحرم التفاضل فيه؛ كالحنطة بدقيقها، والشعير بسويقه، والدبس المعمول من التمر بالتمر، وكذا ما يعمل من العنب بالعنب. (٥)

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، ج٥، ص٣٧٠٤.

(٢) المصدر، ص٣٧١٣.

(٣) المصدر، ص٣٧١٢ (في الهامش).

(٤) جواهر الكلام، ج٨، ص٤٥٤.

(٥) المصدر، ص٤٥٨-٤٦٠.

ولكن هل الخل والتمر جنس واحد، وهل السكر والبنجر (الشوندر) جنس واحد أم مختلف؟ المعيار هو الاسم عند العرف. فالعرف يعتبر الخبز والدقيق والحنطة جنس واحد، بينما تراهم يشكون في اعتبار الهريسة المعمولة من الشعير أو الحنطة ملحقاً به..

من هنا قال العلامة النجفي - بعد بحث طويل- : يمكن القول باعتبار ما كان فرعاً لأصل نحو الحنطة والدقيق، والشعير والسويق، ونحو الدهن من السمس مما سمعته في النصوص المزبورة، لا كل فرع لكل أصل وإن كان بعيداً لا يعرفه إلا خواص الناس، نحو طلع الفحل، ونحو إتخاذ القند من الشوندر، وغير ذلك مما يستخرج من بعض الأجسام على وجه لا يدركه إلا أوحدي الناس لا أقل من الشك والأصل الجواز. (١)

بلى؛ عند الشك نرجع الى جواز البيع. ولكن جهل عامة الناس بأصل شيء لا ينفي إتحاده معه عند من يعرف؛ مثلاً لو لم يعرف أحد تركيب السويق، وهل أنه يعمل من الشعير أو من الرز، فإن ذلك لا يجوز بيعه بأصله، والعرف معيار، ولكن شريطة معرفته بأصل الأشياء لا جهله، والله العالم.

ثالثاً: فوائد البنوك والديون الدولية

في عدة نقاط نستعرض مسائل فوائد البنوك والديون الدولية. ففي البدء نتحدث إن شاء الله تعالى عن تاريخ البنوك بشكلها الحالي، ونبحث ثانياً في مدى تأثيرها على واقع حياة الإنسان، وثم عن تأثير الديون الخارجية على تنمية الدول، وأخيراً عن بعض الشبهات التي تحوم حول فوائد البنوك.

١/ تاريخ البنوك الحديثة

يقال إن كلمة "البنك" أصلها إيطالي، وكانت إسماً لتلك الخشبة التي كان الصيارفة يضعون عليها النقود المختلفة. وقد نشأت منذ عصور قديمة مهنة الصيرفة، حيث كان الناس يحتاجون الى تبديل عملاتهم (في البلاد الإسلامية

(١) جواهر الكلام، ج٨، ص٤٦٠.

مثلاً تبديل الدينار بالدرهم)، ولأن بعض الناس أخذوا يرتزقون عن هذا الطريق، فتكونت طبقة الصيارفة. ولأن الصيارفة كانوا يحتفظون أبدأً بكمية من العملات، فقد إخترعوا صناديق لحفظ النقود. وهنا نشأت باكورة عمل البنك إذ الناس والأثرياء منهم بالذات كانوا يودعون أموالهم عند الصيارفة للحفاظ عليها لقاء دفع أجر معين، وكان الصيرفي يعطيهم سنداً في مقابل أموالهم.

وحيثما تعاظمت الثروة عند الصيارفة، فكر هؤلاء في الاستفادة منها، إذ أنهم عرفوا أن حاجة الناس إلى ثروتهم لا تزيد عن عشرة بالمائة منها، وهكذا تبقى البقية مدخرة ومجمدة بلا فائدة، حيث إن السندات التي كانوا يعطونها للناس أصبحت بديلاً عن ذات الأموال في تعامل التجار فيما بينهم. وبسبب الحركة التجارية النشيطة في تلك الفترة في أوربا، وحاجة التجار إلى السيولة، أخذوا يقترضون الأموال من الصيارفة لقاء فائدة معينة. وإذ بدء الصيارفة بأخذ الفائدة من التجار، أخذوا يدفعون لمن يودع لديهم المال نسبة منها أيضاً.

وفي تطور آخر بدء الصيارفة - وهم قد نظموا وضعهم القانوني حتى أصبحوا أصحاب بنوك كبيرة - بدأوا بإصدار سندات تعتمد على رصيد الذهب الموجود لديهم، وربما أكثر من ذلك بكثير. (١) وهكذا تكونت العناصر الأساسية للبنوك الحالية التي تعتمد أساساً على ثروة الناس.

ولأن السندات أكثر دائماً من الرصيد، فإن قيمة السندات في تنازل مستمر، مما يشكل أحد أسباب التضخم، ولأنهم بدأوا يقترضون الناس سندات لا رصيد حقيقي لها، ويحصلون بها فوائد كثيرة. وبهذا أخذوا يبتزون الناس ويستغلون حاجاتهم الفورية في عملية سرقة منتظمة ومتضاعفة.

(١) راجع كتاب الربا فقهياً واقتصادياً لمؤلفة الاستاذ حسن محمد تقي الجواهري - رسالة بكالوريوس لعام/ ١٩٦٩-١٩٧٠م (مطبعة خيام قم لعام ١٤٠٥ هـ)، ص ٣٤٦-٣٤٧.

٢/ تأثير البنوك الربوية

والأدهى من ذلك لأنهم أصبحوا قوة اقتصادية، بدأوا يتدخلون في الشؤون السياسية للبلاد، ويحكمون من قبضتهم الاقتصادية التي تحيط بالناس. وعبر الرشاوى المعلنة (كالضرائب) وغير المعلنة، وعبر أجهزة الاعلام، وعبر ألف وسيلة ووسيلة تحكموا في رقاب الناس الذين أصبحوا لا حول لهم ولا قوة لمواجهتهم. (١)

وهنا نقف إجلالاً لكتاب ربنا، والذي حرّم الربا وأذن المتعاطين له بالحرب، وفك عن الأمة الإسلامية طوقاً كان يمكن أن يقيد ألف عام. بينما وقعت أوربا وأمريكا في ذلك الفخ، ولا يستطيعون عنه خروجاً، ولعل مئات السنين القادمة تبقى شعوب الأرض ترسف فيها دون فائدة. ومن المعروف إن الحركة الشيوعية إستقطبت الجماهير الكادحة في مختلف البلاد تحت شعار التخلص من الطبقة الرأسمالية، ولكن هذه الحركة سقطت مرتين؛ مرة حين أصبحت هي منافسة للرأسمالية في إستغلال الناس، ومرة حين انهارت أمام ضغط الرأسمالية. ولم يبق أمام

الشعوب إلا دين الله الذي حرّم الربا وحرّم كل ألوان الاستغلال.

ذلك لأن دين الله لا يحرم الربا فقط، بل يحرم كل ألوان الظلم والاستضعاف، لكي لا يرفع أحدهم شعار محاربة لون من الظلم لدعم مركزه الظالم، والله المستعان.

٣/ الديون الخارجية وإستضعاف الشعوب

بعد أن تشكلت طبقة الأثرياء والمترفين، وتطورت مناهجها في استغلال شعوبها، وتجدرت سلطتها عبر سن تشويهات تدعم استغلالها في بلادها. بعدئذ توجهت إلى خارج حدود تلك البلاد، وخطت من أجل حكومة المال

(١) يقال: إنه قد أصدر لفيق من العلماء الفرنسيين كتاباً حول دور البنوك السلبى، فلم يكذ يخرج من الطبع حتى إستولى عليه إخطبوط المصارف الربوية. وكان الكتاب بعنوان المليون وكيف يحكمون العالم ويقودونه الى الهاوية (المصدر ص ٣٥٠ عن المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية، محمد عبد الله العربي ص ٩٢).

العالمية (الامبريالية) عبر شبكة البنوك عبر البحار وعبر أجهزة دولية مثل صندوق النقد العالمي. ووجدت في مختلف بلاد العالم طبقة مترفة مثلها، فتنشأ مصلحتها، وتعمقت صلاتها، وقامت تلك الطبقة بتسهيل نفوذ الامبريالية في تلك البلاد. فروّجت للديون الدولية التي كان طرف منها صندوق النقد الدولي أو البنوك المشهورة في البلاد المتقدمة، وطرف آخر منها – في الظاهر – الدول النامية. ولكن في الحقيقة إنما كان الطرف الثاني تلك الطبقة المترفة في تلك الدول والتي سميت بالبرجوازية الوطنية. كانت مصلحة هؤلاء تقتضي إرتباط بلادها بالامبريالية للأسباب التالية:

أولاً: لكي تستدين الدولة النامية ملايين الدولارات، فتنسرب الى جيوب هذه الطبقة التي تظاهرت بأنها رائدة التنمية الوطنية. فهي صاحبة الشركات التجارية والصناعية والعمرانية (شركات المقاولات)، وهي صاحبة البنوك الوطنية، وهي المديرية لجيش التكنقراط من المهندسين والخبراء، وهي ذات الصلة الوثيقة بالشركات العالمية.

فهي إذاً الوسيطة بين الأمبريالية وبين هذه الشعوب. فتصل الدولارات أولاً إلى صندوق الدولة المدينة، وعبرها تصل إلى أيدي هذه الطبقة.

ثانياً: هذه الطبقة لم تكن تهدف في الأغلب تنمية الوطن، بل تهدف تنمية ثروتها، ومن ثم إيداع فائض ثروتها في البنوك الأجنبية، ولعلها تستطيع في يوم من الأيام أن تصبح عضوة في نادي الامبريالية.

من هنا كنت تجد هذه الملايين التي اقترضتها الدولة من البنوك الأجنبية، عادت بعد فترة قصيرة إلى الخارج وأودعت في تلك البنوك ولكن بأسماء أشخاص. بينما ظلت الدولة هي المسؤولة عن أدائها، وملتزمة بدفع فوائدها.

وهكذا أصبحت الشعوب مقيدة بتلك الديون التي تتضاعف من عام لعام. بينما أصبحت التنمية التي باسمها اقترضت الدولة مجرد قرارات، ولأن الدول كانت تعجز عن سداد الديون أو فوائدها، فإنها كانت تلهث وراء أجهزة

الامبريالية من أجل إعادة جدولة الديون، وربما الاستدانة من جديد من أجل سداد فوائدها.

وفي تطور سيء آخر بدأت الامبريالية تفرض على الشعوب، ليس فقط برامجها الاقتصادية، بل قراراتها السياسية والثقافية. حتى إنك تجد إن صندوق النقد الدولي يشترط الى جانب رفع الدعم عن السلع الاستهلاكية وتنظيم السوق على أساس العرض والطلب، يشترط أيضاً ما يسميه برعاية حقوق الإنسان ونبذ الإرهاب، بل وحتى تطبيق معايير الغرب في العلاقات الاجتماعية وبالذات في شؤون الأسرة.

وهكذا كان الربا سبباً لفساد المال وفساد العقل، وصدق ربنا سبحانه وتعالى في صفة المرابين، حين قال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة/ ۲۷۵)

واليوم إذ أصبحت الديون الخارجية أكبر مانع في طريق تقدم الشعوب النامية، وهم أكثر شعوب الأرض؛ مما يعني استمرار التخلف وإنتشار الجهل والبؤس والمرض والمعاناة وبمقاييس كبيرة، أقول: اليوم نفهم مدى عظمة دين الله الرؤوف الرحيم، إذ حرّم الربا، وقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.

(١)

٤/ شبهات وردود حول الربا

بسبب تأثير ثقافة المترفين في الشعوب المستضعفة، وبسبب ضغط المستكبرين على مراكز القرار في الدول النامية وبالذات على بعض المراكز الاعلامية والدينية، فقد راجت ثقافة المرابين الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وقد تحدث الدكتور الزحيلي عن تأثيرات هذه الثقافة على بعض

(١) الأرقام العالمية تدهل الانسان في حجم الديون الخارجية التي يبلغ مجموعها ٦٠٠ مليار دولار، وحجم فوائدها ٦٠ مليون دولار يومياً، والبالغ أكثر من ٢١ مليار دولار سنوياً.

المراكز الدينية ومع الأسف فقال: ومن هذه الهجمة (ضد حرمة الربا) ما كتبه السيد فهمي هويدي في مجلة العربي العدد/٣٤١/ أبريل، نيسان ١٩٨٧م شعبان ١٤٠٧ هـ ناقلاً عن بعض العلماء القول في إباحة فوائد الإيداع في البنوك، وعدم الاعتماد على مبدء "كل قرض جرّ نفعاً فهو ربا" لعدم ثبوت كونه حديثاً، وبالتالي عدم جواز الاستدلال به. ومنها فتوى هذا العالم، وهو الدكتور عبد المنعم النمر بإباحة فوائد المصارف في جريدة الاهرام (القاهرية) يوم الخميس ٢٧ من شوال ١٤٠٩ هـ الموافق ١٩٨٩/٦/١م، ومنها فتوى مفتي مصر الدكتور محمد سيد طنطاوي بإباحة شهادات الاستثمار بتاريخ ١٤١٠/٥/٧ هـ ١٩٨٩/١٢/٧ م.

والطامة الكبرى بيان مفتي مصر المذكور قبل ربيع سنة ١٤١٠ هـ وقبل نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٩ الذي أحل فيه الفوائد الربوية لشهادات الاستثمار والبنوك المتخصصة، وأعقبه عام ١٩٩١ بأن فوائد المصارف حلال في جميع أنحاء الأرض. (١)

هكذا تسربت ثقافة الربا حتى إلى المناطق المحرمة عليها؛ أي إلى حيث ينبغي أن يبدء الحرب منه ضده. ولكن ما هي الأدلة التي يعتمدها مثل هذا الفريق من الناس؟

١/ يقولون إن الله إنما حرّم الربا أضعافاً مضاعفة، والفوائد التي تؤخذ دون ذلك بكثير.. والجواب:

أولاً: كل الربا يتسبب في تكديس الثروة عند طبقة معينة وتتضاعف لديهم. ثانياً: الأدلة الشرعية على تحريم الربا لا تختص بالآية التي نهت عن أكله أضعافاً مضاعفة. (٢) إذ هناك آيات أخرى تحرمه مطلقاً، وتصرح بأن الذي يرجع من الدين إنما هو رأس المال المالك، حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ تُبْنَمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة/٢٧٩)

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، ص ٣٧٤١.

(٢) آل عمران، ١٣٠.

وهذه الآية تدل على أن الربا ظلم وهو كذلك؛ والظلم قبيح وحرام، كثيره وقليله.

٢/ ويقولون ما الفرق بين أن يؤجر المالك داره لأحد، أو يؤجره قدرأ من المال يستطيع به تأجير دار لنفسه، فالثروة هنا وهناك ذات قيمة، سواء كانت متمثلة في دار أو في ثمنها؟ وهكذا يقولون (١) إن الربا المحرم هو ربا القروض الاستهلاكية - أي التي يقترضها ذوو الحاجة الملحة ويؤدونها أضعافاً مضاعفة، أما القروض الإنتاجية التي يقترضها الموسرون للتشغيل في مشروعات إنتاجية- صناعية أو تجارية أو زراعية تدر عليهم ربحاً وبيعاً، فليست الفائدة المؤداة ربا محرماً لعدم توافر معنى إستغلال حاجة المحتاج.

(٢)

والجواب عن ذلك:

أولاً: إن الأحكام الشرعية لا تعتمد على الحالات الخاصة والمضطربة؛ ولأن أضرار الربا كثيرة، فإن الشريعة لم تحرمه فقط، بل وحرمت كل الأبواب التي تقضي إليه..

والربا كما الزنا، وأخطر منه، إذا سمح له المجال إكتسح الساحة. ألا ترى كيف حرّم الدين الحنيف التبرج والنظر الى النساء، وأوجب الحجاب والاستيذان وسنّ عشرات الأحكام التي تساهم في منع إنتشار الزنا وزعزعة الكيان الأسري؟

ثانياً: ليس الرأسمال كل شيء في الإستثمار، وإنما عمل الإنسان والتوفيق يلعبان دوراً أساسياً فيه. ونعني بالتوفيق؛ الظروف المساعدة التي لا يستطيع حتى أفضل الخبراء معرفتها مسبقاً والتنبؤ بها، فكيف بعامّة الناس. فأنت تقترض مثلاً عشرة آلاف دولار بفائدة ثابتة لكي تستثمره في إستصلاح أرض وزراعتها، وتجتهد نفسك في هذا السبيل. فهل تضمن أن يكون الموسم

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، ج٥، ص ٣٧٥٠-٣٧٥١ نقلاً عن الدكتور معروف الدواليبي.
(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، ج٥، ص ٣٧٥٠-٣٧٥١ نقلاً عن الدكتور معروف الدواليبي.

موسماً زراعياً حسناً؟ كلاً؛ فإذا منعت السماء قطرها وتحطمت آمالك فإنك لست فقط مديون بعشرة آلاف دولار، بل وأيضاً بفائدتها. حسناً أنت والذي أقرضك تعيشان في بلد واحد، والجفاف يضرب هذا البلد وأنت عملت وهو قد أعطاك ثروته، فلماذا تتحمل أنت دونه ضرر الجفاف، أما هو فيبقى يجني الثروة ويضاعفها دونك؟

من هنا عجزت المدارس الاقتصادية في تبرير الفوائد الثابتة، واختلفت الأنظمة في العالم في تحديدها..

وأقوى تبرير قدمه البعض للربا ما يذكره الكاتب الشهير أبو الأعلى المودودي في كتابه الربا، حيث يقول: إن تحريم الربا شيء يتعلق بالعواطف أكثر مما يتعلق بالحقيقة، بل لا علاقة له بالحقيقة أصلاً، وأن ليس إقراض أحد غيره شيئاً من المال دونما شيء من الربا إلا سماحة خلقية قد شط الدين وجاوز حد الفطرة، إذ طالب بها الناس بمثل هذه الشدة والتأكيد. وإن الربا شيء معقول من الناحية المنطقية، وأمر نافع لا مندوحة عنه للإنسانية، وإنه لا يقبل أي إعتراض من الناحية الاقتصادية. (١)

هذه خلاصة التبرير الذي يقدمه النظام الاقتصادي القائم على أساس الربا اليوم، ولنا عليه ملاحظات شتى:

أولاً: لا يمكن فصل الاقتصاد عن سائر شؤون البشر، حيث إن الإنسان كل لا يتجزأ، ونظرتنا إلى الإنسان تؤثر في نظرتنا إلى الاقتصاد..

وأهم ميزة للإنسان حياته الاجتماعية، وإنما قامت الحضارات الشامخة في تاريخه على قاعدة القيم الاجتماعية، فإذا نزعتها فإن أسس بقاء الإنسان فوق هذا الكوكب يتزعزع، بل وينهار. واليوم مع تقدم العلم وتنوع وسائل الفتك الجماعي وازدياد وسائل القهر والابتزاز، تزداد الحاجة إلى الخلق الكريم. والإحسان صفة إنسانية لا يمكن بقاء البشر من دونه.

(١) الربا فقهيًا واقتصاديًا، ص ٣٥٦ عن كتاب الربا للمودودي، ص ٦.

والإحسان يبدأ من إهتمام الوالدين بالطفل، وينتهي الى إحساس كل فرد بضرورة مساعدة المحتاج. وإذا كنت تملك فائض الثروة (ويسمى بالعفو في لغة القرآن) وكان غيرك يحتاجها، فمن واجبك الإنساني أن تعطيه؛ سواءً إنفاقاً أو قرضاً.

ومن العجب إن الدول الرأسمالية تفرض على رعاياها مبالغ طائلة من الضرائب، وهي لا تعترف بواجب الإحسان.

ثانياً: في مجتمع يحرم الربا تبقى ثروات عائمة كثيرة، فإما تجد طريقها الى التجارة أو المضاربة، أو تختزن لحين الحاجة. فما أجملها أن نقضي بها حاجة الفقراء والمنكوبين، لماذا لا؟ وهم نعم الحفظة للثروة، أو ليسوا أفضل من صناديق الحديد؟

قد يقال إذاً نخطر بها عندهم، إذ قد تذهب أدرج الرياح. نقول: بلى؛ ولكنها لا تذهب عند الله الذي قال سبحانه: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾. والإنسان إذا دفع لأخيه قرضاً ثم لم يستطع الوفاء به، يمكنه أن يعتبره زكاة ماله. أو ليس الواجب عليه دفع شيء من ماله زكاة؟

ثم يمكن للمقرض أن يستوثق من المدين قبل دفع الدين له بالرهن أو الضامن أو أي نظام آخر.

ثالثاً: لقد إستمرت الحضارة الإسلامية قروناً متطاولة، وقد إتسعت رقعة نفوذها حتى شملت شعوباً كثيرة في أربعة قارات، وكان اقتصادها خالياً من الربا، بل ومما يؤدي الى الربا من الذرائع المختلفة، وكان اقتصاداً مزدهراً مما دلّ على أن الربا لم يكن ضرورة في البنية الاقتصادية.

رابعاً: لقد سبق الحديث أن الربا يوقف حركة النمو في المجتمع، لأنه يكرس الطبقية، ولأن الفقراء يزدادون بسببه فقراً، ولذلك فهم يفقدون القوة الشرائية، وبالتالي لا يساهمون في النمو الاقتصادي. بينما القرض يسبب في تنشيط الدورة الاقتصادية في البلاد، ويزداد الفقراء غنى، ولا يبخس الأغنياء حقهم.

وكلمة أخيرة؛ الحديث عن الربا ودوره السلبي، والقرض الحسن ودوره الإيجابي، حديث مفصّل ونكتفي في هذه الدراسة بما أسلفنا، عسى الله أن يوفّقنا للمزيد من البحث في مناسبات أخرى، والله المستعان.

القسم الثالث: شرائط الصيغة في العقود

للعقد شروط، ويتصل بعضها بصورته الخارجية (صيغته)، وبعضها بمحتواها الداخلي (محل العقد)، والثالث بطرفيه (المتعاقدين). وفي هذا القسم نبحث عن صيغة العقد التي اشترطوا فيها شرطين رئيسيين؛ الأول: التخيير وعدم تعليق العقد على أمر يفقده شرط الرضا والعزم والإرادة التالية. الثاني: التعبير، والذي فصل الفقه فيه القول. ولكن ما يهمننا فيه البحث عن العقد العملي، الذي يفقد اللفظ ويكتفى فيه بالفعل، والذي يسمى بالمعاطاة. وهكذا نتحدث هنا عن المعاطاة بعد الحديث عن الأصل في الشروط عند الشك والله المستعان.

صيغة العقد

أهم سؤال في هذا الحقل عن حاجة العقد الى مظهر من قول أو فعل أو كتابة أو إشارة، وقد استدلت على ضرورة إظهار العقد القلبي بمظهر من أي نوع كان، بما يلي:

أ- إن العقد هو العهد الشديد والعزم الراسخ، أو بتعبير حديث: إلتزام. ومن دون مظهر له لا يتحقق، بل يبقى أشبه بأمنية أو رغبة أو وعد.

وهذا الدليل غير كاف، إذ قد ينعقد القلب بما لا يظهره المرء؛ مثل النذر والعهد. قال الله سبحانه على لسان النبي زكريا عليه السلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (مريم/ ٢٦)

وقد ذهب الشيخان والقاضي وابن حمزة من علمائنا السابقين عليهم الرحمة الى إنعقاد النذر والعهد بالضمير دون اللفظ، واستدل لهم: بأنهما عبادة والأصل في العبادة الضمير والاعتقاد، لعموم قوله صلى الله عليه وآله: إنما الأعمال بالنيات. وإنما للحصر والباء للسببية، وذلك يدل على حصر العمل في النية، فلا يتوقف على غيرها. (١)

(١) راجع الفقه الاسلامي ص ٢٤٦، نقلاً عن كتاب المسالك للشهيد الثاني.

ب- بالاجماع، حيث قال صاحب كتاب العناوين بعد أن بين ضرورة المظهر للعقود، قال: ولا خلاف لأحد فيما ذكرنا، وهو الحجة القاطعة مضافاً الى أصالة عدم ترتب الآثار. (١)

ج- بأصالة عدم ترتب الآثار من دون مظهر من قول أو فعل. وجاء في الحديث: إنما يحلل الكلام ويحرم الكلام. (٢)

أقول: إن كانت الأدلة العامة التي شرعت العقد شاملة للعقد القلبي، فلا مجال لأصالة عدم ترتب الآثار، بل الأصل عدم اشتراط المظهر.

وكذلك الإجماع المحكي ليس بحجة في هذه المسألة الفرعية، التي لم يتعرض الجميع لها. ولكن مع ذلك فإن صدق العقد الذي يعتمد على التراضي من دون أي مظهر، غير واضح. والشك في ذلك كاف في وجوب اشتراطه، لعدم إمكانية الرجوع الى العموم والاطلاق مع الشك في شمول كلمة العقد لمثله.

بلى؛ كلما صدق عليه العقد عرفاً، إنطبقت عليه الأدلة العامة، وهو يصدق عادة مع أقل مظهر ومع أي نوع من المظهر؛ لفظاً كان أو فعلاً أو إشارة أو كتابة، بل حتى ولو كان سكوتاً في مقام يرد من يريد الرد فإنه قد يكون تعبيراً عن القبول؛ مثل سكوت البكر بعد عرض الزواج عليها، فإنه يدل على رضاها إذا منعها الحياء عن الإفصاح بالقبول.

وفي ذلك يقول الدكتور عبد الرزاق السنهوري: وقد يكون مجرد السكوت في أحوال خاصة من مظاهر التعبير. (٣)

وفي بعض العقود تتأكد أهمية صورها؛ مثلاً في عقد النكاح اشتراطوا وجود ألفاظ خاصة وصريحة، وذلك للاهتمام الشديد في الشرع بقضية النكاح وبناء الأسرة.

(١) المصدر، ص ٢٤٥.

(٢) وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ٢٨٤، الباب ١٢ من ابواب عقد البيع وشروطه، ح ١٣.

(٣) الوسيط، ج ١، ص ١٨١.

وكذلك الطلاق فإن الشهادة فيه شرط تحققه، حيث قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَاَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (الطلاق/٢)

وكذلك الشهادة في الوصية، حيث يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُنَّمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ﴾ (المائدة/١٠٦)

ونستوحي من الذكر الحكيم ثلاث بصائر في صورة العقد (وصيغته)، وهي:

١- الاهتمام بالقسط. فكأما توقف عليه القسط والعدل (وإيتاء كل ذي حق حقه) وجبت مراعاته، وذلك لما علمنا من الشرع من قيمة القسط، وأيضاً لما أمرنا به الرب في المعاملات، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (البقرة/٢٨٢)

وتختلف المعاملات في ذلك إختلافاً فاحشاً، فبعضها يتوقف إقامة القسط فيها على الدقة فيها (بالكتابة أو الإشهاد)؛ مثل المعاملة على العقارات الكبيرة فلا يترك، وبعضها يخشى من ضياع الحق من دون التدقيق؛ مثل المعاملة على السيارة فينبغي ذلك (ويستحب)، وبعضها لا يتوقف عليه مثل المعاملة على أمر يسير يداً بيد، فلا يجب ولا يستحب.

ويبدو لي إن على الفقهاء أن يصدروا أحكاماً خاصة في الموارد المختلفة، حسب شهادة الخبراء بمدى توقف القسط على التدقيق.

٢- الاهتمام بالشهادة، حيث قال سبحانه: ﴿وَأَقِمْ لِلشَّهَادَةِ﴾ (البقرة/٢٨٢) ولعل معناها ان تكون المعاملة من الوضوح بحيث يمكن الشهادة عليه، فلا يكون غامضاً أو معتمداً على حسن النية من الطرفين.

ويبدو أن الوضوح هو طريق إقامة القسط، فإذا اختلفا وكان العقد مكتوباً،
أمكن الإستشهاد بالكتابة عليه.

ويمكن أن نستفيد من الآية ضرورة الصراحة في كلمات العقد. أما نسبة
هذه الصراحة الضرورية شرعاً، فهي بنسبة توقف الشهادة عليها. ولأن
ضرورة إمكانية الشهادة تأتي من ضرورة القسط، فإن الواجب منها هو
المقدار الذي يتوقف عليه القسط.

٣- الاهتمام بنفي الريب، حيث قال سبحانه: ﴿وَأَدْنَىٰ الْأَتْرَابِ﴾

(البقرة/٢٨٢)

ولعل نفي الريب هدفه إقامة المعاملة على الثبات والاستقرار، ونفي أسباب
الخلاف في المجتمع، وهو - بدوره - وسيلة لإقامة الشهادة وتحكيم العدالة.
وقد ذهبت المدرسة الألمانية في فقه القانون الى أن العقد ظاهرة إجتماعية
وقانونية، ومن هنا اعتمدوا الإرادة الظاهرية وفضلوها على الإرادة الباطنية.

وبناءً على تفسيرنا لهذه الكلمة تكون في الآية إشارة الى ذلك، والفقيه

الخبير بالظروف

الإجتماعية يتمكن من بيان الوسائل الكفيلة بدرء خطر النزاع وإشاعة الريب
في المعاملات. إلا أننا نتصور إن كثيراً من الأحكام الشرعية التي بينها
الفهاء في المعاملات، هدفها إبعاد خطر النزاع وما يفسد العلاقات
الإجتماعية.

ومن هنا قال في الجواهر: إن المعاملات شرعت لنظام أمر المعاش
المطلوب لذاته، ويتوقف أمر المعاد عليه، (١) وهي مثار الاختلاف ومنشأ
التنازع والترافع. فوجب ضبطها بالأمر الظاهر الكاشف صريحاً عن المعاني
المقصودة بها من العقد والحل والربط والفك، وإلا لكان نقضاً للغرض
الداعي الى وضع المعاملة واثباتها في الشريعة. (٢)

(١) لعله إشارة الى الحديث المعروف: من لا معاش له، لا معاد له.

(٢) جواهر الكلام (طبعة بيروت)، ج٨، ص ١٢٨.

الأصل في الشروط

وبالنسبة الى سائر الشروط التي قيد بها البعض صورة العقود، فإن الأصل عدم إشتراطها، اللهم إلا أن يثبت بنص صريح أو يكون مقدمة لتحقيق العدالة، واقامة الشهادة، ودرء الريب، وبالتفصيل الذي قدمناه. (١)

وقد أسهب الفقه الاسلامي -كما القوانين الوضعية - في تحديد صورة العقود (صيغتها) وبيان الأحكام والأنظمة التي ترسم حدودها. وبالرغم من إن بعضها خاضع للظروف التي تحيط بالعقود، وبالتالي فهي من متغيرات الفقه التي لا بد من الرجوع فيها الى فتاوى الفقيه وأحكام القضاء، وكذلك الى اللوائح القانونية التي تتطور من عصر لعصر ومن بلد الى بلد.

بالرغم من ذلك، إلا أن أكثرها أصبحت ثابتة، وتحولت الى عرف سائد في المعاملات. ومن هنا فإننا نستعرضها فيما يلي، ولكننا نؤكد - مرة أخرى - إن بالإمكان تطوير قسم منها إذا دعت الحاجة إليها على أن نراعي عند تطويرها البصائر والحكمة التي استوحيناها من نصوص الوحي. وهكذا يمكن أن يضيف الفقيه أحكاماً جديدة استناداً الى تلك البصائر.

ولأننا قد ذكرنا أصول الأحكام الشرعية في العقود وبصائرها، فإننا لا نخوض عند بيان الأحكام في التفاصيل ونقتصر على ذكر رأينا في الأحكام، على أن هناك آراء أخرى لسائر الفقهاء يمكن مراجعتها في الكتب الفقهية المفصلة.

١/ عقد البيع وغيره من المعاملات إيجاب وقبول، ويكفي فيهما كل ما يدل عليه من قول أو إشارة أو كتابة؛ مشافهة أو عبر الهاتف، أو عبر الفاكس والانترنت، أو اية وسيلة أخرى.

ويكفي أن يكون التعبير عن العقد ظاهراً في المقصود عند الطرفين، كما يكفي التوقيع على عقد المعاملة، كما يكفي العقد بأية لغة، ولا يجب أن يكون

(١) قد تحدثنا عن جملة من شروط الصيغة في كتابنا "الفقه الاسلامي الأصول العامة"، راجع الصفحات ٢٩٣-٣٠٩.

بصيغة الماضي؛ مثل بعت، بل يصح المضارع مثل أبيع. ولا يضر اللحن الذي لا يغير المعنى.

٢/ ينبغي أن يسبق الإيجاب القبول، ولكنه لا يجب إذا أفاد الكلام المعنى؛ مثلاً إذا اشتري شخص البيت ولكن المشتري وقع العقد قبل البائع، صح.
٣/ لا بد أن يتصل القبول بالإيجاب عرفاً حتى يعتبر عقداً، أما إذا وقع بينهما فصل طويل يتنافى عرفاً مع حالة التعاقد، لم ينعقد.

بلى؛ إذا كانت خصوصية التعاقد تقتضي مثل هذا الفصل فلا بأس، كما إذا أجرى الموجب صيغة العقد بلغة لا يعرفها المشتري ثم قبل المشتري بعد أن ترجمت له، كفى. كذلك لو أرسل الموجب العقد بالبريد ليوقعه المشتري فلما وصل إليه وقعه بعد أن درسه جيداً أو إستشار آخرين، صح.

والمعيار هو أن يعتبر العرف عملهما متصلاً ببعضه. أما إذا انفصل عن بعضهما - مدة لم يعتبر العرف القبول رداً على الإيجاب - بطل.

وفي هذا الأمر يمكن للفقهاء الإستيناس بالأنظمة الحديثة باعتبارها وسيلة الى فهم العرف، وفي هذه الأنظمة اعتبر مجلس العقد معياراً، حيث يقول د. السنهوري: إذا كان التعاقد بين حاضرين في مجلس واحد، ولم يقترن الإيجاب بأجل للقبول، (١) فإن الإيجاب يبقى قائماً، ويجوز أن يقترن بالقبول _ مادام مجلس العقد لم ينفذ، فاذا إنفض سقط الإيجاب وامتنع القبول. (٢)

ومراده من مجلس العقد ما بيّنه تالياً: إذا صدر الإيجاب في مجلس العقد، دون أن يُعيّن ميعاد للقبول، فإن الموجب يتحلل من ايجابه إذا لم يصدر القبول فوراً. (٣)

(١) يبدو أن مراده: لم تحدد مدة معينة للقبول.

(٢) الوسيط للدكتور عبد الرزاق السنهوري، ج ١، ص ٢١٣.

(٣) المصدر.

ويشرح لاحقاً معنى مجلس العقد في القانون: وليس الملحوظ فيه (مجلس العقد) المعنى المادي للمكان، بل الملحوظ هو الوقت الذي يبقى فيه المتعاقدان منشغلين بالتعاقد دون أن يصرفهما عن ذلك شاغل آخر. (١)

ويستنتج من ذلك بأنه لم تعد الفورية في القبول لازمة، بل يجوز فيه التراخي مدة معقولة لا ينشغل فيها المتعاقدان بغير العقد، ويبقى الموجب على إيجابه. (٢)

ويلحق بالمجلس كل إتصال؛ سواءً بالهاتف أو الفاكس أو البريد الإلكتروني (إيميل) أو ما أشبهه.

هذا في العقد بين حاضرين، أما إذا كان بين غائبين فالمجلس يبدأ من حيث وصول الاتفاق بيد الطرف الثاني. ويقول القانون في هذا الشأن: وإذا صدر الإيجاب لغائب دون أن يُحدّد ميعاد للقبول، فإن الموجب يبقى ملتزماً الى الوقت الذي يتسع لوصل قبول يكون قد صدر في وقت مناسب وبالطريق المعتاد. (٣)

٤/ والتطابق بين الإيجاب والقبول شرط في العقد. فلو تم إيجاب البائع على بضاعة أو بشرط معين، بينما قبل المشتري بضاعة أخرى أو بشرط آخر، فإن العقد لا يكتمل.

والمعيار هنا أيضاً العرف؛ فإن العقد الذي لا يترضى طرفاه على شيء واحد، لا يعتبر عقداً عند العرف، إلا إذا كان الإختلاف في بعض التفاصيل غير المهمة عند الطرفين، بحيث يتم - في الواقع - تراضيهما وتوافق ارادتيهما.

وفي مسألة عدم توافق الارادتين، يقول د. السنهوري وهو يبين معنى الغلط المانع: كما إذا أعطى شخص لآخر نقوداً على أنها قرض وأخذها

(١) الوسيط للدكتور عبد الرزاق السنهوري، ج ١، ص ٢١٤.

(٢) المصدر، ص ٢١٥.

(٣) المصدر، ص ٢١٠ وقد ذكر تفاصيل لا يهمننا ذكرها ما دام الاتفاق بين الطرفين، وطبيعة العقود والأعراف هي التي تحدد تلك التفاصيل.

الآخر على أنها هبة، أو في ذاتية المحل كما لو كان شخص يملك سيارتين من صنفين مختلفين فباع أحدهما، والمشتري يعتقد أنه يشتري الأخرى، أو في السبب كما إذا إتفق الورثة مع الموصي لهم على قسمة العين الشائعة بينهم ثم يتضح إن الوصية باطلة. (١)

ولكن إذا كان الإختلاف في الأمور القانونية، فالأمر مختلف. وتأسيساً على ضرورة التوافق بين الإيجاب والقبول، قال الفقيه السبزواري: لو قال البائع بعث هذا من موكلك، فقال الوكيل: اشتريته لنفسى، لم ينعقد. (٢) بلى؛ لو كان قصده البيع لشخص من دون خصوصية للوكيل والموكل صح العقد. (٣)

ولو قال: بعثك هذا بألف، فقال: إشتريت بعضه بألف أو بخمسة، لم ينعقد. (٤)

وهنا نقول أيضاً: لو كان البائع يريد بيع كل واحد بدينار مثلاً دون أن يختلف عنده الحال بأن يبيع ألف واحد بألف أو خمسة بخمسة أو أقل أو أكثر، فإن البيع ينعقد. بلى؛ ظاهر الكلام لا يدل على ذلك، بل علينا مراجعة القرآن، وطبيعة المعاملة وعرف السوق، من أجل معرفة نية البائع. والقانون الحديث يرى القبول غير الموافق للإيجاب نوعاً من الإيجاب، ويعتبر رد البائع قبولاً له. يقول د. السنهوري: أما إذا كان (القبول) غير مطابق له (للإيجاب)، بل إختلف عنه زيادة أو نقصاً أو تعديلاً، فإن العقد لا يتم، ويعتبر مثل هذا القبول رفضاً يتضمن إيجاباً جديداً. (٥) ثم قال: وهذا الحكم هو الذي تنص عليه المادة ٩٦ من القانون الجديد، إذ تقضي بما يأتي:

(١) المصدر، ص ٢٩٠.

(٢) مهذب الأحكام، ج ١٦، ص ٢٣٩.

(٣) راجع المصدر، ص ٢٤٠.

(٤) المصدر.

(٥) الوسيط، ج ١، ص ٢٢٠.

إذا اقترن القبول بما يزيد في الإيجاب أو تقييد منه أو يعدل فيه، اعتبر رفضاً يتضمن إيجاباً جديداً. (١)

ونحن - بدورنا - نؤكد على ما أسلفنا من أن ذلك إنما يتم إذا كان اقتراح القابل يتنافى مع إرادة البائع، وأما إذا انسجم مع جوهر إرادته أمكن أن يكتفي بالقبول، وذلك إذا كان اقتراحه مجرد تغيير في الأمور القانونية التي لا تؤثر في العقد.

٥/ أهلية الموجب حين الإيجاب، وأهلية القابل حين القبول، إنها شرط في صحة العقد، ولكن هل إن أهليتهما شرط أيضاً في حال إنشاء الآخر؛ فلو أوجب الطرف الأول العقد، ثم نام أو جن أو مات، ثم قبل الثاني، فهل يصح العقد أم يبطل؟ وبالعكس لو افترضنا أن العقد كان غائباً وأوجب الطرف الأول في حال جنون الطرف الثاني، ولكنه أفاق وقبل، فهل يصح العقد؟
اختلف علماؤنا في هذه المسألة، كما اختلف علماء القانون الحديث، ومنشأ الاختلاف عدم معرفة صدق العقد على مثل هذه المعاملات..

من هنا ذهب الشيخ الأنصاري (قدس الله سره) إلى بطلان العقد، بينما رأى العلامة الأيرواني (رحمه الله) إلى صحة العقد، أما السيد الطباطبائي (رحمه الله) فقد اشتهر في بعض فروع المسألة أن يكون القابل كامل الأهلية عند إنشاء الموجب، بينما ذهب السيد الحكيم (رحمه الله) إلى اشتراط أهلية الموجب عند إنشاء القبول. (٢)

وذهب الفقيه السبزواري (رحمه الله) إلى أن القابل إذا كان واجداً للأهلية عند الإيجاب، ثم فقد الموجب الأهلية عند قبوله، إنعقدت المعاملة. (٣)
أما المرجع الشيرازي (حفظه الله) فهو يرى صحة العقد في كل الصور.

(١) المصدر.

(٢) راجع كتاب "الفقه" للمرجع الشيرازي، ج ٢، ص ٣٢.

(٣) مهذب الاحكام، ج ١٦، ص ٢٤٣.

وكما اختلف فقهاؤنا، كذلك اختلفت المدارس القانونية؛ فالمدرسة الألمانية والسويسرية ذهبتا الى صحة العقد، بينما المدرسة الفرنسية رأّت بطلانه، وإختار القانون الإيراني هذا الرأي. (١)

وكل الآراء تقريباً تعتمد على معيار واحد هو؛ إن مثل هذه المعاملة هل هي عقد عرفاً أم لا؟

ونحن نرى إن الأعراف تختلف، ولهذا ينبغي أن نراجع القضاء في كل واقعة واقعة لكي نستنبط رأي العرف الخاص بكل عقد عقد وبظروف المتعاقدين لمعرفة صحة العقد أو بطلانه. وفي بعض المعاملات قد يصدر القاضي حكماً بالصلح.

ومع صدق العقد عرفاً ورضا الطرفين المسبق به، لم نجد في الشرع دليلاً على بطلان العقد..

٦/ وقد يستغنى عن القبول اللفظي بما يقوم مقامه من سكوت، أو فعل، أو إذعان، أو ما أشبهه. والمعيار في ذلك كله وجود ما يدل على إرادة الالتزام غير القول. ومادامت الإرادة (النية) قد وجدت وقد ارتبطت بالإرادة من الطرف الآخر (الموجب)، فقد اكتملت المعاملة وصدق أنها عقد أو بيع أو تجارة عن تراض. ولأن هناك دلالة كافية من غير اللفظ على الرضا، فإن الإبهام يزول ولا يبقى محل للارتياب.

والموارد التالية التي نضربها كأمتلة لهذه الحالة، نستفيدها من الأنظمة الحديثة باعتبارها نافذة على العرف؛ والأمتلة هي التالية:

ألف: إذا كانت طبيعة المعاملة أو العرف التجاري أو الظروف المحيطة تدل على أن السكوت يكفي قبولاً، كما إذا ارسل المصرف كشفاً لعميله وذكر فيه أن عدم الاعتراض يعد إقراراً له. أو كان تعامل سابق، كما إذا اعتاد

(١) راجع حقوق تعهدات بالفارسية (انتشارات دانشگاه) للدكتور اميري قائم مقامی، ج ٢، ص ١٩٤-١٩٧.

عميل إستيراد البضائع التي يريدّها من تاجر بالكتابة اليه فيرسل له التاجر ما يريد دون أن يؤذنه بالقبول.

وبتعبير الفقهاء: إذا كان السكوت في مقام البيان ذا دلالة على القبول (١)، ومنه سكوت الشخص بعد أن يهب له الآخر شيئاً مما يدل على رضاه بالقبول.

باء: كذلك قد يقوم تنفيذ العقد عملياً مقام قبوله، كما إذا عرض أحد بضاعته عليك.. فأخذتها وقدمت له ثمنها دون أن تصرح بالقبول. (٢)

جيم: في عقود المزااد جرى العرف أنه عندما يرسو المزااد على شخص يعتبر ذلك قبولاً منه. (٣) والواقع إن المشتري - في هذه الحالة - كان قد قبل بالصفقة قبل ايجابها، وذلك عند اشتراكه في المزااد. وهكذا يعتبر هذا العقد من مفردات تقديم القبول على الايجاب الذي سبق أنه ممكن.

دال: في عقود الازعان حيث لا يسع الفرد إلا القبول به؛ مثل عقود المواطنين مع دوائر الكهرباء والماء والهاتف وما أشبه، يعتبر القبول نوعاً من الاضطرار، حيث إن رفض هذه العقود يعرض المواطن لأخطار. ومن ذلك العقد مع مصلحة سكك الحديد ومع الخطوط الجوية ومع البريد والهاتف وشركة الغاز وما أشبه. (٤)

ومجرد عدم رفض هذه العقود يعتبر قبولاً من المواطن لكافة التفاصيل المذكورة في العقود، ولا مناص له منها أبداً.

والواقع إن عقود الازعان حالة وسطية بين العقد الفردي والعهد الاجتماعي، حيث إن قبول المواطن للحياة العصرية يفرض عليه القبول بمثل هذه العقود. وطريقة مواجهة الحيف فيها، هي وسيلة مواجهة الحيف السياسي خصوصاً في الدول ذات الأنظمة الشمولية.

(١) الوسيط، ج١، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) المصدر، ص ٢٢٥.

(٣) المصدر، ص ٢٢٦.

(٤) راجع المصدر، ص ٢٢٩-٢٣٥.

هاء: ومثل عقود الازدعان، العقود النموذجية التي تضعها الجهات الرسمية لبعض المعاملات؛ مثل عقد الايجار للمساكن، وعقد النكاح، وعقد الاستخدام في الشركات وفي المصانع وما أشبه. فإن على الفرد إما الاستجابة لكافة الشروط الرسمية، وإما رفضها. وباعتبار إن الرفض غير واقعي لحاجته اليها، فإن الاستجابة لها قبول منه لها.

والواقع إن القبول بالشروط المذكورة في هذه العقود، إنما هي أنظمة وأعراف وشروط ضمنية لها قوة القانون، وهي – من الناحية الشرعية – غير ملزمة إلا إذا إتفق الطرفان عليها، أو اقتضتها الضرورات الاجتماعية حسب تشخيص أولياء الأمر الشرعيين.

عن أحكام المعاطاة

١/ عقود التعاطي لا تحتاج الى التعبير اللفظي، وقد سبق الحديث (١) عن ضرورة إظهار العقد (الذي هو التزام باطني) بقول أو بفعل. وإن العقد الذي لا يعبر عنه بمظهر، غير صحيح على الأرجح. ولكن طائفة من فقهاءنا اشتروا اللفظ في العقود، فقال المحقق الحلي: ولا يكفي التقابض من غير لفظ وإن حصل من الامارات ما يدل على إرادة البيع، سواء كان في الحقير أو الخطير. (٢)

ونقل العلامة النجفي في شرحه الإجماع على هذا الرأي، ولكنه نقل عن الشيخ المفيد في المقنعة قوله: ينعقد البيع عن تراض بين الاثنتين فيما يملكان التبايع له إذا عرفاه جميعاً، وتراضيا بالبيع وتقابضا واقتربا بالأبدان. (٣) ثم حكى عن المحقق الكركي قوله: المعروف بين الأصحاب أنها – أي المعاطاة – بيع وإن لم تكن كالعقد في اللزوم. (٤)

(١) في مطلع هذا الفصل.

(٢) جواهر الكلام، ج ٨، ص ١٠٩.

(٣) المصدر.

(٤) المصدر، ص ١١٠.

ولكننا نرى أن المعاطاة بيع ولازم، وهي جارية في كل العقود إلا ما استثنى مثل النكاح والطلاق. (١)

أما القانون الوضعي فقد ذهب بعض الأنظمة الى أن التعبير عن الإرادة يكون باللفظ وبالكتابة وبالإشارة المتداولة عرفاً، كما يكون باتخاذ موقف لا تدع ظروف الحال شكاً في دلالاته على حقيقة المقصود. (٢)

واليوم أضيفت الى الكلام والتعاطي بصفتها معبرين عن العقود أمورٌ أخرى؛ مثل التوقيع وبصم الأصابع ووضع الإعلان في الصحف وما أشبهه. ومادام العرف يرى كل هذه الوسائل ذات دلالة واضحة على العقد (الذي هو إلتزام إرادي)، فإنها كافية.

ولا بد من بيان هذه الحقيقة؛ ان تمايز العقود عن بعضها ومستلزمات كل عقد منها يقتضي توضيح آفاق التراخي، سواءً باللفظ أو بالكتابة أو بالإشارة الى اتفاقات معلومة عند الطرفين، حتى لا يقع الخلاف .

وقولنا بالاكْتفاء بالتعاطي، لا يعني تمييع الحدود بين أقسام العقود، وفتح باب المنازعات.

٢/ ولأن الحياة قد تعقدت، ولان هناك ثغرات كثيرة في بعض العقود قد سببت في مشاكل، فإن العرف قد وضع لوائح وأنظمة لمختلف العقود المهمة، ولحدود الإلتزام فيها. ومن هنا فإن من الأفضل رعايتها من قبل الأطراف، وذلك باحالة توافقهم على ما هو المعهود. كما أن الفقه الاسلامي ينبغي أن يدرس هذه الأنظمة ويقرر ما هو الواجب إتباعه منها، وما هو المحبذ إتباعه.

ولا يمكننا اليوم أن نكتفي بما سبق، وإن بيّنه الفقه في حدود المعاملات، ونحكم بأن غيرها لا يجب الإلتزام بها، لأن الظروف اليوم غيرها في السابق. ولكي يصبح الفقه حاكماً، فعليه أن يجاري التطورات، وأن يبيّن الحكم الشرعي فيها.

(١) راجع الفقه الاسلامي للمؤلف ص ٢٤٧ فما بعد.

(٢) الوسيط، ج ١، ص ١٧٥ نقلاً عن المادة ٩٠ من القانون المدني الجديد (لمصر).

ومما يخفف العبأ على الفقه، إن المعاملات هي في الأكثر أمور عرفية، وأغلب الأنظمة المرعية اليوم فيها مستوحاة من العرف، أو من الضرورات التي شهد بأهميتها الخبراء، والفقه يحيل مثل هذه الأمور إليهم. ومن هنا فإن من المرجح فقهيأ إتباع ما يراه العرف ضرورياً في الاتفاقات الهامة، درءً لخطر النزاع، أو رعاية للعدالة الاجتماعية، أو إحتياطاً على حق قد يضاع. مثلاً؛ في شراء العقارات هناك أنظمة مرعية، القسم الكبير منها تبدو ضرورية؛ مثل التسجيل الرسمي مع الشهود والتوقيع، وفيها درء لخطر النزاع خصوصاً بعد تعاقب الايدي.

وكذلك في عقود الاستخدام هناك أنظمة مرعية تحتاط للعدالة ولحق المستخدم من حيف رب العمل.

وفي عقد النكاح الرسمي هناك أنظمة مرعية تختلف من دولة لدولة، إلا أن هدفها المحافظة على حقوق المرأة (وهي الضعيفة في مثل هذا العقد). وهكذا في سائر العقود المهمة.

القسم الرابع: شروط المتعاقدين

يشترط الفقه في طرفي العقد عدة شروط تتصل بأهلية المتعاقد، وهي: البلوغ والعقل وحرية الإرادة (عدم الإكراه) والملك (حق التصرف). ويجمع الشرطين الأولين الرشد، حيث يتحقق بالبلوغ والعقل، والذي يتنافى مع صحة عقد الصبي غير المميز والمجنون، بل حتى المميز والسفيه.

ويفصل الحديث عن الإكراه (عدم الرضا التام) معناه ومعياره ووسائله، وهل يعتبر الحياء نوعاً منه، وهل يصح عقد المكره إذا لحقه الرضا.

ثم نتناول بحث حق التصرف أو الملكية كشرط أساسي في المتعاقد، ونتحدث عن عقد الفضولي الذي يتفضل أو يتطفل بالعقد عن المالك ونذكر أولاً علة هذا البحث وحكمة صحة عقد الفضالة، ونقسّم ثانياً من لا يملك حق التصرف بقسمين؛ المتفضل المحسن والمتطفل غير المحسن (كالغاصب) ونناقش القسم الأول، ونبحث عندئذ عن إلتزامات المتفضل، وعن مصيبة الموت لو وقعت عليه أو على صاحب الملك (رب العمل)، وعن إلتزامات المالك (رب العمل).

ثم نتحدث عن القسم الثاني (عقد المتطفل)، وعن مدى تصحيح عقده، وعن أحكام ذلك العقد؛ مثل ضمانه لعين المال ومنافعه. ثم ندرج في البحث عن الفروق بين المتفضل والمتطفل، وعن تصرف المتفضل، وعن الغرامة وكيف تلحق بالجاهل بأمر الفضالة، وما حكم العالم بالفضالة.

وتبعاً لشروط الملكية نتحدث عن أحكام الشخص الذي يبيع ما يملك، وما لا يملك.

وفي نهاية البحث نتحدث عن القاعدة التي استحدثت في القانون الجديد وسميت بقاعدة الإثراء بلا سبب، والتي نسميها بقاعدة نفي الظلم والضرر، حيث نتحدث عن مصدرها وأركانها ورأي الفقه فيها. والله الموفق.

ثم إن شروط هذا الفصل تتصل جميعاً بالإرادة (الرضا)، والشروط الأخير هو الذي يستجمعها، حيث إن من لا سلطة له، لا يمكنه أن يلتزم لغيره بشيء.

وسلطة التصرف قد يفقدها الفرد، لأنه طفل، أو لأنه معتوه، أو لأنه مكره (لا قرار له)، أو لأنه غير مالك للشيء ولا ولاية له عليه. ولأن هذه الشروط لا تقتصر على المعاملات فقط، بل تشمل كافة الحقول الشرعية، ابتداءً من التكاليف الشرعية (كالصلاة والصوم والحج)، فإن القدرة على التصرف شرط فيها، وهي تشمل على تلك الشروط بصورة أو بأخرى. أقول: ابتداءً بالتكاليف الشرعية، وانتهاءً بالأحكام (الحدود والديات)، ومروراً بالعقود والايقاعات (كالطلاق والهبة ..).

ومن هنا فإن الحديث عنها ينبغي أن يكون حديثاً عاماً وفي بحث مستقل، إلا أننا نشير هنا الى ما يتصل بالعقود مختصراً، ونوالي الحديث عن الشروط تباعاً.

١/ البلوغ

وقد إشتراطوه في العقود جميعاً، ويدل على إشتراطه في المعاملات المالية قوله سبحانه: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء/ ٦)

والآية تدل على إشتراط البلوغ، قبل ايتاء أموالهم اليهم. ومعلوم إن الايتاء هنا بمعنى السماح لهم بالتصرف فيها، مما يدل على أن الطفل محجور عليه قبل البلوغ وقبل الرشد، إذ يتأخر الرشد العقلي عن البلوغ الجسدي، إذ قد يبلغ الطفل سفيهاً ثم يرشد وقد لا يرشد أبداً.

أما رشد الطفل قبل البلوغ فهو إن كان فنادر، ولا يمكن أن يكون موضوعاً لحكم عام.

والذي نستفيده من الآية الكريمة؛ إن الصبي لا يكون حراً في التصرف في أمواله – كما السفيه – ولا يدل على أن تصرفاته لا قيمة لها أبداً، فإذا كانت باذن الولي فإنها تكون مشروعة.

ومن هنا جرت سيرة المسلمين على الاستفادة من الأطفال في البيع والشراء، ولكن تحت نظارة أولياءهم، وفي حدود الإنز لهم. وقد استدل بالسيرة هذه السيد صاحب الرياض وغيره. (١)

ولكن المحقق الحلي قال: فلا يصح بيع الصبي ولا شراؤه ولو أن له الولي، وكذا لو بلغ عشرأ عاقلاً على الأظهر. (٢)

واستدل - العلامة النجفي - على ذلك بالإجماع، وبالحدِيث التالي المأثور عن حمران - أو حمزة بن حمران- المروي في المستطرفات: إن أبا جعفر (الامام الباقر عليه السلام) قال: الغلام لا يجوز أمره في البيع والشراء، ولا يخرج عن اليتيم حتى يبلغ خمس عشر سنة. (٣)

وجاء في حديث آخر مروي عن الامام الصادق عليه السلام: أنه سئل أبي وأنا حاضر عن اليتيم متى يجوز أمره؟ قال: حتى يبلغ أشده. قال: وما أشده؟ قال: إحتلامه. (٤)

والواقع إن هذين الحدِيثين يشعران بأن الطفل لا يمكن أن يكون مستقلاً في التصرف قبل البلوغ، فجاوز الأمر تعبير عن نفاذ قراره.

وهكذا لا يدلان على سلب عبارته، وعدم الاعتناء به أبدأً. وفي فقه القانون يقسمون العقود الى أنواع أربعة بالنسبة الى الأهلية (وبالذات أهلية الصبي)؛ عقود اغتناء (كالهبة بالنسبة الى الموهوب له)، وعقود إدارة (كالايجار بالنسبة الى الموجر)، وعقود تصرف (كالبيع)، وعقود تبرع (كالهبة بالنسبة الى الواهب). ويرون أن الصبي المميز يمكنه مباشرة عقود الاغتناء (بقبول الهبة) وعقود الادارة (فيصبح موجراً)، وأنه لا يصلح وحده (وبلا إذن الولي) مباشرة عقود التصرف والتبرع. (٥) ويرى القانون المصري أنه إذا كان

(١) راجع جواهر الكلام، ج٨، ص١٣٥.

(٢) المصدر، ص ١٣٤.

(٣) وسائل الشيعة، الباب ٢ من أبواب أحكام الحجر، ح ١.

(٤) وسائل الشيعة، الباب ١٤ من ابواب عقد البيع وشروطه، ح ٣.

(٥) راجع الوسيط، ج١، ص ٢٦٨.

الصبي مميزاً، كانت تصرفاته المالية صحيحة متى كانت نافعة نفعاً محضاً، وباطلة متى كانت ضارة ضرراً محضاً. وأما التصرفات المالية الدائرة بين النفع والضرر، فتكون قابلة للإبطال لمصلحة القاصر. (١)

كما أن القانون يستثني الصبي المميز في إدارة ماله الذي كسبه من عمله الخاص متى بلغ السادسة عشرة. (٢) ومعلوم أن هذا السن هو سن البلوغ عندنا، فالموضوع خارج عن دائرة البحث. كما ورد في السنة بجواز وصيته وعتقه وطلاقه. (٣) والبحث عن هذه الموارد موكول بأبوابها الخاصة.

٢/ المجنون ومن بحكمه

والمجنون والسكران غير المميز والمغمى عليه والنائم ممن لا إرادة لهم، لا قيمة لعقدهم حتى ولو رضوا كل منهم بما فعل بعد زوال عذره. (٤)

والأصل في ذلك إن حقيقة العقود هي التراضي والإرادة المتبادلة، ومع عدم التمييز لا تكون هناك إرادة ولا قصد. ولذلك فإن عبارات هؤلاء لا قيمة لها حتى ولو لحقها الرضا، لأن الإرادة عندهم مفقودة.

وفي ذلك يقول د. السنهوري: الأهلية مناطها التمييز، لأن الإرادة لا تصدر إلا عن تمييز، فمن كان كامل التمييز كان كامل الأهلية. (٥) ومن نقص تمييزه كانت أهليته ناقصة، ومن إنعدم تمييزه إنعدمت أهليته. (٦)

وإذا كان المنط التمييز، فهل يعتد بكلام المجنون الذي يملك قدراً من التمييز إذا لحقه رضاه بعد الافاقة؟ الجواب: لا؛ لأن الجنون هو ضد التمييز تماماً، وافتراض تمييز المجنون هو بمثابة افتراض افاقته.

(١) المصدر، ص ٢٧٥.

(٢) المصدر، ص ٢٧٧.

(٣) راجع الوسائل في أبواب الوصية (ح ٥ و ٤)، والعتق (الحديث ١)، والطلاق وأبواب مقدمات الطلاق وشرائطه (ح ٢).

(٤) جواهر الكلام، ج ٨، ص ١٣٦ نقلاً عن شرائع الإسلام للمحقق الحلي.

(٥) أي من حيث التمييز، لأنه قد يفقد المرء الأهلية لأسباب أخرى كالحجر.

(٦) الوسيط، ج ١، ص ٢٦٨.

ومن هنا فإن مجرد القصد لا يكفي، لأن القصد مع إنعدام التمييز مثله مثل قصد النائم، وفي ذلك يقول العلامة النجفي بعد أن يحكي الإجماع على عدم الإعتداد بعقد المجنون، يقول: لا لعدم القصد فإنه قد يفرض في بعض أفراد الجنون، بل لعدم اعتبار قصده وكون لفظه كلفظ النائم. (١)

وقد أجاد المحقق في جعل المناط في السكران التمييز، لأن السكران قد لا يبلغ به السكر درجة فقد التمييز. ومثله المريض الذي يهيمن عليه الوجد، أو المشدوه، أو الغاضب، أو المخدّر بالبنج أو بالمخدرات، أو الذي يغالب النعاس، كل أولئك إذا فقدوا التمييز فقدت كلماتهم قيمتها الشرعية.

ونستوحي هذا المعيار من قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء/٤٣)

فإن المفهوم من قوله سبحانه ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا﴾ انه حتى تميزوا كلامكم.. ومثل هؤلاء الهازل، فإن لفظه لا قيمة له، لأنه لا نية معه ولا إرادة تدعّمه. لذلك إستغرب العلامة النجفي من إلتزام الصحة في الهازل. (٢)

ويبدو أن بعض درجات الإكراه ملحقة بالهازل، مثل الشخص الذي يلقن الكلام تلقينا، حتى يكون كلامه بلا قصد منه، ولعل هذا النوع من الإكراه لا يدخل ضمن حديث الفقهاء عن المكره.

والغفلة تلحق بالسكران، لأنها أيضاً تفقد صاحبها التمييز. ونستلهم حكم الغافل والهازل والمعتهو ومن أشبهه من قوله سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ﴾ (المائدة/٨٩)

وفي الأنظمة الحديثة ينص القانون المدني المصري الجديد على أن المجنون والمعتهو وذا الغفلة والسفيه تحجر عليهم المحكمة. (٣) ولكن القانون

(١) جواهر الكلام، ج٨، ص ١٣٦.

(٢) المصدر، ص ١٣٧.

(٣) الوسيط، ج١، ص ٢٧٩ نقلاً عن المادة ١١٣ من ذلك القانون.

يرى أن أهلية المجنون معدومة، لأنه فاقد التمييز. (١) أما المعنوه فإن كان غير مميز فتكون أهليته معدومة، شأنه شأن الصغير غير المميز والمجنون، وقد يكون مميزاً فتكون عنده أهلية الصبي المميز. (٢) وكذلك ذو الغفلة والسفه تعتبر أهليتهما ناقصة.. ولذلك تجري وصيتهما ووقفهما بعد إجازة المحكمة. (٣)

وهكذا ربط القانون بين الأهلية وبين التمييز، فالذي لا تمييز له أصلاً تكون أهليته معدومة، كالصبي غير المميز وكالمجنون، بينما الذي لديه التمييز المحدود تكون تصرفاته متوقفة على إذن الولي. وهذا الربط ليس بعيداً عن قواعداً الفقهية.

٣/ المكره

والمكره لا إختيار له، ولذلك فإن أهليته ناقصة ولا قيمة لعقده، إلا إذا رضي به لاحقاً. ويتحقق الإكراه بما يسلب به إختيار الفرد؛ مثل تهديده في نفسه أو ماله أو عرضه بما لا يُحتمل عرفاً (ويكون الأمر باحتماله حرجاً عليه). ومن هنا فإن الضرر اليسير، والأذى البسيط، لا يكون وسيلة الإكراه. وإنما تسلب قيمة عقده، لأن الرضا شرط، ومن دونه يكون أكل المال بالباطل أو من دون طيب النفس فيكون حراماً، والعقد باطلاً.

وقد ذكر الفقهاء فروعاً كثيرة في تحقيق معنى الإكراه. ولكن لأن حالات الأفراد مختلفة، وموارد الضغط على الأشخاص متفاوتة، فالأفضل أن نجعل وجدان الفرد حاكماً عليه فيما يتصل بالإكراه، ولدى الإختلاف يمكن مراجعة القضاء، ولدى التردد في مفهوم الإكراه يمكن استفتاء الفقيه بعد بيان خصوصيات المسألة.

(١) المصدر، نقلاً عن المادة ١١٤ من ذلك القانون.

(٢) المصدر.

(٣) المصدر، ص ٢٨١.

إلا إن علينا أن نذكر هنا - باذن الله تعالى - المعيار الذي يسري في الإكراه، ونبين بعض الفروع التوضيحية.

ماهو الإكراه؟

لكي نتوضح أكثر فأكثر حقيقة الإكراه، لا بد أن نعرف الفارق بينه وبين الإلجاء، وأن نعرف معياره الذاتي ووسائله المادية.

أ - بين الإكراه والإلجاء

الإلجاء هو دفع الفرد تحت ضغط شديد الى القيام بممارسة من دون إرادة؛ مثل أن توجر الخمر في حلق شخص، أو تؤخذ يده وتبصم بها على ورقة عقد، أو يضرب شخص ضرباً مبرحاً حتى يعترف ظاهراً بأمر، وهكذا.. وفي هذه الحالة لا يمكن أن ينسب الفعل الى الشخص، بل الى من ألجأه.

بينما الإكراه هو إيجاد باعث للفرد على عمل بعد تهديده، وإثارة الخوف في نفسه. فالباعث كما قد يكون رغبة في خير، قد يكون رهبة من شر. والعمل في هذه الحالة ينسب الى الفاعل، ولكن يعذر عليه لوجود الرهبة.

وفي ذلك يقول د. السنهوري: فالمكره ارادته موجودة، ولو انتزعت منه هذه الإرادة رهبةً، لأنه خير بين أن يريد أو يقع به المكروه الذي هدد به، فاختار أهون الضررين وأراد، إلا أن الإرادة التي صدرت منه إرادة فاسدة، لأنها لم تكن حرة مختارة. (١)

ويقول العلامة النجفي وهو يفرق بين الإكراه والإلجاء: فالمكره القاصد للفظ ومدلوله على نحو سائر أفعال العقلاء كالمكره على الأكل والشرب ونحوهما (حكم هذا المكره) حكم الفضولي. والمكره الذي قد جرد نفسه من قصد العقد بما يتلفظه به على وجه لم يصدر منه إلا اللفظ (فبعده) باطل وإن تعقبه الرضا بعد ذلك لفوات القصد. (٢)

(١) الوسيط، ج١، ص٣٣٤.

(٢) جواهر الكلام، ج٨، ص١٣٨.

ولكن يشترط في الإكراه أن يكون مصدر الرهبة شخص، أما إذا كان مصدرها الضرر الناشئ من الطبيعة، فلا. مما يسمى بالاضطرار؛ كما لو أن شخصاً خاف على مريضه فباع بيته لمداواته، ولولا خوفه من موت عزيزه لما باع بيته. ولكن البيع هنا صحيح، حتى ولو تم تحت ضغط الظروف.

ب - معيار الإكراه

يبدو أن معيار صدق الإكراه هو وجود رهبة في النفس، تدفع صاحبها إلى إختيار ما لا يرغب فيه لولا هذه الرهبة. والرهبة عامل ذاتي يختلف بين فرد وآخر، ومن ظرف لآخر. والعبرة أبداً بحالة المكره، فقد يكون أثر التهديد كبيراً عند شخص، بينما لا يأبه به شخص آخر.

ولا فرق في التهديد بأن يتناول الشخص نفسه أو من يكون عزيزاً عليه من زوجته أو ذريته أو رفقة أو ماله وحقوقه وحتى كرامته؛ فمثلاً لو كان أحدهم يعرف سراً مهماً من تاجر، فهدده لولم يبعه بضاعته، فإنه يفضحه، مما أثار الرهبة في نفسه والخوف من شرفه وسمعته العزيزة عليه، والهامة بالنسبة إليه كتاجر، فأقدم على البيع خوفاً منه.

والناس الذين يكونون أجراء على الشخص، قد يكونون من نوي قرابته أو لا، إلا أنه يعزهم، فلو هدد شخص التاجر بأنه لولم يبعه البضاعة المعينة يفضح شركاءه ممن يعزهم ويعتبر الضرر عليهم ضرراً عليه، فهنا يتحقق الإكراه.

يقول د. السنهوري: ويقدر (القاضي) علاقة المتعاقد بمن يهدده الخطر، هل هي علاقة وصلت إلى الحد الذي يجعل المتعاقد يتأثر من هذا الخطر بحيث تقسد ارادته، فيبطل العقد. (١)

(١) الوسيط، ج١، ص ٣٤١.

ج - وسائل الإكراه

قد تكون وسيلة الإكراه حسية؛ مثل الضرب والايذاء والتهديد بالقتل أو بالاعتقال أو بالتهجير. وقد تكون وسيلته نفسية؛ كالتشهير واستخدام النفوذ للطرد من الوظيفة وما أشبه.

والخطر الذي يهدده به يجب أن يكون في مستوى العمل الذي يجبره عليه؛ مثلاً لو هدده بهجره لو لم يبيع بيته، ولم يكن في هجره له كبير ضرر عليه، فإنه لا يعتبر إكراهاً، لأن بيع بيت السكن لا يقدم عليه الفرد بسهولة. بلى؛ لو قال له إما أن تبيعني قلمك أو أهجرك، وكان صديقاً عزيزاً عليه، وكان لهجره له أذىً نفسياً له، فقد يعتبر ذلك إكراهاً له عند العرف.

كذلك لا يسمى إكراهاً لو قال إما أن تتزوج ابنتي أو أتهمك بأنك معقد. فإن تقبل هذه التهمة أهون عليه من الإبتلاء بزوجة لا يرتضيها.

وفي هذا السياق يقول الأستاذ الكبير الشيخ كاشف الغطاء: إن الأحوط مراعاة التعادل بين ما يخاف على الناس، وبين ما يخافه على نفسه، وإن كان الأقوى عدم وجوبها. (١)

ولكن العلامة النجفي جعل معيار الإكراه في كل مورد معياراً واحداً، حيث قال: ليس هو (الإكراه) إلا الإلزام والإلجاء من المتسلط الذي يخشى منه على النفس والمال والعرض أو أحدها على وجه لا يتحمل عادة. (٢)

أقول: يبدو أن العرف شاهد إن الإكراه في كل مورد يختلف باعتبار ما يهدد به الظالم وما يأمر به. ومن هنا فقد نفوا الإكراه في الدماء، وجاء في الحديث المشهور: لا تقاة في الدماء.

(١) جواهر الكلام، ج ٨، ص ٨٨.

(٢) المصدر، ص ٨٧ (ملحوظة: ذكر المؤلف ذلك في باب الإكراه على الولاية).

د - الإكراه للحق

وهنا سؤال: هل يجوز الإكراه للحق؛ كأن يطالب الدائن المدين بالرهن ويهدده بأنه إن لم يفعل فإنه يقدمه للمحكمة، فهل يبطل عقد الرهن لأنه قد أوقعه المدين تحت ضغط التهديد؟

يقول العلامة النجفي: صرح غير واحد بالصحة معه. (١)
ويرى القانون أيضاً ذلك، حيث يقول د. السنهوري: إذا كانت الوسائل مشروعة في ذاتها ويراد به الوصول الى غرض مشروع، بأن يضغط شخص على إرادة شخص آخر من طريق المطالبة بحق له عليه، ولا يقصد بهذا الضغط إلا الوصول الى حقه، فلا يبطل العقد للإكراه. (٢)
وقد ناقش العلامة النجفي في هذه المسألة بوجهين؛ الأول: إن للسلطة إجبار من عليه الحق بأن يعقد العقد عليه من دون دخالة منه في ذلك.. فلماذا الإكراه؟ الثاني: إن العقد الذي يقدم عليه الفرد المكره لا قيمة له، لأنه يجري بدون رضاه، فما فائدته؟

ويمكن أن نجيب عليهما بما يلي :
أولاً: لا توجد دائماً سلطة تكره المماطلين، وليس لأحد غيرها ممارسة الإكراه، فما العمل؟

ثانياً: إرادة المكره ليست عديمة الفائدة ولكنها ناقصة، والحق يكملها. والمسألة بحاجة الى تمحيص أكثر.

هـ - الحياء أو الشوكة الأدبية

هل العقد الذي يجريه الفرد حياءً باطل، كالذي يمارس عليه أبوه أو زوجته أو رئيسه أو مسؤوله الحزبي أو قائده، يمارس عليه أحد هؤلاء الضغط حتى يضطر الى إيقاع عقد، (مثلاً عقد الزواج ممن لا يرتضيه)، فهل العقد باطل؟

(١) المصدر، ص ١٣٨.

(٢) الوسيط، ج ١، ص ٣٤٢.

الجواب: إبطال العقد بحاجة الى إنعدام الإرادة، والإرادة في مثل هذه الحالة موجودة، وبواعثها ذاتية، وليست خارجية. فهي أشبه شيء بالعقد الذي يضطر اليه الفرد، كمن يبيع بيته لمعالجة ابنه من مرض عضال. والسبب إن خضوع الابن للأب إنما هو لأنه يحترم أباه، وليس لأنه يخاف منه. وكذلك سائر أمثلة الضغط الأبوي. من هنا فإن أكثر الأنظمة الحديثة لم يبطلوا العقد بمثل ذلك.

يقول د. السنهوري: لا يكفي (النفوذ الأدبي) عادة ليكون وسيلة للإكراه، ذلك إن استعمال النفوذ الأدبي والشوكة أمر مشروع ما دام القصد من ذلك الوصول الى غرض مشروع. (١)

ويمكن إستثناء أمرين:

الأول: إذا بلغ النفوذ درجة فقد الفرد إستقلاله تماماً، أو كان خائفاً من مغبة المخالفة؛ كالبنات التي تخشى من رفض إقتراح أبيها بالزواج ممن لا تريده، لأنها تعرف أن أباهما سوف يُطلق أمها في هذه الحالة، أو سوف يحرمها من الارث، أو ما أشبه. فهنا عناصر الإكراه متوافرة.

الثاني: إذا قصد صاحب النفوذ الوصول الى غرض غير مشروع، حيث إن ذلك من الإستغلال المحرم.

يقول في ذلك د. السنهوري: فلا يوجد في هذه الحالة ما يمنع من الطعن في العقد بالإكراه. (٢)

وقد سبق منا الحديث عن الاستغلال والاضطرار فلا داعي للتكرار، إلا أن من المهم جداً تطبيق قواعد العقد الأساسية عند البحث عن أية مفردة؛ مثل التجارة عن تراض، فما كانت مشمولة بها من العقود صحت، ومالم تكن لم تصح. والله المستعان.

الرضا بعد الإكراه

(١) الوسيط، ج ١، ص ٣٤٥.

(٢) الوسيط، ج ١، ص ٣٤٥.

المشهور بين فقهاءنا إن الرضا الذي يلحق عقد المكره يصححه، بينما ناقش في ذلك البعض، ولم أجد في الوسيط للدكتور سنهاوري بحثاً قانونياً في إجازة المكره. بلى؛ حديثه عن إجازة الفضولي قد يكون نافعا في موضوع المكره، لأنهما مشتركان في النظرية. ولكن الدكتور إمامي قد تحدث عن ذلك شارحاً المادة (٢٠٩) من القانون المدني الإيراني، حيث يبين إن سبب صحة عقد المكره بعد الرضا هو أن القصد متوفر في معاملة المكره، ولكن رضاه المعتدل (التام) هو المفقود، وليس من اللازم تقارن الرضا والعقد، ويمكن أن يتأخر الرضا عن العقد كما في معاملة الفضولي. (١)

والدليل على تصحيح عقد المكره، إن إرادته لم تكن فاسدة حتى لا تحتمل التصحيح، كما هي في المجنون والصبي غير المميز، بل عقده عقد ناقص يكتمل بالرضا، لأن عناصر العقد الأخرى متوافرة. فالعاقد المكره قد يلتزم بدفع السلعة في مقابل أخذ الثمن، وهو قد سلم نفسه لمثل هذا التبادل، ولكن ليس بطيب نفسه، بسبب إن باعته نحو هذا العمل كان إكراه المكره. تماماً كما المضطر الذي يكره نفسياً ببيع سلعته، ولكنه مجبور على ذلك بسبب ضغط الظروف، ويبيعه صحيح بالرغم من ان باعته غير مرضي عنه.

لماذا يبيعه صحيح؟ لأن عناصر العقد متوافرة فيه، حتى طيب النفس والرضا. بينما المكره يفقد عنصر طيب النفس الذي جعل شرطاً في حلية المال كما جاء في الحديث الشريف: لا يحل دم امرء مسلم ولا ماله إلا بطيبة نفسه. (٢)

وهكذا يعتبر العرف عقد المكره تجارة، ولكنه ليس عن تراض. ولقد قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء/٢٩)

(١) راجع "حقوق مدني" بالفارسية للدكتور السيد حسن الامامي، ج١، ص ١٩٤.

(٢) بحار الأنوار، ج٨، ص ٢٧٩.

وهكذا إشتراط لحدية أكل المال أن يكون عن تراضي. فالتجارة من دون تراضي تجارة ولكنها ناقصة، فاذا لحقها التراضي اكتملت. ومثل عقد المكره، عقد الفضولي الذي سوف نتحدث عنه إن شاء الله لاحقاً. والرضا (كما الإذن في عقد الفضولي) يمكن أن ينتقل الى الوارث، لأنه من شؤون المال فهو حق عرفاً. وللبحث تنمة نتعرض له إن شاء الله لاحقاً.

(١)

شرط الملكية وعقد الفضولي

من الشروط الواضحة للعقود أن يكون العاقد مالكاً لحق التصرف في المعقود عليه (محل العقد كالبضاعة في البيع والإيجار، والبضع في النكاح والطلاق).

قال المحقق الحلبي: (ومن شروط المتبايعين) أن يكون البائع مالكاً أو ممن له أن يبيع عن المالك، كالأب والجد للأب، والوكيل والوصي والحاكم وأمينه.

(٢)

وقال العلامة النجفي في شرحه على هذا النص: بلا خلاف أجده في شيء منها، بل الإجماع بقسميه على ذلك، بل غيره من الأدلة كتاب (كتاباً) وسنة.

(٣)

والبحث عن أولياء العقد في البيع والاجارة وسائر المعاملات المالية، والعقود الاجتماعية؛ كالنكاح والطلاق والعنق وما أشبه إنه بحث واحد، نرجئه لحين آخر. إنما المهم أن نعرف إن العقد أنى كان نوع من التصرف لا يمضي إلا ممن له صلاحية التصرف، كالمالك أو وكيله أو وليه.

وقال المحقق الحلبي عن عقد من لا يملك حق التصرف، قال: فلو باع ملك غيره، وقف على إجازة المالك أو وليه على الأظهر. (١)

(١) عند البحث عن الإذن في عقد الفضولي.

(٢) جواهر الكلام، ج٨، ص ١٤٠.

(٣) المصدر.

وقال العلامة النجفي: الأشهر، بل المشهور، بل قيل كاد يكون إجماعاً.
(٢)

ونبحث تالياً بتوفيق الله في ثلاثة بنود: أولاً: في حكمة صحة عقد الفضولي. ثانياً: في عقد المتفضل. وثالثاً: في عقد المتطفل.

أولاً: حكمة الفضولي

من خصائص التشريع السليم الاستجابة لمتطلبات الحياة الاجتماعية، ولأن الناس يبتلون بالعقد الفضولي كثيراً، فمن الضروري بيان وجه الصحة أو البطلان فيه. أما كيف إن الابتلاء به كثير؟ فالأمثلة التالية شاهدة عليه:

قد يعقد المرء عقداً بزعم أن له حق التصرف فيه، ولكنه يكتشف غير ذلك؛ كما لو باع شخص سلعته يزعم أنها له فتبين غير ذلك، فيكون البيع فضولياً. وقد يضطر الشخص الى عقد كما لو كانت لغيره عنده سلعة تعرضت للخطر والفساد، فلو لم يبيعها لم يستقد أحد منها، فيتصرف فيها بالبيع أو ما أشبهه، فيكون فضولياً. وقد يكون الشخص وكيلاً عن آخر، فباع واشترى وتصرف في المال، ثم ظهر له أن المالك كان قد عزله أو أنه قد تجاوز حدود صلاحيته، فيتحقق موضوع الفضولية. وفي كثير من الدعاوى التي يطول أمر البت فيها، لا يمكن تجميد الأنشطة التجارية حتى يتبين من له حق التصرف، فيكون من الفضولي.

وهكذا كان من الحكمة تصحيح العقد الفضولي إذا لحقه الإن من المالك؛ أولاً: لتسهيل أمر التجارة، وتمشية المشاريع الاجتماعية. وثانياً: للجمع بين حق المالك وحق الآخرين الذين تصرفوا في المال، وربما بحسن نية، والذين وقعوا طرفاً للعقد من دون علمهم بالأمر. ثالثاً وأخيراً: لأن من مصلحة المالك قد يكون إتمام العقد، فإبطاله رأساً لا يخدم مصلحته، كما لا يخدم الآخرين.

(١) المصدر.

(٢) جواهر الكلام، ج٨، ص ١٤٠.

ثانياً: عقد المتفضل

التفضل هو الاحسان، والمتفضل هو الذي يريد خدمة من له حق التصرف على أن يستأذن من بعد. بينما المتطفل هو الذي لا ينوي خدمة من له التصرف، بل خدمة نفسه أو إتباعاً لهواه. ولأن الأنظمة الحديثة قد فرقت بين الشخصين، ولأن بعض الأحكام الفقهية تختلف بينهما، فكان من المناسب بحث كل في بند مختلف.

ويبدو من التعبير بلفظة "الفضولي" في لسان المتشرعة، إن مبدء البحث في عقد غير المالك قد نشأ من بحث حالة المتفضل الذي هو المحسن، (١) ذلك لأن للاحسان أحكامه الشرعية. (٢)

والمتفضل قد يكون وكيلاً للمالك، يتصرف أكثر من حدود وكالته من أجل خدمة موكله؛ مثلاً قد يوكل المالك شخصاً لايجار دار، ولكن الوكيل يجد صفقة فورية لبيع الدار، وفي تقديره أن المالك لو علم بالصفقة لبادر الى تنفيذها، فيقدم الوكيل على ذلك مشروطاً باجازة المالك..

وقد يكون المتفضل من أصدقاء المالك، ويجد أن بيته الذي بيده مفتاحه يتعرض للهدم، فيقدم على ترميمه تفضلاً وانتظاراً لأمر المالك.. أو يجد أن جاره قد عرض بيته للبيع، وأنه من المناسب جداً شراء البيت لصاحبه، فيقدم عليه.

ويشترك المتفضل والطفيلي في صحة العقد بعد الاجازة حسب رأينا، والذي سوف تناقش أدلته في البند الثالث، إلا أن المتفضل يمتاز عن صاحبه بعدم الضمان، بل وباستحقاق الأجر في بعض الأحوال.

(١) هذا محتوى حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: والاحسان هو التفضل.

(٢) لم أجد من الكتب الفقهية التي عندي كتاباً يتعرض للتفريق بين المتفضل والمتطفل.

ولقد أفاضت الأنظمة الحديثة في البحث عن المتفضل الذي يسمونه بالفضولي، وهو المحسن، ووضعت له شروطاً وقوانين، دعنا نبحث أولاً عما قالوا، ثم نذكر آراءنا في أقوالهم.

١/ جاء في القانون المصري الجديد (في تعريف الفضالة): الفضالة هي أن يتولى شخص عن قصد القيام بشأن عاجل لحساب شخص آخر، دون أن يكون ملزماً بذلك. (١)

وهكذا إشتراط في الفضالة ثلاثة أركان؛ فورية الشأن، وأن يكون لمصلحة المالك، وألاً يكون ملزماً بذلك.

بلى؛ نصت مادة أخرى من القانون (٢) على أنه: تتحقق الفضالة ولو كان في أثناء توليه شأنًا لنفسه قد تولى شأن غيره، لما بين الشأين من ارتباط.

٢/ أما حكم الفضالة، فقد رأى القانون المصري: أنه إذا أقر رب العمل ما قام به الفضولي، فحكمه حكم الوكيل. (٣)

وقد ضربوا الأمثلة التالية على ذلك؛ قبول هبة صدرت من شخص لرب العمل، وإيجار عقار مشترك شائع بينه وبين رب العمل، وبيع محصولات زراعية له مما يسرع إليه التلف، وأن يوفي ضريبة واجبة على رب العمل توقيماً للحجز الإداري. (٤)

وقالوا: قد يكون الفضولي في هذه الحالات ناقص الأهلية (مثل الصبي المميز)، لأن تصرفه بالتالي بحاجة الى إذن من المالك. بلى؛ المالك حين الإذن يشترط فيه الأهلية الكاملة، لأن إذنه يكون ماضياً فور صدوره. (٥)

بلى؛ في بعض الحالات يجب أن يكون الفضولي كامل الأهلية، مثلما إذا قام بتصرف قانوني بدلاً من المالك (رب العمل) مثل أن يتعاقد مع شخص

(١) الوسيط، ج١، ص ١٢٢٨ نقلاً عن القانون المدني الجديد المادة ١٨٨.

(٢) المصدر المادة ١٨٩.

(٣) المصدر، ص ١٢٢٩ عن المادة ١٩٠.

(٤) الوسيط، ج١، ص ١٢٣٢.

(٥) راجع المصدر ص ١٢٣٢-١٢٣٣.

لاصلاح بيته المشرف علنا لانهيأر أو مع المستشفى لانقاذ حياته التي تعرضت لخطر. (١)

وقد إشتروا كون العمل ضرورياً، كما قالوا أنه لا يكون فضولياً من كان يظن أنه يعمل لنفسه فإذا به يعمل لمصلحة المالك. وذلك لأنهم إشتروا أن يكون عمله للغير عن قصد.

وقد إشتروا أيضاً ألا يكون رب العمل قد نهاه مسبقاً عن التدخل، فإنه لا يجوز له - حينذاك - أن يتفضل بالتدخل، وإذا فعل فإنه يتحمل الاضرار التي قد تلحق به. وعلى أي حال لا يكون محسناً أو متفضلاً..

وعدم النهي قد يجتمع مع علم المالك وسكوته عما يفعله لسبب أو آخر، وقد يكون منشأ عدم النهي جهله بما يجري. وعلى العموم يستثنى من ذلك ما لو أوجب تدخله حكم القانون وحكم الشرع، فإنه يجوز له التدخل حتى مع نهي رب العمل؛ مثلاً لو ترك الشخص الإنفاق على من تجب عليه النفقة، ونهى غيره عن الإنفاق عليه، فإنه يجوز الإنفاق عليه من قبل المحسنين. ومثله ما لو إمتنع صاحب الميت تجهيزه ونهى غيره، فإن المحسنين يجهزونه، ولهم أن يرجعوا في الحالتين الى من وجبت عليه النفقة والتجهيز إن لم يكونوا متبرعين، وقد سمى القانون هذا النوع من الفضولي بالإثراء بلا سبب.

مناقشة في الأدلة

١/ ونحن نرى إن تسمية هذا النمط من التدخل بالتفضل لا بأس به، لأن قاعدة الفضولي الأساسية - كما قلنا - هي قاعدة الاحسان. ومادام الاحسان متوفراً، فإن الفضالة موجودة. والحكم في الاحسان شرعاً قد بينته آية كريمة، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة/٩١)

(١) راجع المصدر ص ١٢٣٣-١٢٣٤.

ومن السبيل على المحسن الذي نفته الآية الكريمة تحميله الأضرار الواردة. فلو افترضنا أن شخصاً قد دهسته السيارة وأخذه محسن الى المستشفى استجابة لنداء وجدانه، فهل نحمله مسؤولية وفاة الشخص لولم يهتم به الأطباء حتى مات، أو نحمله نفقات المستشفى؟ كلا؛ لأن ذلك يغلق باب الاحسان. (١)

٢/ كما نرى إن النهي عن التدخل في أمر العقد يجعل المتفضل متطفلاً، وللمتطفل أحكامه القادمة إن شاء الله. والغاصب هو الذي يبيع الشيء المغصوب هو المثل الواضح لمن نهاه المالك عن التصرف في ملكه.

٣/ ولا نرى ضرورة لاشتراط فوروية الحاجة، فقد يكون المحسن قد تفضل بالتدخل في منفعة المالك في أمر غير فوري؛ مثلاً إن أخي وجد من يشتري سيارتي التي عرضتها للبيع بثمن جيد، فباعها فضولة. فهو هنا محسن، ولا مانع من تطبيق قاعدة الاحسان عليه.

٤/ بلى؛ يشترط في المحسن أن يقصد بعمله منفعة الآخر، أما من قصد إيصال النفع إليه فبلغ غيره، لا يُسمى محسناً.

التزامات الفضولي

هل الفضولي ملتزم بشيء بعد بدءه بالتدخل في شأن رب العمل؟ يقول القانون المصري: بلى؛ هناك أربعة التزامات؛ أولاً: المضي قدماً في العمل حتى يتمكن رب العمل من مباشرته. ثانياً: إخبار رب العمل بفعله في أقرب فرصة. ثالثاً: بذل مناسب للعمل. رابعاً: يقدم جرد بالحسابات لرب العمل ورد ما استولى عليه بالفضالة. (٢)

(١) في بلد إسلامي كانت القوانين المرعية تقضي باتهام من حمل جريحاً أو مدهوساً بالحادثة حتى يثبت براءته، وسبب هذا القانون الجائر وفات المئات ممن كانوا بحاجة الى إسعافات فورية وبالذات من ضحايا حوادث السير، مما اضطر الاجهزة المختصة الى تغيير هذا القانون.

(٢) الوسيط، ج١، ص ١٢٤٦.

مناقشة في الأدلة

١/ والدليل الذي يقدمه الدكتور السنهوري للبند الأول هو إن القانون أراد بذلك منع الاستهتار في الفضالة، حيث يقول: أراد المشرع - بهذا الالتزام - أن يمنع التدخل في شؤون الغير عن حقه أو إستهتار. (١)

ولكن لنا أن نناقش فيما ذكره السنهوري إن ذلك إنما يكون فيما إذا كان التوقف يفسد العمل، كمن هدم جانباً من البيت، ثم لم يرممه. أما إذا كان العمل بحيث لا يفسد بترك الاستمرار فيه، كمن يبيع نصف المحصول الزراعي الذي يتعرض للفساد، أو يرش السمّ ضد الآفات في بعض مزارع المالك، ويدع البعض الآخر. فإن المتفضل يمكن أن يقوم به ويتركه لحين يأتي صاحبه، أو متفضل آخر ليكمله.

وهكذا لا نجد حكمة في منع محسن من القيام ببعض الاحسان إذا لم يكن ذلك مضرّاً بمصلحة المالك.

ولعل بعض المحسنين يكف عن الاحسان لو علم أن عليه إتمام إحسانه في كل الحالات، وبذلك نسد باب المعروف أمام طالبيه.

بلى؛ إذا كان البدء بالعمل يقتضي في العرف الاستمرار فيه الى حد معين، كان عليه ذلك، لأنه إلتزم به، ولأن في تركه ضرر على المالك. وذلك مثل أن يبيع البضاعة ولكن لا يقبض الثمن، أو يقبضه ولا يحفظه، أو لا يعمل بالاجراءات القانونية الضرورية، وهكذا. فإن ذلك يعتبر نقضاً لعهد الذي دلت عليه مبادرته، ومعلوم أن نقض العهد قبيح.

٢/ لماذا يجب على الفضولي إخطار رب العمل؟ يقول القانون: لما كان لرب العمل أن يكف الفضولي عن التدخل فيما تصدى له، لذلك كان من واجب الفضولي أن يخطره بتدخله في أول فرصة تتاح له. (٢)

(١) المصدر، ص ١٢٤٧.

(٢) المصدر، ص ١٢٤٩ عن بعض المصادر القانونية.

ويبدو أن هذا الشرط موافق للقواعد العامة، حيث إن التدخل في شؤون الغير لا يجوز إلاّ
بإذنه، ولأن التدخل واقع فأخطاره ضروري للاستمرار فيه. أما إذا أراد أن
يتوقف عن الاستمرار، فأخطاره ضروري إذا كان المضي في العمل لازماً.
ففي هذه الحالة فقط يلزم الاخطار.
٣/ أما وجوب العناية المناسبة بالعمل، فإن ذلك من مقتضيات قيامه بالعمل
الذي يفرض عليه نوعاً من التعهد، وتعهده ليس بانجاح العمل، بل ببذل ما
يحتاجه من العناية التي يبذل أمثاله بأعمالهم.
أما إذا أهمل الإنسان بعد إلتزامه بالعمل، فإنه يتحمل تبعه خطأه، ومعيار
الخطأ هنا كمعياره في الوكيل الذي التزم بانجاز عمله فأهمل وقصر.
بلى؛ باعتبار الفضولي محسناً، فإن مسؤوليته أخف، خصوصاً في القصور
الذي يقع منه من دون إهمال، فإن قوله سبحانه: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة/٩١) يشملها.

موت الفضولي

ماذا لو مات الفضولي أو رب العمل، ماهي واجبات وحقوق الورثة؟
يقول القانون: إن الفضالة تنقضي بموت الفضولي، كما الوكيل الذي تبطل
وكالته بموته. (١)

ولكنه يضيف: إن على الورثة إذا علموا بالفضالة وكانوا أولي أهلية قانونية
تامة، عليهم أولاً إخطار رب العمل بوفاة الفضولي، وثانياً: عليهم أن يحافظوا
على ما تم من عمل بأن يصلوا به الى حالة لا يتعرض معها للتلف. (٢)
أقول: أما إخبار المالك، فلأن ماله عندهم وعليهم أن يردوه إليه بمقتضى
قول الرسول صلى الله عليه وآله: على اليد ما أخذت حتى تؤدي. وأما وجوب

(١) الوسيط، ج ١، ص ١٢٦٠.

(٢) المصدر، ص ١٢٦٠

المحافظة عليه فلذات السبب، حيث إن قوله صلى الله عليه وآله: على اليد..
تقتضي وجوب المحافظة، وإلا كانت ضامنة.

موت رب العمل

وأما عند موت المالك، فإن الفضالة لا تقتضي به - حسب القانون - إنما
يجب على الفضولي أن يوفي بالتزاماته أمام الورثة، لأن الفضولي يبقى
فضولياً سواءً بالنسبة إلى المالك الأول أو الثاني. (١)

التزامات المالك

الأصل في الفضالة إجراء أحكام الوكالة عليها بعد الاجازة، ولذلك فإن
المالك عليه الأمور التالية حسب القانون:

- ١/ تنفيذ التعهدات التي عقدها الفضولي بالنيابة عنه.
- ٢/ إعطاء الفضولي النفقات التي أنفقها إن كانت ضرورية ونافعة.
- ٣/ أن يعوّض الفضولي عن التعهدات التي عقدها هذا باسمه.
- ٤/ أن يقدم للفضولي أجراً على عمله إذا كان العمل الذي قام به الفضولي
يدخل في أعمال مهنته.

٥/ وأن يعوّض الفضولي عن الضرر الذي لحقه بسبب قيامه بالعمل. (٢)

أقول: المعيار عندنا حسب القواعد التي نستوحىها من الشرع؛ إن العمل
الذي قام به الفضولي إذا كان أقدم عليه إحساناً وتبرعاً فلا يحق له مطالبة
المالك به، وإن كان إنما أقدم عليه لأخذ أجرته منه، فإذا رضي المالك بالصفقة
فقد رضي ضمناً بما يترتب عليها ومنها أجر الفضولي، كما سائر مستلزمات
الصفقة. ولكن القانون إشتراط أن يكون العمل الذي قام به الفضولي من مهنته؛
كالطبيب الذي مارس مهنة الطب فضولياً، أما إذا رمم الطبيب بيت جاره فلا
يستحق أجراً على ذلك، لأنه ليس من مهنته. ولعل ذلك لأنه في هذه الحالة لا
يبحث عن نفع له. بينما إذا كان العمل الذي قام به ضمن مهنته، فهو يبحث

(١) المصدر، ص ١٢٦١.

(٢) الوسيط، ج ١، ص ١٢٦٣.

عن أجر.. ولنا في قصة النبي موسى عليه السلام مع بنتي شعيب شهادة على أن العمل الذي قام به تبرعاً إستحق عليه أجراً عند شعيب، مع إنه قام به من دون أمره؛ إحساناً منه وتفضلاً. والحكم الشرعي في هذه المسألة بحاجة الى مزيد تأمل.

ثالثاً: عقد المتطفل

ألف: تصحيح عقد المتطفل

ويشمل المتطفل كل من تعاقد من دون إذن من له حق التصرف (المالك أو رب العمل)، سواءً علم أنه كذلك أم لم يعلم؛ مثل الذي يظن نفسه مالكاً للتصرف فيتبين أنه ليس كذلك.

وسواءً كان معتدياً كالغاصب أو غير معتد كالجاهل، وسواءً أراد بذلك منفعة نفسه أو غيره، وسواءً سبقه النهي من المالك أم لم يسبقه.

وقد صحّ أكثر الفقهاء هذا النوع من العقد إذا لحقه إذن المالك (١) كما بيّن ذلك العلامة النجفي، حيث قال: (على الأظهر) الأشهر، بل المشهور، بل قيل إنه كاد يكون إجماعاً، بل ربما أشعر قوله (أي العلامة الحلبي) عندنا في التذكرة بالإجماع عليه. (٢)

وقد إستدلوا على صحة عقد الفضولي حتى ولو كان متطفلاً بالأدلة التالية:
١/ إن هذا العقد تتوافر فيه بعد الرضا كل أركان العقد، فتشمله الأدلة التي توجب الوفاء بالعقد، مثل قوله سبحانه: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة/١)
بلى؛ الرضا في هذا العقد متأخر عن بقية أركان العقد، وليس لدينا دليل على ضرورة تقارن العقد والرضا. وعقد الفضولي تماماً كالوكالة، إلا أن

(١) التعبير بالمالك يناسب البيع والاجارة، والتعبير برب العمل يشمل أيضاً النكاح والطلاق، والتعبير بصاحب الحق يشمل أيضاً الولي. والتعبير الأول هو الشائع في عرف الفقهاء، لأنهم يبحثون عقد الفضولي في البيع عادة، بينما التعبير الثاني هو الشائع في لغة القانون.
(٢) جواهر الكلام، ج٨، ص١٤٠.

الوكالة عقد مع سبق الرضا (بالتحويل للوكيل)، والفضولي عقد مع لحوق الرضا.

٢/ إن الفضولي عقد جرت سيرة المسلمين عليه باعتبار أن كثيراً من الوكلاء والأقرباء والأحباء كانوا يجرون عقوداً خارج إطار صلاحيتهم، خصوصاً مع إتساع البلاد الإسلامية والثقة المتبادلة بين المسلمين، (١) وكثرة المعاملات التجارية بينهم وانعدام المواصلات السريعة. وفي إستعراضنا للدليل الثالث بعض الشهادة على ذلك.

٣/ هناك نصوص شرعية متفرقة تشهد بوقوع المعاملات التطفلية في العصر الأول، وباقرار الأئمة المعصومين عليهم السلام لها. وفيما يلي نستعرض بعض تلك النصوص:

أ- أهم هذه النصوص هي التي وردت في عقد النكاح وسبب الأهمية أمران: الأول؛ كثرة النصوص الواردة في النكاح. الثاني؛ أن أمر النكاح صعب، وقد إهتم به الشرع المقدّس. أوليس النكاح سور بيت الايمان وقيم الوحي، وبه تنشأ الأسرة المباركة، والحياة الطيبة؟ وقد أجمع الفقهاء - تبعاً للنصوص - على صحة مثل هذا العقد في النكاح، وفيما يلي بعض تلك النصوص:

عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام قال: المرأة التي قد ملكت نفسها غير السفهية ولا المولّى عليها تزويجها بغير وليّ جازي. (٢)
عن عبد الخالق قال: سألت أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام عن المرأة التي تخطب إلى نفسها. قال: هي أملك بنفسها تولى من شاءت إذا كان كفواً بعد أن تكون قد نكحت زوجاً قبل ذلك. (٣)

(١) راجع المصدر، ص ١٤١.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٠١ من ابواب عقد النكاح، ح ١.

(٣) المصدر، ح ٢.

عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام في رجل يريد أن يزوّج أخته، قال: يؤمرها فإن سكنت فهو إقرارها، وإن أبت لم يزوّجها. فان قالت: زوّجني فلانا، زوّجها ممّن ترضى، واليتيمة في حجر الرجل لا يزوّجها إلا برضاها. (١)

ب- الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وآله والذي اشتهر بين المذاهب الإسلامية؛ عن حكيم بن حزام أنّ النبي صلى الله عليه وآله بعث معه بدينار يشتري له أضحية فاشتراها بدينار وباعها بدينارين فرجع فاشترى أضحية بدينار وجاء بدينار الى النبي صلى الله عليه وآله، فتصدق به النبي صلى الله عليه وآله ودعا أن يبارك له في تجارته. (٢)

ج- وفي الحديث المأثور عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام قال: قضى في وليدة باعها ابن سيدها وأبوه غائب، فاشتراها رجل فولدت منه غلاماً، ثم قدم سيدها الأول فخاصم سيدها الأخير، فقال: هذه وليدتي باعها إني بغير إذني. فقال: خذ وليدتك وإنيها. فناشده المشتري، فقال: خذ ابنه يعني الذي باع الوليدة حتى ينفذ لك ما باعك. فلما أخذ البيع الابن قال أبوه: أرسل إني، فقال: لا أرسل إنيك حتى ترسل إني. فلما رأى ذلك سيّد الوليدة الأول، أجاز بيع ابنه. (٣)

وهكذا نجد إن النبي صلى الله عليه وآله لم يردع عرورة من التجارة بديناره، كما لم يبطل الإمام عليه السلام بيع الإبن جارية أبيه في غيابه، بل علقه على إجازة الأب بعد العودة بالرغم من ان الأب كان متردداً في البدء في إنفاذ هذا العقد، وربما رفضه في البدء، ولكنه أجازته بالنهاية لما شاهد من عواقب رفضه، على أن ولده الذي تصرف تصرفاً طفلياً.

(١) المصدر، ح ٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ١٣٦، ح ٤.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٧، ص ٥٩١، الباب ٨٨ من أبواب نكاح العبيد والاماء، ح ١.

د- واستشهد العلامة النجفي بجملة نصوص وردت في عقود مختلفة دلت على صحة عقد الطفيلي والفضولي، ولأنها غير واضحة الدلالة، ولاستغنائنا عنها بالنصوص السابقة، نشير إليها إشارة دون الأفاضة في تفاصيلها، كما فعل العلامة النجفي. ونختصر حديثه الذي يقول فيه: مؤيداً ذلك كله بالنصوص الواردة في اقتراض مال الصبي مع عدم الاذن الشرعي ليتجر به، التي دلت على أن الربح للصبي. وكذلك ما ورد في ودعي حجر الوديعة واتجر بها، من إن الربح للمالك. وفيمن باع ثم أقال بوضيعة ثم باع بأكثر من الثمن، إن الربح للمالك الذي يشتري أولاً، وبالنصوص الواردة في باب الخمس المشتمل بعضها على التصرف فيه من بعضهم وطلب الإجازة من الإمام عليه السلام فأجاز. (١) وأضاف: بل يؤيده - أيضاً- ما ورد في إجازة السيد عقد العبد، والوارث الوصية بما زاد على الثلث، وفي التصديق بمجهول المالك. (٢)

باء: أحكام عقد المتطفل

١/ هل تشمل أحكام المتفضل أو المتطفل لسائر الأبواب؟

يقول العلامة النجفي: يظهر عدم إختصاصه في النكاح والبيع، بل في الروضة أنه لا قائل باختصاصه بهما.

وهو كذلك، لأن الدليل واحد، بل ويشمل دليل صحته الأفعال التي تصح فيها الوكالة، كما قال الشيخ كاشف الغطاء: وفي جري الفضولي فيما جرت فيه الوكالة من العبادات؛ كالأخماس والزكوات وأداء النذور والصدقات ونحوها (إذا أداها) من مال من وجبت عليه (المالك أو المتفضل عليه) أو من ماله (المتفضل)، و (كذلك في جري أحكام الفضولي) فيما قام (وأصبح بديلاً) من الأفعال مقام العقود ونحوه. وكذا (في جري أحكام الفضولي في) الايقاعات (كالعتق) ما لم يتم الإجماع على المنع فيها، (مثل الطلاق، ففي كل

(١) جواهر الكلام، ج٨، ص ١٤٣.

(٢) المصدر.

هذه الموارد هل تجري أحكام الفضولي أم لا؟ هناك) وجهان (وجه بالجواز ووجه بالبطلان)، أقوامهما الجواز. ويقوى جريانه في الإجازة، وإجازة الإجازة، وهكذا. (١)

وما أفاده الشيخ متين إذا لاحظنا دليل صحة الفضولي، وأن هناك توافقاً بين أحكامه وأحكام الوكالة، وإن الإذن المتأخر كما المتقدم والمقارن ماضٍ في الشؤون التي تقبل النيابة. ولكن علينا أن نتأكد دائماً في كل حق مالياً كان أو غيره وفي كل إيقاع وفي كل عقد نتأكد في كل ذلك هل تصح فيها النيابة أم لا.

٢/ بين الكشف والنقل.

لو عقد الفضولي يوم السبت فأجاز عقده رب العمل الأحد، فأى اليومين تحقق العقد؟ فإذا كان قد باع سيارة، فهل إنتقلت ملكية السيارة يوم السبت أم الأحد، وهل أجرة السيارة يوم السبت للمالك الثاني أم الأول؟

أكثر الفقهاء (٢) قالوا بأن مبدء الرضا حين العقد (يوم السبت مثلاً)، ولو كان زمانه متأخراً (أي يوم الأحد مثلاً)، لماذا؟ لأنه كما يقول العلامة النجفي: لأنها (الإجازة) رضى بمقتضى العقد الذي هو النقل حينه، بل هي - في الحقيقة- رضا برضا الفضولي الذي كان مقارناً للعقد. (٣)

والسؤال: كيف يؤثر الرضا الذي جاء متأخراً في العقد الذي قد وقع سابقاً؟ والجواب: إن مثل هذه الأمور الاعتبارية تخضع للعرف، والعرف لا يرى في مثل ذلك مشكلة. ذلك لأننا نعتبر ملكية المشتري منذ العقد، كما الأنظمة التي تنتقر بأثر رجعي.

وهكذا ذكروا فروعاً شتى على أساس أن الإجازة تصح العقد من حين وقوعه، نذكر بعضاً منها:

(١) جواهر الكلام، ج٨، ص ١٤٣.

(٢) المصدر، ص ١٤٦.

(٣) المصدر.

أ- إن المنافع التي للبضاعة هي للمشتري في بيع الفضولي، بينما منافع الثمن للبائع.

ب- لو إنسلخت قابلية المحل كما لو تحول الخل خمراً، أو أرتد المشتري ردة تقبل التوبة، ولكن كان العقد قد وقع على المصحف الشريف، فاعتبار البيع صحيحاً من حين العقد يصح. ولكن العلامة النجفي ناقش في ذلك، وقال: يمكن دعوى ظهور الأدلة في اعتبار القابلية حاله (أي حال الأذن). (١) وأضاف: بل لا بد من إتصالها (القابلية للتبادل) من حين العقد الى حين

الإجازة. (٢)

ولم يظهر لنا من الأدلة ما ظهر للعلامة النجفي رحمه الله. وقصة إجازة النكاح من قبل الصغير الذي زوجه وليه فتاة ثم ماتت الفتاة وأجاز الصبي النكاح بعد بلوغه، هذه القصة التي ورد بها نص، لا نعتبرها بخلاف القواعد العامة، بل هذه القصة موافقة لها.

ج- وقد تتعاقب العقود بعد عقد الفضولي، فإذا باع الفضولي بيتاً لزيد واشتراه جعفر، وباع جعفر ذلك البيت لمحمد، فلما علم زيد صاحب البيت أجاز بيع الفضولي. فقد صحّ بذلك صفقة جعفر، وكان يبيعه البيت لمحمد صحيحاً أيضاً. قال الشهيد الثاني في كتابه المسالك: أنه إذا أجاز عقداً على المبيع صحّ وما بعده خاصة. (٣)

ومعنى ذلك؛ أنه لو أجاز بيع جعفر لمحمد، فإن صفقة الفضولي لا تصح، لأنه إنما أجاز لجعفر بيع بيته ولم يجز للفضولي.

د- ولو افترضنا أن الفضولي باع سيارة محمد بسيارة أخرى، ثم باع السيارة الثانية لجعفر، وجعفر بدوره باع السيارة الثانية لكازم، فجاء محمد وأجاز الصفقة مع كازم. فالمفروض أن الصفقات السابقة مجازة، لأنها لو لم تكن صحيحة لما كان لمحمد الحق في إجازة الصفقة الأخيرة.

(١) جواهر الكلام، ج٨، ص ١٤٩.

(٢) المصدر.

(٣) المصدر، ١٤٩.

وهكذا قال الشهيد في المسالك: وفي الثمن ينعكس؛ أي يصح هو وما قبله خاصة. (١)

هـ- ولا يكفي السكوت مع العلم، وحتى لو كان حاضر العقد. بلى؛ قد سبق أن هناك موارد يعتبر العرف سكوت الفرد علامة الرضا، ففيها يكفي السكوت.

وكما في الرضا كذلك في الفسخ أنه بحاجة الى إرادة، ولا تكفي الكراهة وعدم الرضا. بلى؛ قال العلامة النجفي: إن لم يتم إجماع (على عدم كفاية الفسخ الباطني وضرورة التعبير عنه ظاهراً) أمكن الاكتفاء (بالفسخ الباطني بأن يكون إنشأؤه الفسخ) فيما بينه وبين الله بقصد معنى الفسخ في نفسه. (٢) و- هل يتمشى عقد الفضولي فيمن لا أهلية له عند إجراء العقد؛ كالصبي والمجنون، حتى إذا بلغ أو أفاق أجاز العقد؟ قال بعضهم: لا؛ والأقرب الصحة لشمول أدلة الفضولي لمثل ذلك.

ز- وهكذا يجوز عقد الفضولي إذا مات رب العمل فأجازته ورثته، كما سبق في الفصل الأول.

ح- وكذا لو عرض للمالك عارض الجنون فيما بين يوم العقد ويوم الإجازة فإن إجازته نافذة.

ط- وتصح إجازة المالك لو عقد الفضولي ظاناً أن له حق التصرف، فبان أن ذا الحق غيره، ذلك لأن ظنه لا يفسد نية العقد عنده. أما لو انعكس فباع شيئاً ظاناً أنه لغيره فبان أنه له، فالعقد إنما يصح إذا كانت نيته البيع، حتى ولو كان المال له.

ضمان المال والمنافع

ويبقى السؤال: لو لم يأذن المالك بالعقد، فعلى من يكون الضمان؟ ونقسم السؤال الى فروع، ونتحدث بإذن الله سبحانه عن كل واحد واحد.

(١) المصدر.

(٢) المصدر، ص ١٥١.

أولاً: بين المتفضل والمتطفل

هناك فرق بين المتفضل الذي أحسن الى رب العمل، فحكمه - كما سبق - أنه لا يغرّم شيء. والمشتري هو الآخر لا ينبغي أن يغرّم شيئاً حتى مع علمه، لأنه في مثل هذه الأحوال يتم العقد بإجازة الشرع والعرف؛ مثلاً لو باع أحد بضاعة لغيره مشرفة على التلف، فإن البائع لا يضمن قيمة البضاعة لأنه محسن، والمشتري لا يمكنه الانتظار لحين إجازة المالك حتى يستفيد من البضاعة. وكذلك لو استأجر الفضولي شخصاً لإصلاح بيت يريد أن ينهدم، فلا ينتظر المستأجر أمر المالك الغائب، بل عليه أن يقدم على عمله ويستحق الأجر على المالك. ولم أجد تعرضاً لهذه الفروع في بحث بيع الفضولي من قبل فقهاءنا الكرام.

ويبدو أن المالك لا خيار له إلا بقبول العقد أو تقبل الخسارة.

ثانياً: تصرف طرف الفضولي

الطرف الثاني للعقد إذا كان جاهلاً بأن العاقد معه فضولي أو متطفل، جاز له التصرف في محل العقد اعتماداً على ظاهر الحال.

وأما إذا كان عالماً، فهل يجوز له التصرف؟ قال العلامة النجفي، وهو يبين سبب ضمانه: لأنه يحكم الغاصب في إثبات يده على مال الغير قبل تحقق رضاه، ضرورة عدم اقتضاء مجرد العقد قبل تحقق شرطه (أي رضا المالك) الذي مقتضى الأصل عدم حصوله. (١)

بينما ذهب العلامة البحراني الى جواز التصرف على القول بصحة الفضولي، قال: لا يجتمع القول بصحة الفضولي، وحرمة تصرف المشتري لاقتضاء الصحة ذلك. (٢)

ويبدو أن المسألة قائمة على أساس ظاهر الحال. فإذا كان طرف عقد الفضولي قد استوحى من ظاهر الحال أن الإجازة حاصلة، فإن بإمكانه

(١) جواهر الكلام، ج٨، ص ١٥٥.

(٢) المصدر نقلاً عن كتاب الحقائق.

التصرف، وإلا فإن جواز التصرف مشكل في المتطفل؛ مثلاً لو باع الابن سيارة أبيه في غيبته، فإن ظاهر الحال في الولد الصالح الحكيم أن تقييمه لوضع أبيه تقييم صحيح وأنه يرض بالبيع. أما إذا كان الولد طائشاً، فإنه لا يدل شيء على جواز التصرف، مادام العقد لم يكتمل أهم أركانه.

ثالثاً: غرامة الطرف الجاهل بالفضالة

قال المحقق الحلبي: فإن لم يجز (المالك) كان له إنتزاعه من المشتري، ويرجع المشتري على البائع بما دفعه إليه، وما إغترمه من نفقة أو عوض عن أجرة أو نماء، إذا لم يكن عالماً أنه لغير البائع أو أدعى أن المالك أن له. (١)

وهذا الحكم مستند الى قاعدة الغرور، حيث إن المغرور يرجع الى من غره. وباعتبار إن البائع قد غرّ المشتري، حيث زعم له - ولو من ظاهر حاله - أنه البائع، وأن العقد معه تام، فإن عليه أن يغتزم للمشتري المغرور به. وحكى العلامة النجفي على ذلك الإجماع، (٢) ويدل عليه خبر جميل، حيث روي عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام في الرجل يشتري الجارية من السوق فيولدها ثم يجيء مستحق الجارية. قال: يأخذ الجارية المستحق ويدفع إليه المبتاع قيمة الولد ويرجع على من باعه بثمن الجارية وقيمة الولد التي أخذت منه. (٣)

والخبر يدل على ضمان البائع لما خسره المشتري، والسؤال: وهل يتحمل البائع الغرامة عما إستفاده من المنافع؟ قال العلامة النجفي: المشهور أنه كذلك. (٤)

(١) جواهر الكلام، ج٨، ص ١٥٤.

(٢) المصدر.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٤، ص٥٩٢، الباب ٨٨ من أبواب نكاح العبيد والاماء، ح ٥.

(٤) جواهر الكلام، ج٨، ص١٥٤.

لماذا مع العلم أنه قد إستفاد؟ الجواب: لأنه إنما قدم على هذا النفع مجاناً باعتبار الغرور من فعل البائع، فيكون حينئذ كما لو قدم إليه طعام الغير فأكله جاهلاً. (١)

وقد ذهب بعض الفقهاء الى عدم ضمان البائع، لعدم تضرر المشتري، أو ليس قد إنتفع علماً بأن مبنى قاعدة الغرور التضرر؟ أما إقدامه على الإنتفاع مجاناً بسبب تغيير البائع ففيه تأمل، إذ إن البائع لم يقدم شيئاً مجاناً للمشتري، إنما في مقابل المال. وعلى فرض صحة المعاملة فيكون كالمقبوض بالعقد الفاسد، وإن ما يضمن بصحيحه يضمن بفساده.

رابعاً: غرامة الطرف العالم بالفضالة وإذا كان طرف عقد الفضولي عالماً بالأمر، فإنه لا يرجع الى البائع بما إغترم للمالك. قال العلامة النجفي: بلا خلاف ولا إشكال، لأنه يحكم الغاصب في اثبات يده على مال الغير قبل تحقق رضاه. (٢) وبتعبير آخر؛ انه هو الذي أقدم على ذلك ولا أحد غره، فتشمله قواعد الضمان مثل قاعدة الاتلاف وقاعدة اليد، بل وقاعدة لا ضرر، حيث إن المالك قد تضرر، وضرره كان من قبل المشتري كما كان من قبل البائع، فعليه أن يتحملة.

ويبقى سؤال: ما هو مصير الثمن الذي قدمه المشتري للفضولي؟ يقول المحقق الحلي في الجواب: وقيل لا يرجع بالثمن مع العلم بالغصب. (٣) بل حكى أن المشهور بين الفقهاء، أنه ليس للمشتري الرجوع على الغاصب، وأطلقوا القول في ذلك. (٤)

(١) المصدر.

(٢) المصدر، ص ١٥٥.

(٣) المصدر، ص ١٥٦.

(٤) المصدر.

ولكن العلامة النجفي يناقش هذا الرأي ويقول: لا يخفى عليك ما فيه من الإشكال وعدم الإنطباق على الضوابط المقتضية خلافه في نظائره كثمن الخمر والميتة وغيرها. (١)

أقول: كذلك على ما أسسوه في المقبوض بالعقد الفاسد، وما استدلوا به فيه من قاعدة اليد والاتلاف، حيث إن المشتري لم يسلط الغاصب على الثمن بلا مقابل.

ولكن العلامة النجفي عاد ووافق المشهور، مع أنه لم يقبل بالأدلة التي اقيمت لتأييد رأيهم، بل قال: فالعمدة (على هذا الرأي) ظهور إطباق الأصحاب (٢) (أي إجماعهم).

ويبقى سؤال: هل هذا الإجماع حجة كافية؟

ويظهر مما سبق أن بيع الغاصب وسائر عقوده تعتبر من الفضالة الناقصة (والتي سميها بالتطفل)، وأنه إذا لحقها الرضا من المالك إكتملت، بالرغم من أن الغاصب إنما يعقد لنفسه لا للمالك. ولكن هيكلية العقد وصورته سليمة، ويمكن تصحيحه بالرضا.

خامساً: العقد على ما يملك وما لا يملك معاً

ماذا لو باع أحد ملكاً مشاعاً بينه وبين غيره، أو أجره أو ما أشبهه؟ قالوا: مضى عقده فيما يملك حق التصرف، والباقي يتوقف على الإجازة، ويقسط الثمن - بعد أن يقوما جميعاً - ثم يقوم أحدهما ويقسم الثمن بالنسبة. هذا إذا لم يكن الغرض من العقد عند البائع أو المشتري عقد كله أو تركه كله. وبتعبير آخر؛ كان العقد على نحو تعدد المطلوب. وهكذا لو أراد المشتري ردّ الجميع كان له ذلك، ومثل ذلك لو باع يصح بيعه وما لا يصح، كما لو باع شاة وخنزيراً أو خلاً وخمراً.

(١) جواهر الكلام، ج ٨، ص ١٥٦.

(٢) المصدر.

طبعاً شريطة توافر سائر الشروط المعتبرة في البيع؛ كالمالية والعلم (عدم الغرر) وما أشبهه.

قاعدة نفي الظلم أو الإثراء بلا سبب

في الأنظمة الحديثة أسسوا قاعدة أسموها بالإثراء بلا سبب، ويجدر بنا هنا أن نشير إليها لأنها عادة ترتبط بالعقود، ولأن بعضهم كان يعتبرها فضالة ناقصة (تطفل)، بينما اعتبرها البعض أصلاً ترجع إليه أحكام الفضالة. وبالنسبة الى هذه القاعدة الجديدة يزعم الدكتور السنهوري؛ أنه لا يعترف بالفقه الإسلامي بالإثراء بلا سبب مصدراً للالتزام إلا في حدود هي أضيق بكثير من المدى الذي وصل إليه القانون الروماني، والقوانين اللاتينية والجرمانية التي اشتقت منه. (١)

ويلاحظ أن الفقه الإسلامي عند الشيعة يتطور باستمرار بسبب فتح باب الاجتهاد، بينما عند المذاهب الإسلامية الأخرى تطوره بطيء، والذين يراجعون فقط فقه تلك المذاهب يقعون في خطأ نسبة العجز الى الفقه الإسلامي.

وقد تناول الفقه الإسلامي قاعدة الإثراء بلا سبب عند البحث عن حديث لا ضرر، الذي تحول لدى فقهاءنا الى قاعدة هامة. (٢) ولفرط أهمية هذه القاعدة الفقهية، فقد انتقل البحث فيها الى أصول الفقه. بلى؛ علينا أن نعترف إن أبعاد الفقه الإسلامي عن الحياة وابداله بالأنظمة الحديثة، أثر في تباطؤ تطوره، حيث لا يواجه تحديات قانونية هامة. وسوف نتحدث - فيما يلي - بإذن الله عن هذه القاعدة فقهياً وقانونياً في نقاط وباختصار.

ألف: مصدر القاعدة

(١) الوسيط، ج ١، ص ١١٠٧.
(٢) يمكن مراجعة الفقه الإسلامي للمؤلف حول الحديث، وكذلك مراجعة أكثر كتب أصول الفقه التي ألقت في القرن الأخير حول هذه القاعدة.

استندت هذه القاعدة في القانون أولاً الى قانون الفضالة الناقضة، ثم الى قاعدة العمل غير المشروع، ثم الى قاعدة تحمل التبعية.. إلى أن أصبحت قاعدة مستقلة، (١) وتأتى بالطريقة التالية:

الأصل أن مال الشخص لا ينتقل الى شخص آخر إلا في حالتين اثنتين؛ إذا اتفق الشخصان على ذلك، أو كان القانون هو الذي قضى بانتقال المال. فإذا إنتقل المال في غير هاتين الحالتين، وجبت إعادته الى صاحبه. وهذه هي قاعدة الإثراء بلا سبب. (٢)

ولنا ملاحظتان على هذا التأسيس الذي يذهب إليه أيضاً الدكتور أبو عافية في رسالته (التصرف القانوني المجرد). (٣)

الأولى: إن التعبير بالمال ليس دقيقاً، لأنه قد لا يشمل الحق. والأصل أيضاً عدم إنتقال حق الى آخر بلا سبب، والقاعدة تشمل الحق أيضاً. الثانية: أساساً ليس هناك إنتقال، إنما هو تقابل بين إثراء وإفئار، كما نلاحظ في الأمثلة، التي سوف نستعرضها إن شاء الله في البحوث القادمة.

باء: أركان القاعدة

وقد بينوا ثلاثة أركان للقاعدة؛ الأول: إثراء شخص (المدين)، الثاني: إفئار شخص آخر (المدين) إفئاراً مترتباً على ذلك الإثراء، والثالث: إنعدام سبب قانوني للإثراء. (٤)

دعنا نضرب أمثلة على القاعدة؛ الدائن المرتهن للعقار يبني بناءً فيه مما يزيد قيمته. فهنا إفئار عند الدائن، بينما إستفاد المدين (صاحب العقار)، وليس هناك سبب يقتضي إستفادته، فهنا إثراء بلا سبب.

(١) راجع للتفصيل: الوسيط، ج١، من ص ١١١٧ الى ص ١١٢٠.

(٢) المصدر، ص ١١٢٠.

(٣) راجع هامش المصدر.

(٤) الوسيط، ج١، ص ١١٢٢.

ومثله؛ بيت إستفاد منه شخص من دون عقد إيجار، ودلال يساهم في إجراء صفقة، فالمستفيد من البيت أثرى باكتساب منفعة بلا سبب، والمالك إفتقر تلك المنفعة. وهكذا الدلال أضع وقتاً وجهداً لإبرام الصفقة، والمتبايعان استفادا جهده بلا سبب.

وهكذا من دفع دين غيره إفتقر، بينما إستفاد المدين ببراء ذمته، وذلك بلا سبب.

ومثل ربان السفينة يلقي متاع تاجر في الماء ليحفظ السفينة من الغرق باذن الله. فالذي أثرى سائر التجار إستفادوا نجاة أموالهم بلا سبب، والذي إفتقر هو التاجر الذي ألقى بمتاعه في البحر.

وهكذا قد يحترق بيت ، فيهدم رجال الأطفاء جدار الجار، فالجار إفتقر بينما صاحب البيت المحترق إستفاد منه بلا سبب وفائدته نجاة بيته. وقد يكون الإثراء معنوياً، كطالب يتعلم من الأستاذ ويستفيد منه بلا سبب، بينما يخسر الأستاذ الوقت والجهد.

وقد قرر القانون بأن الإثراء إذا كان معنوياً (كالتعلم) وكان يقدر بالمال، أو كان ما يقابله من الافتقار يقدر بمال (كالوقت الضائع في التعليم)، فإنه يدخل ضمن قاعدة الإثراء بلا سبب. (١)

وأما إذا لم يكن يقدر بمال كمن يهتدي بدعوة شخص الى الدين القويم، فإنه لا جهد المبلغ يقدر بمال عادة ولا إثراء المهتدي.

بلى؛ الخطيب الذي يدعى الى منبر ويتحمل تعب الوصول الى المكان ثم الجهد في إلقاء المحاضرة، يفتقر لحساب أصحاب المجلس الذين يستفيدون منه علماً وهدى. فالإثراء هنا بلا سبب، ويستحق الخطيب منهم أجراً.

جيم: رأي الفقه في القاعدة

(١) المصدر، ص ١١٢٩.

ما هو رأي الفقه في هذه القاعدة؟ لكي نستوضح هذا الرأي نذكر النقاط التالية:

أ- إن الله سبحانه قد أمر بالعدل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل/٩٠) وأمر بالقسط، فقال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات/٩)

وإذا عرفت العقول (والعرف الاجتماعي السليم) إن هذا من العدل أو من القسط، فعلينا إتباعه. ولاريب إن إثراء شخص على حساب شخص آخر، إنه ظلم وليس بعدل أو بقسط. ففي حدود حكم العقل، بأنه ظلم لا بد أن نرفع الحيف ونعيد العدل. وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ما رأيت نعمة موفورة إلا وبجانبها حق مضيع.

والمبدء العام في العقود، هو المبدء المستفاد من قوله سبحانه: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة/٢٧٩)

وقد يعرف موضوع العدل والقسط وعدم الظلم من الأنظمة، لأن حقوق الناس على بعضهم تخضع لمقاييس عرفية، والأنظمة الحقوقية تعكس بنسبة معينة تلك المقاييس، وقد استند القانون الى مبدء العدالة حين قرر هذه القاعدة. يقول في ذلك الدكتور سنهاوري: فهو (الإثراء بلا سبب) مصدر للالتزام مستقل قائم بذاته، لا يستند الى مصدر آخر ولا يتفرع عنه، وإنما يقوم رأساً على قواعد العدالة والمنطق القانوني. (١)

ب: قاعدة الضرر التي منشؤها حديث مشهور عن النبي صلى الله عليه وآله: "لا ضرر ولا ضرار" يفسر آيات العدالة بوضوح. ومحتوى هذا الحديث ضرورة رفع الضرر أنى كان، وإثراء شخص على حساب شخص

(١) الوسيط، ج١، ص ١١٢١.

آخر ضرر منه عليه، ورفعته يكون بالتعويض. وهكذا أفاض الفقه في هذا المضمار، (١) وكل الأمثلة السابقة يمكن أن تخضع لقاعدة الضرر. وهنا ننقل نصاً من كتابنا "الفقه الإسلامي" لأن ظاهر لا ضرار إنتقاء طبيعة الضرر، ولأن نفي طبيعة الضرر تقتضي نفي أجزاءها، وبسبب جبر الضرر يرفع أكثر أجزاءه، بل إن الضرر المنجبر يعود كـ (لا ضرر). أما أن الجبر سيكون على المضار فلأنه ظاهر نفي الضرر، إذ إن معناه حسبان الضرر أنه لم يقع، وهو يتحقق بارجاعه الى سببه، فكما أنه إذا قيل لا عسر، فمعناه رد العسر الى الحكم بالغائه، فكذلك إذا قيل لا ضرار، فمعناه رد الضرر الى سببه وجبره من قبله. (٢)

ج: وهناك أحاديث واضحة تمنع من تجاوز حق أحد، مثل قوله عليه السلام: "لا يتوى حق امرء مسلم.. " (٣) وقول رسول الله صلى الله عليه وآله: "لا يحل دم امرء مسلم ولا ماله إلا بطيبة نفسه". (٤)

وهذه النصوص تشمل بعض الأمثلة في الإثراء بلا سبب، إن لم يكن جميعها. فمثلاً؛ الفضالة الناقصة تدخل ضمن أكل المال بالباطل، ويحرّمه نص: لا يحل مال امرء مسلم إلا بطيبة نفسه، لأنه من أظهر مصاديق أكل مال المالك من غير طيبة نفسه. وكذلك حرمان أجر المعلم اتواء ومحقق لحقه، يشمله حديث: لا يتوى.

ويظهر من الحديث المفصل التالي بعض تطبيقات قاعدة الإثراء بلا سبب، علماً بأن جريان هذه القاعدة لا يتوقف على أن يكون الطرف الرابح (المثري) مذنباً أو معتدياً، فقد يثبت الضمان بلا خطأ. والحديث التالي من مصاديق هذا النمط من الضمان. روي عن محمد بن يحيى قال: كتب محمد بن الحسن إلى

(١) راجع الفقه الإسلامي للمؤلف ص ٤٤-٥٧.

(٢) الفقه الإسلامي، ص ٥٣ (مع تصرف واختصار).

(٣) غوالي اللئالي.

(٤) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٧٩.

أبي محمد عليه السلام رجل إشتري من رجل ضيعة أو خادماً بمال أخذه من قطع الطريق أو من سرقة هل يحلّ له ما يدخل عليه من ثمرة هذه الضيعة، أو يحلّ له أن يطاء هذا الفرج الذي إشتراه من سرقة أو من قطع طريق؟ فوقّع عليه السلام: لا خير في شيء أصله حرام، ولا يحلّ إستعماله. (١)

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٥٨، الباب ٣ من ابواب ما يكتسب به، ح ١.

القسم الخامس: عيوب الرضا

لكي يتم الرضا عن العقد، لا بد من تطابق النية مع الواقع. وعدم التطابق قد يكون كلياً بحيث لا يمكن تصحيح العقد أبداً، وقد يكون جزئياً فيصح البيع بعد إكمال الرضا مجدداً. وهذا البحث يتناول ألف: تحديد المحل في العقود وتجنب الغرر والجهالة.

باء: بحث الخيارات، حيث يختل الرضا جزئياً فتعطى فرصة للمتعاقد بفسح العقد إذا شاء، أو الرضا به. وعند بحث الخيارات نذكر أولاً: حقيقتها وجوهرها على اختلاف أنواعها، وثانياً: كيف تسقط.

وبهذا يتم الحديث عن الفصل الأخير في هذه الدراسة بتوفيق الله سبحانه.

ألف: تجنب الغرر والجهالة

الأصل في العقود حرية المتعاقدين فيما يتراضيان عليه ، وقد قال الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنِ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء/ ٢٩)، فقد إستثنى التجارة بالتراضي عن أكل الأموال بالباطل مما يهدينا الى أن ذلك ليس باطلاً، لأنه تجارة (أخذ و عطاء) من دون إكراه. ولعل الفقهاء إستلهموا من هذه الآية قاعدتهم التي اعتمدوا عليها في المعاملات، حيث قالوا: العقود تتبع القصد. وهي تساوي تقريباً القاعدة المعروفة عند خبراء القانون، والتي تقول: العقد شريعة المتعاقدين. إلا أن هناك أسباباً إجتماعية تدعو الى ضبط العقود؛ مثل المنع من الاختلاف، وتسهيل الأمر على البسطاء من الناس، وتحصين أموالهم من أن يخدعوا.. وهكذا وضع فقهاء الشريعة، كما وضع خبراء القانون جملة من الأنظمة في حدود العقود، ومنها منع الجهالة في الكيل والوزن. فكيف كان التراضي أصل للتجارة ثم يشترط الشرع أو القانون أنظمة تحدد التراضي؟

قد يقال: إن هذه الأحكام والأنظمة هي أيضاً إختيارية، فإذا قرر الطرفان التراضي فيما بينهما بطريقة خاصة؛ مثل البيع جزافاً فهذا شأنهما، أما إذا اعتمدا على العرف والفقه والقانون، فإن هناك أنظمة معينة عليهما الإلتزام بها.

والأحكام الشرعية تهدف منع الغرر (الجهالة التي تصبح متاع الغرور)، حيث جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن بيع المضطر وعن بيع الغرر. (١)
والغرر قد يرتفع بتحديد الكيل أو الوزن أو المساحة أو المقدار، وقد لا يرتفع إلا بالمزيد من التحديدات، ومنها تحديد المصنع في المصنوعات، وبلد المنشأ في التجارة، وطبيعة الأرض في المنتوجات الزراعية، وسائر المواصفات ذات الأهمية في كل ما يجري عليه التعاقد.
وهكذا يجب أن يتم المزيد من تحديد المواصفات حسب القوانين والأعراف المرعية، والأنظمة التي يشرف عليها اليوم منظمات ضبط الكيفية (الاستتدارد).

ولعلنا بهذا المنهج نرفع الخلاف بين ثلاثة آراء؛ رأي يشكك في وجوب تحديد المبيع، ورأي يؤكد عليه بكل قوة، ورأي يرجع ذلك الى العرف. وفيما يلي ننقل نماذج من هذه الآراء:

١/ قال المحقق الحلي: الرابع (من شروط المبيع) أن يكون الثمن معلوم القدر والجنس والوصف، فلو باع بحكم أحدهما لم ينعقد (٢). وقال العلامة النجفي في شرحه: بلا خلاف أجده فيه بيننا (٣). هذا في الثمن، أما في المبيع فقد قال المحقق الحلي: أن يكون (المبيع) معلوماً، فلا يجوز بيع ما يكال أو يوزن أو يعد جزافاً ولو كان شاهداً كالصُّبْرَة، ولا بمكيال مجهول. (٤)

(١) وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ٣٣٠، كتاب التجارة الباب ٤٠، ح ٤٠.

(٢) جواهر الكلام، ج ٨، ص ٢٠٥.

(٣) المصدر.

(٤) المصدر، ص ٢١٠.

ثم دافع عن هذا الرأي بقوة.

٢/ أما الفقيه الإسكافي (من قدماء علماء الإمامية)، فقد قال: لو وقع البيع على مقدار معلوم بينهما والتمن مجهول لأحدهما، جاز. ثم قال: فأما إن جهلاً جميعاً قدر الثمن وقت البيع، لم يجز وكان البيع منفسخاً. (١)
وجاء في الناصريات الإكتفاء بالمشاهدة في العلم به عن وزنه وكيله وعده.
(٢)

وقال العلامة النجفي: وكذلك عن الشيخ رحمه الله (٣). ثم قال بعد أن فصل الحديث عن أدلة المشهور، ومنه (أي من استظهاره من الأدلة على ضرورة تحديد المبيع) يعلم ما في مناقشة المحقق الأردبيلي في الخبر المزبور (حيث إنه) ربما ظهر منه الميل الى الجواز، بل لعله صار سبباً لجرأة غيره على ذلك أيضاً. (٤)
وهكذا نستفيد؛ إن هناك أقوالاً أخرى تشكك في وجوب تحديد المبيع، ولو كانت غير مشهورة.

٣/ وقال الفقيه السبزواري: هل هو (شرط تحديد المبيع) شرط تعدي شرعي لا بد وأن يؤخذ من الشارع حتى نحتاج الى التماس دليل فيه؟ أو هو من الأمور النظرية نظير حلية أصل العقود والمعاملات النظامية؟ الحق هو الأخير (أنه من الأمور النظامية العقلانية). وأضاف: لأن هذا الشرط كان بين الناس قبل البعثة وحينها وبعدها في شرق الأرض وغربها في جميع أصناف الناس. وأضاف: فما ورد من الشرع كقوله صلى الله عليه وآله "نهى النبي عن الغرر" أو "عن بيع الغرر" إرشاد الى تقرير طريقتهم، لا إيجاد تعبد خاص مخالف لسيرتهم. وأضاف: فلا مجال لبحث الفقهاء وتطويل الكلام فيه،

(١) المصدر، ص ٢٠٥.

(٢) يبدو أن الكلام منسوب الى السيد المرتضى علم الهدى في شرحه للكتاب الناصريات، أو هو منسوب الى جده في كتاب الناصريات. أنظر المصدر.

(٣) جواهر الكلام، ج ٨، ص ٨٠.

(٤) المصدر، ص ٢٠٧ (بتصرف منا).

ونقل أقوال بلا دليل عليها ولا أثر لها، لأن مثل هذه الأمور ليست استنباطية، بل من العرفيات. (١)

أقول: الذي نفهمه من كلامه رحمه الله إن أمر التحديد عرفي، والشريعة قررت العرف فيه، والمقياس فيه رأي العرف. هذا إذا ثبت أن الشريعة قد أكدت على هذه القضية العرفية وقررت، والذي يشكك في المسألة لا يعترف بذلك.

ويبقى بعد ذلك ما احتملناه من أن هذا التحديد وغيره من تحديدات الفقهاء أو تحديدات القانون، إنما هي لمن أراد أن يعتمد في أموره. أما أنها واجبات تعبدية وتكليفات شرعية مستقلة مثل حرمة الربا وبيع الخمر وما أشبه، فإنه بحاجة إلى أدلة قاطعة. وحسب منهجنا في ردّ المنتسب إلى المحكم، والفرع إلى الأصل، والحديث إلى الكتاب، أقول: حسب هذا المنهج؛ الحد الأساسي للعقود إقامة القسط، ومنع أكل أموال الناس بالباطل. ولأن الغرر يقتضي الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، فهو منهي عنه. وإذا كان وضع البيع بحيث لا يعتبر كذلك، يجوز العقد. وبهذا منع الدين من بيع نتاج التاج (جهل الجهلة)، وبيع لقاح الذكور (المضامين)، وبيع الثمار قبل ظهور صلاحها، وبيع اللبن في الضرع، والسك في الآجام، والعبد الأبق. ولكن أجاز الدين - حسب الأحاديث - بيع حمل الأنعام مع أصوافها، وبيع اللبن المحتلب مع ما في الضرع، وبيع السمك في الشبك مع ما في الآجام، أو الثمار إذا صلح بعضها مع غيرها.. وهكذا بيع العبد الأبق مع غيره، ذلك لأن البيع يكون آنذاك على شيء موجود ومعلوم، ويكون غيره تابعاً فلا يكون غرراً وأكلاً للمال بالباطل، والله العالم.

والأنظمة الحديثة تؤكد على ضرورة التجديد في محل العقود بصورة عامة، وعقد البيع بالخصوص. يقول د. السنهوري: نصت المادة (١٣٣) من القانون المدني الجديد (في مصر) على ما يأتي:

(١) مهذب الأحكام، ج ١٧، ص ٦-٧.

١/ إذا لم يكن محل الالتزام معيناً بذاته، وجب أن يكون معيناً بنوعه ومقداره، وإلا كان العقد باطلاً.

٢/ ويكفي أن يكون المحل معيناً بنوعه فقط إذا تضمن العقد ما يستطاع به تعيين مقداره. (١)

وقال في البيع: فإذا وقع البيع على شيء معين بالذات، وجب أن يوصف الشيء وصفاً مانعاً من الجهالة الناشئة. (٢)

ويقول د. كاتوزيان: المادة (٣٤٢) من القانون المدني (الإيراني) يجيب عن سؤال (ماذا ينبغي أن يعرفه طرفاً عقد البيع حتى لا يكون غريباً)؟ ويقول: يجب أن يكون مقدار وجنس ووصف المبيع معلوماً.

وأما كيف يعين المقدار بالوزن أو الكيل أو العدد أو المتر (الذراع) أو المساحة أو المشاهدة، فإنه يتبع عرف البلاد. (٣)

ولكن القانون المصري أعطى فرصة معينة لبيع الجزاف. يقول د. السنهوري: وإذا كان الشيء مما يوزن أو يكال أو يقاس أو يُعد، ولكن المبيع لا يحتاج في تعيينه إلى تقدير، بل هو معين بالذات، فالبيع جزاف. فإذا باع شخص من آخر جميع كمية السكر أو القمح أو القماش أو البيض التي توجد في مخزنه، وعين المخزن تعييناً كافياً فإن البيع لا يكون في هذه الحالة بالتقدير، بل يكون جزافاً. (٤)

وهكذا جاء في المادة (٤٢٩) من القانون المدني الجديد في مصر: على أنه "إذا كان البيع جزافاً، إنتقلت الملكية إلى المشتري على النحو الذي تنتقل به

(١) الوسيط، ج ١، ص ٣٨٦.

(٢) الوسيط، ج ٤، ص ٢٢٥.

(٣) د. ناصر كاتوزيان: حقوق مدني- عقود معين ص ٩٢ (نشر جامعة طهران، برقم ١٤٧٣) الطبعة الثانية.

(٤) الوسيط، ج ٤، ص ٢٢٧.

في الشيء المعين بالذات، ويكون البيع جزافاً ولو كان تحديد الثمن موقوفاً
على تقدير المبيع. (١)

باء: بحث في الخيارات

ماذا يعني الخيار؟ يعني إمكانية فسخ العقد من قبل الطرفين أو أحدهما أو
من قبل شخص ثالث.

ولماذا يشرع الخيار، أو ليس الهدف من العقود الثبات وقطع الخصومات؟
بلى؛ ولكن الخيار يعطي قدراً من المرونة للعقود، يسهل أمرها، أو يكمل
أهدافها. كيف؟

إن الطرفين لو عرفا أن لهما الخيار يبادران لإجراء العقد، بينما عند عدمه
قد يتريثان أكثر مما يعرقل مسيرة التجارات.

ثم قد تقتضي مصلحة طرف الخيار، فإذا تعرض المشتري لغبن كان له
الخيار لكي لا يظلم. وهكذا يحقق تشريع الخيار سهولة التجارة واقامة القسط
فيها.

حقيقة الخيار

الخيار يعود في جوهره الى خلل في أهم أركان العقود، وهو التراضي.
صحيح إن العقد لا يتم إلا بالتراضي ظاهراً، ولكن قد لا يكتمل التراضي
فيشرع الخيار لاكماله. ولذلك يسمى البعض أسباب الخيار بالخلل في الإرادة،
أو العيب فيه.

واليك أمثلة توضيحية في ذلك:

أ- حينما يعقد طرفان صفقة البيع، يكون لهما الخيار مادام في مجلس
العقد، لأنه قد يكون إجراء العقد قد تم قبل التروي الكامل، أو بسبب إستحياء
طرف من الآخر، أو جهل لبعض خصوصيات البيع. فمادام المجلس لم

(١) المصدر، ص ٢٢٩.

ينفض يكون لهما الخيار، حيث جاء في الحديث: "البيعان بالخيار حتى يفترقا". (١)

ب- في خيار الغبن أو العيب أو الرؤية أو تبعض الصفقة لم يكن أحد الطرفين راضياً حقيقة بما عقد عليه، فكان المشتري مثلاً يظن أن البيت الذي اشتراه قيمته مائة ألف، بينما يكتشف الآن إن قيمته ٧٥ ألف فقط، وأنه قد غبن. فلأنه قد إختل رضاه، وضع له الخيار. وكذلك إذا وجد فيه عيباً، فإنه لم يكن راضياً حقيقة بالمتاع المعيوب، فشرع له الخيار. وهكذا لو اشتري مالم يره، ثم رآه بغير تلك الصفة التي أراها، شرع له الخيار، لأنه لم يرض حقيقة بهذا المتاع. وهكذا لو اشتري بيتاً ثم تبين أن نصفه مملوك لغير البائع، يكون له الخيار.

ج- وقد يرضى المشتري بالعقد بشرط الخيار منذ البدء، لأنه ليس متأكداً من بعض ملاسبات العقد؛ مثلاً لا يعلم هل يستطيع أن يوفر الثمن، فرضاه مشروط سلفاً وليس بكامل.

د- وهكذا خيار الحيوان قد شرع، لأن عيوبه ليست ظاهرة وقد تظهر خلال ثلاثة أيام، فيكون المشتري بالخيار الى انقضاء تلك الأيام، إلا إذا قرر إلغاء خياره مثلاً بذبحه أو التصرف فيه.

ومن هذا البيان نعرف أن جوهر الخيار لا يختلف عن لحوق الإذن في عقد الفضولي أو عقد المكره وما أشبهه من العقود التي تفتقر الى الرضا. فإذا لحق بها الرضا صحت، لأن التراضي أهم أركان العقد، فمع فقده يأكل الناس أموالهم بالباطل، حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ (النساء/٢٩).

والتراضي لا يكون من دون الإجازة في الفضولي والمكره ومن أشبههما. وفي كثير من موارد الخيار نحن بحاجة الى التأكد من حقيقة التراضي؛ مثل حالة الغبن الفاحش، أو العيب غير الظاهر عند المشتري، أو ما أشبه.

(١) وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ٣٤٥، كتاب التجارة، ابواب الخيار، الباب ١، ح ١.

ويبقى سؤال: إذا افترضنا حالة من خلل الإرادة، أو نقص التراضي لم يصرح الشرع بها، ولم يجهل لاكماله خياراً، ولكن العقل أو العرف وجداه، فهل يجوز لنا أن نشرع له خياراً جديداً، أم لا بد أن نقتصر في الخيارات على الموارد المنصوصة؟

الجواب: إذا كان التراضي محور التجارة الصحيحة، ولم نتحقق منه إلا بالخيار، فإن الخيار مما لا بد منه، وذلك تطبيقاً للأصل - وهو آية التجارة عن تراض - على الفرع، وهو فقدان التراضي إلا بالخيار.

وإذا كانت العقود أموراً عرفية أقرّ الشرع الناس عليها، وأوكل أمرها إلى عرف العقلاء، كما يشير إليه الكثير من فقهاءنا في موارد مختلفة؛ وإذا كان الأمر بالوفاء بالعقود، بقي الوفاء بما يراه العرف عقداً، وفي حدود رؤية العرف، وفي إطار الخصوصيات العرفية، فإن الخيار واحد من تلك الخصوصيات المعترف بها.

ويظهر من تعابير بعض الأحاديث أيضاً، إن الهدف من جعل الخيار تحقيق الرضا؛ مثل ما جاء في التصرف بعد الخيار، إنه رضا منه.

عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام يقول: بايعت رجلاً فلماً بايعته قمت فمشيت خطأ ثم رجعت إلى مجلسي ليجب البيع حين افترقنا" (١)

وعن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام في رجل إشتري جارية بثمن مسمى ثم افترقا، فقال: وجب البيع وليس له أن يظأها وهي عند صاحبها. (٢)

وروي عن أحمد بن محمد قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: إني أريد الخروج إلى بعض الجبال. فقال: ما للناس بّد من أن يضطربوا سنتهم هذه.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، كتاب التجارة، ص ٣٤٨، ابواب الخيار، الباب ٢، ح ٣.
(٢) المصدر، ح ٥.

فقلت له: جعلت فداك إنا إذا بعناهم بنسبة كان أكثر للربح. قال: فبعهم بتأخير سنة. قلت: بتأخير سنتين. قال: نعم. قلت: بتأخير ثلاث. قال: لا. (١)

وقال الشيخ الأنصاري عن سقوط الخيار بالتصرف: كلمات كثير منهم (الفقهاء) في هذا المقام أيضاً (سقوط خيار الحيوان بالتصرف) يدل على سقوط هذا الخيار بالتصرف من حيث (دلالاته على) الرضا، بل عرفت من كتاب التنكرة (للعلامة الحلبي) و (من كتاب) الغنية (لإبن زهرة) إن علة السقوط (سقوط الخيار بالتصرف) دلالة التصرف نوعاً على الرضا. (٢)

وقال العلامة النجفي في جواهر الكلام، وهو يتحدث عن سقوط الخيار بالتصرف: ولذلك عوّل من قيد السقوط بالتصرف بما إذا لم يكن للاختيار ونحوه فيما علم عدم إرادة الالتزام به، بل المتجه حينئذ إن ما كان ظاهره ذلك كذلك أيضاً، بل ينبغي عدم السقوط بالمشكوك فيه. (٣)

وهكذا يظهر من كلمتي الفقيهين الجليلين رحمهما الله، ما قد استفدناه من الأحاديث إن محور العقود الرضا، وإن الخيار يسقط به. ويبسط الفقيه السبزواري القول في جوهر الخيار ويؤكد ما سبق، وإن قلنا من أنه شرع لمعالجة نقص التراضي أو عيب الإرادة، ويسميه باختلال الالتزام العقدي فيأتي الخيار لإكماله، يقول: فالقرار الجعلي الواقع بين المتعاقدين (أي محتوى العقود من العزم على الالتزام بها) وإن كان واحداً صورة (أي في الظاهر) لكنه منبسط في الواقع على إلتزامات كثيرة حسب الأغراض النوعية المعاملية؛ كالإلتزام بعدم العيب، وعدم التأخير، وعدم تخلف الشرط الى غير ذلك من موارد الخيارات. ومع ثبوت الخلل في إحدى تلك الإلتزامات، يختل

(١) المصدر، أحكام العقود، ص ٣٦٦، الباب ١، ح ١.

(٢) إيصال الطالب الى المكاسب للمرجع الشيرازي، ج ١٣ ص ٥٣-٥٤.

(٣) جواهر الكلام، ج ٨ (كتاب التجارة)، ص ٢٨٣.

الإلتزام العقدي إلا مع الدليل على الخلاف(١). ويضيف قائلاً: فجميع الخيارات المذكورة في كتب الفقهاء مطابق للقاعدة. (٢)
ثم يعدد الخيارات حسب الشهيد في اللمعة، ويقول: قد أنهى الشهيد في اللمعة الخيارات الى أربعة عشر، وهي: خيار المجلس، وخيار الحيوان، وخيار الشرط، والتأخير، وما يفسد ليومه، والرؤية، والغبن، والعيب، والتدليس، والاشتراط، والشركة، وتعذر التسليم، وتبعض الصفقة، والتقليس.
(٣)

وعدد الخيارات عند الحنفية سبعة عشر خياراً، وهي: خيار الشرط، والرؤية، والعيب، والوصف، والنقد، والتعيين، والغبن مع التغيرير، وخيار الكمية، والاستحقاق، والتغيرير الفعلي، وكشف الحال، وخيار المراجعة، والتولية، وتفريق الصفقة بهلاك بعض المبيع، وإجازة عقد الفضولي، وتعلق حق الغير بالمبيع بسبب كونه مستأجراً أو رهوناً. (٤)

والخيار المشروع عند الشافعية ستة عشر. (٥) وهي متشابهة نوعاً مع الخيارات المذكورة سابقاً. أما عند الحنابلة فالخيارات ثمانية أنواع. (٦)
حقاً إن الخيارات تزيد وتنقص حسب النظر الى جوهرها، فإن كانت الخيارات أحكام شرعية مخالفة للقواعد فهي معدودة، وإذا كانت حقوق عرفية قائمة على أساس القواعد. فهي غير معدودة؛ بل قد نحتاج الى إضافة خيار جديد مثل خيار المشتري إذا تعلق غرض عقلائي باسم البائع، كما إذا كان البيع بالشيك وليست الشيكات مقبولة من كل شخص. ويمكن أن نقول: إن أصل كل الخيارات هو خيار الشرط، فإن المتعاقدين قد يشترطان أموراً في

(١) مهذب الأحكام للمرجع السبزواري، ج١٧، ص٨٨.

(٢) المصدر.

(٣) المصدر، ص٨٩.

(٤) الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه الفقه الاسلامي وأدلته، ج٥، ص٣٥١٧.

(٥) الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه الفقه الاسلامي وأدلته، ج٥، ص٣٥١٨.

(٦) المصدر، ص٣٥١٩.

متن العقد وقد يتباينان على شروط عرفية يجريان العقد عليها. وإذا إختل الشرط، إختل الالتزام فاقتضى الخيار؛ مثلاً صحة المبيع لا تذكر في العقد، ولكنها من الشروط العرفية التي يقوم العقد عليها، وعند فقدها يقتضي الأمر خيار العيب. وكذلك وحدة الصفقة من الشروط العرفية التي تبنى الطرفان عليها، فإذا تبعضت الصفقة اقتضى خياره بتعرض الصفة. والحقيقة إنه خيار الشرط، ولكن نسميه بهذا الاسم باعتبار طبيعة الشرط المتخلف. وهكذا..

وقد أشار بعضهم الى هذه الفكرة، أن جوهر الخيار إنعدام التراضي، وأنه إذا لحق الرضا بيعاً سواءً بالقول أو بالفعل أصبح لازماً. فقال: والحاصل إن كل واحد من الرؤية ومضي ثلاثة أيام ومضي السنة في أحداث السنة المذكورة الأربعة (١) وافتراق الأبدان عن مكان العقد كاشف عن لزوم العقد، مصدق للرضا الذي هو الأصل في التجارة والبيع لأجل قول النبي صلى الله عليه وآله في خبر ذلك الكتاب (٢) بعد (ذكر) آية تجارة عن تراض منكم، قال: والبيع عن تراض كصفقة البيع. (٣)

وأضاف: إن الأصل في وجوب البيع ولزومه كتاباً وسنة، التراضي من المتبايعين وما ورد من الأخبار المسموعة وما ضاهاها، إنما هي من جملة فروع هذا الأصل الأهم من الرؤية والاقتران والصفقة وأحداث السنة كدخول السوق (للأعراب بعد أن باعوا دون معرفة السوق) في تلقي الركبان. ثم قال: ومن هنا ظهر إن الأصحاب أولاً: ما أصابوا الأصل في أمر الخيار، وثانياً: ما استقصوا فروعاته. (٤)

ويقتررب فقه القانون من هذه البصيرة بالرغم من أنه لا يستوعبها، فيقول د. السنهوري: إشتمل المشروع التمهيدي (للقانون المصري) على نص (في

(١) أي الجنون والجذام والبرص والقرن، إذا وجدت في الأمة خلال سنة من العقد كان للمشتري الخيار.

(٢) أي كتاب وسائل الشيعة.

(٣) المحدث الشيخ محمد رضا المشتهر بأفضل في كتابه مفاتيح الشرائع، ج ٢، ص ٦٩.

(٤) المحدث الشيخ محمد رضا المشتهر بأفضل في كتابه مفاتيح الشرائع، ج ٢، ص ٦٩.

عيوب الإرادة) هو المادة ١٦٦ من هذا المشروع (التمهيدي) حذف في المشروع النهائي وقد جرى بما يأتي: "لكل من شاب رضاه غلط أو تدليس أو إنتزاع رضائه بالإكراه، أو باستغلال حاجة له أن يطلب إبطال العقد وفقاً للأحكام التالية. (١)

ويضيف المؤلف قائلاً: ويتبين من ذلك أن عيوب الإرادة هي الغلط والتدليس والإكراه والاستغلال. (٢) ثم يسترسل في بيان الفارق بين إرادة معيبة وإرادة غير موجودة، ثم يقترب من البصيرة التي سبق بيانها، فيقول: وتتصل نظرية عيوب الإرادة بنظرية سلطان الإرادة إتصلاً وثيقاً، فإرادة الفرد - ولها المقام الأول في توليد الروابط القانونية وفي ترتيب آثارها - يجب أن تكون على هدى مختارة، وإلا فالإرادة المشوبة بعيب من العيوب المتقدمة ليست إرادة صحيحة، فلا يكون لها سلطان كامل. (٣)

وسلطان الإرادة في العقد قريب من بصيرة "محورية التراضي" في صحة التجارة.

وكمثل على صلة نظرية سلطان الإرادة ببصيرة التراضي نقرأ تعريف الغلط عند د. السنهوري: يمكن تعريف الغلط بأنه حالة تقوم بالنفس تحمل على توهم غير الواقع، وغير الواقع إما أن يكون واقعة غير صحيحة يتوهم الإنسان صحتها، أو واقعة صحيحة يتوهم عدم صحتها. (٤)

وهكذا ترى أن خيار الرؤية، وخيار العيب، وخيار تبعض الصفقة وما أشبه قد يدخل في هذا التعريف، إذ إن المشتري في هذه الحالات يغلط في تحديد ما يشتري فينوي شيئاً مختلفاً (وبنسبة معينة) عما هو الواقع، فيكون التراضي غير مكتمل. أو بتعبير آخر؛ تكون الإرادة معيبة، وتدخل ضمن دائرة الغلط الذي يصيب الإرادة (الرضا) بالخلل، والذي يعرفه الدكتور

(١) الوسيط في شرح القانون المدني، ج ١، ص ٢٨٧.

(٢) المصدر، ص ٢٨٨.

(٣) المصدر، ص ٢٨٩.

(٤) المصدر.

السنهوري بأنه " غلط يقع في تكون الإرادة - لا في نقلها ولا في تفسيرها، وهو من جهة أخرى- لا يعدم الإرادة كما هو الأمر في الغلط المانع. (١) أي الغلط الذي يتعلق الرضا فيه بغير موضوع العقد تماماً، حتى يكون ضمن دائرة القاعدة الفقهية المعروفة: ما وقع لم يقصد، وما قصد لم يقع.

وبالنسبة الى أنواع الغلط الجوهري - وغير المانع (٢)- جاء في المذكرة الايضاحية للمشروع التمهيدي (للقانون المصري) في صدد (بيان) المادة ١٢١ ما يأتي: وينبغي أن يكون الغلط المبطل للعقد جوهرياً، ولا يتحقق ذلك إلا إذا دفع من وقع فيه الى التعاقد، ومؤدى هذا أن يناط تقدير الغلط بمعيار شخصي. وقد إنتهى القضاء المصري والقضاء الفرنسي في هذا الشأن الى تطبيقات ثلاثة تقررت في نصوص المشروع.

الأول: يتعلق بالغلط الذي يقع في صفة للشئ تكون جوهرياً في إعتبار المتعاقدين، أو بالنسبة الى ما يلبس العقد من ظروف، ولما ينبغي أن يسود التعامل من حسن النية. وفي هذا الغرض يرتبط الغلط الجوهري بعامل شخصي هو حسن النية، وبعامل مادي قوامه الظروف التي لا بست تكوين الغلط.

والثاني يتصل بالغلط الواقع في ذات شخص المتعاقد، أو في صفة من صفاته إذا كانت هذه الذات أو تلك الصفة السبب الوحيد أو السبب الرئيسي في التعاقد والمعيار في هذا الغرض شخصي بحت.

والثالث خاص بالأمر التي يعتبرها من يتمسك بها من المتعاقدين، عناصر ضرورية للتعاقد طبقاً لما تقتضي النزاهة في التعامل. (٣)

والظروف كثيرة، فقد تكون زمانية كما لو إشتري شخص بضاعة لشهر رمضان، أو مكانية كما لو إشتري بضاعة في الحج، أو مقارنة كما لو إشتري

(١) الوسيط، ج ١، ص ٢٩٢.

(٢) يمكن أن نسمي الغلط المانع بالغلط المستوعب أو الشامل، بينما نسمي الغلط الجوهري بالغلط الأساسي وغير المستوعب.

(٣) الوسيط، ج ١، ص ٢٩٨-٢٩٩ (الهامش).

بضاعة للمعرض. ثم إذا تغير الوضع كما لم يقم المعرض، أو لم تصل
البضاعة في وقت رمضان أو في موقع الحج.

ومن الغلط في الملابس الغلط في القانون، فلو إشتري قطعة أرض لبناء
مسجد وعلم أن البلدية لا تسمح ببنائه في هذه المنطقة، فلو كان المتعاقدان قد
أقما عقدهما على هذا الهدف بحيث دخل ضمن دائرة التراضي وكان
كالشرط غير المذكور جبر نقض الرضا بالخيار.

ولا بد في كل أنواع الغلط الجوهرى قيام العقد عليه، بحيث يكون جزءاً من
الرضا المتبادل. أما إذا لم يقم العقد عليه، بل كان مجرد باعث نفسي، فلا أثر
له في العقد.

وهكذا نعرف إن جوهر الخيار نقص التراضي أو عيب الإرادة، وأنه بذلك
لا يختص بجملة الخيارات المعروفة، بل ويتوسع في خيارات أخرى منها ما
أشرنا إليه ومنها ما لم نذكره.

وفيما يلي نستعرض وباجمال الخيارات المعروفة وبعضاً من الروايات
التي تدل عليها.

الخيارات المعروفة

١/ خيار المجلس، حيث جاء في الحديث الشريف: عن أبي عبد الله (الإمام
جعفر الصادق) عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: البيعان
بالخيار حتى يفترقا، وصاحب الحيوان بالخيار ثلاثة أيام. (١)

وجاء في حديث آخر عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر
الصادق) عليه السلام، قال: المتبايعان بالخيار ثلاثة أيام في الحيوان، وفيما
سوى ذلك من بيع حتى يفترقا. (٢)

وجاء في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام قال: إذا صفق الرجل
على البيع فقد وجب وإن لم يفترقا". (١)

(١) وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ٣٤٥ كتاب التجارة. ابواب الخيار، الباب ١، ح ١.

(٢) المصدر، ص ٣٤٩، الباب ٣، ح ٣.

ونستفيد من الحديثين الأخيرين؛ إن حكمة الخيار الرضا، فإذا تم وجب البيع.

ومن هنا فإن الافتراق يوجب البيع، حيث جاء في حديث عن الحلبي، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: أيما رجل إشتري من رجل بيعاً فهما بالخيار حتى يفترقا، فإذا افترقا وجب البيع. قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام: إن أبي إشتري أرضاً يقال لها العريض، فابتاعها من صاحبها بدنانير، فقال: أعطيك ورقاً بكلّ دينار عشرة دراهم. فباعه بها، فقام أبي فاتبعته، فقلت: يا أبة لم قمت سريعاً؟ قال: أردت أن يجب البيع. (٢)

٢/ وفي الحيوان جهل الخيار لثلاثة أيام، ويبدو:

أولاً: إن المراد بالحيوان مثل الغنم والبقر والابل. أما مثل دودة القز والنحل من الحشرات المفيدة، فلا.

ثانياً: إن علة الحكم وحكمة التشريع، إن مرض الحيوان وعييه يتبين في ثلاث، فإذا كان لا يتبين إلا بعد مدة، فإن الخيار الى تلك المدة.

ومن هنا فإن العيوب التي لا تظهر إلا بعد سنة كالجنون والبرص، فإن الخيار فيها الى سنة. وهكذا جاء في الحديث الشريف عن الحلبي، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: في الحيوان كلّ شرط ثلاثة أيام للمشتري، وهو بالخيار فيها إن شرط أولم يشترط. (٣)

وعن علي بن رئاب، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: الشرط في الحيوان ثلاثة أيام للمشتري، إشتراط أم لم يشترط، فإن أحدث المشتري فيما إشتري حدثاً قبل الثلاثة الأيام فذلك رضا منه فلا شرط. قيل له: وما الحدث؟ قال: إن لامس أو قبل أو نظر منها الى ما كان يحرم عليه قبل الشراء. (٤)

(١) المصدر، ص ٣٤٧، الباب ١، ح ٧.

(٢) المصدر، ص ٣٤٨، الباب ٢، ح ٤.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٤٩، الباب ٣، ح ١.

(٤) المصدر، ص ٣٥١، الباب ٤، ح ١.

٣/ خيار الشرط، حيث جاء في الحديث عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: سمعته يقول: من إشتراط شرطاً مخالفاً لكتاب الله فلا يجوز له، ولا يجوز على الذي إشتراط عليه، والمسلمون عند شروطهم مما وافق كتاب الله عز وجل. (١)

وخيار الشرط في البيع جائز، ويسمى بيع الشرط أو بيع الخيار، وصورته ما فصل في الحديث التالي:

عن اسحاق بن عمار قال: حدثني من سمع أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام وسأله رجل وأنا عنده، فقال: رجل مسلم إحتاج إلى بيع داره فجاء إلى أخيه، فقال: أبيعك داري هذه، وتكون لك أحب إليّ من أن تكون لغيرك على أن تشرط لي إن أنا جئتك بثمانها إلى سنة أن تردّ عليّ. فقال: لا بأس بهذا إن جاء بثمانها إلى سنة ردّها عليه. قلت: فإنها كانت فيها غلة كثيرة، فأخذ الغلّة لمن تكون الغلّة؟ فقال: الغلّة للمشتري، ألا ترى أنه لو احترقت لكانت من ماله. (٢)

٤/ خيار التأخير، وصفته ما جاء في الحديث التالي عن زرارة، عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام قال: قلت له: الرجل يشتري من الرجل المتاع ثم يدعه عنده، فيقول: حتى آتيك بثمانه. قال: إن جاء فيما بينه وبين ثلاثة أيام، وإلا فلا بيع له. (٣)

وخلال فترة هذا الخيار إذا هلك المبيع فهو من مال البائع، لأن الصفقة لم توجب. وقد جاء في الحديث عن عقبة بن خالد، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام في رجل إشتري متاعاً من رجل وأوجبه، غير أنه ترك المتاع عنده ولم يقبضه، قال: آتيك غداً إن شاء الله، فسرقت المتاع من مال من يكون؟ قال: من مال صاحب المتاع الذي هو في بيته حتى يقبض المتاع

(١) المصدر، ص ٣٥٣، الباب ٦، ح ١.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٥٥، الباب ٨، ح ١.

(٣) المصدر، ص ٣٥٦، الباب ٩، ح ١.

ويخرجه من بيته، فإذا أخرج من بيته فالمبتاع ضامن لحقه حتى يردّ ماله اليه. (١)

ولكن ذلك لا يصلح في المبيع الذي يفسد من يومه، فإن الخيار فيه إلى الليل أو إلى وقت فساده، حيث جاء في الحديث عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام في الرجل يشتري الشيء الذي يفسد من يومه ويتركه حتى يأتيه بالثمن، قال: إن جاء فيما بينه وبين الليل بالثمن وإلا فلا بيع له. (٢)

٥/ خيار تبعض الصفقة، حيث يجوز لمن اشتري شيئاً ثم تبين أن بعضه ناقص أو ليس للبايع، يجوز له فسخ العقد رأساً. والحديث التالي يشير إلى ذلك، حيث روي عن عمر بن حنظلة، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام في رجل باع أرضاً على أنها عشرة أجرة، فاشتري المشتري ذلك منه بحدوده ونقد الثمن ووقع صفقة البيع وافترقا، فلما مسح الأرض إذا هي خمسة أجرة. قال: إن شاء استرجع فضل ماله وأخذ الأرض، وإن شاء رد البيع وأخذ ماله كله إلا أن يكون له إلى جنب تلك الأرض أيضاً أرضون فليؤخذ ويكون البيع لازماً له، وعليه الوفاء بتمام البيع، فإن لم يكن له في ذلك المكان غير الذي باع فإن شاء المشتري أخذ الأرض واسترجع فضل ماله، وإن شاء ردّ الأرض وأخذ المال كله. (٣)

٦/ خيار الرؤية، حيث يجوز لمن اشتري بضاعة دون أن يراها، فلما رآها وجدها على غير الصفة التي أرادها، حيث جاء في الحديث عن جميل بن دراج قال: سألت أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام عن رجل اشتري ضيعة وقد كان يدخلها ويخرج منها، فلما أن نقد المال صار إلى الضيعة فقلباها (ففتشها) ثم رجع فاستقال صاحبه فلم يقله. فقال أبو عبد الله

(١) المصدر، ص ٣٥٨، الباب ١٠، ح ١.

(٢) المصدر، ص ٣٥٩، الباب ١١، ح ١.

(٣) المصدر، ص ٣٦١، الباب ١٤، ح ١.

عليه السلام: إنه لو قلب (قبلها) منها ونظر الى تسعة وتسعين قطعة ثم بقي منها قطعة ولم يرها لكان له في ذلك خيار الرؤية. (١)

٧/ خيار العيب؛ فإذا اشترى بضاعة فوجد فيها عيباً، جاز له ردها مادامت موجودة، أو أخذ ارشها إن فقدت، كما جاء في الحديث التالي عن جميل، عن بعض أصحابنا، عن أحدهما عليهما السلام في الرجل يشتري الثوب أو المتاع فيجد فيه عيباً. فقال: إن كان الشيء قائماً بعينه رده على صاحبه وأخذ الثمن، وإن كان الثوب قد قطع أو خيط أو صبغ يرجع بنقصان العيب. (٢)

٨/ خيار الغبن؛ قالوا إذا غبن شخص في شرائه غبناً فاحشاً، جاز له استرداد قيمة الغبن أو من الصفقة أو فسخها. واستدلوا على ذلك بالحديث المأثور عن اسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: غبن المسترسل سحت. (٣)

وأيضاً بالحديث المعروف عن زرارة، عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا ضرر ولا ضرار على مؤمن. (٤)

ويمكن أن يستدل بأحاديث خيار العيب أيضاً. وكلمة أخيرة؛ إذا نظرنا الى الأحاديث نظرة واحدة، ورددناها الى الآيات المحكمات، إستفدنا منها قاعدة عامة للخيار، هي التي أشرنا اليها من نقص الرضا (خلل الإرادة)، حيث العقد لم يوجب من قبل الطرفين من دونه لفقد شرط ضمنى لم يصرحا به، ولكنهما بنيا العقد عليه. وبذلك نستفيد أحكام كل شرط ضمنى بني العقد عليه، فإذا فقد جبر بالخيار. والله العالم.

كيف يسقط الخيار؟

-
- (١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٦١، الباب ١٥، ح ١.
 - (٢) المصدر، ص ٣٦٣، الباب ١٦، ح ٣.
 - (٣) المصدر، ص ٣٦٣، الباب ١٧، ح ١.
 - (٤) المصدر، ص ٣٦٤، الباب ١٧، ح ٥.

إذا كان جوهر الخيار نقص الرضا (خلل الإرادة)، فإذا توفر الرضا إنتفى الخيار. ومن هنا يسقط الخيار باسقاطه قبل أو بعد العقد أو اثناءه.

وبالرضا بالعقد صراحة، أو بعمل يدل عليه؛ مثل إستهلاك المبيع، أو التصرف فيه تصرفاً يدل على الرضا به. ولعل منه أيضاً إنقضاء وقت الخيار دون الأخذ به، كما لو تفرقا عن المجلس، وانقضى وقت خيار الحيوان - ثلاثة أيام - وعلم بالعيب وبالغبن الفاحش، ثم لم يأخذ بالخيار مما دل على رضاه بالعقد.

ويسقط خيار الفسخ لو تصرف في المبيع بما جعل رده على البائع ضرراً عليه، فليس له أن يرد المبيع، بل يأخذ الأرش بما يجبر خسارته. وفي هذه البصائر نصوص نذكر منها ما يلي:

١/ عن السكوني، عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام، قال: إن أمير المؤمنين عليه السلام قضى في رجل إشتري ثوباً بشرط إلى نصف النهار، فعرض له ربح فأراد بيعه. قال: ليشهد أنه قد رضيه فاستوجه ثم ليبيعه إن شاء، فإن أقامه في السوق ولم يبيع فقد وجب عليه. (١)

٢/ عن محمد بن الحسن الصفار قال: كتبت الى أبي محمد (الإمام الحسن العسكري) عليه السلام في الرجل إشتري من رجل دابة فأحدث فيها حدثاً من أخذ الحافر أو أنعلها أو ركب ظهرها فراسخ، أله أن يردها في الثلاثة الأيام التي له فيها الخيار بعد الحدث الذي يحدث فيها أو الركوب الذي يركبها فراسخ؟ فوقع عليه السلام: إذا أحدث فيها حدثاً فقد وجب الشراء إن شاء الله. (٢)

٣/ عن جميل، عن بعض اصحابنا، عن أحدهما عليهما السلام، في الرجل يشتري الثوب أو المتاع فيجد فيه عيباً. فقال: إن كان الشيء قائماً بعينه رده

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٥٩، الباب ١٢، ح ١.

(٢) المصدر، ص ٣٥١، الباب ٤، ح ٢.

على صاحبه وأخذ الثمن، وإن كان الثوب قد قطع أو خيط أو صبغ يرجع
بنقصان العيب. (١)
٤ / قال الإمام علي عليه السلام: إذا صفق الرجل على البيع فقد وجب وان
لم يفترقا. (٢)
ونسفيد من الحديث أنه إذا أوجب البيع بالتصفيق، مما دل على رضاه التام
به، فلا خيار له، لأنه بحكم إسقاط الخيار.

(١) المصدر، ص ٣٦٢، الباب ١٦، ح ٣.
(٢) المصدر، ص ٣٤٧، الباب ١، ح ٧.

الفصل الثاني: العهود والمواثيق

اليمين

من آفاق كلمة الصدق التي تنبعث من إيمان الإنسان وشرفه وثقته بنفسه واحترامه لها؛ من آفاقها العمل باليمين. فما هو اليمين؟ وهل هو عقد القلب أم لفظ الفم، وهل يؤخذ الله البشر على اللغو في الإيمان؟ نتحدث عن ذلك في القسم الأول، كما نتحدث فيه عن كفارة نكث اليمين. بينما نستفيد في القسم الثاني كراهة المبادرة الى القسم بالله. عموماً وقد نهى ربنا عن اليمين كذباً، بل وفيما لا يعلم. وفي القسم الثالث نستوحي حكم اليمين كذباً.. كما كانوا يحلفون على قبول الهدى إن جاءهم، أو الخروج الى الجهاد إذا دعوا إليه. أما في القسم الرابع والأخير؛ فإن الله يحذرنا من نكث الأيمان وحرمة جعلها دخلاً بينهم، وعن القتال مع ناكثي أيمانهم (وعهدهم مع المسلمين) .

أولاً: معنى اليمين

١/ الحلف معروف، وكلمات اليمين التي يجريها الناس على ألسنتهم كثيرة ومعلومة. ولكن هل اليمين لفظ الفم أم عقد القلب؟ فإذا بدر مني لفظ اليمين دون قصد مسبق ودون وعي كاف، فهل أنا ملزم بتنفيذه؟ يجيب ربنا سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٢٥). إنما المؤاخذة على عقد القلب، فإنما الأعمال بالنيات، فإذا بلغ المرء في قصده الى مستوى عقد العزم، فقد صدق أنه حلف يميناً، وأخذ على ترك ما

اكتسبه بقلبه. جاء في الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: " وضع عن أمتي ما اكرهوا عليه، ومالم يطيقوا وما أخطؤوا". (١)
ولأهمية النية جاء في الحديث عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال (الراوي): "سألته عن رجل حلف وضميره على غير ما حلف. قال: اليمين على الضمير". (٢)

٢/ وهكذا يسئل المرء عما عقد قلبه عليه من اليمين، وعليه أن يدفع الكفارة في حال نكثه له، وهي اطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وعند عجزه عليه أن يصوم ثلاثة أيام. قال الله سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي إِيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ إِيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا إِيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة/٨٩).

وعلى الإنسان أن يحفظ يمينه (وأن يلتزم بالعمل به أنى كان صعباً، كما يحافظ على سائر ما يتصل به من دمه وعرضه وماله). وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: "اليمين الفاجرة، تخرب الديار، وتقصّر الأعمار". (٣)

٣/ ومن مصاديق اليمين ضامن الجريرة، حيث يرتبط الغريب في بلد بأسرة يتحالف معها. وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ إِيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (النساء/٣٣).

من أعتق من الموالى ولم يكن له وارث، ورثه من أعتقه. ولكن إذا لم يكن لديه مولى عنق (كأن يموت الذي أعتقه قبله)، فإن له الحق في أن يعقد صفقة مع

(١) مستدرک الوسائل، ج ١٦، ص ٤٦، ح ٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٧٩، الباب ٢١، ح ١.

(٣) مستدرک الوسائل، ج ١٦، ص ٣٩، ح ١٣.

من أحب أن يعقل جريته، (أي يضمن له ما يضمنه الأقارب عند وقوع جريمة منه)، وفي المقابل يرثه إذا مات ولم يكن له وارث.

فقد جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام (قال الراوي): سألته عن مملوك أعتق سائبة (لا ولي للعتق عليه) قال: يتولى من شاء، وعلى من تولاه جريته وله ميراثه. (١)

ومن هذا الحكم نعرف مدى أهمية اليمين، وكيف يمكن جعله وسيلة لشد أصرة الناس ببعضهم حتى تكون شبيهة للعلاقة الطبيعية، المتمثلة في الأسرة. وهذا التشريع يوفر إمكانيات كبيرة لليمين (لو احترمت بين الناس) فقد تكون أساساً للعلاقة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، وتوفر المزيد من التقدم والرفاه للناس.

ثانياً: مواقع اليمين

متى نحلف يميناً بالله، ومتى نكف؟ عند الحاجة لا بأس بالقسم، كما إذا شككنا في الشهداء على الوصية. ولكن لا نحلف على ترك البر والتقوى والإصلاح، ولا يجوز أن نحلف بالله على ما لا نعمل به (كما كان يحلف الكفار على أنهم سوف يؤمنون لو جاءتهم آيات معينة).

١/ لقد نهى الدين استخدام اليمين بالله سبحانه، لكي يوقر المرء ربه، ولا يجعله عرضة لأيمانه. وقد كان من صفات المنافق أنه حلاّف مهين. قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٢٤)

والذي يناسب السياق في تفسير الآية الكريمة، ويناسب القصة التي تروى في سبب نزولها كما تناسب أيضاً بعض الأحاديث المأثورة، هو النهي عن الحلف بالله سبحانه، لما هو مرجوح وليس فيه بر أو تقوى أو إصلاح. كما يحلف الزوج بعدم مقاربة زوجته، والذي يسمى بالإيلاء، حيث يجب عليه نكث يمينه وإعطاء الكفارة والعودة إليها أو الطلاق.

(١) وسائل الشيعة، ج١٧، ص٥٤٦، كتاب الفرائض والمواريث، أبواب ولاء ضمان الجريرة والامامة، الباب ١، ح٣.

وهكذا نستفيد من الآية؛ إن الحلف بما فيه برّ أو تقوى أو إصلاح بين الناس لا بأس به وإن كان مكروهاً شرعاً، وإنما الحلف بالله لما يخالفه حلف منهي عنه. وإذا حلف المرء لم يلزمه في ترك البرّ والتقوى أو الإصلاح. وقد وردت أحاديث في النهي عن اليمين صادقاً بالله إلا لضرورة، كما وردت أحاديث في عدم صحة اليمين على ترك البرّ والتقوى؛ دعنا نستمع الى القسم الأول من الأحاديث:

أ- روي عن الامام الصادق عليه السلام، أنه قال: "من حلف بالله كاذباً كفر، ومن حلف بالله صادقاً أثم. إن الله يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾". (١)

ب- وفي معرض نهيه عن اليمين (بغير ضرورة) روي عن الامام الصادق عليه السلام، أنه قال: "لو حلف الرجل أن لا يحك أنفه بالحائط، لابتلاه الله حتى يحك أنفه بالحائط". (٢)

أما القسم الثاني من الأحاديث فقد جاء فيها:

أ- حديث مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: "ولا يمين في قطيعة رحم، ولا يمين فيما لا يبدل، ولا يمين في معصية". (٣)

ب- وقد سئل الإمام عليه السلام عن امرأة جعلت مالها هدياً، وكل مملوك لها حراً، إن كلمت اختها أبداً؟ فقال عليه السلام: "تكلمها وليس هذا بشيء، إنما هذا وأشباهه من خطوات الشيطان". (٤)

٢- من مواقع اليمين التي يستفيد المجتمع منها؛ الوصية، وقد أولى القرآن اهتماماً بها. والوصية في السفر أولى بالاهتمام لعدم وجود الورثة عادةً، فاذا بالموت والغيبة عن الوطن يعرض الحقوق للضياع. فلا بد من الاستفادة من القسم لملاً فراغ الشهادة. وهكذا يقول ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) مستدرك الوسائل، ج١٦، ص ٣٥، ح ٢.

(٢) المصدر، ص ٣٥-٣٦، ح ٥.

(٣) مستدرك الوسائل، ج١٦، ص ٤٢، ح ١.

(٤) المصدر، ص ٤٣، ح ٦.

شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ نَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ
 آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ
 تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ
 كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ * فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا
 اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ
 فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ
 * ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ إِيْمَانٌ بَعْدَ
 إِيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿ المائدة/١٠٦ -
 (١٠٨)

ونستفيد البصائر التالية من هذه الآيات:

- أ-: ضرورة الإشهاد على الوصية، بعدلين من المسلمين، أو شخصين
 ثقتين من غيرهم، وذلك عند حضور الموت في السفر.
- ب- لتأكيد صحة الشهادة ولدفع الشك عند حدوثه (بسبب الريب في خيانة
 الوصي أو الشاهدين) لا بد من ان يحلف الشاهدان بعد اقامة الصلاة بأنهما (لا
 يخونان الأمانة و) لا يشتريان بالحق ثمناً قليلاً، حتى ولو كان لمصلحة ذوي
 القربى. ويحلفان أيضاً بأنهما لا يكتمان شهادة الله، لان ذلك إثم.
- ج- فيما إذا تبين إنهما استحقا إثمًا وخانا الأمانة وأقسما كذباً، فهناك يرد
 اليمين الى أصحاب الدعوى (الورثة) حيث انهما يحلفان بالله بأنهما يشهدان
 بالحق، ولا يعتديان بالمطالبة بغير الحق، لأن ذلك ظلم.
- د- وإنما يستحلف الشاهدان (من هذا الطرف كانا أو من ذاك الطرف)،
 لأن القسم يجعل الشاهد أدنى من الحق وأقرب إلى الصدق، ولأنه يخشى أن
 ترد يمينه الى الطرف الآخر.
- وهكذا نعرف قيمة الحلف بالله لتحقيق القسط، ولدفع الريب، ولدعم الشهادة
 عند الشك..

وكما أكد الاسلام على وجوب الحلف بالله صادقاً، أكد على وجوب تصديق من حلف بالله، حيث جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: "لا تحلفوا إلا بالله، ومن حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن حلف له بالله فلم يرض فليس من الله". (١)

ثالثاً: حرمة الأيمان الكاذبة

١/ لا يجوز اليمين على ما جهله المرء، كما حلف الكفار يميناً بأن الله لا يبعث من يموت؛ وقد أقسم المنافقون بأنهم مع المسلمين، مع إن أعمالهم قد حبطت، كما حلفوا يميناً بأنهم سيقاتلون مع المسلمين، ولكنهم كانوا كاذبين. وكذلك أقسم الكفار أنهم سيكونون أهدى من إحدى الأمم لو بعث فيهم نذير، ولكنهم ازدادوا نفوراً.

وهكذا كانت الأمم الكافرة تطالب الرسل بأن تنزل عليهم آيات معينة ويحلفون أنهم سيؤمنون، ولكنهم كانوا كاذبين.

أ- من يحلف على ما لا يعلم يؤكد على جهله المركب، فهو لا يعلم ولا يريد أن يعلم. فهؤلاء الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم بأن الله لا يبعث من يموت (هل كان لهم علم بذلك، حتى أقسموا بكل يمين ممكن على ذلك). بلى؛ ربنا يبعث من يموت وعداً عليه حقاً. قال الله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل/٣٨)

نستفيد من الآية قبح القسم بما لا يعلم الإنسان، وقد جاء في رواية مأثورة عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام: "أسرع شيء عقوبة اليمين الفاجرة". (٢)

وعنه عليه السلام: "انقوا اليمين الكاذبة، فإنها منقفة للسلعة، ممحقة للبركة، ومن حلف بيمين كاذبة فقد اجتراً على الله، فليبتظر عقوبة". (١)

(١) مستدرك الوسائل، ج١٦، ص٤١، ح٣.

(٢) المصدر، ص٤٠، ح١٦.

ب- وكذلك أقسم المنافقون بأشد الأيمان بأنهم مع المسلمين، ولكن الله سبحانه يؤكد بأن اعمالهم قد حبطت بسبب نفاقهم، فأصبحوا خاسرين. يقول الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ إِيمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ (المائدة/٥٣)

ويبدو أن المنافقين قد عملوا مع المسلمين بعض الأعمال الظاهرة والتي اعتمدوا عليها وزعموا أنها دليل على أنهم مع المسلمين، إلا أنها قد حبطت بسبب نفاقهم، فلم يملكو شيئاً واصبحوا خاسرين.

ج- وقد حاول المنافقون تغطية ضعفهم وكذبهم باليمين الكاذبة، فقد اقساموا بالله يميناً بأنهم مستعدون للقتال مع المسلمين، فنهاهم الله عن ذلك. قال الله سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ إِيمَانِهِمْ لَنُؤْمِنَنَّ بِمَا كَفَرُوا بِهٖ مِن قَبْلٍ وَلَا نُلْقِيَنَّ كِتَابَ رَبِّنَا إِلَى الْمَدِينَةِ الْكَافِرِينَ هَٰؤُلَاءِ أَعْتَدُوا لِلَّهِ الْعَذَابَ الَّذِي لَمْ يَشْعُرُوا بِهٖ لَمَّا كَفَرُوا ﴾ (النور/٥٣)

نستفيد من هذه الآية؛ إن على الإنسان أن يكون بحيث يشهد عمله على صدقه، وليس كلامه الذي قد يؤكد بالإيمان المغلظة.

د- وهكذا كان الكفار يلفون بالله بأنهم سيكونون أهدى من غيرهم إن جاءهم نذير، ولكنهم كانوا يكذبون إذ إنهم ازدادوا نفوراً من الحق وطغياناً عليه لما جاءهم النذير. قال الله سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ إِيمَانِهِمْ لَنُؤْمِنَنَّ بِمَا كَفَرُوا بِهٖ مِن قَبْلٍ وَلَا نُلْقِيَنَّ كِتَابَ رَبِّنَا إِلَى الْمَدِينَةِ الْكَافِرِينَ هَٰؤُلَاءِ أَعْتَدُوا لِلَّهِ الْعَذَابَ الَّذِي لَمْ يَشْعُرُوا بِهٖ لَمَّا كَفَرُوا ﴾ (فاطر/٤٢)

نستوحي من كلمة ربنا سبحانه النهي عن الغرور بأن يزعم الإنسان أنه لو أوتي هدى أو تعرض لفتنة أو وجد فرصة سيكون أفضل من غيره في إتباع الهدى وتحدي الفتنة واستغلال الفرصة. كلاً؛ إن التوفيق الإلهي والعزم الإيماني والاعداد المسبق وما أشبه هو المعيار لتحقيق الأهداف، وليس التوسل بالقسم واليمين. وماذا ينفع اليمين إذا خارت العزيمة ولم يحالف التوفيق ولم يعد المرء عدته، وحسبما قال الشاعر:

(١) مشترك الوسائل، ج١٦، ص٣٩، ح١٠.

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يفيدك في إقدامك القسم
٢/ ومثل اليمين بترك الخير (البر والتقوى والإصلاح)، الحلف بالله
بالتصديق بآيات من الله إذا نزلت عليهم، حيث كان الكفار يطالبون الرسل
بآيات معينة، يقترحونها ويحلفون جهد أيمانهم أنها إذا جاءتهم فإنهم يؤمنون
بها، ولكنهم كانوا يكفرون بها. قال الله سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
إِيمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ
أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لِأَيُّؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام/١٠٩)

وفعللاً لا يؤمن أكثرهم، لا لسبب نقص في الآيات، وإنما لسوء إختيارهم.
فحتى لو أنزل الله إليهم الملائكة وكلمهم الموتى، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء
الله. قال الله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلاً مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
يَجْهَلُونَ ﴾ (الأنعام/١١١)

وهكذا نستوحي من الآية السابقة؛ النهي عن استخدام الحلف بالله سبحانه
في تغطية ضعف البشر وكفره ونفاقه.

رابعاً: نكت الأيمان

لقد أدب القرآن المؤمنين بالأيمان، ليكون شرف التوحيد قاعدة
متينة لاقامة علاقات مدنية في مختلف حقول الحياة. والذين ينكثون أيمانهم
يريدون التعالي على بعضهم، فيهدمون صرح الوحدة، وهم مثل خرقاء قريش
التي كانت تنكث غزلها بعد قوة. وهكذا ينهى ربنا عن الدخول في الأيمان
(والخيانة والغدر) لكي لا تنزل قدم (الناكث) بعد ثبوتها، ولا يعم الناس العذاب
(فتنهار حضارتهم)، ولا يعذبهم الله في الآخرة إذ ان الذي ينكث يمينه لا
خلاق له في الآخرة (ولا رصيد ولا جاه)، حيث لا يكلمه الله ولا ينظر إليه
ولا يزكبه.

وعلى مستوى الأمة يجوز للإمام قتال الفرقة الناكثة من الكفار الذين
ينقضون ميثاقهم، ومن المسلمين ظاهراً الذين ينكثون بيعتهم.

١/ نقض الإيمان، وبالذات تلك التي أكدها الإنسان وجعل الله عليها كفيلاً، إنه يهدم بنى المجتمع الإسلامي. ذلك لأن الثقة المتبادلة هي أهم رصيد يملكه هذا المجتمع في دعم علاقاته ببعضهم، وشرف التوحيد أهم قاعدة لتنظيم حياتهم الجمعية.

وفي الشؤون الاقتصادية أو السياسية أو في علاقاتهم الأسرية يتمسك المسلمون بقيمة التوحيد، ولا يشتركون بإيمانهم ثمناً قليلاً من عرض الدنيا. هكذا أدبهم القرآن، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل/٩١)

وقد جاء في (المجازات النبوية) قوله صلى الله عليه وآله: "اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع". (١)

٢/ ولكن لماذا تنتقض اليمين من قبل الناس، أوليس بهدف التعالي على بعضهم البعض، وإذا سقط المجتمع في وهدة الصراعات، وكانت كل طائفة منهم تريد ان تكون هي الأربى والأعلى، ولو على حساب سائر الطوائف، فهناك يستسيغون إتخاذ الإيمان دخلاً بينهم، فيقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويمارسون الغدر ببعضهم، يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ إِيمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (النحل/٩٢)

وقصة خرقاء قريش التي كانت تغزل هي وجواربها عرض النهار، فاذا أمست نقضت غزلها أنكاثاً؛ هذه القصة تنطبق على تلك الأمة التي تغزل حبال الوحدة بالإيمان، ثم تنتقضها بالغدر بحثاً عن التسلط الزائف على بعضهم. وبذلك يهدمون صرح الأمة الواحدة، حتى أصبحوا كما قال الشاعر:

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة
فيها أمير المؤمنين ومنبر

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٤٩، ح ١٩.

٣/ ومرة أخرى ينهى ربنا سبحانه عن الدخول في الأيمان والخذعة فيها والخيانة، حيث يقول: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا إِيمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النحل/٩٤)

ونستوحي من الآية، الأضرار الكبيرة التي تلحق بمن يتخذ اليمين وسيلة الخداع:

أ- تزل قدم صاحب الخيانة؛ وأي فائدة في دين لا يثبت أمام فتنة الدنيا، وقدم لا تثبت في مواجهة إغراء المادة؟

ب- إذا انهدم أساس المجتمع وانهار بناؤه، فإن السوء يعم الناس جميعاً. وإذا بسبيل الله الذي يؤدي الى التعاون واشاعة المعروف ومن ثم انتشار الرحمة، ينغلق بفعل اليمين الكاذبة. وإذا البلاد تعود بلاقع، لأنه يتزلزل أساس المدنية، وهو الثقة والتعاون بين الناس.

ج- أما في الآخرة، فإن عذاباً عظيماً ينتظر الخونة والغادرين. وهكذا قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: " وإنَّ اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم ليذران البلاد بلاقع من أهلها". (١)

وعن الإمام الرضا عليه السلام: " من بارز الله بالأيمان الكاذبة برئ الله منه". (٢)

٤/ وهل يعلم الناكث لليمين أنه سيذهب الى الآخرة بلا رصيد، لأنه لا خلاق له فيها ولا نصيب، ولا جاه له عند الله، لأن الله لا يكلمه ولا ينظر إليه ولا يزكاه؟ قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَإِيمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران/٧٧)

٥/ والناكثة هي الفرقة الضالة التي تقاوم الرسالة بعد إبرام الميثاق مع قيادتها. قد تكون هذه الفرقة من الكفار الذين يعاهدون المسلمين ثم ينقضون

(١) مستدرک الوسائل، کتاب الايمان، ج١٦، ص٣٧، ح٢.

(٢) المصدر، ح٣.

عهدهم وينكثون أيمانهم، وقد تكون من المسلمين ظاهراً حيث تراهم يبايعون الإمام ثم ينكثون بيعتهم. وقد أجاز القرآن قتالهم، فقال ربنا سبحانه: ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا إِيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا إِيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ (التوبة/ ١٢)

نستفيد البصيرة التالية من هذه الآية؛ إن نكث الأيمان قد يتسبب في إشعال نار الحرب، حيث يجوز للإمام أن يقاتل الناكثة.

فقه الآيات

تنقسم الأيمان إلى ثلاثة؛ فهناك يمين المحاورة، حيث يحلف المرء بالله لاثبات صدقه. وهناك يمين الدعاوى، حيث يقسم المرء أمام المحكمة لاثبات دعواه. وهناك يمين التزام، حيث يوجب المرء على نفسه شيئاً باليمين. وقد بيّنت آيات الذكر أحكام الإيمان كلها، ونحن - بدورنا- نشير إليها في هذا الفصل بعد أن نستبين معنى اليمين، وما به ينعقد. وهكذا نقسم حديثنا هنا إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: معنى اليمين

١/ لقد بينت آيات كريمة بأن الله لا يؤاخذ عباده باللغو في الأيمان. ونستوحي من هذه البصيرة الأحكام التالية:

ألف: يشترط فيمن يحلف يميناً الشروط التي يلحقها المحقق الحلي بقوله: البلوغ، والعقل، والاختيار، والقصد. فلا ينعقد يمين الصغير، والمجنون، ولا المكره ولا السكران ولا الغضبان، إلا أن يملك نفسه. (١)

قال العلامة النجفي في شرحه على هذه العبارة: بلا خلاف أجده في شيء من ذلك. (٢)

(١) جواهر الكلام، ج ١٢، ص ٤٠٤-٤٠٥.

(٢) المصدر.

وقد جاء في حديث مأثور عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام: لا يمين في غضب، ولا في قطيعة رحم، ولا في جبر، ولا في إكراه. قال: قلت: أصلحك الله فما فرق بين الجبر والإكراه؟ فقال: الجبر من السلطان، ويكون الإكراه من الزوجة والأم والأب وليس ذلك بشيء. (١)

وقال المحقق الحلي: ولا ينعقد اليمين إلا بالنية، ولو حلف من غير نية لم تنعقد سواء كان بصريح أو كناية، وهي يمين لغو. (٢)

٢/ وقال المحقق الحلي: لا ينعقد اليمين إلا بالله أو باسمائه التي لا يشركه فيها غيره، أو مع إمكان المشاركة ينصرف إطلاقها إليه. فالأول: كقولنا: ومقلب القلوب، والذي نفسي بيده، والذي خلق الحبة وبرأ النسمة. والثاني: كقولنا: والله والرحمن، والأول الذي ليس قبله شيء. والثالث: كقولنا: والرب، والخالق، والبارئ، والرازق. (٣)

وقال العلامة النجفي: وحاصله أن أقسام اليمين العاقدة ثلاثة، مرجعها إلى الحلف بالله أو بأسمائه المختصة به أو الغالبة عليه. (٤)

وقد جاء في الحديث المأثور عن علي بن مهزيار: قلت لأبي جعفر الثاني (الإمام الجواد عليه السلام) جعلت فداك في قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾. وقوله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ وما أشبه هذا؟ فقال: إن الله عز وجل أن يقسم من خلقه بما شاء وليس لخلقه أن يقسموا إلا به عز وجل. (٥)

(١) وسائل الشيعة، الباب ١٦ من كتاب الأيمان، ج ١٦، ص ١٧٢، ح ١.

(٢) جواهر الكلام، ج ١٢، ص ٣٩٦.

(٣) المصدر، ص ٣٨٦.

(٤) المصدر.

(٥) وسائل الشيعة، الباب ٣٠ من كتاب الأيمان، ح ١، ج ١٦، ص ١٩٠.

٣/ وقال المحقق الحلي (ره): ولا ينعقد اليمين: بالطلاق، ولا بالعناق، ولا بالتحريم، ولا بالظهار، ولا بالحرم، ولا بالكعبة والمصحف والقرآن، ولا الأبوين، ولا بالنبي والأئمة عليهم السلام. (١)

وقال العلامة النجفي: فضلاً عن غيرهم من المخلوقات المعظمة والأماكن المشرفة؛ كالأنبياء والملائكة وغيرهم للأصل، وما سمعته من النصوص السابقة الناهية عن الحلف بغير الله، والأمر به إن أريد. (٢)

بلى؛ هناك أحاديث قد نهت عن الحلف بغير الله، وقد بيّنا واحداً منها، وإليك حديثين آخرين:

قال محمد بن مسلم: سمعت أبا جعفر (الإمام محمد الباقر عليه السلام) يقول: "لا تتبعوا خطوات الشيطان. قال: كل يمين بغير الله فهي من خطوات الشيطان". (٣)

وروى زرارة عن (الإمام محمد الباقر) أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ قال: إن أهل الجاهلية كان من قولهم: كلاً وأبيك، وبلى وأبيك. فأمرُوا أن يقولوا: لا والله، وبلى والله. (٤)

٤/ وقال المحقق الحلي (ره): والاستثناء بالمشيئة يوقف اليمين عن الانعقاد. (٥)

وقال العلامة النجفي: بلا خلاف أجده، بل الإجماع بقسمية (منقولاً ومحصلاً) عليه. وأضاف: فلا يحنث حينئذ بالفعل المحلوف عليه. (٦)

(١) جواهر الكلام، ج ١٢، ص ٣٩٥.

(٢) المصدر.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٧١، كتاب الأيمان الباب ١٥، ح ٤.

(٤) المصدر، ح ٦.

(٥) جواهر الكلام، ج ١٢، ص ٣٩٦.

(٦) المصدر.

ولا تلزمه الكفارة للنبوي المنجبر بما عرفت (من الإجماع) "من حلف على يمين فقال: إن شاء الله تعالى لم يحنث". (١)

٥/ وقال المحقق الحلي (ره): والحروف التي يقسم بها الباء، والواو، والتاء، وكذا لو خفض ونوى القسم من دون النطق بحروف القسم، على تردد أشبهه الانعقاد. (٢)

وشرحه العلامة النجفي بقوله (في معنى خفض اليمين) فقال: (مثلاً) الله لأفعلن. (٣)

ثم قال: لاندراجه في إطلاق الأدلة بعد أن يكون صحيحاً في اللغة. (٤)

فالجر في كلمة "الله" بذاته دليل على إرادة القسم وحذف أدواته. والواقع؛ إن حقيقة القسم بالله إنعقاد القلب، أما لفظه فإن التعبير العرفي عنه كاف. لذلك قال المحقق الحلي بعدئذ وهو يستدل على بعض عبارات القسم، قال: لأنه موضع للقسم بالعرف. (٥)

٦/ وقال المحقق الحلي (ره): ولا تتعقد من الولد مع والده إلا مع إذنه، وكذا يمين المرأة (مع زوجها) والمملوك (مع مولاه)، إلا أن يكون اليمين في فعل واجب أو ترك قبيح. (٦)

والأصل في هذا الاستثناء الحديث المأثور عن النبي صلى الله عليه وآله: لا يمين للولد مع والده، ولا للمملوك مع مولاه، ولا للمرأة مع زوجها، ولا نذر في معصية، ولا يمين في قطيعة. (٧)

(١) المصدر، ص ٣٩٧ - وراجع سنن البيهقي، ج ١٠، ص ٤٦.

(٢) المصدر، ص ٤٠٣.

(٣) جواهر الكلام، ج ١٢، ص ٤٠٣.

(٤) المصدر.

(٥) المصدر، ص ٤٠٤.

(٦) المصدر، ص ٤٠٨.

(٧) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٥٦، كتاب اليمين، الباب ١٠، ح ٢.

وظاهر الحديث إن سلطة هؤلاء على أنفسهم محدودة، وإن ولاية الأب والزوج والمولى تمنعهم من التصرف الحرّ في شؤونهم. من هنا كانت أيمانهم غير نافذة، إلاّ مع إزمتهم، وكان للكبار حل إيمانهم. قال المحقق: ولو حلف أحد الثلاثة في غير ذلك (العمل بالواجب وترك المعصية) كان للأب والزوج والمالك حل اليمين، ولا كفارة. (١)

ثانياً: متعلق اليمين

١/ قال المحقق الحلي (ره): لا ينعقد اليمين على الماضي نافية كانت أو مثبتة، ولا تجب بالحنث فيها الكفارة، ولو تعدد الكذب. (٢)
وقد ذكر العلامة النجفي الإجماع على عدم الكفارة في هذا النوع من اليمين. (٣)

وقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في رجل قيل له: فعلت كذا وكذا؟ فقال: لا والله ما فعلته، وقد فعله. فقال: كذبت كذبها يستغفر الله منها. (٤)

ومن هذا النوع اليمين الكاذبة التي يمارسها الرجل لتسويق سلعته أو لأكل أموال الناس بالباطل. وقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: وأما التي عقوبتها دخول النار، فهو أن يحلف الرجل على مال امرء مسلم أو على حقه ظلماً، فهذه يمين غموس توجب النار ولا كفارة عليه في الدنيا. (٥)
٢/ وقال المحقق الحلي: وإنما تتعدّد (اليمين) على المستقبل بشرط أن يكون واجباً أو مندوباً أو ترك قبيح أو ترك مكروه، أو على مباح يتساوى فعله وتركه، أو يكون البر أرجح. ولو خالف أثم ولزمته الكفارة. ولو حلف على ترك ذلك لم تتعدّد ولم يلزمه الكفارة؛ مثل أن يحلف لزوجته ألاّ يتزوج أو ألاّ

(١) جواهر الكلام، ج ١٢، ص ٤٠٩.

(٢) المصدر، ص ٤١١.

(٣) المصدر.

(٤) وسائل الشريعة، ج ١٦، ص ١٥٤، كتاب اليمين، الباب ٩، ح ٢.

(٥) المصدر، ح ٣.

ينتسرى، أو تحلف هي كذلك، أو تحلف أنها لا تخرج معه ثم احتاجت الى الخروج. (١)

وقد استظهرنا من آية كريمة حرمة اليمين في عدم البر والتقوى والإصلاح، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٢٤)

وجاء في حديث رواه عبد الرحمن بن الحجاج قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن امرأة حلفت بعق رقيقها وان تمشي إلى بيت الله، أن لا تخرج إلى زوجها أبداً وهو ببلد غير الأرض التي هي فيها، فلم يرسل إليها نفقة واحتاجت حاجة شديدة ولم تقدر على نفقة. فقال عليه السلام: إنها وإن كانت غضباء، فإنها حلفت حيث حلفت، وهي تنوي أن لا تخرج إليه طائعة وهي تستطيع ذلك، ولو علمت أن ذلك لا ينبغي لها لم تحلف، فلتخرج إلى زوجها وليس عليها شيء في يمينها، فإن هذا أبر. (٢)

نستفيد من الحديث؛ أن المعيار في نفاذ اليمين الأرجحية، فإذا كان ما أقسم عليه المرء غير راجح - شرعاً أو عرفاً - لم تتعد يمينه.

وجاء في حديث مروى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: كل يمين حلف عليها أن لا يفعلها مما له فيه منفعة في الدنيا والآخرة فلا كفارة عليه، وإنما الكفارة في أن يحلف الرجل والله لا أزي، والله لا أشرب الخمر، والله لا أسرق، والله لا أخون، وأشبه هذا، ولا أعصي ثم فعل فعله الكفارة فيه. (٣)

وروى سعيد الأعرج قال: سألت أبا عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام عن الرجل يحلف على اليمين فيرى أن تركها أفضل، وإن لم يتركها خشي أن يأتى، أيتركها؟ قال: أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا رأيت خيراً من يمينك فدعها. (٤)

(١) جواهر الكلام، ج ١٢، ص ٤١٢.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الأيمان، الباب ٤٥، ح ٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٨١، كتاب اليمين، الباب ٢٣، ح ٣.

(٤) المصدر، ص ١٧٥، الباب ١٨، ح ١.

وفي خبر مآثور عنه عليه السلام أيضاً قال: إذا حلف الرجل على شيء، والذي حلف عليه إتيانه خير من تركه فليأت الذي هو خير، ولا كفارة عليه، وإنما ذلك من خطوات الشيطان. (١)

ومثل هذه الروايات أحاديث أخرى تدل على أن الحلف يؤكد عزيمة الإنسان على الخير، وليس يغير الحق باطلاً والجميل قبيحاً، أو يؤثر في مسيرة العقل البشري. وأما إذا حلف الإنسان على فعل شيء قبيح أو باطل أو مضر، فإنما ذلك الشيطان الذي وسوس إليه وجعله يعزم باليمين على ارتكاب ما لا ينفعه.

ونستفيد من مجمل النصوص الشرعية في أبواب متفرقة؛ إن معيار الحق والباطل والخير والشر هو الوحي والعقل، وعلى الإنسان أن يتبعهما ولا يحيد عنهما بنذر أو يمين أو عادة أو تقليد أو ما أشبه. بل وحتى إذا عقد المرء عزمه على فعل مستقبلاً ثم تبين له أن هناك ما هو أفضل، فعليه أن يغير عزمه إلى ما هو أولى له. وهذا أحد معاني الاستثناء بالمشيئة الإلهية، وقول إن شاء الله، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلكَ عداءٌ * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكَرَ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (الكهف/٢٣-٢٤)

نستفيد من قوله سبحانه: ﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ ضرورة تطوير الخطط حسب المتغيرات التي يهدينا إليها الله سبحانه، وعدم الجمود على الخطط السابقة لمجرد أننا قررنا أن نقوم بها، والله المستعان.

٣/ وقال المحقق الحلي (ره): ولا تتعقد (اليمين) على فعل الغير كما لو قال: والله لتفعلن، فإنها لا تتعقد في حق المقسم عليه (الذي يخاطبه) ولا المقسم (المتكلم). (٢)

(١) المصدر، ح ٢.

(٢) جواهر الكلام، ج ١٢، ص ٤١٩.

وقد جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام، إنه سئل عن الرجل يقسم على أخيه. قال: ليس عليه شيء، إنما أراد إكرامه. (١)
بلى؛ هناك حديث آخر يأمر بالكفارة في مثل هذه الحالة، وقد قال الفقهاء أنه أمر ندب للأحاديث التي تنفي الكفارة وللإجماع بين الفقهاء على عدم الكفارة، والحديث هو التالي:

عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام قال: إذا أقسم الرجل على أخيه فلم يبر قسمه، فعلى المقسم كفارة يمين. (٢)

٤/ وقال المحقق الحلي: ولا ينعقد (اليمين) على مستحيل، كقوله: والله لأصعدن السماء، بل تقع لاغية، وإنما تنعقد على ما يمكن وقوعه. ولو تجدد العجز (بعد أن كان العمل بالقسم ممكناً) انحلت اليمين، كأن يحلف ليحج في هذه السنة فيعجز. (٣)

وقد ذكر العلامة النجفي أنه لا خلاف في ذلك. (٤)

ثالثاً: يمين الاثبات

وقد يحلف المرء على شيء لاثبات كلامه ودفع الريب عنه؛ سواءً كان ذلك في المحكمة، أو في السوق، وفي التعامل مع الناس عموماً. ونوجز الحديث في هذا القسم عبر النقاط التالية:

١/ يكره اليمين بالله لاثبات الكلام، سواءً في القضاء أو غيره، إلا إذا دعت الحاجة الضرورية. وقد وردت الأخبار المأثورة في ذلك، عن علي بن مهزيار قال: كتب رجل إلى أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام يحكي له شيئاً، فكتب عليه السلام إليه: والله ما كان ذلك وإني لأكره أن أقول: والله، على حال من الأحوال، ولكنّه غمّني أن يقال ما لم يكن". (٥)

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٢٠٩، كتاب الأيمان، الباب ٤٢، ح ١.

(٢) المصدر، ص ٢١٠، ح ٤.

(٣) جواهر الكلام، ج ١٢، ص ٤١٩-٤٢٠.

(٤) المصدر.

(٥) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٤٠، أبواب الأيمان، الباب ١، ح ١.

وروي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، أنه قال: اجتمع الحواريون إلى عيسى عليه السلام فقالوا: يا معلم الخير أرشدنا. فقال: إن موسى نبي الله أمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين وأنا أمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين ولا صادقين. (١)

وقد أكدت الروايات إن من سنة الله أن يبتلي الذي يحلف بما حلف إلا يفعله، حيث جاء في الحديث عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام قال: "لو حلف الرجل أن لا يحك أنفه بالحائط لابتلاه الله حتى يحك أنفه بالحائط، ولو حلف الرجل أن لا ينطح رأسه بحائط لوكل الله به شيطاناً حتى ينطح برأسه الحائط". (٢)

ولعل المراد هو الرجل الذي يحلف من دون حاجة.. وقد ذكر المحدث الحر العاملي (ره) أنه يستحب للمدعى عليه باطلاً، أن يختار الغرم على اليمين. (٣)

ثم ذكر الحديث التالي: عن أبي جعفر (الإمام الباقر) عليه السلام إن أباه كانت عنده امرأة من الخوارج (قال الراوي) أظنه قال: من بني حنيفة فقال له مولى له: يا ابن رسول الله إن عندك امرأة تبرء من جدك ففضى لأبي أنه طلقها، فادعت عليه صداقها فجاءت به إلى أمير المدينة تستعديه. فقال له أمير المدينة: يا علي إماماً أن تحلف وإماماً ان تعطيه. فقال لي: يا بني قم فاعطها أربعمئة دينار. فقلت له: يا أبة جعلت فداك ألسنت محقاً؟! قال: بلى يا بني ولكني أجلت الله أن أحلف به يمين صبر. (٤)

وذكر المحدث العاملي أيضاً إستحباب إختيار الغرم على الحلف ان بلغت الدعوى ثلاثين درهماً فما دون، واستدل بالحديث التالي: عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام قال: "إن ادعى عليك مال ولم

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٤٠، أبواب الايمان، الباب ١، ح ٢.

(٢) المصدر، ص ١١٦، ح ٨.

(٣) المصدر، ص ١٤٢.

(٤) المصدر، ص ١١٧، أبواب الايمان، الباب ٢، ح ١.

يكن عليك فأراد أن يحلفك فان بلغ مقدار ثلاثين درهماً فأعطه ولا تحلف، وإن كان أكثر من ذلك فاحلف ولا تعطه". (١)

٢/ وقد سبق الكلام في مدى فضاة الأيمان الكاذبة وكيف أنها تهدم أساس المدنية البشرية وتدع البلاد العامرة بلاقع من أهلها.. ولكن تتأكد الحرمة في اليمين الغموس التي يسعى صاحبها أكل أموال الناس بها ظلماً. وقد جاء في الحديث عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام قال: " الأيمان ثلاث: يمين ليس فيها كفارة، ويمين فيها كفارة، ويمين غموس توجب النار. فاليمين التي ليست فيها كفارة الرجل يحلف على باب برّ أن لا يفعله فكفارته أن يفعله، واليمين التي تجب فيها الكفارة الرجل يحلف على باب معصية أن لا يفعله فيفعله فيجب عليه الكفارة، واليمين الغموس التي توجب النار الرجل يحلف على حق امرء مسلم على حبس ماله". (٢)

وقد وردت أخبار بضرورة أن تكون اليمين على قدر علم الإنسان. منها ما روي عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام قال: "لا يحلف الرجل إلا على علمه". (٣)

وعن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام قال: "اليمين الغموس التي توجب النار، الرجل يحلف على حق امرء مسلم على حبس ماله". (٤)
عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث المناهي قال: "ونهى عن اليمين الكاذبة وقال: إنها تترك الديار بلاقع. وقال: من حلف بيمين كاذبة صبراً ليقطع بها مال امرء مسلم لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان إلا أن يتوب ويرجع". (٥)

(١) المصدر، ص ١٤٣، الباب ٣، ح ١.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٥٣، الباب ٩، ح ١.

(٣) المصدر، ص ١٨٠، الباب ٢٢، ح ١.

(٤) المصدر، ص ١٤٦، الباب ٤، ح ١٠.

(٥) المصدر، ص ١٤٧، ح ١٤٤.

١٣/ ولكن يجوز أن يحلف المرء دفاعاً عن حقه أمام ظالم يريد البغي عليه، ولو كان ظاهر كلامه كذباً مادام الحق معه، والأمثلة نجدتها في متن الأحاديث التالية:

عن مسعدة بن صدقة قال: سمعت أبا عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام يقول وسئل عما يجوز وعمّا لا يجوز من النية والاضمار في اليمين فقال: يجوز في موضع ولا يجوز في آخر؛ فأما ما يجوز فإذا كان مظلوماً فما حلف به ونوى اليمين فعلى نيته، وأما إذا كان ظالماً فاليمين على نية المظلوم. (١)

عن اسماعيل ابن سعد الأشعري، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث قال: سألته عن رجل أحلفه السلطان بالطلاق أو غير ذلك فحلف. قال: لا جناح عليه. وعن رجل يخاف على ماله من السلطان فيحلف لينجو به منه. قال: لا جناح عليه. وسألته هل يحلف الرجل على مال أخيه كما يحلف على ماله؟ قال: نعم. (٢)

عن يونس عن بعض أصحابه، عن أحدهما عليهما السلام في رجل حلف تقية فقال: إن خفت على مالك ودمك فاحلف تردّه بيمينك، فإن لم تر أنّ ذلك يردّ شيئاً فلا تحلف لهم. (٣)

وعن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام قال: "ما آمن بالله من وفى لهم بيمين". (٤)

وهكذا ألزم الأئمة الأطهار عليهم السلام شيعتهم بمحاربة الطغاة بكل وسيلة ممكنة – وعدم الوفاء لهم بيمين- لأن الكفر بالطاغوت شرط الإيمان الحقيقي بالله الواحد الأحد سبحانه.

(١) المصدر، ص ١٧٩، أبواب الأيمان، الباب ٢٠، ح ١.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٦٢، الباب ١٢، ح ١.

(٣) المصدر، ح ٣.

(٤) المصدر، ص ١٦٣، ح ٥.

بل وبيّن الأئمة عليهم السلام أن في اليمين التي يسعى صاحبها نجاة نفسه أو إخوانه من المهالك، لأجراً عند الله حتى ولو كانت كاذبة في الظاهر، لأن هدفها إصلاح المجتمع.

قال الإمام الصادق عليه السلام: "اليمين وجهين.. إلى أن قال: فأما الذي يوجر عليها الرجل إذا حلف كاذباً ولم تلزمه الكفارة فهو أن يحلف الرجل في خلاص امرء مسلم أو خلاص ماله من متعد يتعدى عليه من لص أو غيره".
(١)

وعن معمر بن يحيى قال: "قلت لأبي جعفر (الإمام الباقر) عليه السلام إنّ معي بضايح للناس ونحن نمرّ بها على هؤلاء العشار فيحلفونا عليها فنحلف لهم. فقال: وددت أنّي أقدر على أن أجز أموال المسلمين كلّها وأحلف عليها، كلّما خاف المؤمن على نفسه فيه ضرورة، فله فيه التقية". (٢)

٤/ ولا يجوز - في حال من الأحوال - أن يحلف المرء بالبراءة من دينه حتى ولو كان صادقاً. إستمع إلى الأحاديث التالية:

عن ابن أبي عمير رفعه قال: سمع رسول الله صلى الله عليه وآله رجلاً يقول: أنا بريء من دين محمد. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: وبلك إذا برئت من دين محمد، فعلى دين من تكون؟ قال: فما كلمه رسول الله صلى الله عليه وآله حتى مات. (٣)

وعن محمد بن علي بن الحسين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من برئ من الله صادقاً كان أو كاذباً فقد برئ من الله". (٤)

وعن المفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام يقول: في قول الله عز وجل ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ

(١) المصدر، ص ١٣٥، ح ٩.

(٢) المصدر، ص ١٦٥، ح ١٦.

(٣) المصدر، ص ١٥٢، الباب ٧، ح ١.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٥٣، ح ٤.

تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ يعني به البراءة من الائمة عليهم السلام يحلف بها الرجل
يقول: إِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ. (١)

٥/ وكما لا يجوز اليمين الكاذبة، كذلك لا يجوز الاستشهاد بالله سبحانه
كذباً؛ كأن يقول الإنسان الله يدري كذا وكذا وهو كاذب فيما يدعيه، حيث
وردت الأحاديث بحرمة ذلك.

قال الإمام الصادق عليه السلام قال: "من قال: الله يعلم فيما لا يعلم أهتزازاً
لذلك عرشه إعظماً له". (٢)

وقال عليه السلام: "إذا قال العبد: علم الله وكان كاذباً، قال الله عز وجل:
أما وجدت أحداً تكذب عليه غيري؟!". (٣)

٦/ ويجب تصديق اليمين بالله أنى كان الأمر، لأن في ذلك إعظماً لله
سبحانه، وتكريساً لشرف التوحيد في المجتمع الإسلامي، حيث جاء في حديث
(سبق وأن ذكرناه لك) عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام قال: "إِنَّ
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِيُغْضِ الْمُنْفِقَ سَلْعَتَهُ بِالْإِيمَانِ". (٤)

ولا يجوز الاقتصاص من مال الغريم بعد أن استحلّفه، حتى ولو كان عالماً
بأن حقه عليه.

عن ابراهيم بن عبد الحميد، عن خضر النخعي في الرجل يكون له على
الرجل مال فيجده قال: "فان استحلّفه فليس له ان يأخذ شيئاً، وإن تركه ولم
يستحلّفه فهو على حقه". (٥)

ولكن إذا تاب الرجل وجاء بحقه برضاه، جاز له أن يأخذه من دون أن
يكرهه على ذلك. هكذا نستفيد من الحديث التالي عن مسمع أبي سيار قال:
قلت لأبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام: إني كنت استودعت رجلاً

(١) المصدر، ص ١٥٣، الباب ٨، ح ١.

(٢) المصدر، ص ١٥٠، الباب ٥، ح ١.

(٣) المصدر، ص ١٢٤، ح ٢.

(٤) المصدر، ص ١٥١، الباب ٦، ح ٢.

(٥) المصدر، ص ٢١٥، الباب ٤٨، ح ١.

مالا فجحدنيه وحلف لي عليه، ثمّ إنه جاءني بعد ذلك بسنتين بالمال الذي أودعته إياه. فقال: هذا مالك فخذهُ وهذه أربعة آلاف درهم ربحتها فهي لك مع مالك واجعلني في حلّ. فأخذت منه المال وأبيت أن آخذ الربح منه، ورفعت المال الذي كنت استودعته وأبيت أخذه حتى أستطلع رأيك فما ترى؟ فقال: خذ نصف الربح وأعطه النصف وحلّه، فإنّ هذا رجل تائب والله يحب التّوابين.

(١)

(١) وسائل الشريعة، ج ١٦، ص ٢١٥، ح ٣.

الوعد

من شرف المؤمن وكرامته عند نفسه وصدقته، وسموه، وفاؤه بوعده، كما يفي بعهده ونذره وما انعقدت عليه يمينه.

والله صادق الوعد، والرسول صادقون فيما يعدون الناس، والنبى اسماعيل ضرب به مثل في صدق الوعد حين انتظر من تواعد معه سنة كاملة، وكذلك نبينا ذو الخلق العظيم كان في منتهى الصدق بوعده، أفلا نفتدي بهم؟

الايمان وصدق الوعد

١/ على المؤمن أن يتخلق بأخلاق ربه المجيد، والله يصدق وعده؛ أوليس هو القادر الكريم؟ قال ربنا سبحانه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَاذَنْ مُؤَدَّنْ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الاعراف/٤٤)

علينا أن نثق بوعده الله، فانه الحق والصدق، سواء فيما وعده عباده الصالحين من النصر في الدنيا إن هم نصروه، حينما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد/٧) أو وعده في الآخرة، حينما قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر/٥١)

٢/ وعرف الناس صدق الرسول بصدق وعده، فقالت ثمود للنبي صالح عليه السلام ما بيّنه الرب تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الاعراف/٧٧) فعلامة صدق رسالته، صدقه فيما وعدهم من عذاب ربهم.

٣/ وقد وعد النبي ابراهيم عليه السلام أباه (أزر) أن يستغفر له ربه (حينما كان يرجو توبته وهدايته)، فاستغفر له، ووفى بوعده، ولكنه لما تبين أنه عدو الله تبرأ منه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة/١١٤)

٤/ وقد مدح الله النبي اسماعيل، وأمر بأن يذكر في الكتاب (ليكون قدوة) عندما ضرب مثلاً في صدق الوعد، فقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (مريم/٥٤)

وقد جاء في حديث شريف عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: "إن اسماعيل نبي الله وعد رجلاً بالصفاح فمكث به سنة مقيماً وأهل مكة يطلبونه لا يدرون أين هو، حتى وقع عليه رجل فقال: يا نبي الله ضعفنا بعدك وهلكنا. فقال: إن فلان الطاهي وعدني أن أكن ها هنا ولم أبرح حتى يجيء. فقال: فخرجوا إليه حتى قالوا له: يا عدو الله وعدت النبي فأخلفته؟ فجاء وهو يقول لاسماعيل عليه السلام: يا نبي الله ما ذكرت ولقد نسيت ميعادك. فقال: أما والله لو لم تجئني لكان منه المحشر. فأنزل الله ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾". (١)

وهكذا روي عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: "إن رسول الله وعد رجلاً الى صخرة، فقال: أنا لك ههنا حتى تأتي. قال: فاشتدت الشمس عليه، فقال أصحابه: يا رسول الله لو أنك تحولت الى الظل. قال: قد وعدته الى ههنا، وإن لم يجيء كان منه المحشر". (٢)

٥/ والوعد قرين الصدق. قال الله سبحانه: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ عَاهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الاحقاف/٢٢)

(١) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٩٥، ح١٤. وسائل الشيعة، ج٨، ص٤٥٨-٤٥٩، ح٢.
(٢) المصدر، ح١٣.

وقد جاء في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام: "إنَّ الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جُنَّة أوقى منه وما يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه الى حسن الحيلة، ما لهم قاتلهم الله، قد يرى الحَوْل القَلْب وجه الحيلة، ودونه مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين. (١)
في رحاب الأحاديث

في الأحاديث تأكيد شديد على الوفاء بالوعد وعلاقته بالإيمان، وإن الغدر شعبة من النفاق. تعالوا نتأمل في طائفة منها.

١/ عن الإمام الرضا، عن آبائه، عن الإمام علي عليهم السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "عدة المؤمن نذر، لا كفارة له". (٢)
٢/ عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لمالك الأشتر: "وإياك والمنّ على رعيتك بإحسانك، أو التزيد فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فنتبع موعدك بخلفك، فإن المنّ يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحقّ، والخلف يوجب المقت عند الله وعند الناس. قال الله سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾". (٣)

٣/ عن الرضا عليه السلام قال: "إنّا أهل بيت نرى ما وعدنا علينا ديناً، كما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله". (٤)

٤/ ذكر الحسن بن فضل الطبرسي في مكارم الأخلاق: عن أبي الحميساء قال: بايعت النبي صلى الله عليه وآله قبل أن يبعث، فوعدته مكاناً فنسيته يومي والغد، فأنتيته يوم الثالث، فقال صلى الله عليه وآله: (يا فتى) لقد شققت عليّ، أنا ها هنا منذ ثلاثة أيام. (٥)

(١) المصدر، ج٧٢، ص٩٧، ح٢١.

(٢) المصدر، ص٩٦، ح١٧. مستدرک الوسائل، ج٨، ص٤٥٩، ح٤.

(٣) المصدر، ح٢١. مستدرک الوسائل، ج٨، ص٤٥٩-٤٦٠، ح٦.

(٤) المصدر، ص٩٧، ح٢٢. مستدرک الوسائل، ج٨، ص٤٥٨، ح١.

(٥) مستدرک الوسائل، ج٨، ص٤٦٠، ح٧.

٥/ عن عبد الله بن سنان، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:
"ثلاث من كنَّ فيه أوجب له أربعاً على الناس: من إذا حدَّثهم لم يكذبهم، وإذا
خالطهم لم يظلمهم، وإذا وعدهم لم يخلفهم، وجب أن تظهر في الناس عدالته،
وتظهر فيهم مروءته، وأن تحرم عليهم غيبته، وأن تجب عليهم أخوته". (١)

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٩٣، ح ٥.

الكفالة

ماهي الكفالة؟ الكلمة تحتل معنيين؛ الأول: تحمل مسؤولية الشخص من رزقه وحفظه. الثاني: ضمانه الشخص عند حاكم أو غريم، وربط ذمته بذمة الشخص.

ويشترك المعنيان في تحمل المسؤولية، ولكن المعنى الأول هو الأكثر استخداماً في القرآن الحكيم.

والكفالة تتصل بشرف المؤمن كما العهد والعقد واليمين، فإن واقعها إشغال ذمة الكفيل بمسؤولية جديدة يتحملها بوعيه. ومن لم يتحمل مسؤوليته، فإنه يخل بشرفه..

ولأن المؤمن يحترم نفسه ويكرمها، فإنه لا يخفر ذمته في الكفالة، كما في سائر مصاديق التعهد والالتزام.

١/ ونستفيد معنى التكفل من قول الله سبحانه: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص/١٢)

فأهل بيت موسى عليه السلام هم أقرب الناس الى تكفله، ولأنه إبنهم العائد إليهم.

٢/ وكذلك نستفيد معنى التكفل من قول الله سبحانه: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران/٣٧)

الصديقة مريم سلام الله عليها التي أنبتها ربها نباتاً حسناً، قد وقر لها سبحانه أفضل من يتكفل أمورها، وهو النبي زكريا عليه السلام. وهكذا ينبغي لمن يتكفل أحداً أن يكون براً به، ومهماً بشؤونه، وألا يضيعه في أي وقت، كما أهل بيت موسى عليه السلام بإيهم، وكما النبي زكريا عليه السلام بالصديقة مريم.

٣/ أما الكفالة بمعنى الضمان، فإننا نجدتها في قوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَفْضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل/٩١)

فقه الآيات

في آية كريمة واحدة نكر عقد الكفالة بصورة صريحة، وهي قول الله سبحانه: ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (يوسف/٧٢)

كما روي عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام... نكر لنا أن رجلاً من الأنصار مات وعليه ديناران ديناً، فلم يصلّ عليه النبي صلى الله عليه وآله، وقال: صلّوا على صاحبكم حتى ضمنها عنه بعض قرابته؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: ذلك الحق... (١).

ولكن البحوث الفقهية في عقد الكفالة تشعبت، وذلك للحاجة إليه. ومعلوم أن أصول الفقه وقواعده الأساسية منكرة في الكتاب والسنة الشريفة، أمّا فروعها فهي قابلة للتوسع حسب الحاجة. وقد سبق الحديث عن العقود والقواعد الفقهية العامة التي ذكرت في الكتاب والسنة، والتي تنطبق على عقد الكفالة أيضاً. ولا نعيد الحديث عنها هنا، إنما نشير إلى بعض ما ذكره الفقهاء، استكمالاً للبحث إن شاء الله تعالى.

(١) وسائل الشيعة، ج١٣، ص٧٩، ح١.

أ- قالوا الكفالة عقد شرّع للتعهد بالنفس، وقال بعضهم أنه ضم ذمة بذمة. والمهم في هذه الكلمات التي تعرّف العقود الإشارة إليها، وإلا فإن كل تعريف يرد عليه النقص لأنه ليس أصلاً نعود إليه، بل الأصل القواعد الفقهية والتي منها: قاعدة إمكانية استحداث عقد جديد حسب الحاجة إليه.

ب- حكي عن فخر الإسلام إن الكفالة في مذهبنا إنما تصح بشرط أن يكون على المكفول للمكفول له حق شرعي، والحق أعم من أن يكون ديناً أو عيناً، وقيل كل من يستحق إحضاره الى مجلس الشرع (المحكمة الشرعية) فإنه تصح كفالته (مثل المتهم حتى ولو لم يكن الحق عليه ثابتاً). (١)

ج- وقال العلامة النجفي: لا تصح (الكفالة) في الحدود للإجماع المحكي عن التذكرة على ذلك، ولقوله صلى الله عليه وآله في المروي من طرق الخاصة والعامّة (٢) "لا كفالة في حد". (٣)

د- وقال المحقق الحلي: ويعتبر رضا الكفيل والمكفول له دون المكفول عنه. (أي الكفيل وصاحب الحق وليس المتهم أو من عليه الحق). وقال العلامة النجفي تعليقاً على عدم اشتراط المكفول، قال: عند المشهور، بل عن التذكرة نسبته الى علمائنا. ولكن نقل عن الشيخ الطوسي وابن حمزة وابن إدريس وغيرهم اشتراط رضاه أيضاً، لأنه يشك في صدق عقد الكفالة من دون رضاه، والشك في ذلك كافٍ في بطلانها. إذ الأصل أنه لا يؤثر أثره.. (٤)

ونحن نقول إذا لم يتجاوز الحق الطرفين، يصح العقد عرفاً، أما إذا تجاوزهما فلا.

(١) جواهر الكلام، ج ٩، ص ٣٥٧.

(٢) وسائل الشيعة، الباب ١٦ من أبواب أحكام الضمان، ح ١-٢.

(٣) جواهر الكلام، ج ٩، ص ٣٥٨.

(٤) جواهر الكلام، ج ٩، ص ٣٥٨.

هـ- وقال المحقق الحلي: وتصح حاله ومؤجله على الأظهر، ومع الإطلاق تكون معجلة. (١)

أما الكفالة المؤجلة بمعنى أنه يكلف بإحضار المتهم بعد مدة معينة سنة مثلاً، فلا إشكال عندهم في صحتها.

أما المؤجلة بمعنى أن عقد الكفالة يبقى فقط خلال فترة سنة، بحيث يندم ضمان الكفيل بعد هذه المدة. فقد استشكل فيه العلامة النجفي، واعتمد في إشكاله على الشك في صدق الكفالة حينذاك. والواقع إن العرف إذا اعتمد على هذا النوع من العقد واعتبره صحيحاً، فلا مجال للشك في صحته لشمول أدلة صحة العقود لكل عقد يعتبره العرف صحيحاً.. (٢)

وأضاف المحقق الحلي: وإذا اشترط الأجل، فلا بد أن يكون معلوماً. واستدل العلامة النجفي على اشتراط العلم بالأجل، أولاً: بالاجماع، ثانياً: بقاعدة نفي الغرر. (٣) ولنا أن نستشكل فيهما إذا أدت الكفالة غرضها الشرعي والعرفي من دون تأثير للجهالة فيه. والله العالم.

و- وقال المحقق الحلي: وللمكفول له مطالبة الكفيل بالمكفول عنه (المتهم) عاجلاً، إن كانت (الكفالة) مطلقة أو معجلة، وبعد الأجل إن كانت مؤجلة. فإن سلّمه تسليمًا تاماً، فقد برء. وإن إمتنع (الكفيل من تسليم المتهم)، كان له حبسه حتى يحضره أو يؤدي ما عليه. (٤)

واستدل على ذلك بالحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه أتى أمير المؤمنين عليه السلام برجل قد تكفل بنفس رجل، وقال: اطلب صاحبك (٥)

(١) المصدر، ص ٣٥٩.

(٢) راجع المصدر، ص ٣٥٩.

(٣) المصدر.

(٤) المصدر، ص ٣٥٩-٣٦٠.

(٥) وسائل الشيعة، الباب ٩ من أبواب أحكام الضمان، الحديث ١-٢.

وفي خبر الأصبع بن نباتة "قضى أمير المؤمنين عليه السلام في رجل تكفل بنفس رجل أن يحبس، وقال له: أطلب صاحبك. (١)

وقال العلامة النجفي تعليقا على هذه الطائفة من الأحاديث: أنها كما ترى ليس في شيء منها التخيير بين الإحضار والأداء (أي أداء الحق الذي تكفل المتهم من أجل أداءه). ومن هنا كان المحكي عن التذكرة وغيرها عدم وجوب القبول على المكفول له. (٢)

أقول: إن عقد الكفالة يتبع الاتفاق الذي يتم بين الطرفين أو الأطراف، لأن الحق لا يتجاوزهم، وليس هناك دليل قوي على شروط شرعية إضافية تفرض عليهم مثل أن يكون الواجب إحضار المتهم بنفسه، وأنه إذا تعاقدا على دفع غرامة يبطل عقد الكفالة. أما قصة حبس الامام علي عليه السلام للمتهم، فلعل المطلوب كان شخصه كما لو كان متهماً بالقتل. وفي مثله يتم العقد عادة على أساس إحضاره، وليس عطاء غرامة.

وعلى هذا نحمل الحديث المأثور في الصحيح أو الموثق عن أبي العباس عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام قال: سألته عن الرجل تكفل بنفسه الرجل الى أجل، فإن لم يأت به فعليه كذا وكذا درهماً. قال: إن جاء به الى الأجل فليس عليه مال، وهو كفيل بنفسه أبداً إلا أن يبدأ بالدراهم، فإن بدأ بالدراهم فهو له ضامن، إن لم يأت به الى الأجل الذي أجله. (٣)

وعلى هذا حمل العلامة النجفي هذا الحديث وما أشبهه حيث قال: ولولا ما سمعته من الإجماع المزبور (على الفتوى بنص الرواية) لأمكن القول بأن المراد من الروايتين بيان الفرق في عقد الكفالة من الاقتصار عليه فقط. وبين اشتراط أداء المال فيه مع عدم الإحضار. ففي الأول لا يكلف إلا النفس أبداً، وفي الثاني يغرم المال إن لم يحضر. (٤)

(١) المصدر.

(٢) جواهر الكلام، ج ٩، ص ٣٦٠.

(٣) وسائل الشيعة، الباب ١٠ من أبواب أحكام الضمان، ح ٢.

(٤) جواهر الكلام، ج ٩، ص ٣٦٢.

وهكذا اعتبر العلامة النجفي أن المعيار في عقد الكفالة التوافق الذي تم بين الأطراف، والرواية تحمل على ذلك التوافق. والله العالم.
في رحاب الأحاديث

وقد تناولت الأحاديث الكفالة من زوايا مختلفة، فقد ذكرت رواية شريفة شرعية الكفالة، عن محمد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام قال: "سألته عن الرهن والكفيل في بيع النسبية، فقال: لا بأس به". (١)
ولكن حديثاً آخر بيّن كراهية الكفالة؛ قال الإمام الصادق عليه السلام: "الكفالة خسارة غرامة ندامة". (٢)

وبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الكفالة لا تصح في الحدود الشرعية، حيث روي عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "لا كفالة في حد". (٣)

(١) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ١١٩، ح ٧.

(٢) المصدر، ص ١٥٢، ح ٤.

(٣) المصدر، ص ١٥٩، ح ٦.

الباب الثالث

التطلع معراج الإنسان

أفاق التطلع في القرآن
الفصل الأول: الإنسانية فوق الفروق
الفصل الثاني: المكارم قصب السبق
الفصل الثالث: القوة في خدمة الحق

آفاق التطلع في القرآن

لكي يسمو الإنسان الى أعلى مراتب الكمال، ويحقق تلك الكرامة التي منحها الرب تعالى إياها، ولكي يبلغ المنزلة الرفيعة التي خلق لها، ويكدح جاهداً الى ربه حتى يأتيه اليقين، ويحظى ببقاء ربه راضياً مرضياً حتى يتبوء عنده في مقعد الصدق عند ملك مقدر؛ لكل ذلك يكرّس المنهج القرآني كلمة التطلع وقيّمته في نفس الإنسان ويتدرج معه في ثلاث مراحل.

الأولى: إستثارة فطرته التي انطوت على التسامي والتطلع.

الثانية: فك الأغلال التي تمنعه من تحقيق تطلعاته.

الثالثة: تذكيره وتعليمه بقائمة التطلعات السامية التي يمكنه بلوغها.

ونحن في هذه الدراسة نمضي قدماً مع كتاب ربنا عبر هذه المراحل التي نبحت عن كل واحدة منها في فصل خاص.

أولاً: الإنسان ذلك الطموح

فطرة التسامي مغروزة في ضمير البشر، وداعية له أبداً الى العروج الى الأعلى؛ وإنما تدس هذه الفطرة في ركام الوسوس والأوهام، والأفكار الشيطانية. فلا تعد ترفعه نحو الأسمى، أو يضل صاحبها السبيل فيرى في الحرص على الدنيا والبغي على الناس تسامياً وعروجاً.. وسواءً الوسوس أو الانحراف عن الصراط، فإنهما من رجس الشيطان، والله سبحانه هو المعتصم والمستعاذ من رجس الشيطان وغروره. والسؤال كيف نتخلص من ركام الوسوس والثقافة الشيطانية؟ إنما بالدعاء إلى الله وبالعمل من أجل تركية النفس وتطهيرها من الإصر والأغلال، وتصحيح نظرة البشر الى

ذاته، ليعلم أنه كائن فوق مادي، خلق ليدخل الجنة ويحظى برضوان الرب. ويسمو إلى معرفة الله والاتكال على قدرته التي لا تحد، وعطاءه الذي لا يجذ، ورحمته الواسعة، واستجابته لدعوات عباده، ولكي تفتح فطرة البشر الداعية له إلى التسامي وتتبلور غريزة التطلع عنده، ضرب القرآن المجيد الأمثلة البليغة والنافذة من واقع الأنبياء والأولياء الذين بلغوا أسمى الدرجات بما استجاب لهم ربهم دعواتهم، ثم ذكر الإنسان بتفاصيل الأغلال التي أحاطت به وأصبحت عقبات في سبيل تساميه، ودعاه للتخلص منها والمسارعة إلى السمو والكمال.

هذه هي سبل إستثارة الفطرة؛ دعنا نمضي قدماً في توضيح هذه السبل وتفصيلها.

ألف: الإنسان كائن متميز

١/ هل أنا وأنت وسائر الناس أحياء، كسائر ما يدب على الأرض أو يطير في السماء، تطورنا صدفة في طفرة طبيعية، وكان جدنا الأعلى قرداً؟

كلا؛ لقد خلق الله أبانا آدم من طين لازب، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته. أما إبليس الذي أبى السجود له، فقد رجمه ولعنه. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون/١٣-١٤)

٢/ وقال الله سبحانه: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَاذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (ص/٧٠-٧٧)

من هنا نعرف إن الإنسان مخلوق متميّز، ولا يمكن قياسه بسائر الأحياء التي في الأرض، وبنسبة تميّزه يزداد طموحاً ومسؤولية.

٣/ وقد دعا الله عباده الى جنته ورضوانه، وحذرهم من الشيطان الذي أخرج أباهم من الجنة، فقال سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الاعراف/٢٧)

٤/ وقال الله سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران/١٣٣)

٥/ بل دعا عباده الى أن يكونوا من المكرمين، الذين حظوا بقربه؛ فقال سبحانه: ﴿فِي مَقْعَدٍ

صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر/٥٥)

٦/ وقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَاَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر/٢٧-٣٠)

وهكذا نستوحي من آيات الذكر عموماً البصائر التالية:

إن الإنسان خلق في أحسن تقويم. وقد كان أبونا آدم وزوجه في الجنة، وإنما أخرجهما الشيطان منها، وعلينا أن نجتنب غواية الشيطان حتى يدخلنا الله جنته الخالدة مرة أخرى. وإن الإنسان يبلغ من العلو درجة يكون جليس ربه، بل إنه لا يستريح إلا عند ربه، ولا يسكن قلبه إلا بذكر الله خالقه، ولا يرضى تمام الرضا إلا إذا رضي عنه مولاه، ولا يشبع طموحه إلا إذا نظر إلى نور وجه سيده.

وهكذا كان عباد الله المخلصون، ومنهم سيدنا الإمام زين العابدين عليه السلام الذي يقول في بعض ما ناجى به ربه:

(الهي كسري لا يجبره إلا لطفك وحنانك، وفقرى لا يغنيه إلا عطفك وإحسانك، وروعتي لا يسكنها إلا أمانك، وذلتى لا يعزها إلا سلطانك، وامنتى لا يبلغنيها إلا فضلك، وختلتى لا يسدها إلا طولك، وحاجتى لا يقضيها

غيرك، وكربي لا يفرّجه سوى رحمتك، وضرّي لا يكشفه غير رأفتك،
وغلّتي لا يبرّدها إلا وصلك، ولوعتي لا يطفئها إلا لقاءك، وشوقي إليك لا
يبئله إلا النظر الى وجهك، وقراري لا يقرّ دون دنويّ منك، ولهفتي لا يردها
إلا رّوحك، وسقمي لا يشفيه إلا طبّك، وغمّي لا يزيله إلا قربك، وجرحي لا
يبرئه إلا صفحك، ورين قلبي لا يجلوّه إلا عفوك، ووسواس صدري لا
يزيحه إلا أمرك. فيا منتهى أمل الأمّلين، ويا غاية سؤل السائلين، ويا أقصى
طلبة الطالبين، ويا أعلى رغبة الراغبين، ويا وليّ الصالحين، ويا أمان
الخائفين، ويا مجيب دعوة المضطرين، ويا نخر المعدمين، ويا كنز البائسين،
ويا غياث المستغيثين، ويا قاضي حوائج الفقراء والمساكين، ويا أكرم
الأكرمين، ويا أرحم الراحمين، لك تخضّعي وسؤالي، وإليك تضرّعي
وابتهالي، أسئلك أن تنيلني من رّوح رضوانك، وتُدّيم عليّ نعم امتنانك، وها
أنا بباب كرمك واقف، ولنفحات برّك متعرّض، وبحبك الشديد معتصم،
وبعروتك الوثقى متمسّك، إلهي إرحم عبدك الذليل، ذا اللسان الكليل، والعمل
القليل، وامنن عليه بطولك الجزيل، واكنفه تحت ظلك الظليل، يا كريم يا
جميل يا أرحم الراحمين). (١)

وهكذا تتبلور فطرة الإنسان حينما يعرف نفسه، والحكمة من خلقه، وأفاق
التقدم أمامه، تلك التي لا تُحدّ بالدنيا ولا بالشؤون المادية ولا حتى بالجنة، بل
تصل الى حيث النظر الى وجه الله والجلوس في مقعد الصدق عنده والفوز
بمناجاته.

باء: التوكل على الله سلم الطموح

وهذه النظرة الشامخة الى الإنسان، تتجلى حقاً عند الإنسان المؤمن بالله
والعارف بأسمائه الحسنی، والتي منها أنه هو البرّ الرحيم، وأنه غافر الذنب،
قابل التوب، ذي الطول، وانه قريب إذا دعى، مجيب إذا سئل. وكلّما ازداد

(١) مفاتيح الجنان، مناجاة المفتقرين، ص ١٢٦.

المؤمن وعياً باسماء الله سبحانه، كلما ازداد نعمة وطموحاً. أوليس العبد يعتز بربه الرحيم الحنان، الذي دعاه الى فضله ورحمته ولم يقطع إحسانه إليه ولا لحظة واحدة، بل دعاه أبداً ودائماً الى الاستزادة من فضله؟

وقد قال الإمام الحسين في دعائه الذي ناجى به ربه في يوم عرفة، قال: "لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً، كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الاحسان، وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتتان. يا من أذاق أحبائه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين، ويا من ألبس أوليائه ملابس هيبته فقاموا بين يديه مستغفرين". (١) وهكذا يصل الإنسان المؤمن ويجول، لا بحوله وقوته، وإنما بحول الله العظيم وقوته القاهرة. وعندما يتطلع إلى قمة، فهو يضع في حسابه ما يحصل عليه من فضل ربه وما يستدر من رحمته الواسعة. وبهذا يستطيل ويستطيل حتى يصبح مثلما يصفهم الإمام الحسين في رائعة من دعائه يوم عرفة: (أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحّدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجئوا الى غيرك. أنت المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانتم لهم المعالم). (٢)

إن سمو الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين الى مستوى جعل الملائكة يعيشون العجب حتى باهى بهم ربهم ملائكته، إن ذلك لدليل على مدى قابلية الإنسان إذا اتصل قلبه بنور ربه أن يسمو وأن يتعالى بفضل الله. /١ ومن بين صفات الرب وأسمائه الحسنى التي تزيد قوة الإنسان وثقته بنفسه حب الله سبحانه للمتوكلين عليه، حيث يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ

(١) مفاتيح الجنان، للمحدث القمي، دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، ص ٢٧٣.
(٢) المصدر.

وَاسْتَعْفُزْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿ آل عمران/ ١٥٩ ﴾

٢/ وان من توكل عليه فهو حسبه. قال الله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا
يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ
شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق/ ٣)

٣/ إن قدرات البشر كبيرة، لأنه بالإضافة الى ذخائر القوة المادية والعلمية
الهائلة التي أودعها الله سبحانه عنده، والتي بها يسخر ما في الخليقة من أحياء
أو أشياء؛ بالإضافة الى ذلك، فانه سبحانه قد وعده الاستجابة إذا دعاه، وبذلك
يسخر المزيد من الكائنات له بقدرته المهيمنة على كل شيء. ولكن الاستفادة
من هذه الطاقات الهائلة جداً بحاجة الى عزم وإرادة من عنده، وهذا العزم
بحاجة الى إندفاع داخلي، والى ارتفاع الموانع المحتملة. والمشكلة تكمن هنا
بالذات، حيث إن إبليس لا يدع ابن آدم يعقد العزم على تفجير طاقته؛ أما
بالوسوسة والتشكيك في إمكاناته، وإما بإثارة الخوف من الانطلاق، أو
بالتسوية، أو بما أشبه ذلك مما تفصل الحديث عنه إن شاء الله لاحقاً. فكيف
نتغلب على مكر الشيطان، ونمضي قدماً في عقد العزم؟

إنما بالتوكل، ذلك لأن لحظة إتخاذ القرار لحظة حاسمة جداً، حيث إن
الشياطين تتراكم على القلب وتنفث فيه يمناً ويساراً، وفي تلك اللحظة يؤدي
التوكل على الله دور سفينة النجاة في بحر الوسوس. فلو إتصل القلب بنور
الرب، واستمد منه القوة والعزم، ووثق بعونه ونصره، وقال: (ما شاء الله، لا
حول ولا قوة إلا بالله)، تنقشع عن نفسه سحب الوسوس، ويمضي قدماً في
عزمه، ويفجر طاقاته، ويضيف إليها المزيد من الطاقة من فضل ربه.

تعال لنضرب مثلاً؛ فرعون تسلط على بني اسرائيل واستضعفهم وقمعهم
بكل وسيلة، فجاءهم النبي موسى عليه السلام برسالة الخلاص. ولكن البلاء
استمر ووصلوا الى نقطة حرجة وكادوا ينهارون، فماذا حصل؟ يبين القرآن
الكريم القصة بايجاز: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ

لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَنُقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ
وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ
لِلَّهِ يُوْرثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ (الاعراف/١٢٧-١٢٨)

٤/ وفي لحظة المواجهة بين الأنبياء عليهم السلام والأمم الكافرة، كان
التوكل هو السلاح الحاسم. قال الله سبحانه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ
بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ
اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آءَانَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي
مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿ (ابراهيم/١١-١٣)

جيم: الاقتداء بهدى الأنبياء

١/ كثيراً ما ذكر الله سبحانه الأنبياء الذين اصطفاهم وأثنى عليهم وبين
صفاتهم المثلى، وشرح لنا كيف إجتباهم في الدنيا ونصرهم على أعدائهم
وجعل لهم لسان صدق من بعدهم وأورثهم أرض أعداءهم، وفي الآخرة إختار
لهم أعلى درجات جنته ثم دعا عباده الى الاقتداء بهداهم، فقال سبحانه:
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا
ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ ﴿ (الانعام/٩٠)

٢/ ووعد الله عباده الصالحين بأن يلحقهم بأولئك، إن هم سلّموا لله
وأطاعوه، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿
(النساء/٦٩)

٣/ وأمرنا بأن نكرر هذا الدعاء كل يوم في صلواتنا، ونقول: ﴿اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا
الضَّالِّينَ ﴿ (الفاتحة/٦-٧)

وهكذا تتكامل حوافز الاقتداء بالانبياء عليهم السلام عند المؤمنين، فينبعثون في طريقهم طامحين للحوق بهم في الجنة.

٤/ وقد جعل للحوق بالصالحين من التطلعات السامية عند المؤمن، حيث يقول سبحانه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَٱطَّرَ السَّمَآوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ﴾ (يوسف/١٠١)

ومعروف كم هو تأثير القدوة في إثارة فطرة التطلع عند البشر. فالإنسان قد جُبل على النظر إلى نظرائه من الخلق، والاقتراس من سيرتهم. ولذلك فهو يبحث أبداً عن قدوة وإمام، وقد وقر الله للبشرية أفضل القدوات وخير الأئمة، وهم الأنبياء وأوصيائهم الكرام عليهم جميعاً سلام الله وصلواته.

ثانياً: التحرر من الإصر والأغلال

فطرة التطلع عند الإنسان هي محركه الذاتي، ولكن الإصر والأغلال تستهلك كثيراً من طاقته وتحد من اندفاعه. فاذا تخلص منها، انطلق قدماً لا يلوي على شيء.

فما هو ذلك الأصر وتلك الأغلال، وكيف نتخلص منهما؟

نشير – فيما يلي – الى عناوين أساسية للأغلال إشارة، أما التفصيل فربما نوفق له في مناسبة أخرى باذن الله سبحانه.

عناوين الأغلال، هي: الهوى والجبث والطاغوت والخشية من الطبيعة، ويشمل كل واحد من هذه العناوين على سلسلة من مفردات الأغلال، والشرك هو الجامع لكل هذه الأغلال التي تصد البشر عن تحقيق تطلعاته.

ألف: الهوى

١/ بالايمن والعلم توفرت له فرصة التعالي، ولكنه اتبع هواه فأخذ الى الأرض، ذلك مثل الذي إنسلخ من آيات ربه. يقول ربنا تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِى ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فٱنْسَلَخْنَا مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فكَانَ مِنَ ٱلْعَٰوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِنْ

تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ
الْفَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ (الاعراف/ ١٧٥-١٧٦)

الآيات الإلهية هي العلم الذي كان ينبغي لهذا المنافق أن يتبعها، ولكنه إتبع هواه؛ فبدل أن يرفعه الله بالآيات إذا كان يطيع ربه، أخذ الى الأرض وضيع فرصة النهوض. كذلك كل من يتبع هواه، فلا يفكر إلا في شهواته العاجلة.

٢/ وكما يهوي إلى الدرك الأسفل من يتبع هواه، كذلك يسقط في مهاويه من يطيعه. ولذلك فقد نهى ربنا عن اتباع من أغفل قلبه عن ذكر الله، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَطْعَمَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (الكهف/ ٢٨)

ونستفيد من الآية؛ إن الغفلة عن ذكر الله سبب إتباع الهوى.

٣/ ولكن كيف يخذل من يتبع هواه إلى الأرض، ويضيع فرصة التسامي؟ إنه يخدع نفسه ويعتمد الانتظار والتربص منهجاً بدل أن يعتمد الاقدام والمبادهة سبيلاً، ويشكك نفسه في الحقائق، ولا يتبع علم وهدى ربه فلا يعمل، ويعتز بالأمني بدل أن يعتمد منهج العمل والاجتهاد، ويستمر في هذه الأمني التي يخدع نفسه بها الى الأبد. كما كانت الحال عند اليهود، الذين قالوا بأن الله لا يعذبهم إلا أياماً معدودة (لأنهم أبناء الله وأحباؤه). وأخيراً ترى هؤلاء يتبعون الشيطان، الذي يتولونه، ويستولي على مشاعرهم. وهذه هي البصائر التي نستوحىها من قوله سبحانه: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَكُنْتُمْ فِتْنَةٌ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (الحديد/ ١٤)

ومن هذه العاقبة السوءى يحذرنا الإمام علي عليه السلام، حين يقول: "لا تجعلوا علمكم جهلاً، وبقينكم شكاً. إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فأقدموا". (١) من هنا نقرأ في الأدعية المأثورة الاستعاذة بالله سبحانه من تلك الأغلال التي يضعها الهوى في عنق البشر، يقول الامام الباقر عليه السلام: "اللهم إني

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم ٢٧٤.

أعوذ بك من الكسل والفشل، والههم والجبن، والبخل والغفلة، والقسوة
والمسكنة". (١)

٤/ وفي سورة الحديد كما في كثير من سور الذكر الحكيم، آيات لو ألقى
الإنسان سمعه لها ووعاها، لتخلص من إصر الهوى وأغلال الشهوات بإذن الله؛
لأنها تذكره بالله العظيم وبنعمة الجنة التي يدعو إليها، ويحرضه على التصديق
والجهاد، ويهون عليه شأن الدنيا التي ليست إلا متاع الغرور. يقول ربنا سبحانه:
﴿الْم يَأْن لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا
كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
فَاسِقُونَ * اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ * إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفَ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد/١٦-١٨)

وجملة القول؛ إن الله أنزل كتاباً يحيي القلب بإذن الله، لو شاء صاحبه
وسعى سعيه لأجله، ويفك بذلك أغلاله ويتسامى الى حيث النور. وقد أبلغ سيد
الساجدين الإمام علي بن الحسين عليه السلام في بيان هذه البصيرة عندما
ناجى ربه قائلاً: "الهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتني، وجللني التباعد منك لباس
مسكنتي، وأمات قلبي عظيم جنائتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبُغيتي، ويا
سؤلي ومُنيتي". (٢)

وكان يشكو الى ربه من النفس الأمارة بالسوء، فيقول: "الهي إليك أشكو
نفساً بالسوء أمارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك
متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة
العلل، طويلة الأمل إن مسها الشر تجزع، وإن مسها الخير تمنع، ميالة الى

(١) مفاتيح الجنان، ص ٣٥٩.

(٢) مفاتيح الجنان، مناجاة التائبين، ص ١١٨.

اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو، تُسرع بي الى الحوبة، وتُسوفني التوبة".
(١)

هكذا يفك المؤمن أغلال نفسه بالاستجارة بالله منها، وبالاستعانة به عليها، وبالعزم على التوبة إلى الله، تلك التوبة التي تطهر القلب من إصر الهوى، وغل الله والسهو واللعب والغفلة، والتعلل بالاعاذير والتربص والتسويق، وبالهلع والجزع والبخل والمنع.. هذه الأغلال هي التي تتساقط بالتوبة، ويتحرر القلب، ويندفع الإنسان نحو الجد والاجتهاد والتعالي باذن الله تعالى.

باء: الجبت

نفس البشر معقدة، وهي قادرة على خداع الذات، وهي أكثر شيء جدلاً وعقدة، لها تخوم وتخوم. وبالكاد يستطيع الإنسان إستكشاف نفسه، فكيف بنفسية غيره؟ ومن عقدها تغطية أهواءها الذاتية بالحميات، التي يلبسها لباس القداسة والتقدير، ويعبدها من دون الله. وقد يضع لها رموزاً وأسماءً وأصناماً، فيحبها أشد من حب الله. ولعل ذلك معنى الجبت، والتخلص منها شرط التحرر في رحاب التعالي. فما هو السبيل إلى ذلك؟

علينا أن نعرف الجبت ومصاديقه، ومن ثم نتخلص منه.

فالحسد والبخل، وعصية الأسرة، وإتباع الآباء، وحمية العشيرة والتمسك بعاداتها، والعنصرية والتأثر بثقافتها، والطبقية والتقييد بأفكارها، والقومية والوطنية وطاعة رموزها طاعة عمياء.. كل ذلك أغلال تقييد حركة البشر، كما تحجب عقله وتمنعه من التفكير السليم.

وقد ذكر الإمام زين العابدين عليه السلام هذه الصفات، واعتبرها ألواناً من الظلم الذي يرتكبه الفرد بحق الناس واستغفر الله منها، وقال في بعض أدعيته: "وأسألك في مظالم عبادك عندي، فأئما عبد من عبيدك أو أمة من إمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها إياه في نفسه، أو في عرضه، أو في ماله، أو في أهله

(١) مفاتيح الجنان، مناجاة الشاكين، ص ١١٩.

وولده، أو غيبة اغتنبته بها، أو تحامل عليه بميل أو هوى أو أنفة أو حمية أو رياء أو عصبية، غائباً كان أو شاهداً، وحيماً كان أو ميتاً، فقصرت يدي، وضاق وسعي عن ردها إليه، والتحلل منه، فأسألك يا من يملك الحاجات، وهي مستجيبة لمشيئته ومسرعة إلى إرادته أن تصلي على محمد وآل محمد وأن ترضيه عني بما شئت". (١)

هكذا نجد كيف يعتبر الإمام عليه السلام هذه الحميات من المظالم، التي لا بد أن نسترضي أصحابها، وعند العجز نسأل الله أن يغفرها لنا. وقد عانت البشرية طويلاً من ويلات هذه الأغلال، حتى جاء الاسلام بنور الوحدة التي تجعل البشر نظراء في الخلق، لأن الناس جميعاً من آدم وآدم من تراب. وقد سبق الحديث عن هذه الأغلال ومنهجية التخلص منها.

جيم: الطاغوت

الطاغوت كل إنسان يستضعف الناس بغير الحق، وفرعون أمثلة بارزة للطغيان والاستكبار في الأرض بغير حق. وقد صد المستكبرون البشر عن سبيل الله، وعن الصلاح والفلاح، وعن التقدم والازدهار، وعن تسخير الطبيعة لمصلحتهم، وعن النهوض والتحرر. ومن دون الكفر بالطاغوت، وتجنب سلطته، وازاحته عن موقع السلطة، أو الهجرة من دياره يبقى البشر مرتهناً بالتخلف، ولا يحقق شيئاً من تطلعاته. ليس فقط لأن الطاغوت يصده بالقوة عن التكامل، بل وأيضاً لأنه يمنع عنه نسيم الحرية، وثقافة التحرر، وبصائر الحياة، ومعارف التقدم.

ونستفيد من آية كريمة؛ إن إجتنب الطاغوت (والتحرر من ثقافته ومن الخشية منه وتحدي إعلامه) شرط الاستماع الى القول (الحق) والانتخاب السليم، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا

(١) مفاتيح الجنان، دعاء يوم الاثنين، ص ٢٤-٢٥.

إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٧-١٨﴾

وهكذا كان اجتناب الطاغوت، والإنابة إلى الله، والاستماع إلى القول ثم إتباع أحسنه (بعد إنتخابه) من وسائل الهداية الإلهية ومن شرائط البشرية.

وقد ذكرنا الله سبحانه بأن الكفر بالطاغوت والايمان بالله، هو العروة الوثقى التي يتمسك بها المؤمنون. قال الله سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لِأَنْفِصَامِ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٥٦)

وهكذا ضمن الرب لعباده الأمن من خوف الطاغوت، إن هم كفروا به وأمنوا بالله.

دال: الخوف من الطبيعة

الخوف حالة طبيعية وضرورية للدفاع عن النفس، ولكنه إذا كان مصدره غير حقيقي فإنه يصد البشر عن التكامل. والخوف من الطبيعة واحد من أبرز مصدات التكامل، وعقبات السمو..

إذا تعال ندرس هذا الخوف، ونعرف كيف نتحرر منه.

حينما يكون مصدر الخوف الذي يعترى الإنسان حقيقياً، ويبعث الفرد إلى بذل جهد من أجل الدفاع عن نفسه تجاهه، يكون الخوف مشروعاً. فلقد خاف النبي موسى عليه السلام من بطش آل فرعون، فهاجر إلى حيث الأمن، وعبر النبي يعقوب عليه السلام عن خوفه على يوسف من الذئب، فحاول منع إخوته من اصطحابه؛ والمرأة قد تخاف من زوجها نشوزاً أو إعراضاً، فلا بأس عليها لو تنازلت عن بعض حقوقها صلحاً.

أما إذا كان مصدر الخوف الجهل والخبث وينتهي إلى الاستسلام والانطواء على الذات، فإنه لا يكون خوفاً حميداً.

من هنا فإن الخوف يزول بالمعرفة والشجاعة، والتوكل على الله، والاستعانة به لمقاومته.

١/ مثلاً كان قوم النبي إبراهيم عليه السلام قد سقطوا في هاوية الشرك بالله، خوفاً من ظواهر الطبيعة.. فإذا بهم عبدوا الكوكب والقمر والشمس ظناً منهم أنها مؤثرات حقيقية في أحوالهم.

فأراد الله سبحانه أن يبدد خوفهم من الطبيعة، ويسفّه شركهم بالله بسببه، فإذا بإبراهيم عليه السلام يحاربهم ويقول للكوكب أنه ربه، فإذا أفل يقول إنه لا يحب الأفلين. ويفعل مثل ذلك بالقمر ثم بالشمس، حتى إذا أفلت أعلن حنفيته الطاهرة وإيمانه الخالص بالله وحده. قال الله سبحانه (حكاية عنه): ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الانعام/٧٦-٧٩)

لقد تدرج النبي إبراهيم عليه السلام مع قومه الضالين في ثلاث مراتب؛ ففي البداية ذكّروهم بفطرتهم التي لا تحب إلهاً آفلاً، حيث إنه لا يمكن أن يكون الأفل مقدر الليل والنهار والمهيمن على شؤون الإنسان، مما يستدعيه صفة الربوبية. ثم ذكروهم بأن بزوغ القمر لا يكفي في إثبات الربوبية ما دام هو الآخر آفلاً، وأن الرب هو الذي ينبغي أن يهدي المربوبين الى معرفته. أوليس الرب يهيمن على شؤون مربوبيه، أوليست الهداية منه؟ وهكذا لا بد أن تأتي الحجة من عنده على معرفته، والله سبحانه (وليس القمر) يدل على ذاته بذاته ويشهد على وحدانيته، وأنه القائم بالقسط. وفي المرتبة الأخيرة أعلن النبي إبراهيم عليه السلام أنه بريء من شركهم ومما يشركون به، وذلك حينما جارا هم في ربوبية الشمس ثم تحداهم عندما أفلت. وفي هذه اللحظة ذكروهم بفاطر السماوات والأرض، الذي لم يتخذ شريكاً من خلقه. أوليس قد فطرهما وما يحتويان جميعاً، فكيف يكون له منهما شريك وهم مخلوقون مربوبون

مسخرون بأمره، يطلع الطالع منهم بأمره سبحانه، ويأفل بقهره تعالى عما يشركون؟

٢/ ولم يستجب قوم النبي إبراهيم عليه السلام لفطرتهم، لأنها كانت محجوبة بالخوف من الظواهر الطبيعية التي قدسوها خشية منها على أنفسهم، ولذلك تراهم يحذرونه بالألّا يكفر بالشمس والقمر ولا بالكوكب.. لأنها قد تسبب له أذى. أما النبي إبراهيم عليه السلام فقد تحداهم بأن الله أحق بالخشية مما خلقه. قال الله سبحانه: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الانعام/٨٠)

٣/ وأخيراً ذكرهم بأن الذي يعيش في ظلال التوحيد، ويأوي الى ركن الحنفية، هو الجدير بالأمن لا الذي يشرك بربه مالم ينزل به سلطاناً. قال الله سبحانه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَالِمَ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الانعام/٨١-٨٢)

وهكذا نستوحي أن الدين الحنيف الذي لا يلبس بالشرك، يقي الإنسان من خشية ما في الطبيعة من أشياء، ويفك قيد هذا الأصر الثقيل من جوانح الإنسان، حتى ينطلق قدماً في تسخير ما في الأرض..

واليوم حيث يسخر الإنسان النار والحديد وسائر المعادن، ويفتق الذرة ويهندس الجينات، ويسبر غور المحيطات، وينفذ في أقطار السماوات والأرض بإذن الله؛ اليوم نعرف مدى أهمية نزع قيد الخوف من الطبيعة، الذي أمر به الدين الاسلامي وهدى إليه كتاب الله الكريم..

بينما في السابق حيث كان الناس يزعمون أن لكل شيء روحاً، ويخشونها؛ كانوا يعبدون الشمس في مصر ويصنعون لها معابد، ويعبدون النار في فارس وبينون لها مواطن، ويعبدون الاحجار في الحجاز ويعتقدون أن لها ارواحاً، ويعبدون الأشجار والحيوان في الهند ويقدسون حتى الأبقار.. وهكذا كانوا

يلجأون إلى أرواح الموتى والجن. فكم كان الناس يومئذ مقيدين في حياتهم بأغلال الخوف، ونعرف بالتالي إلى أي مدى كان فضل الله على البشرية كبيراً، حيث أنقذها من الخوف حين أرسل نبي رحمة محمدًا صلى الله عليه وآله بنور الكتاب، فوضع الله به الإصر والأغلال عن البشرية.

هاء: الدعوة الى التطلع

حينما تتجلى نظرة الإنسان الشامخة الى نفسه ويتوجه الى ربه واسمائه الحسنی، وتفك عنه الأغلال المختلفة، تأتي الدعوة الصريحة الى التطلع الأسمى في عدة حقائق؛ منها دعوته الى المسارعة الى الخيرات والتسابق فيها، ومنها أمره بالاجتهاد والتهجد بالليل، ومنها أمر المسلمين في الحرب بالضربات القاضية، ومنها الحصول على أكبر قوة ممكنة. وهذه البصائر وغيرها نستوحىها من الآيات التالية.

١/ حكمة إختلاف الشرائع الاستباق الى الخيرات، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة/٤٨)

وقد سبق الحديث - في فصل آخر - عن حكمة تنوع البشر الى شعوب وقبائل، وهو التعارف، ثم يقول ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات/١٣)

نستوحى من ذلك؛ إن حكمة التنوع التنافس على المكرمات، وأكرم الناس أتقاهم.

٢/ وفي الآية التالية بيان لحكمة إختلاف الشرائع المتمثلة في الإبتلاء، (والذي نستفيد منه استخراج معادن الناس)، وفي استباق الخيرات (باعتبار التنافس أحد سبل الإبتلاء). قال الله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ

اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ (المائدة/٤٨)

٣/ وفي أكثر من آية مدح الله سبحانه الأنبياء والأولياء بمسارعتهم في
الخيرات. قال الله سبحانه: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل
عمران/١١٤)

٤/ وقال الله سبحانه: ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ
إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعْبَاءَ وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا
خَاشِعِينَ﴾ (الانبیاء/٩٠)

٥/ وقال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾
(المؤمنون/٦١)

والخيرات التي أمرنا بالمسارعة إليها والاستباق فيها والمنافسة عليها، هي
قمة التطلع الإنساني.

٦/ وقد أمرنا الله تعالى بالتهجد بالليل، وفائدته الإنبعاث الى المقام المحمود.
قال ربنا سبحانه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً
مَّحْمُوداً﴾ (الاسراء/٧٩)

٧/ وقد وصف الله عباده بأنهم يتطلعون إلى إمامة المتقين، حيث قال
سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ (الفرقان/٧٤)

٨/ وحينما أمر الله الأمة بالاستعداد للحرب، قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ
مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ
مَنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ (الانفال/٦٠)

نستفيد من الآية بصيرتين:

الأولى: إن الأمة الإسلامية – كما أبنائها – مدعوة الى التطلع إلى أن تصبح قوة مرهوبة الجانب.

الثانية: باعتبار أن الحرب تمثل قمة التحدي بين الأمم، وفيها تظهر حقائقها وركائز قوتها ومواطن ضعفها؛ وباعتبار تفجر الحرب طاقات الشعوب وتستخرج معادنها، حيث كانت سبباً لأكثر الاكتشافات والاختراعات.. لكل ذلك كان الاستعداد للحرب وبهذه الصورة التي أمرنا بها (اي بلوغ كل قوة ممكنة) كانت طموحاً عظيماً على مستوى الأمة، وتطلعاً سامياً، بل وتحدياً صارخاً على مستوى الأمة.

وبكلمة؛ إن الأمر بالاستعداد للحرب بكل قوة مستطاعة يساوي الأمر بالاستجابة للتحدي الحضاري بكل أبعاده، لأن القوة لا تخص القوة العسكرية، بل تشمل الاقتصادية والسياسية والاعلامية والثقافية والتعبوية وغيرها. وهكذا تمثل هذا الأمر ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أمراً بالتطلع الى الأسمى.

٩/ وقد وضع القرآن المجيد أمام الأمة الإسلامية هدفاً طموحاً، أمرهم بالتطلع إليه، وذلك عندما اعتبرهم خير أمة أخرجت للناس، وأمرهم بأن يكونوا شهداء على الناس لأنهم أمة وسط يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة/١٤٣)

والشهادة هنا كما في سائر الموارد تعني نوعاً من الريادة والقيومية، بل والقيادة. ولا تكون الأمة كذلك، إلا إذا كانت مقتدرة عزيزة مرهوبة.

١٠/ ومن حقائق الشهادة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث قال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرَهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران/١١٠)

١١/ ومن حقائق الشهادة، القيام بالقسط، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ (النساء/١٣٥)

ولا يخص القيام بالقسط في إطار الأمة داخلياً، بل يشمل إطلاقه القيام به على مستوى العالم كله. وأي هدف أسمى وأعظم طموحاً من إقامة القسط في العالم؟

١٢/ ومن حقائق الشهادة، الدفاع عن المستضعفين في الأرض ولو باستخدام القوة ضد المستكبرين، حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء/٧٥)

١٣/ وفي الحرب وضع القرآن للأمة إستراتيجية الهجوم الصاعق، الذي يبعث الرهب في أفئدة كل الأعداء، ويصبح رادعاً عن التفكير في محاربة المسلمين. يقول الله سبحانه: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنفال/٥٧)

فالهزيمة تلحق مادياً بمن شنّ الحرب ضد المسلمين، كما تلحق بالآخرين الذين يقفون وراء أولئك هزيمة معنوية. وهكذا نستفيد من الآية علو الهمة، وسمو التطلع، ووضع خطط إستراتيجية بعيدة المدى للتحرك العسكري. وهكذا نستفيد من آيات الذكر مدى التطلع الذي ينبغي أن يحتمله المؤمنون كأمة، ليصبحوا القائمين بالقسط في الأرض، والمدافعين عن المستضعفين.. ولا يتحقق ذلك إلا باقتدار مرهوب الجانب. وهذا التطلع يتناغم وتطلع كل مؤمن في أن يبلغ أقصى كمال مستطاع، وأسمى درجة ممكنة.. إذ إن تطلع الأمة ينعكس على تطلع أبنائها، كما أن تطوعات أبنائها تخدم طموحاتها. والله المستعان.

ثالثاً: حقائق التطلع

تتلخص حقائق التطلع في كلمة جامعة يكررها المؤمن في دعائه، وهي التي نتلوها في قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة/٢٠١)

فأي حُسن في الآخرة أو في الدنيا مطلوب للمؤمن؟ وتفصل الأدعية المأثورة هذه الكلمة الحكيمة عبر عشرات الحقائق التي تمثل الحُسن في الدنيا وفي الآخرة، وتشكل جانباً من تطلع الإنسان المؤمن.

وقبل أن نستعرض جانباً من هذه التطلعات السامية، نشير الى حكمة الخلق كما استفدناها من الآيات والأحاديث، وهي الرحمة التي وسيلتها العبادة، وابتغاء الوسائل الى الله، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات/٥٦-٥٨)

فإذاً كلما استدر البشر رحمةً من ربه وابتغى فضلاً منه، فقد حقق المزيد من حكمة خلقه. فالله لا يريد بعبادته أن يُطعم، بل يريد أن يُطعم؛ ولا يريد منك رزقاً، بل هو الرزاق الذي خلقك ليرحمك؛ ودعاك إلى عبادته ليزيد من فضله عليك، وهو الذي لا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً..

في إطار هذه الحكمة، نجد الأمر بالدعاء لأنه من وسائل استدرار رحمة الرب، كما نجد النهي عن الاستكبار عنه. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر/٦٠)

وفي إطار هذه الحكمة أيضاً تأتي سلسلة التطلعات التي نشير إليها، فما هي تلك التطلعات؟ إنها باجمال؛ الايمان الذي يباشر القلب ويبقى حتى لقاء الرب، والتقوى والورع واليقين ومكارم الأخلاق والنجاة من النار والفوز بالجنة والرضوان ومرافقة الأنبياء.

وإنها أيضاً سلامة البدن والعافية من جميع البلاء، والشكر على العافية، والأمن في الوطن، والعيش الرغد، والزوجة المطيعة، والذرية الصالحة. وإثارة هذه الحقائق التي هي قيم الحياة وألوانها المثلى؛ إثارتها في الآيات القرآنية والأدعية المأثورة تتناغم مع الفطرة البشرية التي تنطوي أصلاً عليها، وبيآرتها تتبلور أكثر فأكثر.

والقيم المثلى هي موضوع هذه الموسوعة، وقد فصلنا الحديث عن أكثرها ولا تحتاج إلى إعادة البحث عنها هنا، وإنما نشير فيما يلي عن بعض هذه القيم التي جعلت في الأدعية القرآنية أو المأثورة عن النبي وأهل بيته عليه وعليهم صلوات الرب، وذلك لكي نعرف مدى الطموح الذي يزرعه الدين في نفوس تابعيه، ودور الدعاء في إثارته وبلورته.

١/ الأمن والرزق من الثمرات، كانا في طليعة دعوة النبي إبراهيم عليه السلام للبلد الحرام وأهله، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة/١٢٦)

ونقرأ في الأدعية هذه الكلمة "وأرغد عيشي" أو "اللهم وأعطني السعة في الرزق"، كما تتكرر هذه الدعوة: "والأمن في الوطن... والصحة في الجسم". (١)

إن طموح المؤمن يتجاوز نفسه، ليشمل أسرته وقومه وأهل بلاده. يستمع إلى كلمة مضيئة من كلمات الإمام الباقر عليه السلام في الدعاء الذي علمه واحداً من أصحابه يكنى بأبي حمزة الثمالي فاشتهر الدعاء باسمه، يقول: "أسألك يا رب من الخير كله ما علمت منه ومالم أعلم، أسألك اللهم من خير ما سألك منه عبادك الصالحون، يا خير من سئل وأجود من أعطى أعطني سؤلي في نفسي وأهلي ووالدي وولدي وأهل حُرانتني واخواني فيك، وأرغد عيشي، وأظهر مُرّوتي، وأصلح جميع أحوالي، واجعلني ممن أطلت عمره وحسنت عمله وأتممت عليه نعمتك ورضيت عنه وأحييته حياة طيبة في أدوم السرور وأسبغ الكرامة وأتم العيش إنك تفعل ما تشاء ولا يفعل ما يشاء غيرك". (٢)

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبو حمزة الثمالي.

(٢) مفاتيح الجنان في أعمال شهر رمضان، دعاء أبو حمزة الثمالي، ص ١٩٥-١٩٦.

أرأيت كيف تثير الأدعية فطرة الإنسان المتسامية، التي ترغب في الخير كله. فمادام الرب تعالى ذا فضل كبير وقدرة واسعة، فلماذا نبخل عن أنفسنا؟ وهذا هو الأدب القرآني الذي نقره في دعاء إبراهيم عليه السلام، فإنه لم يدع لنفسه، بل للمؤمنين كافة. أما كرم الله، فإنه أوسع من ذلك، إذ يشمل غير المؤمنين أيضاً، حيث إستجاب الله دعوة النبي إبراهيم عليه السلام بأكثر مما طلبه..

ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام في جانب آخر من الدعاء: "اللهم أعطني السعة في الرزق، والأمن في الوطن، وقرّة العين في الأهل والمال والولد، والمقام في نعمك عندي، والصحة في الجسم، والقوة في البدن، والسلامة في الدين، واستعملني بطاعتك وطاعة رسولك محمد صلى الله عليه وآله أبداً ما استعمرتني، واجعلني من أوفر عبادك عندك نصيباً في كل خير أنزلته وتُنزله في شهر رمضان في ليلة القدر، وما أنت منزل في كل سنة من رحمة تنشرها وعافية تلبسها وبلية تدفعها وحسانات تتقبلها وسيئات تتجاوز عنها". (١)

٢/ ومن تطلعات المؤمنين التحرر من الظلمة، حيث نقره في قوله سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء/٧٥)

٣/ كما نقرها في دعوة المؤمنين من بني اسرائيل، حيث قال الله عنهم: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس/٨٥) وفي الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام نقره الكلمات التالية: "واحترز به من كل جبار فاجر، وسلطان جائر، وعدو قاهر". (٢)

(١) مفاتيح الجنان في أعمال شهر رمضان، دعاء أبو حمزة الثمالي، ص ١٩٦.

(٢) المصدر، أدعية الأيام، دعاء يوم الثلاثاء ص ٢٥.

كما نقرأ الكلمات التالية: "بك أستجير ياذا العفو والرضوان، من الظلم والعدوان، ومن غير الزمان، وتواتر الأحزان، وطوارق الحدثنان". (١)

٤/ ومن تطلع المؤمن أن يسمو الى حيث الملك والسلطة، فان يوسف الصديق عليه السلام الذي كان في الظاهر سجيناً وغريباً في مصر، طالب عزيز مصر بأن يكون في موقع السلطة ومهيماً على خزائن الأرض. قال الله سبحانه (عن لسان النبي يوسف عليه السلام): ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف/٥٥)

٥/ أما النبي سليمان عليه السلام الذي ورث ملك أبيه النبي داود عليه السلام، فقد تطلع الى ملك لا ينبغي لأحد من بعده، فقال عنه ربنا تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص/٣٥)

٦/ ولعل الحصول على الملك العادل هو المعنى المقصود في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ (الاسراء/٨٠)

٧/ ولا نجد تفصيلاً لهذه الدعوة في الأدعية، ربما لأن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها، وهي مركز واحد لا يمكن أن يتطلع إليه الجميع فيفسد النظام. وقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة/٢٤)

مما يدل على ضرورة توفر شروط معينة في القيادة الربانية، منها الصبر واليقين، ومنها الدخول بصدق والخروج بصدق، ومنها التهجد بالليل كما استفدناه من آيات سبقت، ومنها الزهد في الدنيا حسبما نستفيده من بعض الأدعية المأثورة.

(١) المصدر، دعاء يوم الأحد ص ٢٣.

ومع هذه الشروط، لا ينبغي لكل شخص أن يطمح في منصب القيادة إلا لمن توفرت عنده الشروط، أو لمن سأل الله أن يوفرها فيه ثم يسوق القيادة إليه سوقاً.

٨/ ثم إن السلطة ليست مطلوبة بأية صورة، بل عبر السبيل المشروع، وهو أن يطلب سلطة بلا ظلم وبالرضا من الله سبحانه والقبول من قبل الناس. ومن هنا كان دعاء عباد الرحمن متمثلاً في أن يكونوا أئمة للمتقين، لا لكل الناس، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان/٧٤) وقد فسرت هذه الآية بما يرجع الى الدعاء الى طلب القيادة والإمامة للمتقين، متمثلة في أصلحهم.

٩/ ومن أسمى التطلعات الجنة ومرضاة الله وما يصلح الإنسان ويهيئه للوصول إليهما، قال الله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (الشعراء/٨٥)

وفي الأدعية المأثورة كلمات بالغة التأثير في هذا الحقل. لنقرأ معاً هذه الرائعة: "اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي حباً لك وخشياً منك وتصديقاً بكتابك وإيماناً بك وفرقاً منك وشوقاً إليك يا ذا الجلال والإكرام، حبب إلي لقاءك وأحبب لقائي واجعل لي في لقائك الراحة والفرج والكرامة. اللهم الحقني بصالح من مضى، واجعلني من صالح من بقي، وخذ بي سبيل الصالحين، وأعني على نفسي بما تعين به الصالحين على أنفسهم، واختم عملي بأحسنه واجعل ثوابي منه الجنة برحمتك، وأعني على صالح ما أعطيتني وتبنتني يا رب ولا تردني في سوء استنقذتني منه يا رب العالمين". (١)

ماذا نجد في هذه الرائعة؟ نجد جوامع الدعوات التي تهيء الإنسان للجنة. وهكذا يكون طلب الجنة من الله سبحانه بطلب التوفيق للأعمال الصالحة، التي جعلها الله ثمناً لجناته.

(١) مفاتيح الجنان في أعمال شهر رمضان، دعاء أبي حمزة الثمالي، ص ١٩٧.

١٠ / وهكذا كان ضمن دعوات المرسلين طلب التوفيق لصالحي الأعمال، التي تجعلهم من أهل الجنة بإذن الله. قال الله سبحانه حكاية عن النبي ابراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (ابراهيم/٤٠)

وإنما تنفع الصلاة وسائر الفرائض والحسنات، إذا كانت خالصة لوجه الله الكريم. ومن هنا نقرأ في الأدعية ما يلي:
"اللهم خُصَّنِي مِنْكَ بِخَاصَّةِ ذِكْرِكَ، وَلَا تَجْعَلْ شَيْئاً مِمَّا أَتَقَرَّبُ بِهِ فِي آثَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ رِيَاءً وَلَا سَمْعَةً وَلَا أَشْرَافاً وَلَا بَطْراً وَاجْعَلْنِي لَكَ مِنَ الْخَاشِعِينَ". (١)

١١ / ومن النعم التي سعى إليها الصالحون، وكان ضمن طموحهم المتسامي؛ الذرية الطيبة والذكر الحسن من بعدهم، حيث نقرأ في كتاب ربنا قوله سبحانه: ﴿يُرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم/٦)
١٢ / وقال ربنا عز وجل: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (الشعراء/٨٤)

١٣ / ومن تطلعاتهم المغفرة لأبائهم، ولمن سبقهم الى الايمان. قال الله سبحانه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (ابراهيم/٤١)

١٤ / وقال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر/١٠)

١٥ / الحياة الطوبى في الدنيا، ودخول الجنة في العقبى؛ هما هدفان عظيمان للمؤمنين، ولكنهما لا يكفیانهم. إنما تتم النعمة عندهم بالوقاية من النار، لأن بعض من يدخل الجنة يمر على النار لكي يتطهر كاملاً من

(١) المصدر، ص ١٩٦.

الأدران وآثار الخطايا. ومن هنا كانت دعوة المؤمنين وطموحهم الكبير أن يقيهم الرب تعالى نار جهنم. قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا عَامِنًا فَاعْفُزْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران/ ١٦)

١٦ / وطموح المؤمن أن يقي الرب كل المؤمنين من السيئات، وهذه أيضاً دعوة الملائكة: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (غافر/ ٩)

ولكن كيف يتقي الإنسان النار؟ بكلمة جامعة؛ بالتقوى، وهي تعني التحفظ من كل ما ينتهي الى العذاب. فماذا عن الذنوب الماضية؟ إن لها المغفرة؛ إنها تحجب المؤمن عن النار.

ومن هنا كانت كلمة الاستغفار من أكثر الكلمات تردداً في الأدعية. كما أن طلب التوفيق من الله سبحانه لتزكية النفس من الرذائل وتحليلتها بالفضائل، من الكلمات التي تتكرر في الدعوات المأثورة. وهناك أدعية خاصة بها مثل دعاء مكارم الأخلاق ودعاء عالية المضامين.

وهكذا كانت الفضائل مطلباً أساسياً وطموحاً عالياً من طموحات المؤمنين. تعال نقرأ معاً كلمات الامام زين العابدين عليه السلام في هذا الدعاء:

"اللهم صل على محمد وآله وبلغ بايماني أكمل الايمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيتي الى أحسن النيات، وبعلمي الى أحسن الأعمال. اللهم وفر بلطفك نيتي، وصحح بما عندك يقيني، واستصلح بقدرتك ما فسد مني. اللهم صل على محمد وآله واكفني ما يشغلني الاهتمام به، واستعملني بما تسئلني غداً عنه، واستقرغ أيامي فيما خلقتني له، واغنني وأوسع علي في رزقك، ولا تفتني بالنظر، واعزني ولا تبتليني بالكبر، وعبدني لك ولا تفسد عبادتي بالعجب، وأجر للناس على يدي الخير ولا تمحقه بالمن، وهب لي معالي الأخلاق، واعصمني من الفخر. اللهم صل على محمد وآله ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلّة باطنة عند نفسي بقدرها. اللهم صل على محمد وآل محمد

ومتّعني بهديّ صالح لا استبدل به، وطريقة حق لا أزيغ عنها، ونيّة رشدي لا أشك فيها، وعمّري ما كان عمري بذلّة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ. اللهم لا تدع خصلة تعاب مني إلا أصلحتها، ولا عائبة أوّنبُ بها إلا حسنتها، ولا أكرومة فيّ ناقصة إلا أتممتها". (١)

وكلمة أخيرة؛ إن الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وخلق له دار كرامته الجنة، وأسجد لأبيه ملائكته، جدير به أن يبلغ أقصى درجات السمو مادياً ومعنوياً، في الدنيا والآخرة، في الجسم والروح والعقل. وهذه هي التربية الإسلامية التي تستثير طموح الإنسان، وتجعل منه طاقة تحركه أبداً الى الأعلى. أفلا أكون أنا ذلك الإنسان؟ ولماذا لا؟

وسوف نتحدث في هذا الباب عن التطلع في أربعة فصول؛ الفصل الأول عن قيمة الكرامة، والفصل الثاني عن أصالة الإنسان وأنه فوق الفروق والحواجز، والفصل الثالث عن المكارم الإنسانية التي لا بد أن يتسابق فيها المؤمنون، والفصل الرابع عن قيمة القوة وأن الحق يغلب القوة أنى كانت كبيرة.

(١) مفاتيح الجنان، دعاء مكارم الأخلاق، ص ٥٩٩-٦٠٠.

الفصل الأول: الإنسانية فوق الفروق

الكرامة

من القيم المثلى التي يورثها الإيمان قيمة الكرامة. أوليس الله كرم بني آدم حين حملهم في البر والبحر، أولم يكرم ملائكته وجعل أكرم الناس أتقاهم؟ ما هي الكرامة، وماهي حقيقتها في حياة البشر جميعاً، وماهي حقائقها في حياة المؤمنين خاصة؟
فيما نتلو من الآيات، سوف نستوحي إن شاء الله تعالى هذه الحقائق.

ألف: ماهي الكرامة؟

أنت تكرم والديك وزوجك وولدك، كيف تكرمهم؟ تلك هي أيضاً مسؤوليتك تجاه عباد الله المكرمين.

١/ في قصة يوسف عليه السلام الذي أراد أخوته اهانتة حينما باعوه بثمن بخس دراهم معدودة، واشتراه بمصر رجل عقيم، ودفعه الى زوجته ووصاها بأن تكرمه، لعلهم يتخذوه ولداً. قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف/ ٢١)

تعامل ربة البيت مع فتى يخدمها، يختلف عن تعاملها مع من يريدون أن يتخذوه ولداً؛ وبالذات حينما يشعرون بفراغ، بل بعقدة نفسية لأنهم لم ينجبوا ولداً. إنهم بالطبع يحترمونه ويحبونه ويقدمون له أفضل ما يقدرون. هذه الكرامة التي وقرها الله سبحانه ليوسف الصديق..

٢/ ومن حقائق الكرامة مدى الإحترام المتبادل بين الزوجين، ينظر كل الى الآخر بنظر الإكبار ويسعى جاهداً من أجل راحته.. حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء/٧)

فإن الله سبحانه لم يحوج الزوج الى زوجته إلا بقدر ما جعلها محتاجة إليه، لكي لا يهان أحد بالافتقار الى الثاني. وتلك من أمثلة الكرامة، ليس في البشر فقط، وإنما في كل زوجين خلقهما الله سبحانه.

٣/ وكذلك استأدى ربنا ميثاق فطرتنا، واستثار في وجداننا ما أغرز فيه من حب الوالدين الذين هما قناة انهمار نعمه سبحانه علينا، وفرض علينا شكرهما واکرامهما. فقال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان/١٤)، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُمَّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الاسراء/٢٣)

كيف نكرم الوالدين، أليس باحترامهما وبالسعي الدائب في قضاء حوائجهم؟ كذلك الاكرام حيث تتوضح لدينا من هذه الأمثلة حقائق الكرامة، ومعانيها اللطيفة.

باء: الانسان ذلك الكريم

ولقد أكرم الله بني آدم بكرامات عامة وأخرى خاصة.

١/ لقد سخر الله لبني آدم قوى الطبيعة بما وهب لهم من قدرات، لم يعطها لغيرهم من الأحياء على الأرض. فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الاسراء/٧٠)

لقد وهب الله للانسان العقل والارادة، وخلقه خلقاً سوياً؛ ساعده كل ذلك على تسخير الطبيعة، والهيمنة على سائر الأحياء. فامتطى صهوة الريح

بالبطائرات، وخاض عباب البحر بالسفن العابرة للقارات، وفلق الذرة وغزى الفضاء واستفاد من أطيب اللحوم والثمار.. إنها تكريم عظيم.

٢/ وكرم بني آدم بالهداية بالرسول والكتب، وكذلك بالشرائع التي نظمت حياتهم الاجتماعية ووفرت لهم فرصة بناء الحضارات الشامخة.

إن الله سبحانه أكرم بني آدم كرامة بالغة حينما أمره بعبادته وحده، ونبذ عبادة الطبيعة أو عبادة بعضهم لبعض. أوليس ذلك تعالياً للبشر الى أعلى مستوى ممكن، حيث أغناهم بعبادته عن عبادة ما سواه؟ قال الله سبحانه على لسان يوسف الصديق: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف/ ٣٨-٤٠)

حقاً؛ إنها نعمة كبيرة وفضل عظيم أن يعبد الإنسان ربه وحده، ولا يكون عبداً للشيطان أو عبداً للسلطان أو عبداً لصاحب مال أو بطش أو جاه، أو عبداً لجمال امرأة أو صوت مطرب أو سحر منظر خلأب أو جذابية قصر منيف.

٣/ وتلك كرامة بالغة للإنسان أن يسجد لله وحده، لكي لا يسجد لصنم أصم، أو طاغٍ أرعن، أو ثري مستكبر. قال ربنا سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج/ ١٨)

إن أولئك الذين أكرمهم الله بالسجود له، أنقذهم من هوان وصغار. أما أولئك الذين ردوا نعمة التوحيد، وسجدوا لغير الله، فلا مكرم لهم أبداً.

٤/ ومن خلق الله من أكرمهم الله بالهداية إليه، وإخلاص العبودية له، وهم الأنبياء عليهم السلام، حيث رفعهم الله الى مقام التسليم له، فأكرمهم بذلك أيما كرامة. قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الانبياء/٢٦-٢٧) يبدو أن تسليمهم التام لما أمر الله به هو وسيلة الكرامة الالهية لهم، والتي تجلت في اجتنابهم رسلاً من لدنه الى سائر البشر، كما تجلت في تسخير الطبيعة لهم بصورة خارقة وإظهار الكرامات العظيمة على أيديهم، حتى ظن الجهلاء أنهم أولاد الله سبحانه وتعالى.

٥/ وممن أكرمهم الله الشهداء الذين اختارهم الله ليكونوا أحياء عنده يرزقون، مثل صاحب يس، حيث أنه قال بعد أن استشهد وأحرق وأذري برماده، قال كما جاء في كتاب ربنا: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس/٢٦-٢٧)

٦/ والله سبحانه يكرم أهل التقوى، ويجعل أتقى الناس أكرمهم عنده، حيث قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات/١٣)

فاذا كان الهدف من تنوع فئات البشر في إطار الشعوب والقبائل، التعارف والاعتراف المتبادل ببعضهم، تمهيداً لطريق التعاون واستباق الخيرات والمسارة الى مغفرة من الله وجنة عرضها كعرض السموات والأرض. فان الأكرم عند الله منهم هو الأقرب الى الله باتباع شرائعه، وهو الأتقى. ولعل حقيقة التقوى هي الاهتداء الى الله والايمان به ومعرفة مرضيه والاجتهاد فيها.

٧/ وعلينا أن نكرم من أكرمه الله؛ الأنبياء والشهداء والمتقين، الأمثل فالأمثل. كما أن علينا أن نكرم سائر عبادته، كل بقدر إكرام الله له؛ نكرم الآباء والأولاد والأزواج، ونكرم الضيف، حيث قال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (الذاريات/٢٤)

وقد جاء في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: "حَبَّبَ إِلَيَّ الصوم بالصيف، وقرى الضيف، والضرب في سبيل الله بالسيف". (١)
وقد جاء في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله: "الخلق كُلُّهم عيال الله، فأحبهم الى الله عز وجل أنفقهم لعياله". (٢)

٩/ وممن أمرنا باكرامهم اليتيم، لأنه بحاجة الى العطف والعاطفة؛ الى الرحمة والحب؛ الى العطاء والحنان. فلا يكفي إشباع جوعته، وإكساء عورته، وتوفير ضرورات حياته. إنما هو بحاجة ماسة الى الكرامة التي كان يجدها عند والديه، تلك الكرامة الانسانية التي جعلها الله حقاً لكل إنسان، وجعل من وسائل توفرها ظلال الوالد الرؤوف والأم الحنون.

من هنا عاب كتاب ربنا قوماً جعلوا المال كل شيء في حياتهم، فإذا أغناهم الله من فضله زعموا أن الله قد أكرمهم.

بلى؛ إن النعمة كرامة، ولكن بشرطها وشروطها، ومن شروطها أن يطيب مكسبها، ويحسن صاحبها التصرف فيها، ولا يُصبح عبداً لها. فإذا إمتلك بيتاً من كسب شريف، ثم جعلته مأوى لكل ضعيف، ولم تبطر به الى درجة الغرور والكبر، فإن البيت نعمة وأية نعمة. ولكن إذا انتهب أحدهم أموال اليتامى، وبنى بيتاً على أساس الظلم، واغتر به واقتخر على الناس، فإن هذا البيت نقمة عليه وليس نعمة له. ألا تقرأ قول الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر / ١٥-٢٠)

(١) مستدرک الوسائل، ج٧، ص٥٠٥، ح٥.

(٢) الحياة، ج١، ص٤٠٠، ح١.

ونستوحي من الآية؛ إن كرامة الإنسان تتمثل في إكرام اليتيم، وإطعام المسكين، والتورع عن المكسب الحرام؛ مثل أكل التراث، والتسامي عن حب المال حباً جماً.

فيا أيها الإنسان، لقد كرّمك الله سبحانه، فكيف تسمح لنفسك أن تصبح أسيرة الثروة، أو عبدة الشهوات؟!!

١٠ / وتتمثل كرامة المؤمن أيضاً في التعالي عن جهل الجاهلين، وعدم الخوض معهم في لغوهم وجدلهم وفحشهم. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان/٧٢)

١١ / والله قد بشر عباده برزق كريم، وبأجر كريم، وبار الكرامة وهي الجنة، حيث قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الانفال/٤)

وهكذا خلق الله الانسان وكرّمه، وأراد له في الدنيا حياة كريمة بالتقوى، وبشره بدار الكرامة في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

فقه الآيات

كرامة الانسان قيمة إيمانية سامية، تفيض منها تشريعات إسلامية شتى، وإليك بعض التفصيل..

١ / الكرامة الانسانية تقتضي ألا يجوع الإنسان، ولا يضحى؛ بل من أبسط حقوقه توفر الرزق الكريم، والمأوى المناسب له، وكذلك توفر الرعاية الصحية الكافية.

٢ / وكرامة الإنسان تقتضي حرمة، فلا يضيع حق من حقوقه؛ فدمه وماله وعرضه وجهده محترم، ولا بد أن يحمي النظام ويحمي المجتمع كل هذه الحرمات، وأن يوفر له كافة الحقوق القضائية.

٣/ والكرامة الانسانية تقتضي كفالة حرية الناس في المعتقد والانتماء وفي الإقامة وفي إبداء الآراء السياسية، وسائر الحريات التي ينظم القانون منهج استخدامها في كل بلد وعند كل قوم.

٤/ والكرامة الانسانية تقتضي أن الناس سواسية، وأنه لا فضل لشعب على شعب، ولا لطائفة على غيرها، ولا لطبقة إجتماعية على أخرى، وهكذا..

٥/ والكرامة الانسانية تقتضي أخيراً كفالة القانون لحق الانسان في تحقيق طموحاته المشروعة في التسامي، عبر درجات العلم والثروة والمنصب (الجاه) من دون تمييز.

وهذه الحقوق التي تقتضيها الكرامة الانسانية، هي بعض ما نجده في التشريع الاسلامي من أحكام بشأن حقوق الانسان، وليس كلها.

في رحاب الأحاديث

في الأحاديث الأخلاقية نرى طائفة من تطبيقات الكرامة الانسانية، ونختار فيما يلي إن شاء الله من كل طائفة منها حديثاً:

١/ الدين يهتم بكل الناس، فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "قال الله عز وجل: الخلق عيالي، فأحبهم إليّ، ألطفهم بهم، وأسعاهم في حوائجهم". (١)

٢/ وينصب إهتمام الإسلام بالهداية، لكي يكرم البشر بمرضاة الله، حيث جاء في الرواية عن الامام الصادق عليه السلام: "قال أمير المؤمنين عليه السلام: لَمَّا وَجَّهَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ؛ لَا تُقَاتِلْ أَحَدًا حَتَّى تَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَأَيْمُ اللَّهِ؛ لِأَنَّ يَهْدِي اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلًا، خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرُبَتْ، وَلَكَ وَلَاؤُهُ". (٢)

(١) الحياة، ج ١، ص ٤٠٠، ح ٣.

(٢) المصدر، ص ٤٠١، ح ٨.

٣/ وينهى عن خدش شعور أحد، حتى باكرامه بما يشقُّ عليه، حيث جاء في الحديث عن الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام قال: "لا تكرم الرجل بما يشقُّ عليه". (١)

٤/ وينهى أن يرد الانسان كرامة أحد، حيث جاء في المأثور عن علي بن الجهم قال: سمعت الإمام الرضا عليه السلام يقول: " لا يأبى الكرامة إلا حمار. قلت: أي شيء الكرامة؟ قال: مثل الطيب وما يكرم به الرجل الرجل". (٢)

وحدة البشر في أصل الخلقة

تقتلع البصيرة القرآنية جذور الشرك من النفس البشرية الضعيفة والجاهلة، والتي قد ترى في القوة أو الثروة أو الجمال أو العلم وسائر الفضائل دليلاً على تمايز حقيقي بين إنسان وآخر.

كلا؛ إن البشر قد خلقوا جميعاً من الماء؛ من تراب؛ من صلصال؛ من حمأ مسنون؛ من نفس واحدة، وجعل منها زوجها من نكر وأنثى. وحتى قادة البشر الانبياء عليهم السلام، إنما هم بشر وإن ما يفضلهم الوحي.

إن هذه البصيرة التي تمهد السبيل الى عولمة القيم المثلى، وتكرّس حقوق البشر بأمثل ما تصبوا اليه المبادئ الأخلاقية، إنها ركيزة أساسية من ركائز التشريعات الاسلامية.

تعال نتدبر في بعض آيات القرآن الكريم التي تهدي الى هذه البصيرة الفذة:

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٤١، ح ٦.

(٢) المصدر، ح ٣.

١/ كما خلق الله الأحياء جميعاً من الماء، خلق الانسان من الماء ثم أسكنه الأصلاب والأرحام، لكي تتواصل وشائج القربى ووسائل التعارف والتعاون، فقال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان/٥٤).

وهكذا انتظمت الصلة بين الأقارب بالنسب حيناً (الأب والأم والأخت، وهكذا..)، وبالسبب حيناً (الزوج والزوجة والصهر، وهكذا..).
والماء واحد، والبشر واحد في الأصل، وإنما الاختلاف في الصور الخارجية.

٢/ وفي مرحلة ثانية، خلق الله البشر من تراب، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (الروم/٢٠)
كيف خلق الله البشر من تراب؟ هل خلق أبينا آدم منه ثم جعلنا من نسله، أم إنه خلق كل البشر في صورة نر ثم أودعها الأصلاب والأرحام، أم ماذا؟
أنى كانت فان الحقيقة الظاهرة إن الناس جميعاً قد خلقوا من تراب، فلا تمايز عنصري بينهم.

٣/ وفي مرحلة ثالثة، خلقنا الله من طين، ومعروف أنه خليط من ماء وتراب، فقال الله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (ص/٧١)

وإذا كان الطين أصلنا جميعاً؛ فهل يجوز أن نتفاخر على بعضنا، وبماذا؟ وكيف يجوز أن يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله؟

٤/ وقد تصلصل الطين في مرحلة أخرى، فقال ربنا سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر/٢٨)
إن هذه الآيات التي تبين أصل البشر الواحد، توحى إلينا فيما توحيه من حقائق وبصائر، أنه لا يجوز أن نغلو في أحد ونرفعه الى مستوى إدعاء الإلوهية، ولا يجوز لنا أن نغلو بالسلطين لنجعل منهم أنصاف آلهة، أو أن نتعصب لأنفسنا أو لغيرنا بما يعود إلى عنصرنا أو دمننا أو ما أشبهه.

٥/ والنفس البشرية التي خلقت من ضعف، وكانت ظلوماً جهولاً، تتسرع إلى الشرك، والذي منه الغلو في العظماء من البشر، وبالذات رسل الله الذين تتجلى فيهم الفضائل وتظهر على أيديهم الكرامات. ودرءاً لهذا الخطر تتابعت تأكيدات الوحي على أن الرسل ما هم إلا بشر، فقال الله سبحانه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم/١١)

وهذا التأكيد الذي نجده جزءاً من دعوة الرسل، لدليل صدق على أنهم لا يبتغون لأنفسهم كسباً، أو يستكبرون - حاشا لله - على الناس، كما هو شأن السلاطين والطغاة.

٦/ وذكر ربنا سبحانه ما قاله النبي صلى الله عليه وآله عن نفسه، وذلك في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف/١١٠)، وقوله سبحانه: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ شاهد صدق على دعواهم، لأنهم لا يدعون الناس إلى أنفسهم، بل إلى ربهم سبحانه.

وقد استفادت النصوص الدينية من هذه البصيرة؛ المساواة بين أبناء البشر، حين جاء في حديث شريف المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: "الناس ولد آدم وآدم من تراب". (١)

وفي أشعار منسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام جاء:
الناس من جهة التمثال اكفاء أبوهم آدم و الأم
حواء.

فقه الآيات

ولأن بصيرة وحدة البشر في أصل الخلقة ركيزة أساسية في النظام المعرفي والثقافي والتشريعي للدين الحنيف، فإنها تصبغ أحكام الإسلام بصبغة

(١) ميزان الحكمة، ج٩، ص٣٥٢، ح١٩٢٥٧.

التوحيد، الذي يتضاد أساساً مع كل لون من ألوان الشرك؛ ينفي استعباد الناس بعضهم لبعض بإسم الدين أو بإسم العنصرية أو القومية أو الطبقية، كما ينفي تسلط الناس بعضهم على بعضهم بقوة النار والحديد أو بجاذبية الثروة أو حتى باسم التقدم العلمي. وهكذا ينفي التمايز بين الناس بالدم أو بالولادة في أرض أو بالسكن في منطقة أو بالانتساب الى مبدء أو ما أشبهه، اللهم إلا بالتقوى (الايمان والعمل الصالح).

وهذه البصيرة تشكل في ذات الوقت حجر الزاوية فيما يتصل بالنظام الأخلاقي في الاسلام، حيث تقتلع جذور الفخر والكبر والحمية الجاهلية. ونرجو أن نوفق فيما يأتي من الأحاديث، لبحث التفاصيل التي تتصل بهذه البصيرة القرآنية باذن الله تعالى.

لا للعنصرية.. لا للطبقية

من أجل تحقيق كرامة الإنسان وتعالیه فوق كل القيم المادية، التي تريد قهره واستضعافه، وسلب إنسانيته وتحويله إلى متاع يباع ويشترى، أو آلة تستخدم حيناً ويستغنى عنها أحياناً.. من أجل ذلك جاهدت رسالات الله كل ألوان التسلط والاستكبار من قبل طائفة لأخرى، سواء باسم الدين أو باسم العنصر واللون والدم، أو عن طريق الثروة وإثارة الشهوات، أو عبر القوة وإثارة الرعب.

وتتعدد صور الاستكبار والتسلط اللامشروع، ولكن جوهرها واحد يتمثل في سحق كرامة الإنسان، ومسح شخصيته، وتمريغ قيمه المثلى في وحل الشهوات المادية. ومساوئ التسلط لا تختص بالضحية، بل وتلحق المجرم وربما قبل الضحية، لأن المستكبر ينسلخ أولاً من كرامته الإنسانية ثم يسعى لسلبها من المستضعف.

وقد سبق أن استوحينا من الذكر الحكيم أصالة البشر ووحدته في الخلقة التي هي قاعدة الكرامة الإنسانية، ونقض لكل فلسفات التسلط الجاهلية؛ سواءً منها ما تعتمد الثروة، أو تستخدم القوة، أو تتعصب للعنصر، أو حتى تتخذ من الدين تبريراً للاستكبار.

وفيما يلي نستعرض الآيات التي تجاهد العنصرية والطبقية والاستكبار بكل ألوانه.

أولاً: كرامة البشر وحكمة التنوع

التنوع أصل أصيل في الكيان البشري، ولا يجوز لطائفة من البشر أن يخالفوا هذا التنوع، ويحاولوا صهر البشر في بوتقة واحدة يعتمدونها، كما حاولت الامبراطوريات الكبرى في التاريخ وفشلت، وكما حاول المستعمرون في عصرنا وفشلوا، وكما سعت الشيوعية وخابت واندثرت. واليوم يأتي المستكبرون ويكررون التجارب الفاشلة معتمدين على ما أنعم الله عليهم من القوة والثروة والعلم، حيث يسعون من أجل إنشاء قرية عالمية يتسلطون عليها ، ولكنهم لن يفلحوا إذا أبدا.

١/ إن سنة الله قضت بأن يكون الناس شعوباً وقبائل. وليس الهدف من هذا التنوع الصراع، وإنما التعارف، قال ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات/١٣)

وبالتدبر في هذه الآية الكريمة تنظم لدينا جملة من المعارف الإلهية، التي تشكل قاعدة علاقة الإنسان بالإنسان. تعال نقرأ معاً هذه الآية بتدبر في كل كلمة كلمة منها.

أ- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ : الخطاب هنا إلى الناس جميعاً، بغض النظر عن هويتهم العرقية أو انتمائهم الديني أو لغتهم أو ثقافتهم .

وبالرغم من إن الخطاب في آيات سورة الحجرات السابقة موجهة إلى المؤمنين، إلا أنه يتغير هنا ويوجه إلى الناس، لأنه يبين بصيرة لا تخص المؤمنين وحدهم، ولأن على المؤمنين ان يعتمدوها ليس في علاقاتهم ببعضهم فحسب، وإنما أيضاً في صلاتهم بالمجتمع البشري كله.

ب- الخالق هو الله ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ والكل عبيده، فلا تمايز بين شخص وآخر إلا بما أمر الله. وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: " .. فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق". (١)

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

ج- أصل الخلق ذكر وأنثى، حيث قال ربنا: ﴿مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ ؛ فلا تفاضل بينهم، إلا بما شرع الله. وقد قال الإمام علي عليه السلام:
الناس من جهة التمثال أكفاء أبوهم آدم و الأم حواء
د- والاختلاف سنة الله التي أجراها في خلقه، حيث قال ربنا سبحانه:
﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾.

وحيثما جعل الله سبحانه شيئاً، فلن يستطيع الناس تغييره.
هـ- وحيثما جعل الله شيئاً، فإنما لحكمة بالغة قد جعله، فما هي الحكمة؟
قال سبحانه: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾.

إن المعرفة تحمّل الإنسان مسؤولية الاعتراف، فمن عرف شيئاً ثم لم يعترف به فقد أنكره. والاعتراف بالشيء أو بالشخص يعني الاعتراف بوجوده وحقوقه، وتنظيم حياة العارف حسب ذلك الوجود وتلك الحقوق. دعنا نضرب مثلاً؛ لو أنك تعرف أن أمامك شجرة، فإن هذه المعرفة تجعلك تعترف بوجودها فلا تصطدم بها. كذلك لو عرفت أن أمامك إنساناً، فإنك تنظم مسيرتك بحيث لا تصطدم به، وأيضاً تحترمه وتحببه وتستجيب له لو دعاك، وتغيثه لو استغاث بك. وهكذا المعرفة تحمّل صاحبها المسؤولية. والتعارف معرفة متبادلة، واعتراف متبادل، واحترام متبادل؛ وكل أولئك من حكم خلق الانسان وأهدافه.

و- هب أننا اعترفنا ببعضنا واحترمنا بعضنا بعضاً، ثم ماذا؟ يقول ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. هنالك عندما نعترف ببعضنا ونحترم حقوق بعضنا بيده التنافس على الخيرات، والتسابق نحو تحقيق التطلعات الحياتية والمعنوية. وعند هذه النقطة تكتمل حكمة الاختلاف والتنوع، ووجود الشعوب والقبايل. أرايت لو كان في بلد فريق كرة قدم واحد، أو يمكن ان تتقدم رياضة لعب الكرة فيه؟ كذلك لو كانت جامعة واحدة ومصنع للسيارات واحد وتاجر واحد.. إنما بالتعددية والتنافس الإيجابي القائم على أساس

اعتراف كل فريق بحق الطرف الآخر في التقدم ضمن الاطار القانوني
المرسوم يتقدم الناس جميعاً.

٢/ ويقول ربنا في آية كريمة: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة/٤٨)

٣/ وقال الله سبحانه: ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة/٤٨)
وإذا كان الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، وإذا كان كل معدن بحاجة الى ما يستخرجه، فإن أداة استخراج معادن الناس التنافس، والهدف هو تكامل البشر الى القمم السامقة.

وقد روي عن أبي عبد الله محمد بن موسى بن الرازي قال: سمعت أبي يقول: قال الرجل للرضا عليه السلام: والله ما على وجه الأرض أشرف منك أباً. فقال: التقوى شرفهم، وطاعة الله أخفضهم. فقال له آخر: أنت والله خير الناس. فقال له: لا تحلف يا هذا؛ خير مني من كان أتقى الله تعالى، وأطاع له. والله ما نسخت هذه الآية: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١)

ثانياً: نبذ التمييز العنصري

يبدو أن أول ما افتخر به الناس بينهم وحاولوا التسلط على بعضهم به، هو الإنتساب إلى أسرة أو عشيرة أو قبيلة أو شعب، مما سمّاه الكتاب الكريم بالحمية الجاهلية. ولا تزال البشرية تعاني من آثار هذه الحمية التي تعرقل التقدم الحضاري، الذي ينشده الإنسان في ظل القيم المثلى، والتي تتلخص في الإيمان والعمل الصالح (التقوى).

(١) تفسير نور الثقلين ، ج ٥، ص ٩٦.

والإنسان يتعصب لذاته ثم لأسرته ثم لعشيرته، وهكذا تتوالى حلقات التعصب، وكلما ابتعدت عن ذاته ضعفت، وهي جميعاً حمية جاهلية لأنها لا تستند إلى قيمة مثلى، بل إلى عصبية فارغة من أي محتوى، وقد واجهت رسالات الله هذه الحميات بقوة واقتدار .

١/ تمثلت العنصرية في بني إسرائيل، وتغلقت بالافتراء على الله، وألبست مسوح الدين كذباً ودجلاً، حتى قالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، فقال الله سبحانه لهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة/١٨)

ويبدو أن هذه النزعة ابتدأت عنصرية، ثم التمس أصحابها لها عذراً وتبريراً فتركست في أنفسهم مما جعل تصحيحها مستصعباً.

٢/ وشاعت العصبية في العرب؛ سواءً بين قبائلها، أو ضد سائر الشعوب التي أسموها بالأعاجم، كما سموا بذلك البهائم. أوليس العرب لا تفهم رطنة الأعاجم، كما لا تفهم رغاء البهائم؟ فقال الله لهم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٍّ وَعَرَبِيٍّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آدَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت/٤٤)

لو أن القرآن كان قد أنزل بلغة غير العرب، لاعتذروا عن كفرهم بأن آياته غير واضحة لهم. فهل يختلف الهدى أن يبين بأية لغة، أو يختلف الدواء أن يكون في أي وعاء؟ كلا؛ إن الإيمان هو نور في القلب، وإن الكفر وقر في السمع. فمن كان في قلبه نور الإيمان اهتدى بآيات الكتاب، ومن لم يكن تقلت أذنه عن كلمات الله.

وهكذا تجاوز الكتاب حتى اطار اللغة، وبيّن أهمية نوره وهداه وشفاه.

وقد تجاوز النبي صلى الله عليه وآله في كلمة رائعة له العصبية العربية القائمة على قاعدة الدم، فجعل كل متحدث بلغة الضاد عربياً، فقال: "يا أيها الناس؛ إن الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية، وتفاخرها بآبائها. إن العربية ليست باب والد، وإنما هو لسان ناطق، فمن تكلم به فهو عربي، ألا إنكم من آدم وادم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم". (١)

٣/ وفيما يتصل بالحميات الجاهلية التي شاعت بين عرب الجاهلية، وقضت على تماسكها، وفرضت عليها الذلة والتخلف، حتى كانت كل قبيلة تقتخر بأنسابها واحسابها وتسخر من سائر القبائل.. جاءت كلمات الوحي واضحة وبالغة وربما صاعقة في رفض الحمية ومقاومة العصبية. قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات/١١)

معيار الفضل ليس الإنتساب الى أب أو أم، إنما بشيء آخر (يتمثل في التقوى). فإذا لا يجوز أن يسخر قوم من قوم، إذ عسى أن يكون هؤلاء خيراً من أولئك، كما لا يجوز أن تفعل النساء كذلك فيما بينهن .

ومعروف إن الوصايا القرآنية لا تخص الرجال وحدهم ، ولكن قد يؤكد الكتاب شمول بعض الوصايا والأحكام للنساء، ولقطع دابر الأعذار عند النساء ، أو لأن انتشار الفساد عندهن أشد، أو ما أشبه.

وهنا أكد القرآن على تعميم الوصية على النساء، كما حرم اللمز وتنابز بالألقاب واعتبره فسوقاً ومخالفاً لحقائق الإيمان، وظلماً بحق أولئك الذين ينبز إليهم باللقب المشين ، بل وبحق نفسه لأنه قد ارتكب ذنباً.

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٩٦.

وهكذا حرم الله العصبية، وحرم ما يصدر من أصحابها من أفعال نميمة؛ كالسخرية واللمز والنبد باللقب.. وقد إستفاضت النصوص بحرمة العصبية وبتعابير شديدة، تعال نستمع الى بعضها:

جاء في تفسير علي بن ابراهيم، وأما قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ فإنها نزلت في صفة بنت حي بن أخطب، وكانت زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك أن عايشة وحفصة كانتا تؤذيانهما وتشتمانها، وتقولان لها: يا بنت اليهودية. فشكت ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لها: ألا تجيبيهما؟ فقالت: بماذا يا رسول الله؟ قال: قولي إن أبي هارون نبي الله، وعمي موسى كليم الله، وزوجي محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، فما تنكران مني؟ فقالت لهما، فقالتا: هذا علمك رسول الله صلى الله عليه وآله. فأنزل الله في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ..﴾. (١)

وفي أصول الكافي عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية، بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية". (٢)
وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربق الايمان من عنقه". (٣)

ثالثاً: نبذ التمييز الإقليمي

إلى أي مدى يتميز من سكن أرضاً وعمّر إقليماً وسبق الى ماء واستقر في منطقة، فهل يمتلك كل نعم الله فيها، وله الحق في أن يستأثر بخيرات الأرض التي خلقها الله للبشر، بحيث لا يجوز لأحد سواه أن ينتفع بها أبداً؟

(١) نور الثقلين، ج ٥، ص ٩٠.

(٢) المصدر، ص ٧١.

(٣) المصدر، ص ٧٢.

البصائر التالية التي نستوحىها من الذكر الحكيم، تنطوي على إجابة شافية لهذا السؤال العام.

ألف: الأرض لله

١/ الأرض لله وحده، ألم يقل ربنا سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة/ ١٨)

٢/ وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ (النساء/ ١٢٦)

٣/ والله قد خلق ما في الأرض للناس، وقد قال الله سبحانه: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة/ ٣٦)

٤/ وقال الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/ ٢٩)

٥/ وقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة/ ١٦٨)

٦/ وقال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (لقمان/ ٢٠)

باء: الهجرة في الأرض

١/ وأمر الله عباده المستضعفين أن يهاجروا من بلادهم التي طغت إلى أرض الله الواسعة. وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا

المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿النساء/٩٧-١٠٠﴾

نستفيد من الآيات الكريمة التي تليت؛ أن الأرض كلها لله، وأن الناس عباد الله، وأن التقسيمات الجغرافية أو الإقليمية أو الوطنية ليست بذات قيمة ذاتية. وأنه مبدئياً لكل البشر الحق في كل الأرض، ومن هنا يجب على المستضعف منهم في أرض أن يهاجر إلى غيرها.

٢/ ورفض الدين بشدة التكبر في الأرض، (ومن التكبر منع أحد من الانتفاع بها). قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الاعراف/١٤٦)

جيم: السير في الأرض

١/ والله أمر الناس بالسير في الأرض (بلا استئذان من أحد). قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (النحل/٣٦)

٢/ وقال الله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج/٤٦)

٣/ وقال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخُلُقَ ثُمَّ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت/٢٠)

نستوحي من الآيات، حرية حركة الإنسان في الأرض من دون أن يمنعه عن أية بقعة منها متكبر فيها أو طائفة يدعون امتلاكهم لها، كما كان الشأن سابقاً عند القبائل، وكما هو حالياً في التقسيمات السياسية بين الدول.

دال: حرمة إخراج الناس من ديارهم

١/ ونهى الله بشدة أن يستفز أحد غيره من الأرض، وعاب على قريش حينما أرادوا إخراج الرسول صلى الله عليه وآله من الأرض، حيث قال سبحانه: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الاسراء/٧٦)

٢/ وأهلك الله فرعون حينما أراد أن يستفز بني إسرائيل، (الذين كانوا يعارضونه، وربما يعتبرهم غرباء في أرض مصر). قال الله سبحانه: ﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (الاسراء/١٠٣)

هاء: التمكين في الأرض

١/ ومكّن الله ذا القرنين في الأرض من دون حدود اقليمية. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (الكهف/٨٤)

٢/ ونجّ الله سبحانه النبي ابراهيم والنبي لوط عليهما السلام، وهياً لهما أرضاً غير أرضهما التي

كانا فيها. قال الله سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الانبياء/٧١)

٣/ وكذلك ضرب القرآن مثلاً بأصحاب الكهف، الذين قاموا لله واجتنبوا طاغوت زمانهم. وقال الله سبحانه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُنْنَا إِذْ شَطَطًا﴾ (الكهف/١٤)

وفعلاً خرجوا من بلدهم بحثاً عن موقع آمن يعبدون الله فيه، بعيداً عن أرضهم التي كانوا فيها.

٤/ وقد قال الله سبحانه: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ
فَاعْبُدُونِ﴾ (العنكبوت/٥٦)

ونستفيد من الآية هذه أن الحق والعدل والحرية أهم من الوطنية، وأن
"ليس بلدٌ بأحقَّ بك من بلدٍ، خير البلاد ما حملك". (١)

واو: حرية عباد الله

إن حرية عبادة الله هي قيمة أساسية، وليست أرض الآباء أو أرض
المصالح، وقد وعد الله المؤمنين أن يمكنهم في الأرض. قال الله سبحانه:
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن
بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ﴾ (النور/٥٥)

وقد صدق الله وعده إذ أورش المسلمين أرض الأعداء، إذ قال الله سبحانه:
﴿وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الاحزاب/٢٧)

ونستفيد من ذلك؛ إن كل أرض صالحة لاقامة دولة الحق، وكل مؤمن
صالح لاقامتها من دون تمييز.

زاء: حق الاستقرار والمواطنة

١/ والذي يسكن بلداً ويستوطن أرضاً يجب أن يحترم موقعه فلا يخرج
منها. وهكذا عاب الله على المستكبرين الذين أرادوا إخراج الرسل، إذ قال
سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي
مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (إبراهيم/١٣)

٢/ وكان من أبرز بنود الميثاق الذي فرضه ربنا على بني إسرائيل، ألا
يخرجوا مخالفيهم من الديار. قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآتَسْفِكُونَّ

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم ٤٤٢.

دِمَاعَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿البقرة/٨٤﴾

٣/ وقد أذن الله لمن أخرج من دياره بغير حق، أن يقاتل في سبيل الله للعودة إليها، فقال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ اإِبْعَثْ لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة/٢٤٦)

٤/ وقال الله سبحانه: ﴿أَإِنَّ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَنَلَّوْا دَفْعَ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج/٣٩-٤٠)

من هنا نعرف ان أهل الديار لهم حق التوطن فيها، وليس لأحد أن يمنعهم هذا الحق بإخراجهم، بل وبإزعاجهم.

حاء: إستقبال المهاجرين

ولكن لا يعني ذلك ان لهم الحق المطلق في منع الآخرين من التوطن في بلادهم إذا لم يكن في ذلك إضرار بهم، أو كانت هناك ظروف قاهرة تفرض الهجرة على أولئك، مثل سيطرة الجبايرة أو الكوارث الطبيعية، وكل ما يدعو الناس إلى الهجرة عن بلادهم.

وقد مدح القرآن الكريم الأنصار باستقبالهم للمهاجرين. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر/٩)

وذم المنافقين، لأنهم رفعوا شعار إخراج المهاجرين الذين سمّوهم الأذلين، بينما سمّوا أنفسهم بالأعزاء. قال الله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لَنْ نَرَجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ نُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون/٨)

هكذا نستوحي من الآيات القرآنية؛ إن من سبق إلى أرض فعمّرها واستوطنها فهو أحقّ بها، وعليه أن يدافع عنها إذا اعتدي عليها. أما إذا أخرج منها بغير حق، فله أن يحارب حتى يعود إليها. ولكن هذا الحق لا بد أن يكون ضمن إطار القيم المثلى، وليس حقاً مطلقاً.

من هنا فلا يجوز أن يمنع من استوطن أرضاً واستعمرها واتخذها بلداً دائماً له أو ورثها من آبائه الذين استوطنوها، لا يجوز له أن يمنع عباد الله إذا أرادوا أن ينتفعوا بخيراتها المباحة دون أن يلحقوا ضرراً بمن استوطنها من قبل، ولا أن يزاحموه فيها. وكذلك إذا هاجر إليها من اضطر إلى الهجرة إليها، فلمهاجر حق فيها. وإذا استولى على هذه الأرض (الوطن) جبار لا يقاوم، فلا بد من تركها والهجرة إلى حيث يمكن للإنسان أن يعبد فيه ربه، ويعيش آمناً من الظلم والطغيان.

رابعاً: نبت الحمية الجاهلية

لكي تسمو الحياة البشرية إلى مستوى الكرامة، وتأصيل إنسانية الإنسان بما يقتضي من احترام حقوق الناس جميعاً وإنصافهم، بعيداً عن كل تمييز، لا بد من رفض العصبية إلا ما كانت في إطار الحق والعدل.

وفي مجتمع تحكمه الحمية الجاهلية، لا يمكن إقامة العدل وتحكيم شرائع الدين. وقد قال الله سبحانه: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الفتح/٢٦)

ونستفيد من الآية بصيرة هامة؛ هي أن الحمية الجاهلية ضد كلمة التقوى، وإن المؤمن يسكن قلبه بالتقوى فلا يظلم أحداً تعصباً لقومه أو حزبه، وإنما يقيم القسط ويشهد لله ولو على أقرب الناس إليه رحماً أو صداقة أو نفعاً. وقد أوضحت أحاديث النبي وأهل بيته عليه وعليهم السلام معنى العصبية ومدى خطورتها. فأما عن معناها فقد ورد عن معمر عن الزهري قال: سأل علي بن الحسين (الإمام السجاد) عليه السلام عن العصبية، فقال: "العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً عن خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم". (١)

وهكذا تكون العصبية هي تجاوز العدل في تقييم الناس، وقد ورد في حديث آخر؛ إن الحمية مضادة للإنصاف. وواضح إن الإنصاف هو جوهر العدل. استمع الى الحديث التالي المروي في كتاب الخصال عن سماعة بن مهران قال: كنت عند أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام وعنده جماعة من مواليه، فجرى ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام: "اعرفوا العقل والجهل" الى ان قال عليه السلام: "والانصاف وضده الحمية". (٢)

أما عن مدى خطورة العصبية، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: "من تعصب أو تعصب له، فقد خلع ربق الإيمان من عنقه". (٣) والعصبية ضد الإيمان، أو ليس المؤمن يتبع الحق؟ بينما العصبية تدعو الى محورها؛ حقاً كان أم باطلاً، وهكذا كانت العصبية في النار. فقد جاء عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام قال: "من تعصب عصبه الله بعصاة من نار". (٤)

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٣.

(٢) نور الثقلين، ج ٥، ص ٧١.

(٣) المصدر، ص ٧٢.

(٤) المصدر، ص ٧٢.

وجاء في حديث آخر عن (الإمام السجاد) علي بن الحسين عليهما السلام، قال: "لم تدخل الجنة حمية، غير حمية حمزة بن عبد المطلب، وذلك حين أسلم غضباً للنبي صلى الله عليه وآله في حديث السلا الذي ألقى على النبي صلى الله عليه وآله". (١)

إن حمزة عليه السلام تعصب للحق، وغضب للنبي حامل راية الحق والعدل، بينما سائر الحميات هي حميات الجاهلية.

وتتنوع العصبية، ولكن حقيقتها واحدة، هي إتباع الهوى والاسترسال مع العاطفة والحساسية أو مع المصالح والشهوات، وتجنب التقوى وتجاوز الحق والعدل في التقويم أو في العمل. وهكذا من تعصب لطائفته الدينية أو إنتمائه الحزبي، أو تعصب لعشيرته وقومه، أو تعصب لأي وشيعة قريبة منه، فإن ذلك يدعو إلى مجانبة الحق في مواقفه، ومساعدة الظلم وإثارة الفتنة. من هنا قال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: "فاظفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، واعتقاد الجاهلية؛ وإنما تلك الحمية يكون في المسلم من خطوات الشيطان ونخواته ونزغاته ونفثاته". (٢)

خامساً: صور من العصبية

ألف: العصبية الدينية والطائفية

العقل يهدينا إلى الإيمان بالحق، وأن ندور معه أينما دار. والعصبية تدعونا إلى الدفاع عن الذات، وما يتصل بالذات؛ حقاً كان أم باطلاً. يبقى الإنسان بينهما خاضعاً لامتحان صعب، إذ قد يكون انتمائه إلى دين أو مذهب حقاً، ولكنه يغالي فيه فيصبح باطلاً ويزيغ قلبه، إذ الحق قد يكون في يوم شيئاً وفي يوم آخر شيئاً آخر. رأيت شرائع الله كيف نسخ بعضها بعضاً، فبقيت طائفة من الناس متمسكين بالشرعية المنسوخة تعصباً لها وليس إيماناً بالحق؟

(١) المصدر، ص ٧٢.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٣.

ومن هنا فإن التمسك بالحق والاستقامة عليه، يختلف عن التعصب للنفس ولما تمسك الإنسان به سابقاً، حتى ولو خالف الحق. وإليك مثلاً آخر؛ مادام الإيمان يكون بالحق، فلا فرق - عند المؤمن - بين أن يكون الحق لديه أم لدى غيره. ولكن إذا كان محور الانتماء الذات، فإن الحق إذا كان عنده أو نزل عليه آمن به، وإذا أنزل على غيره كفر به. وهكذا تراه يؤمن بنبي ويكفر بآخر، ويؤمن بكتاب ويكفر بآخر. وهكذا إنه إذا يتبع العصبية الجاهلية، وليس الحق. من هنا أمر الله بالإيمان بالأنبياء جميعاً، وألا يفرق المؤمن بينهم.

١/ قال الله سبحانه: ﴿عَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ عَامِنٌ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة/٢٨٥)

٢/ وقال الله سبحانه: ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُفُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران/١١٩)

٣/ وقد أعلن كتاب ربنا سبحانه، أن المعيار عنده تعالى هو الحق المتمثل في الإيمان والعمل الصالح، بعيداً عن الانتماء الشكلي، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/٦٢)

٤/ وربما مدح الكتاب طوائف من أهل الكتاب، بالرغم من أنهم بوجه عام كفروا بالرسول، ولكن مدح بعضاً منهم لأنهم اتبعوا الحق، فقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران/١١٣)

لأن المعيار هو الحق، وليس التعصب لطائفة أو لأخرى .

٥/ ومدح ربنا طائفة من القسيسين، فقال سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ

عَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَانَ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿ (المائدة/٨٢)

٦/ فالميزان إنما هو الحق، وليس الانتماء أو الأسماء. هذا هو الإيمان، صدقاً
وعدلاً. أما العصبية فهي التي دعت النصارى الى محورية الانتماء إليهم وليس
الحق، فقال سبحانه عنهم: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (البقرة/١٣٥)

٧/ وقد بين الكتاب أكثر من مرة أن الميزان هو التسليم لله الحق وعدم
الشرك (كالانتماء الى شخص أو طائفة)، فقال الله سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ
الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل
عمران/٨٥)

٨/ والإسلام هنا هو التسليم، لأن الآية السابقة تدل على ذلك. قال الله سبحانه:
﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران/٨٤)

٩/ والعصبية الدينية والعصبية الطائفية هي التي دعت أهل الكتاب إلى
تكفير بعضهم، فقال الله سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ
وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾
(البقرة/١١٣)

١٠/ وهذه العصبية هي التي جعلت النصارى يختلفون إلى فرق مختلفة،
يكفر بعضهم بعضاً، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا
مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة/٤٤)

١١ / وهي التي حذر منها القرآن المسلمين، فقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام/١٥٩)

١٢ / وهكذا قال ربنا سبحانه: ﴿مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم/٣٢)

١٣ / إن العصبية الدينية خطيرة جداً، لأنها تتسرب إلى النفس بعيداً عن الرقابة العقلية. فالشخص يعتقد بصحة مذهبه فيؤمن به ثم يتعصب له، وعندما يتعصب لا يدري هل هو يتعصب لدينه الحق أم لنفسه التي تؤمن به، ومع الزمن وعند ضعف الإيمان تراه يتعصب لنفسه ويترك ميزان الإيمان الذي إنما انتمى أولاً الى الدين بسببه، ويرى أن تعصبه هو استقامة على الحق. كذلك يزين له الشيطان عمله - والعياذ بالله - حتى يبلغ المتعصبون درجة يقولون لبعضهم: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آهَاتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوْقُوا عَذَابٌ﴾ (ص/٦-٨)

أنظر كيف تواصلوا بالكفر بالحق، والصبر على الآلهة المزيفة لمجرد أنهم لم يسمعوا بالدعوة الجديدة، ولمجرد أن الله قد إختار النبي لرسالته ولم يختار أحداً منهم. وهكذا كانت المعايير العاطفية والعصبية التنتة، هي وراء كفرهم المشين بالحق.

١٤ / ويبدو أن هذه العصبية تساهم في الغلو في الدين، ذلك الذي ينهى عنه ربنا سبحانه حين يقول: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة/٧٧)

والعصبية الدينية تشمل الطائفية التي ابتليت بها الأمم التابعة للديانات الإلهية لذات العلة وفي ذات الاتجاه.

باء: العصبية القبلية

الأعراب في الجاهلية كانوا أشد الناس حمية وعصبية قبلية، إذ لم تكن لهم مفخرة يذكرونها. ويبدو أن معيار إيمانهم كان إنسلاخهم مما اعتادوا عليه من الفخر بالقبلية، إذ قال الله سبحانه: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ (الحجرات/١٤)

فالآية هذه نقرأها في سورة الحجرات، التي نهى ربنا سبحانه فيها عن السخرية بالبعض قبل آيتين.

وهكذا نستفيد من الآية؛ إن نور الإيمان لا يدخل قلباً محجوباً بالعصبية، حيث جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: "من تعصب أو تعصب له فقد خلع ريق الإيمان من عنقه". (١)

١/ وقد كانت العادة الجاهلية في الحج، ذكر آباءهم (ومفاخرهم التاريخية) في منى (وأنى اجتمعوا في سوق أو مشعر أو معركة، وقد امتلأت الكتب بأشعارهم الحافلة بالعصبية القبلية، والتي استمرت ومع الأسف حتى بعد ظهور الإسلام وبتشجيع من الطغمة الأموية الظالمة). وقد أمر الله بذكره سبحانه في المشاعر أشد من ذكر آبائهم، حيث قال سبحانه: ﴿فَادَا قَضِيئُكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ (البقرة/٢٠٠)

٢/ وقد نهى الله تعالى في الحج عن الفسوق، فقال سبحانه: ﴿الْحَجُّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة/١٩٧)

والفسوق هو المفاخرة كما جاء في آية كريمة في سورة الحجرات، حيث نهى ربنا سبحانه عن السخرية والمنابزة بالألقاب، ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٢.

يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ
الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ (الحجرات/ ١١)

فسمى كل ذلك فسوقاً، وكما ورد في الحديث الشريف عن علي بن جعفر
قال: سألت أخي موسى بن جعفر (الإمام الكاظم) عليه السلام عن الرفث
والفسوق والجدال ما هو، وما على من فعله؟ فقال: "الرفث: الجماع،
والفسوق: الكذب والمفاخرة، والجدال: قول الرجل لا والله وبلى والله". (١)
وقد وردت أحاديث شريفة ضد العصبية القبلية نتلو عليك بعضها:

عن صفوان بن يحيى عن حنان قال: سمعت أبي يروي عن أبي جعفر
(الإمام محمد الباقر) عليه السلام قال: كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في
المسجد، فأقبلوا ينتسبون ويرفعون حتى بلغوا سلمان ، فقال له عمر بن
الخطاب: أخبرني من أنت، ومن أبوك، وما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبد
الله، كنت ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله، كنت عائلاً
فأغناني الله بمحمد صلى الله عليه وآله ، وكنت مملوكاً فاعتقني الله بمحمد. هذا
نسبي، وهذا حسبي. قال: فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلمان يكلمهم، فقال
له سلمان: يا رسول الله؛ ما لقيت من هؤلاء حبست معهم فأخذوا ينتسبون
ويرفعون في أنسابهم حتى إذا بلغوا إليّ، قال عمر بن الخطاب: من أنت، وما
أصلك، وما حسبك؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: فما قلت له يا سلمان؟ قال:
قلت: أنا سلمان بن عبد الله ، كنت ضالاً فهداني الله عز ذكره بمحمد، وكنت
عائلاً فأغناني الله عز ذكره بمحمد ، وكنت مملوكاً فاعتقني الله عز ذكره بمحمد؛
هذا حسبي وهذا نسبي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا معشر قريش؛ إن
حسب الرجل دينه، ومروته خلقه، وأصله عقله. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
مِنْ نَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ثم

(١) وسائل الشيعة، ج٩، كتاب الحج، ص١٠٩، باب ٣٢، ح٤.

قال النبي لسلمان: ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بتقوى الله عز وجل، وإن كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل. (١)

وكان من عادات الجاهلية عدم الزواج إلا ممن هو في مستوى قبيلتهم، فأبطل الإسلام هذه العادة. فقد جاء في حديث مروى عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله زوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، ثم قال: إنما زوجها المقداد لتتضع المناكح، ولتتأسوا برسول الله صلى الله عليه وآله، ولتعلموا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وكان الزبير أخا عبد الله وأبي طالب لأبيهما وأمهما. (٢)

جيم: العصبية الحزبية

تعتبر الحزبية اليوم من العصبيات الشائعة، بعد أن تم إندماج القبائل في بعضها، وانصهرت في المجتمعات المدنية. والعصبية الحزبية قد تتشكل في أطر سياسية أو طلابية أو نقابية أو في أي إطار مدني آخر. وحينما ينتمي الفرد إلى تجمع يرى ذاته قد انعكست فيه، وهكذا تتكرس فيه عواطفه وأفكاره ومناهجه، ثم يرى من واجبه الدفاع عن ذلك التجمع حقاً كان أمره أم باطلاً، دعا إلى عدل أو إلى ظلم.

١/ وأول ما يبتلى به المتعصب حزبياً، سحق كرامته الإنسانية التي تتجلى في عقله وحرية، والتسليم للأغلال التي تفرضها العصبية. وقد أرسل الله رسوله محمداً صلى الله عليه وآله ليضع عن البشرية إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف/١٥٧)

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٩٩-١٠٠.

(٢) المصدر، ص٩٨.

ولعل العصبية هي من أبرز هذه الأغلال.

٢/ وترى المتعصب الذي يتبع إمام ضلال، من الذين أغفل الله قلبه، وقد أمره الله سبحانه أن يتبع الحق، تراه في يوم القيامة يتبرأ منه، حسبما يقول الله سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة/١٦٦)

٣/ وقال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ (الاحزاب/٦٧)

٤/ والعصبية هي دعوة ضلالة، لأنها تدعو البشر إلى ترك معايير الحق والعدل، والاسترسال مع الأهواء، والله يدعونا إلى إقامة القسط والشهادة لله. قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ (النساء/١٣٥)

٥/ والعصبية دعوة الى الاختلاف والتشتت، والله يدعونا إلى الاعتصام بحبله والألتفرق. قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران/١٠٣)

دال: نبذ الطبقية

حينما أكرم الله سبحانه الإنسان، منحه روحاً من لدنه يستطيع أن يتحدى بها بإذنه كل من يريد سحق كرامته، ولم يقدر الطغاة ببطشهم، ولا المترفون بثرواتهم، ولا السحرة والدجالون بمكرهم أن يطمسوا تلك الروح كاملة ليحوّلوا البشر الى أدوات وأشياء . وتاريخ البشر مشرق بأولئك الرجال الذين أيدهم الله في تحدي فرعون البطش، وقارون المال، وهامان المكر.

بلى؛ إن جانباً هاماً من تاريخ البشرية، يعكس الصراع الدموي الشديد بين قوى الشر المتمثلة في المترفين من جهة، وبين المدافعين عن الكرامة الإنسانية من جهة أخرى.

وقد تعددت جبهات الصراع، وامتدت في آفاق متمادية، وعلينا دراستها جميعاً، لأنه من دون القضاء على الطبقة وحميتها المتعددة الصور والأشكال، لا تسلم كرامة الإنسان، ولا يكتمل شرفه الرفيع. ولكن قبل دراسة هذه الآفاق دعنا نبلور بصيرة هامة، هي؛ إن الله قد سخر الطبيعة للإنسان، فإذا أصبح الانسان مسخراً لها فهناك الكارثة والطبقة في جوهرها- تلك الكارثة، إذ الإنسان قد يملك من الثروة أكثر من طاقته، فتصبح الثروة هي التي تمتلكه، وتسحق كرامته. ثم يسعى لتعميم هذه الظاهرة على الآخرين، فإذا به يصبح أداة للثروة في سحق كرامة البشر ومسح شخصيتهم، كما الثروة فعلت ذلك به أولاً. فأضحى لا ينظر إلا عبر منظارها، ولا يعمل إلا من أجلها، ولا يسعد إلا بالاستزادة منها.

ونستفيد هذه البصيرة من قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (هود/١١٦)، حيث نستوحي من الآية؛ إن ما أترفوا فيه؛ أي ما أوتوه من نعم الله أصبح هو قائدهم، فاتبعوه وكانوا مجرمين. بينما كان من المفروض ان يتحصنوا بالتقوى، ويحافظوا على استقلالهم ضد الثروة أو القوة أو أي نعمة أترفوا فيها، حتى لا تكون هي التي تقودهم من دون الله. ورسالات الله جاهدت هذه العلاقة المعكوسة، حيث أرادت للإنسان أن يبقى سيد الخليقة في الأرض، يسخرها لسعادته وكرامته دون ان تكون الطبيعة سيده .

أمّا آفاق العصبية الطبقة، فهي التالية:

أولاً: في الدين والثقافة.

أ- أين ينبغي أن يجعل الله رسالته؟

يزعم المترفون إنما عند الأغنياء، لأن الثروة عندهم هي القيمة الأسمى. ومن هنا قالوا: لماذا الرسول يحتاج إلى السير في الأسواق لتأمين معاشه اليومي؟ قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي

الأسواقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿الفرقان/٧-٨﴾

ب- ولذلك كان المترفون يكفرون بالرسول ، حيث يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (سبأ/٣٤)

ج- وكان عذرهم في الكفر بالرسول، اتباعهم لأبائهم. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف/٢٣)

إن تأكيد القرآن على مبادرة المترفين إلى الكفر بالرسول، يهدينا إلى الصلة الوثيقة بين الترف والغنى، والميل إلى الكفر، وإلى المحافظة على تراث الآباء، وعدم السماح بأية دعوة جديدة تخالفه.

د- ولم يرض المتأثرون بالحمية الطبيعية أن ينزل الله رسالته إلا على رجل عظيم من القرينتين (الطائف ومكة)، يملك ثروة كبيرة. وقد ردهم الله تعالى في كتابه، بأن تقسيم معاش الناس بيد الله الحكيم، الذي أراد أن يتخذ بعضهم بعضا سخرياً، حتى تتحرك عجلة الحياة، ولا علاقة للثروة بالرسالة. قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف/٣١-٣٢)

وفي تفسير هذه الآية الكريمة حديث مفصل، نستمع إليه ملياً لما فيه من بيان حكمة الله البالغة في تفاضل الناس في الثروة، وأنه لا علاقة لذلك بانتخاب الرسول.

فقد روي عن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام، عن أبيه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال له عبد

الله بن أمية المخزومي؛ لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث أجلّ من فيما بيننا مالاً وأحسنه حالاً. فهلا نزل هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وانبعثك به رسولاً على رجل من القرينتين عظيم؛ إما الوليد بن المغيرة بمكة، وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟ فقال صلى الله عليه وآله: أما قولك لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم؛ الوليد بن المغيرة بمكة، أو عروة بالطائف، فإن الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظم أنت، ولا خطر له عنده كما له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة ما سقى كافراً به مخالفاً شربة ماء. وليس قسمة رحمة الله إليك، بل الله القاسم للرحمات، والفاعل لما يشاء في عبده وإمائه. وليس هو عز وجل ممن يخاف أحداً كما تخافه أنت لما له وحاله، فعرفته بالنبوة لذلك، ولا ممن يطمع في أحد في ماله أو حاله كما تطمع أنت فتخصه بالنبوة لذلك، ولا ممن يحب أحداً محبة الهوى كما تحب فيقدم من لا يستحق التقديم، وإنما معاملته بالعدل، فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين وجلاله إلا الأفضل في طاعته والأجد في خدمته، وكذا لا يؤخر في مراتب الدين وجلاله إلا أشدهم تباطئاً عن طاعته. وإذا كان هذا صفته، لم ينظر إلى مال ولا إلى حال، بل هذا المال والحال من تفضله، وليس لأحد إكراهه من عباده عليه ضريبة لازب (١)، فلا يقال له: إذا تفضلت بالمال على عبد فلا بد أن تتفضل عليه بالنبوة أيضاً، لأنه ليس لأحد إكراهه على خلاف مراده؛ ولا إلزامه تفضلاً، لأنه تفضل قبله بنعمة. ألا ترى يا عبد الله كيف أغنى واحداً وقبح صورته، وكيف حسن صورة واحد وأفقره، وكيف شرف واحداً وأفقره، وكيف أغنى واحداً ووضعته؟ ثم ليس لهذا الغني أن يقول: هلا أضيف إلى يساري جمال فلان؟ ولا للجميل أن يقول: هلا أضيف إلى جمالي مال فلان؟ ولا للشريف أن يقول: هلا أضيف إلى شرفي مال فلان؟ ولا للوضيع أن يقول: هلا أضيف إلى مالي شرف فلان؟ ولكن الحكم لله، يقسم كيف يشاء، ويفعل كما يشاء، وهو حكيم في أفعاله، محمود في

(١) الضريبة: الجزية. واللازب: الثابت.

أعماله. وذلك قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال الله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فأحوجنا بعضاً الى بعض؛ أحوج هذا الى مال ذلك، وأحوج ذلك الى سلعة هذا والى خدمته. فترى أجلّ الملوك وأغنى الأغنياء محتاجاً الى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب، أما سلعة معه ليست معه، وإما خدمة يصلح لها يتهبأ لذلك الملك أن يستغنى إلاّ به، وإما باب من العلوم والحكمة هو فقير الى أن يستفيدها من هذا الفقير الذي يحتاج الى مال ذلك الملك الغني، وذلك الملك يحتاج الى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته. ثم ليس للملك أن يقول: هلاّ إجتمعت الى مالي علم هذا الفقير، ولا للفقير أن يقول: هلاّ إجتمعت الى رأبي ومعرفتي وعلمي وما اتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني؟ (١)

هـ- ومن هنا كان تقييم الأغنياء لرسالات الله تعالى تقيماً خاطئاً دعاهم الى الكفر بها، ويضرب الله مثلاً بذلك المترف الذي رمى الرسالة بالسحر، فقال الله سبحانه: ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا * وَمَهَّدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأَرْهُقَهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَكَانَ إِذَٰنَ هَٰذَا لِلسَّحْرِ يُؤْتِرُ * إِنَّ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأَصْلِيهِ سَعَرَ﴾ (المدثر/١٣-٢٦)

و- وعادة كان المترفون يعتذرون الى الرسول من الخروج الى الجهاد، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولَٰئِ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾ (التوبة/٨٦)

ز- والمترفون يزعمون أن نعمة الثروة التي أنعمها الرب عليهم دليل قريهم من الله وسلامة منهجهم، وأن الله ينعم عليهم في الآخرة كما أنعم عليهم في الدنيا، كما قال أحدهم في الحوار الذي قصه ربنا سبحانه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾

(١) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٥٩٧-٥٩٩.

وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿الكهف/٣٥-٣٦﴾

ونستفيد من الآية الكريمة ثلاث علامات لثقافة هذا المترف؛ أولاً: الزعم بدوام النعمة. ثانياً: نفي يوم الجزاء. ثالثاً: الظن بأن الله راضٍ عنه وسيجد عنده منقلباً حسناً.

ولدى التأمل نجد أن هذه العلامات (نفي التغيير، نفي المسؤولية، الرضا عن النفس)، هي جوانب ثقافة الطبقة في كل عصر ومصر. إنهم يحاربون أية فكرة إصلاحية، ويحبذون استمرار النظام القائم ولو كان فاسداً، لأنهم المستفيدون منه. كما أنهم ينفون أية مسؤولية عن أنفسهم، لأن شريعتهم إبخار الثروة بأية طريقة ممكنة، وقد قالت اليهود: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران/٧٥)

وأخيراً؛ لا يؤمنون بدين الفقراء، بل يعتقدون أن الدين الصحيح هو دينهم، وأن الله راضٍ عنه دوماً وأبداً.

ح- وهكذا يصف ربنا سبحانه المترفين (المرابين) بأنهم يشبهون الممسوس، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة/٢٧٥)

كذلك الطبقة أفسدت رؤية المترفين إلى الدين والثقافة، فالدين عندهم يدور حول محور الثروة، وأنه كان حقاً أن يبعث الله رسوله حاملاً كنزاً ولا يحتاج إلى المشي في الأسواق ، بل كان ينبغي أن يختار رجلاً غنياً لرسالته ، بل ترى بعضهم يكفر بالرسالة ويتهمها بالسحر، وكان المترفون يبادرون إلى الكفر بالرسالات الإلهية ويتشبهون بدين آبائهم. أما إذا آمنوا ظاهراً، تراهم يحاولون التهرب من مسؤولية إيمانهم، ويتهربون من الخروج إلى الجهاد.

أما في الثقافة فكانوا يزعمون أن الله يحبهم، وأن ثروتهم دليل سلامة منهجهم، وأن الإستقرار وبقاء الحال ولو كانت ظالمة أفضل من دعوة التغيير، وأنه لا مسؤولية عليهم فيما يفعلون لأن بأيديهم صك الغفران؛ بل وكانت الطبقية قد حجبت المترفين المرابين من وعي سنن الله، فتراهم لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. وهكذا تراهم يقولون إنما البيع مثل الربا، بينما سنة ربنا سبحانه قد قضت على محق الربا وإرباء الصدقات.

ثانياً: في الإقتصاد والمجتمع

وطبقة المترفين يفسدون الإقتصاد والمجتمع. أما الإقتصاد فهم يشيعون الربا والتطيف في المكيال والميزان، ويدلون إلى الحكام لأكل أموال الناس بالباطل. وأما المجتمع فإنهم يفسدون أخلاقه بإشاعة التبرير والإسراف، وإشاعة مظاهر الزينة (والإستهلاك).

١/ الأغنياء المرابون نشروا في الناس أن البيع مثل الربا، فقال سبحانه حكاية عنهم: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة/٢٧٥)

وكانت هذه الثقافة مثلاً لخلط الحق بالباطل، والحلال بالحرام، وإيجاد الشبهات في الناس؛ كل ذلك تمريراً لمشاريعهم الإستغلالية.

٢/ وبيّنت طائفة من اليهود (وهم الذين اشتهروا بالربا)، أنه ما عليهم سبيل فيما يفعلونه بغير اليهود من البشر، فقال الله سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران/٧٥)

وهكذا برّروا الجرائم التي ارتكبوها بحق الناس من غيرهم. ومثل هذه الثقافة يروجها المستكبرون فيما بينهم، لإستغلال البلاد النامية.

٣/ وقارون الذي يضرب به المثل لهذه الطبقة المترفة، خرج على قومه في زينته (لإشاعة ثقافة الإستهلاك)، فإذا بالبسطاء من الناس يتمنون أن يوتوا مثلما أوتي. وقص علينا ربنا قصته لنعبر بها؛ دعنا إذا نتدبر فيها، ونستفيد من كل آية آية منها. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَعَٰئِنَّا مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوتُوا بِالْعُصْبَةِ أُولِيَ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص/٧٦-٧٨)

نستفيد من الآيات البصائر التالية:

أ- إن البغي أخرج قارون من زمرة قوم موسى عليه السلام، ولعل هذا البغي كان وراء ثروته الهائلة.

ب- إنه خرج عن طوره، فلم يعد يتبع أوامر الرسول؛ بل فرح بما آتاه الله، والفرح دليل رضاه من نفسه ومغالاته في الثقة بأفكاره ومناهجه دون الإستماع إلى موعظة الناصحين.

ج- ونصح قومه (المخلصون) بثلاث نصائح لم يعمل بها، وإنما كان يعمل بما يخالفها، نصحوه بأن ينفق ثروته في سبيل الدار الآخرة، بينما أخذ يبذرها على شهوات الدنيا. ونصحوه بالإحسان إلى الناس، فاستأثر بالخيرات لنفسه. ونصحوه بالأبغى الفساد، ولكنه نشر الفساد (ولعله أفسد الإقتصاد بالظلم، وأفسد الناس بالزينة).

د- وطغى قارون إلى درجة زعم أن قوته الذاتية هي التي أوصلته الى هذه الثروة، وكأنه تحدى إرادة الله، دون أن يلتفت الى أن الله قد أهلك من القرون من كان هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً.

ويبدو أن هذه هي صفات الكثير من المترفين الغافلين عن ذكر الله.
٤/ وقال الله سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنِ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص/٢٨-٨٠)

ونستفيد من الآيتين، البصيرتين التاليتين :

أ- إن قارون إستخدم ثروته في إفساد الناس، حيث خرج على الناس في زينته، حتى أثار في الناس الرغبة في الإقتداء به (وانتشرت عندهم ثقافة الترف).

ب- قاوم العلماء بالله هذه الظاهرة الفاسدة، ونشروا في الناس ثقافة الإيمان والعمل الصالح. ومعروف كيف خسف الله بقارون وبداره الأرض، وأنقذ الناس من التأثر به وبثقافة المترفين.

ثالثاً: في السياسة والحكم

يتسلل المترفون في مرحلة متقدمة من إفسادهم في الأرض ليصلوا إلى قمة الهرم في المجتمع ، حيث يهيمنون على السلطة السياسية بشراء ضمائر الحكام أو بتقاسم المصالح معهم، وهناك يعم الفساد. فإذا لم يقم المصلحون ضد هذا الوضع، ينهار المجتمع وينزل العذاب.

١/ يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ (الاسراء/١٦)

فالمترفون هنا أضحوا في رأس السلطة، ولذلك توجه أمر الله المتمثل في الإنذار إليهم. ولكنهم رفضوا أمر الله، فتمت عليهم الحجة، وحق عليهم قول ربنا بعذاب المفسدين بعد إتمام الحجة عليهم، فدمرهم الله تدميراً. والتدمير لم يخص المترفين، بل عمّ الساكنين عنهم من الناس، ولذلك حقت عليهم جميعاً كلمة العذاب.

٢/ ولكن مع وجود طائفة مصلحة بين الناس، قد يؤخر العذاب عنهم، إذ يرجى صلاحهم. هذا ما نستوحيه من قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود/١١٦-١١٧)

هاء: تحدي الإستكبار

أكثر ما سحق كرامة الإنسان عبر التاريخ وحتى اليوم، إستخدام القوة ضد إرادته، والذي يتمثل اليوم في الدول الديكتاتورية (المستبدة) التي تقمع شعوبها، وفي الدول المستكبرة التي تفرض هيمنتها على سائر الشعوب عبر إخضاع الدول الممثلة لها. ولعل النمط الأول يسمى في منطلق القرآن بالطاغوت، بينما يسمى النمط الثاني بالإستكبار. وهما سيان في المحصلة النهائية، إذ إنهما بالتالي يحاولان سحق كرامة البشر وقدراته، وتطويعه بالإرهاب.

ويضع القرآن الكريم شرائع ومناهج لمقاومة كل ألوان الإرهاب، وبيت في روع الإنسان بصائر التحدي والإستقامة حتى النصر. وقد تحدثنا عن ذلك في مناسبة أخرى، وإنما نشير هنا إلى بعض البصائر في ذلك تنميماً للبحث.

١/ الإرهاب قد يستخدم ضد قوم آخرين، كما فعلت عاد، حيث قال الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً

أَوْلَمَ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿فصلت/ ١٥﴾

فهذه عاد كانت قد استكبرت في الأرض، وفرضت سيطرتها على الناس، وبتشت بهم بطش الجبارين.

٢/ وقد يُستخدم الإرهاب ضد المجتمع الذي يحكمه المستكبر نفسه، مثلما فعل فرعون، حيث قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص/ ٤)

٣/ والمستكبرون هم الذين يكفرون برسالات الله؛ أوليست الرسائل تناهض بطشهم، وتجاهد من أجل الإنسان الذي يستضعفونه ويسحقون كرامته؟ قال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (الاعراف/ ٧٥)

ونستفيد من الآية؛ إن المستضعفين هم الذين يسارعون إلى الإيمان بالرسول، ويحاول المستكبرون منعهم من ذلك بشتى الوسائل (بالإرهاب أو بالدعاية).

٤/ وقال الله سبحانه عن قصة النبي شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُوذَنَّ فِي مَلْتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (الاعراف/ ٨٨)

٥/ والله سبحانه يحاسب المستضعف يوم القيامة على طاعته للمستكبر واتباعه له، كما يحاسب المستكبر على بطشه وإرهابه. قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (غافر/ ٤٧-٤٨)

٦/ ذلك أن الله قد أمر عباده بالألّ يعبدوا سواه، ولا يتخذوا من دونه أنداداً، وأمرهم بأن يكفروا بالطاغوت ويجتنبوه، وأمرهم بأن يهاجروا من الأرض التي يستضعفون فيها، وأذن لهم بأن يقاتلوا من يخرجهم من أرضهم، ووعدهم النصر إن هم نصروه. فإذا استرسل الناس مع المستكبر ولم يقاوموه فقد شاركوه في جريمته، وأن الله يجمعهم معه في النار -والعياذ بالله-.

إن كرامة الإنسان أعزّ ما فيه، ولا يجوز لأحد أن يفرط فيها، وإن الله قد منّ على عباده بأن أكرمهم ورفع شأنهم من أن يعبدوا سواه. ولكن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة، فيشركون بالله ما لم ينزل به سلطاناً. هكذا تكلم يوسف الصديق عليه السلام لصاحبيه في السجن. كما جاء في القرآن الحكيم: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (يوسف/٣٨)

كان سجيناً ولكنه كان كريماً، ما خدش كرامته بطش الطاغية، بل ازداد اعتزازاً بربه، وفخراً بعبوديته وحده. وقال الله سبحانه وهو يقص قصته: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف/٤٠)

وهكذا تستطيل كرامة الإنسان في ظل تعاليم الوحي على كل صور الإستلاب والإستغلال، وتتحدى كل من تسول نفسه تحويل البشر إلى أداة طيعة لثروته أو لجاهه أو لقوته أو لدعايته أو لأية قيمة زائفة يتذرّع بها؛ ويبقى الإنسان السوي عبداً لله وحده، لا لأحد سواه.

التعاون

التعاون في الخير قيمة إيمانية بعد الاستقامة بالله العظيم. والواجب هو التعاون على البرّ، كإقامة الصلاة، وبت الدعوة الإسلامية، وخدمة المجتمع.. وعلى التقوى، كحفظ حدود الله في المجتمع، والنهي عن المنكرات. ويحرم التعاون على الإثم، مثل نشر الفساد وإشاعة الحمية الجاهلية، كما يحرم التعاون على العدوان وظلم الآخرين. ويلحق بالبحث التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.

أولاً: معنى التعاون

١/ ضعف البشر عن تحقيق أهدافه يجعله يطلب العون عليها من الآخرين، والمؤمن يستعين بربه في الشدائد. (وحتى عند طلبه العون من العباد، يرى إن العون الحقيقي يأتيه من ربه). قال الله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاحة/٥)

٢/ وقال الله سبحانه: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف/١٨)

٣/ وقد يطلب المؤمن العون من الناس على الخير بعد الاستعانة بالله. وقد طلب الملك الصالح (نو القرنين) من الناس أن يعينوه بقوة، فقال ربنا سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (الكهف/٩٥)

ثانياً: حقائق التعاون

وقد جمع الله سبحانه حقائق التعاون في آية كريمة، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة/٢)

ونستفيد من الآية البصائر التالية:

أ- موقف الانسان من الآخرين قد ينبعث من عواطفه، وهو موقف خاطئ؛ وقد ينطلق من الحق، وهو موقف صحيح. وهكذا نهى الكتاب المؤمنين من أن يدعواهم (حقد قريش عليهم) صدهم عن المسجد الحرام الى الاعتداء، (بل عليهم أن يتمسكوا بالعدالة والتقوى حتى مع العدو).

ب- أمر الله عباده بأن يعين بعضهم بعضاً على البر، وهو كل معروف؛ والتقوى التي هي التمسك بحدود الله، وتتجلى في النهي عن المنكر. وكأن الآية هنا تدعو الى التعاون في الأمر بالمعروف والعمل به، والنهي عن المنكر ومقاومته قولاً وعملاً.

ج- وفي ذات الوقت ينهانا كتاب ربنا من إعانة بعضنا بعضاً على الإثم، وكل منكر؛ كما ينهانا عن التعاون على العدوان وظلم الآخرين، كالاعتداء على أنفسهم أو أعراضهم أو أموالهم.

د- وقد ذكرتنا خاتمة الآية بأن الله شديد العقاب، تحذيراً لمن سولت له نفسه التعاون على الإثم والعدوان.

ثالثاً: التناجي

والتناجي يمهد السبيل الى التعاون. وإذا كان محور التناجي الصدقة والمعروف وطاعة الرسول، كان نافعاً. أما إذا كان محوره الإثم والعدوان ومعصية الرسول، فهو حرام ومنهي عنه. وقد قال ربنا سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ

ثُمَّ يَعُونُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿ (المجادلة/٨-٩)

فقه الآيات

ونتحدث هنا عن فقه آية التعاون وذلك عبر قسمين؛ الأول عن التعاون على البر والتقوى، والثاني عن التعاون على الإثم والعدوان.
أولاً: التعاون على البر والتقوى

في هذا القسم نتحدث عن خمسة جوانب؛ ألف: آفاق التعاون، باء: عقبات التعاون، جيم: سبل التعاون، دال: أخلاق التعاون، هاء: التعاون والتعددية.

ألف: آفاق التعاون

لأن تطلعات المسلمين كأفراد وكأمة، تطلعات سامية جداً، فإن تحقيقها لن يكون إلا بالتعاون. ومن هنا فإن من يدعي أنه يتطلع الى تحقيق هدف كبير ثم يكف يده عن الآخرين، فإنه في ضلال بعيد.

إن أمام الهادفين واحداً من مسلكين؛ فإما أن ترتفع لديهم درجة الاندفاع إليها الى مستوى إكتساح كل الموانع وتجاوز جميع العقبات، ثم المضي قدماً على طريق تحقيقها كما تفعل الكاسحة (البلدوزر). والطريق الثاني تعبيد الطريق الى الأهداف أولاً، وتمهيده بالخطط الرشيدة ثم السير نحوها، كما سيارة شخصية عندما تسير على طريق معبّد، وعندئذ يقطعون مسافات كبيرة بأقل قدر من طاقة الاندفاع.

والحضارات البشرية الكبرى نمت على المسلك الثاني، بينما الاندفاعات العاطفية التي نجدتها عند الجماعات البشرية الأقل تحضراً نجحت بصورة مؤقتة ثم اندثرت (الاجتياح التنري للعالم الشرقي مثلاً).
ومن أبرز وسائل تعبيد طريق التطلعات؛ التعاون. إنه يخفف الحمل ويزيد الحيوية، ويضمن إستقرار العمل وعدم إنهياره أو تلكأه بسبب طرد الضعف عند العاملين. ويجمع شتات القوة، وشتات المعرفة، وشتات الرأسمال؛ يجمعها في وحدة، مما يوفر فرصة القيام بأعمال كبيرة.
من هنا لا بد من تذكر أهدافنا الكبرى عندما نواجه عقبة في أمر التعاون، لنعلم إن تحقيقها لا يكون إلا بهذا التعاون.

باء: عقبات التعاون

كما أن التقوى كلمة واحدة ولكنها تعني نظاماً سلوكياً متكاملًا يشمل حقول الحياة جميعاً، كذلك التعاون كلمة واحدة ولكنها تعني منظومة متكاملة من مناهج العمل، تشمل كافة أبعاد السلوك. فالتعاون هو السبيل الى التقوى. ومن هنا يقول ربنا سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة/٢)
ومن دون فهم هذه الشمولية في معنى التعاون، نقع في أخطاء كثيرة.
كيف؟

قبل بيان ذلك أضرب مثلاً؛ أمام النجار كومة من الاخشاب يريد أن يصنع منها كرسيًا، ماذا يصنع؟ يهيئ الأخشاب، أولاً يقيسها حسب الكرسي المتصور، ثم يقطع الزوائد منها، ويسوي قطعاتها، ويصقل سطوحها الواحدة بعد الأخرى، ثم يجعلها تتداعم حتى تصبح كرسيًا. كذلك البشر قبل أن يتداعموا (ويتعاونوا) لا بد أن تصقل نفوسهم وتسوي، وتصقل لتتنسجم مع بعضها البعض. فكيف تصقل النفوس؟ بالأخلاق والآداب. مثلاً؛ إذا كانت نظراتهم الى بعضهم سلبية نابعة من الحقد والحسد والحمية، لا يستطيعون التعاون. وإذا كان كل واحد يريد أن يأخذ أكثر مما يُعطي، لا يقدر على التعاون.

وهكذا كانت الأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة هي دعامة التعاون. وإنما كانت الأخلاق الحسنة أساس الحضارات، لأن حقيقة الحضارة هي التعاون، والأخلاق شرطه الذي لا بد منه.

والاسلام دين الحضارة، وقد احتوت تعاليمه على منظومة متكاملة من الوصايا الخلقية، حتى روي عن الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله قوله الكريم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". ومن هنا استفاضت النصوص الدينية في الأخلاق.

وكما الأخلاق الحسنة، كذلك الآداب الرفيعة تساهم في تسهيل التعاون. فأدب الزينة والسلام والتهادي، والقول بالذي هو أحسن، وسائر آداب العشرة التي نجدها بوفرة في تعاليم ديننا الحنيف، إنها تشكل أسس التعاون.

وإلى تلك الوصايا الخلقية والتعاليم القيمة في الآداب، نحن بحاجة الى كل خلق فاضل أو أدب رفيع يساهم في تدعيم أسس التعاون، حتى ولو لم نستوحيه من النصوص، لأن التعاون مأمور به، وكل ما يؤدي إليه مأمور به بالتبع.

إن النظر التجزيئي إلى الشريعة الغراء، وبالذات الى الوصايا الأخلاقية فيها جعلنا لا نأبه بطائفة من الأحكام والتعاليم لعدم معرفتنا بمدى أهميتها. ولأن البعض منا يزعم أن الوصايا الأخلاقية ليست واجبة، فإنك تراه يستخف بها. كلا؛ إن كثيراً من الوصايا الخلقية واجبات شرعية مؤكدة.

جيم: سبل التعاون

ما يمهد السبيل الى التعاون نوعان؛ ثابت ومتغير. فالثابت يتمثل في الأخلاق الحسنة والآداب الرفيعة، والمتغير يتمثل في أطر التعاون؛ أي في المؤسسات التي يتم عبرها التعاون، مثل الأحزاب السياسية، والتنظيمات المهنية، والنقابات العمالية، والاتحادات الطلابية، والجمعيات الفلاحية، والشركات الاقتصادية، والتكتلات النيابية، وغيرها. فإن هذه الأطر ضرورية لتعاون مجموعة من الناس، ولا بد منها إذا أردنا أن يبدء وأن يستمر التعاون.

ولا يجوز لمن يريد التعاون أن يدع الاهتمام بها، وإلا فإن ارادته تمنّي وكلامه عبث. وهنا تكمن مشكلة بلادنا؛ إننا ندعي الاهتمام بالتعاون، ولكننا لا نهتم بما يحققه من الأثر المؤدية إليه.

وأطر التعاون تختلف من عصر لعصر، ومن منطقة لأخرى، ومن فرد لآخر. فعلىنا أن نعصر أدمغتنا عصراً، حتى نعرف أفضل إطار للتعاون بالنسبة لكل فرد منا، والله المستعان.

دال: أخلاق التعاون

بالرغم من أهمية كل السلوكيات الخلقية وآداب العشرة في تحقيق التعاون، إلا إن بعضاً منها يؤدي دوراً أساسياً فيه، حيث أن ضعف الاهتمام به يمثل عقدة التعاون في بلادنا، وهي التالية:

أ- الاهتمام بالقيادة كقيمة حضارية أساسية. وبالرغم من أن الدين الإسلامي - وبالذات حسب بصائر أهل البيت عليهم السلام - قد أولى اهتماماً بالغاً بأمر القيادة، إلا أن التخلف الحضاري والهزيمة النفسية عند كثير من أبناء الأمة، جعل القيادة أقرب إلى حالة رمزية منها إلى قيادة فعلية ذات أثر واقعي. وإذا أردنا تفعيل قيمة التعاون في الأمة، فعلىنا أن نفعل فيها قيمة القيادة، وجعلها أقرب إلى الواقع منها إلى الرمز.

ب- وضعف الاهتمام بالمناهج الإدارية الأكثر فاعلية وإنتاجية، مسؤول هو الآخر عن تراجع الاهتمام بالتعاون، حيث إنك تجد أن الأعمال التي يقوم بها الفرد أكثر نجاحاً من تلك التي يتبناها مجموعة (لجنة - مجلس الشورى - مؤسسة.. وهكذا) مما ينعكس سلباً على التعاون. وهكذا يفضّل الناس العمل الفردي على العمل الجمعي، والسر يكمن في ضعف الأساليب الإدارية. والدول المتقدمة تولي الإدارة أهمية قصوى، لأنها عرفت مدى أهميتها في تطوير العمل الجمعي، الذي هو السبيل الوحيد للتقدم.

ج- الانتظام قيمة حضارية، وهو الذي يجعل القرار القيادي أو الإداري يؤدي دوره في تفعيل التعاون. والانتظام روح قبل أن يكون سلوكاً، لأنه إذا

كان الفرد يخضع للقرارات من دون قناعة كافية بها، فإن عمله يكون ناقصاً وربما فاشلاً، لأنه سوف لا يتقنه. وروح الانتظام هي التي نفتقر إليها اليوم ومع الأسف، مما يضعف حالة التعاون فيما بيننا.

د- ولعل كل هذه الأمور تنشأ أساساً من ضعف الاهتمام بالعمل المنظم القائم على أساس خطة واضحة. ذلك لأن الانسان المتخلف يُعاني من الفوضى في قراراته، والاعتماد على ردود الأفعال، والاندفاع العاطفي..

هاء: التعاون والتعددية

التعاون لا يعني الانصهار القسري لكل القوى في بوتقة واحدة، إذ لو كان الأمر كذلك، لم يكن هناك طرفان حتى يتعاون طرف مع الثاني. إنما التعاون يعني وجود طرفين، أو أطراف ذات استقلال (أفراد أو تجمعات أو شعوب)؛ وقد تكون متنافسة، ولكنها لن تكون متصارعة الى درجة نفي طرف للآخر أو إضعافه أو الحد من سرعته، بل يعني وحدة الاستراتيجية في ظل تعدد المنهج، بل وتنافس العاملين وتسابقهم الى الخيرات. وهذا ما نتحدث عنه إن شاء الله لاحقاً.

ثانياً: التعاون على الإثم والعدوان

أما التعاون على العدوان وعلى الإثم فهما محرمان، وأما النفع العائد الى الانسان منهما فهو سحت. وفي هذا الموضوع الهام الذي ابتلي به المؤمنون على إمتداد التاريخ فصل بانن الله الحديث في محورين رئيسيين، نبحت في الأول في التعاون على العدوان، وفي الثاني في التعاون على الإثم.

ألف: التعاون على العدوان

وفيه ثلاثة بحوث رئيسية؛ الأول: حول إعانة العدو الكافر. الثاني: إعانة الظالم الحاكم في بلاد المسلمين وحكم اجتنابه. الثالث: إعانة المجرم في عدوانه.

البحث الأول: إغانة العدو الكافر

قال المحقق الحلي في الشرائع: "و (يحرم) ما يفضي الى المساعدة على محرم كبيع السلاح لأعداء الدين". وقال العلامة النجفي في شرحه: مع قصد الاعانة أو كانت الحرب قائمة للنهي عن الاغاثة. (١) ولقول الصادق عليه السلام في خبر السراد أو مرسله في جواب سؤاله عن بيع السلاح "لا تبعه في فتنة". (٢)

وأضاف: وما في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام في خبر حماد بن أنس: يا علي كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة: ... "إلى أن قال:" وبيع السلاح من أهل الحرب". (٣)

ثم استفاد العلامة النجفي من الآية شمول الحرمة لموارد أخرى، فقال: فلا فرق حينئذ بين السلاح وغيره فيما يحصل به التعاون، ولا بين المشركين وغيرهم، ولا بين حال الهدنة وغيرها. كما لا يخفى على من له أدنى نظر وتأمل. وعلى كل حال فقد ظهر لك أنه لا حرمة فيما لا تعاون فيه، ولا هو مندرج في إطلاق النصوص المزبورة كبيع السلاح وغيره عليهم في حال الهدنة مع عدم القصد. (٤)

ويشمل العون التجسس لمصلحة الكافر، والدعاية له في ظروف الحرب، وإمداده بالمال أو بالطعام أو بأية خدمة في أيام الحرب أو في أيام الهدنة التي تنتهي الى الحرب.

بل يلحق بذلك أي نوع من العون يقدم للكافر، ويؤدي الى إستغلاله في الأرض وغلبته على المسلمين، بل وعلى المستضعفين، فهو مخالف لروح الشريعة. خصوصاً إذا صدق عليه التعاون على العدوان، فإنه محرّم بنص الآية الشريفة.

(١) أي للآية التي نهت عن الاعانة على العدوان.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢، الباب ٨ من أبواب ما يكتسب به، ح ٤.

(٣) المصدر، ح ٧.

(٤) جواهر الكلام، ج ٨، ص ١٨-١٩ (طبعة بيروت).

وقد أجاز بعضهم بيع السلاح على الكفار إذا تقاتلوا فيما بينهم، حيث قال: فقد ظهر لك أنه لا حرمة فيما لا تعاون فيه، ولا هو مندرج في إطلاق النصوص المزبورة كبيع السلاح وغيره عليهم في حال الهدنة مع عدم القصد، وفي حال الحرب بينهم ولو مع قصد إعانة بعضهم على بعض. (١) وهذا القول بعيد عن روح الشريعة التي نزلت رحمة للعالمين، ودعت إلى السلم والحياة، وحرّمت القتل بغير حق، ونهت عن الفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، وبالذات إذا صدق عليه التعاون على العدوان. نعم؛ بيع السلاح والمؤمن للدفاع عن النفس أو الدفاع عن حرّيات المسلمين جائز ولو كان للظالم. وقد ورد في الحديث ما يلي:

عن هند السراج قال: قلت لأبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام: أصلحك الله؛ إني كنت أحمل السلاح إلى أهل الشام فأبيعه منهم، فلمّا عرفني الله هذا الأمر ضقت بذلك وقلت: لا أحمل إلى أعداء الله. فقال لي: إحمل إليهم وبيعهم، فإن الله يدفع بهم عدونا وعدوكم يعني الروم، وبعه، فإذا كانت الحرب بيننا فلا تحملوا، فمن حمل إلى عدونا سلاحاً يستعينون به علينا فهو مشرك". (٢)

البحث الثاني: إعانة الظالم

والإعانة على أقسام:

أولاً: تولي المناصب للظالم

وتحرم إعانة الظالم بالدخول في جهازه العسكري والسياسي والاداري، إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك؛ كما إذا كانت الولاية للظالم والتعاون معه مقدمة لأمر شرعي أهم، مثل إقامة القسط والعدل وإعانة الملهوف والمستضعف. ومن هنا قال المحقق الحلي: الولاية من قبل السلطان العادل جائزة، وربما وجبت كما إذا عينه إمام الأصل، أو لم يمكن دفع المنكر أو الأمر بالمعروف إلا بها. وتحرم

(١) المصدر، ص ١٩.

(٢) الوسائل، ج ١٢، الباب ٨ من أبواب ما يكتسب به، ح ٢.

من قبل الجائر، إذا لم يأمن إعتقاد ما يحرم. ولو أمن ذلك، وقدر على الأمر بالمعروف (والنهي عن المنكر) استحبت، ولو أكره جاز له الدخول دفعاً للضرر اليسير على كراهية، وتزول الكراهية لدفع الضرر الكثير؛ كالنفس أو المال أو الخوف على بعض المؤمنين. (١)

وقد فصل العلامة النجفي القول في أمر الولاية للجائر، ونقل عن السيد الطباطبائي حرمتها بالأصل، وإنما تجوز لدليل خاص مثل حرمة الميتة إلا للمضطر.

ونقل عن كتاب المنتهى للعلامة وعن فقه القرآن للراوندي: إن تقليد الأمر من قبل الجائر جائز إذا تمكن من إيصال الحق لمستحقه بالاجماع المتردد والسنة الصحيحة وقوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف/٥٥)، مضافاً الى ظهور جملة وافرة من النصوص في الجواز.

وحكى عن بعض الفقهاء من متأخري المتأخرين التفصيل في أمر الولاية للجائر، فإذا كان قبولها للرئاسة وجمع المال فممنوعة، وإذا كان ذلك بهدف قضاء حوائج المؤمنين وفعل بعض الطاعات جازت، حتى ولو كان دافع حب الرئاسة وجمع المال موجوداً لدى الشخص فهو من باب خلط العمل الصالح بالعمل السيئ.

أما العلامة النجفي فقد حمل نصوص المنع من تولي الجائر على الولاية على المحرمات، أو الممزوجة بالحرام والحلال. ونصوص الجواز على الولاية على المباح كجباية الخراج ونحوه. واعتبر جواز ذلك رافة بحال المؤمنين، ورفقاً للضيق والحرَج في هذا الزمان ونحوه من أزمنة التقية. (٢)

والذي دعا الفقهاء الى تبني آراء تفصل بين أنواع الولاية وظروفها المختلفة، إنما هو اختلاف الروايات التي سنذكر باذن الله سبحانه بعضاً منها.

(١) راجع جواهر الكلام، ج٨، ص٨١-٨٦.

(٢) جواهر الكلام، ج٨، ص٨٣-٨٤، بتصريف منا في توضيح وتشذيب بعض العبارات.

فمنهم من جعل إجازة الولاية للجائر أصلاً، بينما جعل المنع منها بسبب إشتغالها على الحرام. ومنهم من جعل الحرمة أصلاً، والإجازة للضرورة أو لتسهيل الأمر على الشيعة في ظروف التقية..

ويبدو لي أن علينا ردّ الروايات عند تشابهها واختلافها؛ ردها إلى محكمات القرآن المجيد والسنة الشريفة. وكتاب ربنا صرّح في حرمة التعاون على الإثم والعُدوان، وولاية الجائر بذاتها عدوان، فكيف يجوز إعانته فيها، وأية إعانة أكبر من الانخراط في أجهزته؟ على أننا أمرنا بنص الذكر الحكيم بتجنب الطاغوت وحرمة التحاكم إليه، فكيف يجوز تولي أموره؟ وقد أفتى الفقهاء جميعاً، ومنهم المحقق الحلي على حرمة التحاكم إلى الجائر (الطاغوت)، وحكى العلامة النجفي الإجماع على ذلك، بل واعتبره من كبائر الذنوب كما يأتي الحديث عنه إن شاء الله لاحقاً.

فكيف يكون الأصل جواز الولاية لهم؟..

من هنا نرى أن الأصل هو حرمة تولي المناصب من قبل الجائر، إلاّ لضرورة بالغة أو لظروف التقية. والدليل على ذلك أنه إعانة على ظلمه، ومخالفة لاجتناب الطاغوت، وقد بيّن الإمام الصادق عليه السلام حكمة هذه الحرمة الشديدة في الحديث المأثور عنه في كتاب تحف العقول. إذ بيّن أن الولاية ذات جهتين؛ فولاية الحاكم العادل جائزة، ثم قال: وأما وجه الحرام من الولاية، فولاية الوالي الجائر، وولاية ولاته والعمل لهم والكسب لهم بجهة الولاية معهم حرام محرّم معذب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير، لأن كل شيء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر.

وذلك أن في ولاية والي الجائر دروس الحق كله، وإحياء الباطل كله، وإظهار الظلم والجور والفساد، وإبطال الكتب، وقتل الأنبياء، وهدم المساجد، وتبديل سنة الله وشرائعه.. فلذلك حرم العمل معهم ومعونتهم، والكسب معهم إلاّ بجهة الضرورة، نظير الضرورة إلى الدم والميتة". (١)

(١) كتاب المكاسب للشيخ الانصاري قدس سره، ج ١، ص ٣٦.

وجاء في حديث آخر عن أبي بصير قال: سألت أبا جعفر (الإمام الباقر) عليه السلام عن أعمالهم، فقال لي: يا أبا محمد لا، ولا مدة قلم. إن أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينه مثله. (١)

فاذاً الولاية للجائر بذاتها محرمة، إلا إذا اقتضت الضرورة فتجوز، مثل أن يكره الفرد عليها في ظروف الهدنة، أو يرى الفقيه أن الانخراط في سلوكهم ينفع الأمة، فتجوز، وعليها تحمل الأحاديث التالية:

عن زياد بن أبي سلمة قال: دخلت على أبي الحسن موسى (الإمام الكاظم) عليه السلام، فقال لي: يا زياد؛ إنك لتعمل عمل السلطان؟ قال: قلت: أجل. قال لي: ولم؟ قلت أنا رجل لي مروّة، وعليّ عيال، وليس وراء ظهري شيء. فقال لي: يا زياد لئن أسقط من حالك فأتقطع قطعة قطعة أحب إليّ من أن أتولى لأحد منهم عملاً، أو أطأ بساط رجل منهم إلا لماذا؟ قلت: لا أري جعلت فداك. قال: إلا لتفريج كربة عن مؤمن، أو فك أسره، أو قضاء دينه. يا زياد؛ إنّ أهون ما يصنع الله جلّ وعزّ بمن تولّى لهم عملاً أن يضرب عليه سراق من نار إلى أن يفرغ "الله" من حساب الخلائق "الخلق". يا زياد؛ فإن وليت شيئاً من أعمالهم فأحسن إلى إخوانك، فواحدة بواحدة، والله من وراء ذلك. يا زياد؛ أيما رجل منكم تولّى لأحد منهم عملاً ثم ساوى بينكم وبينه، فقولوا له: أنت منتحل كذاب. يا زياد؛ إذا ذكرت مقدرتك على الناس، فاذكر مقدرة الله عليك غداً، ونفاد ما أتيت إليهم عنهم، وبقاء ما أتيت إليهم عليك. (٢)

وخالق اسم جبل حسبما جاء في تعليقة العلامة النجفي. والحديث واضح في بيان أن القاعدة الأولية حرمة الولاية للظالم، وإنما الحلية إستثناء. وجاء في حديث آخر عن اسماعيل بن بزيع عن الامام الرضا عليه السلام: إن الله

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٢٩، الباب ٤٢ من أبواب ما يكتسب به، ح ٥.

(٢) المصدر، ص ١٤٠، الباب ٤٦ من أبواب ما يكتسب به، ح ٩.

تعالى بأبواب الظلمة من نور الله به البرهان. ومكّن له في البلاد ليدفع عن أوليائه، ويصلح الله تعالى به أمور المسلمين، لأنهم صلحاء المؤمنين. (١) أما في عصر الهدنة، فإذا رأى الفقيه أن الأولوية في التداخل مع أئمة الجور لعدم إمكانية إزالتهم، ومن ثم العمل من خلال قدرات السلطة لاقامة القسط وإغاثة الملهوف والدفاع عن بيضة الاسلام وما أشبه، فإنه جائز، بل وقد يكون واجباً إذا كانت الأهداف ضرورية، وإذا أمر الفقيه شخصاً معيناً لذلك. وقد طلب النبي يوسف الصديق عليه السلام من عزيز مصر أن يجعله عن خزائن الأرض، فبذلك تمكن من الأرض. وقد قبل الإمام الرضا عليه السلام ولاية عهد الخليفة العباسي المأمون، حينما رأى مصلحة الدين والمسلمين في ذلك.

وهذه المسائل من متغيرات أحكام الشريعة، التي نحتاج فيها إلى رأي الفقيه بعد مشاورة الخبراء . والله المستعان.

ثانياً: إعانة الظالم بالسلاح والمؤن

والقاعدة في إعانة الظالم الحرمة، لأنها من حقائق التعاون على الإثم والعدوان. والاستثناء هو الحلية، إذا كانت هذه الإعانة تخدم مصالح الأمة الأهم. وفي ذلك نقرأ الحديث التالي:

عن هند السراج قال: قلت لأبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام: أصلحك الله إنني كنت أحمل السلاح إلى أهل الشام فأبيعه منهم، فلما عرفني الله هذا الأمر ضقت بذلك، وقلت: لا أحمل إلى إعداء الله. فقال لي: إحمل إليهم وبعهم، فإن الله يدفع بهم عدونا وعدوكم يعني الروم. وبعه فإذا كانت الحرب بيننا، فلا تحملوا. فمن حمل إلى عدونا سلاحاً يستعينون به علينا، فهو مشرك. (٢)

نستفيد من الحديث جواز بيع السلاح للدفاع عن حرمان الأمة. والحديث التالي يستثني حالة الهدنة مع النظام الجائر، فيقول: عن أبي بكر الحضرمي

(١) جواهر الكلام، ج٨، ص٨٤، عن جامع الرواة، ج٢، ص٦٩.

(٢) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٦٩-٧٠، الباب ٨ من أبواب ما يكتب به، ج٢.

قال: دخلنا على أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام، فقال له حكم السراج: ما تقول فيمن يحمل الى الشام السروج وأداتها؟ فقال: لا بأس، أنتم اليوم بمنزلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، إنكم في هدنة، فإذا كانت المباينة حرم عليكم أن تحملوا إليهم السروج والسلاح. (١)

وعلينا في كل معاملة تجارية سواءً في بيع الأسلحة أو العتاد أو المؤن أو كل ما يخدم بقاء الظالم ويقوي كيانه، علينا أن نرجع فيه الى محكمات القرآن والحديث. فمن القرآن الآية الكريمة التي نصت على حرمة التعاون على الإثم والعدوان، ومن الحديث ما جاء في رواية الامام الصادق عليه السلام المأثورة في كتاب تحف العقول من حرمة ما فيه الفساد، حيث قال: وأما وجوه الحرام من البيع والشراء، فكل أمر يكون فيه الفساد مما هو منهي عنه من جهة أكله وشربه أو كسبه أو نكاحه أو ملكه.. (إلى أن قال عليه السلام) فهذا كله حرام محرم. (٢)

وفي تفسير الإجازات المحطلة، إستثنى الإمام إجارة من يكون وكيلاً للوالي أو والياً للوالي. (٣)

وهكذا نعرف أن الأصل هو مقاطعة الظالم، واجتنابه واجتناب التحاكم إليه أو التعامل معه حسبما يأتي تفصيله إن شاء الله تعالى، وإنما يحل ذلك بصورة استثنائية..

ثالثاً: إجتنب الطاغوت

وقد أمرنا الرب سبحانه باجتنب الطاغوت. والطاغوت هو الشخص الذي يتجاوز حده، ويتولى الناس بالقوة، ويحرم ما أحل الله، ويحلل ما حرّم الله، ويطاع من دون إذن الله سبحانه. واجتنابه يعني عدة حقائق:

(١) المصدر، ص ٦٩، ح ١.

(٢) كتاب المكاسب للشيخ الانصاري قدس سره، ج ١، ص ٣٧.

(٣) المصدر، ص ٣٩.

١ / عدم الاستماع إليه، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَبَابِ﴾ (الزمر/١٧-١٨)

٢ / ويشمل اجتناب الطاغوت؛ ترك التحاكم إليه، وعدم جعله قاضياً في المنازعات. قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء/٦٠)

واعتبر الفقهاء التحاكم الى الطاغوت منكراً ومن الكبائر. قال المحقق الحلي قدس الله سره: ولو امتنع (الخصم عن التحاكم الى قاضي العدل) وأثر المضي الى قضاة الجور، كان مرتكباً للمنكر. وشرح العلامة النجفي هذا القول بما يلي: لأن ذلك كبيرة عندنا كما في المسالك، وقد عرفت وجوب النهي عن المنكر على الناس كفاية. وقال الإمام الصادق عليه السلام: أيما مؤمن قدم مؤمناً في خصومة الى قاض أو سلطان جائر ففضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم. (١)

وفي حديث آخر عن عمر بن حنظلة قال: سألت أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث، فتحاكما الى السلطان أو الى القضاة، أيحل ذلك؟ فقال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى طاغوت. وما يحكم له، فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً، لأنه أخذه بحكم الطاغوت، وقد أمر الله أن يكفر به. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾. (٢)

(١) وسائل الشيعة، ج١٨، ص٢، الباب ١ من أبواب صفات القاضي، ح١.
(٢) المصدر، ح٤.

ثم قال العلامة النجفي: الى غير ذلك من النصوص المعتضدة بالاجماع بقسميه. (١)

٣/ ومن أظهر حقائق عون الظالم، الادلاء إليه، لأكل أموال الناس بالباطل؛ والاستقواء به على الناس، بهدف السيطرة عليهم واستلاب حرياتهم. قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/١٨٨)

٤/ ويبدو أن من مظاهر اجتناب الطاغوت؛ ترك العمل بعاداته وتقاليده وشعائره أنى استطاع المؤمنون سبيلاً. ذلك أن البشر قد جبل على إحترام القوي، والتأثر به، وتقليده في أموره. واجتنابه يشمل – فيما يشمل – مقاطعته من جميع النواحي، ومقاومة كل ما يمت إليه بصلة، والاستعانة بالله عليه لطرده والقضاء عليه. مثلاً كان طغاة بني العباس قد اتخذوا اللون الأسود شعاراً لهم، فوردت أحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بكرهية هذا اللون، حسب تفسير الفقهاء لعلة الكراهة. كما أن التشبه بالكفار يعتبر من المحرمات الشرعية..

٥/ ومن حقائق اجتناب الطاغوت؛ تجنب الدفاع عنه، وتبرير أفعاله الارهابية، وتجنب إرضاءه بما يسخط الرب، حيث جاء في الحديث الشريف: من أَرْضَى سُلْطَانًا جَائِرًا بسخط الله خرج من دين الله. (٢) وجاء في حديث آخر: لا دين لمن دان بطاعة المخلوق في معصية الخالق. (٣)

رابعاً: إعانة المعتدي

وتشمل الآية الكريمة حرمة إعانة المعتدي من الناس؛ مثل إعانة المحاربيين لله وللرسول، والمفسدين في الأرض، وإعانة عصابات التهريب

(١) جواهر الكلام، ج٧، ص٦٩٩. ومراده أن إجماع الطائفة قائم على حرمة التحاكم الى الطاغوت، إجماعاً محكياً وإجماعاً محصلاً عرفناه بأنفسنا من خلال التتبع والاستقراء.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٣٩٣، ح٥.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٣٩٣، ح٦.

للاسلحة والمواد المخدرة، وإعانة المجرم على قتل أحد أو جرحه أو انتهاك حرمة من حرماته. وفيما يلي نتحدث بإيجاز عن هذه المفردات باذن الله.

١/ إعانة المحاربين والمفسدين

وتشمل كلمة المحارب، الذين يستخدمون السلاح في المجتمع، من أجل مطامح ذاتية، ويخرجون على القانون الشرعي. أما المفسد في الأرض فيشمل أيضاً العصابات التي تنتشر الفساد السياسي أو الأخلاقي أو الإقتصادي. وكل هؤلاء معتدون، والتعاون معهم يكون من حقائق التعاون على الإثم والعدوان. أما الأحكام الجزائية، فسوف نتعرض لها لاحقاً إن شاء الله.

٢/ إعانة المجرمين

فلا يجوز أن يُعان القاتل في قتله بتوفير السلاح له، أو كشف مخبأ الضحية، أو إيوائه المجرم قبل أو بعد ارتكابه فعلته. كما لا يجوز إعانة السارق بفتح الأبواب له، والدلالة على مواقع المال أو إيوائه. ولا يجوز كذلك إيواء الجناة الذين يتعرضون لأعراض الناس، أو أموالهم بأيّة صورة.

وقد تناول الفقه والقانون قضية التعاون في الجريمة بصورة مفصلة، وأوضحت أحكام الشرع كما القانون الكثير من غوامض الفروع المتشابهة في هذا الحقل، مما جعلنا نستفيد منها في سائر الموارد المماثلة كالتعاون مع المحاربين، والمفسدين. وهكذا أرجأنا الحديث عن الجانب الجزائي إلى هذا البحث الذي نقسمه الى نقاط:

أ- يفرق القانون بين المشاركة في الجريمة، وبين المعاونة عليها. فالمشارك تشمله أحكام الجريمة وعقوباتها بالكامل، بينما المعاون لا تشمله. والجريمة التي يضرب بها المثل هنا هي جريمة القتل. فما هي المشاركة في مثل جريمة القتل؟ فيها شروط؛ أولاً: المشاركة بين اثنين أو أكثر في ايراد الضربات المنتهية الى القتل. ثانياً: لا بد أن يكون فعل المشاركين في الجريمة جزءاً من أسباب القتل العينية (المادية). ثالثاً: لا بد أن يشاركوا جميعاً في نية

ارتكاب الجريمة (كالقتل). رابعاً: يشترط عدم تحديد المباشر الأصلي للقتل.
(١)

ويرى مؤلف الموسوعة الجنائية أن للاشتراك ركنين أساسيين؛ (واحد) اتفاق سابق على ارتكاب الجريمة، (اثنين) جريمة تنفذ أو يبدأ في تنفيذها في تلك الظروف من (قبل) عدة أشخاص. ويضرب مثلاً بأنه إذا اتفق جماعة وترصدوا لشخص وضربوه ضرباً أفضى إلى موته، فلا وجه لتقسيم (العمل) الصادر منهم إلى ضرب أفضى إلى الموت لا يتحمل مسؤوليته إلا من أوقع الضربة القاضية فقط، وضرب بسيط يشترك في المسؤولية عنه بقية المتهمين، لأن تقسيم الضرب إلى عدة جرائم باعتبار عدد الفاعلين إنما يصح في الأحوال التي لم يكن بينهم فيها واسطة اتحاد في القصد وتعاون على الفعل. (٢)

أما في الفقه فقد قال المحقق الحلي: لو شهد اثنان بما يوجب قتلاً كالقصاص، أو شهد أربعة بما يوجب رجماً كالزنا، وثبت أنهم شهدوا زوراً بعد الاستيفاء (٣) لم يضمن الحاكم، ولا الحداد (٤) وكان القود على الشهود.
(٥)

وروى مسمع عن الامام الصادق عليه السلام: أن أمير المؤمنين عليه السلام قضى في أربعة شهدوا على رجل أنهم رأوه مع امرأة يجامعها فيرجم،

(١) القانون يفصل في كل شرط من هذه الشروط، ولكننا نكتفي ببيان العناوين للإيجاز. راجع للمزيد من التفاصيل كتاب (حقوق جزاي اختصاصي) (بالفارسية) ج ٢، لمؤلفه محمد صالح وليدي الطبعة الخامسة، دار نشر أمير كبير - طهران لعام ١٩٩٧م، ص ٨٤-٨٩. وراجع أيضاً الموسوعة الجنائية تأليف جندي عبد الملك بك، ج ١، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة لعام ١٩٣١م ص ٦٧٧ فما بعد.

(٢) الموسوعة الجنائية، ص ٦٧٨.

(٣) بعد أن قتل المشهود عليه.

(٤) أي الذين باشر بقتل من شهدوا عليه.

(٥) وهكذا اعتبر جميع الشهود مجرمين لاشتراكهم في سبب القتل. جواهر الكلام، ج ١٥، ص ٣٥.

ثم رجع واحد منهم. قال: يغرم ربع الدية إذا قال: شبه عليّ. فإن رجع اثنان وقالوا: شبه علينا، غرما نصف الدية. وإن رجعوا وقالوا: شبه علينا، غرموا الدية. وإن قالوا: شهدنا بالزور، قتلوا جميعاً. (١)

ويبدو أن الفقه قد أرجع مسألة المشاركة إلى العرف بالرغم من اختلاف الموارد فيها، مما يستدعي رأي القضاء. إلا أن ما نجده في القوانين الحديثة من شروط المشاركة وأهمها النية السابقة، يعتبر مادة مناسبة لاستكشاف رأي العرف منها. وجميع هذه الموارد تشملها آية التعاون، إذ أنها تتسع لمعنى تقديم العون إلى درجة المشاركة (وهو المعنى الظاهر فيها)، كما تتسع لمعنى تقديم عون ما (وهو المعنى الذي يظهر بالتأمل في الآية).

ب- المساعدة

والمساعدة في الجريمة تتحقق في رأي فقهاء القانون بما يلي: أن تكون هناك جريمة أصلية معاقب عليها، وأن يكون لدى الشريك قصد الاشتراك في الجريمة، وأن يقع الاشتراك بإحدى الطرق المبينة في المادة ٤٤ وهي التحريض والاتفاق والمساعدة. (٢)

وقد أوضح المؤلف شرط وقوع الجريمة، ثم قال: والقصد الجنائي في الاشتراك المعاقب عليه يتكون من عنصرين؛ العلم والارادة. فيشترط أن يكون المتهم عالماً بأن العمل الذي يشترك فيه هو جريمة، وأن يكون قاصداً المعاونة فيه بعمل شخصي من جانبه. (٣)

أما في الفقه الإسلامي فعادة ما يوضح مثل هذه الأمور بالأمثال، ومن هنا فقد قال المحقق الحلبي: لو حفر واحد بئراً، فوقع آخر (فيها) بدفع ثالث، فالقاتل الدافع دون الحافر. وكذا لو ألقاه من شاهق، فاعترضه آخر (بالسيف) فقده نصفين قبل وصوله الأرض، فالقاتل هو المعترض. ولو أمسك واحد وقتل

(١) وسائل الشريعة، ج ١٩، الباب ٦٤ من ابواب القصاص في النفس، ح ١.

(٢) الموسوعة الجنائية، ص ٦٩٥.

(٣) المصدر، ص ٦٩٨.

آخر، فالقود على القاتل دون الممسك، لكن الممسك يحبس أبداً. ولو نظر إليهما ثالث (١)، لم يضمن ولكن تُسمل عيناه، أي تقفأ. (٢) وقد استدل على الحكمين الأخيرين بما حكاه السكوني عن الامام الصادق عليه السلام: أن ثلاثة نفر رفعوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام؛ واحد منهم أمسك رجلاً، وأقبل الآخر فقتله، والآخر يراهم. ففضى في [صاحب] الرؤية أن تسمل عيناه، وفي الذي أمسك أن يسجن حتى يموت كما أمسكه، وقضى في الذي قتل أن يقتل. (٣)

ولعل هذا القضاء كان بسبب عدم ثبوت المشاركة بقصد الجريمة مسبقاً، وإنما كان القاتل هو القاصد بينما الآخرون كانوا مساعدين له ومعاونين معه.. وقد فصل القانون بحث المساعدة، حيث تنص المادة ٤/٤٠ على أنه يعد شريكاً في الجريمة (أولاً) كل من حرّض على ارتكاب الفعل المكوّن للجريمة، إذا كان هذا الفعل قد وقع بناءً على هذا التحريض. (ثانياً) من اتفق مع غيره على ارتكاب الجريمة، فوقع بناءً على هذا الاتفاق. (ثالثاً) من أعطى للفاعل أو الفاعلين سلاحاً أو أي شيء آخر مما استعمل في ارتكاب الجريمة مع علمه بها أو ساعدهم بأي طريقة أخرى في الأعمال المجهزة أو المسهلة المتممة لارتكابها. (٤)

ويقسم القانون التحريض على نوعين: فردي وعمومي. ويعتبر التحريض العمومي جريمة بحد ذاته إذا كان مخللاً بالأمن العام. والمساعدة قد تتم قبل الجريمة أو عندها أو بعدها. ومن أمثلة المساعدة السابقة؛ إعطاء المجرم إرشادات لارتكابها، وإعطاءه السلاح والمؤنة، وتوفير مكان مناسب لايقاع الجريمة.. وهكذا اعطاءه أية تسهيلات لايقاع الجريمة. أما المساعدة عند وقوع الجريمة، فهي التي لا ترقى الى مستوى المشاركة.

(١) يبدو أنه كان عيناً لهم.

(٢) جواهر الكلام، ج ١٥، ص ٢٩.

(٣) وسائل الشريعة، ج ١٩، ص ٣٥، الباب ١٧ من أبواب القصاص في النفس، ح ٣.

(٤) الموسوعة الجنائية، ص ٧٠٣.

مثلاً؛ في جريمة السرقة من يراقب الطريق يعتبر مساعداً للمجرم، أما من يكسر الباب فإنه أكثر من مجرد مساعد، بل شريك في الجريمة. (١)
أما المساعدة اللاحقة فكان القانون سابقاً يعتبر إخفاء المجرم منها، ولكن القانون المعاصر يرى إخفاء المجرم جرماً بذاته. (٢)
وكلمة أخيرة؛ إن المعيار في الفقه الإسلامي تحقق التعاون على العدوان في إثبات الحرمة. أما تحول ذلك إلى مستوى الجريمة، فإن ذلك يخضع لمتغيرات كثيرة. ومعرفة القانون الحديث في هذا الحقل تساهم في بلورة فهمنا للآية على ضوء الفهم العرفي لها، لأننا نستفيد من القانون باعتباره جزءاً من العرف. مضافاً إلى أن مراجعة القانون في أبعاد المساعدة على العدوان تنفعنا في شفافية رؤيتنا في موضوع المساعدة على الإثم. بالرغم من أن القانون لم يفصل الكلام فيها، لأن المساعدة هي المساعدة سواء كانت على الإثم أو على العدوان.

باء: المساعدة على الإثم

والتعاون على الإثم قد يتحقق بتوافق شخصين أو أكثر على فعل محرم، وقد يتحقق بمساعدة شخص لمن يرتكب إثماً عالمياً عامداً.
والقسم الأول منهي عنه، لأنه يدل على هبوط مستوى الأمة إلى درجة إنهم يرتكبون الإثم بلا وازع من ضمير أو حياء، حيث تراهم يتوافقون عليه.
وأما القسم الثاني؛ فهو الذي نتحدث عنه لاحقاً لكثرة موارد، ولعل بعضاً منها يعتبر غامضاً وبحاجة إلى بلورة.
ومن أبرز موارد التعاون على الإثم، بيع المحرمات والاجارة لها، والتجارة بالمواد المضرة أو بالسلع المهربة، وما أشبه.

(١) المصدر، ص ٢١٨.

(٢) المصدر، ص ٢١٩.

أولاً: بيع المحرمات

بيع المحرمات كلاً حرام، وليس ذلك يساهم في انتشار تناولها؟ قال المحقق الحلي قدس سره: فالمحرم منه (مما يكتسب) أنواع؛ الأول: الأعيان النجسة كالخمرة والانبذة والفقاع وكل مائع نجس عدا الأدهان لفائدة الاستصباح بها تحت السماء، والميتة والدم وأرواث وأبوال ما لا يؤكل لحمه. وأضاف: والخنزير وجميع أجزاءه، وجلد الكلب وما يكون منه. (١)

وقد جاء في الرواية المفصلة التي وردت في كتاب تحف العقول عن الامام الصادق عليه السلام، ذكر فيها بعد بيان ما يحرم من وجوه التجارة، قال عليه السلام: وأما وجوه الحرام من البيع والشراء، فكل أمر يكون فيه الفساد مما هو منهي عنه من جهة أكله أو شربه أو كسبه أو نكاحه أو ملكه أو إمساكه أو هبته أو عاريته أو شيء يكون فيه وجه من وجوه الفساد، نظير البيع بالربا، أو البيع للميتة، أو الدم، أو لحم الخنزير، أو لحوم السباع من صنوف سباع الوحش والطيور، أو جلودها، أو الخمر، أو شيء من وجوه النجس. فهذا كله حرام ومحرم، لأن ذلك كله منهي عن أكله وشربه ولبسه وملكه وإمساكه والتقلب فيه، فجميع تقلبه في ذلك حرام. (٢)

وقد ورد في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله: إن الله إذا حرّم شيئاً حرّم ثمنه. (٣)

ثم مضى المحقق الحلي في بيان ما يحرم من المكاسب، فقال: الثاني ما يحرم لتحريم ما قصد به، كآلات اللهو مثل العود والزمر، وهياكل العبادة المبتدعة كالصليب والصنم، وآلات القمار كالنرد والشطرنج. (٤)

(١) جواهر الكلام، ج ٨، ص ٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٥٦-٥٧، الباب ٢ من أبواب ما يكتسب به، ح ١.

(٣) جواهر الكلام، ج ٨، ص ٩ عن الخلاف ج ١، ص ٢٢٥ الطبعة الحديثة بطهران سنة ١٣٧٠ هـ.

(٤) جواهر الكلام، ج ٨، ص ١٦.

واستدل العلامة النجفي على حرمة هذه المكاسب بما جاء في رواية كتاب تحف العقول عن الامام الصادق عليه السلام:

إنما حرّم الله الصناعات التي هي حرام كلها، التي يجيء منها الفساد محضاً، نظير البرابط والمزامير والشطرنج، وكل ملهوبه والصليبان والاصنام وما أشبه ذلك.. (إلى أن قال:).. فحرام تعليمه وتعلّمه، والعمل به، وأخذ الأجر عليه، وجميع التقلب فيه من جميع وجوه الحركات. (١)

ومن المحرمات المواد الفاسدة التي تضر بالناس. مثل بيع المواد الغذائية بعد انقضاء أمدها، وكذلك الصناعات الغذائية المغشوشة التي يدخل في تركيبها ما يضر بالصحة العامة، وهكذا الأدوية الفاسدة أو الأدوية التي يضر تناولها. وحرمة كل هذه المواد ممنوعة قانوناً كما هي محرمة شرعاً. (٢)

ويدخل في هذا الإطار بيع السلع المسروقة والمهربة والمغشوشة، وبالتالي كلّما يفضي الى الحرام. ومنها المساعدة في إشاعة الحرام وذلك بغسل الأموال التي يكتسبها المجرمون من الحرام، مثل غسل أموال القمار أو أموال تجار المخدرات وعصابات المافيا وأمثالهم.

ومنها بيع العنب ليعمل خمراً، قال المحقق الحلي في ذلك: وكبيع العنب ليعمل خمراً، وبيع الخشب ليعمل صنماً. (٣)

وقد اختلفت الروايات المأثورة حول هذه المسألة، فبينما نجد أحاديث تحرمها نجد أحاديث أخرى لا ترى فيه بأساً، مثلاً الحديث التالي يحرم ذلك، عن صابر قال: سألت أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام عن الرجل يواجر بيته فيباع فيه الخمر، قال: حرام أجره. (٤)

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٥٧، الباب ٢ من أبواب ما يكتسب به، ح ١.
(٢) للتفصيل راجع كتاب حقوق جزاي اختصاصي، ج ٢، ص ١٣٠ فما بعد.
(٣) المصدر، ص ١٩.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٢٥-١٢٦، الباب ٣٩ من أبواب ما يكتسب به، ح ١، (كتاب التجارة).

والحديث الآخر يطله، عن عمر بن أذينة قال: كتبت الى أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام أسأله عن رجل له كرم، أبيع العنب والتمر ممن يعلم أنه يجعله خمراً أو سكرأ؟ فقال: إنما باعه حلالاً في الابان الذي يحل شربه أو أكله فلا بأس ببيعه. (١)

وما يجمع بين الحديثين هو أنه إذا صدق عليه التعاون على الإثم كان حراماً، وإلا لم يكن. ومن هنا كان تعبير المحقق السابق هكذا "ليعمل" يعني أن يكون الهدف من البيع عمل الخمر. وهكذا العلامة النجفي في الجواهر قال: لا خلاف أجدها فيها مع التصريح بالشرطية أو الاتفاق عليها على وجه بني العقد عليها. (٢)

والأقرب عندي أن نجعل المعيار صدق التعاون على الإثم، ولا ريب في صدقه عند الاشتراط وعند التوافق ولو بزيادة السعر أو التبان الذي يجعل العقد قائماً على أساس ذلك. من نوع الشرط الضمني.

ومن التعاون على الإثم التعامل على الأفلام الخلاعية أو كتب الضلال بطبعها وتوزيعها والإعلان عنها والتستر عليها وما أشبه.

ثانياً: إجارة المنافع المحرمة

قال المحقق الحلي: وإجارة المساكن والسفن للمحرمات. (٣) ويحكي العلامة النجفي عدم الخلاف في حرمة ذلك عند الاشتراط، مما يصدق عليه التعاون على الإثم. (٤)

والأصل في ذلك الآية الكريمة التي حرمت التعاون على الإثم، ثم الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام في كتاب تحف العقول حيث جاء فيه:

(١) المصدر، ج١٢، ص١٦٩، الباب ٥٩ من أبواب ما يكتسب به، ح٥.

(٢) جواهر الكلام، ج٨، ص١٩.

(٣) جواهر الكلام، ج٨، ص١٩.

(٤) المصدر، وما نسبناه إليه من صدق آية التعاون هو المفهوم من كلامه في هذا الموضع وإن لم يصرّح به فراجع.

فأما وجوه الحرام من وجوه الإجارة نظير أن يؤاجر نفسه على حمل ما يحرم أكله أو شربه، أو يؤاجر نفسه في صنعة ذلك الشيء أو حفظه، أو لبسه، أو يؤاجر نفسه في هدم المساجد ضراراً أو قتل النفس بغير حق أو عمل التصاوير والأصنام والمزامير والبرابط والخمر والخنازير والميتة والدم أو شيء من وجوه الفساد الذي كان محرماً عليه من غير جهة الإجارة فيه. وكل أمر منهي عنه من جهة من الجهات فمحرّم على الانسان إجارة نفسه فيه أو له أو شيء منه أو له إلا لمنفعة من استأجرته كالذي يستأجر الأجير يحمل له الميتة ينجيها عن أذاه أو أذى غيره وما أشبه ذلك. (١)

ومثل اجارة نفسه إجارة من يلي أمره، مثل العاملين عنده أو أبناءه، أو إجارة ما يملكه من مسكن أو متجر أو دار أو سيارة وسفينة وما أشبه. فمن أجرّ داره للدعارة، أو سيارته لحمل المواد المحرمة، أو تعهد لبناء كازينو قمار أو مرقص أو بار أو ما أشبه، فإن كل ذلك حرام لصدق التعاون على الإثم.

أمّا إذا بنى داراً وأجرها لشخص ليسكن فيها، فعمل الشخص في الدار المنكرات، فإنما إثمه على المستأجر. وكذا لو أجر سيارته لشخص فمضى بها الى دار لهو، فإنما إثمه عليه. وهكذا.. لأنه لم يتفق على الحرام معه، فلم يصدق عليه التعاون على الإثم. والله المستعان.

ثالثاً: التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول

التعاون على الإثم والعدوان حرام، فماذا عن التشاور لأجلهما والتآمر فيهما؟ إنه هو الآخر حرام، لأنه تعاون معنوي عليهما، ولأنه يؤدي الى الفساد محضاً. ومن هنا فقد ارتأيت أن ألحق ببحث التعاون على الإثم والعدوان بحث التناجي بالإثم والعدوان، والذي يبحثه القانون تحت عنوان التوافق على الجريمة، ويسميه الاعلام بالتآمر.. دعنا نبحث أولاً عن الموضوع قانونياً.

(١) المكاسب للشيخ الانصاري، ج ١، ص ٤٢-٤٤.

ألف: القانون والتوافق على الجريمة

لا يعاقب القانون على مجرد التصميم على ارتكاب الجرائم، ولا على الأعمال التحضيرية لها، إلا في أحوال إستثنائية إقتضت ذلك، محافظة على الأمن العام. (١)

ومن الأحوال التحضيرية ما نجده في القانون المصري في المادة (٤٧) مكررة) جريمة قائمة بذاتها، إذ عاقب فيها على مجرد إتحاد شخصين فأكثر على ارتكاب جناية أو جنحة ما أو على الأعمال المجهزة أو المسهلة لارتكابها. (٢)

وقد كان قانون العقوبات الفرنسي الصادر سنة ١٨١٠ يعتبر كل جمعية من الأشقياء، الغرض منها الاضرار بالأشخاص أو الممتلكات، جناية ضد الأمن العام. وكان غرض الشارع الفرنسي من هذه النصوص أن ينال بالعقاب عصابات الأشقياء وقطاع الطرق الذين كانوا منتشرين في أنحاء البلاد في ذلك العصر. (٣)

وأركان هذه الجريمة حسب القانون ثلاثة (٤) اتحاد شخصين فأكثر، فلا عبرة غالباً بدعوة شخص إذا لم يستجب له أحد (٥) حصول الاتحاد (التوافق) على ارتكاب جناية أو جنحة ما أو على الأعمال المجهزة أو المسهلة لارتكابها فلا عبرة بتوافق عابر لا يتحول الى اتحاد مستمر. كما لا يعاقب القانون على التوافق الذي لا ينتهي إلى الجريمة أو الجنحة، مثل الاتفاق

(١) الموسوعة الجنائية، ص ٢.

(٢) راجع المصدر، ص ٣.

(٣) راجع المصدر ص ٤.

(٤) الموسوعة الجنائية، ص ٤.

(٥) راجع المصدر ص ٩.

على الدعوة السلمية الى أمر معين (١) القصد الجنائي فلو كان الشخص غافلاً أو جاهلاً أو غير قاصد الجنائية فلا عقاب. (٢)

وبالرغم من أن القانون الذي بدأ تطبيقه في فرنسا، ثم شمل أوروبا، ثم انتشر الى البلاد العربية قد بلور نسبياً أركان الجريمة، إلا أنه كان يعالج أوضاعاً خاصة في البلاد التي سنّ فيها التشريع. ومن هنا فلم يبلغ جوهر الجريمة الذي أشرنا إليه في مطلع البحث، وهو التوافق على الجريمة. إذ أن مجرد التشاور وتبادل الرأي على ارتكاب الجريمة، يعتبر جريمة عندنا. لماذا؟ لا لأن النية وحدها تكفي في معاقبة المجرم، بل لأن التخطيط الجمعي وتكوين عصابة منظمة هو بذاته مغل بالآمن وبدء حقيقي في ارتكاب الجريمة. فإن من وسائل تنفيذ أية جريمة تهيئة وسائلها، ومن وسائل تنفيذ الجريمة تشكيل عصابة لها. على أن المجتمع الذي تتشكل فيه عصابات للاخلال بالآمن إنه مجتمع غير آمن فعلاً.

باء: التوافق على الجريمة عذر الشرع

وقد نزلت آية قرآنية كريمة تنص على حرمة التوافق على الجريمة، كما نزلت آيات أخرى تمهد لهذا التحريم. دعنا إذاً نتلوا معاً هذه الآيات.

١/ في سياق الحديث عن طوائف من المنافقين، ينفي القرآن المجيد الخير في كثير من نجواهم، إلا في ثلاث: الأمر بالصدقة أو بالمعروف أو بالإصلاح. وهذا يعني إن الجانب الآخر من الصورة قد يكون النهي عن هذه الحقائق. أو لا أقل عدم وجود الأمر بهذه الأعمال الصالحة، مما يجعل مجرد التناجي أمراً غير مرغوب فيه، لأنه يفقد عنصر الصلاح. قال الله سبحانه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * وَمَنْ

(١) راجع المصدر.

(٢) راجع المصدر.

يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿النساء/١١٤-١١٥﴾

ونستوحي من الآية الثانية؛ إن هدف المنافقين من التناجى كان الابتعاد عن القيادة الربانية، وعن سبيل المؤمنين بها، والتوجه تلقاء ولائج غير ايمانية. وفي آية سنتلونها إن شاء الله تذكير بهدف النجوى عند البعض، وهو معصية الرسول والعدوان والإثم. وهذه الحقائق هي: الصدقة (مقابل الإثم)، والمعروف (مقابل العدوان)، والإصلاح (مقابل معصية الرسول).

٢/ وقد ذكرتنا آية في سورة المجادلة التي بيّنت حقائق عن النجوى، ذكرتنا بأنه ليست هناك أية بقعة في العالم يمكن التناجى فيها بعيداً عن سمع الله ونظره، والله سبحانه هو المدير للخلق، وهو القائم بالقسط. قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة/٧)

إذاً ينبغي للمؤمن أن يراقب نفسه، وأن يتقي الله في الخلاء؛ فإذا انعقدت جلسة لمجموعة مشتركة في الرؤى والمصالح (مثل حزب أو جمعية أو هيئة)، فعليهم أن يعلموا أن الله سبحانه محيط من ورائهم، فلا يخوضوا فيما يتوافقون عليه بلا رادع ولا حدود.

٣/ لقد نهى المؤمنون عن النجوى. والذين لم يستجيبوا للنهي هم المنافقون، وربما بعض ضعفاء النفوس من المؤمنين الذين استرسلوا في النجوى لتحقيق ثلاث غايات سيئة؛ أولاً: الإثم الذي يتحقق فيه مصالحهم المادية ويتجاوزون به حدود الله سبحانه. ثانياً: العدوان الذي يثير فيهم حب الرئاسة والتسلط على الناس. ثالثاً: معصية الرسول التي يتحقق بها الانشقاق عن القيادة. قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ

بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا
فَبِنَسِ الْمَصِيرِ ﴿٨﴾ (المجادلة/٨)

وجاء في بعض التفاسير حديث عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا ذات ليلة نتحدث إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما هذه النجوى، ألم تنهوا عن النجوى؟ فقلنا: تبنا الى الله يا رسول الله، إنا كنا في ذكر المسيح – يعني الدجال- خوفاً منه. فقال: ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل؛ (أي رياءً). (١)

ونستفيد من الآية؛ إن من أهداف المنافقين تجريد النبي من صفة الرسالة، ونعته بالصفات المادية مثل قيادة الناس.. ويبقى سؤال آخر: هل هذا النهي كان نهياً تشريعياً دائماً كالنهي عن شرب الخمر مثلاً، أم كان نهياً (ولائياً) مصدره قرار سياسي مؤقت بسبب الظروف الأمنية؟

الثاني هو الأقرب، لأنه لا دلالة على حرمة النجوى بصورة عامة كحرمة شرب الخمر، ولأن كلمة "نهوا" مجملة ولا دلالة فيها على مصدر النهي ونوعه. ولو كان مصدره ونوعه النهي التشريعي، لكان الأجدر أن يقال: نهاهم الله أو ما أشبه.

٤/ وقد أمر القرآن المسلمين بأنهم إن تناجوا فليحذروا تجاوز حدود التقوى في النجوى، وهي الإثم وارتكاب ما حرم الله مثل الحمية الجاهلية، وأن يسخر قوم من قوم، ثم العدوان وهو نتيجة الإثم باستلاب الناس حقوقهم وحررياتهم والتعالي عليهم وظلمهم والبغي عليهم.. ثم معصية الرسول ومشاقفته. قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (المجادلة/٩)

(١) تفسير الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ج١٧، ص ٢٩١.

بلى؛ التناجي بالبرّ الذي هو التصديق على الناس، والتقيد بحدود الله سبحانه (التقوى)، وذلك في التعامل مع الآخرين، إنه أمر مرغوب فيه. ويرى العلامة الطباطبائي (ره) في تفسيره الميزان أن الآية – حسب دلالة سياق الآيات – لا تخلو من دلالة على رفع الحظر (عن النجوى)، وقد خوطب فيها المؤمنون فأجيز لهم النجوى، واشترط عليهم أن لا يكون تناجياً بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. (١)

٥/ وأخيراً هل النجوى بذاتها مرغوب فيها، أم لا..؟ لعل الآية التالية توضح أنها بذاتها غير حميدة، إلا إذا كانت هناك ضرورة داعية إليها، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المجادلة/١٠)

وبعد تلاوة هذه الآيات الكريمة، ما هي البصائر التشريعية التي نستفيد منها؟ يبدو لي أن هناك عدة بصائر:

أ- إن النجوى منهي عنها، لا أقل في ظروف معينة مثلما إذا كانت الأمة في حالة التوتر، وكانت النجوى مظنة تشكيل جمعيات مناوئة للقيادة الربانية، ومخلة بأمن البلاد في نشر الإثم والتعاون على العدوان.

ب- إن الحكمة في تحريم النجوى، تحريم محتواها المتمثل في الإثم والعدوان ومعصية الرسول.

ج- إذا كانت النجوى ضرورية أو إتفق وجود جماعات معينة في مكان معزول، فعليهم التناجي بالبرّ والتقوى.

وإذا كان التناجي بذاته أمراً مرغوباً عنه، أو منهيّاً عنه، فإن السبب في ذلك أنه مظنة الفساد – ولو في ظروف خاصة –، وأنه لا ينحصر عدم مرغوبيتها في تحويلها الى جمعية سرية منظمة، لأن ذات التناجي قد يكون سبباً للفساد والشقاق، ووسيلة لنشر وساوس الشيطان. والله العالم.

(١) تفسير الميزان، ج١٩، ص١٨٧.

وكلمة أخيرة؛ إن البحث حول النجوى من الناحية الفقهية لم يكتمل عندي وهو بحاجة الى تأمل. والله المستعان. (١)

في رحاب الأحاديث

- أولاً: عن التعاون على البر والتقوى
- ١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من ردَّ عن قوم من المسلمين عادية [ماء] أو ناراً وجبت له الجنة". (٢)
 - ٢- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "الخلق عيال الله، فأحب الخلق الى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً". (٣)
 - ٣- قال الإمام الصادق عليه السلام: "قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة، وخير من حملان ألف فرس في سبيل الله". (٤)
 - ٤- قال الإمام الصادق عليه السلام: "ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلا ناداه الله تبارك وتعالى: عليّ ثوابك، ولا أرضى لك بدون الجنة". (٥)
 - ٥- قال الإمام الباقر عليه السلام: "أوحى الله عز وجل الى موسى عليه السلام، إن من عبادي من يتقرب إليّ بالحسنة فاحكّمه في الجنة. فقال موسى: يا رب وما تلك الحسنة؟ قال: يمشي مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته، قضيت أولم تقض". (٦)

(١) لمزيد من التفصيل في موضوع النجوى راجع الجزء السابع من هذه الموسوعة ص ٤٦٩-٤٧٦.

(٢) الاصول من الكافي، ج ٢، ص ١٦٤.

(٣) المصدر.

(٤) المصدر، ص ١٩٣.

(٥) الاصول من الكافي، ج ٢، ص ١٩٤.

(٦) المصدر، ص ١٩٦.

- ٦- قال الإمام الصادق عليه السلام: "كفى بالمرء اعتماداً على أخيه أن ينزل به حاجته". (١)
- ٧- قال أبو جعفر الإمام الباقر عليه السلام: "من مشى في حاجة أخيه المسلم، أظله الله بخمسة وسبعين ألف ملك، ولم يرفع قدماً إلا كتب الله له حسنة، وخط عنه بها سيئة، ويرفع له بها درجة، فاذا فرغ من حاجته كتب الله عز وجل له بها أجر حاج ومعتبر". (٢)
- ٨- قال الإمام الصادق عليه السلام: "قام رجل يقال له همام، وكان عبداً ناسكاً مجتهداً إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب، فقال له: يا أمير المؤمنين؛ صف لنا صفة المؤمن كأننا ننظر إليه؟ فقال: يا همام ... عون للضعيف، غوث للملهوف". (٣)
- ٩- في علامات المؤمن وصفاته، قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: "... يرشد من استشاره، ويساعد من ساعده". (٤)
- ١٠- قال الإمام الباقر عليه السلام: "من بخل بمعونة أخيه المسلم والقيام له في حاجته [إلا] ابتلي بمعونة من يئثم عليه ولا يوجر". (٥)
- ١١- قال الإمام الصادق عليه السلام: "أيا رجل من شيعتنا أتى رجلاً من إخوانه فاستعان به في حاجته فلم يعنه وهو يقدر إلا ابتلاه الله بأن يقضي حوائج غيره من أعدائنا، يعذبه الله عليها يوم القيامة". (٦)
- ١٢- عن علي ابن جعفر، عن (أخيه) أبي الحسن (الإمام موسى الكاظم) عليه السلام قال؛ سمعته يقول: " من قصد إليه رجل من اخوانه مستجيراً به

(١) المصدر، ص ١٩٨.

(٢) المصدر، ص ١٩٧.

(٣) المصدر، ص ٢٢٨.

(٤) المصدر، ص ٢٣١.

(٥) المصدر، ص ٣٦٦.

(٦) المصدر، ص ٣٦٦.

في بعض أحواله، فلم يجره بعد أن يقدر عليه، فقد قطع ولاية الله عز وجل".
(١)

ثانياً: عن التعاون على الإثم والعدوان

- ١- قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: "بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد". (٢)
- ٢- قال الإمام الصادق عليه السلام: كان علي عليه السلام يقول: "العامل بالظلم، والمعين عليه، والراضي به شركاء ثلاثة". (٣)
- ٣- عن وهب بن عبد ربه وعبد الله الطويل، عن شيخ من النخع، قال: "قلت لأبي جعفر (الإمام الباقر) عليه السلام: إني لم أزل والياً منذ زمن الحجاج إلى يومي هذا، فهل لي من توبة؟ قال: فسكت. ثم أعدت عليه، فقال: لا حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه". (٤)
- ٤- قال الإمام الصادق عليه السلام: "من عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه، وإن دعا لم يستجب له، ولم يأجره الله على ظلامته". (٥)
- ٥- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "الظلمة وأعوانهم في النار". (٦)
- ٦- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إذا كان يوم القيامة، نادى مناد أين الظلمة وأعوانهم؟ من لاق لهم دواة، أو ربط كيساً، أو مدّ لهم مدّة قلم، فاحشروهم معهم". (٧)

(١) الأصول من الكافي، ج ٢، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٠٩، ح ٤.

(٣) المصدر، ص ٣١٢، ح ١٦.

(٤) المصدر، ص ٣٢٩، ح ٥٩.

(٥) المصدر، ص ٣٣٣، ح ٦٨.

(٦) ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٦١١، ح ١١١٦٣.

(٧) المصدر، ح ١١١٦٤.

- ٧- قال الإمام الرضا عليه السلام (في أعمال السلطان): "الدخول في أعمالهم، والعون لهم، والسعي في حوائجهم عدل الكفر، والنظر إليهم على العمد من الكبائر التي يستحق به النار". (١)
- ٨- قال الإمام الصادق عليه السلام: "لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم، ويجبي لهم الفية، ويقاتل عنهم، ويشهد جماعتهم، لما سلبونا حقنا". (٢)
- ٩- عن ابن أبي يعفور قال: كنت عند أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام إذ دخل عليه رجل من أصحابنا، فقال له: أصلحك الله؛ إنه ربما أصاب الرجل منّا الضيق أو الشدة فيدعا إلى البناء بينيه، أو النهر يكريه، أو المسناة يصلحها، فما تقول في ذلك؟
- فقال أبو عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام: ما أحب أني عقدت لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء، وأن لي ما بين لابتيها؛ لا، ولا مدة بقلم. إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار، حتى يحكم الله بين العباد. (٣)
- ١٠- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من أعان ظالماً على ظلمه، جاء يوم القيامة وعلى جبهته مكتوب: آيس من رحمة الله". (٤)
- ١١- قال الإمام الصادق عليه السلام: "من أعان ظالماً على مظلوم، لم يزل الله عز وجل عليه ساخطاً حتى ينزع عن معونته". (٥)
- ١٢- قال الإمام الرضا عليه السلام: "من أعان ظالماً فهو ظالم، ومن خذل ظالماً فهو عادل". (٦)
- ١٣- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم، فقد خرج من الإسلام". (١)

(١) المصدر، ص ٦١٢، ح ١١١٦٧.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٦١٢، ح ١١١٦٩.

(٣) المصدر، ح ١١١٦٨.

(٤) المصدر، ص ٦١٣، ح ١١١٧٠.

(٥) المصدر، ح ١١١٧١.

(٦) المصدر، ص ٦١٣، ح ١١١٧٢.

١٤- قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام للامامين
الحسن والحسين عليهما السلام: "كونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً". (٢)

(١) المصدر، ح ١١١٧٤.

(٢) المصدر، ص ٦١٥، ح ١١١٨٣.

الرحمة والتراحم

بنظرة عرفانية نافذة، يعي الانسان أن الخلق كله تجلّ للرحمة الإلهية؛ وإلا فلماذا خلق الله الغني سبحانه هذه الكائنات؟ أوليس برحمته التي وسعت كل شيء، وهو القائل:

١/ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود/١١٩)

لماذا خلقهم؟ ليرحمهم. هكذا نقرأ في الحديث المروي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمة الله فيرحمهم. (١)

٢/ وقال ربنا سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر/٧)

٣/ وإذا كانت الرحمة هي الفيض والبسط والعطاء، فإن السوء هو الأذى والقبض والافساد. وقد جاءت كلمتا الرحمة والسوء متقابلتين في الآية الكريمة. فالنفس أمارة بالسوء، والله هو الذي يرحم بعض النفوس (فتصبح برحمته كريمة). ولقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف/٥٣)

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٤٠٤، ح٢٥١.

٤/ ومن يقية الرب السيئات، فقد رحمه. إذ أن البشر ذلك المخلوق الضعيف، لا يمكنه أن يتقي السيئات بذاته، (بل ذاته من دون رحمة الله مصدر السيئات)، إنما الله تعالى يقية – بفضل – السيئات. قال الله سبحانه: ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (غافر/٩)

٥/ ومن هنا فإن علينا استدرار الرحمة بالدعاء، حسبما علمنا الرب وأمرنا بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (المؤمنون/١١٨)

والرحمة تتجلى في حقائق، ولها وسائلها التي تستدرها ومواضعها. وهكذا دعنا نتحدث عنها في ثلاثة فصول:

أولاً: حقائق الرحمة

كتاب الله رحمة، ورسوله رحمة، وتتجلى رحمة الله أيضاً في الغيث والأهل والمال والعلم والملك والحفظ من المهالك والنجاة من الأخطار وتيسير الشرائع.

١/ لقد أنزل الله الكتاب على النبي موسى سلام الله عليه، وقال عنه: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الاحقاف/١٢)
فالكتاب رحمة، وإمام للناس.

٢/ والقرآن رحمة مباركة، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان/١)

٣/ والرسول رحمة، كمال قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الانبياء/١٠٧)

٤/ والعلم رحمة، حيث يقول الله سبحانه عن العبد الصالح الذي اتبعه موسى عليه السلام ليرشد بعلمه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف/٦٥)

٥/ الهدى رحمة، ومن الهدى العصمة من إتباع الشيطان. قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء/٨٣)

٦/ ومن الهدى، الكتاب الذي أنزله علينا، وفيه خير الدنيا والآخرة. قال الله سبحانه: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة/١٠٥)

٧/ ومن رحمة الله تيسير الأحكام، ورفع العسر والجرح، وتخفيف الفرائض مثل تبديل القصاص بالدية وقبول توبة القاتل إن عفى عنه ولي الدم. قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة/١٧٨)

٨/ والذكر الحسن الذي يعقب الإنسان بعده رحمة، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (مريم/٥٠)

٩/ ومن رحمة الله قبول التوبة، والنجاة من عذاب الاستيصال، حيث قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (البقرة/٦٤)

١٠/ وهكذا نجى الله هوداً والذين آمنوا معه من العذاب، الذي أنزله على الكافرين من قومه. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (هود/٥٨)

١١/ ومن رحمته، قبول توبة المسرفين من عباده، حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر/٥٣)

تلك كانت طائفة من تجليات الرحمة الإلهية في البعد المعنوي.

١٢/ وتجلت الرحمة في البعد الحياتي في الغيث الذي يحيي به الله ميت البلاد، وينشر رحمته على الخليقة وعلى الانسان، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿فَاتَّظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم/٥٠)

١٣/ ومن رحمته الليل والنهار؛ حيث جعل الله الليل لباساً وسكناً، والنهار معاشاً ولابتغاء فضل الله فيه. قال الله سبحانه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص/٧٣) وهذه الرحمة الإلهية تكتمل عند الانسان بالشكر.

١٤/ والأهل والذرية رحمة الهية. قال الله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (ص/٤٣) ١٥/ والأخ الموافق رحمة. قال الله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم/٥٣)

١٦/ والمال النافع رحمة، حيث قال سبحانه عن اليتيمين الذين رحمهما الله باستخراج الكنز: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف/٨٢)

١٧/ والمُلك العدل رحمة، كما وهب الله ذلك لذي القرنين. قال الله سبحانه (على لسان ذي القرنين): ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف/٩٨)

تلك كانت طائفة من تجليات رحمة الله في خلقه عموماً، وفي حياة البشر بصورة خاصة. ولاريب أن كل نعم الله فضل ورحمة، ولا نقدر نحن ولا العادون إحصاء نعمت الله، وإنما أردنا التذكرة بأبرز تجليات الرحمة.

ثانياً: وسائل الرحمة

لا نقول أسباب الرحمة، لأن كلمة السبب قد توحي بأن مصدر الرحمة فعلنا نحن البشر، بينما الرحمة تفيض من عند الله على عباده. وانما جعل الله لها وسائل نبتغي بها إستدرار الرحمة، وهي وسائل شتى، ونشير الى بعضها حسب استفادتنا من الذكر الحكيم.

١/ طاعة الله والرسول تستدر رحمة الله سبحانه، حيث يقول ربنا تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران/١٣٢)

٢/ بل الرسول نفسه رحمة، حيث يقول عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء/١٠٧)

وجاء في حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: "إنما أنا رحمة مهداة". (١)

٣/ وقال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة/٦١)

٤/ والرسول بلغ رسالات الله بكتاب الله، فالقرآن رحمة لمن استمع إليه. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف/٢٠٤)

٥/ ومن حقائق طاعة الرسول والعمل بكتاب الله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فهما وسيلتا رحمة الله، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النور/٥٦)

٦/ وإذا كان الذنب يستنزل نقمات الله العزيز، فإن الاستغفار وسيلة الى رحمته الواسعة. وقال الله سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر/٥٣) وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النمل/٤٦)

(١) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١١٥، ح ٤٤٤.

٧/ والتقوى واصلاح ذات البين (والذي يؤدي الى تراحم العباد فيما بينهم)، هو الآخر ينزل رحمت الله سبحانه حيث يقول عز من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات/١٠)

٨/ الصبر في المصائب، وقول (إنا لله وإنا إليه راجعون)، وسيلة الى صلوات الله ورحمته. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة/١٥٦-١٥٧)

٩/ الاعتصام بالله سبحانه (والذي يتمثل في الاعتصام بالكتاب والرسول)، وسيلة الرحمة الإلهية، حيث قال الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النساء/١٧٥)

١٠/ الإحسان الى الناس (وبالذات الى الوالدين الذين أمرنا بالإحسان إليهما)، وسيلة رحمة الله سبحانه. قال عز من قائل: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الاعراف/٥٦)

ثالثاً: مواضع الرحمة

الرحمة فيض القلب السوي، وإحسان الإنسان السامي، ولذلك فهي تهبط من أعلى الى من يستحق. والموارد التي نتلوها في كتاب ربنا، هي الأيتام والوالدين (بالذات عند حاجتهما الى الرحمة بعد الموت) والزوجة والزوج (وبالذات عند حاجة كل طرف الى الطرف الآخر) والشعب من قبل الوالي عليه. تعال نقرأ معاً آيات الرحمة:

١/ مضى العالم الذي رافقه موسى عليه السلام لكي يتعلم منه رشداً الى قرية، فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما. ولكن العالم ما إن رأى جداراً يريد أن ينقض، حتى بادر إلى ترميمه وإقامته. فلما سأله موسى عليه السلام لم

تبرع بذلك ولم يطلب منهم أجراً؟ قال: لأنه يوجد - تحته - كنز لليتيمين، وأراد الله أن يبقى الجدار قائماً حتى يكبرا ويستخرجا كنزهما، وعلل ذلك بأنه رحمة من الله قال الله سبحانه (على لسان العالم): ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف/ ٨٢)

وهكذا أمر الله العالم باقامة الجدار رحمة باليتيمين. ونستفيد من ذلك؛ إن اليتيم مورد للرحمة، حتى بهذه الصورة. إذ أن العالم كان مستطرقاً وكانت القرية قد أساءت إليه، ولكنه اجتهد حتى أقام الجدار رحمة باليتيمين. ولم أجد في القرآن آية صريحة بالرحمة على الأولاد، ولعل ذلك بسبب أن الله سبحانه قد أودع في قلب كل حي الرحمة بالذرية، فلا حاجة الى التوصية بها إلا بالنسبة الى اليتيم المحروم من هذه النعمة.

٢/ وحين يكبر الوالدان ويحتاجان الى الرحمة من قبل الأولاد بسبب كبرهما أو وفاتهما، هناك يوصي الرب ويقول سبحانه: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الاسراء/ ٢٤)

إن التوصية بالرحمة على الوالدين والتي نقرأها في آية الكريمة وفي الأحاديث تشكّل حجر الزاوية في بناء الأسرة، والتي هي قاعدة المجتمع الإسلامي. وبالرحمة على الوالدين تزداد رحمتها على الأولاد. إنها خصلة الوفاء التي تشد أواصر المجتمع، وتجعلها أكثر متانة أمام المصالح المتضاربة، والكوارث الطارئة.

٣/ العلاقة بين الزوجين تبدأ عادةً مادية للحاجة المشتركة بينهما الى إشباع الغريزة الجنسية، والتعاون في سبيل بناء الأسرة وانجاب الذرية. ولكن هذه العلاقة تتعمق شيئاً فشيئاً حتى تصبح فوق مادية، بالذات حينما يتقدمان في العمر وتخدم جنوة الجنس، وتنتهي مهمة الانجاب وتربية الأولاد، وتضعف الحاجة المشتركة. وكذلك فيما إذا ابتلي أحد الزوجين بمشكلة

أخرجته من دائرة الفائدة. مثلاً؛ ابتلي بمرض خطير أو عاهة مستمرة أو اعتقل بتهمة سياسية، ففي مثل هذه الحالات تكون الرحمة هي صبغة العلاقة، حيث إن الرحمة إحسان وعطاء من طرف قادر على طرف ضعيف لا يحتاج إليه. كذلك جعل الله سبحانه بين الزوجين مودة ورحمة. قال الله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم/ ٢١)

٤/ والسلطة السياسية أحوج ما تكون الى الرحمة، والتي تفيض منها صفة لين العريكة والعمو والسماح. وهكذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله مثلاً للرحمة في علاقاته مع الأمة، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران/ ١٥٩)

٥/ والملك الصالح ذو القرنين تميز بالرحمة، حيث أنه بنى السد الكبير بين الجبلين. وقد قال الله عنه: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف/ ٩٨)

من خلال دراسة مواضع الرحمة، نعرف أنها فيض اليد العليا على الجانب الضعيف. ومن هنا نستطيع أن نقول: إن كل محتاج، موضع للرحمة، كالمريض والفقير والمستضعف سياسياً أو ثقافياً.

٦/ ونستوحي من كلمة الرحم التي اشتقت من الرحمة، أن أقارب الانسان هم من مواضع الرحمة. وهكذا كان أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في التراحم والتوارث بينهم، وتولي مختلف الشؤون. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الانفال/ ٧٥)

رابعاً: التراحم والتواصي بالرحمة

من أبرز صفات أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله، أنهم كانوا رحماء بينهم، وأشداء على الكفار. كما هي من أبرز صفات المؤمنين التواصي بالصبر وبالمرحمة. ذلك أن الإيمان بالله العظيم يسمو بالإنسان الى درجة السكينة والاستواء في الخلق، والاحساس بالمسؤولية تجاه الآخرين. وهكذا تفيض أنفسهم بالرحمة.

١/ لأنّ مواقف المؤمن تتبع من دينه، فإنه يكون شديداً على الكافر وعزيراً عليه، لأنه يخالف دينه وقيمه. وفي ذات الوقت يكون ذليلاً على أخيه المؤمن، رحيماً به. قال الله في صفة أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (الفتح/٢٩)

٢/ وصفة الرحمة متجذرة في نفس المؤمنين الى درجة تراهم يتواصون بها وبالذات عند الشدائد، حيث يحتاج الإنسان الى صفتي الصبر والرحمة أكثر من أي يوم آخر. قال الله سبحانه: ﴿ تَمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (البلد/١٧)

وقد أكدت على التراحم بين المؤمنين أحاديث النبي وأهل بيته صلى الله عليه وآله، منها:

أ- عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة جمع الله الخلائق في صعيد واحد... ثم ينادي مناد من الله عز وجل يسمع آخرهم كما يسمع أولهم فيقول: أين جيران الله جلّ جلاله في داره؟ فيقوم عنق من الناس فتستقبلهم زمرة من الملائكة. فيقولون لهم: ما كان عملكم في دار الدنيا، فصرتم به اليوم جيران الله تعالى في داره؟ فيقولون: كنا نتحاب في الله عز وجل، ونتبادل في الله،

ونتوازر في الله. قال: فينادي مناد من عند الله تعالى: صدق عبادي، خلّوا سبيلهم لينطلقوا الى جوار الله في الجنّة بغير حساب. قال: فينطلقون الى الجنّة بغير حساب. ثمّ قال أبو جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام: فهؤلاء جيران الله في داره، يخاف الناس ولا يخافون، ويحاسب الناس ولا يحاسبون.

(١)

ب- عن كليب الأسدي قال: سمعت أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام يقول: تواصلوا وتبارّوا وتراحموا، وكونوا إخوة بررة كما أمركم الله.

(٢)

ج- قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: يا نوف؛ إرحم ترحم. (٣)
د- عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام يقول: إنّي لأرحم ثلاثة، وحقّ لهم أن يرحموا: عزيز أصابته مذنة بعد العزّ، وغنيّ أصابته حاجة بعد الغنى، وعالم يستخفّ به أهله والجهلة.

(٤)

فقه الآيات

أولاً: تواصل الصفات

لأن الصفات البشرية ترجع الى جذرٍ واحد متعمق في روح صاحبها، فإنها تتواصل سواءً منها السيئة أو الحسنة. ألا ترى الكذاب كيف يكون أيضاً خائناً لئيماً مشاءً بنميم، وفي الطرف الآخر الصادق يكون مخلصاً وفيماً كريماً يألّف ويؤلّف؟ وقد وردت الصفات متواصلة في كتاب ربنا سبحانه سواءً منها الفضيلة أو الرذيلة.

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٩٣، ح ١٤٤.

(٢) المصدر، ص ٣٩٩، ح ٣٩٦.

(٣) المصدر، ص ٣٩٦، ح ٢٦.

(٤) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٤٠٥، ح ١.

والرحمة هي ينبوع لجماع صفات الخير في البشر. فمن اعتمر قلبه بالرحمة، فإن يده تبسط بالعون، ولسانه ينطلق بالتواصي بالرحمة، ورجله تسعى بالإحسان، وتراه براً مواسياً نفاعاً.

ثانياً: حقائق الرحمة

ومن هنا ترى علمائنا الماضون رحمهم الله قد رَووا تحت عنوان باب الرحمة جملةً أحاديث البر والأحسان. ولا ريب أنها مصاديق الرحمة، التي لا بد أن تترجم هذه الصفة بنا. ونحن هنا نستعرض بعض تلك الأحاديث قبل أن نتناول البحث الفقهي في الرحمة.

أ- ذكرت الأحاديث صفة التحابب، (الحب المتبادل بين المؤمنين). والحب هو الرحمة، بل أصله. عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ الله تبارك وتعالى إذا رأى أهل قرية قد أسرفوا في المعاصي، وفيها ثلاثة نفر من المؤمنين، ناداهم جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه: يا أهل معصيتي؛ لولا من فيكم من المؤمنين المتحابين بجلالي، العامرين بصلاتهم أرضي ومساجدي، والمستغفرين بالأسحار خوفاً مني، لأنزلت بكم عذابي ثمّ لا أبالي. (١)

ب- ووصى الإمام الصادق عليه السلام شيعته بالبر والصلة، وهما من حقائق الرحمة. عن ابن سعد، عن الأزدي قال: كان ما كان يوصينا به أبو عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام البرّ والصلة. (٢)

ج- كما اعتبرت رواية أخرى الايثار حقاً ثابتاً من حقوق المؤمن على أخيه. عن محمد بن سنان، عن المفضل قال: سئل أبو عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام ما أدنى حقّ المؤمن على أخيه؟ قال: أن لا يستأثر عليه بما هو أحوج إليه منه. (٣)

(١) المصدر، ص ٣٩٠، ح ١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٩٠، ح ٢.

(٣) المصدر، ص ٣٩١، ح ٤.

د- وتقرء في حديث آخر الأمر بالمواساة. قال أبو عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام: تقرّبوا الى الله تعالى بمواساة إخوانكم. (١)

ه- وفي وصية جامعة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وصى بها ابنه محمد بن الحنفية قال: ألزم نفسك التوّدّد، وصبر على مؤنات الناس نفسك، وابدل لصديقك نفسك ومالك، ولمعرفتك رفقك ومحضرك، وللعامّة بشرك ومحبتك، ولعدوك عدلك وإنصافك، واضنن بدينك وعرضك عن كلّ أحد فإنّه أسلم لدينك ودنياك. (٢)

و- ووصى النبي صلى الله عليه وآله بالألفة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: وآله: المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبّ لئيم، وخير المؤمنين من كان مألّفة للمؤمنين، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. (٣)

ز- وقد خص الإمام الصادق عليه السلام غرر الأصحاب بالحديث التالي: خياركم سماؤكم، وشراركم بخلؤكم، ومن صالح الأعمال البرّ بالاخوان والسعي في حوائجهم، وفي ذلك مرغمة الشيطان، وتزحزح عن النيران، ودخول الجنان. يا جميل أخبر بهذا الحديث غرر أصحابك. قلت: من غرر أصحابي؟ قال: هم البارون بالاخوان في العسر واليسر. ثمّ قال: أما إنّ صاحب الكثير يهون عليه ذلك، وقد مدح الله صاحب القليل فقال: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (٤)

من هذه الأحاديث نستفيد أن الحب في الله ومواساة الاخوان وايتارهم والبر بهم والصلة معهم والألفة معهم، إنها من حقائق الرحمة.

ثالثاً: أحكام الرحمة

(١) المصدر، ح ٥.

(٢) المصدر، ح ٦.

(٣) المصدر، ص ٣٩٣، ح ١٥.

(٤) المصدر، ص ٣٩٤، ح ١٨.

وهذه القيم هي مصدر التشريع الإسلامي في إدارة المجتمع.. وحتى في نظام التجمع.

فالمواساة مثلاً تترجم تشريعياً في صندوق قرض الحسنة، الذي يجب أن يخصص له جزء من ميزانية الدولة وصندوق الضمان الاجتماعي. والإهتمام بالمرضى والزمنى والفقراء عبر عشرات الأنظمة التي تتوزع في أبواب مختلفة من الدستور والقانون. وكذلك الإهتمام بالأطفال والنساء.

ويتوسع أفق البرّ والإحسان ليشمل كافة المؤمنين، حتى ولو كانوا في أقطار بعيدة عن وطن المسلم. كذلك يتوسع أفق الرحمة ليشمل الدفاع عنه بشتى أنواع الدفاع، حتى ولو كان عسكرياً. وهكذا نستفيد من قيمة الرحمة سلسلة متواصلة من التشريعات الأساسية والفرعية، والله المستعان.

الفصل الثاني: المكارم قصب السبق

الإستباق الى الخيرات والمسارعة إليها

السبق والاستباق قيمتان في قيمة، لأنهما معاً تعنيان التوسل بعامل الزمن في الحصول على مغنم. ونستوحي من آيات كريمة قيمة هذا الأمر؛ فما هو السبق والاستباق ، وأبعاد كونهما قيمة ؟

أولاً: معنى السبق

بلوغ غاية معينة قبل أن يبلغها الآخر، هو السبق .

١/ فالملائكة لا يسبقون ربهم بالقول؛ فهم لا يستعجلون بالقول قبل ربهم سبحانه، حيث يقول تعالى: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْمَلُونَ ﴾ (الانبياء/ ٢٧) .

٢/ والأمة لا تسبق أجلها ، حتى ولو سعت الى تجاوزه. (فكان البشر والأجل في سباق، والأجل هو السابق بينهما). قال الله سبحانه: ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ (الحجر/ ٥) .

٣/ وقال ربنا سبحانه: ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ (المؤمنون/ ٤٣) .

٤/ وقوم لوط فعلوا ما لم يسبقهم إليه أحد، فقال ربنا سبحانه: ﴿ وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الاعراف/ ٨٠) .

ثانياً: قيمة السبق

١/ السبق مظنة اعجاز الخصم الرقيب، (لأن من سبق يستولي على المغنم، وقد يستأثر به). قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (الانفال/ ٥٩) .

٢/ ولأن السبق قيمة فطرية، ترى الكفار زعموا أن الرسالة لو كانت خيراً لما سبق إليها المؤمنون، زاعمين أن المؤمنين بها (وهم عادة طبقة محرومة في المجتمع ، بينما الملائم المستكبرون فيه، فيزعمون أنهم ليسوا) أحق بالخير منهم. قال الله الحكيم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾ (الاحقاف/ ١١) .

٣/ وأيضاً زعم الكفار أنهم بكيدهم ومكرهم يسبقون الله، فقال ربنا سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (العنكبوت/ ٤) .

فالسبق علامة الفوز ، ولذلك يدعيه الكفار كذباً وزوراً .

٤/ ولكن الكفار ليسوا سابقين، (ولن ينتصروا على الرسالة وأصحابها بكيدهم ومكرهم). قال الله سبحانه: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ (العنكبوت/ ٣٩) .

٥/ والسبق الحقيقي الذي ينال به الانسان الفوز ، هو السبق بالإيمان، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر/ ١٠) .

وهكذا يعرب اللاحقون عن احترامهم للسابقين من المؤمنين، وذلك بالاستغفار لهم، ولعل حكمة الاستغفار تتمثل في أمرين :

الأول: إن من أعظم نعم الله سبحانه على البشر المغفرة ، ولذلك يطلبها المؤمنون لإخوانهم.

الثاني: إن من الغرائز البشرية أن يتحول الاحترام عندهم الى التقديس ، وتقديس السابقين من أعظم العقبات التي كانت تعترض مسيرة التكامل عند

المجتمعات البشرية عبر التاريخ. وتقادياً لهذه المشكلة يستغفر المؤمنون لمن سبقوهم إيداناً بأن أولئك كانوا بشراً ، وكانوا معرّضين لخطر السقوط في شرك الأهواء ، ولذلك فانهم غير مقدسين، ولكن بسبقهم الى الإيمان يستحقون الاحترام والاستغفار .

٦/ وهكذا بين ربنا سبحانه قيمة السابقين، وقيمة التابعين لهم بإحسان. (فان الاتباع المطلق قد لا يكون مطلوباً، لأن أولئك لم يكونوا معصومين من الخطأ، إنما الاتباع الواعي الذي يكون في إطار قيم العقل والوحي هو المطلوب. ويبدو أن هذا هو المفهوم من كلمة بإحسان). قال ربنا عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة/ ١٠٠) .

٧/ وقد أشاد القرآن بالمؤمنين الذين يسارعون في الخيرات وهم يسبقون غيرهم فيها، فقال ربنا سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (المؤمنون/ ٦١)

٨/ وقال الله سبحانه: ﴿يَوْمُنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران/ ١١٤)

٩/ وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الانبياء/ ٩٠)

ثالثاً: الاستباق الى الخيرات

والمسابقة هي محاولة السبق ، وهي قيمة شرعية حينما يكون الهدف إلهياً ، كالمغفرة والجنة عند الله، ووسيلتهما الخيرات في الدنيا.

١/ فلقد أمر الله عباده بأن يسابقوا الى المغفرة والجنة، فقال سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿الْحديد/ ٢١﴾ .

٢/ وقال الله سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران/ ١٣٣) ونستفيد من الآية بصائر :

أ: إن على المؤمن أن يحسب عامل الزمان، فلا تقوته فرصة إلا ويغتنمها ، ولا ساعة إلا ويعصرها جهداً وإنتاجاً، ولا طاقة إلا ويستغلها لغايته السامية

ب: إن التنافس على الخير مطلوب، (ربما لأنه عامل مساعد للتحرك والفاعلية)، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين/ ٢٦).

ج: ومغفرة الله واسعة ، كما جنته عريضة، فلا يحرم منها الآخرون لو سابقتهم. ثم إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. فلا يدعوك حب الآخرين من المؤمنين واحترامهم الى الكسل، وترك الفرص لهم. كلا؛ اجتهد لاستباق الفرص، وللآخرين فرصهم ودورهم، شريطة أن يكون هدفك مغفرة الله وجناته .

٣/ والسبيل الى المغفرة والجنة؛ الخيرات، حيث ينبغي أن يستبق المؤمنون إليها، ويتسارعوا إليها، ويتنافسوا عليها، وليعلموا أن الله سبحانه لا تضيع عنده الأعمال. قال الله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيٰهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة/ ١٤٨)

٤/ وقال الله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ (المائدة/ ٤٨) .

ونستفيد من الآيتين بصيرة هامة؛ هي ان اختلاف مناهج الطاعة وشرائع الإيمان؛ وبالتالي الاختلاف في الأديان والمذاهب، قد لا ينتهي إلا عند الله سبحانه في يوم القيامة ، حيث ينبئ الرب عباده بما كانوا فيه يختلفون. وعلى الناس بدل أن يضيعوا عمرهم في الجدال النظري، أن يتسابقوا الى الخيرات، ذلك لأن الخيرات واضحة لكل ذي فطرة سليمة. فالعمل الصالح والعدل والقسط والاحسان والوفاء والصدق والأمانة وما إليها من الصفات المثلى التي يشهد بها العقل، إنها جميعاً متفق عليها بين كل الشرائع والمناهج. فإذا جعل البشر هذه الخيرات غاية لتسابقها، فان المحصلة النهائية إسعاد البشر، وعمارة الأرض ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ..

ولعل هذه البصيرة تهدف إلى إنقاذ المؤمنين، بل كل الناس من إضاعة الوقت في البحوث النظرية دون المسارعة الى الخيرات . والله العالم.

٥/ والسابقون بالخيرات، هم الذين فازوا بالفضل الكبير، إذ يقول الله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ لِكَهُنَّ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر/ ٣٢) .

٦/ ولعل هؤلاء هم المراد بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة/ ١٠-١١) .

فالسابق هو المسارع الى الخيرات. فهو المقرب، وهو المصطفى من عباد الله، وهو وريث الكتاب. والله المستعان.

بصائر الآيات

١/ السبق والاستباق، هو التسارع الى الهدف قبل الآخر، وهما قيمتان في قيمة .

٢/ في السبق مظنة إعجاز الآخر؛ والسبق قيمة فطرية، حتى زعم الكفار أن الرسالة لو كانت خيراً لما سبق إليها المؤمنون (من المحرومين)، بل وزعم الكفار أنهم يسبقون أهل الايمان، ولكن الكفار ليسوا بسابقين.

٣/ إنما السبق الذي يورث الفوز هو السبق الى الإيمان، ومن هنا يستغفر الآخرون للسابقين من المؤمنين حباً واحتراماً لهم، لا تقديساً وعبادة. والذين اتبعوا السابقين (من المهاجرين والأنصار) لهم الرضا، (شريطة أن يكون الاتباع باحسان).

٤/ وإذا كان الهدف المغفرة والجنة، والوسيلة الخيرات، فإن الاستباق قيمة حميدة رغب فيها الوحي. ومن ذلك نعرف قيمة الوقت، واغتنام الفرص، وبذل كل الوسع من أجل الغاية، دون انتظار الآخرين الذين لا تنقص عنهم مغفرة الرب الواسعة وجنته العريضة.

٥/ ومحور التسابق الخيرات، وحتى لو كانت الشرائع مختلفة، فإن المطلوب المسارعة الى الخيرات حتى لقاء الله، حيث يبين لعباده ما كانوا فيه يختلفون.

٦/ وهكذا السابقون هم المقربون، والفائزون بالفضل الكبير.

فقه الآيات

بصائر الوحي تندب الى الفاعلية القصوى، حتى لا تضيع طاقة، ولا تفوت فرصة، ولا يمر وقت، ولا تتعطل إمكانية إلا ويغتنمها المرء في سبيل الله سبحانه بفعل الخيرات، والمسارعة إليها والمنافسة فيها. ومن ذلك نستفيد:

١/ إنه ينبغي أن يحصي الانسان طاقاته، ويعرف مدى إمكاناته، ويتحسس الفرص المتاحة له.

٢/ كما ينبغي ملاحقة الوقت، ومعرفة قيمته ومحاولة ضغطه بكل وسيلة ممكنة؛ مثلاً: السرعة في المشي واستخدام المركب الأسرع، والسرعة في

أداء الأعمال (القراءة السريعة، والكتابة الأسرع، واختزال وقت الطعام والنم، وأداء ضرورات العيش، وما أشبهه) .

٣/ ومن هنا فإن البحث عن الأجهزة التي تساهم في اختصار السبل الى الأهداف ، ابتداءً من المواصلات وانتهاءً بأجهزة الاتصال، ومروراً بالكمبيوتر والبرامج المعلوماتية الأسرع. إن البحث عنها ضروري للمؤمن الذي يسعى أبداً للاستباق نحو الخيرات.

٤/ علينا أن نختار الوقت كلما تعارض مع سائر الأشياء ذات القيمة. فادفع مالا أكثر لتحصل على الوقت، فإن المال يعوّض والوقت لا يعوّض.

٥/ ليس الدين نظاماً شمولياً ذا بعدٍ واحد؛ لا في السياسة، ولا في الإقتصاد، ولا في أي حقل من حقول الحياة، بل هو النظام الأكثر تعددية وتنافسية. فهو يؤمن بتنوع الشعوب والقبائل ليتعارفوا، ويعترف بتعدد الأديان والمذاهب ليلو بعضهم ببعض ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، ويقر باختلاف الألوان والألسنة (الأذواق ومناهج التفكير)، ويستوعب الاقتصاد الحر القائم على التنافس على الخيرات، ويشجع الاستباق في العمل الديني بين الفئات المختلفة.

وهذا النظام هو الأكثر واقعية، والأقدر على توحيد الأمم، والأقرب الى كرامة البشر التي تتنافى مع الفرض والقهر واستلاب الحريات.

من هنا نجد إن حرية الاختيار في المسائل الأهم كالدين مكفولة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة/٢٥٦)، فكيف بحرية الانتخاب في المسائل المهمة (كالسكن والإقامة والانتماء السياسي، والعمل الاقتصادي)؟ وهكذا يجب علينا أن نعيد النظر في كثير من مفردات الأنظمة والعادات التي فرضت على المسلمين في عهود مضت، إما بسبب رؤية خاطئة الى الدين في عصور التخلف، أو بسبب ميل حكومات الجور وجماعات الضغط السياسية والاقتصادية الى الشمولية.

بلى؛ إن الشمولية مخالفة صراحة مع الكرامة والحرمة (الحرية) والاختلاف (التعددية).

وفيما يلي طائفة من الأمثلة نسوقها في نفي الشمولية، وذلك بهدف بلورة الرؤية فقط، أما التفصيل فلا بد من دراسته عبر بحوث مطوّلة.

أ- الإسلام يؤمن بحرية المعرفة والثقافة، وقد أمر الله سبحانه بالجدال بالتي هي أحسن، وبشّر عباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأمر بالنظر والعقل والتفكير، ونهى عن الإكراه على الإيمان. ومن هنا نشأت في ظل الدين جامعات علمية شامخة، كان البحث الحرّ قاعدة أساسية فيها. وجاءت لحظة النكد في الدولة الإسلامية واقتضت الإرهاب وقمع الأحرار وفرض آراء خاصة في العقائد والفقهاء والأخلاق. ولكن مع ذلك كانت هناك معاهد علمية مارست، ولو بخفاء دورها في البحث الحرّ، والتي تجسدت في الحوزات الدينية التي بالرغم من محدودية أنشطتها بسبب الظروف المعاكسة، إلا أنها ظلت تمارس عملية الاستنباط، فاتحة أبواب الاجتهاد على مصراعيها. واليوم يجب أن تتخلص المؤسسة الدينية من تراث الماضي، وتفتح أبوابها للباحثين، حتى نسبق العالم المتقدم باذن الله تعالى.

ب- والإسلام يرفض النظام الوراثي الذي يسميه بالملك العضوض، ويرفض الأمر الواقع القائم على أساس من ملك السيف كان أحق بالسلطة، ويسمي المتسلط بالقوة طاغوتاً، ويرفض التحكم باسم الدين لأنه نوع من الطغيان، وإنما يعترف بحرمة الناس في انتخاب وليهم في إطار القيم الإلهية العليا كالعلم والإيمان (الفقهاء والعدالة).

ويعترف في هذا الإطار بالحقوق المشروعة للناس في تنظيم أنفسهم في مؤسسات سياسية بكل أشكالها، وهكذا يبقى الانتماء حراً، ولا يجوز معاقبة أحد على الانتماء.

كما إن الحرية السياسية تستدعي حرية الاعلام، وحرية النقد، وحرية الاجتماعات والمسيرات.

ج- الاقتصاد في الإسلام يتمتع بحرية واسعة. فلا يجوز تحريم ما أحل الله لعباده، حسب آية كريمة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف/٣٢)

ويرغب الدين الحنيف على تسخير ما في الطبيعة لمصلحة الانسان. ومن هنا فإن حرية الحركة في الأرض، وحرية الصيد، واستخراج المعادن، والاستفادة من الأرض للزراعة والبناء، والانتفاع بالماء والهواء وما أشبه.. إنها ليست مجرد حريات مكفولة وحرمان للناس ثابتة، وإنما هي مما رغب فيها الدين كما أباح التجارة في إطار القانون، حيث قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء/٢٩).

ولم يسع الرسول على المحتكر، وغضب عندما اقترح عليه البعض ذلك. ولم يعرف المسلمون حدوداً تجارية كالتي نجدها اليوم في العالم، ولعل البشرية تتقدم قروناً متمادية حتى تصل الى وضع التجارة في ظل هيمنة المسلمين عليها. ونحن نجد اليوم إرهاصات هذا التقدم في منظمة التجارة العالمية (غات).

د- والحريات الاجتماعية والشخصية مكفولة؛ مثل حرية الجلسات والمهرجانات والمسيرات، وحرية الانتماء والتنظيم، وحرية الزواج وبناء الأسرة، وحرية اختيار نوع الزي، وكذلك حرية الالتزام بالعادات الفردية. إن الدين الإسلامي بشرّ البشرية بالرحمة العالمية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الانبياء/١٠٧)، وتتجلى تلك الرحمة في اجتماع الأمم على أصول ثابتة يعرفها الجميع ولا ينكرونها، وأبرزها ألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً، (فلا تكون هناك عنصرية أو طبقية أو عصبية غير محدودة، ولا قوى مستكبرة وأخرى مستضعفة)، ولا تزال البشرية بحاجة الى مثل هذا النظام العالمي الإلهي المنتظر وقوعه مستقبلاً باذن الله تعالى.

في رحاب الأحاديث

قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: "إن الدنيا قد أدبرت وأذنت
بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، ألا وإن اليوم المضممار، وغداً
السِّباق، والسَّبقة الجنة، والغاية النار". (١)

وقال أبو عبد الله (الإمام جعفر بن محمد الصادق) عليه السلام: "تنافسوا
في المعروف لآخوانكم، وكونوا من أهله، فإن للجنة باباً يقال له: المعروف،
لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا". (٢)

(١) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٣٧٣، ح ٨٢٥٤.

(٢) الاصول الكافي، ج ٢، ص ١٩٥.

قيمة الوقت

خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، وقدرها تقديراً، وجعل الشمس والقمر بحسبان، وسخرهما ليجري كل منهما الى أجل. وخلق الانسان وجعل له أجلاً، كما جعل لكل أمة أجلاً، فلا يعذبهم حتى يوافقهم أجلهم، فاذا جاء ذلك الأجل فإنه لا يؤخر، وقد جعل ربنا لكل أجل كتاب، وجعل الصلاة للمؤمنين كتاباً موقوتاً، وجعل الأدلة لمعرفة عدد السنين والحساب. عن هذه البصائر نتحدث باذن الله في فصول ثلاث.

أولاً: وعي الأجل في الكائنات

١/ كان الله ولم يكن معه شيء، ثم قدر الأشياء بعلمه، ثم أفاض عليها بقدرته الواسعة نور الوجود فخلقها خلقاً بعد خلق، وتجلت ربوبيته في خلقها، إذ جعل خلقه لها في أيام. كما خلق الانسان من نطفة تمنى، ثم جعلها علقة فمضغة، ثم سواها رجلاً. كذلك خلق السماوات والأرض في ستة أيام، حيث كانتا رتقاً ففتقها، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، وجعل من الماء كل شيء حي. وهكذا تحقق نموها بفضلته تعالى، وتجلت هيمنته فيها، واستواءه سبحانه على عرش القدرة فيها.

(والذي نستفيده من هذا التكامل التدريجي في خلقة السماوات والأرض، إن عنصر الزمان الذي قد يكون هو في حقيقته تجدد الخلق وتعاقب مراحلها، إنه عنصر أساسي في الخليقة). وقد قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ

يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿الاعراف/٥٤﴾

ونستفيد من الآية بصائر هامة في معرفة الزمان، وهي:

أ- إن الزمان (سنة أيام) ظرف الخلق، وباعتبار أن الربوبية توحى بتنمية الشيء طوراً فطوراً، فإن الله أعطى السماوات والأرض كمالها في عرض ستة أيام، وعلى إمتداد هذا الزمان.

ب- إن الله كان متصفاً بصفة الخالقية إذ لا مخلوق، ثم خلق الأشياء فتجلت خالقيته في خلقه. كما أنه كان متصفاً بصفة العلم إذ لا معلوم، فلما خلق المعلوم وقع علمه عليه دون أن يتغير هو شيئاً، سبحانه وتعالى عن صفة المخلوقين.

ولعل ذلك معنى لفظة ﴿ثُمَّ﴾ إذ دخل على فعل استوى على العرش، إذ قدرته سبحانه وسلطانه وخالقيته تجلت بعد خلقه السماوات والأرض وظهرت فيهما. ولعل ذلك أيضاً معنى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ حسبما ورد هذا النص في آية أخرى إذ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (هود/٧)

ج- نستفيد من قوله ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ إن حركة الليل والنهار هي من فعل الرب. فهو الذي يضيء على ظلام الليل نور النهار، فكأنه يلبسه رداءً أو إهاباً ثم ينزع منه الرداء، فإذا بالظلام يعود ويسلخ منه الإهاب (إهاب النهار) فيصبح عارياً من النور.

من هنا فإن تعاقب الليل والنهار (وهما وحدتا الزمان عندنا)، هو من فعل الرب، ودليل قدرته.

٢/ كما خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، وكما هو يغشي الليل النهار، فهو مهيمن على خلقه، فله أمره، وأنه يمنحه بركته ورحمته. وأنت

الانسان المخلوق تحيط بك بركة الرب ورحمته، فإذا أطلب منه ما تشاء
تضرعاً وخفية، حيث قال سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ
رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الاعراف/٥٥-٥٦)

فالزمان بالنسبة إليك فرصة تلقي رحمة الله، وظرف تجلي بركته فيك.
وإنما بالدعاء تستدر الرحمة، وتستنزل البركة؛ شريطة أن يكون دعاؤك
بضراعة وانقطاع إليه وبلا رياء، وأن يكون خوفاً من إنقطاع رحمته وطمعاً
في زيادتها.

٣/ ومن حقائق بركة الله في خلقه، أنه سبحانه قدر في الأرض أوقاتاً في
أربعة أيام. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت/١٠)

ونستفيد من الآية؛ إن بركة الله تجلت في توفير شروط الحياة في الأرض،
بما أودع فيها من الأقوات. ومعروف كم هي كثيرة وعظيمة شروط الحياة
المتوافرة في الأرض بفضل الله تعالى.

٤/ والنظرة السطحية الى الأشياء، وبالذات الى الكائنات الضخمة توحى
بأنها حقائق ثابتة وجامدة، حتى أن القدماء من الفلاسفة كانوا يزعمون أن
التحول محال في السماوات. ولكن النظرة العلمية تدعونا الى الايمان بأن كل
شيء متحول، وحتى الجبال الراسيات التي نحسبها جامدة تسير سير السحاب.
ولدى تجزئة الأشياء الى جزئيات متناهية في الصغر وجدناها ذرات تكاد
تتعدم الكتلة فيها، مما حدى ببعض الفلاسفة المعاصرين الى تبني مذهب
المثالية الفيزيائية التي ترى العالم لا شيء. وهكذا حملنا العلم، وبالذات بعد
إكتشاف الذرة، أن الحركة والضرورة والتحول من حال لحال، أنها سمة
الأشياء. وهذه الحركة التي نجد مثلاً ظاهراً لها في حركة الشمس والقمر
والكواكب، وفي اختلاف الليل والنهار تدعونا الى معرفة واقع الخلق. وأن ما
له بداية لا بد أن تكون له نهاية، وأن الأجرام تجري لأجل مسمى. وهكذا

ذكرنا ربنا سبحانه بأن الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد/٢)

٥/ ذلك لأن كل شيء خلقه الله سبحانه بقدر، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر/٤٩)

وما له قدر يكون له أجل، لأنه يستنفذ طاقته في يوم من الأيام. وتعبير آخر؛ الذي ينقص ينتهي عند نقطة معينة.

٦/ وهذه النظرة الواقعية الى الكائنات المخلوقة تزيدنا وعياً بحقيقة الزمان، وبقيمة الوقت، وبأهمية المسارعة لتحقيق الأهداف، لأنك إذا أنعمت النظر تجدك تسبح في تيار الزمن المتدفق الذي يحملك الى نهايتك بسرعة قصوى. فعليك أن تسبح بعكس التيار، لعلك تأخذ من نفسك لنفسك نصيباً قل أو أكثر.

ثانياً: وعي الأجل في الانسان

١/ والانسان يعيش في عالم كل شيء فيه بقدر وبحسبان، وقد جعل الله القمر نوراً وقدره منازل، لكي يعلم البشر عدد السنين والحساب. فكلماً مضى إثني عشر شهراً على الانسان، إنصرم من عمره عام. ثم ليعلم الانسان الحساب من يوم لآخر، فيضبط حياته. قال الله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الرعد/٥)

٢/ ومن فوائد الحساب الذي يعرفه الانسان من حركة الليل والنهار ومن منازل القمر، الإحساس بالمسؤولية. فاذا كان كل شيء بحسبان، كيف يترك البشر سدى بلا حساب؟ قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَنًا آيَةً اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَصْنَاهُ تَفْصِيلاً * وَكُلُّ إِنْسَانٍ

أَلَزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿
(الاسراء/١٢-١٣)

٣/ وإذا كانت الشمس والقمر والكواكب ومنها الأرض وما فيها من بحار وجبال ومخلوقات كبيرة أو صغيرة في حالة الصيرورة الى نهايتها، فكيف بالانسان إنه هو الآخر يسير باتجاه أجله. وقد ذكر القرآن الكريم بأن أجل الانسان مقضي عند خلقه، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (الانعام/٢)

ونستفيد من ذلك؛ إن هناك صلة بين الخلق والأجل، فالمخلوق قد أوتي من عند الخالق قدراً معيناً من النور (نور الوجود، طاقة الحركة، وما أشبه)، وهذا النور يتناقص الى أن ينتهي.

٤/ وعند بيان طور من أطوار خلقة البشر في الأرحام، يذكرنا الرب بالأجل أيضاً. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج/٥)

٥/ وقال ربنا سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (المرسلات/٢١-٢٢)

فالقدر الذي خلق به الخلق كله، يشمل البشر أيضاً. إن كل شيء فيه بحسبان (وليست طاقاته وإمكاناته فرصة لا محدودة). ومعنى ذلك، إنه يتناقص؛ ومن كان كذلك، فإنه يسير باتجاه الفناء.

والذين يتأملون هذه الحقيقة، يزدادون وعياً بأهمية الطاقة التي يستنفذونها، وبالذات الزمن الذي يسبغون في تياره. وحسبما يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام في بعض روائع حكمته، ذات التأثير البالغ في النفوس الواعية:

من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون، ومن لم يعرف الزيادة في نفسه كان الى النقصان أقرب، ومن كان الى النقصان أقرب فالموت خير له من الحياة. (١)

وقال عليه السلام لإبنه الإمام الحسن عليه السلام: واعلم يا بني إن من كانت مطيته الليل والنهار، فإنه يسار به وإن كان واقفاً. (٢)

وفي رائعة أخرى للإمام عليه السلام يقول: فبادروا العمل، وخافوا بغتة الأجل، فإنه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق. ما فات اليوم من الرزق رجي غداً زيادته، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعتة. الرجاء مع الجائي، واليأس مع الماضي. (٣)

والامام الباقر عليه السلام يتضرع الى ربه سبحانه في دعائه الذي علم أبا حمزة الثمالي، ويقول: "ومالي لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري وأرى نفسي تُخادعني وأيامي تُخاتلني وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت". (٤)

وفي دعاء شريف يقرءه المؤمنون في مسجد زيد بالكوفة، نقرأ ما يلي:
"ويلي كلما كبر سني كثرت ذنوبي، ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي، فكم أتوب وكم أعود أما أن لي أن أستحيي من ربي". (٥)
كل هذه الروائع الماثورة تزيد المؤمن وعياً بقيمة الوقت الذي يتناقص، ويتناقص المرء معه، فكأن كل يوم بسمار يذق في نعش البشر. وحسب حديث قدسي معروف: "يابن آدم إنما أنت أيام فاذا مضى يوم فقد مضى بعضك"، وفي حديث حكيم: "نفس المرء خطاه الى أجله..". (٦)

(١) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٧٣، ح ٥.

(٢) نهج البلاغة الكتاب ٣١-٨٣؛ المعجم المفهرس لالفاظ نهج البلاغة، ص ١١٨٣.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١١٤؛ المعجم المفهرس لالفاظ نهج البلاغة، ص ٤٣.

(٤) مفاتيح الجنان، القمي، ص ١٩٣.

(٥) مفاتيح الجنان في أعمال مسجد زيد، ص ٧٢٥.

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم، ح ٧٤.

وحسبما يقول الشاعر:

دَقَّاتِ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهَا
إِن الْحَيَاةَ دَقَائِقُ
وثواني

إنك لو رسمت في بيتك خطأً بيانياً لعمرك التقريبي، ثم لونت ما مضى منه بلون أصفر، أحسست بقيمة الوقت الذي قد يضيع في غفلة من الإنسان. وإذا غرست في بيتك شجرة، فاعلم بأنها كلما كبرت فإنك تصغر بذات النسبة. هناك تحس ماذا يعني إختلاف الليل والنهار، وماذا يعني تقادم الأسابيع والأشهر والسنين.

وكما يقول الإمام علي عليه السلام: "ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر". (١)
٦/ وكما الأفراد، كذلك الأمم تسير نحو آجالها المعلومة. والمدنيات الكبرى ولدت فشبت ثم شاخت فانتهدت عندما حان أجلها، وقد قال الله سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (يونس/٤٩)

ونستوحي من الآية؛ وجود آجال معلومة لكل أمة، كما توجد لكل انسان، ولكن قد تقصر هذه الآجال بسبب الذنوب.

٧/ وقال ربنا سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل/٦١)

٨/ ونستوحي من الآية؛ إن فرصة التوبة – بالنسبة الى الأمم – ليست بلا نهاية. إنها فرصة محدودة بأجل، فإذا جاء نزل عليهم العذاب، ولا تنفعهم التوبة. وقصة قوم يونس فريدة، إذ يقول ربنا سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس/٩٨)

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٨٨؛ المعجم المفهرس ص ٦٧.

والتدبر في خاتمة الآية يذكرنا بأن إمهال هذه الأمة أيضاً كان الى حين، وليس بلا حدود.

٩/ وقد وعد الله تعالى قوم نوح عليه السلام بأنهم إن آمنوا أخرهم إلى أجل مسمى، فقال الله سبحانه: ﴿يَعْفُرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (نوح/٤)

ونستفيد من هذه الآية والتي سبقت؛ إن هناك أجلاً مسمى عند الله، لا علاقة له بايمان الأمم أو كفرهم، كما الأجل المقدر للإنسان إنه لا علاقة له بصحته وسقمه.

بلى؛ أن الأمم قد ينزل عليها عذاب الاستيصال بسبب كفرهم، كما أن الفرد قد يموت بسبب مرض او صدمة أو ما أشبهه. والأنبياء عليهم السلام إنما كانوا يحذرون الأمم من عذاب الاستيصال، الذي انتهت به أكثر الأمم، كما أن الطبيب انما يحفظ الفرد من الموت إذا استجاب له. أما أجل الأمم المقدر عند الله فإنه إذا جاء لا يؤخر، كما أن الأجل المحتوم للفرد إذا نزل به فإنه لا يؤخر. والله العالم.

ثالثاً: وعي الوقت في الفرائض

والفرائض قد وقتت في الأهلة والأيام والساعات.

١/ فالحج أشهر معلومات، وقد جعل الله الأهلة مواقيت لها. قال الله سبحانه: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة/ ١٩٧)

٢/ وهكذا شهر رمضان، واحد من أشهر السنة، حيث قال الله سبحانه:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة/ ١٨٥)

٣/ والأشهر الحرم التي يجب تعظيمها، هي أربعة بذاتها، لا يمكن تغييرها أو تأخيرها. وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة/٣٦)

٤/ وقد جعل الله الأهلة مواقيت للناس والحج، فقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة/١٨٩)

ونستفيد من هذه الآيات؛ أن علينا ضبط الأشهر والتقيد بأداء الفرائض فيها، مما يجعل الانسان يعي إختلافها وتقدمها ومضي الوقت عليه بسببها. وهكذا يزداد وعياً بحركة الزمن، فاذا شاء اعتبر بها.

٥/ والأيام ذات تمايز، فقد جعل الله الجمعة يوم إجتماع الناس لذكر الله، حيث قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الجمعة/٩)

٦/ وفي اليوم ليست الساعات واحدة، وإنما هي مقدرة تقديراً دقيقاً. وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَعَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المزمل/٢٠)

٧/ والصلاة مفروضة في أوقاتها، لأنها كتاب موقوت. قال ربنا تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء/١٠٣)

٨/ وأمر ربنا سبحانه بإقامة الصلوات في ساعات معينة، فقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ عَسْقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الاسراء/٧٨-٧٩)

والتهدج بالليل مقاومة النعاس، وهو الهجود مثل التقليل، أي إلقاء القمل. ومثل كلمة "فزع" بالتشديد، أي إلقاء الفزع والتحرر منه.

وهذه الكلمة توحى بضرورة مغالبة النعاس لقيام الليل. وهناك آيات تبين أن من صفات المؤمنين قلة المنام في الليل، والإستغفار بالأسحار. وبهذا نعرف مدى ترغيب الدين في المحافظة على الوقت بقلة النوم، وقد جاء في الحديث عن الامام علي عليه السلام: "ما أنقض النوم لعزائم اليوم". (١) وجاء في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: "إن أول ما عُصي الله عز وجل به ستُّ: حب الدنيا، وحب الرياسة، وحب الطعام، وحب النوم، وحب الرحة، وحب النساء". (٢) وجاء في وصية أم سليمان لابنها: "إياك وكثرة النوم بالليل، فإن كثرة النوم تدع الرجل فقيراً يوم القيامة". (٣)

٩/ وقال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود/١١٤)

إن التقيد بالفرائض يجعل المؤمن ينظم حياته بالأشهر والأسابيع والساعات تنظيمًا دقيقاً، لأن الفرائض تساهم في تنظيم وقته عموماً.

(١) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٢٦١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ١٠٥، ح ٣.

(٣) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٢٦٠، ح ٢٠٦١٥.

١٠ / وعلى الإنسان أن يعرف أن عدو الوقت طول أمله. فمن ابتلي بصفة طول الأمل، ضيع العمل، وسوف الأمور، واستراح الى المنى، واسترسل مع الهوى، وتسربل بالضجر والكسل.

وإنما يطول أمل الانسان إذا نسي الأجل، وتناسى الموت، وغفل عن الحساب، واستهان بالعقاب، ولم يرج الثواب. وهكذا يتلاشى طول الأمل بذكر الموت، وإنه زائر ثقيل يفاجئه في أي وقت. أوليس الأجل إذا حان لا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة، أوليس البشر جاهلاً بمدته وميعاد أجله؟؟

ويتمنى الانسان حين ينزل عليه الموت، أن لو تأخر عنه إلى أجل قريب، لكي يتدارك ما فات عليه من صالح العمل. ولكن هيهات. قال الله سبحانه: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون/١٠-١١)

وهكذا يا أيها الانسان المغرور بأجله تضيع الساعات والأيام والأشهر.. بل والأعوام من عمرك، ثم تتمنى حين ينزل بك الأجل لحظات من ذلك العمر الضائع، أن لو تأجلت وفاتك حتى تعمل في تلك اللحظات خيراً.. وهل ينفحك المنى؟

١١ / العمر الذي يعيشه المرء يكفيه للعمل الصالح وللتوبة، وقد تمر عليه فرص عديدة لكي يعود الى رشده، ويتزود لعاقبته، ويعمل لحياته الحقيقية في الآخرة، ولكنه يضيعها جميعاً. فإذا سأل ربه أن يعيده الى الدنيا، قيل له ما قص علينا كتاب ربنا سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر/٣٧)

فالعمر كان كافياً للتذكر، وشرط التذكر كان متوفراً، وهو النذير. والفرصة قد ضاعت والى الأبد..

١٢/ وطول الأمل يلهي الانسان عن ذكر الله وعن العمل الجدي في سبيله، ويسوّف صاحبه التوبة، ويؤخر صالح الأعمال. قال الله سبحانه: ﴿ذُرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِيهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر/٣)

وهكذا ذكرتنا الأحاديث الكريمة بدور طول الأمل في ضياع فرص العمل، منها ما جاء في حديث شريف عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: "من أطال الأمل، أساء العمل". (١)

وخطب الإمام علي عليه السلام، فقال: "إنما أهلك الناس خصلتان، هما أهلكتا من كان قبلكم، وهما مهلكتان من يكون بعدكم؛ أمل يُنسي الآخرة، وهوى يضل عن السبيل". (٢)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من كان يأمل أن يعيش غداً، فإنه يأمل أن يعيش أبداً". (٣)

وقال الإمام علي عليه السلام: "من جرى في عنان أمله، عثر بأجله". (٤)
١٣/ وعندما يعي الانسان قيمة الوقت، يندفع نحو العمل، ويكافح من أجل الآخرة؛ لا يدع فرصه تتحول الى غصص، لأنه قد لا تعود إليه أبداً. بينما إذا تلهى بالأمل، فتراه كالبهيمة التي ترعى بكل سكينة، والقصاب يحد سكينه لذبحها. هكذا اللاهي ينشغل عما وجب عليه باللغو الذي لا ينفعه؛ أما أن يخوض فيما لا يعنيه من شؤون الناس، أو يضيع أوقاته في اللهو واللعب، أو يهتم بما لا يهمه من أمور الدنيا الزائلة ويترك الآخرة الباقية. بينما يصف ربنا المؤمنين الذين أفلحوا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون/٣)

١٤/ ويضن المؤمنون بأوقاتهم التي هي ما تبقى من فرصهم في الحياة الدنيا، فلا يصرفونها إلا في الأولى والأُنفع، وإذا مروا باللغو مروا كراماً. قال

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٦٦، ح ٢٩.

(٢) المصدر، ص ١٦٧، ح ٣٠.

(٣) المصدر، ح ٣١.

(٤) المصدر، ص ١٦٦، ح ٢٩.

الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾
(الفرقان/٧٢)

١٥/ والكفار والفساق يلهون ويلعبون وقلوبهم فارغة من ذكر الله، ومما هم قادمون عليه من الحساب والعقاب، حيث يقول عنهم ربنا سبحانه: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ (الانبياء/٣)

١٦/ وقد هيمنت عليهم الحياة الدنيا بغرورها وفجورها ولهوها ولعبها، حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً. قال عز من قائل: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الانعام/٣٢)

فقه الآيات

الجد والاجتهاد والنشاط والحيوية من أبرز القيم التي أكدت عليها النصوص الدينية؛ سواءً بصورة مباشرة، أو غير مباشرة. ومن أبرز دوافعها، وعي الوقت والاهتمام بساعات العمر، والمبادرة الى العمل قبل مباغتة الأجل. ولكي تتصل هذه القيمة بواقع كل واحد منا، بل بواقع أمتنا في هذه المرحلة الحرجة التي تداعت فيها الأمم علينا كما تتداعى الأكلة على القصعة، علينا أن نستبين الحقائق التالية:

أولاً: الضجر والكسل

الضجر كما صخرة صماء على الطريق، يمنع الإنسان من الاندفاع. وللضجر (والتعب) أسبابه الكثيرة؛ ومن تلك الأسباب الفرح الذي يجعل الفرد لا يحس بالحاجة إلى التحرك، وكأنه قد أدى كل ما عليه. والمرحلة الخطيرة من صفة الفرح العبثية واللاهدفية. وقد يكون الضجر بسبب التوتر العصبي الناشئ من فواحش القلب كالكبر والحسد والحقد والاحباط واليأس وما أشبه،

وقد يكون سبب الضجر التعب الجسدي وثقل الدم أو قلة المواد الضرورية لعمل المخ، والمرحلة الخطيرة منه المرض الجسدي. وأياً كانت أسباب الضجر، فإن علينا مكافحته باكتشاف أسبابه، ثم القضاء عليها بكل إصرار، لأن الضجر موت بطيء وسبب لسلسلة طويلة من الأخطار الكبيرة.

ونقرأ في آية كريمة أن من صفات المنافقين الكسل في العبادات. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء/ ١٤٢)

وقد نهت روايات أهل البيت عليهم السلام منه، حيث نقرأ عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: "يا علي؛ إياك وخصلتين؛ الضجر والكسل، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حق، وإن كسلت لم تؤد حقاً". (١)

وقال الإمام الصادق عليه السلام: "إياك والضجر والكسل، فإنهما مفتاح كل سوء"، وقال عليه السلام: "الكسل يضر بالدين والدنيا". (٢) وقد دعت الأحاديث إلى الحيوية والنشاط، والعمل والاجتهاد، وهي الحالة المعاكسة تماماً للضجر.

قال الإمام علي عليه السلام في خطبة له: "ألا وأن اليوم المضمار وغداً السباق، والسبقة الجنة والغاية النار. ألا وأنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرره أجله". (٣)

وقال عليه السلام: "في كل وقت عمل". (٤)

(١) الحياة، ج ١، ص ٢٩٩، ح ١؛ عن كتاب مكارم الأخلاق، ص ٥٠٢.

(٢) المصدر، ص ٣٠٠، ح ٥، ص ١٣.

(٣) المصدر، ص ٢٦٠، ح ٥.

(٤) المصدر، ح ٧.

وروى الإمام الرضا عليه السلام، عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: " لا ينال ما عند الله إلا بالعمل". (١)
وقال النبي صلى الله عليه وآله: "العمل كنز والدنيا معدن". (٢)

ثانياً: تنظيم الوقت

ليست كل ساعات يومك، ولا كل أيام اسبوعك واحدة من الناحية الانتاجية. فقد تكون ساعة أفضل من ساعات، ورب يوم أنفع من أسبوع. تعال أيضاً هندس أوقاتك كما لو أردت بناء بيتك، أولست تجعل كل مادة من المواد الانشائية في موضعها المناسب؛ الحجارة والحديد والأبواب، كذلك الساعات الفضلى تجعلها للأعمال الأهم والأصعب ثم تتدرج الى أن تجعل أضعف ساعاتك لأسهل أعمالك أو حتى لراحتك؟ وإليك الوصايا التالية التي هي وحي تجاربي والتجارب التي استفدتها من الآخرين:

أ- بعد ليلة تمتعت فيها بنوم هادئ وكافي، وفي ساعات الصباح الأولى، وإذا كنت قد أخذت قسطاً من الطعام الخفيف المفيد، وكنت في موقع هادئ بعيداً عن الضوضاء وعن إنتظار

موعد أو شخص؛ إنها أفضل ساعاتك للدراسة والبحث العلمي الدقيق. وفي يوم السبت، وقد استقذت ملياً من عطلة الجمعة، وأمامك مخطط واضح أعددته سلفاً لأعمالك، فستكون في أحسن الأيام لقضاء حوائجك.. وهكذا يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله، أنه قال: "اللهم بارك لأمتي في بكورها، يوم سبتها وخميسها". (٣)

وقد تكون أفضل ساعاتك في آخر الليل، بعد أن تقوم من نومتك وتصلي لربك ركعات، وتطهر قلبك من الآثار السلبية للنهار السابق، وتستغفره من الذنوب وتحصل على سكينة النفس والتوكل على الرب.

(١) المصدر، ح ١٠.

(٢) المصدر، ص ٢٥٩، ح ٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٦، ص ٣٥، ح ٣.

وقد تكون ساعات غيرها هي الأفضل، إلا أن المهم أن تختار أفضلها لأصعب الأعمال، وأهمها عندك.

ب- ثم تضع سلم الأولويات، تختار لكل عمل ساعة، ولا تنس أنك كيان متنوع الأبعاد. فلا تحاول أن تشتغل بنوع واحد من العمل، فتكون كمن يأكل الطعام ثم لا يروي عطشه بشراب، أو كمن يتغذى بنوع واحد من الأطعمة فيفتقر جسده الى سائر المواد الضرورية.

نظّم أوقات عبادتك أولاً، ثم اختر قبلها أو بعدها ساعات أعمالك. فالصلاة في أول أوقاتها أفضل مقسم ليومك الى أقسام، لكل قسم منها دورته الزمانية. ذلك لأن الصلاة تطهر النفس وتغسلها من أسباب الضجر والتعب، ويبدء المرء بعدها حياته من جديد. فإذا كانت الصلاة بشروطها وفي المسجد ومع الذكر والدعاء والموعظة ولقاء الأخوة، فإنها مرفأ للراحة النفسية، وسبب لتجديد الحياة، ومنطلق للحركة الجديدة. فبعدها تقوم بأفضل أعمالك، ثم الأفضل، حتى يكون قبل وقت الصلاة الجديدة قد قمت بدورة زمانية معينة بداتها بالأفضل وأنهيتها بالأسهل.

وهكذا قسم أوقاتك على حاجاتك الجسدية والروحية، وعلى واجباتك الأمثل فالأمثل. وأعط لكل جانب قسطاً عادلاً لا إفراط فيه ولا تقريط، وتذكّر أن النفس البشرية يستهويها من الأعمال أسهلها، فلا بد أن تأخذها الى الأحمز بعزمك، فخير الأعمال أحمزها.

ج- في كل عمل ثلاث مراحل؛ ففي بداية العمل يندفع المرء إليه بشوق، ثم وفي المرحلة الثانية يحس بانعدام الشوق ولكنه يرغب عقلياً في الاستمرار، أما في المرحلة الثالثة فإنه يتعب نفسياً وربما جسمياً من العمل. والعمل مع الشوق جيد، ومع الرغبة حسن، ولكنه رديء مع التعب. وهكذا توقف عن العمل واشتغل بغيره ثم عد إليه بشوق أو لا أقل برغبة.

وعن الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام قال: إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقصروها على الفرائض. (١)

وتصدق هذه النظرية في الأعمال الدقيقة كالعبادة والتأليف والبحث العلمي أكثر من الأعمال الخشنة التي لا صلة للحالة النفسية بأدائها.

ثالثاً: الاهتمام بالسرعة

قدرة البشر تتمركز في طاقاته الروحية والعقلية والادارية، وهي مخلوقة ومقدرة بصورة تتناسب آماذ من السرعة التي يصعب تصورها. مثلاً؛ إنك ترى أن البشر من يوم كان يمتطي الحمار الى هذا اليوم الذي يمتطي سهوة الصاروخ ليسبر أعماق السماوات، إنه هو ذاته قد تكيف مع سرعة السير، وهيمن على وسائلها. كذلك من يوم كان يستخدم الطير الزاجل أو البريد البشري في إتصالاته الى اليوم الذي يستفيد من البريد الإلكتروني هو ذاته، وقد تكيف مع السرعة. إذأ علينا أن نتسارع في أعمالنا بالوصايا التالية:

أ- إختار الأعمال التي يمكن إنجازها بسرعة، فإذا كنت مخيراً بين استخدام أنواع من الأفلام، فاختر أسرعها. وإذا كنت مخيراً بين استخدام أنواع من المصانع فاختر على المصنع اليدوي الميكانيكي، وعليهما المصنع الإلكتروني، وهكذا.. إذا كنت بين عمل تبذل فيه جهداً جسدياً أو جهداً فكرياً وإدارياً، فاختر الثاني. وهكذا..

ب- أقصر الطرق، الخط المستقيم. ولكن اسرع الطرق الى الاعمال ليست واضحة، فعمل طريقة إكتشفتها كانت سريعة ولكنك إستطعت أن تكتشف أقصر وأسرع منها. وهكذا علينا أن نبذل طاقة فكرية كبيرة وباستمرار لاكتشاف السبل الأقصر والأقل تكلفة، ولا نتوقف عند حد، فإن السبل دائماً مختلفة، وبعضها أفضل من بعض.

(١) بحار الأنوار، ج٨٤، ص٤٨، ح٤٣.

ج- الخير عادة، والشر عادة، والسرعة عادة، والبطء عادة. حاول أن تعود نفسك على السرعة في كل خير، وحتى في المشي والكلام والكتابة والتفكير والاختيار، وهكذا.. لا تتردد ولا تخشى الإقدام، وإياك والهيبة فانها مقرونة بالخيبة، ولا تدع للوساوس طريقاً الى قلبك فإنه سبب بطئ الاختيار، وإذا ترددت فاحسم موقفك بالدعاء والتوكل والمشورة والاستشارة والقرعة وما أشبه، المهم أن تحترم وقتك، ولا تضعه في التردد.

رابعاً: تجنب ما يضيع وقتك

الإسترسال مع العادات التي تضيع الوقت، مثل متابعة الألعاب الرياضية المختلفة والأفلام البوليسية والمسلسلات التافهة، ومثل الإهتمام بالكماليات الحياتية التي لا تنفع كثيراً، ومثل الاصرار على العلاقات الاجتماعية غير الضرورية التي تستنفد الوقت.. كل هذه وأمثالها تعتبر شريكاً في عمرك، وأنت مسؤول عنها. من هنا يجب أن تكون لك وقفة محاسبة ذاتية، وإعادة تقييم كل عاداتك، فتحذف منها ما يضر بأوقاتك، وتحافظ على ما هي ضرورية، ولا تؤثر جدياً على قيامك بواجباتك..

وعوض عنها بما يتلاءم وأهدافك. فبدل الحضور في مجالس الأصدقاء، إبعث إليهم رسالة أو إكتف بالهاتف. وبدل صرف الوقت على المسلسل التلفزيوني، إختار الفيديو والفيلم المفيد تتابعه في وقت الفراغ. وبدل قراءة الصحف ما غث منها وما سمن، إختار صحيفة جامعة أو إستمع إلى نشرة خبرية واحدة عند الفراغ من أعمالك..

وهكذا لكل مضيعة الوقت بديل مناسب، لو فكرت جيداً لعرفته، وبجهد بسيط تبذل المضر بالنافع.

وبكلمة؛ الاقتصاد في المعيشة والتدبير فيها مفيد لمال الإنسان، وإدارة الوقت والتدبير فيه مفيد لعمره، وعمر البشر أهم من ماله. وقد جاء في وصية

النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر الغفاري رحمه الله: "يا أبا ذر كن على
عمرك أشحُّ منك على درهمك ودينارك". (١)

خامساً: أضف إلى عمرك ساعة

كلما إستطعت أن تضيف الى عمرك من وقت، فهو في ربحك. فأنت إن
كان أجلك يوافيك بعد ٨٠ عاماً، ثم عشت كل يوم ١٠ ساعات مفيدة، فعمرك
حقاً هذه الساعات المفيدة. فإذا أضفت إليها ساعة في كل يوم، فقد أضفت
٣٦٥ ساعة كل عام مضروبة فيما تبقى من سني حياتك، أليس كذلك؟ وكم هو
إهتمامك بإضافة عشر سنوات إضافية على الثمانين، وبالذات عندما تبلغها
سالمة إن شاء الله، فلماذا لا تهتم بها إذا كانت في العمق؟

الرجال الكبار عاشوا أعماراً متوسطة، ولكنهم حوّلوها إلى إنجازات
عظيمة لحسن إستفادتهم من كل لحظة في عمرهم. والوصايا التالية قد تنفعك:
أ- إذا كنت تسوق سيارتك كل يوم معدلاً ساعتين، فقد تكون أثناء السياقة
مشغولاً فقط بإدارة السكان ومراقبة السير والاستماع الى الاذاعة بلا تركيز.
وقد تخطط للاستفادة من هاتين الساعتين أو لا أقل من ساعة واحدة منهما
أثناءهما، وذلك بالاستماع الى دروس مقروءة، أو محاضرات مركزة في
الدين، أو في شؤون الحياة. أيهما أفضل؟

كثير من الناس يصرفون أوقاتهم في بعد واحد، في إنتظار القطار الداخلي
أو الباص، أو في أثناء السير، أو في انتظار المشتري في محلاتهم أو
ينتظرون المراجع في مكاتبهم أو الأساتذة أو الطلبة في جامعاتهم.. ولكنهم لا
يفكرون أنهم لو أضافوا إلى هذا البعد بعداً آخر، لضاعفوا ساعاتهم المفيدة.
وقد بحثت مع تلة من العلماء كنا وياهم جالسين في قاعة الانتظار في أحد
مطارات الشرق الأوسط التي تتأخر عادة مواعيد الإقلاع عندهم، تساءلت هل
الله يحاسبنا يوم القيامة عن هذه الساعات، وعن تلك التي نصرّفها في الطيارة

(١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٧٦، ح ٣.

أثناء تحليقها؟ وبعد حوار مفصل كانت النتيجة: بلى؛ لأن الاجابة يوم القيامة بأننا كنا ننتظر الطائرة يا رب، لا تكون كافية حسبما يبدو.. لأن الانتظار ليس عملاً.

وهكذا المطلوب أن نملاً لحظات عمرنا أعمالاً مفيدة أنى استطعنا.
ب- لو كنت تعيش في بلد ملوث بالهواء الفاسد وبالضوضاء، وكانت عادة الطعام عندك تقتضي أكلات دسمة تزيد في الترهل والكسل، وكنت تعاشر أصحاباً يدعونك الى اللهو.. فإن كل شروط الضياع متوفرة عندك. وبتغيير بسيط في حياتك؛ الهجرة - مثلاً- إلى حيث الهواء النقي والهادئ، والتعود على الوجبات المفيدة وغير الدسمة، وانتخاب أصحاب جديين يجعل حياتك أنفع وأكثر إنتاجية، أليس كذلك؟

عادة تنتشر إحصاءات من بعض منظمات الأمم المتحدة أو مراكز الدراسات حول معدل العمل المفيد في هذا البلد أو ذاك، وفيها أخبار مذهلة. فبينما نرى معدل العمل المفيد في كل يوم عمل ٦ ساعات في هذا البلد، نجده في بلد آخر ١٥ دقيقة، بل ٧ دقائق فقط!!
والسؤال الهام: من أي نمط تريد أن تكون؟

الحساب والمراقبة الذاتية

كل شيء مقدر تقديراً حسناً، وعلى الإنسان أن يقدر حياته بحسبان يتناسب وتقدير الرب، لكي لا يشذ عن سنن ربه في خلقه. ولكي تهون عليه المحاسبة يوم القيامة، حيث يسأل عما نوى و عما سعى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى. عن هذه البصائر نتحدث في ثلاثة عناوين؛ ففي البدء نبحت إن شاء الله الدقة المتناهية في حساب الكائنات، ثم عن حساب الإنسان، وأخيراً عن جزائه.

أولاً: كل شيء بحسبان

١/ الشمس والقمر خلقهما الله بحسبان. (فلا الشمس تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، مع أنهما في فلك يجريان). وعلينا - نحن البشر، حيث نعيش في عالم كل شيء فيه محسوب - أن ننظم حياتنا بدقة فلا نطغى في الميزان، بل نزن كل شيء بالقسطاس المستقيم. قال الله سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن/٥-٨)

٢/ وقال الله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام/٩٦)

ونستهدي بالآية إلى شمول الحساب للزمان الذي يحيط بنا، وأن الإنسان يعيش في عالم مضبوط، كل شيء فيه بحسبان. فمثلاً حركة الزمان محسوبة بدقة، تتجاوز التقدير بجزء من مليون جزء من الثانية؛ وحتى الأجرام السماوية الهائلة كالشمس والقمر والنجوم والمجرات منظمة حسب الزمان

بمثل هذا الجزء المتناهي في الدقة، كما هي منظمة حسب إتجاه حركتها بجزء من مليون جزء من المليمتر وأقل، وهي مقدرة حسب موادها بجزء من مليون جزء من الغرام وأقل.. فكيف يفلت البشر من الحساب في هذا العالم؟ بلى؛ وحركات قلبه وأنشطة كبده ورأته وجريان دمه وعدد أنفاسه وتموجات أعصابه ومواد جسمه وكل شيء فيه محسوب. وكلما إخترعنا وسائل أكثر دقة في قياس العدد والزمن والكم والكيف، كلما رأينا من آيات ربنا في أنفسنا عجباً، حيث كانت الدقة في آحاد أجسامنا أكثر وأسرع .
والله سبحانه يعلم مكيال البحار، وذرات الرمال في القفار، ووزن الهواء في السماء، ووزن الضياء المنبعث من النجوم.. ويحيط علماً بكل مثقال ذرة من خردل من أعمالنا وهو اجسنا ونياتنا. فأين نفلت من الحساب؟ أو لم يقل ربنا سبحانه:

٣/ ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء/٤٧)

٤/ وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا مَا نُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق/١٦)

٥/ وهو القائل عز وجل: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة/٢٨٤)

فنحن إذاً في قبضة الحساب، منذ بدء النية في نفوسنا ونشاط الفكر في عقولنا، إلى أن نحرك جوارحنا، وحتى اللحظة التي نقترف فيها عملاً.

٦/ وعملنا مكتوب، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (الزخرف/٨٠)

٧/ بل إن عملنا مستنسخ. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجاثية/٢٩)

٨/ وعمالنا محفوظ في خزانة الغيب، أو لم يقل ربنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ وَعَاءَاتِهِمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس/١٢)

٩/ ولكل كتاب؛ فكتاب الفجار في سجّين، وكتاب الأبرار في عليين. قال ربنا سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينٍ﴾ (المطففين/٧) ١٠/ وقال عز من قائل: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (المطففين/١٨)

والله يحيط بكل شيء من حولنا. فهو إذاً سريع الحساب، إذ كل شيء بحضرتة، وكل شيء قد أحصي سلفاً، وكل شيء قد قدر بحسبان. وهكذا على الإنسان تنظيم حياته وفق هذه الحقيقة؛ أولاً: بالتعقل والتدبير، والتقيّد بالموازنين، ومحاسبة كل حركة منه وكل فكرة وكل نية. وثانياً: بالمرقبة الذاتية، وأن يحاسب نفسه حساباً عسيراً، ويوزنها وزناً عادلاً بالقسطاس المستقيم.. وعلى هذه جاءت الأحاديث التالية: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: "جعل الله لكلّ عمل ثواباً، ولكل شيء حساباً". (١)

وجاء في حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: "حاسبوا أنفسكم بأعمالها، وطالبوها بأداء المفروض عليها، والأخذ من فنائها لبقائها، وتزودوا وتأهبوا قبل أن تبعثوا". (٢)

وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر الغفاري، قال: "يا أبا ذر؛ حاسب نفسك قبل أن تحاسب، فهو أهون لحسابك غداً، وزن نفسك قبل أن توزن، وتجهّز للعرض الأكبر يوم تعرض لا تخفى على الله خافية". (٣) وعلى الإنسان أن يختار لنفسه ساعة يحاسب نفسه فيها. إلى هذا دعانا أئمتنا عليهم السلام، وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: "حقّ

(١) ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٤٠٤، ح ٣٨٣١.

(٢) المصدر، ص ٤٠٥، ح ٣٨٣٢.

(٣) المصدر، ص ٤٠٦، ح ٣٨٤١.

على كلّ مسلم يعرفنا أن يعرض عمله في كلّ يوم وليلة على نفسه فيكون محاسب نفسه، فإن رأى حسنة استزاد منها، وإن رأى سيئة استغفر منها، لنلا يخزى يوم القيامة". (١)

ولعل الساعة المناسبة لمحاسبة النفس هي عندما يأوي المرء إلى فراش نومه. إستمع إلى الحديث التالي:

قال الإمام الصادق عليه السلام: "إذا أويت إلى فراشك فانظر ما سلكت في بطنك وما كسبت في يومك، واذكر أنّك ميّت وأنّ لك معاداً". (٢)

وليكن الإنسان في محاسبته لنفسه شديداً. جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: "لا يكون الرجل من المتّقين حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشّريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه؟ ومن أين مشربه؟ ومن أين ملبسه؟ أمن حلّ ذلك أم من حرام؟". (٣)

أما كيف يحاسب الإنسان نفسه، فقد بيّنه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما سئل: كيف يحاسب الرّجل نفسه؟ قال: "إذا أصبح ثم أمسى رجع الى نفسه، وقال: يا نفس؛ إنّ هذا يوم مضى عليك لا يعود إليك أبداً، والله سائلك عنه فيما أفنيت، فما الذي عملت فيه؟ أنكرت الله أم حمدتبه؟ أفضيت حقّ أخ مؤمن؟ أنفست عنه كربته؟ أحفظتبه بظهر الغيب في أهله وولده؟ أحفظتبه بعد الموت في مخلفيه؟ أكففت عن غيبة أخ مؤمن بفضل جاهك، وأعنت مسلماً؟ ما الذي صنعت فيه؟ فيذكر ما كان منه، فإن ذكر أنه جرى منه خير حمد الله عز وجل وكبره على توفيقه، وإن ذكر معصية أو تقصيراً استغفر الله عز وجل وعزم على ترك معاودته". (٤)

وفائدة الحساب مراقبة الذات، والوقوف على العيوب مقدّمة لإصلاحها، ومعرفة الذنوب والإستغفار منها. وهكذا يربح من حاسب نفسه، فقد روي عن

(١) المصدر، ص ٤٠٧، ح ٣٨٤٣.

(٢) المصدر، ح ٣٨٤٤.

(٣) المصدر، ص ٤٠٨، ح ٣٨٤٧.

(٤) ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٤٠٨، ح ٣٨٤٨.

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: "من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن خاف أمن..." (١)

وأهم ما يسأل العبد عنه يوم القيامة، هو الأجر بمحاسبة نفسه عليها في الدنيا، وهو ما يلي:

قال الإمام الصادق عليه السلام: "إن أول ما يسأل عنه العبد إذا وقف بين يدي الله جلّ جلاله عن الصلوات المفروضة، وعن الزكاة المفروضة، وعن الصيام المفروض، وعن الحجّ المفروض، وعن ولايتنا أهل البيت، فإن أقرّ بولايتنا ثم مات عليها فُبلت منه صلاته وصومه وزكاته وحجّه". (٢)

ثانياً: الإنسان ذلك المسؤول

بالرغم من الدقة المتناهية في حساب الإنسان، لنيته وعزمات قلبه وخواطره ووساوس نفسه، ولعمره وما ينتفع به وما ينقص منه. بالرغم من ذلك فإنه مغفول عنه نسبياً في الدنيا لحكمة الامتحان، وسوف يأتي يوم يحاسب فيه بكتاب لا يغادر شيئاً إلا وقد أحصاه. وحسب حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: "ألا وإنكم في يوم عمل لا حساب فيه، ويوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل..". (٣)

فعلى الإنسان أن يتصور أبداً حسابه عند ربه البصير، الذي لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض، وأن ينظّم حياته وفق ذلك الحساب.

١/ ينشق عن الإنسان جدثه يوم القيامة، فيلقى من يقدم له كتابه الذي كان طائراً في عنقه، وكان يحصي عليه كل شيء، ولكنه كان مخفياً عنه في الدنيا بهدف الابتلاء؛ يقدم إليه ذلك الكتاب، ويقال له: أما الآن فبامكانك أن تقرأ كتابك وأن تحاسب نفسك. قال الرب تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي

(١) المصدر، ص ٤٠٩، ح ٣٨٥٢.

(٢) المصدر، ح ٣٨٥٦.

(٣) المصدر، ص ٤٠٤، ح ٣٨٢٧.

عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ
الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿الاسراء/١٣-١٤﴾

٢/ أما الكتاب (الذي سجّلت فيه أعمال الإنسان) فقد أحصى عليه كل شيء،
فإذا رآه الكافرون أشفقوا مما فيه ودعوا لأنفسهم بالويل والثبور. قال ربنا
سبحانه: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَايِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا
عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف/٤٩)

٣/ وفي أحد مواقف الآخرة التي تبلغ خمسين موقفاً، يوقف المرء ليسأل.
قال الله تعالى: ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُورُونَ﴾ (الصفات/٢٤)

وفي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: "فحاسبوا
أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإن أمكنة القيامة خمسون موقفاً، كل موقف مقام
ألف سنة. ثم تلا هذه الآية: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. (١)

والناس في الحساب ثلاث فئات؛ فمنهم من لا يحاسب، بل يدخل الجنة
رأساً، وهم المصطفون. ومنهم من يحاسب حساباً يسيراً، وهم المقتصدون
(الصالحون). ومنهم من يحاسب حساباً على إمتداد يوم القيامة. هكذا نقرأ في
الحديث التالي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: "في قوله تعالى:
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا...﴾ فأما الذين سبقوا، فأولئك يدخلون الجنة
بغير حساب. وأما الذين اقتصدوا، فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً. وأما الذين
ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يُحْبَسُونَ في طول المحشر...". (٢)

٤/ ومن هنا فإن المؤمنين في الدنيا يخافون سوء الحساب (والمداقة فيه)،
ويرغبون إما في دخول الجنة بلا حساب، لأن للحساب هيئته، أو أن
يحاسبوا هناك حساباً يسيراً. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (الرعد/٢١)
وقد جاء في حديث قدسي: ما من عبد أنصبت له للحساب إلا هلك.

(١) ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٤٠٦، ح ٣٨٣٩.

(٢) المصدر، ص ٤١٤، ح ٣٨٧٤.

وجاء في تفسير نور الثقلين: "روي أن الحساب اليسير هو الإثابة على الحسنات والتجاوز عن السيئات، ومن نوقش في الحساب عذب". (١)
وهكذا يرجوا المؤمنون أن يحاسبوا بالصفح والفضل، لا بالقسط والعدل، لأنهم يخافون من عدل الله فيهم. وقد روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كل محاسب معذب. فقال له قائل: يا رسول الله؛ فأين قول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: ذلك العرض يعني التصفح". (٢)

٥/ ووعي المؤمن للحساب يهديه الى الدقة البالغة فيه، لكي يحاسب نفسه على حقيقة العمل، لا على مظاهره فقط. فإنما يتقبل الله من المتقين، ولا يقبل من صلاة العبد إلا ما توجه فيه، وإنما ينال الله التقوى من أضحيتته لا دماءها ولا لحومها. وهكذا قال ربنا سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء/٤٧)

فأي عمل وأي عامل يصمد أمام مذاقة الحساب عند الرب؟ ولذلك نجد أن دعاء المؤمنين لربهم يتمثل في أن يعاملهم الله بفضله، وإنهم يتضرعون الى ربهم قائلين: ربنا عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك.

ونقرأ في دعاء الإمام الباقر عليه السلام: "إلهي إن عفوت فمن أولى منك بالعفو، وإن عذبت فمن أعدل منك في الحكم، إرحم في هذه الدنيا غربتي، وعند الموت كربتي، وفي القبر وحدتي، وفي اللحد وحشتي، وإذا نشرت للحساب بين يديك ذل موقفي". (٣)

(١) ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٤١٦، ح ٣٨٨٠.

(٢) المصدر، ح ٣٨٧٩.

(٣) مفاتيح الجنان، من دعاء أبي حمزة الثمالي.

٦/ والتقوى في الدنيا حصن المؤمن من المداقة في الحساب يوم القيامة، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذُكِّرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام/٦٩)

ولعل المعنى أن المؤمن إذا أتقى ربه، وأدى ما عليه من الفرائض، وتجنب المحرمات، ثم انتفع بما أحل الله له، لم يحاسب إلا حساباً يسيراً ، وربما دخل الجنة بلا حساب؛ حيث جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: "ثلاثة أشياء لا يحاسب العبد المؤمن عليهن؛ طعام يأكله ، وثوب يلبسه، وزوجة سالحة تعاونه ويحصن بها فرجه". (١)

وجاء في حديث آخر عن أبي خالد الكابلي قال: دخلت على أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام، فدعا بالغداء، فأكلت معه طعاماً ما أكلت طعاماً قط أطيب منه ولا أنظف. فلما فرغنا من الطعام قال: يا أبا خالد؛ كيف رأيت طعامك أو قال: طعامنا؟ قلت: جعلت فداك ما رأيت أطيب منه قط ولا أنظف، ولكنني ذكرت الآية في كتاب الله عز وجل ﴿... لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾. قال أبو جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام: إنما يسئلكم عما أنتم عليه من الحق". (٢)

٧/ وكذلك الصابرون يدخلون الجنة بغير حساب. يقول الله سبحانه: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر/١٠)

وروي في تفسير هذه الآية، أن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: "إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر. فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله، ونصبر على معاصي الله. فيقول الله عز

(١) ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٤١٠، ح ٣٨٦٠.

(٢) المصدر، ص ٤١١، ح ٣٨٦٥.

وجل: صدقوا أدخلوهم الجنة. وهو قول الله عز وجل: ﴿أَتَمَّا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١)

ثالثاً: الله سريع الحساب

ليس الدعاة الى الله مسؤولين عن الناس، إلا بقدر إبلاغهم رسالات ربهم، ثم الله هو سائل الناس عما فعلوا، كما هو سائل الرسل عما بلّغوا. وحساب الله سبحانه تمهيد لجزائه، وقد يُطلق ويراد به الجزاء ذاته. والله تعالى سريع الحساب للمتقين، وسريع الحساب على الكافرين في الآخرة وفي الدنيا أيضاً.

١/ الحياة أكثر جدية مما نتصورها نحن الغافلين – وأشد حساباً. فحتى الرسل، ربنا سائلهم عن إبلاغهم الرسالة، ثم يسأل الناس عن إستجابتهم لهم. قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف/٦)

٢/ ويزعم الناس أن الرسول أو من يدعوهم إلى الخير، مسؤول عن هدايتهم، ويتكفل بهم، ويتحمل تقصيرهم. كلاً؛ إن عليه البلاغ، وعلى الله الحساب. قال ربنا سبحانه: ﴿وَإِنْ مَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَوْفِيكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد/٤٠)

٣/ وقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الانعام/٥٢)

٤/ وقال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشية/٢٦)

٥/ والحساب الذي يحاسبه الرب عباده تمهيداً لجزائهم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور/٣٩)

(١) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٤٨١.

لقد وفاهم الله حسابهم بما أنزل عليهم من عقابه.

٦/ والعقاب هو المستوحى من قوله سبحانه: ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء/١)

٧/ ويوم الحساب هو يوم الدين، وهو يوم الجزاء. قال الله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (ابراهيم/٤١)
إذ المغفرة تتناسب والذنب الذي يحاسب عليه ليجازى به.

٨/ وفي هذا الإطار، لا بدّ أن نخشى حساب الله، ولتكون معرفتنا لحسابه داعية لنا الى تقواه. قال الله سبحانه: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تَعَلَّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (المائدة/٤)

٩/ وإذا ألقينا نظرة إلى ما حولنا، وإلى العذاب الذي ينزل على القرى المحيطة بنا، وكيف يأخذها الله أخذ عزيز مقتدر، علمنا بأن الله سريع الحساب، حيث يرقب أعمال عباده ويجازيهم عليها. قال الله سبحانه: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (الرعد/٤١)

ومن هذه الآية نعرف أن حساب الله ليس لمجرد تقدير وضعهم، بل لجزائهم؛ بل يعبر به عن ذات الجزاء؛ وليس في الآخرة فقط، بل في الدنيا أيضاً.

وهكذا يجب أن نتقي سرعة حسابيه، لأنه سبحانه قد لا يمهل المذنب على فعله، وقد يعجل للمؤمن ثوابه في الدنيا. وقد وردت كلمة ﴿اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ في الكتاب لبيان حقائق أربع.

١٠/ إن الله سريع الحساب بالنسبة الى الداعين، فلا يظن من يدعو ربه أن الله ينساه، وهذا يشجع المؤمنين على المزيد من الدعاء. قال الله سبحانه: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ

النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿البقرة/ ٢٠١﴾ -
(٢٠٢)

ونستوحي من الآية؛ أن ربنا سريع الإجابة لدعاء الداعين.

١١/ وهكذا من عمل صالحاً وهو مؤمن يجزيه الله على عمله، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران/ ١٩٩)

وقد سبق الحديث أنفاً عن آيات تدل على جزاء الله للقوى الظالمة، وأنه سريع الحساب بالنسبة إليها.

١٢/ وعموماً كل نفس تجزي ما كسبت، لأن الله سريع الحساب. قال الله سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (إبراهيم/ ٥١)

١٣/ والله تعالى لا يظلم أحداً، لأنه سريع الحساب، (فلا خطأ في حسابه أبداً). قال الله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر/ ١٧)

ما نستوحيه من آيات الذكر؛ جدية الحساب ودقته وسرعته وسرعة جزاءه، وهذه الصفات في الحساب تهدينا الى دوام التذكر وخشية الغفلة، والى الاجتهاد في العمل وتجنب الكسل والضجر، والى اجتناب المحرمات والمبادرة الى الفرائض، والله المستعان.

فقه الآيات

١/ الدنيا دار الغرور، وما فيها متاع الغرور، وهي دار اللهو واللعب، وقد زين للناس حب الشهوات، وقد أقسم إبليس يميناً بعزة الله سبحانه أن يغوي بني آدم، وفي حياة البشر الكثير من عوامل الانحراف.

من هنا فإن علينا أن نراقب أنفسنا، وأن نحاسبها حساباً شديداً، وأن نتبصر
أبداً ما حولنا من آيات الله، وفي التاريخ من عبر الهالكين، وألاً ندع الغفلة
تتسرب إلى أنفسنا فنهلك مع الهالكين والعياذ بالله.

٢/ ولكي نحاسب أنفسنا، ينبغي أن نضع أوقاتاً معينة للمحاسبة، وآلية
للحساب كأن نكتب ما نريد أن نعمله ثم نحاسب أنفسنا على مدى إنجاز ما
قررنا عمله، أو نتفق مع إخوة لنا على برامج ثم نحاسب أنفسنا مجتمعين، أو
نحضر عند مؤمن صالح أو فقيه رباني ونجعله يحاسبنا على مدى نجاحنا فيما
تعاهدنا معه على إنجازها، وهكذا..

٣/ والحساب يقتضي التدقيق في الأمور ابتداءً من وضع الخطط المناسبة،
وإنتهاءً بإجرائها وتنفيذها، كل ذلك لأن الأهداف الهلامية لا تتناسب
والمحاسبة الدقيقة. والله الموفق.

في رحاب الأحاديث

١/ قال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل سأله أن يعظه: "لا تكن ممن
يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجئ التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا
بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين". (١)

٢/ قال رسول صلى الله عليه وآله: "وأما علامة الفاسق فأربعة؛ اللهو،
واللغو، والعدوان، والبهتان". (٢)

٣/ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من عدّ غداً من أجله، فقد
أساء صحبة الموت". (٣)

(١) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ١٩٩.

(٢) المصدر، ج ١، ص ١٢٢.

(٣) تحف العقول، ص ٣٥.

٤/ قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: "إن للمؤمن ثلاث ساعات؛ فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل". (١)

٥/ قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: "ألا إن الأيام ثلاثة؛ يوم مضى فلا ترجوه، ويوم بقي لا بد منه، ويوم يأتي لا تأمنه. فالأمس موعظة، واليوم غنيمة، وغداً لا تدري من أهله. أمس شاهد مقبول، واليوم أمين مؤد، وغد يجعل بنفسك سريع الظعن، طويل الغيبة، أتك ولم تأته". (٢)

٦/ قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: "من أراد أن يطول الله عمره، فليقم أمره". (٣)

(١) تحف العقول، ص ١٤٠.

(٢) المصدر، ص ١٥٤.

(٣) المصدر، ص ٢٨٣.

التقدير السليم

التقدير السليم قيمة ايمانية، ينبعث من تجلي حكمة الرب سبحانه في تقدير كل شيء، والذي هو بدوره سنة إلهية في خلقه..
فما هو - إذاً - التقدير؟ وماهي تجليات سنة التقدير في الخليقة، وبالتالي ما هي حقائق التقدير السليم؟

أولاً: معنى التقدير

جعل الله برحمته وحكمته بين قوم سبأ وبين القرى التي بارك فيها (مكة المكرمة) قرى ظاهرة، وقدر فيها السير. وذلك التقدير تجلى في تنظيم السير ليالي وأياماً.

إذاً؛ التقدير هو بسط السير على الأيام بنظم معين، أو بسط شيء على موضوعاته بنظم. قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾ (سبأ/ ١٨).

ومن خلال جملة آيات هذا الحقل نستوعب آفاق التقدير ومعانيه.

ثانياً: التقدير سنة إلهية

إن وعي سنة الله في خلقه المتجلية في التقدير، يزيد الانسان حكمةً وايماناً، وينفعه علماً وعرفاناً.

١/ فإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدْرٍ، فَهُوَ قَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ، وَجَعَلَ لَهُ أَجْلاً وَوَزْناً وَطَبَائِعَ، وَمَوَازِينَ بِالْغَةِ الدَّقَّةِ، فَقَالَ سَبَّحَانَهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ﴾ (القمر / ٤٩).

٢/ وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا، لِأَنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مَلِكِهِ، فَقَالَ سَبَّحَانَهُ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان / ٢).

٣/ وَهَكَذَا كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ وَزْنَهِ وَأَجْلَهُ، وَمَبْتَدَأَهُ وَمُنْتَهَاهُ. قَالَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد / ٨).

٤/ وَتَتَجَلَّى هَذِهِ السَّنَةُ فِي الْحَيَاةِ، وَتَتَجَلَّى فِي وَعْيِ الْبَشَرِ صَبْرًا وَأَنَاةً وَتَوَكُّلاً. قَالَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق / ٣).

ونستفيد من الآية البصائر التالية :

ألف: إن المتقي (وهو الذي يراقب حدود الله ولا يتجاوزها) يجعل له الله تعالى مخرجاً، (وهو السبيل الذي يهديه إليه الرب بين عشرات الموانع والسدود والحدود التي تحيط به).

باء: إن رزق الله مقدر للإنسان؛ فهو يرزق المتقي من حيث لا يحتسب، (لأنه لم يحط علماً بكل السنن الإلهية).

جيم: والتوكل على الله، (والتقنة بنصره، والعزم على العمل إعتماً عليه، والتفاؤل والإيجابية في العمل والدعاء إليه)، إنه قوة، لأن الله ينصره وكفى به نصيراً.

دال: إن الله سبحانه لطيف لما يشاء، وإنه بالغ أمره (يحقق ما يريد، ويفعل ما يشاء، ولا شيء يمنعه في هذا السبيل).

هاء : إن لكل شيء قدراً جعله الله. (وهكذا ينبغي ألا يستريح البشر الى رخاء، ولا يقنط عند بلاء) .

٥/ وهذه السنة تتجلى في أمر الله سبحانه؛ فهو يأمر بحكمة ، والخلق كله يستجيب لأمره. ومن حكم الله سبحانه لنبيه أن يتزوج مطلقة زيد الذي كان ولده بالتبني، حتى لا يتحرج الناس من بعده نكاح زواج أديائهم. قال الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (الاحزاب/ ٣٨) .

٦/ ومن حقائق أمره المقدور، أنه لا ينزل من خزائنه (الرزق والرحمة) إلا بقدر معلوم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر/ ٢١) .

٧/ ولعل ليلة القدر هي الظرف الزمني للتقدير الشامل، ومن أجل ذلك فهي خير من ألف شهر، (إذ تتجلى فيها رحمة الرب تعالى). قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر/ ١- ٣) .

ونستوحي من السورة أن مصير البشر يتحدد في ليلة القدر، التي هي خير من عمر ممتد ثمانين سنة ونيفاً. فينبغي لمن أراد السعادة والفلاح، أن يستدر رحمة الله في هذه الليلة، ليكون من السعداء.

٨/ ومن أبعاد التقدير الإلهي، تقديره أقوات الأرض في أربعة أيام. قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت/ ١٠).

ونستلهم من الآية؛ إن لكل شيء رزقاً مقدراً معلوماً، يحافظ على بقائه، حتى الجمادات.

٩/ وتقدير الله سبحانه للأشياء يقتضي أن يكون لكل شيء أجل معلوم، وبالذات فيما يتصل بخلقة البشر من نطفة يحفظها في الرحم الى وقت معلوم. قال

الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (المرسلات/ ٢٠-٢٣).

١٠ / ومن تجليات تقديره في الخلق، أنه جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس / ٥) .

١١ / وقال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس / ٣٩) .

ألا ترى أن الله الذي خلق الشمس والقمر، هو الذي خلق الانسان وقدر له الاستضاءة بنور الشمس التي جعلها نوراً . وتحديد أوقات الليل والنهار حسب منازل القمر، ليعرف عدد السنين والحساب. إن ذلك يهدينا إلى أن الله إنما خلق الخلق بالحق ، وعلينا أن نعي حقانية الخلق، فلا نجعل حياتنا ميداناً للهو واللعب والباطل.

١٢ / ومن أبعاد تقديره، أنه ينزل من السماء ماء بقدر. قال الله سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ فُتِّرَ﴾ (القمر/ ١٢) .

١٣ / ومن تجليات تقديره، أنه يرزق من يشاء، بما يشاء. فهو يبسط لمن يشاء الرزق ، ويقدر عن يشاء. ولهذا التقدير حكمته، وإن الذين لا يرضون بذلك في ضلال مبين تماماً. كما كان أصحاب قارون، الذين تمنوا أن يكونوا مثله، فلما خسف الله به وباراه الأرض صعقوا، وقالوا ما أخبر عنه ربنا سبحانه بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَاتَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص/ ٨٢) .

ومرة أخرى نعرف أن تقدير الله خير من تمنيات البشر، وأنه إنما قد بسط الرزق لبعض عباده إمتحاناً لهم، وربما إستدراجاً، بينما قدر رزق آخرين رحمة بهم وفضلاً.

١٤ / ولأن الله قد قدر الليل والنهار، فقد أوصى الى عبده ورسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله كيف ينظم الوقت، وتاب على المسلمين فلم يأمرهم بأن يقوموا الليل كله بالعبادة، لأنه يعلم أنهم لن يحصوه، وإنما أمرهم بأن يقرأوا ما تيسر من كتابه. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وءَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المزمل/٢٠) .

ونستفيد من الآية البصائر التالية :

أ- القاعدة هي اشتغال المؤمن بعبادة ربه، وقراءة القرآن، وبالذات في الليل. ولكن لأن في الناس مرضى ، وتجاراً ومقاتلين، فان الله تاب على المؤمنين، فأمرهم بأن يتلوا من القرآن ما تيسر لهم. ثم أمرهم بجملة واجبات لا يجوز لهم التهاون فيها، وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً (بالانفاق فيما يبدو) .

ب- على المؤمن أن يقسم وقته بين واجبات دينه وضروريات حياته، على أن يجعل القاعدة عبادة ربه.

١٥ / والله سبحانه الذي قدر، هو الذي هدى الى تقديره إما بصورة فطرية، حيث قدر قوت كل حي وهداه الى حيث يحصل على ذلك الرزق؛ أو بصورة وحي، حيث قدر للانسان أنظمة صالحة فأوحاها الى رسله. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى / ٣) .

١٦ / والانسان مخلوق مقدر، فكل ما فيه من أبعاد جسدية ونفسية وعقلية، وكثير مما يجري عليه من حوادث فيما بينها معيشته، ومحياه ومماته مقدره. قال ربنا سبحانه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ (عبس / ١٩) .

١٧/ ورزق البشر مقدر، ومن رزقه غيث السماء الذي ينزله الرب بقدر. يقول عز من قائل: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد/ ١٧) .

إن الأودية تستوعب من الماء بقدر سعتها ، فلكل واد نصيب من الماء هو بقدر سعتها وحاجة أهلها.

١٨/ والماء النازل من السماء مقدر، وهدفه نشر بلدة كانت ميتاً، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الزخرف/ ١١) .

١٩/ والماء لا ينزل من السماء بما يفسد الأرض لكثرتة، أو بما لا ينفعها لقلته. وقد تجف الوديان ويقدر الله الرزق على عباده رحمة بهم، لأنه لو بسطه لهم لبغوا وكان جزاء بغيتهم عليهم نقمة شاملة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى/ ٢٧) .

٢٠/ والله المقدر للماء، قادر على الذهاب به (فالتقدير كما أصل الغيث رحمة إلهية). قال الله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون/ ١٨) .

ومعرفة البشر باحتمال فقدان النعمة ، تدعوهم الى شكر المنعم، والسعي نحو المحافظة على النعمة .

٢١/ وتحيط بالانسان سنن التقدير منذ ابتداء خلقته حتى الوفاة، وحتى كثير من تفاصيل حياته تشملها سنة التقدير (القدر)، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ (طه/ ٤٠) .

بلى؛ للانسان هامش واسع من الاختيار يبتليه الرب به ، وفي حدود هذا الهامش يقع مصير البشر، حيث أوكله الله الى نفسه. وبعد أن هداه النجدين وجعل الجزاء تابعا لما أراده لنفسه، فإن أحسن أحسن لنفسه، وإن أساء أساء لنفسه.

وفي ليلة القدر، وفي كثير من مظان استجابة الدعاء، يستطيع البشر بتوفيق الله أن يدعوه، فيتغير سوء حاله إلى أحسن الحال.

ثالثاً: قيمة التقدير

حسن التقدير من الحكمة، وهو ميراث المعرفة. والجاهل لا يقدر الأمور حق التقدير، وأبرز مثال على ذلك ما نجده عند الكفار والمشركين من إنهم ما قدروا الله حق قدره. وقد أمر الله سبحانه نبيه داود بالتقدير في السرد.

١/ إن الجهل بالله جعل البعض يكفر باسمائه الحسنى، ومن أسمائه إنه قوي عزيز، (فترى الناس يعصون ربهم ولا يحسبون حساباً لقوته وعزته).

قال الله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج/ ٧٤) .

٢/ وقال الله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(الزمر / ٦٧) .

فالله القوي العزيز، الذي الارض وما فيها جميعاً قبضته، والسموات مطويات بيمينه، كيف يعصى أو يشرك به سبحانه؟

٣/ ومن سوء التقدير، الكفر بالوحي للجهل بالله وأسمائه الحسنى. وهكذا

ترى اليهود كفروا بالرسالة التي نزلت على النبي المصطفى. قال الله سبحانه:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ

أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ

تُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ

فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الانعام/ ٩١) .

٤/ ومن سوء التقدير ما ذهب إليه ذلك الكافر، الذي قال في الوحي أنه سحر يؤثر. قال الله سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَفُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (المدثر/١٦-٢٤)

وهكذا ينبغي أن يكون تقدير الانسان في المعارف العليا تقديراً سليماً، وإلا فإنه يؤدي الى الهلاك. ولعل سوء تقديره كان بسبب فرحه بما أوتي من مال وبنين، مما جعله يتجانب الموضوعية في التقدير، حيث إنه كان لآيات ربه عنيداً، وإنه أدبر واستكبر فأخطأ التقدير.

٥/ ومن التقدير في المعارف الى التقدير في الصناعة، حيث أمر الله سبحانه النبي داود أن يقدر في السردي. قال الله سبحانه: ﴿أَنْ أَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سبأ/ ١١).

٦/ وفي الجنة حيث الكمال، ترى القوارير مقدره تقديراً (مما يجعلنا نقدر أيضاً الأواني اتباعاً لكمال الجنة). قال الله سبحانه: ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ (الانسان/ ١٦).

٧/ والتقدير في المعيشة من صفات عباد الرحمن، حيث يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان/ ٦٧).

بصائر الآيات

١/ التقدير معرفة قدر كل شيء، ثم بسط الحقيقة عليها. فالتقدير في الزمان بسط العمل على وحدات زمانية، وفي الأشياء إعطاء كل شيء حقه، وفي المعارف الازعان لكل شيء بحقه، وهكذا.

٢/ وسنة الله في خلقه القدر المعلوم. وإذا وعى البشر تجليات سنن الله في الخلائق، فإنه يقدر حياته تقديراً سليماً بتوفيق الرب سبحانه.

٣/ وقبل أن ينشئ الله الخلق، قدره وخلق كل شيء بقدر (وزناً ووقتاً وخصائص و . و .). وكل شيء عنده بمقدار، ولأنه قد جعل لكل شيء قدراً، فعلى الانسان ألا يجزع لمصاب ولا يهلع بنعمة.

٤/ وأمر الله قدر مقدور (بحسبان وحكمة وميقات)، وهكذا فهو لا ينزل من خزائنه (شيئاً) إلا بقدر (وفق حكمته)، وليلة القدر هي ليلة تقدير الأمور.

٥/ ويتجلى تقدير الله في خلق الأرض، حيث قدر فيها أقواتها في أربعة أيام. ومن تجليات قدره أنه جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل ليعلم الناس عدد السنين والحساب. ومن هنا فقد أمر الله سبحانه بأن يقرء المؤمنون ما تيسر من القرآن لعلمه بأنهم لن يحصوه، لأنه هو الذي قدر الليل والنهار. (وكما قدر الأجل والزمان) فقد قدر رزق البشر، فأنزل من السماء ماء بقدر، ثم بسط الرزق للبعض وقدر للبعض. والحكمة البالغة في ذلك، أن يتخذ البعض بعضاً سخرياً، على أن رحمة الله خير من حطام الدنيا.

٦/ وقد هدى الله الى ما قدر (هدى الأحياء بالفطرة، وهدى البشر بها حيناً، وبالوحي حيناً).

٧/ والأودية تستوعب من قطر السماء بقدرها . والغاية من الغيث نشر بلدة كانت ميتاً، (وإنما قدر الله الرزق) لأنه لو بسطه لعباده لبغوا في الأرض . وكما قدر الله نزول الغيث، فهو قادر على أن يذهب به.

٨/ والبشر يعيش في كف قدر الله، فهو الذي قدر كم يبقى في رحم أمه (ومتى يولد، وهو الذي قدره كيف ما شاء)، وحتى كثير من تفاصيل حياته يتم بقدر (كما كان إياب موسى عليه السلام الى مصر) .

٩/ وحسن التقدير حكمة. والتقدير الصحيح يبدأ من المعارف العليا (معرفة الله واسمائه ومعرفة الوحي). وكذلك التقدير في الصناعة (صناعة الدروع الواقية، وصناعة الأواني والأمتعة المنزلية)، الى التقدير في المعيشة.. وفيما بينها تقدير الوقت، وتقدير السير في السفر .

فقه الآيات

١/ إنطلاقاً من وعي سنة التقدير فيما خلق الله، وفي خلق الانسان بالذات، وفيما وهبه الله له من نعم، ينبغي أن ينبعث المؤمن نحو التفكير في الأمور ليعرف أقدارها، وكيف نفسه وفق تلك الأقدار. وهكذا يدع الإحساس جانباً ويتفكر بموضوعية في الأمور، سواءً التي ارتبطت بحياته الشخصية أم لا. فإن الإيمان بآيات الله من أشد الفرائض الدينية ضرورة، وهي ذات تأثير بالغ في مصيره. ومن الإيمان بآيات الله – فيما يبدو – الإيمان بشواهد خلقه، وعلامات سننه، وتجليات أسمائه الحسنی.

إذاً: التقدير الحسن في التفكير مما ينبغي ألا يتركه المؤمن الذي من صفاته المثلى أن سكوته فكرة ونظره عبرة.

٢/ ويدعوه حسن التقدير الى معرفة أفضل بنفسه، وما أودع الله فيها من طاقات وأقدارها وآجالها. فلا يُهمل طاقة مما وهبه له، ولا يسرف في أخرى، ولا يضيع فرصة وينشغل بغيرها. فهو في صباه مجتهد في الدراسة، وفي شبابه مجد في أنشطته، وفي كهولته مراعى لصحته، وبالتالي يدير نفسه كأفضل ما يدير رئيس للعاملين معه.

ما هو أفضل الأعمال الذي يقوم به الآن، وكيف يقوم به بأفضل صورة، وما هي الطريقة المناسبة له للحصول على المال، وما هو التدبير الأفضل لانفاقه وفي أي المصارف؟

ينظر الى طعامه، فيختار من أزكاه رزقاً مناسباً لحاجته، من دون قتر أو إسراف. ينظر الى موافيقته فينظمها بدقة، ويقدر لكل ساعة منها عملاً مناسباً لها. فلا يفرط مثلاً في الدراسة، ولا يهملها لحساب فيلم يحبه. ولا يقتر على نفسه فضيلة العبادة والصلاة التامة، ولا يسرف في النوافل الى حد الارهاق وضياح سائر الواجبات. وهكذا في نومه فلا يقله الى حد التفريط ولا يكثر منه الى حد تعطيل حياته، بل يقدره تقديراً حسناً. ينظم أوقات اليقظة والمنام حسب حاجات جسمه، وحسب فرائض يومه.

وهكذا يهتم بصحته من دون وساوس فيها، ويهتم بأمنه من دون الاصابة بالتردد والهلع، ويهتم بزوجه وذريته بقدر الحاجة بلا افراط ولا تفريط. فهو دائماً يقدر أموره الحياتية حسب طاقاته، وحسب ما يقدره من حاجة كل مورد مورد منها.

وإذا احتاج الى السياحة، فإنه يختار الأنفع لجسمه وعقله ودينه. وهكذا يكون حسن التقدير رائداً.

٣/ في مواقف من الناس، ومن التيارات الاجتماعية، وفي علاقاته مع ذوي قرباه والمرتبطين به، يتمتع المؤمن بتقدير حسن. فلا يفرط في حبه أو بغضه، يقربه أو بعده من هذا التيار أو ذاك؛ من هذا الشخص أو ذاك من قراباته؛ بل يقدر استحقاق هذا أو ذاك من التيارات والأشخاص من حبه وقربه، أو بغضه وشأنه، حسب قيمه ومصلحه، وليس حسب إحساسه وعواطفه.

٤/ وفي تدبير معيشته يتمتع المؤمن بتقدير حسن لموارده ومصارفه. فيكون له ميزانية رشيدة لسنته بلا سرف أو قتر، وبلا إستجابة لضغط أهله أو عواطفه، وبلا مجارة مجتمعه وتظاهر بما ليس فيه من غنى يفاخر الآخرين به أو تظاهر بالفقر بهدف تضييع حقوق الناس.

إن التقدير في المعيشة يوفر للإنسان الكثير من راحة البال، والاستقرار وعدم الوقوع في المهالك.

٤/ وكما عند الفرد، كذلك في المجتمع الرشيد، يؤدي التقدير الحسن الى الاستقرار وتجنب الوقوع في الأزمات. ومن الأزمات ما تدمر المجتمع تدميراً، مما يجعل التقدير ضرورة قصوى شريطة أن يكون قائماً على أساس حساب الحاجات والطموحات من جهة، وحساب الطاقات المتوفرة والفرص المتاحة من جهة ثانية، ثم التخطيط وفق استحقاقات كل حاجة أو طموح ودرجة أهميته.

ويؤدي التخطيط السليم دوراً أساسياً في التنمية، وفي الدفاع عن مصالح الأمة. وترى اليوم تتسابق الدول الى وضع خطة تنموية خماسية، ووضع خطط دفاعية طويلة المدة.

وعلينا أن نكون الأقدر من بين الأمم على وضع مثل هذه الخطط،
والتمسك بمفرداتها بدقة، والله المستعان.

القسمة العادلة

ما هي القسمة؟ وكيف كانت سنة إلهية؟ وما هي الغاية من القسمة كسنة
إلهية؟ وكيف كانت القسمة قيمة دينية؟
عن هذه الأسئلة نبحت في آيات هذا الحقل .

أولاً: ماهي القسمة؟

١/ مصداق القسمة نجده في أكثر من مناسبة ، مثلاً عندما تندر مادة
ضرورية يعمد المجتمع الى تقسيمها ، كما قسمت ثمود الماء بينهم وبين
الناقة. قال الله سبحانه: ﴿وَبَيَّنَّهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضِرٌ﴾
(القمر / ٢٨) .

٢/ وكذلك نجد حقيقة القسمة بوضوح عند الوفاة، حيث يوزع التراث على
أولي القربى. قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء / ٨) .

ونستفيد من الآية؛ إنه إذا كانت القسمة العادلة تقضي بإعطاء كل ذي
نصيب نصيبه ، فإن الإحسان يقتضي إعطاء من حضر القسمة حق النظر .
فالقسمة تصبح طيبة، وذلك مثل أن يعطي صاحب الحصاد حق حصاده
للمساكين .

ثانياً: القسمة سنة إلهية

والقسمة سنة إلهية تتبع من التقدير الحكيم الذي يقضي به الرب القائم بالقسط سبحانه .

١/ والله سبحانه يرسل الملائكة ليقسموا أمراً ، وقد جاء في الكتاب قوله تعالى : ﴿فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْراً﴾ (الذاريات/٤) .

٢/ وفي يوم القيامة يقسم أبواب جهنم على المعذبين فيها ، فكل مجرم يدخل من باب ذنبه

وخطيئته ليستقر في موقعه ، لأن الجزاء جزاء عادل . قال الله عز وجل : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر /٤٣-٤٤) .

٣/ والله قسم بين العباد معاشهم ، وقدر أوقاتهم بحكمة بالغة. وذلك سنة إلهية في عباده يبين الوحي الغاية منها ، حيث يقول سبحانه : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف/ ٣٢) .

ونستفيد من الآية؛ إن النعم الإلهية على خلقه، رحمة من عنده، وليست حقاً للناس، ولذلك يقسمها بحكمة بالغة. وهكذا رفع بعض الناس على بعض في المعيشة من أجل أن يحتاج بعضهم الى بعض ، حتى تتحرك دورة الاقتصاد ويتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا بهدف الانتاج .. وليس في ذلك ظلم لمن قدر عليه رزقه ، لأن القيمة الأساسية عند الله ليست الثروة ، وإنما رحمته التي تتجلى في الإيمان والأمن والصحة وسائر نعمه ..

٤/ والقسمة قد تكون ضيزى، حيث يطلب أحدهم من الآخر مما يعطيه، لأنه يرى نفسه أحق من غيره ، قال الله تعالى : ﴿وَمِنَاةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم / ٢٠ - ٢٢) .

٥/ ومثل آخر للقسمة الظالمة ، أن يأخذ الانسان بعض الآيات ويترك بعضها بهواه ، بينما الآيات كلها من عند الله، ولذلك يحاسب الله سبحانه من

يفعل ذلك. قال الله تعالى : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا
الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر/ ٩٠ - ٩٢) .
وهناك قسمة عادلة كالتي أمر بها النبي صالح عليه السلام قوم ثمود، حيث
جعل الماء قسمة بينهم وبين الناقة .

بصائر الآيات

١/ القسمة سنة إلهية.

٢/ القسمة تصبح عادلة إذا اتبعت حقاً (كقسمة الإرث)، أو هدفاً أعلى
(كقسمة المعيشة).

٣/ القسمة الطيبة قيمة دينية ، كالقسمة في الإرث مع إعطاء من حضر .

فقه الآيات

١/ (الزخرف / ٣٢) ؛ البصيرة التي نستوحىها من الآية؛ إن التساوي ليس
قيمة في توزيع الثروة ، إنما العدالة هي القيمة التي تعطي كل ذي فضل فضله
 . كما إن الغنى المادي ليس قيمة، إنما رضوان الله هو القيمة الأسمى. فلا
يحترم الغني، ولا يهان الفقير ، إنما يحترم المؤمن فقيراً كان أو غنياً .

٢/ (النساء/ ٨) ؛ نستفيد من الآية شرعية حق النظر، فإذا حضر قسمة
الميراث أولوا القربى واليتامى والمساكين ، فلا يحرمون من بعض المال.
ولكن لأنهم لا يحصلون على نصيب وافر، فعلياً أن نعوضهم بالقول
المعروف. وهكذا يكون القول الطيب، جابراً للكسر المادي. كما إنك إن لم
تشاء قضاء حاجة السائل فلا تنهره، بل رده بقول معروف .

٣/ (النجم / ٢٢) و (القمر / ٢٨) ؛ العدالة في القسمة تعني اعطاء حق كل
طرف، وهي المطلوبة. بينما القسمة الضيزى أن تجعل لنفسك ما لا تجعله
لغيرك، بينما تشتركان معاً في الأمر.

الفصل الثالث: القوة في خدمة الحق

القوة والركن الشديد

ما هي القوة، وما هي منابعها، وأين تنفع، وما هي أضرارها حين تخالف الحق؟

القوة هي التي يحس بها الإنسان حينما تكتمل بنيته بعد ضعف الطفولة، وهي التي يفتقدها عند الشيخوخة.

وينبوع القوة هو الله القوي العزيز، والذي تتجلى قوته في الرزق الذي يقدره لخلقه، وفي الرسول الذي يبعثه ويعلمه وينصره ويمكّنه في الأرض إذا شاء ويجعله عالياً في الأرض، وفي نصرته للمؤمنين وفي أنه ينجيهم من أيدي الظالمين ويكفيهم القتال، وفي تدمير قرى الظلمة، وفي قيامه للقسط. فإذا تاب العبد إلى ربه وتوكل عليه (ودعاه)، منحه الرب قوة، وآواه إلى ركن شديد. وركائز القوة في الحياة؛ الحق والحكمة والتعاون، والتمسك بالميثاق، والمال والرجال والبأس الشديد.

وتنفع القوة في أخذ الدين (والتمسك به)، وفي الدفاع عن النفس، وفي القيام بالواجبات المعاشية.

ولكن القوة تضر إذا خالفت الحق، فإن الحق يغلبها في النهاية مهما كانت شديدة.

هذه هي عناوين البصائر التي نستفيدها من الآيات التي نتدبر فيها لاحقاً إن شاء الله تعالى.

أولاً: ما هي القوة؟

أرأيت كيف كنت ضعيفاً عند صغر سنك، لا تملك لنفسك نفعاً، ولا تدفع عنها ضرراً، ثم أوتيت القوة. ولكنها لا تستمر، بل توشك أن تزول عنك وتعود الى ضعف وشيية.

إنها هي القوة في صورتها الشخصية، وهي مثال لسائر ما في الخلق من قوة يمنحها الرب لعباده بعد ضعف، (مثل نعمة العلم والهدى، نعمة المال والولد، نعمة العافية والأمن، نعمة التعاون والتشاور.. إنها جميعاً مصاديق القوة). فتدبر في الآية التالية لتتحسس بحقيقة القوة، حيث قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم/ ٥٤)

ثانياً: الله شديد القوى

١/ ربنا سبحانه هو القوي العزيز، (أوليس هو الخالق المهيمن على خلقه، الفعال لما يشاء وعلى كل شيء قدير)؟ قال الله سبحانه: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج/ ٧٤)

وقوته سبحانه تتجلى في عزته، وعزته تتحقق في عطائه ورحمته كما في عقابه الشديد.

٢/ ومن حقائق قوة الرب سبحانه، رزقه الذي ينزله على خلقه، حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات/ ٥٨)

أولا ترى كيف يرزق ربك الرضيع من ثدي أمه، ويعطف عليه قلب والديه فيرزقه عبرهما بأفضل ما يكون؟ ويرزق الضعيف والقوي سواءً بسواء، وقد يرزق من لدنه عبداً لا يملك حولاً ولا طولاً بما يعجب الحكماء، ويدع الأسباب حائرة، كما قال شاعرهم:

كم عاقل عاقل أعيت مذهبه
وجاهل جاهل تلقاه
مرزوقاً

٣/ وقال الله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (الشورى/ ١٩)

ومن تجليات قوته لطفه، حيث يمضي إرادته كيف يشاء بلطف تدبيره. وقد جاء في الأثر: " أن سليمان عليه السلام كان جالساً على شاطئ بحر فبصر بنملة تحمل حبة قمح تذهب بها نحو البحر، فجعل سليمان ينظر إليها حتى بلغت الماء، فإذا بصفدة قد أخرجت رأسها من الماء ففتحت فإها فدخلت النملة فإها وغاصت الصفدة في البحر ساعة طويلة وسليمان يتفكر في ذلك متعجباً، ثم إنها خرجت من الماء وفتحت فإها فخرجت النملة من فيها ولم يكن معها الحبة. فدعاها سليمان عليه السلام وسألها عن حالها وشأنها وأين كانت، فقالت: يا نبي الله إن في قعر هذا البحر الذي تراه صخرة مجوفة وفي جوفها دودة عمياء، وقد خلقها الله تعالى هنالك فلا تقدر أن تخرج منها لطلب معاشها، وقد وكّلتني الله برزقها، فأنا أحمل رزقها، وسخر الله هذه الصفدة لتحملني فلا يضرني الماء في فيها، وتضع فإها على ثقب الصخرة وأدخلها، ثم إذا أوصلت رزقها إليها خرجت من ثقب الصخرة الى فيها فتخرجني من البحر. قال سليمان عليه السلام: وهل سمعت لها من تسبيحة؟ قالت: نعم، تقول: يا من لا ينساني في جوف هذه الصخرة تحت هذه اللجة برزقك لا تنس عبادك المؤمنين برحمتك". (١)

٤/ ومن حقائق قوته سبحانه؛ العلم والهدى الذي يرزقهما عباده عبر رسله، حيث قال سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (النجم/٥)

٥/ من حقائق قوته؛ إنه سبحانه قائم بالقسط (عدل لا يجور)، وقد أرسل رسله وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، (وهو ينصر الذين ينصرون دينه، وبقيمون القسط كما أمر). قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد/٢٥)

(١) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٩٧، ح ٦.

٦/ وهكذا فإن الله تعالى كتب الغلبة لرسوله، وتجلت قدرته في نصره لهم.
فقال عز من قائل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
(المجادلة/٢١)

٧/ وكذلك كفى الله المؤمنين القتال بقوته القاهرة، ورد الذين كفروا بغيظهم
قبل أن ينالوا خيراً. قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا
خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الاحزاب/٢٥)

٨/ وهكذا وعد الله الذين يقاتلون في سبيله من عباده الموحدين، الذين
أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله؛ وعدهم النصر من عنده
إن هم نصروه، ودافعوا عن بيوت العبادة بإذنه. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ
أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا وَلَيُنصَرَّنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج/٤٠)

٩/ وأخذ الذين كفروا بالرسول (أخذ عزيز مقتدر). قال الله سبحانه: ﴿ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾ (غافر/٢٢)

١٠/ ومن ذلك ما فعل الله بتمود، حيث نجى رسوله صالحاً بقوته، وأخذ
الذين كفروا بها أخذاً شديداً. قال الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾
(هود/٦٦)

١١/ وكذلك فعل الله ببني اسرائيل، حيث نجاهم وأغرق عدوهم آل
فرعون. قال الله سبحانه: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الانفال/٥٢)

ولو درس الإنسان تجربة الأمم السابقة بعمق، ووعى حقائق قوة الرب
وتجليات عزته في مملكته، تراجعت أنانيته وكبح جماح نفسه وعرف حدود
صلاحياته، كما عرف من أين يكتسب القوة الحقيقية؛ أي من الله الذي خلقه

من ضعف ووهب له القوة، وهو يرزقه ويوفر له فرص العلم والهداية والكمال.

١٢/ وهكذا فعل النبي لوط عليه السلام حينما أحاطت به قوى الشر، فإنه لم يستسلم لهم، وإنما توجه إلى مصدر القوة الحق، إلى ربه (فنجاه الرب منهم وأهلكهم). قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَن لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود/٨٠)

١٣/ وحتى المذنبون من عباد الله إذا تابوا إليه يزيدهم قوة إلى قوتهم، حيث وعظ النبي هود عليه السلام قومه بالاستغفار ليرزقهم الله الرخاء والقوة. قال الله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود/٥٢)

ثالثاً: ركائز القوة في الدنيا

ما هي ركائز القوة في الدنيا؟ إنها الحقائق التالية:

١/ المال والأولاد (الثروة والجند) من ركائز القوة، ولكنهما لن يقوما الحق. قال الله سبحانه: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (التوبة/٦٩)

٢/ والتعاون من ركائز القوة، حيث قال الله تعالى (على لسان ذي القرنين): ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (الكهف/٩٥)

ألا ترى كيف طالب الملك الصالح قومه بأن يعينوه بقوة؟

٣/ والتمسك بالميثاق قوة ونقضه ضعف. قال الله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل/٩١)

ونستفيد من الآية الكريمة؛ إن حب التعالي في أطراف المجتمع يهدم أساس الوحدة القائمة على العهد والميثاق بينهم.

٤/ وعموماً الوحدة قوة، والتفرق ضعف. قال الله سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران/١٠٣)

رابعاً: حقائق القوة

وحقائق القوة التي تتجلى فيها، هي القوة في الدين، وفي إقامة القسط بين الناس، وفي مقاومة الأعداء، وفي تنفيذ الأوامر في الدنيا.

ألف/ القوة في التمسك بالدين

١/ وأهم حقائق القوة إستخدامها في تنفيذ الدين، والأخذ بتعاليمه، والتمسك بوصاياه. ولعل ركيزة هذه القوة، أن يكون حب الانسان لربه أشد من حبه لغيره. قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة/١٦٥)

٢/ وقد أمر الله سبحانه النبي يحيى عليه السلام وهو في المهد أن يأخذ الدين بقوة، فقال سبحانه: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَاَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ (مريم/١٢)

٣/ كما أمر ربنا تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ التوراة بقوة، فقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف/١٤٥)

٤/ ولقد ثبت الله النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وآله أن يركن الى الكفار شيئاً قليلاً، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَتْنَا لَقَدْ كِدْتَّ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ (الاسراء/٧٤)

٥/ ولقد أخبر الله نبيه المختار صلى الله عليه وآله أنه سيلقي عليه قولاً ثقیلاً، (فلا بد أن يستعد له بقيام الليل). قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل/٥-٦)

٦/ وفي أحاديث أهل البيت عليهم السلام تأكيد مستمر على صعوبة التمسك بأمرهم، حيث جاء في الحديث الشريف: "إن أمرنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد مؤمن إمتحن الله قلبه للإيمان". (١)

٧/ ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل أن يأخذوا ما آتاهم الله من الدين بقوة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة/٦٣)

٨/ ونستفيد من سياق آية كريمة؛ إن من معاني القوة في أخذ الدين؛ الاخلاص فيه وعدم حب العجل، حيث قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة/٩٣)

٩/ ويبدو أن من مصاديق أخذ الدين بالقوة؛ العزم الراسخ في التمسك به، والاستقامة عليه، والصبر في طريق تطبيقه رغم الصعاب المنتظرة. وهكذا إعداد القوة من أجل تطبيقه، سواء كانت مالا أو رجالاً أو تعاوناً أو تشاوراً. وقد جاء في النصوص الشرعية تأكيد على ضرورة العزم والنية في الأخذ بالدين رغم الصعاب، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ آلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت/١٠)

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٧١، ح ٣٠.

١٠ / ويضرب القرآن مثلاً من واقع الأبطال التائبين الى الله من طغيان فرعون، وكيف استقاموا على الطريقة ولم يتركوا دينهم بالرغم من إرهاب فرعون، فقال الله سبحانه: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَادِنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّاكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيََغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتْنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه/٧٠-٧٣)

وفي الحديث في صفة المؤمن: "إن المؤمن أشد من زبر الحديد، إن الحديد إذا دخل النار لان، وإن المؤمن لو قتل ونشر ثم قتل لم يتغير قلبه". (١)
وجاء في حديث آخر عن اسحاق بن عمار ويونس قالاً: سألتنا أبا عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) ﴿خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أقوة الأبدان أو قوة في القلب؟ قال عليه السلام: فيهما جميعاً. (٢)
وقد جعل الإمام علي عليه السلام أول دعائم الايمان الصبر، فقال عليه السلام: "الايمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والتوحيد". (٣)

ومن هنا فان أهم ما نحتاجه عند التمسك بالدين، الصبر واليقين، وأن تكون نيتنا في التمسك بالدين وعزمنا عليه نية وافرة وعزماً شديداً. فاذا قويت النية لم يضعف البدن، حسبما جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام، حيث قال: "ما ضعف بدن عما قويت عليه النية". (٤)

(١) المصدر، ج ٦٧، ص ١٧٨، ح ٤٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٧٨، ح ٤٣.

(٣) المصدر، ص ١٨١، ح ٥٢.

(٤) المصدر، ص ٢٠٥، ح ١٤٤.

وإذا كانت نية العبد متوفرة، فإن بدنه يطيعه، وعون الله سبحانه ينزل عليه، حيث جاء في حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: "إنما قدر الله عون العباد على قدر نيّاتهم، فمن صحت نيّته تمّ عون الله له. ومن قصرت نيّته، قصر عنه العون بقدر الذي قصر". (١)

وفي حديث مأثور عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: "إن الله لا ينظر الى صوركم وأعمالكم، وإنما ينظر الى قلوبكم". (٢)

وخلوص النية في العمل هو المطلوب، فإذا كان التمسك بالدين باخلاص ومن دون شائبة شك أو رياء أو شرك، فإن ذلك من حقائق التمسك بالدين بقوة، حسبما استوحيناها من آية كريمة. والإخلاص ينزل الرحمة، وقد جاء في حديث شريف: "من أصدع الى الله خالص عبادته، أهبط الله عز وجل إليه أفضل مصلحته". (٣)

وطرح الكسل والضجر، والتسلح بالنشاط والحيوية، هما من مصاديق القوة في التمسك بالدين. وقد جاء في حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: "إياك وخصلتين؛ الضجر والكسل، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حق، وإن كسلت لم تؤد حقاً". (٤)

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: "العجز مهانة". (٥)

باء/ القوة في إقامة القسط

والحديد من مظاهر القوة، لأن أكثر الأسلحة تصنع منه؛ سواءً القديمة كالسيف والدرع، أو الحديثة كالدبابات والطائرات، وقد أنزله الله سبحانه ليستخدمه الصالحون في نشر العدل وإقامة القسط بين الناس. (وهكذا نستوحي من الآية التالية أن القوة نعم العون على إجراء العدالة). قال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ

(١) المصدر، ص ٢١١، ح ٣٤٤.

(٢) المصدر، ص ٢٤٨، ح ٢١.

(٣) المصدر، ص ٢٤٩-٢٥٠، ح ٢٥.

(٤) المصدر، ج ٧٠، ص ١٥٩، ح ٢.

(٥) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٥٩، ح ٥.

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ
وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ
بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿الحدید/۲۵﴾

جيم/ القوة للدفاع عن الأمة والدين

والأمة السامية المقتدرة هي التي تتسلح بكل ألوان القوة، للدفاع عن
مصالحها وقيمها. وقد أمر الله الأمة الإسلامية بأن يعدّوا ما استطاعوا من قوة
لمواجهة المعتدين، وردعهم عن التفكير في منازل المسلمين. قال الله تعالى:
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال/۶۰)

والقوة هنا تشمل كافة مصاديقها؛ فالعزم الراسخ للدفاع والاستعداد للشهادة في
سبيل الله، والقيادة الرشيدة، والتقدم الاقتصادي (الصناعي التجاري الزراعي)،
والأسلحة المتطورة، والجاهزية العسكرية، وما إليها من ألوان القوى.. إنها
جميعاً مظاهر القوة في سبيل الدفاع عن القيم.

دال/ القوة في الحياة

ومن حقائق القوة؛ المتانة الجسدية لتنفيذ المهام. وقد قال الله سبحانه: ﴿قَالَتْ
إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾
(القصص/۲۶)

ونستوحي من الآية؛ إن القوة بذاتها قيمة حياتية، بالإضافة الى الأمانة.

هاء/ بين القوة والحق

الحق قوة لا تقاوم؛ إنه سنة الله الجارية، وإرادة الله القاهرة، وإنه
المصير والعقبى. والقوة

تتضاعف حين تتماشى مع الحق فتصبح القوة قوتين، بينما القوة التي تخالفه تنهار عاجلاً أم آجلاً. وقد حذر كتاب ربنا من الاغترار بأية قوة تخالف الحق، أو الاعتزاز بها، أو الفرح بها، أو حتى الاعتماد عليها.

١/ ففي قصة الرجلين الذين جعل الله لأحدهما جنتين، فاعتز بهما واستكبر على صاحبه بها، قال له صاحبه وهو يحاوره، ما قصه علينا ربنا سبحانه: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (الكهف/٣٩)

وأرسل الله على جنتيه حساباناً، فأصبحتا صعيداً زلقاً. وهكذا الاعتماد على الله وحوله وقوته، وليس على بعض الثروة.

٢/ وقد كان قوم ملكة سبأ على حق، إذ لم يغتروا بقوتهم، وإنما أوكلوا أمر الحرب أو السلم إلى حكمة ملكتهم، فقال الله سبحانه عنهم: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِيْدِي وَالْأَمْرِ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل/٣٣)

٣/ أما قارون فقد إعتد بقوته وبماله وفرح بها، وحذره الله سبحانه من مخالفة سنة الحق فلم يتعظ، فحسف به وبداره الأرض. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَعَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ نُؤُبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصاص/٧٦-٧٨)

٤/ وعلى الإنسان أن يسير في الأرض، ويسبر آثار الأمم الغابرة ليعتبر بمصيرهم، وكيف أن قوتهم لم تنفعهم حين خالفوا سنن الله. قال الله سبحانه: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا

أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ (الروم/٩)
والقرآن الكريم حافل بعبر الأمم التي أهلكها الله، ولم تغن عنهم قوتهم من
الله شيئاً.

فقه الآيات

نستفيد من جوامع آيات الكتاب التي تليت بصائر في فقه الحياة، نوجز
بعضها:
أولاً: على كل فرد مسلم أن يستعد لتحقيق أهدافه وقيم دينه بالقوة؛ في
جسمه وروحه ونفسه، وازدياد المال والبنين، والعلاقات والعلم والتقنية
والحكمة وحسن الأخلاق والآداب، وكل ذرة ذرة من القوة التي تنفع في
تطبيق شرائع الدين أو فرائض الحياة، عليه أن يجمعها في نفسه.
ثانياً: على قادة الأمة أن يعدّوا ما استطاعوا من قوة اقتصادية أو عسكرية
أو سياسية أو غيرها، من أجل رفع مستوى الأمة الى أن تصبح الأمة الأقدر
والأعلى، والشاهدة على سائر الأمم في الأرض.
ثالثاً: على المسلمين - أفراد وقادة - أن يتجنبوا كل مصادر القوة التي
تخالف الحق، وألا يستخدموا القوة في غير ما أمرهم الله سبحانه به، والله
المستعان.

التمكين والملك

ما هو التمكين، ولماذا، وكيف؟

القدرة التي يقدِّرها الرب لبعض عباده، هي التمكين في الأرض. ولعل كلمة الاستقرار والاستقلال قريبتان من معاني التمكين، أما الملك فهو بالإضافة الى ذلك يعني السلطة. وإذا أُضيف التمكين الى شخص أو مجموعة فان معناه قريب من معنى الملك. والهدف المشروع منه تحقيق القيم المثلى، والسبيل إليها توفيق الله سبحانه بالهداية الى الأسباب. والصبر واليقين والجهاد هذه هي بصائر قيمة التمكين والملك بايجاز، أما التفصيل فسوف نستبينه باذن الله عبر فصول.

أولاً: ما هو التمكين

١/ إذا أعطت السماء قطرها، وجرت الأنهار (وأنبتت الأرض جنات، واستقرت الحياة) فقد تم التمكين. ولكن هل يستمر ذلك؟ بلى؛ سوف يستمر باذن الله إذا استمرت عوامل التمكين، أما إذا كفروا واذنبوا وأحاطت بهم ذنوبهم أهلكم الله بها. قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآ دَخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة/٦٥-٦٦)

٢/ ونستوحي من الآية التالية؛ إن عوامل بقاء التمكين يجب أن تبقى ليستمر التمكين. أما إذا جحد الناس بآيات الله (ولم يهتدوا بها؛ وهي في

مجلها تهديهم الى الرفاه والتقدم والأمن)، فإنهم هالكون. قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الاحقاف/٢٦)

٣/ ونحن البشر قد جعل الله لنا في الأرض مستقراً مكيناً نعيش فيها، وجعل لنا فيها معاش نقتات منها. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الاعراف/١٠)

ومن هنا نعرف أن حقائق التمكين هي:

أ- الاستقرار والاستقلال (اتخاذ المكان).

ب- الأمن (وهو أحد معاني الاستقرار في المكان).

ج- الرفاه (الرزق والمعاش).

والتمكين حيث يكون لشخص أو مجموعة أشخاص، يعني بالإضافة الى المعاني الثلاث الماضية نوعاً من السلطة السياسية، مثلما نجده عند الملك الصالح ذي القرنين، وعند النبي يوسف عليه السلام بعد أن تمكن من خزائن الأرض. وهذا هو الملك الذي نتحدث عنه أيضاً في هذا البحث.

٤/ والملك حقاً هو ملك الله سبحانه، حيث يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة/١٠٧)

وهذه هي الملكية حقاً التي تحيط قدرة بالشيء من كل جهة.

٥/ والله يهب من يشاء من عباده ملكاً (محدوداً)، وقد قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران/٢٦)

٦/ وقد أعطى الله نصيباً من الملك نبيه يوسف الصديق عليه السلام، وقال سبحانه حكاية عنه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ

الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿يوسف/١٠١﴾

٧/ وقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٤٧)

ثانياً: أهداف الملك والتمكين

الأهداف التي ينبغي أن يسعى إليها المؤمنون عند ابتغاءهم الملك والتمكين، هي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومساعدة المظلوم وإقامة القسط.

١/ وقد اشترط كتاب ربنا على المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم ثم أذن لهم في القتال، أن يهدفوا تحقيق الأهداف التي بينها سبحانه بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج/٤١)

٢/ وقد ذكر ربنا سبحانه في سورة الحديد، أن إقامة القسط من أهداف الصالحين، الذين يستخدمون الحديد وينصرون الله ورسله بالغيب. مما يدل على أن ذلك من أهداف القدرة العسكرية، والتي تتوافق عادة مع أهداف السلطة السياسية. فقال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد/٢٥)

٣/ وقد جعل الله النبي داود خليفة في الأرض، وأمره بأن يحكم بين الناس بالعدل. فقال الله سبحانه: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص/٢٦)

٤/ وحين طرد بنو اسرائيل من ديارهم وأرادوا العودة إليها، طلبوا من نبيهم أن يختار لهم الله ملكاً يقاتلون تحت لواءه. فقصّ علينا سبحانه قصّتهم كالتالي: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَعَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة/ ٢٤٦-٢٤٨)

نستفيد من الآية؛ إن من أهداف السلطة، القتال ضد الطغاة والكفار. كما نستفيد بصائر أخرى سوف نعود إلى بعضها إن شاء الله.

٥/ وفي قصة النبي موسى عليه السلام مع قومه الذين آتاهم الله الملك، فأمرهم النبي بأن يحاربوا من أجل دخول الأرض المقدسة، فلمّا رفضوا ألزمهم الله التيه أربعين سنة. في هذه القصة دلالة على أن الاستعداد للقتال في سبيل الله ثمن الملك الإلهي. دعنا نتدبر في آيات الذكر التي تفصل هذه القصة، ذات العبرة والمواعظ الكثيرة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَعَاقَبَكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَآتِكُمْ عَلَيْهِمُ الْعِلْمَ وَاللَّهُ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ

نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿المائدة/٢٠-٢٦﴾

ثالثاً: السبيل الى الملك والتمكين

كيف يتمكن المؤمنون في الأرض، وما هو السبيل الى الملك؟
لأن الرغبة في الملك عميقة الجذور في البشر، فإن التنافس عليه شديد. إلا أن المؤمنين يمتازون عن غيرهم، ليس فقط في هدفهم من السلطة، وإنما أيضاً في وسيلتهم إليها. فهم يريدونها، ولكن ليس بأي ثمن. إنما يريدونها ملكاً عدلاً، ومن دون التدرج إليها بظلم الناس. وهم يريدونها بعد توفير صلاحياتها في أنفسهم، وهم يتدرجون من الأسباب إليها. أما الوسيلة الى الملك فهي بايجاز الطموح، واتباع الأسباب، توفير صلاحية الملك، الدفاع والجهاد.

ألف/ الطموح

١/ في قصة أبينا آدم عليه السلام وزوجه عبر كثيرة، لأنها تكشف لنا خبايا أسرارنا. فقد وسوس إبليس إليه بأن في الشجرة المنهية، الملك الذي لا يبلى. قال الله سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (طه/١٢٠)

وهكذا أثار فيه الرغبة الكامنة، التي يثيرها كل يوم، وفي كل مكان في بنيه. ولعل هذه الرغبة (الملك) لو أحسن استخدامها لكانت مفيدة للناس، ولكنها عادة تتحول الى صراع غير شريف على السلطة، فتؤدي الى عواقب وخيمة.
٢/ وقد تبلورت هذه الرغبة عند النبي سليمان عليه السلام، الذي ورث الملك من أبيه داود،

وهو - بدوره- أخذ بجدارة من القائد الفاتح طالوت، الذي اختاره الله لقيادة بني اسرائيل في قتالهم المشروع من أجل إستعادة ديارهم.

أقول: قد تبلورت الرغبة عند النبي سليمان عليه السلام، حيث قال ما بيّنه لنا ربنا سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص/٣٥)

ماذا كان يعني النبي سليمان عليه السلام في هذا الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده؟ هل كان يعني مجرد ملك واسع (كالذي آتاه الله وعلمه منطلق الطير، وسخر له الريح)، أو أنه كان بالإضافة ملكاً بلا ظلم؟ في أحاديث أهل البيت عليهم السلام تفسير ذلك بأنه سأل من ربه ملكاً عادلاً لا جور فيه. فقد ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، أنه قال: الملك ملكان؛ ملك مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، وملك مأخوذ من قبل الله تعالى، كملك آل ابراهيم وملك طالوت وذي القرنين، فقال سليمان عليه السلام ﴿هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أن يقول إنه مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس. فسخر الله عز وجل له الريح تجري بأمره رخاءاً حيث أصاب، وجعل غدوها شهراً ورواحها شهراً، وسخر الله عز وجل له الشياطين كل بناء وغواص، وعلم منطلق الطير ومكن في الأرض. فعلم الناس في وقته وبعده، أن ملكه لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل الناس، والمالكين بالغلبة والجور". (١)

باء/ اتباع الأسباب

١/ معرفة الأسباب واتباعها، وسيلة شرعية الى السلطة. فمن كان يعرف سنن الله في خلقه، ويستخدم هذه المعرفة في تسخير الأشياء لمصلحة البشر، تكون له الهيمنة وبجدارة على سائر الناس، لأنه يكون الأقدر على تلبية حاجات الناس وتحقيق مصالحهم. ولعل هذا المعنى هو المستفاد من قوله سبحانه: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف/٨٤-٨٥)

(١) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٤٦٠، ح٥٦.

وقصة ذي القرنين التي فصل الحديث عنها في سورة الكهف، ذات دلالات هامة في السلطة الشرعية؛ حيث إنه لم يظلم أحداً في سبيل الوصول الى الحكم، بل اتبع أسباب الحياة فكان الأجر له. ثم لم يستخدم سلطته في الظلم، بل في إعانة المحتاجين ونشر العدالة. فقد روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: إن ذا القرنين كان عبداً صالحاً أحب الله وأحبه الله، وناصر الله وناصره، قد أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه بالسيف، فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إليهم فدعاهم الى الله فضربوه على قرنه الآخر بالسيف. فذلك قرناه، وفيكم مثله" (يعني نفسه عليه السلام). (١)

وروي أيضاً عنه عليه السلام: سخر الله له السحاب فحمله عليها، ومد له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء. (٢) ومن ذلك نستفيد؛ إن الأسباب التي إتبعها، أو إتبع بعضاً منها لم تكن فقط مادية، بل كانت أسباباً غيبية وقرها الله له حينما نصح الله.

جيم/ توفير الصلاحية

١/ ونستوحي من آية كريمة أن من القيم المثلى للانسان؛ أن يوفر في نفسه صلاحية السلطة، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (الأسراء/٧٩-٨٠)

فالتعهد بالليل يُساهم في تحلي الإنسان بالصفات الأخلاقية المثلى، والصدق في الدخول الى الأمور والخروج منها؛ كما ويساهم في تحلي الانسان بالقدرات القيادية. ومن هذا وذاك يبلغ الفرد بفضل الله تعالى المقام المحمود، ويكون له من عند الله سلطاناً (برهاناً) بيناً، وهذا السلطان يساعده بدوره في تذليل النفوس التي تخالفه.

(١) مجمع البيان، ج٦، ص٣٥٥، طبعة بيروت دار الفكر.

(٢) المصدر، ص٣٥٦.

٢/ ويبدو إن آل ابراهيم استحقوا فضلاً من عند الله، بسبب الصلاحية التي وفرت فيهم، فأعطاهم الله ملكاً عظيماً. قال الله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكَاً عَظِيماً﴾ (النساء/٥٤)

٣/ وكذلك طالوت جعله الله ملكاً لبني اسرائيل، لأنه كان ذا بسطة في العلم والجسم، فكان الأكفأ لقيادتهم في القتال ضد أعداءهم. قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة/٢٤٦-٢٤٨)

ونستفيد من هذه الآيات المفصلات البصائر التالية:

أ- إن الأمة إنما تستحق القيادة الرشيدة إذا كانت مستعدة لطاعة تلك القيادة، وتحقيق متطلبات القيادة. ومن هنا فقد قال نبيهم: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا. فلما أكدوا له أنهم مستعدون للقتال، طلب من الله إختيار قائد لهم.

ب- إن القائد (الملك) قد لا يكون هو النبي، بل يكون شخصاً آخر يختاره لهم النبي.

ج- إن إصطفاء طالوت للملك لم يكن بناءً على سعة ماله، بل لبسطته في العلم الذي يؤهله لمعرفة أفضل السبل، وفي الجسم الذي يساعده على قتال العدو.

د/ إن الله قد جعل لملكه آية هي التابوت الذي تحمله الملائكة، وذلك كان برهان صدقه في اختيار الله له.

٤/ ونستفيد من آية كريمة؛ إن الصبر واليقين هما صفتا القيادة الربانية للأمة، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة/ ٢٤)

وهكذا اليقين يجعل الانسان ذا رؤية شفافة، وتنبلور عنده ليس القيم والأهداف فقط، وإنما المناهج المؤدية إليها (الاستراتيجيات) أيضاً. أما الصبر فإنه ضروري لمواجهة الصعاب، التي تعترض سبيل الجهاد لبلوغ الأهداف البعيدة.

٥/ ومن الصلاحيات التي تؤهل القائد، الإحسان. قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف/ ٥٦)

٦/ وقال الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (القصص/ ١٤)

وهكذا كان جزاء الله ليوسف الصديق وموسى كليم الله عليهما السلام، الحكم والملك لإحسانهما. وفي سورة القصص مثال لنوع الاحسان الذي كان يتميز به موسى عليه السلام، وهو الدفاع عن المظلوم.

دال/ الدفاع والجهاد

١/ من سبل الملك؛ الجهاد والصبر على أذى الطاغوت بانتظار النجاة من عند الله سبحانه. وقد أذن الله سبحانه للذين يقاتلون بأنهم ظلموا؛ أذن لهم بالدفاع عن أنفسهم للعودة الى بلادهم، التي أخرجوا منها بغير حق. قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ

أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُمْ صَوَامِعَ وَبِيَعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ (الحج/٣٩-٤٠)

ويأتي تمكين الله لهم بعد أن يدافعوا عن أنفسهم بالقتال، كما قرأنا ذلك في
الآية ٤٠ من سورة الحج.

٢/ وحين قاد طالوت مقاتلي بني اسرائيل، وقتل داود جالوت قائد
الكافرين، آتاه الله الملك، قال الله سبحانه: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِأَذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ
جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
(البقرة/٢٥١)

وهكذا قدر الله الملك لداود حين قتل جالوت، وهكذا قدر الله الدفاع من أجل
منع الفساد من أن يشمل الأرض بفعل سلطة الطغاة.

٣/ والمستضعفون من بني اسرائيل الذين ابتلاهم الله بفرعون وإرهابه،
قدر الله لهم السلطة والتمكن في الأرض، فبعث الله إليهم موسى عليه السلام
نبياً وقائداً، وأورثهم الأرض التي باركها وقدسها. قال الله سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ
نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *
وَنُكَفِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُؤْتِيهِمْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا
يَحْذَرُونَ﴾ (القصص/٥-٦)

وفي قصة بني اسرائيل عبر كثيرة في جهاد المؤمنين ضد الكفار، علينا
التأمل فيها لمعرفة سبل النجاة من الطغاة والوصول الى السلطة والتمكن في
الأرض برغم أنفهم. وعلينا دراستها في مناسبة أخرى، إلا أن أبرزها دور
القائد الرباني في مسيرة النضال ضد الظالمين، وضرورة التقاف الجماهير
المستضعفة حوله، والقيام بواجبهم واستقامتهم على الطريق رغم الصعاب
بالتوكل على الله سبحانه.

٤/ والقصة لا تنحصر بقوم موسى عليه السلام، وإنما هذا الوعد الإلهي قد تكرر للمؤمنين من هذه الأمة (إذا توفرت لديهم شروط القيام لله)، حيث قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور/٥٥)

وهكذا نستفيد من الآيات؛ إن من أسباب التمكين، الجهاد في سبيل الله، والصبر على أذى الطغاة، والاستقامة مع القادة.

فقه الآيات

نهتدي باذن الله الى البصائر التالية، وذلك من خلال تدبرنا في آيات التمكين والملك:

١/ التطلع الى التمكين، بل والملك، طموح مشروع للمسلم، بل ومرغوب فيه. فعلى كل مؤمن أن يستهدف المركز القيادي إن رأى في نفسه صلاحية ذلك. كما رأينا النبي يوسف عليه السلام يقول لعزيز مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف/٥٥)

٢/ هدف المؤمن من التمكين والملك تحقيق قيم الوحي جميعاً؛ من بسط العدل، ومحاربة البغي، واقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر القيم المثلى.

٣/ لا يبحث المؤمن عن السلطة بأية وسيلة ممكنة، بل بالسبل المشروعة، وأبرزها: معرفة الأسباب واتباعها، وتوفير صلاحية السلطة في نفسه من الصبر واليقين، وأن يتبع الصدق في مدخله ومخرجه في الأمور، وأن يكون كفوءاً حفيظاً.

٤/ الدفاع عن حقوق المحرومين وقيادتهم لاستعادتها، من الوسائل المشروعة للقيادة والتمكين في الأرض.

في رحاب الأحاديث

- ١/ قال الإمام علي عليه السلام: "إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل". (١)
- ٢/ وقال عليه السلام: "خير الملوك من أمات الجور وأحيى العدل". (٢)
- ٣/ وقال عليه السلام: "من جعل ملكه خادماً لدينه، إنقاد له كل سلطان. من جعل دينه خادماً لملكه، طمع فيه كل إنسان". (٣)
- ٤/ وقال عليه السلام: "إذا بني الملك على قواعد العدل، ودعم بدعائم العقل، نصر الله مواليه وخذل معاديه". (٤)
- ٥/ في تفسير (لا حول ولا قوة إلا بالله) قال الإمام علي عليه السلام: "إننا لا نملك مع الله شيئاً، ولا نملك إلا ما ملّكنا. فمتى ملّكنا ما هو أملك به منا كلفنا، ومتى أخذنا ما وضع تكليفه عنا". (٥)
- ٦/ قال الإمام علي عليه السلام: "تاج الملك عدله". (٦)
- ٧/ وقال عليه السلام: "أفضل الملوك من حسن فعله ونيتيه، وعدل في جنده ورعيته". (٧)

(١) ميزان الحكمة، ج٩، ص١٨٧، ح١٨٦٧٦.

(٢) المصدر، ح١٨٦٨٢.

(٣) المصدر، ص١٨٨، ح١٨٦٨٧.

(٤) المصدر، ص١٨٩، ح١٨٦٩٩.

(٥) المصدر، ص١٧٦-١٧٧، ح١٨٦٦٥.

(٦) المصدر، ص١٨٨، ح١٨٦٨٨.

(٧) المصدر، ح١٨٦٨٤.

الباب الرابع

الفضائل زينة الإنسان

لا للخوف .. لا للحزن

ماذا يعني الحزن، وما علاقته بالخوف، وما هي أسبابه، وكيف نتجنبه؟ الحزن حالة الكآبة التي تطرء على النفس بعد فوت شيء منها، أو على فعل شيء يندم عليه. أما الخوف فهو خشية الانسان من فوت شيء. الحزن قد يكون من فراق عزيز (كما حزن يعقوب عليه السلام لفراق يوسف عليه السلام)، أو فقد بلد (كما حزن صاحب النبي في الغار)، أو ضياع فرصة خير (كما حزن المؤمنون عندما فاتهم الجهاد).

وقد يكون الحزن على إنسان بسبب كفره (كما يحزن الأب إذا انحرف ابنه). وقد يكون الحزن على ما فات الانسان من خير. ويتجنب المؤمن الحزن إذا بثه الى الله سبحانه، وكذلك بالتوكل عليه وبالصبر، وبما يعوضه الرب من الجنة.

هذه خلاصة بعض البصائر التي نستفيدها من أي الذكر، وإليك الحديث مفصلاً:

أولاً: معنى الحزن

الحزن ما يتحسس به الأب عند فراق ابنه، والأم عند فراق ابنها، والانسان عندما يضطر لترك وطنه، والطاغوت حينما يقوم قائد رباني ضده. هذه هي الأمثلة الأشد ظهوراً لحالة الحزن التي تطرء على القلب، وهذه هي حقائق الحزن كما نستفيدها من الآيات الكريمة التي سننلوها عليك إن شاء الله.

١/ كان حب النبي يعقوب عليه السلام شديداً لولده النبي يوسف عليه السلام. فلما أراد إخوته انتزاعه منه في رحلة الصيد حسبما أخبروه، قال لهم ما قص علينا ربنا سبحانه في كتابه: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (يوسف/١٣)

واستمر حزنه على غيابه، حتى ابيضت عيناه من الحزن. قال الله سبحانه: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف/٨٤)

٣/ وإنما يبث الشكوى الى الله سبحانه، خفف النبي يعقوب عليه السلام عن نفسه الحزن. قال الله سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف/٨٦)

٤/ وهكذا أصبح فؤاد أم موسى فارغاً من شدة الحزن على ابنها، الذي ألقته في اليم. ولكن الله سبحانه أمرها بالأحزن. قال الله سبحانه: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص/١٣)

٥/ وقال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ (طه/٤٠)

٦/ وصورة أخرى للحزن تمثلت عند آل فرعون، الذين التقطوا النبي موسى عليه السلام ليكون سبباً لحزن ممتد عندهم في المستقبل، حيث قال الله سبحانه: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۖ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص/٨)

٧/ وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله في الغار قد حزن (وخاف)، فقال الله سبحانه: ﴿إِلَّا تَتَصَرَّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا
السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة/٤٠﴾

ثانياً: دواعي الحزن

لقد سبق أن ذكرنا إن من دواعي الحزن؛ فوات ما يحبه الانسان، مثل فقد عزيز أو وطن أو ملك. وهناك دواعي أخرى مثل ضياع فرصة لعمل الخير، أو الحزن على بلاء أصابه، أو عدو تحده، أو مكر ضاق به ذرعاً، أو أي خير فاته.

وتتداخل دواعي الحزن مع سبل تجنبه في آيات الذكر، مما يدعونا الى ذكر بعض الآيات هنا وبعضها في العناوين التالية تجنباً للتكرار.

١/ بين عشية وضحاها وجدت العذراء مريم سلام الله عليها نفسها أمام مولود خلقه الله بلا أب. فكان ذلك مدعاة لحزنها، لولا أن وليدها الرضيع عليه السلام طمأنها (أو طمأنها جبرئيل عليه السلام). وقال الله سبحانه: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (مريم/٢٤)

ونستفيد من الآية؛ إنه ينبغي أن يواسى الحزين بما يذهب عنه الحزن. وقد واسى جبرئيل (على قول) مريم وأخبرها أن نهر ماء جار قد أحدث من جانبها، أو أخبرها بأنه سيكون لوليدها شأن كبير. وهكذا عليها أن تتحمل الحزن من أجله. وكلمة (سريا) تعني النهر، كما هو الانسان الشريف. وقال البعض أن عيسى هو الذي تحدث مع أمه وسلاها بأن عندها يوجد نهر قد أحدث الآن لحاجتها الى الاغتسال، والله العالم.

٢/ استنبشوا بندااء الجهاد، وتقدموا الى رسول الله صلى الله عليه وآله ابتغاء القتال تحت لواءه، ولكن النبي صلى الله عليه وآله أخبرهم بأن الشقة بعيدة وبحاجة الى ما يحملهم عليه، وهو لا يملك ما يوصلهم الى ساحة القتال. فحزنوا لذلك (ونفى الكتاب الحرج عنهم)، إذ قال سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة/٩٢)

فاضت أعينهم بكاءً على عدم امتلاكهم ما ينفقون في سبيل الله. وهكذا يحزن المؤمن على الآخرة أكثر مما يحزن على دنياه؛ يحزن إذا لم يوفق لصالح العمل، ويحزن لو ابتلي بذنوب. فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: أوصى الله الى عيسى بن مريم عليه السلام: يا عيسى هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشوع، واكحل عينك بميل الحزن إذا ضحك البطالون. (١)

ولعله من ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: إن الله يحب كل قلب حزين. (٢)

٣/ وفي صورة معاكسة تماماً كان حزن آل فرعون، الذين التقطوا النبي موسى عليه السلام وهو رضيع من البحر؛ كان حزنهم وندمهم بعدئذ شديداً، لأنهم ربوا في أحضانهم عدوهم الذي أزال الله به ملكهم، وكانوا خاطئين (لأن ملكهم كان يزول به أو بغيره، وسواءً التقطوه من البحر أم لا، بل كان التقاطهم بذاته تقديراً حكيماً من لدن رب العزة ليعلموا أنهم خاطئون). قال الله سبحانه: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص/٨)

وبقي حزن آل فرعون الى أن أغرقهم الله سبحانه في اليم وأدخلهم النار، لأنهم كفروا بالله ورسله.

٤/ ولكن حزن جبهة الحق يتبدد بالتوكل على الله (ومعرفة عظيم ملكه). فالمنافقون كانوا يتناجون فيما بينهم (ويتآمرون) بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وكان هدفهم من النجوى شح حرب نفسية ضد المؤمنين. علماً بأنهم لن يضرروا بهم شيئاً إلا بإذن الله، لأن أزمة الأمور بيده المقتدرة، وانما على المؤمنين التوكل على الله (لمقاومة الأثر النفسي من النجوى). قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المجادلة/١٠)

(١) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٧١، ح ٢.

(٢) راجع المصدر في الهامش.

ونستفيد من الآية؛ إن على من يحزن لأمر حقيقي أن يتوكل على الله، وأن يجتهد في مواصلة طريقه المرسوم من دون أن يتأثر بالحزن فينهزم أو ينطوي على نفسه أو يقنط.

٥/ والصبر عند المصيبة واليقين بأن ما أصابه ما كان ليخطئه، لأنه كان قدراً من عند ربه مقدوراً. ثم ذكر الله سبحانه، وتذكر أن الانسان مملوك له، وأنه إليه راجع؛ كل ذلك يساهم في تخفيف المصيبة، وتطهير النفس من الأثر السلبي للحزن والناشئ منها. قال الله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة/١٥٥-١٥٦)

ثالثاً: تجنب الحزن على الكفار والمنافقين

مما يحزن الرسول ومن يتبعه مسارعة الناس في الكفر، فكيف نتجنب هذا الحزن النابع من الرغبة الشديدة عند الرسول وتابعيه من الدعاة في هداية الناس به؟

الذي نستفيدة من كتاب ربنا؛ إن على الداعية أن يعطف اهتمامه من الكفار الى المؤمنين، ويخفض لهم جناح الرحمة، وان يصبر وصبره بالله، وأن يتق بوعده، وأن يتذكر أن الدنيا دار فتنة وابتلاء، وأن كفر من يكفر يدخل ضمن هذه الدائرة، وإن العزة لله، وإن إليه يرجع الخلق للحساب، وأنه يعلم ما يقوله الكفار بهدف أذى المؤمنين. بهذه البصائر وأشباهاها يخفف الداعية حزنه على مسارعة البعض الى الكفر.

١/ نهى ربنا رسوله الكريم من النظر (باهتمام أو بغيطة) الى ما متع الله الكفار من نعم مختلفة ومزدوجة، ونهاه من الحزن عليهم (لأنهم كفروا بالله وإنهم سيعذبون بكفرهم)، وأمره بأن يخفض جناحه للمؤمنين. قال الله سبحانه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر/٨٨)

نستفيد من الآية؛ إن على القائد الرباني ألا ينبهر بما لدى الكفار من إمكانيات، وإنما يهتم بالمؤمنين به ويكتفي بهم بعد الله سبحانه، حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال/ ٦٤)

ومن حقائق اهتمامه بهم؛ خفض الجناح رحمة بهم، وعطفاً عليهم. ومن حقائق ترك الاهتمام بالكفار؛ عدم الحزن عليهم، وألا يأبه بهم وبما يملكون. ونستوحي من ذلك؛ إن الانسان إذا فقد شيئاً فلا يحزن عليه، بل يركّز اهتمامه بما يملك ويطوره ويستفيد منه كيما يعوض عما فقده، والله العالم.

٢/ وإذا بدء الأعداء حبك المؤامرات، فينبغي ألا يضيق المؤمن بذلك ذرعاً، ولا يحزن عليهم لماذا لا يؤمنون بالحق. ولكن يصبر، فالصبر نجاة من مكرهم، والصبر إنما يكون بالله (ربما أشدّة وقع الحزن على النفس). قال الله سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل/ ١٢٧)

٣/ (لأن الكفار قد فقدوا قيمتهم الانسانية بكفرهم)، فإن النبي لا يحزن على كفرهم، ولا يخشى مكرهم، لأن الله ينصره عليهم. قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النمل/ ٧٠)

٤/ وهذه سنة الله في رسله السابقين. هذا النبي الكريم لوط سلام الله عليه، جاءت ملائكة ربه في صورة ضيوف، فأراد بهم قومه سوءاً، فضاق بهم لوط ذرعاً. فقالت الملائكة له: لا تخف ولا تحزن (وعدم الخوف، لأن الله ينصره عليهم. وعدم الحزن عليهم، لأنه لا قيمة لكافر)، قال الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (العنكبوت/ ٣٣)

وهكذا نجا الله رسوله والمؤمنين به من أهله، وأهلك الكافرين. وبقيت لنا من قصتهم عبرة مهمة، هي: ألا نخاف مع الله شيئاً، ولا نحزن.

رابعاً: تجاوز الحزن على ما فات

يحزن البشر على ما فاتته من نعم الله، ومن فرص الخير. ولكي يتجاوز هذا الحزن عليه أن يحظى بنعمة عظيمة تصغر معها سائر النعم على أهميتها في نفسها، وهي نعمة الهداية، والإيمان، والتسليم لله، والتقوى، والانفاق. وبكلمة؛ نعمة أن يكون من أولياء الله. وقد تكررت هذه البصيرة في القرآن لأهميتها ودورها في سكينة النفس واطمأنانها عند المؤمن. ١/ عند المواجهة مع الكفار يتسامى المؤمن على دواعي الوهن والحزن، (حتى ولو كانت الموازنة المادية مختلة لصالح الكفار)، ذلك لأنه يمتلك جوهرة تسامت على كل شيء، ألا وهي: الإيمان بالله سبحانه. قال ربنا تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران / ١٣٩) ولعل النهي عن الحزن يهدف ترضية نفوس المؤمنين بالخسائر المادية التي تلحقهم بادئ ذي بدء، لأنها تصغر عند مقايستها بالنصر والعلو الذين يرزقون عاقبة الأمر.

٢/ كذلك الإيمان بالله والاستقامة على الطريق رغم الصعاب، يذهب الحزن عن قلب المؤمن، حيث الملائكة تنزل عليهم وتبشرهم بالجنة. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت / ٣٠) بلى؛ الجنة وما أدراك ما الجنة! فحين يبشر بها المؤمنون يعرفون أن كل ثمن كانوا قد قدموه أو سوف يقدمونه لدخولها فهو قليل. فما شر بشر بعده الجنة.

٣/ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزِنُونَ﴾ (الاحقاف / ١٣)

ونستفيد من الآية؛ إن الاستقامة تستدعي تنزل الملائكة عليهم بالبشرى وهم في دار الدنيا، لكي تثبتهم على الطريق.

٤/ ومنذ أن أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة الى الأرض، ذكّر بني آدم بأن الخوف والحزن يصيبان من لم يتبع هدى الله. أما الذين يتبعون هدى ربهم

باتباع الرسل والآيات، فإنهم في أمان من الخوف (على المستقبل)، لأن الله قد وعدهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ولأنه سبحانه هو الحفيظ لهم الذي ضمن لهم الأمن. كما لا حزن لهم (على ما فاتهم)، لأن الله يعوضهم، وأن إليه المصير. قال الله سبحانه: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/ ٣٨)

٥/ والأمر ليس مختصاً بالمؤمنين من هذه الأمة، بل يدور الأمر مدار الإيمان والعمل الصالح أنى كان، وفي أية أمة مؤمنة تتبع الرسل. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/ ٦٢)

٦/ وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة/ ٦٩)

٧/ وإذا أسلم الانسان نفسه لله، وسلم للحق النازل من لدنه تسليماً، وأطاع الرسل بلا جدال، فإنه يحظى بنعمة السكينة، فلا خوف عليه ولا حزن. قال الله سبحانه: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/ ١١٢)

٨/ ومحور الأمن عند المؤمن ثقته بالمستقبل، وإيمانه بأن الله تعالى لا يضيع أجره. فإذا أنفق لم يخف الفقر ولم يحزن على ما فاتته من أمواله، لأنه لم يفته شيء منها، إنما هي مودعة عند رب لا تضيع عنده الودائع. قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا انْفَقُوا مَنّاً وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/ ٢٦٢)

٩/ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/ ٢٧٤)

١٠ / وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة آية صدق إيمان المسلم، فإذا أداها فإنه يحظى بالأمن والسكينة. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/٢٧٧)

١١ / وتتجلى سكينة الإيمان في القيامة، حيث يستبشر المؤمنون السابقون بالذين يلحقون بهم من إخوانهم، لأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قال الله سبحانه: ﴿فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران/١٧٠)

١٢ / والسكينة هي ميراث الرسالات الإلهية، فما من نبي إلا وقد بعث بالبشرى لمن آمن وأصلح، أنه لا خوف عليه ولا حزن. قال الله سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الانعام/٤٨)

١٣ / وقال سبحانه: ﴿يَا بَنِي ءَادَمِ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الاعراف/٣٥)

١٤ / وولاية الله حصن لمن قبلها بصدق، فإن أولياء الله لا خوف عليهم مما يأتي ولا حزن لما فات. قال الله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس/٦٢)

١٥ / والتقوى درع لمن تسربل بها، فهي أمان من الحزن. قال الله سبحانه: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الزمر/٦١)

١٦ / ومن حقائق ذهاب الحزن عن المؤمن بالرغم من شدة ابتلاءه، إنه يشكو بثه وحزنه الى الله. (ومن يجد من يبيت إليه شكواه فيسمعه ويستجيب له، كيف لا تطمان نفسه)؟ قال الله سبحانه (على لسان النبي يعقوب عليه السلام): ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف/٨٦)

وكذلك نجد في قصة الإمام الحسين عليه السلام وريث الأنبياء، أنه قال عند ذبح رضيعه في حجره: "هَوْنٌ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بَعِينُ اللَّهِ". (١)

١٧/ ويحمد المؤمنون ربهم، لأنه أذهب عنهم الحزن. (في يوم القيامة لا يحزنون على خطاياهم، لأن ربهم قد غفرها لهم). قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر/٣٤)

١٨/ وفي يوم القيامة، حيث الخلائق في حزن وخوف، وحيث الفرع الأكبر، ترى المؤمنين في سكينة، (لأنهم قد حصلوا عليها في الدنيا بايمانهم). قال الله سبحانه: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء/١٠٣)

خامساً: لكي لا تحزن الرسل

والرسول – ومن يتبع نهجه – يواجه تحديات كبرى، والله سبحانه يذكرهم بما يزيدهم استقامة وتبتيماً. فيذكرهم أن كفر المكذبين لا يضر الله شيئاً، وأن تكذيبهم إنما هو بآيات الله بالرغم من أن في ظاهره تكذيب بالرسول أو بالدعاة الى الله. وأن مظاهر القوة التي يملكونها ليست بشيء، لأن العزة لله جميعاً، وإن المرجع الى الله، وإن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون.

١/ كانوا يسارعون في الكفر (بعد الإيمان)، وكان مدعاة لحزن المؤمنين إذ يجدون جبهة الحق تضعف أمام جبهة الباطل، فجاءهم الذكر بالسكينة، وأخبرهم أنهم لا يضررون الله شيئاً وإنما يضررون أنفسهم، إذ إن الله يريد ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة؛ فهم يضيعون أعمالهم الصالحة بكفرهم وارتدادهم. قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران/١٧٦)

(١) حياة الإمام الحسين بن علي (ع) للقرشي، ج٣، ص٢٨٦.

٢/ وكانوا يكذبون الرسول، ويكذبون الدعاة الى الله، وكان ذلك مدعاة للحزن. ولكن هل هذا التكذيب كان لنقص في الدعوة أو في دلائلها وشواهداها؟

كلاً؛ إنما كان بسبب أزمة في أنفسهم، لأنهم ظالمون. قال الله سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الانعام/٣٣)

٣/ وكان الكفار يستهزئون بالرسول وبالذعاة، وكان ذلك سبباً للحزن. ولكن الله أخبرهم بأن العزة لله جميعاً، فهو سبحانه ودينه ورسوله هم الأجزاء، بينما الكفار هم الأذلاء. قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يونس/٦٥)

٤/ والله يعلم ما يقولون، ويعلم ما يسرون في أنفسهم، وهو يحيط قدرة بهم، فلماذا الحزن؟ قال الله سبحانه: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (يس/٧٦)

٥/ وهم بالتالي يرجعون الى ربهم، ويرون أعمالهم ويحزنون بها، فلا داعي للحزن من جراء أعمالهم أو أقوالهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِنِّيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (لقمان/٢٣)

فقه الآيات

لأن الحزن يعطل طاقات الانسان، ويشل فعاليته، فقد نهى عنه. وجاء في القرآن الكريم ما يشفي النفس منه، ويطهرها من آثاره. وتبعاً لموارد الحزن المختلفة نتحدث فيما يلي عن حقائق الحزن:

١/ إذا استبد الحزن بالقلب جراء خوف أو ندم أو مصيبة، فإن تصرفات الانسان تصبح غير حكيمة. ومن هنا كان على المسلم مواجهة أسباب الحزن بالذات، إذا كان مصدره عملاً في سبيل الله. ومن سبل مواجهته التواصي

باجتنابه، كما فعل النبي صلى الله عليه وآله بصاحبه في الغار، إذ قال له: لا تحزن إن الله معنا.

والخوف والحزن والفرح وسائر الحالات النفسية تغيرات عاطفية في النفس البشرية، ولا بد من ضبطها وتوجيهها بالعقل والعلم وتذكر الحقائق الموضوعية؛ مثلاً عند الحزن أو الخوف نتذكر قدرة الله سبحانه وأنه مع المؤمنين. فقد ذكر النبي موسى سلام الله عليه قومه عندما خافوا مطاردة جيش فرعون لهم، فقال: إن معي ربي سيهدين؛ وكذلك قال الله لموسى وهارون عليهما السلام، إذ قال لهما: أني معكما أسمع وأرى. ومن هنا فإن علينا ذكر الله كلما مررنا بطائف من الخوف أو الحزن أو أية حالة عاطفية طاغية.

٢/ لكل منا عينان؛ واحدة تنظر الى الايجابيات، والثانية إلى السلبيات. فبالأولى نرى نعم الله علينا، وبالثانية مواطن الضعف والعجز لدينا. بالأولى نبصر من معنا، وبالثانية من هو ضدنا..

والانسان الايجابي يركّز اهتمامه بالجانب الايجابي، فيرى النعم فيشكر الله عليها. وإذا صُرف بصره الى النواقص صبر عليها انطلاقاً من النعم. ومن هنا قرنت صفتا الشكر والصبر في آية قرآنية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (ابراهيم/٥)، وجاء في الدعاء: "اللهم إني أسألك صبر الشاكرين لك". (١)

والقائد الناجح هو الذي يستفيد من القدرات التي يمتلكها هو وأفراده بأقصى قدر ممكن، ويثق بها. بينما القائد الفاشل ينهزم نفسياً بالنظر دائماً الى قوة العدو، وقد يبالغ فيها.

ولأن الحرب هي صراع إرادات قبل أن تكون موازين قوى، فإن على القادة أن يتجنبوا الاهتمام بقوة العدو، وانما يركزوا على قوتهم. وقد أمر الله

(١) مفاتيح الجنان، أدعية الأيام في رجب، ص ١٣٣.

رسوله بأن يكتفي بعد التوكل على الله بمن اتبعه من المؤمنين، فقال سبحانه:
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال/ ٦٤)
وكما أمره بالألّا يمد عينيه إلى ما متع الكفار من نعم، وألّا يحزن عليهم، بل
يخفض جناحه للمؤمنين.

٣/ الجانب النفسي في الصراع جانب هام، وقد نصر الله المسلمين
بالرعب، وقد أمر سبحانه بأن يرهبوا العدو. والأعداء يحاولون أن ييثوا
الرعب في نفوس المؤمنين؛ سواءً بالاشاعات التي ييثونها، أو باستعراض
القوة أمامهم، أو عبر الطابور الخامس الذي يؤيدهم.

وعلى المسلمين أن يواجهوا السلاح النفسي للعدو بالمزيد من الصبر،
والتوكل على الله، والثقة بوعده لهم بالنصر، وبعدم الضيق مما يمكر الأعداء.
فلا يجوز أن نبالغ في قوة العدو، أو نخشى مكره، أو ننهزم أمام إرهابه.

الأعداء يبالغون في استخدام القوة المادية. وقد يكون ميزان القوة يرجح
جانبيهم. أما المسلمون فهم يتذكرون أبدأً وعد الله لهم بالنصر، وبأن العدو لا
يضر بهم شيئاً إلا باذن الله، وإنهم يرجون من ثواب الله ما لا يرجوه الكفار
الذين لا حظ لهم في الآخرة، بل لهم عذاب عظيم. وهكذا يستفيد المؤمنون من
الركائز المعنوية التي يملكونها إلى أقصى حد ممكن.

كل ذلك ليس فقط في الحرب المعلنة، بل وأيضاً في كل جوانب الصراع،
فإن على المؤمنين ألاّ يسمحوا للوحشة أو الحزن أن يضعفهم، إنما يتمتعون
أبدأً بقوة معنوية عالية.. فلا ينهارون أمام وسائل الاعلام المضللة لمجرد
وجود بعض الامكانات المادية المتطورة لدى الكفار، بل يعتمدون على الحق
الذي لديهم حتى ولو ضعفت إمكاناتهم المادية.

٤/ وهكذا لا يتأثر المجاهدون بالحرب المعنوية التي تشن ضدهم، فيتهمون
بالعنف والارهاب، أو بالتمرد والعصيان، أو بالسفه والجنون.. مع ذلك هذه
الحرب لن تفتت من عضدهم شيئاً، لأنهم على بصيرة من أمر دينهم، وعلى
هدى من ربهم، وعلى يقين بنصر الله لهم. وهكذا مدح ربنا هؤلاء الصفوة من

خلقه بأنهم لا يخافون لومة لائم. حيث قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ
ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة/٥٤)

كظم الغيظ عزّ

المؤمن يغلب هوى نفسه، بينما الهوى يغلب غيره. والغيظ يهيمن على قلب البشر، ويحجب عنه نور العقل والعلم، ويشط به عن الحكمة والحلم؛ بينما المؤمن يتعالى على غيظ نفسه، ويجترع الغصة، ويتسم بالحلم والحكمة في التصرف.

١/ قال الله تعالى في صفة المتقين: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَآظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران / ١٣٤)

٢/ وضرب القرآن لنا مثلاً رائعاً عن كظم الغيظ في شخصية النبي يعقوب عليه السلام، الذي ابتلي بضياح قرّة عينه يوسف عليه السلام سنين متطولة، ولكنه كظم غيظه، وقال عنه ربنا سبحانه: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف / ٨٤)

في رحاب الأحاديث

١/ عن سيف بن عميرة، قال: حدثني من سمع أبا عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام يقول: "من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه، أملاً الله قلبه يوم القيامة رضاه". (١)

٢/ قال أبو عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام: "ما من عبد كظم غيظاً إلاّ زاده الله عز وجل عزاً في الدنيا والآخرة، وقد قال الله عز وجل:

(١) الكافي، ج ٢، ص ١١٠، ح ٦.

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ وأثابه الله مكان
غيظه ذلك". (١)

٣/ عن أبي الحسن الأول (الإمام موسى الكاظم) عليه السلام، قال: "اصبر
على أعداء النعم، فإنك لن تكافي من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله
فيه". (٢)

٤/ وأشد ما يحتاجه الانسان من كظم الغيظ عند تسلط الأعداء، وقبل الإذن
بمواجهتهم؛ أي عند الهدنة والتقية. وفي ذلك يقول الحديث الشريف عن أبي
عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام: "كظم الغيظ عن العدو في دولاتهم تقية
حزم لمن أخذ به وتحرز من التعرض للبلاء في الدنيا، ومعاندة الأعداء في
دولاتهم ومماظتهم في غير تقية ترك أمر الله. فجاملوا الناس، يسمن ذلك لكم
عندهم، ولا تعادوهم فتحملوهم على رقابكم فتذلوا". (٣)

(١) المصدر، ح ٥.

(٢) المصدر، ص ١٠٩، ح ٣.

(٣) الكافي، ج ٢، ص ١٠٩، ح ٤.

الحلم زين العلم

الحلم من جنود العقل، ومن تجليات الايمان في القلب، وهو زين العلم. والحليم اسم كريم من أسماء الرب سبحانه. فاذا رجح عقل الانسان، لم تستخفه الحوادث الصغيرة، وبقي متعالياً على الظروف المتغيرة، وإنما الحلم ميراث تصديق الفرد بالسنن الالهية الثابتة.

وقد نكرنا كتاب ربنا باسم ربنا "الحليم" مقارنةً مع اسم المغفرة، لأنه يصبر على ذنوب عباده حتى يستغفروه فيعفو عنهم، ولا يبادر بأخذهم بذنوبهم، ولو فعل لما بقي على الأرض من دابة .

وذكرنا القرآن باسم الحليم مع اسم العليم بما يخفى على الناس من الفواحش الباطنية .

وجاء هذا الاسم الكريم مقروناً باسم الغني - مرة واحدة - عند الأمر بالصدقة، كما ذكر باسم الشكور مع هذا الاسم عند الأمر بالقرض.

١/ لا يؤاخذ الله عبداً بادر عند الغضب باليمين ثم ندم، ولكن يحاسب على ما عقد عليه قلبه (من اليمين)، فعليه أن يلتزم به. والله يعفو عن كثير مما تكسب القلوب من الذنوب (كالحسد قبل إظهاره) ويحلم عن كثير منها، بأن يؤخر جزاءها لأعطاء العبد فرصة التوبة منها. قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة / ٢٢٥) .

٢/ وكذلك ما تكسب قلوب الناس فيما يتصل بنكاح المطلقات (وقد يكون فيه من تمنيات باطلة) يعلمها الله. وعلينا أن نراقب الله في أفكارنا وأمنياتنا، ولكن حلم الله ومغفرته يأتيان على كثير من الذنوب القلبية قبل إظهارها بقول

أو عمل. قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاخْذَرُوا
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة / ٢٣٥) .

٣/ وحين ينهى ربنا عن الصدقة التي يتبعها أذى، يذكرنا بأنه غني (لا
يريد مثل هذه الصدقة)، وهو حلیم (لا يعجل عقوبة الذين يتبعون صدقاتهم
بالمن والأذى). قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ
يَتَّبَعُهَا أذى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾ (البقرة / ٢٦٣) .

٤/ أما عند بيان عفو الله عن الذين تولّوا يوم المواجهة، فإن القرآن يذكرنا
بأن الله غفور (فقد عفى عن المذنبين التائبين)، وحليم (لم يعجل عليهم
العقاب). قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا
اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾
آل عمران / ١٥٥) .

٥/ وعند تبيان أسهم الورثة، يذكرنا الرب بأنه عليم حلیم. (فيعلم عدد
الأسهم المختلفة للورثة، ويحلّمه لا يعجل المضارّين منهم بالعقاب). قال الله
تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ
فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا
تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ
أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ
مَنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَلِيمٌ﴾ (النساء / ١٢) .

٦/ أما الذين سألوا عن أشياء (لم يكلفوا علمها)، فقد عفا الله عنهم وذكرهم
بأنه غفور حلیم. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ
تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا
وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (المائدة / ١٠١) .

٧/ ولما أمر الله عباده بأن يقرضوه قرضاً حسناً ليضاعفهم، ذكّرهم بأنه شكور (إن أقرضوه)، حلیم (إن استأثروا بالمال). قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن/ ١٧).

٨/ والله سبحانه يعلم بما يكسبه عباده (من خير وشر)، ولكنه حلیم (لا يبادرهم بالجزاء). قال الله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (الحج / ٥٩) .

٩/ والسموات السبع والأرض ، ومن فيهن يسبحون لله وهو حلیم غفور. (ولعل هذا ما يدعوهم الى تسبيح الله وحمده، فهو قدوس عن التأثير بأفعال خلقه، وهو حميد لغفران ذنوبهم، والله العالم). قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الاسراء / ٤٤) .

١٠/ والله يعلم ما تكن صدور عباده، (ولكنه لا يبادرهم بالجزاء حتى يظهره بعمل أو قول، ثم لا يستغفروا). قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (الاحزاب/ ٥١) .

١١/ والله يمسك السموات والأرض ، من أن تزولا (بالرغم من ذنوب عباده)، وإنه حلیم غفور (ومن حلمه دوام رحمته بالرغم من ذنوب عباده). قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر/ ٤١).

١٢/ والحلم من صفات الأنبياء عليهم السلام، وكان النبي إبراهيم الخليل قدوة فيه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (هود / ٧٥) .

فقد تجلت صفة الحلم في النبي إبراهيم عليه السلام حين جادل ربه في قوم لوط، وحاول أن يدعو لأولئك الضالين بالرغم من انحرافهم، ليرفع الله عنهم العذاب ويعطيهم فرصة أخرى للتوبة.

١٣/ كذلك تجلت ذات الصفة في النبي شعيب عليه السلام، حيث يقول قومه له: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود/ ٨٧) .

١٤ / كذلك تجلت صفة الحلم في النبي إسماعيل الذبيح الذي سلم نفسه لأمر ربه
بذبحه، وهكذا بشر الله النبي إبراهيم بإسماعيل غلاماً حليماً. قال الله تعالى: ﴿
فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات/١٠١).

بصائر الآيات

١ / الحلم من جنود العقل وتجليات الايمان، وهو زين العلم. وإذا رجح
العقل تعالى صاحبه على المتغيرات، وتمسك بالسنن الثابتة. والله حلیم ذو أناة،
فلا يعجل بأخذ المذنب، بل يمهل به فضله لعله يتوب.
٢ / وقورن إسم الحلم بأسماء الله الحسنى؛ الغفور، والعليم، والغني. والحلم
من صفات الأنبياء، وكان النبي إبراهيم عليه السلام قدوة فيه، كما تجلت عند
النبي شعيب عليه السلام، وعند النبي إسماعيل الذبيح عليه السلام.

في رحاب الأحاديث

١ / عن محمد بن عبيد الله، قال: سمعت (الإمام علي بن موسى) الرضا
عليه السلام يقول: لا يكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً، وإن الرجل كان إذا
تعبد في بني إسرائيل لم يعدّ عابداً حتى يصمت قبل ذلك عشر سنين. (١)
٢ / عن زرارة، عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام، قال: كان
علي بن الحسين عليهما السلام يقول: إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند
غضبه. (٢)
٣ / قال الامام الحسن عليه السلام: الحلم زينة. (٣)
٤ / قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: الحلم حجاب من الآفات.
(٤)

(١) الكافي، ج ٢، ص ١١١.
(٢) الكافي، ج ٢، ص ١١٢.
(٣) ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٥١٢.
(٤) المصدر.

- ٥/ وقال عليه السلام: الحلم رأس الرئاسة. (١)
- ٦/ وقال عليه السلام: الحلم عشيرة. (٢)
- ٧/ وقال عليه السلام: الحلم نور، جوهره العقل. (٣)
- ٨/ وقال عليه السلام: الحلم تمام العقل. (٤)
- ٩/ وقال عليه السلام: الحلم نظام أمر المؤمن. (٥)
- ١٠/ وقال عليه السلام: لا عزّ أنفع من الحلم. (٦)
- ١١/ وقال عليه السلام: وجدت الحلم والاحتمال أنصر لي من شجعان الرجال. (٧)
- ١٢/ وقال عليه السلام: من غاظك بقبح السفه عليك، فغظه بحسن الحلم عنه. (٨)
- ١٣/ وقال عليه السلام: إن لم تكن حليماً فتحلّم، فإنه قلّ من تشبّه بقوم إلاّ أوشك أن يكون منهم. (٩)
- ١٤/ وقال عليه السلام: من لم يتحلّم لم يحلم. (١٠)
- ١٥/ وقال عليه السلام: الحلِيم من احتمل إخوانه. (١١)
- ١٦/ سئل الإمام علي عليه السلام عن أقوى الخلق: قال: الحلِيم. (١٢)

-
- (١) المصدر.
(٢) المصدر.
(٣) المصدر.
(٤) المصدر.
(٥) المصدر.
(٦) المصدر.
(٧) المصدر.
(٨) المصدر.
(٩) المصدر.
(١٠) المصدر.
(١١) ميزان الحكمة، ج٢، ص٥١٤.
(١٢) المصدر.

١٧/ قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: بوفور العقل يتوفر الحلم.

(١)

١٨/ وقال عليه السلام: الحلم والأناة توأمان تنتجهما علو الهمة. (٢)

١٩/ وقال عليه السلام: من حلم ساد. (٣)

٢٠/ وقال عليه السلام: السلم ثمرة الحلم. (٤)

٢١/ قال الإمام الصادق عليه السلام: يظفر من يحلم. (٥)

٢٢/ قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: من حلم من عدوه ظفر

به. (٦)

٢٣/ وقال عليه السلام: إنّ أول عوض الحليم من خصلته أن الناس أعوانه

على الجاهل. (٧)

٢٤/ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ... فأما الحلم؛ فمنه ركوب

الجميل، وصحبة الأبرار، ورفع الضعة، ورفع الخساسة، وتشهي الخير،
ويقرب صاحبه من معالي الدرجات، والعمو، والمهل، والمعروف، والصمت.

فهذا ما يتشعب للعاقل بحلمه. (٨)

٢٥/ قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: الحلم عند شدة الغضب

يؤمن غضب الجبار. (٩)

٢٦/ قيل للإمام الحسن بن علي عليهما السلام: ما الحلم؟ قال: كظم الغيظ

وملك النفس. (١)

(١) المصدر عن غرر الحكم.

(٢) المصدر، ص ٥١٥.

(٣) المصدر.

(٤) المصدر.

(٥) المصدر.

(٦) المصدر.

(٧) المصدر.

(٨) المصدر.

(٩) المصدر، ص ٥١٦.

- ٢٧/ قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: ليس الحليم من عجز
فهجم، وإذا قدر انتقم؛ إنما الحليم من إذا قدر عفى، وكان الحلم غالباً على
أمره. (٢)
- ٢٨/ وقال عليه السلام: كمال العلم الحلم، وكمال الحلم كثرة الاحتمال
والكظم. (٣)
- ٢٩/ قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: ما شيب شيء بشيء من حلمٍ
بعلم. (٤)
- ٣٠/ قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: لن يثمر العلم حتى يقارنه
الحلم. (٥)
- ٣١/ قال لقمان الحكيم: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب. (٦)
- ٣٢/ سئل الإمام علي عليه السلام عن أحلم الناس، فقال: الذي لا يغضب.
(٧)
- ٣٣/ قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: آفة الحلم الذل. (٨)
- ٣٤/ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: بسط الوجه زينة الحلم. (٩)

-
- (١) المصدر.
(٢) ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٥١٦.
(٣) المصدر.
(٤) المصدر، ص ٥١٧.
(٥) المصدر.
(٦) المصدر.
(٧) المصدر، ص ٥١٨.
(٨) المصدر، ص ٥١٩.
(٩) المصدر، ص ٥٢٠.

العفو تاج المكارم

العفو ميراث التقوى، والله أعد للمتقين جنات عرضها السموات والأرض. وعلى من أوسع الله عليه من فضله، أن يوسع الناس فضلاً وعفواً، ليغفر الله له. وقد يكون أقرب الناس إليك فتنة لك (كالزوجة والأولاد)، فعليك أن تتعامل معه بحذر وبعفو وصفح. ومن يرجو العفو من الله فليصفح عن الناس. والله سبحانه قد سمح لمن أسىء إليه أن يرد إساءته بمثلها، ولكنه رغبه في العفو والإصلاح، ووعد أجرأ من لدنه. والعفو من خلق النبي صلى الله عليه وآله، فأحرى بنا أن نقندي به. وحتى الكفار ينبغي أن يصفح المسلمون عنهم (في ظروف الهدنة)، حتى يأتي الله بأمره (لجهادهم). والتائب من المشركين يحظى بفرصة العفو عنه. وعلى من شمله العفو أن يتبعه بمعروف (فلا يستغل العفو في الاسترسال في الظلم).

كانت هذه بصائر حول العفو استوحيناها من آيات الذكر، دعنا نتدبر أكثر فأكثر في تلك الآيات، ونستفيد منها المزيد من حقائق العفو في القرآن والسنة. /١ (حينما يزداد الإنسان إيماناً وتقوى، يتحلى بمكارم الأخلاق؛ ومنها العفو الذي يبين الكتاب صلته بالتقوى). قال الله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة/ ٢٣٧). فالعفو ميراث التقوى، والتقوى ميراث الإيمان.

/٢ وقد أعد الله جنات عريضة للمتقين، ومن أبرز صفاتهم عفوهم عن الناس. قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ آل عمران / ١٣٣-١٣٤) .

٣/ وعلى أصحاب الفضل والسعة أن يوسعوا الناس من مالهم وحسن أخلاقهم، وذلك طمعا في مغفرة الله لهم . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِيَ الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النور / ٢٢)

ونستوحي من الآية؛ إن الأغنياء والعلماء والوجهاء والمسؤولين أولى من غيرهم بالعفو، عمن هو أقل منهم درجة.

٤/ وعلى المؤمنين أن يحذروا أقرب الناس إليهم، ولكن في ذات الوقت لا يغلظون عليهم ، بل يصفحون عنهم ويغفرون لهم (لكي لا ينفروا الناس عن دين الله). قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التغابن / ١٤) .

ولعل معنى العداوة هنا، إنهم فتنة للانسان.

٥/ إن كل إنسان ينتظر العفو من ربه، فعليه أن يعفو عمن هو دونه ليغفر الله له . قال الله تعالى: ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخْفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا ﴾ (النساء / ١٤٩) .

٦/ ورغب الله سبحانه في العفو عن سيئات الآخرين، ووعدهم بالأجر الذي ضمنه لهم. قال الله سبحانه: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (الشورى / ٤٠) .

٧/ والله سبحانه أمر رسوله بالعفو، (فأحرى بنا من أن نتبعه). قال الله سبحانه: ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة/ ١٣)

٨/ وحتى مع الكفار من أهل الكتاب، الذين ودوا لو يكفر المسلمون، أمر الله بالصفح والعفو عنهم، حتى يأتي الأمر بمواجهتهم. (لعل الصفح جاء في

ظروف التعايش السلمي معهم). قال الله سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة / ١٠٩)

٩/ كذلك العفو محمود بالنسبة الى التائبين من المشركين، الذين أمر الله بإطلاق سراحهم إن هم إلتزموا بشروط التوبة. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة/ ٥).

١٠/ (ومن عفى فإنما ابتغى أجر ربه)، ومن عفى له من أخيه فعليه أن يتبع عفوهُ بالمعروف. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة / ١٧٨).

في رحاب الأحاديث

- ١/ قال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته: ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟ العفو عن ظلمك، وتصل من قطعك، والاحسان الى من أساء إليك، واعطاء من حرمك. (١)
- ٢/ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالعفو، فان العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يعزكم الله. (٢)
- ٣/ عن حمران، عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه السلام قال: الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة. (٣)
- ٤/ قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: العفو تاج المكارم. (٤)

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٠٧، ح ١.

(٢) المصدر، ص ١٠٨، ح ٥.

(٣) المصدر، ح ٦.

(٤) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٣٦٦، ح ١٢٨٧٠.

- ٥/ قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة؛ تعفو عمّن ظلمك، وتصل من قطعك، وتحلم إذا جهل عليك. (١)
- ٦/ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا أوقف العباد نادى مناد: ليقم من أجره على الله، وليدخل الجنة. قيل: من ذا الذي أجره على الله؟ قال: العافون عن الناس. (٢)
- ٧/ وقال صلى الله عليه وآله: تعافوا تسقط الضغائن بينكم. (٣)
- ٨/ وقال صلى الله عليه وآله: إن الله عفوّ يحب العفو. (٤)
- ٩/ وقال صلى الله عليه وآله: رأيت ليلة أسري بي قصوراً مستويةً مشرفةً على الجنة، فقلت: يا جبريل لمن هذا؟ فقال: للكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين. (٥)
- ١٠/ وقال صلى الله عليه وآله: من أقال مسلماً عثرته، أقال الله عثرته يوم القيامة. (٦)
- ١١/ قال الإمام الصادق عليه السلام: إنا أهل بيت مروّتنا العفو عمّن ظلمنا. (٧)
- ١٢/ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من كثر عفوّه مدّ في عمره. (٨)
- ١٣/ عن ابن فضال قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: ما التقت فئتان إلاّ نصر أعظمهما عفواً. (٩)
- ١٤/ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عفو الملك، عقال الملك. (١)

(١) المصدر، ص ٣٦٧، ح ١٢٨٧٢.

(٢) المصدر، ح ١٢٨٧٣.

(٣) المصدر، ح ١٢٨٧٦.

(٤) المصدر، ح ١٢٨٧٧.

(٥) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٣٦٧، ح ١٢٨٧٨.

(٦) المصدر، ح ١٢٨٧٩.

(٧) المصدر، ح ١٢٨٨٠.

(٨) المصدر، ص ٣٦٨، ح ١٢٨٨٤.

(٩) المصدر، ١٢٨٨٦.

- ١٥/ وقال صلى الله عليه وآله: عفو الملك أبقي للملك. (٢)
- ١٦/ وقال صلى الله عليه وآله: تجاوزوا عن الذنب ما لم يكن حداً. (٣)
- ١٧/ وقال صلى الله عليه وآله: تجاوزوا عن ذنوب الناس يدفع الله عنكم بذلك عذاب النار. (٤)
- ١٨/ وقال صلى الله عليه وآله: تجاوزوا عن عثرات الخاطئين يقيكم الله بذلك سوء الأقدار. (٥)
- ١٩/ قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: شيئان لا يوزن ثوابها؛ العفو والعدل. (٦)
- ٢٠/ وقال عليه السلام: قلّة العفو أقبح العيوب، والتسرّع الى الانتقام أعظم الذنوب. (٧)
- ٢١/ وقال عليه السلام: شر الناس من لا يعفو عن الزلّة، ولا يستر العورة. (٨)
- ٢٢/ ومن كتاب كتبه عليه السلام للأشتر لما ولّاه مصر، جاء فيه: ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتتم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه... ولا تتدمن على عفو ولا تبجنن بعقوبة. (٩)

(١) المصدر، ح ١٢٨٨٧.

(٢) المصدر، ح ١٢٨٨٨.

(٣) المصدر، ح ١٢٨٨٩.

(٤) المصدر، ح ١٢٨٩٠.

(٥) المصدر، ح ١٢٨٩١.

(٦) المصدر، ح ١٢٨٩٢.

(٧) المصدر، ح ١٢٨٩٤.

(٨) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٣٦٨، ح ١٢٨٩٥.

(٩) المصدر، ص ٣٦٩، ح ١٢٨٩٨.

التواضع شرف

ماهي حقائق التواضع، وكيف تتصل بكلمة الصدق وروح الايمان، ولمن يتواضع المؤمن؟
الإجابة عن هذه الأسئلة تعرفنا بهذه القيمة، كما تزيدنا وعياً بأفاق الشرف الانساني الرفيع.

أولاً: حقائق التواضع

الضعة في النفس تورث الكبر، لأن الحقير في نفسه يحاول جبر إحساسه الداخلي بالصغار، باظهار الرفعة والعلو، وإرتداء ثوب التكبر الفضفاض. بينما ميراث شرف النفس التواضع. وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: "ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه".
(١)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "لا حسب إلا بتواضع"، (٢) وقال الإمام علي عليه السلام: "التواضع زينة الحسب"، (٣) وقال الإمام علي عليه السلام: "التواضع زكاة الشرف". (٤)
١/ ونستفيد من آية كريمة؛ إن التواضع الحميد هو الذي يفيض من قلب مفعم بالعزة والكرامة. قال الله سبحانه في صفة خيرة المؤمنين: ﴿يَا

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٢٥، ح ١٧.

(٢) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٥٠٠، ح ٢١٥١٦.

(٣) المصدر، ح ٢١٥١٩.

(٤) المصدر، ح ١٥٢١.

أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿المائدة/٥٤﴾

إن صلة هذه الطائفة المختارة من المؤمنين، صلتهم بربهم التي سمت الى درجة الحب المتبادل، حيث أن الله يحبهم وهم يحبونه، جعلهم يحبون بعضهم ويتساهلون في علاقاتهم حتى يحسب الناظر إليهم أنهم أدلة على بعضهم. بلى؛ إن ذلتهم ليست لبعضهم، وإنما على بعضهم؛ أي تبقى الكرامة هي شعورهم الداخلي.

أوليسوا هم عباد الله المكرمين، الذين لا يشعرون بالضعف ولا بالهوان ولا بالذل؟ وكيف يكون ضعيفاً من يتوكل على الله، وكيف يكون ذليلاً من يستمد القوة من ربه القوي العزيز؟ قال الله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لَنْ نَرَجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَنُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون/٨)

٢/ الرحمة ينبوع التواضع، فالقلب الرحيم الذي لا ينغلق على ذاته، ولا يفكر فقط في مصالحه، بل يرفرف في رحاب البشر، بل في رحاب الخليفة، ويفكر في خير الجميع.. ذلك القلب يفيض منه التواضع؛ والذي يتجلى في خفض الجناح كما الطير يخفض جناحه لافراخه رحمة بها وتمهيداً لاطعامها، كذلك الولد الوفي يخفض جناحه لوالديه شكراً لهما على ما بذلاه في خدمته حينما كان صغيراً، وكانا يخفضان له أجنحة الرحمة لتربية روحه بالعاطفة، وجسمه بالطعام والشراب، وعقله بالتعليم والتأديب.

هذا بعض ما نستوحيه من قول الله سبحانه: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الاسراء/٢٤) وفي كلمات النبي وأهل بيته عليه وعليهم صلوات الله وسلامه تبيان حقائق التواضع، وبتعبيرات بالغة الوضوح.

أ- فأبرز حقائق التواضع؛ العبادة الخالصة لله سبحانه. ولقد جاء في بيان فلسفة العبادات عن الإمام علي عليه السلام: "... ولما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً، والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً، ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذلاً". (١)

وفي حديث آخر عن حكمة إجتباء النبي موسى عليه السلام، روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: "أوحى الله عز وجل الى موسى عليه السلام: أن يا موسى أتدري لم اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا ربّ ولم ذلك؟ قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا موسى إنّي قَلِّبت عبادي ظهراً لبطن، فلم أجد فيهم أحد أذلّ لي نفساً منك. يا موسى إنك إذا صلّيت وضعت خدك على التراب - أو قال: على الأرض -". (٢)

إذاً التذلل لله وإظهار العبودية بارغام الوجه والخد في التراب، من حقائق التواضع والعبودية لرب العالمين سبحانه. وتتجلى هذه الصفة في الأنبياء عليهم السلام والملائكة، حيث جاء في الحديث في صفة الرسل عليهم السلام عن الامام علي عليه السلام: "ولكنّه سبحانه كرّه إليهم التكبر، ورضى لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وغفروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين". (٣)

وأيضاً قال عليه السلام في صفة الملائكة: "جعلهم الله فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه، وحملهم الى المرسلين ودائع أمره ونهيه.... وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة". (٤)

كما تتجلى في أولياء الله المتقين، حيث جاء في الحديث عن الامام علي عليه السلام: "ملبسهم الإقتصاد، ومشيهم التواضع". (٥)

(١) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٥٠١، ح ٢١٥٣٠.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٣، ح ٧.

(٣) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٥٠١، ح ٢١٥٢٧.

(٤) المصدر، ح ٢١٥٢٩.

(٥) المصدر، ح ٢١٥٢٨.

ب- ومن حقائق التواضع البساطة في المأكل والمشرب والثياب.
وقد زهد النبي في طعام الدنيا تواضعاً، كما نقرأ في الرواية التالية، عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: "أفطر رسول الله صلى الله عليه وآله عشية خميس في مسجد قبا، فقال: هل من شراب؟ فأتاه أوس بن خولي الانصاري بعُسّ مخيض بعسل. فلما وضعه على فيه نحاه، ثم قال: شرابان يكتفى بأحدهما من صاحبه، لا أشربه ولا أحرمه، ولكن أتواضع لله. فإن من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله، ومن إقتصد في معيشته رزقه الله، ومن بذر حرمه الله، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله". (١)

ونقرأ في رواية أخرى تحريضاً على بساطة الملابس تواضعاً لله، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: "من ترك زينة الله، ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله وابتغاء وجهه، كان حقاً على الله أن يكسوه من عبقرى الجنة في تخات الياقوت". (٢)

ج- ومن التواضع إنتخاب المجلس دون شرف المجلس، والسلام على الناس، وترك المراء حتى ولو كان محقاً. وحسب المرء من التواضع أن يعرف قدره، وأن يعطي الناس ما يحب أن يُعطى مثله.
وبمثل هذا وردت أحاديث؛ عن أبي الحسن عليه السلام قال: "التواضع أن تعطي الناس ما تحب أن تُعطاه".

وفي حديث آخر قال: "قلت: ما حدّ التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً؟ فقال: التواضع درجات منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم، لا يحب أن يأتي الى أحد إلاّ مثل ما يؤتي إليه إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ، عاف عن الناس، والله يحب المحسنين". (٣)

(١) اصول الكافي، ج٢، ص١٢٢، ح٣.
(٢) ميزان الحكمة، ج١٠، ص٥٠٤، ح٢١٥٤٤.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٢، ص١٣٥، ح٣٦.

وروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: "ان من التواضع أن يرضى الرجل بالمجلس دون المجلس، وأن يسلم على من يلقي، وأن يترك المرء وأن كان محقاً، ولا يحب أن يحمد على التقوى".
(١)

ثانياً: التواضع؛ شرف وصدق وعبادة
كيف تتصل قيمة التواضع بكلمة الصدق التي هي شرف المؤمن، ومن أفضل العبادة؟

١/ ليس من التواضع أن يهين الإنسان نفسه، لأن الله سبحانه لم يسمح للمؤمن أن يذل نفسه. أوليس الله قد أغناه بعبادته عن عبادة خلقه، وأكرمه بالسجود له دون السجود لما سواه، فكيف يرضى له بالتذلل لأحد غيره سبحانه؟

وقد أمر ربنا سبحانه بالكفر بالطاغوت ولم يأمر بالتواضع له، لأن ذلك أساساً ليس تواضعاً، بل ضعة وهواناً. أولم يقل ربنا سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لِأَنَّفْسَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٥٦)

وهكذا لا يجتمع الكفر بالطاغوت مع الخضوع له والتذلل لسلطانه، وورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: "أيما مؤمن خضع لصاحب سلطان أو من يخالطه على دينه طلباً لما في يديه من دنياه، أخمله الله ومقته عليه ووكله إليه، فإن هو غلب على شيء من دنياه وصار في يده منه شيء نزع الله البركة منه، ولم يأجره على شيء ينفعه في حج ولا عمرة ولا عتق". (٢)

(١) المصدر، ج ٧٣، ص ٦، ح ١٩.

(٢) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٥٠٦، ح ٢١٥٥١.

٢/ ولم يرض ربنا سبحانه بالتواضع للأغنياء، لأنه هوان وصغار. قال الله سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص/٧٩)

إن الله قص علينا قصة قارون، الذي إغتر البعض بمظاهر زينته، وتمنوا أن يكون لهم مثلاً كان له، فلما خسف به وبداره الأرض، أصبحوا يقولون: ويكأنه لا يفلح الظالمون. والعبرة فيها ضرورة تجنب الاغترار باصحاب الثروة.

وقد جاء في الحديث عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أتى ذا ميسرة فتخشع له طلب ما في يديه، ذهب ثلثا دينه. ثم قال: ولا تعجل وليس يكون الرجل ينال من الرجل المرفق فيجله ويوقره فقد يجب ذلك له عليه، ولكن تراه أنه يريد بتخشعه ما عند الله، أو يريد أن يخلته عما في يديه". (١)

بل إعتبر الدين من الخلق الحسن تيه الفقراء على الأغنياء. لنستمع الى الرواية المأثورة عن الإمام علي عليه السلام، حيث قال: "ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء إتكالاً على الله". (٢)

بل التواضع حقاً هو الذي يصدر من الإحساس بالرفعة، كما أن العفو هو الذي يصدر من المقتدر. هكذا نقرأ في النص التالي عن الرسول صلى الله عليه وآله: "أفضل الناس من تواضع عن رفعة". (٣)

وهكذا ينبغي أن يقرن التواضع بالإحساس بالشخصية. إقرأ الرواية التالية عن الرسول صلى الله عليه وآله، إذ قال: "طوبى لمن تواضع لله تعالى في غير منقصة، وأذل نفسه في غير مسكنة". (٤)

(١) المصدر، ص ٥٠٥، ح ٢١٥٤٨.

(٢) المصدر، ص ٥٠٦، ح ٢١٥٥٢.

(٣) المصدر، ص ٥٠٤، ح ٢١٥٤١.

(٤) المصدر، ص ٥٠٥، ح ٢١٥٤٥.

وقد إستلهمنا من آية كريمة سبق القول فيها، أن التواضع المطلوب وخفض الجناح هو الذي يكون من الرحمة. والرحمة هي إحسان وعطاء وتفضل، وليس خضوعاً واستجداءً. وبتعبير آخر؛ الرحمة هي ميراث الشرف الذي يحس به الإنسان، وهو - بدوره - ميراث الصدق.

ثالثاً: لمن التواضع؟

السؤال؛ من يتواضع لمن؟ إنما يتواضع الكبير للصغير؛ النبي لأمتة، والوالد لولده، وعند حاجة الوالدين الى الرحمة بعد كبر سنهما فالولد يخفض جناحه لهما، وهكذا..

والمؤمنون يتواضعون لبعضهم، لأن كل واحد منهم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته، وكل واحد منهم مستوصى بالآخرين، لكي لا يستكبر الغني منهم على الفقير، والقوي منهم على الضعيف، والحاكم منهم على المحكوم.

بلى؛ عندما يتواضع المؤمن لربه، فانه يتواضع عن ذلة وعبودية. ولكن تجلي هذه الصفة ستكون في علاقة المؤمنين مع بعضهم، أو علاقة المؤمن بالناس الذين هم خلق الله.

١/ وهكذا أمر الله النبي صلى الله عليه وآله أن يخفض جناحه للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر/٨٨)

ونستوحي البصائر التالية من هذه الآية الكريمة:

ألف: النهي عن نظر الطمع الى ما مَتَّعَ اللهُ الناسَ بها.

باء: إن القرآن نزل حسب بعض النصوص على لغة إياك اعني واسمعي يا جارة. فالخطاب ظاهراً موجه الى الرسول، ولكنه يعني كل من يتولى موقعه من الدعاة الى الله والقادة. وقد جاء في الحديث عما يخص العلماء عن

الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: تواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم. (١)

وجاء في حديث مفصل كيف كان قادتنا يتواضعون للناس، إقرء وتأمل الحديث التالي عن الإمام العسكري عليه السلام: أعرّف الناس بحقوق إخوانه وأشدهم قضاء لها أعظمهم عند الله شأنًا، ومن تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصديقين، ومن شيعه علي بن أبي طالب عليه السلام حقًا. ولقد ورد على أمير المؤمنين أخوان له مؤمنان: أب وابن، فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين يديهما، ثم أمر بطعام فأحضر فأكلا معه، ثم جاء قنبر بطست وإبريق خشب ومنديل لبيبيس، وجاء ليصبّ على يد الرجل، فوثب أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الإبريق ليصبّ على يد الرجل فتمرّغ الرجل في التراب، وقال: يا أمير المؤمنين الله يراني وأنت تصبّ على يدي؟ قال: أقعد واغسل فإنّ الله عزّ وجلّ يراك وأخوك الذي لا يتميّز منك ولا يتفضّل عليك يخدمك، يريد بذلك في خدمته في الجنة، مثل عشرة أضعاف عدد أهل الدنيا، وعلى حسب ذلك في مماليكه فيها.

فقعد الرجل، فقال له الإمام علي عليه السلام: أقسمت عليك بعظم حقّي الذي عرفته وبجلّته وتواضعك لله حتى جازاك عنه، بأن ندبني لما شرفك به من خدمتي لك، لما غسلت مطمئنًا كما كنت تغسل لو كان الصابّ عليك قنبر. ففعل الرجل ذلك، فلما فرغ ناول الإبريق محمد بن الحنفية، وقال: يا بنيّ لو كان هذا الإبن حضرني دون أبيه لصببت على يده، ولكنّ الله عزّ وجلّ يأبى أن يسوى بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان، لكن قد صبّ الأب على الأب، فليصبّ الإبن على الإبن. فصبّ محمد بن الحنفية على الإبن. ثمّ قال الإمام الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام: فمن اتّبع علياً عليه السلام على ذلك فهو الشيعي حقًا". (٢)

(١) ميزان الحكمة، ج٦، ص٤٨٦، ح١٣٥٨٤.

(٢) ميزان الحكمة، ج١٠، ص٥٠١-٥٠٢، ح٢١٥٣٢.

جيم: يبدو أن من حقائق خفض الجناح، التشاور مع الناس، والعفو عن أخطائهم، ولعل هذا الأخير هو المراد من قوله سبحانه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر/٨٨)

٢/ قال الله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران/١٥٩)

٣/ وقال الله سبحانه: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء/٢١٥)

وقد ورد في تفسير هذه الآية عن الامام الصادق عليه السلام: وقد أمر الله عز وجل أعز خلقه وسيد بريته محمداً صلى الله عليه وآله بالتواضع، فقال عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والتواضع مزرعة الخشوع والخضوع والخشية والحياء، وإنهن لا يأتين إلا منها وفيها، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلا للتواضع في ذات الله تعالى. (١)

رابعاً: فوائد التواضع

وفي الأحاديث الشريفة تبيان لفوائد التواضع، نبين بعضاً منها:
قال الامام علي عليه السلام: "ثمره التواضع المحبة، ثمرة الكبر المسببة".

(٢)

وقال عليه السلام: "التواضع يكسبك السلامة". (٣)

وقال عليه السلام: "التواضع يكسوك المهابة". (٤)

وقال عليه السلام: "من تواضع قلبه لله، لم يسأم بدنه من طاعة الله". (٥)

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٢١، ح ١٢.
(٢) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٥٠٨، ح ٢١٥٦٠.
(٣) المصدر، ح ٢١٥٦١.
(٤) المصدر، ح ٢١٥٦٢.
(٥) المصدر، ح ٢١٥٦٣.

وقال عليه السلام: "بخفض الجناح تنتظم الأمور". (١)

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: "إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار، لأن الله جعل التواضع آلة العقل، وجعل التكبر من آلة الجهل...". (٢)

وقال الإمام علي عليه السلام: "بالتواضع تتمّ النعمة". (٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إن التواضع يزيد صاحبه رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله". (٤)

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: "إن الله لم يرفع المتواضعين بقدر تواضعهم، ولكن رفعهم بقدر عظمتهم ومجده". (٥)

وقال الإمام علي عليه السلام: "ما من أحد من ولد آدم إلا وناصيته بيد ملك، فإن تكبر جذبته بناصيته إلى الأرض وقال له: تواضع، وضعك الله! وإن تواضع جذبته بناصيته، ثم قال له: إرفع رأسك، رفعك الله، ولا وضعك بتواضعك الله". (٦)

النصح في القول والعمل

-
- (١) المصدر، ح ٢١٥٦٤.
(٢) المصدر، ح ٢١٥٦٦.
(٣) المصدر، ح ٢١٥٦٧.
(٤) المصدر، ص ٥٠٩، ح ٢١٥٧٢.
(٥) المصدر، ح ٢١٥٧٨.
(٦) المصدر، ح ٢١٥٨١.

ما هي النصيحة، وما هي مصاديقها وحقائقها، وكيف تتصل بحقيقة الايمان، وما هي مسؤولية الناصح ومسؤولية من ينصحه؟
أبرز حقائق النصيحة في الكتاب اثنتان؛ الأولى: ابلاغ رسالات الله بأمانة. الثانية: الاخلاص لله وللرسول في القول والفعل.
وإذا كانت الحقيقة الأولى للنصيحة تأتي من قبل رسل الله، فإن الحقيقة الثانية تعتبر بمثابة استجابة لها من قبل المؤمنين الصادقين.
وتتسع كلمة النصيحة لتشمل الصدق في ابلاغ الخبر، لاسيما عندما يكون الخبر غير مريح لمن يبلغ، كما إذا انذره بخطر قريب، أو أهدى إليه عيبه ونصحه بالاجتناب منه. كما تشمل النصيحة الصدق في التعامل مع الاصدقاء واستفراغ الجهد لتحقيق أهدافهم في غيبتهم، وهي المناصحة.
وهكذا نتابع الحديث عن النصيحة باذن الله.

حقائق النصيحة

١/ كان النبي موسى سلام الله عليه في باكورة نهضته ضد آل فرعون، وكان قد قتل منهم رجلاً ظالماً، وكانت المؤامرة تحاك ضده في أروقة الظالمين ليأخذوه ويقتلوه، وكان في تلك الأروقة مؤمن يتحسس الأنباء لموسى عليه السلام، وكانت المسافة بين موقعه ومنزل النبي موسى طويلة، وكان اخبار النبي موسى بالمؤامرة خطراً على الرجل، ولكنه كان يرفع الخطر عن موسى عليه السلام.

كما كان صعباً على النبي موسى عليه السلام أن يستجيب لنصيحة الرجل ويهيم على وجهه في الصحراء، ولكنه فعل.

هذه هي أبرز حقائق النصيحة في الحياة الدنيا، لأنها تحتوي على عناصر مثيرة، مثل تسلل المؤمن الى أجهزة العدو، ووجود ثورة إلهية، ثم إحاطة الخطر بالقائد، ثم هجرة القائد من البلد لكي لا يجهز على نهضته في المهدي.

تعالوا نتدبر في الآية الكريمة: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْأُمْلَاءَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾
(القصص/٢٠)

ونستوحي من الآية حقائق النصيحة التي نجدها أيضاً في النصوص التالية.
٢/ وقد يكون الناصح كاذباً، والنصيحة خديعة، ولكنها تتلبس بذات مواصفات النصيحة الصادقة التي سبق الحديث عنها، كالتى نجدها عند ابلis عندما دل بغرور أبانا آدم عليه السلام وزوجته على شجرة زعم أنها تثمر الخلد وملك لا يُبلى.. وحلف لهما يميناً أنه من الناصحين.

لقد لبس كذبه بكل عناصر النصيحة، حيث زعم أنه يدلها إلى ما هو خير لهما؛ أي الدلالة إلى ما يضمن لهما الخلد والملك (شهوة البقاء وشهوة الامتلاك)، وإستخدام الإحساس بالشرف والذي كان عند أبينا آدم عليه السلام (بصفته الانسان السوي)، وحيث أنه عليه السلام كان صادقاً وكان مستغرباً عنده أن يحلف أحد بالله كاذباً، إلى درجة كذبه في مقام النصح. قال الله سبحانه: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾
(الاعراف/١٩-٢١)

٣/ ويتجلى صدق الانسان في كلمته، وفي عمله. والصدق هو أداء حق الناس تماماً، وحق الناس في الكلمة ألا يقول لهم إلا الحق.
وحقهم في الفعل بذل ما في الوسع من جهد لمصلحتهم، كما تفعل الأم الحنون لولدها الرضيع، وكما ينبغي أن يفعله الأخ الكبير لأخيه الضعيف عند غياب والديه عنه. من هنا أخبرت أخت موسى عليه السلام- وقد إنتقطه من اليم آل فرعون، وحرّم الله عليه المراضع - أخبرتهم أنها تعرف أهل بيت يكفلونه وهم له ناصحون، وكانت تعني أهل بيت موسى.

بلى؛ وأي انسان أشد عطفاً على الرضيع من والديه؟ قال الله سبحانه: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص/١٢)

ويخالف النصيحة للرسول الاعتذار عن الحرب بين يديه بالكذب، بينما إذا كان صادقاً في القعود عن القتال كان عليه ان يخلص في سائر مسؤولياته، فيؤيد المجاهدين بالمال وبالكلمة الطيبة وما أشبهه.

وفي الأحاديث المروية عن النبي وأهل بيته عليه وعليهم السلام ما تأمر بالنصيحة العملية لخمس جهات، حيث جاء في الرواية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: "من يضمن لي خمساً أضمن له الجنة. قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: النصيحة لله عزّ وجلّ، والنصيحة لرسوله، والنصيحة لكتاب الله، والنصيحة لدين الله، والنصيحة لجماعة المسلمين. (١) وهذه هي النصيحة في العمل بالوفاء التام بكل الحقوق المفروضة لهذه الجهات، الله ورسوله وكتابه ودينه وجماعة المسلمين، إذ لا معنى لتقديم النصح في القول لكتاب الله مثلاً.

ومن مصاديق النصيحة العملية ما نقرئه في الحديث التالي، الذي روي عن العالم (الإمام موسى الكاظم) عليه السلام في كلام طويل: ثلاث لا يغفل عنها قلب امرئ مسلم؛ اخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم. وقال: حقّ المؤمن على المؤمن أن يمحصه النصيحة في المشهد والمغيب، كنصيحته لنفسه. وروي؛ من مشى في حاجة أخيه فلم يناصره كان كمن حارب الله ورسوله. (٢)

٤/ وكانت هذه هي مسؤولية إخوة النبي يوسف تجاه أخيهم يوسف عليه السلام، عندما استأمنه عندهم أبوهم يعقوب عليه السلام، ولكنهم خانوا الأمانة، حيث إن الأخ يجب أن يبذل قصارى جهده للمحافظة على أخيه الصغير عند

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٦٥، باب ٤٣، ح ١.

(٢) المصدر، ص ٦٦، ح ٥.

غياب والديه، ولكنهم لم يفعلوا فاستحقوا العتاب. قال الله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ (يوسف/ ١١)

وهكذا نستفيد معاني النصيحة الفعلية من هاتين الآيتين؛ فهي المزيد من الاهتمام في الحفظ، وفي أداء الخدمة المناسبة باخلاص من دون غش أو غل أو تهاون.

٥/ ومن هذه النصيحة العملية تلك التي أمرنا بها تلقاء الله والأنبياء والأئمة، حيث قال الله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة/ ٩١)

ويجعل الإمام الصادق عليه السلام المناصحة للمؤمن من الواجبات، حيث يقول: "يجب للمؤمن على المؤمن أن يناصره". (١)

٦/ والنصيحة القولية هي من أسمى الفرائض التي قام بها رسل الله، حيث أبلغوا رسالات ربهم باخلاص. قال الله سبحانه: ﴿أَبْلُغُوا رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُوا لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الاعراف/ ٦٢)

وهكذا كان نوح النبي عليه السلام مثلاً في تقديم النصح لقومه، إذ دعاهم إلى الله ربهم ونبذ الشركاء من دونه لعلهم يفلحون.

٧/ ولكن الناس لا يحبون - عادة - الناصحين، لانهم يدعونهم إلى اصلاح ما زين لهم من عقائد فاسدة وفواحش اعتادوا على ارتكابها. يقول ربنا تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الاعراف/ ٧٩)

ونستوحي من الآية بصيرتين:

أ- إن النصح وابلغ الناس كلمة الحق واجب صعب مستصعب، لأن الناس يرفضون عادة ذلك ويرجمون الناصحين بالتهمة وينابذونهم بالعداء، كما

(١) الكافي، ج ٢، ص ٢٠٨، ح ١.

فعلت الأمم برسلى الله. ومنهم ثمود، حيث تحدوا النبي صالح عليه السلام وهموا به، فأخذهم الله بعذاب بئس.

ب- إن على الانسان أن يستجيب للناصح قبل أن يقع في ورطة ما يندره منها، فاذا أنذرك الطبيب عن مغبة التمادي في عمل، وقال لك: إنك سوف تفقد صحتك، فلم تقبل منه، وقعت في مهلكة المرض.. أليس كذلك؟
وقد أمرت النصوص الشرعية بالنصيحة، وأمرت بقبولها. تعالوا نستمع الى بعضها:

روي عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سمعت (الإمام) الصادق عليه السلام يقول: "من رأى أخاه على أمر يكرهه فلم يرده عنه، وهو يقدر عليه، فقد خانته. ومن لم يجتنب مصادقة الأحمق، أو شك أن يتخلق بأخلاقه". (١)
وهكذا اعتبرت الرواية الكف عن نصيحة الأخ الايماني خيانة به.
وعن أبي جعفر الثاني (الإمام محمد الجواد) عليه السلام قال: "المؤمن يحتاج الى خصال؛

توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه". (٢)
وعن أبي الحسن الثالث (الإمام علي الهادي) عليه السلام أنه قال لبعض مواليه: "عاتب فلاناً وقل له: إن الله إذا أراد بعبد خيراً إذا عوتب قبل". (٣)
٨/ إنما الاستجابة للناصح توفيق كبير، وإنما بالاستعانة بالله سبحانه يسمو البشر الى درجة قبول النصح. ألا تقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (هود/٣٤)

فإنه سبحانه هو الذي يهدي عباده، ومن يريد الله أن يضلّه فلن تجد له ولياً مرشداً. ومن هنا فعلينا أن نسأل الله توفيق قبول النصح.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٦٥، ح ٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٦٥، ح ٣.

(٣) المصدر، ح ٤.

٩/ وللنصيحة بالكلمة حدّ، وحدّها ردّ النصيحة من قبل المستنصح. فلا ينبغي أن يَحْزَنَ الناصح، لأنه قد قام بواجبه. قال الله سبحانه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الاعراف/٩٣)

وهكذا نجد النبي شعيب عليه السلام يترك قومه الكافرين ويتولى عنهم دون أن يحزن عليهم، لأنهم كفروا بنعمة النصيحة، وكفروا بالله. فهم وليس الناصح يتحملون مسؤولية كفرهم.

وهذه البصيرة مهمة جداً عند ابلاغ الرسالة والدعوة الى الخير، لأنها تتصل بسنة الابتلاء. وإن الأنبياء ومن يتبعهم لا يريدون إكراه الناس على الهدى، وإنما إتمام الحجة. وإن على الانسان أن يختار طريق الحق بحرية تامة، لينال كرامة الله سبحانه.

١٠/ وعلى الناصح أن يكون أميناً، فلا يدخل مصالحه وحمياته وذاتياته في الحقائق التي يبلغها للناس. وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام الذين اختارهم الله لرسالاته وعصمهم من الخطايا والزلل. فقال ربنا سبحانه (على لسان النبي هود عليه السلام): ﴿أَبْلَغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الاعراف/٦٨)

وهكذا أضاف ربنا كلمة الأمين الى كلمة الناصح لكي نعرف مدى صدق الأنبياء عليهم السلام، ومدى خلوص نصائحهم من أية شائبة؛ من هوى ذاتي، أو حمية قومية، أو جهل، أو جهالة. حاشا لله أن يبعث رسلاً تلك صفاتهم، وهم عليهم السلام قد قالوا بكل وضوح أنهم لا يريدون من الناس أجراً. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان/٥٧) وهكذا ينبغي أن يكون الناصح، حيث جاء في الحديث عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: "من استشار أخاه فلم يحضه محض الرأي سلبه الله عزّ وجلّ رأيه". (١)

(١) الكافي، ج ٢، ص ٣٦٣، ح ٥٠.

وجاء في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: "محض أخاك بالنصيحة؛ حسنة كانت أو قبيحة، وساعده على كل حال، وزل معه حيثما زال، ولا تطلبين منه المجازاة فأنها من شيم الدناة". (١)

فقه الآيات

متى تجب النصيحة في القول والفعل، ومتى تكون مندوبة، ومتى لا ينبغي الاسترسال فيها؟

الف: في النصيحة القولية فروع..

١/ إذا دخلت النصيحة القولية في دائرة الدعوة الى الحق، مثل ابلاغ رسالات الله سبحانه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كانت واجبة. كذلك إذا استلزم تركها ضياع قيمة من قيم الدين، نعلم من الشرع يقيناً أن الله لا يرضى بضياعها. مثلاً؛ إذا أدى التهاون في نصيحة شخص الى قتله، أو انتهاك عرضه، أو وقوعه في ضرر كبير، أو أدى ترك النصيحة الى انهيار حركة رسالية ونهضة دينية، أو أدى الى غلبة الطغاة على المسلمين، أو ما أشبه.. فانها تكون واجبة حتى ولو استوجبت بذل جهد بالغ، كما فعل مؤمن آل فرعون حيث سعى الى النبي موسى عليه السلام من أقصى المدينة، ونصحه بمغادرة البلاد وأخبره بالمؤامرة على قتله.

٢/ وإذا كانت النصيحة تؤدي الى توفر مصلحة الإخوان، ليست مصلحة ضرورية؛ كما إذا نصحت أخاك بشراء منزل ينفعه، أو الدخول في صفقة يستفيد منها، أو ترك عادة يتضرر منها ضرراً ليس ببالغ.. في كل هذه الحالات تبدو النصيحة مستحبة.

(١) مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٤٣٠-٤٣١، ح ٤.

كما أن الأمر بالمستحب مستحب، وكذلك النهي عن المكروه مندوب شرعاً، حسبما ذكر في الفقه.

٣/ وقد تصبح النصيحة غير مطلوبة، كما إذا تمادى الكفار بعد ابلاغهم الرسالة في كفرهم، فإن مسؤولية الرسل ومن هم على نهجهم تنتهي عند هذا الحد. وقد رأينا كيف أن الأنبياء عليهم السلام تولّوا عن الأمم الكافرة بعد أن تمادت في الغواية.

باء/ أما النصيحة العملية؛ أي أداء حقوق الناس إليهم إذا احتملها المؤمن، وعدم بخسهم أشياءهم، فإنها واجبة إذا كان تركها يعد خيانة وتضييعاً لحقوق الناس وظلماً لهم. وذلك مثل أن تتعهد ببناء بيت لأحد ثم لا تناصحه في توفير المواد الإنشائية الضرورية. ومعيار وجوب المناصحة هنا، ما يكون تركه سبباً للظلم أو الخيانة.

أما إذا لم يكن كذلك فالمناصحة مستحبة، كما إذا تعهدت بالبناء فبذلت جهداً كافياً لتنفيذ ما توافققت مع صاحب المال، ولكن كان بإمكانك أن تبذل المزيد من الجهد حتى يصبح البناء ممتازاً، فإن هذه هي المناصحة التي لا تبدو واجبة، ولكنها تدخل في دائرة حقوق الاخوان على بعضهم، والتي يلتزم بها المؤمن إحساناً وتفضلاً. والله المستعان.

في رحاب الأحاديث

في أحاديث أهل البيت عليهم السلام آداب رفيعة في النصيحة، نستعرض جانباً منها:

ألف/ الحث على المشي بين الخلق بالنصيحة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إن أعظم الناس منزلة عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه. (١)

(١) الكافي، ج٢، ص٢٠٨، ح٥.

وروي عن سفيان ابن عيينة قال: سمعت أبا عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام يقول: "عليكم بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعمل أفضل منه". (١)

وقال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: "النصح ثمرة المحبة". (٢)

وقال الإمام الصادق عليه السلام: "المؤمن أخو المؤمن، يحقّ عليه النصيحة". (٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "ثلاثة رفع الله عنهم العذاب يوم القيامة؛ الراضي بقضاء الله، والناصح للمسلمين، والدال على الخير". (٤)

باء/ وبيّنت النصوص أن المبالغة في تقديم النصح قد تسبب في إثارة التهمة.

قال الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: "كثرة النصح تدعو الى التهمة". (٥)

جيم/ كما وأمرت النصوص بقبول النصح.

قال الإمام الصادق عليه السلام: "أحبّ إخواني إليّ، من أهدى إليّ عيوبي". (٦)

(١) المصدر، ح ٦.
(٢) مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٤٢٩، ح ٢.
(٣) المصدر، ص ٤٣٠، ح ٣.
(٤) مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٤٣١، ح ٦.
(٥) بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٦٦، ح ٧.
(٦) مستدرك الوسائل، ج ٨، ص ٣٢٩، ح ٣.

صفوة الفضائل

وصفوة الفضائل التي ينبغي للانسان المؤمن أن يتحلى بها، نجدها في كلمة جامعة لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، في وصفه للمتقين. وهنا نأتي على ذكرها لتكون مسك ختام كتابنا هذا، وهي خير سبيل للوصول إلى قمة الفضائل، التي هي زينة الانسان.

فقد روي أن صاحب لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همام، كان رجلاً عابداً، فقال له: يا أمير المؤمنين؛ صف لي المتقين كأنى أنظر إليهم. فنتأقل عن جوابه، ثم قال عليه السلام: يا همام؛ اتق الله وأحسن فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾. لم يقنع همام بذلك القول، حتى عزم عليه. فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله، ثم قال عليه السلام:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ، أَمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنََّّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعِهِ. فَفَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ. فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ؛ مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ، كَأَلَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ. وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ.

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ. فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ. وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ.

قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَافِيَةٌ،
وَأَنْفُسُهُمْ عَافِيَةٌ.

صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعَقَبَتْهُمْ رَاحَةٌ طَوِيلَةٌ، تِجَارَةٌ مَرِيحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ
رَبُّهُمْ.

أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا وَلَمْ يُرِيدُواهَا، وَأَسْرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.
أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَفْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحْزَنُونَ
بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَنْبِرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ. فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا
طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبَ أَعْيُنِهِمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ
فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْعَوْا إِلَيْهَا مَسَامِحَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي
أُصُولِ آدَانِهِمْ، فَهُمْ حَائِنُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجَبَاهِهِمْ وَأَكْفِهِمْ،
وَأَطْرَافِ أَفْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءَ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءَ، قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بِرِي الْقِدَاحِ،
يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ: قَدْ
خُولِطُوا! وَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ!

لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ
مُتَّهَمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ.

إِذَا زَكِيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي،
وَرَبِّي أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا
يَطُنُّونَ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عِلْمَةٍ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْمًا فِي لَيْنٍ، وَإِيمَانًا فِي
يَقِينٍ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَقَصْدًا فِي غِنَى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ،
وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ، وَطَلَبًا فِي حَلَالٍ، وَنَسَاطًا فِي هُدَى،
وَتَحَرُّجًا عَنِ طَمَعٍ.

يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ، يُمَسِّي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ
وَهَمُّهُ الذُّكْرُ. يَبِيتُ حَذِرًا، وَيُصْبِحُ فَرِحًا؛ حَذِرًا لَمَّا حُذِرَ مِنَ الْعَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا

أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنْ اسْتَصَعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكَرَّرَهُ لَمْ يُعْطِهَا
سُؤْلَهَا فِيمَا نُحِبُّ.

فُرَّةٌ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ
بِالْعَمَلِ.

تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلُّهُ، خَائِشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً
أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينَهُ، مَيِّبَةً سَهْوَتُهُ، مَكْطُوماً غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ
مَأْمُونٌ. إِنْ كَانَ فِي الْعَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ
مِنَ الْعَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ.

بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً
شَرُّهُ. فِي الزَّلَّالِ زَلٌّ وَفُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شُكُورٌ. لَا يَحِيفُ
عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْتِمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ. لَا
يُضَيِّعُ مَا اسْتَحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ،
وَلَا يَشْتَمُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ.

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَعْمَهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ
حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ.

نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتَعَبَ نَفْسَهُ لِأَخْرَجَتْهُ، وَأَرَاخَ
النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِيْنٌ
وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبَرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ.

قال: فصعق همّام رحمه الله صعقةً كانت نفسه فيها.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أما والله لقد كنت أخافها عليه.

ثم قال: هكذا تصنع المواقظ البالغة بأهلها.

فقال له قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين؟

فقال عليه السلام: ويحك؛ إنّ لكلّ أجلٍ وقتاً لا يعُدُّه، وسبباً لا يتجاوزُه.

فمهلاً، لا تعدّ لمثلها، فإنما نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ! (١)

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٣.

المصادر

- ١- القرآن الكريم
- ٢- تفسير نور الثقلين للحويزي
- ٣- تفسير الصافي للفيض الكاشاني
- ٤- تفسير مجمع البيان للطبرسي
- ٥- تفسير من هدى القرآن للمؤلف
- ٦- تفسير الميزان للطباطبائي
- ٧- تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
- ٨- نهج البلاغة
- ٩- وسائل الشيعة للحر العاملي
- ١٠- مستدرك الوسائل للميرزا حسين النوري
- ١١- تحف العقول لابن شعبة الحراني
- ١٢- بحار الأنوار للمجلسي
- ١٣- التوحيد للصدوق
- ١٤- ميزان الحكمة للري شهري
- ١٥- الكافي للكليني
- ١٦- المحاسن للبرقي
- ١٧- غوالي اللئالي
- ١٨- الحياة للحكيمة
- ١٩- مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي
- ٢٠- العروة الوثقى للسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي
- ٢١- مستمسك العروة للمرجع محسن الحكيم
- ٢٢- موسوعة الفقه للمرجع السيد محمد الشيرازي
- ٢٣- شرائع الإسلام للمحقق الحلي
- ٢٤- فقه الإمام الصادق عليه السلام للشيخ محمد جواد مغنية
- ٢٥- جواهر الكلام للشيخ محمد حسن النجفي

- ٢٦- الفقه الإسلامي للمؤلف
 ٢٧- المكاسب للشيخ الأنصاري
 ٢٨- دراسات في المكاسب المحرمة للفقيه المنتظري
 ٢٩- إيصال الطالب إلى المكاسب للمرجع السيد محمد الشيرازي
 ٣٠- مفاتيح الشرائع للشيخ محمد رضا المشتهد بأفضل
 ٣١- مهذب الأحكام للفقيه السبزواري
 ٣٢- الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي
 ٣٣- الربا فقهيًا واقتصاديًا لحسن محمد تقي الجواهري
 ٣٤- أصول الفقه للمظفر
 ٣٥- المستصفى من علم الأصول لأبي حامد محمد ابن محمد الغزالي
 ٣٦- الموافقات للشاطبي
 ٣٧- المغرب في ترتيب المعرب للمطرزي
 ٣٨- التشريع الإسلامي للمؤلف
 ٣٩- الوسيط للدكتور عبد الرزاق السنهوري
 ٤٠- مبادئ القانون للدكتور همام محمد محمود والدكتور محمد حسين

منصور

- ٤١- الموسوعة الجنائية لجندي عبد الملك
 ٤٢- حقوق تعهدات للدكتور أميري قائم مقامي (باللغة الفارسية)
 ٤٣- حقوق مدني للدكتور السيد حسن إمامي (باللغة الفارسية)
 ٤٤- حقوق مدني للدكتور ناصر كاتوزيان (باللغة الفارسية)
 ٤٥- حقوق جزائي اختصاصي لمحمد صالح وليدي (باللغة الفارسية)
 ٤٦- حياة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام لباقر شريف القرشي
 ٤٧- مقتل المقدم
 ٤٨- التحقيق في كلمات القرآن الكريم لحسن المصطفوي
 ٤٩- مجمل اللغة لإبن فارس
 ٥٠- المعجم المفهرس لالفاظ نهج البلاغة

الفهرس

٣	المقدمة
٦	تمهيد
١٥	الباب الأول: المسؤولية سمة الإنسان
١٧	الفصل الأول: الإنسان إنه المسؤول
١٧	لا للجبر.. لا للتفويض
١٧	أولاً: لا جبر ولا تفويض
١٨	ثانياً: بين العقل والهوى
١٩	ثالثاً: لا إكراه في الدين
٢٢	فقه الآيات
٢٢	١/ الحرية مسؤولية الأمة
٢٣	٢/ ركائز الدفاع عن الحرية
٢٤	٣/ الاستباق الى الخيرات
٢٦	المسؤولية الشخصية
٢٦	سد المعاذير
٣٠	فقه الآيات
٣٠	ألف/ آفاق المسؤولية
٣٣	باء/ أحكام المسؤولية
٣٧	الملكية
٤٣	فقه الآيات
٤٧	تطبيقات خارجية لحكمة المال
٥٠	الولاية الإلهية
٥٠	أولاً: معنى الولاية
٥١	ثانياً: الله المولى الحق
٥٣	ثالثاً: ولاية أولياء الله

٥٤	رابعاً: ولاية المؤمنين
٥٥	خامساً: آفاق الولاية الإلهية
٥٧	سادساً: أولوا الأرحام ولاية فطرية
٥٧	فقه الآيات
٥٧	أولاً: ضوابط الولاية الفطرية
٦٠	ثانياً: أسس الولاية الإلهية
٦٥	ثالثاً: حوافز الولاية الإلهية
٦٧	رابعاً: الركائز الاجتماعية للولاية
٦٨	خامساً: تطبيقات الولاية الفطرية
٧٠	الفصل الثاني: على خطى الأنبياء (ع)
٧٠	الإجتباء
٧٠	شروط الإجتباء
٧٢	فقه الآيات
٧٢	أولاً: الإجتباء هدف المؤمنين
٧٣	ثانياً: علامات الإجتباء
٧٥	ثالثاً: بين الإجتباء والتوبة
٧٧	إتباع الأنبياء
٧٧	أولاً: ماذا، ومن ذا نتبع؟
٨٠	ثانياً: قيم الإلتباع
٨٢	ثالثاً: مكاسب الإلتباع
٨٤	رابعاً: موانع الإلتباع
٨٥	خامساً: عقبى إلتباع المبطلين
٨٦	فقه الآيات
٨٦	أولاً: الإحسان نظام الإلتباع
٨٧	ثانياً: فقه التقليد
٩٠	ثالثاً: فقه الإلتناء
٩١	رابعاً: معالم الإلتناء

٩٤	الناسي برسول الله (ص)
٩٦	فقه الآيات
١٠٢	في رحاب الأحاديث
١٠٣	حب أولياء الله
١٠٥	فقه الآيات
١٠٥	أولاً: حب أهل البيت
١٠٨	ثانياً: حب الأولياء
١١٠	الفصل الثالث: السبيل القويم
١١٠	البينة
١١٤	فقه الآيات
١١٤	ألف: البينة في السياسية
١١٥	باء: البينة في الإجتماع
١١٥	جيم: البينة في المكسب
١١٦	دال: البينة في السلوك
١١٦	هاء: البينة في الكلام
١١٧	بقية الله
١١٨	فقه الآيات
١٢١	السبيل القويم
١٢١	أولاً: الله يهدي السبيل
١٢٢	ثانياً: سبيل السلام
١٢٣	ثالثاً: عبادة الله واتباع رسول الله
١٢٥	رابعاً: معرفة الناكبين عن الصراط
١٢٧	بصائر الآيات
١٢٧	فقه الآيات
١٢٩	النصرة للرسول والمؤمنين
١٢٩	أولاً: نصره الله والرسول
١٣١	ثانياً: نصره المؤمنين

١٣١	فقه الآيات
١٣٥	الباب الثاني: الصدق شرف الإنسان
١٣٧	آفاق الصدق في القرآن
١٣٧	ألف: حقائق الصدق
١٣٩	باء: الصدق في الحياة
١٤١	جيم: بين الصدق والايمن
١٤٢	دال: شواهد الصدق
١٤٤	في رحاب الأحاديث
١٤٦	الفصل الأول: كلمة الصدق والوفاء بالعقود
١٤٦	كلمة الصدق والوفاء بالعقود
١٤٦	تمهيد
١٤٨	القسم الأول: بصائر الوحي في العقود
١٤٨	أولاً: الصدق والقسط واجتناب الظلم
١٥٢	ثانياً: بصائر الوحي في العقود
١٥٣	ثالثاً: حدود الله في العقود
١٥٣	ألف: مظهر العقد
١٥٥	باء: جوهر العقد
١٥٦	أ- حرمة الربا
١٥٧	ب- أهلية المتعاقدين
١٥٨	ج- شروط البضاعة
١٥٩	د- شروط متفرقة
١٥٩	تأملات في آيات العقود
١٦٠	ألف: التجارة عن تراض
١٦١	حقائق عن التراض
١٦١	أولاً: عقد العزم
١٦٣	ثانياً: توافق الإرادتين
١٦٦	ثالثاً: الباعث وأثره في العقد

١٦٨	باء: الوفاء بالعقود
١٦٨	أولاً: الوفاء
١٦٩	ثانياً: العقد
١٧٠	الألف واللام في كلمة العقود
١٧٠	دلالة الآية
١٧١	القسم الثاني: عن المكاسب المحرمة
١٧١	أولاً: القواعد العامة
١٧٤	ثانياً: حديث تحف العقول
١٧٤	ألف: الولاية
١٧٥	تأملات في الحديث
١٧٩	باء: تفسير التجارات
١٨٠	تأملات في الحديث
١٨٦	جيم: تفسير الإجازات
١٨٧	تأملات في الحديث
١٨٧	دال: تفسير الصناعات
١٨٨	تأملات في الحديث
١٨٩	ثالثاً: الربا في الشريعة
١٨٩	دور المال في المجتمع
١٩٠	لمواجهة الفساد المالي
١٩٣	من أجل الإصلاح المالي
١٩٤	الربا في القرآن
١٩٧	الربا في الحديث
١٩٨	تفصيل أحكام الربا
١٩٩	أولاً: ربا الدين
٢٠٦	الربا في بيع الصرف
٢٠٩	ثانياً: ربا المعاوضة (الفضل)
٢١٦	ثالثاً: فوائد البنوك والديون الدولية
٢١٦	١/ تاريخ البنوك الحديثة

٢١٧	٢/ تأثير البنوك الربوية
٢١٨	٣/ الديون الخارجية واستضعاف الشعوب
٢١٩	٤/ شبهات وردود حول الربا
٢٢٤	القسم الثالث: شرائط الصيغة في العقود
٢٢٤	صيغة العقد
٢٢٧	الأصل في الشروط
٢٣٣	عن أحكام المعاطاة
٢٣٦	القسم الرابع: شروط المتعاقدين
٢٣٧	١/ البلوغ
٢٣٨	٢/ المجنون ومن بحكمه
٢٤٠	٣/ المكره
٢٤١	ماهو الإكراه؟
٢٤١	أ- بين الإكراه والإلجاء
٢٤٢	ب- معيار الإكراه
٢٤٢	ج- وسائل الإكراه
٢٤٣	د- الإكراه للحق
٢٤٤	هـ- الحياء أو الشوكة الأدبية
٢٤٥	الرضا بعد الإكراه
٢٤٦	شروط الملكية وعقد الفضولي
٢٤٧	أولاً: حكمة الفضولي
٢٤٧	ثانياً: عقد المتفضل
٢٥٠	مناقشة في الأدلة
٢٥٠	إلتزامات الفضولي
٢٥١	مناقشة الأدلة
٢٥٢	موت الفضولي
٢٥٢	موت رب العمل
٢٥٣	إلتزامات المالك
٢٥٣	ثالثاً: عقد المتطفل

٢٥٣	ألف: تصحيح عقد المتطفل
٢٥٦	باء: أحكام عقد المتطفل
٢٥٩	ضمان المال والمنافع
٢٥٩	أولاً: بين المتفضل والمتطفل
٢٥٩	ثانياً: تصرف طرف الفضولي
٢٦٠	ثالثاً: غرامة الطرف الجاهلي بالفضالة
٢٦١	رابعاً: غرامة الطرف العالم بالفضالة
٢٦٢	خامساً: العقد على ما يملك وما لا يملك معاً
٢٦٢	قاعدة نفي الظلم أو الإثراء بلا سبب
٢٦٣	ألف: مصدر القاعدة
٢٦٤	باء: أركان القاعدة
٢٦٥	جيم: رأي الفقه في القاعدة
٢٦٧	القسم الخامس: عيوب الرضا
٢٦٧	ألف: تجنب الغرر والجهالة
٢٧١	باء: بحث في الخيارات
٢٧١	حقيقة الخيار
٢٧٨	الخيارات المعروفة
٢٨١	كيف يسقط الخيار؟
٢٨٣	الفصل الثاني: العهود والمواثيق
٢٨٣	اليمين
٢٨٣	أولاً: معنى اليمين
٢٨٥	ثانياً: مواقع اليمين
٢٨٧	ثالثاً: حرمة الأيمان الكاذبة
٢٨٩	رابعاً: نكث الأيمان
٢٩١	فقه الآيات
٢٩١	أولاً: معنى اليمين
٢٩٤	ثانياً: متعلق اليمين

٢٩٧	ثالثاً: يمين الاثبات
٣٠٣	الوعد
٣٠٣	الايمان وصدق الوعد
٣٠٥	في رحاب الأحاديث
٣٠٦	الكفالة
٣٠٧	فقه الآيات
٣١٠	في رحاب الأحاديث
٣١١	الباب الثالث: التطلع معراج الإنسان
٣١٣	آفاق التطلع في القرآن
٣١٣	أولاً: الإنسان ذلك الطموح
٣١٤	ألف: الإنسان كائن متميز
٣١٦	باء: التوكل على الله سلم الطموح
٣١٨	جيم: الاقتداء بهدى الأنبياء
٣١٩	ثانياً: التحرر من الاصر والأغلال
٣١٩	ألف: الهوى
٣٢١	باء: الجبوت
٣٢٢	جيم: الطاغوت
٣٢٣	دال: الخوف من الطبيعة
٣٢٥	هاء: الدعوة الى التطلع
٣٢٨	ثالثاً: حقائق التطلع
٣٣٥	الفصل الأول: الإنسان فوق الفروق
٣٣٥	الكرامة
٣٣٥	ألف: ما هي الكرامة؟
٣٣٦	باء: الإنسان ذلك الكريم
٣٣٩	فقه الآيات
٣٤٠	في رحاب الأحاديث
٣٤١	وحدة البشر في أصل الخلقة

٣٤٣	فقه الآيات
٣٤٤	لا للعنصرية.. لا للطبقية
٣٤٤	أولاً: كرامة البشر وحكمة التنوع
٣٤٧	ثانياً: نبذ التمييز العنصري
٣٤٩	ثالثاً: نبذ التمييز الإقليمي
٣٤٩	ألف: الأرض لله
٣٥٠	باء: الهجرة في الأرض
٣٥١	جيم: السير في الأرض
٣٥١	دال: حرمة إخراج الناس من ديارهم
٣٥١	هاء: التمكين في الأرض
٣٥٢	واو: حرية عباد الله
٣٥٢	زاء: حق الاستقرار والمواطنة
٣٥٣	حاء: إستقبال المهاجرين
٣٥٤	رابعاً: نبذ الحمية الجاهلية
٣٥٦	خامساً: صور من العصبية
٣٥٦	ألف: العصبية الدينية والطائفية
٣٥٨	باء: العصبية القبلية
٣٦٠	جيم: العصبية الحزبية
٣٦١	دال: نبذ الطبقية
٣٦٢	أولاً: في الدين والثقافة
٣٦٦	ثانياً: في الإقتصاد والمجتمع
٣٦٨	ثالثاً: في السياسة والحكم
٣٦٨	هاء: تحدي الإستكبار
٣٧١	التعاون
٣٧١	أولاً: معنى التعاون
٣٧١	ثانياً: حقائق التعاون
٣٧٢	ثالثاً: التناجي
٣٧٢	فقه الآيات
٣٧٣	أولاً: التعاون على البر والتقوى

٣٧٣	ألف: آفاق التعاون
٣٧٣	باء: عقبات التعاون
٣٧٥	جيم: سبل التعاون
٣٧٥	دال: أخلاق التعاون
٣٧٦	هاء: التعاون والتعددية
٣٧٦	ثانياً: التعاون على الإثم والعدوان
٣٧٦	ألف: التعاون على العدوان
٣٧٦	البحث الأول: إغانة العدو الكافر
٣٧٨	البحث الثاني: إغانة الظالم
٣٧٨	أولاً: تولي المناصب للظالم
٣٨١	ثانياً: إغانة الظالم بالسلاح والمؤن
٣٨٢	ثالثاً: إجتناّب الطاغوت
٣٨٤	رابعاً: إغانة المعتدي
٣٨٧	باء: المساعدة على الإثم
٣٨٨	أولاً: بيع المحرمات
٣٩٠	ثانياً: أجارة المنافع المحرمة
٣٩١	ثالثاً: التناجى بالإثم والعدوان ومصية الرسول
٣٩١	ألف: القانون والتوافق على الجريمة
٣٩٢	باء: التوافق على الجريمة عذر الشرع
٣٩٥	في رحاب الأحاديث
٣٩٥	أولاً: عن التعاون على البر والتقوى
٣٩٧	ثانياً: عن التعاون على الإثم والعدوان
٣٩٩	الرحمة والتراحم
٤٠٠	أولاً: حقائق الرحمة
٤٠٢	ثانياً: وسائل الرحمة
٤٠٣	ثالثاً: مواضع الرحمة
٤٠٥	رابعاً: التراحم والتواصي بالرحمة
٤٠٧	فقه الآيات
٤٠٧	أولاً: توصل الصفات

٤٠٧	ثانياً: حقائق الرحمة
٤٠٩	ثالثاً: أحكام الرحمة
٤١٠	الفصل الثاني: المكارم قصب السبق
٤١٠	الإستباق الى الخيرات والمسارة إليها
٤١٠	أولاً: معنى السبق
٤١٠	ثانياً: قيمة السبق
٤١٢	ثالثاً: الاستباق الى الخيرات
٤١٣	بصائر الآيات
٤١٤	فقه الآيات
٤١٧	في رحاب الأحاديث
٤١٨	قيمة الوقت
٤١٨	أولاً: وعي الأجل في الكائنات
٤٢٠	ثانياً: وعي الأجل في الإنسان
٤٢٤	ثالثاً: وعي الوقت في الفرائض
٤٢٨	فقه الآيات
٤٢٨	أولاً: الضجر والكسل
٤٢٩	ثانياً: تنظيم الوقت
٤٣١	ثالثاً: الاهتمام بالسرعة
٤٣٢	رابعاً: تجنب ما يضيع الوقت
٤٣٢	خامساً: أضف الى عمرك ساعة
٤٣٤	الحساب والمراقبة الذاتية
٤٣٤	أولاً: كل شيء بحسبان
٤٣٧	ثانياً: الإنسان ذلك المسؤول
٤٤٠	ثالثاً: الله سريع الحساب
٤٤٣	فقه الآيات
٤٤٣	في رحاب الأحاديث
٤٤٥	التقدير السليم
٤٤٥	أولاً: معنى التقدير

٤٤٥	ثانياً: التقدير سنة إلهية
٤٥٠	ثالثاً: قيمة التقدير
٤٥١	بصائر الآيات
٤٥٢	فقه الآيات
٤٥٤	القسمة العادلة
٤٥٤	أولاً: ما هي القسمة
٤٥٤	ثانياً: القسمة سنة إلهية
٤٥٥	بصائر الآيات
٤٥٦	فقه الآيات
٤٥٧	الفصل الثالث: القوة في خدمة الحق
٤٥٧	القوة والركن الشديد
٤٥٧	أولاً: ما هي القوة؟
٤٥٨	ثانياً: الله شديد القوى
٤٦٠	ثالثاً: ركائز القوة في الدنيا
٤٦١	رابعاً: حقائق القوة
٤٦١	ألف: القوة في التمسك بالدين
٤٦٤	باء: القوة في إقامة القسط
٤٦٤	جيم: القوة للدفاع عن الأمة والدين
٤٦٤	دال: القوة في الحياة
٤٦٤	هاء: بين القوة والحق
٤٦٦	فقه الآيات
٤٦٧	التمكين والملك
٤٦٧	أولاً: ما هو التمكين؟
٤٦٨	ثانياً: أهداف الملك والتمكين
٤٧٠	ثالثاً: السبيل الى الملك والتمكين
٤٧٠	ألف: الطموح
٤٧١	باء: إتباع الاسباب
٤٧٢	جيم: توفير الصلاحية
٤٧٤	دال: الدفاع والجهاد

٤٧٥	فقه الآيات
٤٧٦	في رحاب الأحاديث
٤٧٧	الباب الرابع: الفضائل زينة الإنسان
٤٧٩	لا للخوف.. لا للحزن
٤٧٩	أولاً: معنى الحزن؟
٤٨٠	ثانياً: دواعي الحزن
٤٨٢	ثالثاً: تجنب الحزن على الكفار والمنافقين
٤٨٣	رابعاً: تجاوز الحزن على ما فات
٤٨٦	خامساً: لكي لا تحزن الرسل
٤٨٧	فقه الآيات
٤٩٠	كظم الغيظ عزّ
٤٩٠	في رحاب الأحاديث
٤٩٢	الحلم زين العلم
٤٩٤	بصائر الآيات
٤٩٤	في رحاب الأحاديث
٤٩٨	العفو تاج المكارم
٥٠٠	في رحاب الأحاديث
٥٠٣	التواضع شرف
٥٠٣	أولاً: حقائق التواضع
٥٠٦	ثانياً: التواضع؛ شرف وصدق وعبادة
٥٠٨	ثالثاً: لمن التواضع؟
٥١٠	رابعاً: فوائد التواضع
٥١١	النصح في القول والعمل
٥١١	حقائق النصيحة
٥١٦	فقه الآيات
٥١٧	في رحاب الأحاديث
٥١٩	صفوة الفضائل

٥٢٢

٥٢٤

المصادر

الفهرس